

حَلَقَةُ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ
فِي

تَفْسِيرِ الْأَرْبَعِينَ السَّبْعِينَ



حِكْمَةُ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ

فِي

تَفْسِيرِ الْأَرْبَعِينَ النَّبِيَّةِ

تَأليف

الإمام البصير العجلاني والمجدد الثاني محمد

عبد الله بن حمزة بن سليمان (ع)

(ت ٦١٤ هـ)



مكتبة أهل البيت (ع)

صف وتحقيق وإخراج:



اليمن - صعدة - ت (٥٣١٥٨٠) سيار (٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هجرية - ٢٠٢٢ ميلادية

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطاهرين،

وبعد:

فاستجابة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

ولقول رسول الله ﷺ: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))، ولقوله ﷺ: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى))، ولقوله ﷺ: ((أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء))، ولقوله ﷺ: ((من سرّه أن يحيا حياتي؛ ويموت مماتي؛ ويسكن جنة عدن التي وعدني ربي؛ فليتلو علياً وذريته من بعدي؛ وليتولّ وليه؛ وليقتد بأهل بيتي؛ فإنهم عترتي؛ خلّقوا من طينتي؛ ورزقوا فهمي وعلمي)) الخبر، وقد بين ﷺ بأنهم: علي، وفاطمة، والحسن والحسين وذريتهما عليهما السلام - عندما جلّهم ﷺ بكساءٍ وقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)).

استجابةً لذلك كلّ كان تأسيس مكتبة أهل البيت (ع).

ففي هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؛ التي يتلقّى فيها مذهب أهل البيت (ع) مُثْلًا في الزيدية، أنواع الهجمات الشرسة، رأينا المساهمة في نشر مذهب أهل البيت المطهرين ﷺ عبر نُشْرِ ما خلفه أئمتهم الأطهار ﷺ وشيعتهم الأبرار رضِيَ اللهُ عنهم، وما ذلك إلا لِثِقَتِنَا وقناعتنا بأن العقائد التي حملها أهل البيت ﷺ هي مراد الله تعالى في أرضه، ودينه القويم، وصراطه المستقيم، وهي تُعَبِّرُ عن نفسها عبر موافقتها للفطرة البشرية السليمة، ولما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ.

واستجابةً من أهل البيت ﷺ لأوامر الله تعالى، وشفقة منهم بأمة جدّهم ﷺ، كان منهم تعميّد هذه العقائد وترسيخها بدمائهم الزكية الطاهرة على مرور الأزمان، وفي كلّ مكان، ومن تأمل التاريخ وجدّهم قد ضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عنها وتثبيتها، ثائرين على العقائد الهدّامة، منادين بالتوحيد والعدالة، توحيد الله عز وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى، والإيمان بصدق وعده ووعدته، والرضا بخيرته من خلقه.

ولأن مذهبهم ﷺ دينُ الله تعالى وشرّعه، ومرادُ رسول الله ﷺ وإرثه، فهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما ذلك إلا مصداق قول رسول الله ﷺ: ((إن اللطيف الخبير نبأني أنها لن يفرقا حتى يردا عليّ الحوض)).

قال والدنا الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع): (واعلم أن الله جلّ جلاله لم يرتضٍ لعباده إلا ديناً قويمًا، وصراطاً مستقيماً، وسبيلاً واحداً، وطريقاً قاسطاً، وكفى بقوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٣].

وقد علمت أن دين الله لا يكون تابِعاً للأهواء: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون ٧١]، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس ٣٢]، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى ٢١].

وقد خاطب سيّد رسله ﷺ بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١٣] وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصِرُونَ ﴿١٣٣﴾ [هود]، مع أنه ﷺ ومن معه من أهل بدر، فتدبر واعتبر إن كنت من ذوي الاعتبار، فإذا أحطت علماً بذلك، وعقلت عن الله وعن رسوله ما ألزمتك في تلك المسالك، علمت أنه يتحتم عليك عرفان الحق واتباعه، وموالاته، والكون معهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ومفارقة الباطل واتباعه، ومبايئتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، في آيات تثنى، وأخبار تثنى، ولن تتمكن من معرفة الحق وأهله إلا بالاعتماد على حجج الله الواضحة، وبراهينه البيّنة اللائحة، التي هدى الخلق بها إلى الحق، غير معرج على هوى، ولا ملتفت إلى جدال ولا مرأى، ولا مبال بمذهب، ولا محام عن منصب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] (١).

وقد صدر بحمد الله تعالى عن مكتبة أهل البيت (ع):

١- الشافي، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) ٦١٤هـ، مذيلاً بالتعليق الوافي في تخريج أحاديث الشافي، تأليف السيد العلامة نجم العترة الطاهرة/ الحسن بن الحسين بن محمد ﷺ ١٣٨٨هـ.

٢- مَطْلَعُ الْبُدُورِ وَمَجْمَعُ الْبُحُورِ في تراجم رجال الزيدية، تأليف/ القاضي العلامة المؤرخ شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال ﷺ ١٠٢٩هـ - ١٠٩٢هـ.

٣- مَطَالِيعُ الْأَنْوَارِ وَمَشَارِقُ الشُّمُوسِ وَالْأَقْمَارِ - ديوان الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ع) - ٦١٤هـ.

٤- مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني (ع) ٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ.

٥- محاسن الأزهار في تفصيل مناقب العترة الأطهار، شرح القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ع)، تأليف/ الفقيه العلامة الشهيد حميد بن أحمد المحلي الهمداني الوادعي (رحمته الله) - ٦٥٢هـ.

٦- مجموع السيد حميدان، تأليف/ السيد العالم نور الدين أبي عبدالله حميدان بن يحيى بن حميدان القاسمي الحسني رضي الله تعالى عنه.

٧- السفينة المنجية في مستخلص المرفوع من الأدعية، تأليف/ الإمام أحمد بن هاشم (ع) - ت ١٢٦٩هـ.

٨- لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار وتراجم أولي العلم والأنظار، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٩- مجموع كتب ورسائل الإمام الأعظم أمير المؤمنين زيد بن علي (ع)، تأليف/ الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ٧٥هـ - ١٢٢هـ.

١٠- شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) - ت ٦١٤هـ.

١١- صفوة الاختيار في أصول الفقه، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) - ت ٦١٤هـ.

١٢- المختار من صحيح الأحاديث والآثار من كتب الأئمة الأطهار وشيعتهم الأخيار، لِمُخْتَصِرِهِ/ السيّد العلامة محمد بن يحيى بن الحسين بن محمد حفظه الله تعالى، اختصره من الصحيح المختار للسيد العلامة/ محمد بن حسن العجري (رحمته الله).

١٣- هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين، تأليف/ السيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ع) - ت ٨٢٢هـ.

١٤- الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تأليف/ الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ع) - ٤٢٤هـ.

١٥- المنير - على مذهب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) تأليف/ أحمد بن موسى الطبري (رحمته الله).

١٦- نهاية التنويه في إزهاق التمويه، تأليف السيد الإمام/ الهادي بن إبراهيم الوزير(ع) - ٨٢٢هـ.

١٧- تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبين، تأليف/ الحاكم الجشمي المحسن بن محمد بن كرامة رحمته الله - ٤٩٤هـ.

١٨- عيون المختار من فنون الأشعار والآثار، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

١٩- أخبار فخر وخبر يحيى بن عبدالله (ع) وأخيه إدريس بن عبدالله(ع)، تأليف/ أحمد بن سهل الرازي رحمته الله.

٢٠- الوافد على العالم، تأليف/ الإمام نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي(ع) - ٢٤٦هـ.

٢١- الهجرة والوصية، تأليف/ الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي(ع).

٢٢- الجامعة المهمة في أسانيد كتب الأئمة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٣- المختصر المفيد فيما لا يجوز الإخلال به لكل مكلف من العبيد، تأليف/ القاضي العلامة أحمد بن إسماعيل العلقي رحمته الله ١٢٨٢هـ.

٢٤- خمسون خطبة للجمع والأعياد.

٢٥- رسالة الثبات فيما على البنين والبنات، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ٦١٤هـ.

٢٦- الرسالة الصادقة بالدليل في الرد على صاحب التبديع والتضليل، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٧- إيضاح الدلالة في تحقيق أحكام العدالة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٨- الحجب المنيرة على الأصول الخطيرة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٩- النور الساطع، تأليف/ الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي(ع) ١٣٤٣هـ.

٣٠- سبيل الرشاد إلى معرفة ربّ العباد، تأليف / السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد (ع) ١٠١٠هـ - ١٠٧٩هـ.

٣١- الجواب الكاشف للالتباس عن مسائل الإفريقي إلياس - ويليه / الجواب الراقي على مسائل العراقي، تأليف / السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٢- أصول الدين، تأليف / الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٣٣- الرسالة البديعة المعلنة بفضائل الشيعة، تأليف / القاضي العلامة عبدالله بن زيد العنسي (رحمته الله) - ٦٦٧هـ.

٣٤- العقد الثمين في معرفة رب العالمين، تأليف الأمير الحسين بن بدرالدين محمد بن أحمد (ع) ٦٦٣هـ.

٣٥- الكامل المنير في إثبات ولاية أمير المؤمنين (ع)، تأليف / الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع) ٢٤٦هـ.

٣٦- كتاب التَّحْرِير، تأليف / الإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ع) - ٤٢٤هـ.

٣٧- مجموع فتاوى الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني (ع) ١٣١٩هـ.

٣٨- القول السديد شرح منظومة هداية الرشيد، تأليف / السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٩- قصد السبيل إلى معرفة الجليل، تأليف السيد العلامة / محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٠- نظرات في ملامح المذهب الزيدي وخصائصه، تأليف السيد العلامة / محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤١- معارج المتقين من أدعية سيد المرسلين، جمعه السيد العلامة / محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٢- الاختيارات المؤيَّدة، من فتاوى واختيارات وأقوال وفوائد الإمام الحجة / مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع)، (١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ).

٤٣- من ثمار العلم والحكمة (فتاوى وفوائد)، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبد الله عوض حفظه الله تعالى.

٤٤- التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية، تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٥- المنهج الأقوم في الرفع والضّم والجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وإثبات حيّ على خير العمل في التأذين، وغير ذلك من الفوائد التي بها النفع الأعمّ، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع).

٤٦- الأساس لعقائد الأكياس، تأليف/ الإمام القاسم بن محمد (ع).

٤٧- البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٨- الأحكام في الحلال والحرام، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٤٩- المختار من (كتر الرشاد وزاد المعاد، تأليف/ الإمام عز الدين بن الحسن (ع) ت ٩٠٠هـ).

٥٠- شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل، تأليف/ العلامة الفاضل: علي بن صلاح بن علي بن محمد الطبري.

٥١- الفقه القرآني، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبد الله عوض حفظه الله تعالى.

٥٢- تعليم الحروف إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٣- سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الأول الحروف الهجائية، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٤- سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الجزء الأول الأعداد الحسابية من (١ إلى ١٠)، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٥- تسهيل التسهيل على متن الأجرومية، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٦- أزهار وأثمار من حقائق الحكمة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، تأليف السيد العلامة/ محمد عبد الله عوض حفظه الله تعالى.

٥٧- متن الكافل بنيل السؤل في علم الأصول، تأليف/ العلامة محمد بن يحيى بهران (ت: ٩٥٧هـ).

- ٥٨- الموعظة الحسنة، تأليف/ الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني (ع) - ١٣١٩هـ.
- ٥٩- أسئلة ومواضيع هامة خاصة بالنساء، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦٠- المفاتيح لما استغلق من أبواب البلاغة وقواعد الاستنباط، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦١- سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الثاني الحركات وتركيب الكلمات، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).
- ٦٢- سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الأعداد الحسابية الجزء الثاني، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).
- ٦٣- المركب النفيس إلى أدلة التنزيه والتقديس، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦٤- المناهل الصافية شرح المقدمة الشافية، تأليف/ العلامة لطف الله بن محمد الغياث الظفيري، ت ١٠٣٥هـ.
- ٦٥- الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤل، تأليف/ السيد العلامة أحمد بن محمد لقمان، ت ١٠٣٧هـ.
- ٦٦- الأنوار الهادية لذوي العقول إلى معرفة مقاصد الكافل بنيل السؤل، تأليف/ الفقيه العلامة أحمد بن يحيى حابس الصعدي، ت ١٠٦١هـ.
- ٦٧- مجمع الفوائد المشتمل على بغية الرائد وضالة الناشد، تأليف الإمام الحجّة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.
- ٦٨- كتاب الحجّ والعمرة، تأليف الإمام الحجّة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.
- ٦٩- المسطور في سيرة العالم المشهور، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٧٠- محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٧١- زير من الفوائد القرآنية ونوادر من الفرائد والقلائد الربانية، تأليف السيد العلامة / محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٧٢- المتزج المختار من الغيث المدرار المعروف بشرح الأزهار، تأليف العلامة عبد الله بن مفتاح رحمه الله تعالى.

٧٣- متن غاية السؤل في علم الأصول للسيد العلامة الحسين بن الإمام القاسم بن محمد (ع) ت (١٠٥٠هـ).

٧٤- درر الفرائد من خطب المساجد، تأليف السيد العلامة عبد الله بن صلاح العجري رحمه الله تعالى.

٧٥- الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين، تأليف الفقيه العلامة محمد بن يحيى مداعس ت (١٢٥٢هـ).

٧٦- عدة الأكياس المتزج من شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس، تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمه الله تعالى، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).

٧٧- معيار أغوار الأفهام في الكشف عن مناسبات الأحكام تأليف الفقيه العلامة عبد الله بن محمد النجري (ت: ٨٧٧هـ).

٧٨- البيان الشافي المتزج من البرهان الكافي، تأليف الفقيه العلامة عماد الدين يحيى بن أحمد بن مظفر (ت: ٨٧٥هـ).

٧٩- أثمار الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، تأليف الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى عليهم السلام، (ت: ٩٦٥هـ).

٨٠- المختصر المغيث في علم المواريث، إصدارات مكتبة أهل البيت ع.

٨١- مجموع رسائل الإمام الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ع، (٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ).

٨٢- شرح الأساس الكبير المسمى (شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس لعقائد الأكياس) تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمه الله تعالى، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).

٨٣- حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية، تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ع) (٥٦١هـ - ٦١٤هـ).

وهناك الكثير الطيّب في طريقه للخروج إلى النور إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

ونتقدّم في هذه العجالة بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم في إخراج هذا العمل الجليل إلى النور -وهم كثر- نسأل الله أن يكتب ذلك للجميع في ميزان الحسنات، وأن يجزل لهم الأجر والثوبة.

وختاماً نتشرّف بإهداء هذا العمل المتواضع إلى روح مولانا الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي -سلام الله تعالى عليه ورضوانه- باعث كنوز أهل البيت (ع) ومفاخرهم، وصاحب الفضل في نشر تراث أهل البيت (ع) وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم.

وأدعو الله تعالى بما دعا به (ع) فأقول: اللهم صلّ على محمد وآله، وأتمم علينا نعمتك في الدارين، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين؛ اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، واجعلنا هداة مهتدين؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر]، نرجو الله التوفيق إلى أقوم طريق بفضلله وكرمه، والله أسأل أن يصلح العمل ليكون من السعي المتقبّل، وأن يتداركنا برحمته يوم القيام، وأن يختم لنا ولكافة المؤمنين بحسن الختام، إنه ولي الإجابة، وإليه منتهى الأمل والإصابة، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف].

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

مدير المكتبة/

إبراهيم بن مجد الدين بن محمد المؤيدي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

وبعد؛

فهذا كتاب (حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية) للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام، وهو شرح للأربعين حديثاً المشهورة المعروفة بالسيلقية، جمعها الشريف زيد بن عبدالله بن مسعود بن رفاعه الهاشمي.

وقد شرحها أيضاً الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام بالشرح المسمى (الأنوار المضيئة شرح الأخبار النبوية) في مجلدين كبار، أتى فيه بالعجب العجائب أيضاً، وسلك في تأليفه ما هو معروف من أسلوبه، حيث سلك في شرح كل حديث مسلك التقسيم والتفريع، فبعد أن يسرد نص الحديث يتطرق إلى النظر في أمور:

- ❖ النظر فيما يخص العلوم الأدبية: ويقسمه إلى مبحثين (الألفاظ اللغوية، والعلوم الإعرابية).
- ❖ النظر فيما يخص العلوم البلاغية، ويقسمه إلى مطالب ثلاثة (المعاني - البيان - البديع).
- ❖ النظر فيما يخص مقاصده صلى الله عليه وعلى آله وسلم (وتطرق حسب الحال إلى: توحيد وفقه وزهد وأخلاق وآداب ومعاملات ... الخ).

وعلى الجملة فهو موسوعة احتوت على علوم شتى عظيمة.

وشرح الأربعين السيلقية أيضاً القاضي العلامة محمد بن حمزة بن مظفر رحمه الله (ت ٨٠٨ هـ) بشرح سماه: (منهاج الأبرار في الجمع بين أسرار الحديقة والأنوار) جمع فيه بين شرحي الإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام (الحديقة)، والإمام يحيى بن حمزة عليه السلام (الأنوار)، حيث قال السيد الهادي بن إبراهيم الوزير رضي الله عنه في ذلك:

أَنْظُرْ إِلَى سِرِّ عَظِيمٍ سَارَ فِي أَبْنَاءِ حَمَزِهِ
شَرَحُوا الْحَدِيثَ الْأَرْبَعِينَ وَالْكُلَّ اسْمُ أَبِيهِ حَمَزِهِ
هَذَا ابْنُ حَمَزَةَ يَفْتَى ثُمَّ ابْنُ حَمَزَةَ وَابْنُ حَمَزِهِ

نعم، من خلال كتاب حديقة الحكمة النبوية يتيقن حقيقة ما قاله الشهيد حميد رضي الله عنه في الحدائق الوردية؛ حيث قال عند ذكر مناقب الإمام وأحواله: ... فأخذ في علم الأدب حتى لجّ في أغواره والتقط من درره من قراره، وبرز في ذلك تبريزاً بليغاً، ولقد كان يحفظ من شواهد اللغة ما لم يحفظه أحد من أهل عصره، ... وأخبرني الفقيه العالم جمال الدين عمران بن الحسن بن ناصر أدام الله سعادته عن بعض من له حظ وافر من الحفظ لأشعار القدماء والمحدثين أنه قال: أنا أحفظ قدر مائة ألف بيت، وفلان يحفظ مثلاً - وذكر رجلاً من أهل الأدب - ونحن لا نعدّ حفظنا إلى جنب حفظ الإمام عليه السلام شيئاً، وكان إذا عرض البيت من القصيدة يحتجّ به على لفظة غريبة من الكتاب والسنة أو غيرهما من كلام العرب روى القصيدة أو أكثرها، وربما روى سبب إنشائها ونسب قائلها، وقد يحكي كثيراً من أشعاره إلى غير ذلك من الأحوال المشاهدة له في هذا الباب من السبق. وكان عليه السلام عارفاً بأيام العرب على ضرب من التفصيل. (الحدائق الوردية ط ٢ ج ٢ / ٢٤٢). وقال الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام في وصفه لكتاب حديقة الحكمة ما لفظه: ولقد أتى فيه بالعجب العجيب ولباب الألباب في الإبانة عن مقاصدها والكشف عن أسرارها، وسرّحه هذا دال على أن له في علم الأدب اليد البيضاء وفي علم التواريخ النصيب الأوفى، ... انتهى من (مقدمة كتاب الأنوار المضيئة - مخطوط ص ٥).

وقال الشهيد حميد رضي الله عنه أيضاً: ومن تصانيفه عليه السلام حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية وهو من محاسن الكتب التي فاقت، والتصانيف التي راقّت، مضمناً إيضاح الألفاظ اللغوية بشواهد العربية، وبيان المعاني على نهاية الحسن والتمام، ولقد سمعته عليه السلام يقول: إنه فرغ من تأليف الجزء الثاني منها في سبعة أيام أو ثمانية أيام، وهو في خلال ذلك مشغول بتجهيز العسكر إلى بعض الجهات، ورأيت ذلك الجزء بخطّه عليه السلام الذي هو المسودة، ومن شاهده عجب من ذلك، حتى إنه لا يكاد يوجد فيه سطر مطموس، ولا مزيد إلا النادر الذي لا يؤبه له، وهذا شيء خارج عن المعتاد، هذا مع أن فيه من الألفاظ الرائقة والكلمات الفائقة ما يقلّ مثلاً في مثله.

ثم أورد مختارات من كلام الإمام مستشهداً بها على ذلك. (الحدائق ط ٢ ج ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٧).

مؤلف متن الأربعين السيلقية

أما جامعها فهو أبو الخير زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة الهاشمي ، أو زيد بن رفاعة الهاشمي.

روى عنه الإمام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل الجرجاني المتوفي حوالي سنة ٤٣٠ هـ في كتابه الاعتبار وسلوة العارفين بواسطة أبي حاتم أحمد بن الحسين عنه، وتذكر المصادر أنه كان معاصراً للصاحب إسماعيل بن عباد المتوفي سنة ٣٨٥ هـ).

وقد قيلت فيه الكثير من التهم من قبل المخالفين وحطوا من شأنه كما هو شأنهم في المخالفين لهم ولاعتقاداتهم الباطلة.

قال أبو حيان التوحيدي في (كتاب الإمتاع والمؤانسة ص ١٦٣): كان ذا ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسع في فنون النظم والنثر مع الكتابة البارة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماح للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن، إما بالشدو الموهم أو بالتبصر المفهم،... وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً... الخ كلامه.

له عدة مؤلفات، ذكرت المصادر منها:

جوامع إصلاح المنطق لابن السكيت - مطبوع.

كتاب (صناعة الخط).

كتاب (الأمثال) - مطبوع.

ويعرف في بعض المصادر ب (أبي القاسم زيد بن عبد الله الهاشمي).

توفي بعد سنة ٤٠٠ هجرية.

[مقدمة للإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام]

وقد رأينا هنا إثبات ما أورده الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في مقدمته لكتاب الشافي من ترجمة للإمام (ع) تضمّنت نسبه وبيعته والشارات بقيامه وبعض من كراماته وما قيل فيه ووفاته (ع) نوردها هنا باختصار غير محلّ، وكذلك أسانيده إلى مؤلفات الإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام، قال عليه السلام فيها:

هو الإمام الذي جدّد الله بسيفه وعلمه الدين، وأحيا بقيامه وعزمه سنن المرسلين،
عَلِيمٌ رَسَتْ لِلْعِلْمِ فِي أَرْضِ صَدْرِهِ جِبَالٌ جِبَالُ الْأَرْضِ فِي جَنْبِهَا قَفٌّ

وما أصدق قوله عَلَيْهِ السَّلَام:

وَأَنَا ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبَطَاجِ تَضُمُّنِي كَالدَّرِّ فِي أَصْدَافِ بَحْرِ زَاخِرٍ
يَنْشَقُّ عَنِّي رُكْنُهَا وَحَطِيمُهَا كَالْجَفْنِ يَفْتَحُ عَنْ سَوَادِ النَّاطِرِ
كَجِبَالِهَا شَرَفِي وَمِثْلُ سُهُولِهَا خُلُقِي وَمِثْلُ الْمَرْهَقَاتِ خَوَاطِرِي

فهو الإمام الأعظم، والطود الأشم، والبحر الخضم، والبدر الأتم، الصوّام القوام، مقيم حجة الله على الأنام، ومجدّد أعلام ملّة الإسلام، أمير المؤمنين، المجدّد للدين، المنصور بالله رب العالمين، أبو محمد عبدالله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن الإمام النفس الزكية أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبدالله العالم بن الحسين الحافظ بن القاسم الرسي نجم آل الرسول بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الشبه بن الحسن الرضا بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين وأخي سيد المرسلين علي بن أبي طالب - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

كانت البيعة العامة له عَلَيْهِ السَّلَام يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول عام أربعة وتسعين وخمسة بمدينة صعدة المحروسة بجامع إمام اليمن محيي الفرائض والسنن، أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم - رضوان الله عليهم.

وقد كان اجتمع بمقامه من العلماء خاصّة نحو أربعائة عالم، فناظروه في جميع العلوم حتى أن عالماً منهم سأله عن خمسة آلاف مسألة؛ فأجاب عنها بأحسن جواب، وقد كان الإمام يحاول قيام الأمير الكبير الداعي إلى الله شبيه الحمد شيخ آل محمد شمس الدين يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن

الناصر بن الحسن بن عبدالله بن الإمام المتصر بالله محمد بن الإمام المختار القاسم بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام.

قال مؤلف السيرة المنصورية: بل كل الناس طامعون فيه، وحكى من مراجعة الإمام له قوله: وأنت العمدة والقدوة وكبير أهل البيت الشريف.... إلى آخر كلامه، ومن مخاطبة الإمام له يحثه على القيام، قوله:

يا بن علي بن أبي طالب قم فانصر الحق على الباطل ومنها:

وادعُ فعندي أنها دعوةٌ كاملة في رجل كامل ومن قصيدة له إليه:

سلالة أحمد مولى البرايا وقائدها وهاديهما الرشيد وأعظمها على الأعداء ركناً وأصبرها إذا قرع الحديد

ولما امتلأ الجامع المقدس بالعلماء والفضلاء وأعيان الناس؛ قام الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد خطيباً ومن كلامه: يا جميع المسلمين؛ إننا قد أطلنا خبرة هذا الإمام، وشهدنا بفضلته وأنه أحق الناس بهذا المقام، وقد تعينت علينا وعليكم الفريضة، ولزمت الحجة؛ فهلّموا فبايعوا الإمام، واستبقوا إلى شرف هذا المقام.

ثم تقدّم ومدّ يده الكريمة فبايع الإمام، ثم تقدّم صنوه الأمير بدر الدين شيخ آل الرسول محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى رضي الله عنهم فبايع، ثم تتابع المسلمون على البيعة كافة، ونفذت دعوته إلى الحجاز، وأقيمت الجمع في ينبع وخيبر وكانت الحقوق تصل إليه من تلك الجهات على الاستمرار.

ووصل إليه جماعة من الأشراف للجهاد في سبيل الله، وكانت غوائره تصل إلى نواحي تهامة، واستقام على طاعته كثير من جهاتها، واستولى على مأرب وحريب ونجران بعد أن دوّخ بالحرب أقطارها، وطهر بالسيف أوزارها، واستقر أمره في نواحي مذحج، وصُلِّيت فيها الجُمُع، ووجّه دعائه إلى نواحي جيلان وديلمان، فبايعوا له هنالك، وجرت فيها الأوامر الإمامية على الوجه الذي جرت عليه في اليمن، وانتظم له أمر اليمن ونجران والحجاز وجيلان وديلمان، وكتب دعوته إلى ملك خوارزم على يدي السيد العالم فخر الدين يحيى بن إسماعيل فقرأها ووهب للسيد مالاً

جليلاً، وكان هو وأهل بلدته من المحققين في العدل والتوحيد.

ووردت إلى الإمام عليه السلام كتب الظافر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب سنة إحدى وستمائة، والواصل بها رجل من ولد النفس الزكية عليه السلام فأجابه الإمام عليه السلام بالشعر الذي أوله:

أتهجر معتمداً دارها

...إلى قوله:

إلى حلب حيث صيد الملوك تحب و تكرم زوارها

ودخل صنعاء المرة الثانية، ثم تقدم إلى دمار فانحاز من بها من العجم إلى ذات خولان فقصدهم الإمام بنفسه؛ فأمكنه الله تعالى منهم؛ فأخذ الخيل والسلاح وأعتق الرقاب، وفيه يقول عليه السلام:

وفي دمار تركت الجيش عن كمل خلفي وكفحتها عن دين معبودي
وقام بأمر الإمام أتم القيام الأميران الداعيان إلى الله شيخا آل الرسول: شمس الدين وبدره، يحيى ومحمد ابنا أحمد بن يحيى بن يحيى وأبناؤهما الأعلام، وجعل الإمام إليهما العقد والحل في جميع الولايات الإمامية، وإلى ذلك أشار صارم الدين في البسامة بقوله:

وشيبنا الحمد شيخانا له نصرا وفرقا همماً في الضم للبشر
وقام بنصرته الشريف الرئيس أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسني صاحب الأمر بمكة المشرفة من أبناء الكامل عبدالله بن الحسن، ومن فرائد قصائد الإمام إليه قوله:

دعا ذكر المنازل في مطار أصابتها الغواصي والسواري
..إلى قوله:

أنىخا بالأبباطح وانزلاها وقولا لا سبيل إلى السراري
ومنها:

بني حسن نداء من إمام	يناديكم على نأي المزار
أتاني منكمونباً شفاني	كحلّك للأسير من الأسار
طهارة مكة من كل غاوٍ	ورحض عراسها من كل عارٍ

بعزم الطالبِ أبي عزيز — أبي الفتكات والهمم الكبار
شريفٌ لم تدنسه الدنيا — ولا مـرت له بفناء دار
نشأ للمكرمات فأحرزنها — يدها قبل تلويث الإزار

...إلى آخرها، وهي غراء، وهكذا كلام الإمام إمام الكلام؛ فنشر الله به العدل والإحسان، وأظهر به الأمن والإيمان، وطهر الأرض من الفسوق والطغيان، وتزلزلت بدعوته النبوية، وصوّلت العلوّية؛ أركان بني العباس بالعراق، وملأت رسائله الإمامية قلوبهم خوفاً وفزعاً لما تضمّنته من الوعيد والإرعاد والإبراق، وحسبك أنها لما وصلت قصيدته البائية بغداد أمر الخليفة العباسي بإغلاق بابها ثلاثة أيام لانخلاع قلبه من الرّوع والفرع وعنده ألوف من العساكر العظام، فقامت كلمة الإمام مقام الجيش اللهم^(١) قال عليه السّلام فيها:

فقل لبني العباس هذا زماننا — ومالكُم إلا إلى الحق مهربُ
سنجزيكُم بالإثم براً لأننا — بنو أحمد وهو النبي المقرب

...إلى قوله:

بني عمّنا الأوتار عيب ولحنها — وشارب خرطوم المدامة أعيب
ذرونا نريكُم كيف تشتجر القنا — وكيف يشور النقع والنقع أشهب

...إلى قوله:

أمثلي ينام الليل والخمر تشرب — أمثلي يلذ العيش والعود يضرب
حرام عليّ النوم إلا أقلّله — ووجه المعاصي ظاهر لا يُحجب
غضبتُ لربي حين عَطّل دينه — فهل غاضب مثلي لذي العرش يغضب

...إلى آخرها.

وكفى ما قاله في شأنه عدّوه المطرّفي، وأقوى الشهادات شهادة الضدّ لضدّه في رسالته التي وجهها إلى أحمد الملقب الناصر منها: (وبعد ذلك تحضّبه على الاستعداد لإطفاء نار تأججت في اليمن، أذكى وقودها قائم من بني الحسن، تم إلى أهل اليمن على نصرته، وسارعوا إلى جمعيّته وجماعته، وفيها:

(١) اللهم، كغراب: الجيش العظيم. أفاده في القاموس.

أَمَا بَلَّغْتُكُمْ دَعْوَةَ الْمُتَهَجِّدِ
وإيعاده يوماً يروح ويغتدي
وفيها:

وساعده المقدور حتى جرت له
ونادى أنا ابنُ المصطفى وابنُ عمِّه
أما أحمد جدي وحيدر والدي
بما يشتهي أفلاكها ونجومها
علي أناترب العلا ونديمها
وأني للعلياء حقاً أقيمها

بكلام يستنزل العصم، ويزلزل الشم، أحلى من العسل، وأمضى من البيض والأسل، وقد
بلغت دعوته جيلان وديلمان، وطنجة وأصفهان، فما بعد اجتهاده بالقيام تنتظرون، فكأن والله ما
قد تأمله فيكم يكون:

وتسهل في أكتاف دجلة خيله
ويدخل بغداداً فيقتل أهلها
ثم قال:

لِمُنْشَى الْحَمْدِ ذِي الْمَلَكُوتِ حَمْدِي
رداء الحمد أفضل ما تُرَدِّي

..إلى قوله:

نيام يا بني العباس أنتم
وهذا ثوب إمرتكم تردّي

..إلى قوله:

ينادي يا لثاراتِ بفتح
ويدعوا أين إدريس ويحي
أنسى قتلكم لهم جميعاً
وباخمرى ووقعة يوم مهدي
وعبد الله أين أبي وجدي
معاذ الله لو أفردت وحدي

..إلى قوله:

إماماً هاشمي فاطمي
أشار إلى الخلافة فانتضاها
فصيح لفظه عذب فرات
معيد للنضال لكم ومبدي
ولكن ما يملأها بخلد
يفضّ به صلابة كل صلد

يقود قبائل اليمن اللواتي تزوركُم مكفرة بسر^(١)
كتائبه إليكم ذالفات بأرماح مثقفة وجرّد
تشعشع نور نار بني عليّ ستطفأ ناركم من غير بدّ
...إلى آخرها.

وعند أهل بيت النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ بشارات بقيام الإمام المنصور، منها: ما رواه الهادي إلى الحق في الأحكام عن الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: نحن الموتورون، ونحن طلبة الدم، والنفس الزكية من ولد الحسن، والمنصور من ولد الحسن...الأثر.

ووجدت في رسالة القاضي فخر الدين عبد الله بن زيد العنسي، عن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ مخاطباً لفاطمة عليها السلام: ((فإن من ولدك الهادي والمهدي والمرتضى والمنصور))، انتهى. وقال أبو القاسم محمد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام:

ووديعه عندي لآل محمد أودعتها وجعلت من أمنائها
ثم أشار إلى الوقت الذي قام فيه الإمام، فقال:

وهناك يبدو عزّ آل محمد وقيامها بالنصر في أعدائها

ونقل من قصيدة قديمة ذكر صاحبها صفات الغزّ الذين جاهدتهم الإمام عَلَيْهِ السَّلَام، ومنها:

أهل فسق ولواطٍ ظاهر أهل تعذيب وضرب بالخشب
يتركون الفرض والسنة لا يعرفون الله ليسوا بعرب
ينقلون المال من أرض سبأ نحو مصر ودمشق وحلب
فإذا ما الناس ضاقوا منهم في بسيط الأرض طرّاً والحذب
ظهر القوائم من أرض سبأ يمنيّ السكن شامي النسب
اسمه باسم أبي الطهر النبي ذاك عبدالله كشاف الكرب
يملاً الأرضين عدلاً مثلما ملئت جوراً وهذا قد غلب

ووجد الأمير بدر الدين رضي الله عنه في كتاب له مائة وعشرون سنة إلى وقت الإمام عليه السلام كلاماً في ذكر قيام الإمام وغير ذلك.

وأكرمه الله بكرامات نيرات؛ منها: النور الذي وقع على مدينة شبام حال دخول الإمام عليه السلام حتى ظنه بعضهم ضوء القمر، ثم انكشف أنه آخر شهر.

ومنها: ما روي من الراية الخضراء الرابعة لراياته الثلاث. ومنها: أنه حين دخل صنعاء شوهذ فوقه وفوق عسكره طيور بيض صافّة أجنحتها مخالفة لما يعهد من الطيور.

ومنها: فتحه باب غمدان بشصّة من نشاب، وكان لا يُفْتَحُ بمفتاحه إلا بعلاج شديد، وغير هذه من الكرامات التي رواها الثقات الأثبات؛ منهم: الأمير الناصر للحق حافظ العترة الحسين بن بدر الدين في يتابع النصيحة مع قرب العهد واتفاق العصر، وهي كثيرة مستوفاة في كتب السيرة، ولا ينكر الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه إلا الأشقياء الحسدة المحرومون، ولا غرّو فقد أنكر معجزات جدّهم الجاحدون.

وفي تعبٍ من يحسد الشمس ضوءها ويجهد أن يأتي لها بضرب

وما أحقّهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.. الآية

[النساء: ٥٤].

وخصائص هذا الإمام، وشماله العظام، وفصائله المنيرة الفجاج، وفواضله الوضيئة الديباج، وبلاغته الوهاجة السراج، وعلومه المتلاطمة الأمواج، عالية المنار، واضحة الأنوار، متجلية الشمس والأقمار، وفي سيرته الخاصة به وكتب السيرة العامة الكثير الطيب، والغزير الصيب.

وقد أَوْصَحْتُ المهّمّ من أحوال أئمة العترة وأوليائهم في كتاب التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية - نفع الله بها - على سبيل الاختصار.

وقبضه الله تعالى إلى دار كرامته، ومستقرّ رحمته؛ يوم الخميس لاثني عشر يوماً من المحرم، عام أربعة عشر وستائة، وكان حال الوفاة بالمحلّ العظيم من الصبر، حتى فاضت نفسه الراضية المرضية وهو مُحْتَبٍ بثوبه وعُمُرُهُ اثنان وخمسون عاماً وثمانية أشهر واثنان وعشرون ليلة بكوكبان.

وُسْمِعَ بظفار ليلة وفاته قائل يقول: يا أبا محمد أنتَ القمر الزاهر، وأنتَ الربيع الماطر، وأنتَ الأسد الخادر، وأنتَ البحر الزاخر، أنتَ من القمر نوره وضياؤه، ومن الثمر حسنه وبهاؤه، ومن الأسد بأسه ومضاؤه؛ ثم ورد عليهم الخبر بعد ذلك بموته عَلَيْهِ السَّلَام، روى ذلك الفقيه حسام الدين حميد الشهيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن السلطان الفاضل الحسن بن إسماعيل - رحمه الله - أحد السامعين لذلك، وَقَبِرَ الإمام أولاً بكوكبان، ثم نقل إلى بَكْر، ثم إلى ظفار في السنة الرابعة من وفاته؛ فمشهده فيها مشهور مزور - صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه وروحه وريحانه على روحه الطيبة الزكية وعلى أرواح سَلَفِهِ أهل بيت النبوة الطاهرين، والله أسأل، وبجلاله أتوسّل أن يرزقنا المرافقة لهم في دار المتقين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين رب العالمين.

[بيان ماتضمنه كتاب الشافي من الأسانيد إلى كتب الأمهات]

هذا، وإنه من المعلوم عند أولي الألباب أن من الواجبات المؤكّدة، والمفروضات المشدّدة، حفظ أسانيد العلوم المعتمدة، إذ بها حفظ علوم السنة والكتاب، وحماية معالم الدين عن التغير والذهاب، وذلك من التبليغ والبيان بلا ارتياب، فالتمسك بها تمسك بأقوى الأسباب، وإنّ كتاب الشافي قد اشتمل على الإسناد إلى أجل معتمدات أئمة العترة وغيرهم من علماء الأمة.

فقد تضمّن الإسناد المتصل إلى مجموع الإمام الأعظم زيد بن علي، والأماليات الأربع للإمام المؤيد بالله، والإمام أبي طالب، والخميسية والإثنينية للإمام المرشد بالله - رضوان الله وسلامه عليهم - وكتاب المحيط بالإمامة للعالم الحافظ أبي الحسن علي بن الحسين الزيدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومناقب ابن المغازلي، وتهذيب الحاكم، وأمالى السمان، وتفسير الثعلبي، ومناقب أحمد بن حنبل، وأمّهات كتب العامة الست: موطأ مالك، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، والنسائي، والترمذي، وغير ذلك من المقاصد المهمة، والعلوم الجمة.

وقد وقع بحمد الله تعالى ومنّه الجمع للمختار من طُرُق مؤلّفات آل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَام وسائر علماء الإسلام في لوامع الأنوار، وفي الجامعة المهمة، وفي بحث من التحف الفاطمية - نفع الله بها - وقد تقدّم السؤال من جماعة من أولي العلم - كثر الله عددهم، ويسّر مددهم - ممن يسّر

الله لنا ولهم الاجتماع، والأخذ علينا والسماح في كتاب الشافي وغيره، أن أوصل سندهم بسندي، وأصحح لهم في طرق الرواية معتمدي، وقد منّ الله لنا وله الحمد بأعلى الأسانيد المتصلة، وأقوى الطرق المسلسلة، والله الإمام المنصور بالله عليه السلام حيث يقول:

والله ما بيني وبين محمد إلا امرؤ هاد نماء هادي
كم بين قولي عن أبي عن جده وأبوأي فهو النبي الهادي
وفتي يقول روى لنا أشيخنا ما ذلك الإسناد من إسنادي
ما أحسن النظر الصحيح لمنصف في مقتضى الإصدار والإيراد

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)

[يوسف].

[طريق الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام إلى مؤلفات الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام]

فأقول حامداً لله كما يجب لجلاله على سابغ نواله، وبالع أفضاله، ومصلحاً ومسلماً على سيد
رسله محمد وآله:

يروى المفتقر إلى الله تعالى مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي - أسبل الله عليهم شأبيب
عفوه وغفرانه، وأسبغ عليهم سراويل لطفه ورضوانه - جميع مؤلفات الإمام الأعظم المنصور بالله
عبدالله بن حمزة - سلام الله عليه ورضوانه - التي منها كتاب الشافي، والرسالة الناصحة،
والجوهرة الشفافة جواب الرسالة الطوافة الواصلة من مصر، والكافية جواب مسائل مكة،
وحديقة الحكمة شرح الأربعين السيلقية [هذا الذي بين يديك]، وصفوة الاختيار في أصول
الفقه، والرسالة الهادية، والدرة اليتيمة، والكاشفة للإشكال في الفرق بين الشيع والاعتزال،
والفارقة بين الزيدية والمارقة، والحاكمة بالأدلة العالمة، والتهامية، والعقيدة النبوية في الأصول
الدينية، والرسالة النافعة بالأدلة القاطعة، وتحفة الإخوان، والعقد الثمين في الأئمة الهادين،
والتفسير فرغ عن مجلد في سورة البقرة، والإيضاح، والاختيارات، والفتاوي، والمهذب، والديوان
الشعر، وغير ذلك من مؤلفاته وجميع مروياته ورسائله وأشعاره؛ بطرق بحمد الله كثيرة، وأسانيد

صحيحة غزيرة، أعلاها عن والدي وشيخي شيخ آل محمد وعالمهم وعابدهم العلامة الولي محمد بن منصور بن أحمد المؤيدي - قدس الله أرواحهم، وأعلى درجاتهم - المتوفى يوم الخميس عاشر جمادى الأولى، عام ستين وثلاثمائة وألف سماعاً فيما سمعت منها: كالشافى، والرسالة الناصحة، والحديقة، وما تضمنته المؤلفات المسموعة من كتبه عليه السلام وإجازة عامة فيها وفي غيرها.

وهو يروي جميع ذلك وغيره بطرقه الجامعة، وأسانيده الواسعة التي أعلاها عن شيخه والدنا الإمام المجدد للدين أمير المؤمنين المهدي لدين الله رب العالمين محمد بن القاسم الحسيني الحوثي عليه السلام المتوفى يوم الجمعة من شهر رجب، عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف سماعاً فيما أسمع عليه وإجازة عامة.

وهو يروي ذلك وغيره عن شيخه الإمام الشهير، البحر الغزير، أمير المؤمنين المنصور بالله محمد بن عبدالله الوزير عليه السلام المتوفى عام سبعة وثلاثمائة وألف، وعن شيخه السيد الإمام عالم بني الحسن محمد بن محمد بن عبدالله الكبسي المتوفى في القرن الثالث عشر رضي الله عنه سماعاً فيما أسمعهم عليهما وإجازة عامة.

فأما الإمام محمد بن عبدالله الوزير فيروي ذلك وغيره عن مشائخه الثلاثة الأعلام: السيد عماد الإسلام يحيى بن عبدالله الوزير المتوفى عام خمسين ومائتين وألف، وسيد بني الحسن حافظ الآثار والسنن، أحمد بن زيد الكبسي المتوفى عام أحد وثمانين ومائتين وألف، والسيد الإمام مؤلف أنوار التمام أحمد بن يوسف زيارة المتوفى عام أحد وتسعين ومائتين وألف.

وثلاثتهم يروون ذلك وغيره عن السيد الحافظ الحسين بن يوسف زيارة المتوفى عام أحد وثلاثين ومائتين وألف، عن أبيه العلامة يوسف بن الحسين المتوفى عام تسعة وسبعين ومائة وألف، عن أبيه حافظ العلوم والأسانيد الحسين بن أحمد زيارة المتوفى عام أحد وأربعين ومائة وألف، عن شيخه العلامة عامر بن عبدالله بن عامر الشهيد المتوفى عام عشرة ومائة وألف، عن الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين محمد المتوفى عام أربعة وخمسين وألف، عن أبيه الإمام المجدد للدين أمير المؤمنين المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد المتوفى عام تسعة وعشرين وألف - عليهم السلام.

وأما السيد الإمام محمد بن محمد بن عبدالله الكبسي، وكذا السيد الإمام أحمد بن زيد الكبسي فيرويان ذلك وغيره عن شيخهما نجم العترة الأعلام محمد بن عبد الرب المتوفى عام اثنين وستين ومائتين وألف، عن السيد العلامة إسماعيل بن محمد، عن أبيه العلامة محمد بن زيد، عن أبيه العلامة زيد بن الإمام، عن أبيه الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين إسماعيل المتوفى عام أربعة وثمانين وألف، عن أبيه الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد - عليهم السلام.

وبجميع ما صح لنا من الطرق التي أوضحتها في لوامع الأنوار وغيره تركتها للاختصار وهذه أرفعها وأجمعها.

نعم، والإمام الأجل المنصور بالله عز وجل القاسم بن محمد يروي ذلك وغيره عن مشائخه الثلاثة النجوم الكرام السادة الأعلام، حفاظ شريعة جدتهم سيد الأنام، أمير الدين بن عبدالله الحوثي المتوفى عام تسعة وعشرين وألف، وإبراهيم بن المهدي القاسمي الجحافي المتوفى عام أحد عشر وألف، وصالح بن أحمد بن عبدالله الوزير المتوفى عام أربعة وعشرين وألف، عن شيخهم الإمام الحافظ أحمد بن عبدالله بن أحمد بن صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير المتوفى عام خمسة وثمانين وتسعمائة، عن الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين يحيى شرف الدين المتوفى عام خمسة وستين وتسعمائة، عن السيد الإمام محدث اليمن، حافظ السنن، إبراهيم بن محمد الوزير المتوفى عام أربعة عشر وتسعمائة، عن شيخ العترة ومحدثها ومفسرها ومفتيها السيد الإمام، صالح الإسلام، أبي العطايا عبدالله بن يحيى المتوفى عام ثلاثة وسبعين وثمانمائة، عن أبيه السيد الإمام العابد الزاهد يحيى بن المهدي الزيدي نسباً ومذهباً، عن السيد الإمام الواثق بالله المطهر المتوفى عام اثنين وثمانمائة، عن أبيه الإمام المهدي لدين الله أمير المؤمنين محمد المتوفى عام تسعة وعشرين وسبعمائة، عن أبيه الإمام المظلل بالغمام أمير المؤمنين المتوكل على الله المطهر بن يحيى المتوفى عام سبعة وتسعين وستمائة - عليهم السلام، عن الشيخ العالم المذاكر محمد بن أحمد بن أبي الرجال المتوفى عام ثلاثين وسبعمائة - رضي الله عنه، عن الإمام الشهيد أمير المؤمنين المهدي لدين الله أحمد بن الحسين المتوفى شهيداً عام ستة وخمسين وستمائة، عن الشيخ العالم الحافظ أحمد بن محمد بن

القاسم الأكوع المتوفى في عشر الأربعين وستمائة تقريباً، عن الإمام الأعظم أمير المؤمنين المنصور بالله عبدالله بن حمزة - عليهم السلام.

وأروي جميع ذلك بالسند السابق إلى الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين، عن الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين محمد بن علي السراجي الوشلي المتوفى عام عشرة وتسعمائة، عن الإمام المؤتمن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين عز الدين بن الحسن بن الإمام علي بن المؤيد المتوفى عام تسعمائة، عن الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي المتوفى عام تسعة وسبعين وثمانائة، عن الإمام أمير المؤمنين المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى المتوفى عام أربعين وثمانائة، عن أخيه السيد الإمام الهادي بن يحيى عليهم السّلام المتوفى عام خمسة وثمانين وسبعمائة، عن الشيخ العالم القاسم، عن أبيه الشيخ الأعلام الأوحّد أحمد المتوفى عام أحد وسبعمائة، عن أبيه الشيخ الإمام ترجان الشريعة الشهيد السعيد حميد بن أحمد المحلي الهمداني الوادعي المتوفى شهيداً عام اثنين وخمسين وستمائة - رضوان الله عليهم أجمعين - عن الإمام الأعظم مقيم حجة الرحمن المنصور بالله عبدالله بن حمزة بن سليمان - عليهم السلام والرضوان.

نعم، فنروي بهاتين الطريقتين العاليتين جميع مؤلفات الإمام عليه السّلام ومروياته، وأروي عن كل من اتصل به هذا السند الشريف فيهما من بدايته إلى نهايته جميع ما له من تأليف ورواية عن كل واحد من رجاله بالسند المتصل به، صحّ ذلك بحمد الله ومنه عن تحقيق ودراية، والله ولي التوفيق والهداية في البداية والنهاية.

وحرر يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر، عام خمسة وسبعين وثلثمائة وألف بمدينة صعدة المحروسة بجوار والدنا إمام اليمن محيي الفرائض والسنن الهادي إلى الحق القويم يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه، وصلوات الله وسلامه على محمد وآله -

محمد بن محمد بن محمد بن منصور المؤيدي

غفر الله لهم وللمؤمنين

النسخ المعتمدة

- تمت بحمد الله تعالى مقابلة الكتاب بعد صفه على نسخة مخطوطة كان الفراغ من نسختها في شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هجرية، كانت ضمن مكتبة الشهيد الكبسي تم اعتمادها كأصل.
 - وكذلك على النسخة المنتشرة في المكتبات المصورة على المخطوطة، المؤرخ فراغ نسختها شهر صفر سنة ١٠٨٢ هجرية ورمز لها بالنسخة (أ).
 - ثم على نسخة ثالثة كان تمام الفراغ من نسختها شهر محرم سنة ٧١٤ هجرية.
- هذا ونسخ الكتاب الخطية كثيرة منتشرة في المكتبات العامة والخاصة، حيث ذكر الأستاذ عبد السلام الوجيه في كتابه أعلام المؤلفين الزيدية أن منه خمس نسخ خطية بأرقام ٦٤ - ٦٧ (حديث)، ورقم ٢١٠ (مجاميع) المكتبة الغربية، سادسة بمكتبة الأمبروزيانا رقم ٧٤، ويوجد في عشرات المكتبات الخاصة، ا.هـ.

ملاحظات:

- ١- الآيات القرآنية كتبت برواية قالون عن نافع، وعلى حسب الرواية تم ترقيم الآيات، فلذلك يلاحظ اختلاف أرقام الآيات عن المصحف المتداول برواية حفص.
- ٢- الملاحظ أن الإمام اعتمد اعتماداً كلياً على حافظته، ولم يرجع لأي مصدر للنقل، وسيلاحظه القارئ واضحاً في الشواهد الشعرية والتراجم والقصص والأقوال المأثورة.
- ٣- إذا أطلق في الحاشية كلمة (القاموس) بدون أي إضافة فهو القاموس المحيط.
- ٤- إذا ذكر في الحواشي (تمت ضياء) المنقول من النسخة (أ) فالمقصود به الكتاب اللغوي (ضياء الحلوم المختصر من شمس العلوم) لمحمد بن نشوان الحميري.

قسم التحقيق - مكتبة أهل البيت (ع)

تقديم الإمام عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وأعن يا كريم^(١).

قال الإمام المنصور بالله عز وجل أمير المؤمنين أبو محمد عبد الله بن حمزة بن سليمان أدام الله سعاده:

الحمد لله ذي العزة القاهرة، والآلاء الغامرة، والنعم الباطنة والظاهرة، المختص بصفات الكمال، ذي العظمة والجلال، والمن والإفضال، المتعالي عن الأنداد والأمثال، رافع السماء بغير عمد، ومرسي الأرض بشوامخ الأطواد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عارِفٍ معترف، لا منكرٍ ولا منحرف، يرجح بها ميزانها، ويشهد بها ديوانها، وأشهد أن محمدًا - صلى الله عليه وآله - عبده ورسوله، وأمينه وصفيه، المبعوث بجوامع الكلم، وبدائع الحكم، قد بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وعَبَدَ الله حتى أتاه اليقين، فصلَّى الله عليه وعلى آله، وعليهم رحمة الله وبركاته، وأشهد أن الإمام بعده بلا فصل أخوه وابن عمه، ووارث علمه، وقاضي دينه، وعيبة سرِّه، وفارج الكرب عن وجهه، وأوَّل من قال لا إله إلا الله معه، حسام دولته القاضب، ونجم أُمته الثاقب، ذو المفآخر والمناقب، علي ابن أبي طالب عليه سلام الله ورضوانه، وأشهد أن الإمامة بعده في ولديه النجيين الطاهرين الحسينيين، ریحانتي الرسول، وسبطي البتول، الماجدين السידین الطیّین المؤیّدين، الحسن والحسين ابني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسيدي شباب أهل الجنة عليهما سلام باري البرية، وعلى أمّهما الطاهرة المرضية^(٢)، وأشهد أن الإمامة بعدهما فيمن طاب وزكا، من ذريتهما المتسبين بأبائهم إليهما، البالغين الأخيار، المستجيبين الأحرار، العلماء الأبرار، المبائنين للفجار، الرافعين للأسرار، أهل السخاء والمروّة، والعزائم القوية، والآلات السوية، والهمم السنية، والسياسة المرضية، أهل العفّة والوقار، والإيراد والإصدار، عليهم سلام الله ورضوانه ورحمته وغفرانه.

(١) في (أ): وبه أتوكل وأستعين.

(٢) في (أ): وعلى أمهما الرضية، والأصل مبتور الأول، والمثبت من بقية النسخ.

وبعد ذلك: فقد سألني بعض من تلزمني عهدة إجابته، ويتعين عليّ فرضُ مساعدته، من أفاضل الإخوان المرشدين، الهادين بحمد الله المهتدين، أن أشرح للمسترشدين معاني الأحاديث الأربعين النبوية السيلقية، بإيضاح ألفاظها اللغوية، وإفصاح فوائدها المعنوية، لتتفتح أكبادهم، وتتضح أحكامهم، وتنتشر أعلامهم، فأجبتهم إلى ذلك جواب النجيد المجهود إلى اللّهام^(١) المعقود، ولكن لا تخلف للمغير، فمددْتُ كفَّ الإمكان، إلى منتهى الإحسان، بعد الاستعانة بذِي الإعانة، والاستكانة لذي المكانة، وإلَّا فمن أين؟! وأتَّى؟! وكيف؟! ومتى يروم المجتهد الإحاطة بجميع معانيها؟! بل الضليع المتجرد البلوغ إلى أدنى أدانيها، فضلاً عن أقصى أفاصيها، ولم لا وهي مأخوذة في الحُكْم عن العليم الحكيم، الذي لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل نفادها، وانحصرت أجزاء أعدداده قبل انحصار أجزاء أعدادها، وهو عزّ من قائل يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء] فكيف يتصدى ذو معرفة؛ وينطق ذو شفه؛ للإحاطة بكنه غرائبها، والإتيان بمعاني عجائبها، ولقد بسطنا بعد الانقباض، وبردنا بعد الارتهاض^(٢) قول الحكيم سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنسأل الله سبحانه التوفيق لما يوافق مراده، ويكبت أضداده، وقد قمنا في ذلك قيام من تخرج من ردّ السائل، ومنع النائل، مائلين إلى الاختصار، متنكبين طريقة الإكثار، وأوردنا الأخبار مجردة عن الأسانيد لكون ذلك بحمد الله موجوداً في نسخ سباعنا، وكتب أصحابنا، وإنما نذكر راوي الحديث عن لفظ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى سمعه أو إلى سمع من أسمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك كذلك، وطرفاً من نسبه، وإشارة إلى بعض حاله؛ ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ أهل هذا الشأن كانوا عيوناً قادة، عدولاً سادة، سمعوا وحفظوا، وأدّوا ما سمعوا كما سمعوا، فجزاهم الله عنّا خيراً وعن كافة المسلمين، وجعل نصيبهم الأوفى وقْدَحهم المُمَعَّلَى، ووسمنا كتابنا هذا بـ (حديقة الحكمة) ونرجو أن يكون اسمه بتوفيق الله سبحانه مشتقاً من معناه، لا علماً يتميز به عن سواه.

(١) النجيد: الشجاع، والمجهود: هو الذي كربه الأمر إلى اللّهام، واللّهام: العسكر الكامل، هامش (أ).

(٢) الرَّمَضُ، محرّكة: شِدَّةٌ وَقَعَ الشَّمْسُ عَلَى الرَّمْلِ وَغَيْرِهِ. رَمَضَ يَوْمُنَا، كَفَرَخَ: اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَرَمَضَتْ قَدَمُهُ: اخْتَرَقَتْ مِنَ الرَّمْضَاءِ، وَالرَّمْضَاءُ لِلْأَرْضِ الشَّدِيدَةِ الْحَرَارَةِ (القاموس المحيط: ٦٤٤).

الحديث الأول

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ^(٢)، وهو غلامٌ من الأنصار، هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ومن حديثه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ لما وصل المدينة قال: ((انْعَوَالِي غُلَامًا يَخْدُمُنِي)) فجاءت به أمُّه أو جدُّته (الشك من جهتي) إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ فكانه أبا حمزة بشجرة تكون في المدينة يسمى بها الرجل حمزة، كما يقال سلمة وطلحة وعوسجة، قال أنس: فخدمتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ نحوًا من عشر سنين ما قال لي في شيء فعلته: لم فعلته؟ ولا في شيء تركته: لم تركته؟ في حق نفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَنِي أَوْ يَنْهَانِي فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَاقَتِهِ الْجَذْعَاءِ فَقَالَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَشِيعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَائِثَهُمْ، كَأَنَّا مُحِلِّدُونَ بَعْدَهُمْ، نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ^(٣) النَّاسِ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالًا اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَجَالَسَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ، وَخَالَطَ أَهْلَ الدَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّتْ نَفْسُهُ، وَحَسَنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَوَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ^(٤))).

- (١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري قال حدثنا أبي قال حدثني أبو سلمة موسى بن إسماعيل المقرئ قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت بن أسلم البناني عن أنس بن مالك... الحديث.
- (٢) سكن البصرة ومات سنة إحدى وتسعين من الهجرة، وسيأتي له مزيد ذكر في بداية شرح الحديث التاسع.
- (٣) في الأصل و(أ): عَيْبَ، وكررها خلال الشرح، والمثبت من بقية النسخ، ومن نسخ خطية للأربعين.
- (٤) رواه البيهقي في شعب الإبان (١٣/١٤٢) برقم (١٠٧٩) والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٥٨) برقم (٦١٤) وفي مسند البزار (١٢/٣٤٨) برقم (٦٢٣٧) وفي حليه الأولياء لأبي نعيم (٣/٢٠٣).

الخطبة: هي الكلام المصَّرع المسجوع، يقوم بها الرَّجُل في المِجَاع، وسُميت خطبة لِعِظَمِ حَالِهَا، ومن ذلك سُمِّي الخطب خطباً، ويقول قائل أهل اللغة: ما خطبُك، أي ما أمرك وشأنك، استعظماً لما جاء به، ومن ذلك خطبة النِّكاح لِعِظَمِ شأنه عندهم.

عَلَى نَاقِيهِ الْجَدْعَاءِ: سَمِعْنَاهُ بِالذَّالِ مَعْجَمَةٌ مَمْدُودًا، وَلَا أُدْرِى مِنْ أَى شَيْءٍ أَخَذَ، وَلَعَلَّهُ عَلِمَ لَهَا، وَمِمَّا كَانَ يَدَاوِمُ رُكُوبَهُ الْقَصَوَاءَ وَالْعُضْبَاءَ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ الْخُطْبَةَ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ أَوْ ظَهَرٍ رَاحِلَةٍ، وَلَمْ يَغْيِرْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَخَذَ الْمُنْبَرَ وَخَطَبَ مِنْ ظَهَرِ الرَّاحِلَةِ، وَكَذَلِكَ الْأُئِمَّةُ بَعْدَهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقُدُودَةُ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ.

أَيُّهَا النَّاسُ خطابٌ عامٌّ، وَ(كَأَنَّ) حَرْفُ تَشْبِيهِ، وَلَهُ أَخَوَاتُ تَنْصِبُ الْأَسْمَاءَ وَتَرْفَعُ الْأَخْبَارَ، وَالْمَوْتُ مَعْنَى يَضَادُ الْحَيَاةَ عَلَى خِلَافٍ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالظَّاهِرُ مَعَ مَنْ أَثْبَتَهُ مَعْنَى، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] فَأُثْبِتَ أَنَّ تَمَّ مَخْلُوقًا، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَعْنَى.

قوله عليه السلام: (فِيهَا) يَرِيدُ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ، وَمِثْلُهُ فِي كَلَامِ الْفَصَحَاءِ وَفِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يَرِيدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ، فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ.

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى: فَلَمَّا كَانَ الْمَوْتُ مِنْ أَهَمِّ مَا أُخْطِرَ بِالْبَالِ، فَأَشْعَلَ نَارَ الْبَلْبَالِ^(١)، وَأَعْظَمَ حَادِثٍ نَزَلَ بِقَطْعِ الْأَجَالِ، فَضَاعَفَ الْأَوْجَالَ^(٢)، فَهُوَ كَمَا تَرَى عَظِيمَ الْخَطَرِ، وَالنَّازِلَ الْمَعْلُومَ النَّزُولَ إِذَا عَظُمَ خَطَرُهُ لَمْ يَغْفُلْ أَهْلُ الْعُقُولِ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لِنَزْوَلِهِ، وَالتَّأَهُبِ لِحُلُولِهِ، فَلَمَّا عَايَنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ حَالَ النَّاسِ وَقَلَّةَ تَأَهُبِهِمُ لِلْمَوْتِ الَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَغْفُلَ عَنْهُ؛ جَمَعَ نَفْسَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ مَعَ أُمَّتِهِ فِي الذِّكْرِ وَإِنْ كَانَ بِخِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْثَرَ الْخَلْقِ وَجَلًّا، وَأَحْسَنَهُمْ قَوْلًا وَعَمَلًا، فَخَلَطَ نَفْسَهُ فِي الضَّمِيرِ لِسَعَةِ أَخْلَاقِهِ،

(١) الْبَلْبَالُ: شِدَّةُ أَهْمٍ وَالْوَسْوَاسُ فِي الصُّدُورِ وَحَدِيثُ النَّفْسِ، (لسان العرب ١١ / ٦٩).

(٢) الْأَوْجَالُ جَمْعُ وَجَلٍ، وَهُوَ الْفَرْغُ وَالْخَوْفُ، وَجَلٌ يَوْجَلُ وَيَجْلُ، فَهُوَ وَجَلٌ، (النهاية ٥ / ١٥٧).

ولطف دعائه، وحسن تأديبه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ**، لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِلَّةَ الاستعداد لتزوله صار كأنَّ النازل به الموت سوانا، والمعنيَّ به غيرنا، وأصل الكتاب إلزام الشيء الشيءَ وشدُّه فيه، حتى سمي الخَرَّازُ كاتباً، وكذلك الكاتب لجمعه بين الحروف، وسُميت الكتيبةُ كتيبةً من اجتماع بعضها إلى بعض، وكتابته علينا الجمع بينه وبيننا بتزوله، ويحتمل أن يراد بذلك كتابته في اللوح المحفوظ، فما يكتب فيه إلا الواقع لا محالة؛ لكونه من قِبَلِ عَلامِ الغيوب، فيُكتب فيه: يموت فلان بن فلان في وقت كذا وكذا، في بلد كذا وكذا، على حال كذا وكذا، وبسبب كذا وكذا، فلا يغادر من ذلك شيئاً، فيكون ذلك لُطفًا للملائكة عليهم السلام ولن علم به من المكلفين.

قوله عليه السلام: وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ.

الحقُّ في أصل اللغة هو القطع الظاهر. **والواجب** هو الواقع، ومنه قولهم وجبت الشمس، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا - أَي سَقَطَتْ ووقعت - فَكُلُّوا مِنْهَا﴾ [الحج: ٣٤]، والحق هاهنا هو جميع ما فرض الله تعالى على عباده من فعلٍ أو تركٍ، والأفعال والتروك تنقسم، ولا وجه للتطويل بذكرها هاهنا، وهو وإن كان النفل حقاً فقد خص رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ الواجب منه بقوله: وَجَبَ، إذ النفل لا يجب في عرف الشريعة المشرفة، فهذا في تمييز الألفاظ.

فأما **الْمُعْنَى**: فلما كان من وجب عليه حقٌّ تأهَّب لتأديته وشمَّر في أمره، وكنا فيما وجب علينا في حكم الغافلين شبهةً حالنا عَلَيْهِ السَّلَامُ بحال من لم يجب عليه واجب، وقد تقرر في العقول قبح ترك الواجب، لا سيما إذا كان الذي له الحق قادراً على استيفائه، منعياً على من عليه الحق بالنعم الجليلة الأخطار، حكيماً عادلاً عظيم الشأن لا يمكن الغنى عنه في حال من الأحوال ولا وقت من الأوقات؛ فإنَّ الغفلة عن القيام بحقه - والحال هذه - تَفْبُحُ جداً وتتناهى في القبح، ولا يختلف في قبحها العقلاء، فنسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الغافلين عن القيام بما وجب علينا، الناسين لما أَسَدَى الحكيم سبحانه إلينا، وأشهد أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث خلط نفسه في الخطاب بأنفسنا، وحالُه في ذلك مخالفٌ لحالنا.

قوله عليه السلام: وَكَانَ الَّذِي نُشِيعَ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ.

التشييع في أصل اللغة هو الاتباع، ومنه سميت الشيعة شيعة لاتباعهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وتشيع الجنائز من ذلك، وهو المسير خلفها، ولذلك كان عندنا أولى من المسير أمامها لكونها مشيعة، والمشيعة متبوع، وهو الذي رويناه عن أمير المؤمنين عليه السلام، والسفر جمع سافر، والتجر جمع تاجر، وهو ظاهر في كلامهم، وهو الذي يقطع المسافة، وأكثر ما يستعمل ذلك في باب التجارة والأرباح، وإن كان المراد به في الأصل قطع المسافة لأي ما غرض من الأغراض، يقال سافر وسفر وتاجر وتجر، وسمي سافراً لسفره وجه الأرض، وهو تنقيتها للسلوك من الموانع من المشي، ومنه سُميت المسفرة وهي المكنسة، وأقل ما يسمى بقطعه الإنسان من المسافات سافراً ومسافراً هو البريد فما فوقه في عرف الشريعة عندنا، وقلنا ذلك لما رويناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُسَافِرُ بَرِيداً إِلَّا مَعَ ذِي رَحِمٍ» فجعل أقل السفر بريداً، لولا ذلك لما كان للحديث فائدة، والبريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع، مجموع ذلك ستة وثلاثون ألف ذراع^(١)، وذكر بعض أهل المعرفة في المساحة والمسالك أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، فجزيرة العرب منها ألف فرسخ، وجزيرة الفرس ثلاثة آلاف، وجزيرة الروم ثمانية آلاف، ولأولاد حام منها اثنا عشر ألف فرسخ، والله أعلم بحقيقة ذلك، فأما جزيرة العرب فلا يبعد عندنا ما قيل فيها.

والراجع والآيب والأيض في نظائر لها هو العائد إلى جهته التي فارقها أولاً، وسمي السحاب رجعاً من ذلك لأنه يعود إلى جهته المعهودة بين السماء والأرض بعد فراقها بقدرة الله سبحانه.

ومعنى ذلك: أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى قلة فرعنا لتشيع الموتى وإخطار ما لا بد من نزوله بالبال والتأهب لمثل ذلك المآل كنا معهم -والحال هذه- كالذي يشيع المسافر الذي يرجو

(١) ذكر الإمام أن الميل يساوي ٣٠٠٠ ذراع، وبالمعيار العالمي فالميل يساوي ١٦٠٩,٣٤ متراً. فينتج أن

الذراع = ٥٣,٦٤ ستيماً، والبريد = ٣٦٠٠٠ ذراع.

فيكون البريد بالمتر = ٣٦٠٠٠ × ٥٣,٦٤ = ١٩,٣١٢ متر، أي (١٩) كيلومتراً و (٣١٢) متراً.

معاودته بالأرباح عن كتب، فإنه لا يكثر لذلك في مجرى العادة، فلما كانت حالنا -وبجهل كان ذلك منا- كذلك شبهنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بالذي يشيع السَّفر السريع الإياب، وخلط نفسه معنا لمثل ما قدمنا في أول الخبر، وإنما كان ذلك كذلك لأننا لو قطعنا بفراقهم إلى يوم التناد وحضور الأشهاد وأنها لا رَدَّةَ، فإنما هي سعادة أو شقاوة؛ لتأهبنا لمثل حالهم، وتزودنا لمرجعهم ومآلهم.

قوله عليه السلام: تَبَوُّهُمُ أَجْدَانَهُمْ، وَتَأْكُلُ ثَرَاتَهُمْ.

التَّبَوُّةُ هو الإنزال، يقول قائلهم: بوائته كما يقول أنزلته وأسكته. والأجداث واحدها جَدَثٌ، وهي القبور، وقد يقال جدف بالفاء. والأكل معروف. والترات تَرَكَهُ الميت، وكان الأصل وَرَاتٌ، فأبدلت منها التاء لقرب بعضهما من بعض في الخروج، وكثيراً ما يوجد ذلك في كلامهم. المَحْجَى: أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بحالنا بعد موتانا، والأكل للترات وإن كان مباحاً لا يتعلق به نهي، فالغفلة عن الاستعداد لحضوره، وعند الاشتغال بأنواع الأكل من الخضم والقضم واللَّمَّ^(١)، بالكُلِّ تقع الغفلة عن الاستعداد.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: كَأَنَّا مُخْلَدُونَ بَعْدَهُمْ.

المُخْلَدُونَ الباقون الدائمون أبداً، وأصله الملازمة، ومنه الخُلْد الذي هو القَرُطُ، وقيل في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخْلَدُونَ﴾ [الواقعة] أي مَقَرُّطُونَ، وهو ما يُلبس في الأذن، وأحسب أن أصله من السَّوار الذي يلزم اليد أبداً ما دامت، فلما كان الموت موضوعاً للاعتبار، بل هو أقوى ما حَوَّنَا به الجبار، وزهَّدنا في هذه الدار، وكُنَّا مع تقديم الموتى وتشجيعهم غافلين عن الاستعداد كُنَّا كمن طمع في الخلود أبداً، ولم يُقدِّم بين يديه إلى ربه عز وجل يداً.

قوله عليه السلام: نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ.

الواعِظَة هي الحادثة الذي يُتَعَطُّ بها، ومعنى الاتِّعَاض والاعتبار واحدٌ، وهو الازدجار عن الفعل مع خضوع وهيبة، وقد تكون الواعِظَة فعلاً وتكون قولاً، فالفعل مثل ما أنزل الله تعالى

(١) قال في هامش الأصل: قال عليه السلام: الخضم لِمَا كان رطباً، والقضم لما كان يابساً، واللَّمَّ الأكل بكل الفم. (انظر لسان العرب ١٢/ ٤٨٧) والقاموس المحيط: (خضم) (ص ١١٠٣)، و (قضم) (ص ١١٥٠).

بالأمم الماضية من النِّقَمِ الهائلة، كالقذف والمسوخ والصيحة والرجفة والريح والغرق وأمثالها - نعوذ بالله تعالى منها- على ذنوب قد جاءت طوائفُ من الأمة بمثلها أو قريب منها، فالله تعالى المستعان، وقد يكون بالقول كالوعيد على الإقدام على القبيح.

قوله عليه السلام: وَأَمَّا كُلُّ جَائِحَةٍ.

الجائحة والجارفة والقالعة والحالقة والكاشفة معناها واحدٌ، وهي التي تسحت ما في يد الإنسان من الأهل والمال بأحد أمرين لا بد من أحدهما: إما تسلبه من الإنسان أو تسلب الإنسان منه، وهذا يعلمه كل عاقل، فإذا فكر في ذلك كان الأولى به أن يكثر سروره بما قدمه بين يديه من أهله وماله، والأوامر بتقديم المال موجودة كثيرة، وفي تقديم الأهل كثير، وهي دون ذلك، من ذلك ما ذكر في غريب الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((مَا تَعْدُونَ الرَّقُوبَ عِنْدَكُمْ)) قالوا: يا رسول الله من لم يولد له ولد، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((بَلْ هُوَ مَنْ لَمْ يَمُتْ لَهُ وَلَدٌ)) فنبه عَلَيْهِ السَّلَامُ على أَنَّ مَا نَقَصَ من الدنيا وزاد في الآخرة خيرٌ مما زاد في الدنيا ونقص في الآخرة.

قوله عليه السلام: طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ.

طوبى شجرة في الجنة يستقر تحتها الفائزون، والطوب هو الآجر الذي يُتَّخَذُ لمحارب الملوكة. **والشغل** المنع في أصل اللغة. **والعيب** في الأصل فساد الشيء وتغيُّره، سمعت من بعضهم، هذا في اللفظ.

فَأَمَّا الْمُعْنَى: فإن العاقل إذا فكر في أمر نفسه وثقَّصها؛ إذ الخلق البشري لا ينجو من النقصان، من ذلك ما روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((كُلُّ بَنِي آدَمَ طِفُّ الصَّاعِ^(١))) يشير إلى نقصانهم وتعذر الكمال فيهم؛ كان^(٢) له بالاشتغال بإصلاحها وتقويم أودعها مندوحة عن الاشتغال بأمر غيره، وعند فعله لذلك يستحق طوبى الجنان وحالة الرضوان.

(١) طِفُّ الصَّاع: هو أن يُقَرَّبَ أَنْ يَمْتَلِئَ فَلَا يَفْعَلَ، (الصحيح: ٤/ ١٣٩٥) ومنه التطفيف في المكيال.

(٢) جملة جواب الشرط (إذا فكر...).

قوله عليه السلام: طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالًا اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

طوبى معناه ما تقدم. والإنفاق معروف، ومن الحديث: ((أَنْفَقَ يَا بِلَالُ وَلَا تَخَفْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا)) وأصل النَّفَق في اللغة الهلاك، ومنه قولهم نفقت الدابة، أي هلكت، ثم صار في عرف اللغة يفيد ما ذكرنا وهو الإعطاء.

ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في المال أنه المكتسب من غير معصية الله، أعني ما يتعلق بالأجر والثواب بالإنفاق منه؛ لأنَّ ما كُسِبَ من المعصية فهو سحتٌ حرامٌ لا يؤجر من أنفق منه، ومن ذلك الحديث من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَا تُقْبَلُ صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ)) بضم الغين واللام، والغلول هو الحرام، وأنواع مكاسبه كثيرة أعادنا الله منها، من ذلك: مَهْرُ الْبَغِيِّ، وحُلُوانُ الكاهن^(١)، وَعَسْبُ الْفَحْلِ، وما يأخذ الباغي على وجه الإكراه والجباية، وكل ذلك لا تقبل منه الصدقة؛ لأنَّ منه ما يجب ردُّه على صاحبه، ومنه ما يجب صرفه إلى بيت المال، وتفصيل شرحه يطول. وفائدة الحديث أنَّ الْمُنْفِقَ في الحلال تكون له طوبى الجنان نُزُلًا، والثواب الدائم من متاع الدنيا الفاني بدلاً، وذلك المكسب الربيع والمتجر المفيد.

قوله عليه السلام: وَجَالَسَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ.

المجالسة معروفة، وإنَّما المراد الاستماع والاتباع دون مجرد المجالسة، فقد كان المنافقون يلزمون مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ عَافِيًا﴾ [محمد: ١٧] يوهمون الحرص على حفظ ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهم لا يتبعون، فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئاً، بل عَقِبَ ذلك سبحانه بذهمهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٨] فعقب ذلك بالذم، فكان قبيحاً لَمَّا تعرَّى عن الفائدة الحسنة.

والفقه في أصل اللغة هو العلم، لا فرق عندهم بين قول القائل: فقهت كذا وكذا، وبين قوله: علمت كذا وكذا، ثم قد صار في عرف العلماء يفيد العلم أو الظن بجُمَلٍ من الأحكام الشرعية

(١) حُلُوانُ الكاهن هُوَ مَا يُعْطَاهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالرَّشْوَةِ عَلَى كَهَائِهِ يُقَالُ: حَلَوْتُهُ أَخْلَوُهُ حُلُوانًا. (النهاية ١/ ٤٣٥).

وَعَلَيْهَا وَشَرُوطُهَا وَأَسْبَابُهَا الَّتِي لَا تُعْلَمُ بِاضْطِرَارِ أَنَّهَا مِنَ الدِّينِ، فَمَنْ عَلِمَهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ فَقِيهَاً، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْهَا فَلَيْسَ بِفَقِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْأَصُولِ.

والحكمة في أصل اللغة يفيد ما يمنع من الوقوع في غير المراد، ومنه أخذت حكمة الدابة، ثم صار في العرف يفيد العلم بدقائق العلوم وغوامض الأحكام والمعارف، فأما عندنا فالحكمة تفيد المعرفة بمعاني كتاب الله تعالى، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] فالكتاب هو القرآن، والحكمة معانيه، ومثل هذا التأويل مروى عن جدنا عبد الله بن الحسين^(١) عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) السيد الإمام الحجة عبد الله بن الحسين العالم، بن القاسم ترجمان آل الرسول، بن إبراهيم بن إسماعيل، صنو الهادي إلى الحق - عليه السلام - والوارد معه إلى (اليمن). ... ومن ولده حمزة بن الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين، ويقال لولده: بنو حمزة باليمن. قال المنصور بالله في الشافي: ولا يُعْرَفُ فِي جَمِيعِ أَنْسَابِ الطَّالِبِينَ وَفِي مَشَجَرَاتِهَا وَشَعْرَهَا وَجَرَائِدِهَا إِلَّا بِالْعَالِمِ، وَلَا يُوْجَدُ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ، وَكَفَى بِذَلِكَ شَاهِدًا بِفَضْلِهِ، وَكَذَلِكَ رَأَيْنَاهُ فِي الْكُتُبِ الْخَارِجَةِ مِنْ خَزَانَةِ صَاحِبِ بَغْدَادَ وَفِيهَا كَانَ مِنْ مِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَقْطَارِ، وَلَهُ كِتَابٌ (النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ) لَا يُوْجَدُ فِي الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِثْلَهُ، وَأَصُولُهُ فِي الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ فِي تَصَانِيفِهِ. وَمِمَّا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الزَّيْدِيَّةُ الْمَهْدِيَّةُ عَلَى إِمَامَةِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَسْلِيمَ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْعَالِمِ الْأَمْرَ لَهُ وَاعْتِقَادَهُ إِمَامَتَهُ، وَجِهَادَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ الْحَافِظِ). انتهى من كتاب الشافي ط ٢ (ج ٢/ ٣٣٨).

قال القاضي في مطلع البدور: الوارد معه إلى (اليمن) المسمى بصاحب الزعفرانة؛ لرؤيا رآها بعض الصالحين، أنه عاتبه في ترك زيارته، مع أنه لم ينبت الزعفران في قبر أحد غيره، كان عالماً مستجمعاً لخصال الفضل، وجعله العلماء أحد فضائل يحيى بن الحسين، وقالوا: حسبهُ مطاوعة عبد الله له على جلالة قدره، فإنه أعلم أهل زمانه، وأفضلهم،... الخ، (مطلع البدور ٣/ ٦٥). ... ومن أراد التوسع في ترجمته ومعرفة مكانته فليطالع سيرة أخيه الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام حيث كان يتدبّه في المِهْمَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا إِلَّا هُوَ، كَانَتْ وَفَاتِهِ سَنَةُ ٣٤٤ هَجْرِيَّةً كَمَا هُوَ مَدُونٌ عَلَى ضَرْبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فمعنى الحديث الحُضُّ على مجالسة أهل المعرفة بأصول الشريعة، وأهل المعرفة بمعاني كتاب الله سبحانه، وهؤلاء هم الناس على الحقيقة، إذ بمخالطتهم تقع النجاة، وتُحصى السيئات، وترفع الدرجات، وفي ذلك ما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لكميل بن زياد: ((النَّاسُ ثَلَاثَةٌ؛ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَهَمَّجٌ رَعَاةٌ ... لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ....)) في حديث طويل^(١).

والهمج في أصل اللغة هو البعوض. والرَّعَاع الذي لا ثبات له، وتلك حال الجهال، وقد روينا بالإسناد الموثوق به إلى صفوان بن عَسَّال^(٢) - العين غير معجمة - عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: ((مَا غَدَا رَجُلٌ يَلْتَمِسُ عِلْمًا إِلَّا فَرَشَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَحَتَهَا رِضَى بِمَا يَعْمَلُ)) وروينا بمثل ذلك الإسناد عن أبي جحيفة^(٣) أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((جَالِسُوا الْعُلَمَاءَ وَسَأَلُوا الْعُلَمَاءَ وَخَالَطُوا الْحُكَمَاءَ)).

(١) أورده الإمام بتمامه خلال شرحه للحديث الرابع عشر.

(٢) صفوان بن عَسَّال (بمهملتين أخراهما مشددة، ثم ألف، ولام) المرادي الجملي (بفتح الجيم والميم)، غزا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اثنتي عشرة غزوة. روى عنه: ابن مسعود مع جلالته، وزر بن حبيش، أخرج له: المؤيد بالله، وأبو طالب، والترمذي، وابن ماجه، ١هـ. (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣ / ١٥١).

(٣) أبو جحيفة؛ وهب بن عبد الله السوائي، كان من صغار الصحابة، قيل إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ توفي وأبو جحيفة لم يبلغ الحلم، ولكنه سمع من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وروى عنه، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ورأيت هذه منه، وهي بيضاء - وأشار إلى عنقه - فقليل له: مثل من كنت يومئذ؟ قَالَ: أبري النبل وأريشها... وجعله علي بن أبي طالب عليه السلام على بيت المال بالكوفة، وشهد معه مشاهد كلها، وَكَانَ يحبه ويثق إليه، ويسميه هب الخير، وهب الله أيضا، وكان يقوم تحت منبره يوم الجمعة، توفي سنة ٧٤هـ وقيل تأخر إلى بعد الثمانين. وفي أبي جحيفة حديث في صحيفة علي بن موسى الرضى: ((أتى أبو جحيفة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فتجشأ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أكفف جشاك يا أبا جحيفة، فإن أكثر الناس شَبَعًا في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة)) قال ابنه عون بن أبي جحيفة: (فَمَا أَكَلْتُ أَبُو جُحَيْفَةَ وَمَلَأَ بَطْنُهُ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا، كَانَ إِذَا تَعَشَّى لَا يَتَغَدَّى، وَإِذَا تَغَدَّى لَا يَتَعَشَّى). انتهى. (انظر تخریج الشافي لحافظ العترة الحسن بن الحسين الحوثي رحمه الله تعالى، الشافي ط ٢ ج ٣ / ٥٨٨)، و (الاستيعاب ٤ / ١٦٢٠)، و (أسد الغابة ٦ / ٤٧).

قوله عليه السلام: وَخَالَطَ أَهْلَ الدِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ.

المخالطة معروفة، ومعنى ذلك أن لا يرفع نفسه عن أحد من المسلمين، ومعنى **أهل الدلة** هاهنا هم ضَعْفَةُ المسلمين، وأصل الدلة في الإبل، يقال ناقة ذَلُولٌ وَجَلَّ ذَلُولٌ، للذكر والأنثى بلفظ واحد. **والمسكنة** هي نهاية الحاجة، وهي مفعلة من السكون، فكأنَّ الحاجة تحمل صاحبها على سكون الجوارح فلا يستطيع حراكاً.

وقد روي أن الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بجماعة من المساكين وهم يأكلون خبزاً، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لولا أن خبزكم صدقة لأكلتُ معكم) ثم استنهضهم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى منزله، فأمر لهم بطعام، فأكلوا وأكل معهم، فسأله أهله عنهم، فقال: هم جماعة من إخواني، ودهنهم وفرق فيهم دراهم، وذلك مأخوذ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ المعروف منه أنه كان يجلس بين ضعفة أصحابه يعلمهم معالم الدين، ويزهدهم في الدنيا، ويصغر عندهم البلاء، حتى قال له عيينة بن حصن الفزاري^(١): يا رسول الله؛ إنك رسول الله، وإنَّ العرب أهلُ أَثَقَةٍ ورئاسة، فإذا رأوك مع هؤلاء المساكين تَفَرَّتْ نفوسهم عن الدين فلم يقبلوا، فلو نحييت هؤلاء عن مجلسك، فإنَّ كان لا بد منهم فاجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً، فكاد كلامه يؤثر في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أمر المجلس من حيث زخرفة عدو الله بالتقريب إلى الدين لكبار الناس، فانتظر الوحي من الله تعالى، فتزل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِغْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] وهو عيينة، وأغفلنا قلبه عقوبة له، إذ لا يجوز غير ذلك، وقد كان منافقاً في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أحمق مطاعاً، وبعد وفاته كان كذلك، لأنه كان من أقوى أسباب معاوية لعنه الله، وبمعاوية انطمست رسوم الدين وظهرت أعلام الظلال.

(١) عِيْنَةُ بن حِصْنِ الفِزَارِيِّ: من المؤلفة قلوبهم، ومن الأعراب الجفافة، وكان ممن ارتد وتبع طليحة الأسدي، وقاتل معه، فأخذ أسيراً، وحمل إلى أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف: يا عدو الله؛ أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: والله ما آمنت بالله طرفة عين، فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه، توفي أيام عثمان، (أسد الغابة ٤/ ٣١٨).

قوله عليه السلام: طُوبَى لِمَنْ ذَلَّتْ نَفْسُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَصَلَحَتْ سِرِيرَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرُّهُ.

طوبى قد تقدم الكلام في معناها، والمراد بِذَلَّةِ النفوس هاهنا تواضعها وانقيادها لله سبحانه لضعفة عباداه المؤمنين؛ تسليماً لأمره وإجلالاً لعظمته، خلافاً لما عليه الجبابرة الظلمة من غمص أولياء الله واحتقار عباداه، وقد روينا أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في السوق يمشي، فأصابه المطر، فالتجأ إلى ظلة عطارٍ ليستظل فيها من المطر، فوثب عليه العطارُ -وهو لا يعرفه- يدفعه في صدره، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول له: ويحك إنما أستظل من المطر، فصاح الناس به: ويحك ألسنت تعرف هذا! أمير المؤمنين! فاعتذر، فما أعاد عليه إلا خيراً.

وكذلك روينا أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل السوق يشتري تمرًا، فقال لثمار: كيف تتبع تمرك يا ثمار؟ فقال كذا وكذا، شيئاً لم يرضه، ثم قال لآخر كذلك، فقال شيئاً لم يرضه، فقال لآخر كذلك، فقال له شيئاً رضىه، فقال: زَنْ وَأَرْجِحْ، فإنا كذلك نفعل معشر أهل بيت النبوة، فقال لثمار: يا أمير المؤمنين غلامي يحمله معك، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا؛ لا يأكله الحسن والحسين ابنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ ويحمله غلامك، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يقول: ((مَنْ رَفَعَ ثَوْبُهُ وَحَلَبَ شَاتَهُ وَحَمَلَ بِضَاعَتَهُ فَقَدْ بَرَّيَ مِنَ الْكِبَرِ)) وأمثال هذا من أهل بيت النبوة عليهم السلام وأتباعهم الصالحين كثير، فالواجب على العاقل تذليل نفسه لله تعالى في مقامٍ لِلْعِزِّ فيه وللذل تأثيرٌ عظيم، فأما هذه الدنيا فعزُّها ضلالٌ ودُّها محال، وكلُّ شيء فيها إلى نفاذ وزوال.

وحسن الخليفة معروف، وهو لين الأعطاف^(١) ووطأة الأكناف^(٢)، وهذا الدين مبني على حسن الخلق، وقد اختص نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ من ذلك بما لم يكن لغيره، فقال فيه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) الأعطاف: الجَوَانِبُ، قال في مقاييس اللغة (٤ / ٣٥١): يُقَالُ لِلْجَانِبَيْنِ الْعِطْفَانِ، سُمِّيَا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَمِيلُ عَلَيْهِمَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ثَمَنِي عِطْفَهُ، إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ وَجَفَاكَ.

(٢) قال في النهاية (٥ / ٢٠١): (.. الْمُوَطَّأُونَ أَكْنَفًا) هَذَا مَثَلٌ، وَحَقِيقَتُهُ مِنَ التَّوَطُّعِ، وَهِيَ التَّمْهِيدُ وَالتَّذِيلُ. وَفَرَّاشٌ وَطِيءٌ، لَا يُؤْذِي جَنْبَ النَّائِمِ. وَالْأَكْنَفُ: الْجَوَانِبُ. أَرَادَ الَّذِينَ جَوَانِبُهُمْ وَطِيئَةٌ، يَتِمَكَّنُ فِيهَا مَنْ يُصَاحِبُهُمْ وَلَا يَتَأَذَّى.

الصلاح في أصل اللغة هو السلامة من الآفات، وهو نقيض الفساد في كلامهم، **والسريرة** باطنة الإنسان، وصلاحها أن لا يكون فيها غش ولا فساد، وهي عقدة ضمير قلب الإنسان، وأصل السر الشيء الغامض الذي لا يكاد يتجلى، من ذلك أسيرة المسائل، ومنه سرار الوادي، وسر العود، ويسمى السرير سريراً لأنه لا يكون إلا من باطن الحجب مكنوناً، لأنه مَبُوءُ الملوك ومستقر أهل الرفاهية.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن يستوي سر المؤمن وعلمته، وإقباله وإدباره، وغيبه ومشهده، بخلاف الفاسق والكافر، فإن حالهما بالضد من ذلك، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((بُئْسَ الْعَبْدُ عَبْدُ لَهُ وَجْهَانِ، يُقْبَلُ بِوَاحِدٍ وَيُذْبَرُ بِآخَرٍ)).

قوله عليه السلام: وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ.

أصل الشر ما تكرهه النفوس وتنفر عنه، ثم قد صار بعرف الشرع ما تكرهه القلوب على وجه مخصوص وإن كان مشتهى؛ لكونه مؤدياً إلى العذاب العظيم الذي تنفر عنه النفوس، وتحتويه^(١) القلوب، فجميع المشتبهات المحظورة عند أهل الشرع من أعظم الشرور.

فمعنى ذلك أن يعزل عن الناس ما تكرهه نفوسهم وتنفر عنه قلوبهم من أفعاله وأقواله.

قوله عليه السلام: طَوَّبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَوَسِعَتْهُ السَّنَةُ، وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ.

قد تقدم معنى طوبى وكذلك معنى الإنفاق. **والفضل:** هو ما زاد على الحاجة، وأحسب أصل ذلك مأخوذ من خِطام الراحلة، فإن ما زاد على الواصل من اليد إلى رأس الراحلة يسمى فضلاً، وقد كان التعبد في بدء الإسلام وَرَدَ بإنفاق الفضل، وهو ما زاد على كفاية الإنسان وعياله وجب عليه إنفاقه في سبيل الله تعالى، وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ قُلِ الْغَفْوُ ﴿[البقرة ٢١٧-٢١٨] والعفو والفضل معناهما واحد، وهو الزائد على قدر الحاجة، ثم نسخ ذلك بآية الصدقة، فأما في هذا الخبر فمعناه الندب والاستحباب، فإذا المنسوخ الوجوب، كما يقال في صيام يوم عاشوراء، وقد كان الصالحون يتجاوزون هذه الرتبة إلى الإيثار على النفس

(١) تَحْتَوِيهِ: تَكْرَهُهُ، جَوِيَ الشَّيْءُ جَوًى وَاجْتَوَاهُ: كَرَهُهُ. (انظر لسان العرب: ١٤ / ١٥٧).

والولد، فمدحهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وهذه الآية نزلت في رجل من الأنصار أثر على نفسه وأولاده، فمدحه الله تعالى وأهلَه بذلك، وهي عامة فيمن فعل مثل ما فعله، ففائدة اللفظ من هذا الخبر الحث والندب إلى إنفاق الفضل من المال، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ في مثل ذلك: ((قَدَّمَ مَالَكَ أَمَامَكَ يَسْرُكَ اللَّحَاقُ بِهِ))^(١).

قوله عليه السلام: وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ.

معناه على نحو ما تقدم وهو نقيضه، لأن ذلك في الإنفاق وهذا في الإمساك، والفضل من القول هو ما زاد على ما يُعْنِي المتكلم ويحتاج إليه ولا يلجأ إلى النطق به، فأما ما زاد على هذا القدر يكون فضلاً من الكلام، تركه أصلح من فعله، وربما يجب في بعض الأوقات، والآثار فيما هذه حاله كثيرة، من ذلك أن لقمان الحكيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في بعض مقاماته ذات يوم وهو ينطق بالحكمة والناس محدقون به يأخذون من كلامه، فجاء رجل من أعداء الحكمة قد غاظه ذلك يريد نقصه عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال له: أنت لقمان عبد آل فلان الذي كنت ترعى لهم الحُمُرَ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا ذلك الرجل، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول الأمر عبداً حبشياً، فلما ظهرت حكمته أعتقه مولاه في قصة طويلة، فقال له عدو الحكمة: ما بلغ بك هذه المنزلة؟ فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: (تَرْكِي مَا لَا يُعْنِينِي) فصارت نادرة على ذلك الرجل، ودُونت في مهاريق^(٢) الحكمة، وسمع بعض الحكماء رجلاً يكثر الكلام، فقال له: يا هذا إنَّ الحكيم جل وعلا جعل لنا أذنين اثنتين ولساناً واحداً لنسمع ضعفي ما نتكلم به، وقال نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((رَحِمَ اللهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ)).

وسنذكر الحديث^(٣) بطوله فيما بعد إن شاء الله سبحانه.

(١) هو جزء من الحديث السابع والثلاثين من هذه الأربعين.

(٢) الْمَهَارِيقُ: جَمْعُ مُهْرَقٍ، وَالْمُهْرَقُ الصَّحِيفَةُ، تَمَتْ ضِيَاءُ، هَامِشُ (أ).

(٣) هو الحديث التاسع، ورويت هذه القطعة مفردة في شعب الإبان للبيهقي (١٧/٧) برقم (٤٥٨٥) ومسنَد الشهاب للقضاع (١/٣٣٨) برقم (٥٨١).

قوله عليه السلام: وَوَسِعَتْهُ السَّنَةُ.

يريد لم تضيق به فيتجاوزها إلى غيرها؛ إذ لا غير لها إلا البدعة. والسنة ما داوم عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً، وهي تشمل الفرض والنفل، وهي مأخوذة من سَنَى الطريق أي نهجها الذي يغوى من تنكبه، ولا يَضِلُّ من ركبها، وللدين طريق كما للمسجد والسوق، فالواجب على العاقل أن يتعرّف طريق الدين لينجو من الضلال مع الناجين.

قوله عليه السلام: وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ.

الاستهواء هو الاستخفاف، وُسْمِيَ الهوَاءُ هَوَاءً لَخَفْتِهِ، وهو الجسم الرقيق المشهور بين السماء والأرض، وقد يقال له: النَّفْتُ، ولمكانه بين السماء والأرض: اللُّوح بضم اللام، وهو مادة الحيوان البري، ومن ذلك سميت المحبة هواء لخفة المحبوب على القلب، وقد قال تعالى: ﴿وَأَفِيدَتْهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم] فكأنَّ معناه والله أعلم فارغة من الحق الثقيل، خفيفة في ميزان العدل وميدان الحرب لا ثبات لها، إذ لا ثبات بغير ثقل.

والبدعة مأخوذة من البدع وهو الإحداث، فقضى هذا التأويل أن جميع المحدثات في الدين بدعٌ، إلا ما رجع إلى أصل متقرر، وقد روينا عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد سأله ابن الكواء وهو يخطب على المنبر عن السنة والبدعة والجماعة والفرقة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (السنة - والله - ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، والبدعة - والله - ما خالفها، والجماعة - والله - أهل الحق وإن قلُّوا، والفرقة - والله - أهل الباطل وإن كثروا).

وإذا كان هذا حال البدعة وجب الاحتراز منها، ولا يصح الاحتراز منها إلا بعد معرفتها، وقد قدمنا معناها، فنسأل الله تعالى ملازمة السنة ومخالفة البدعة، والصلاة على محمد وآله.

الحديث الثاني

عن^(١) خليفة بن الحصين - وأحسبه أخا عصمة^(٢) بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان، وعصمة بدري خزرجي، فإن كان أخاه فهذا نسبه، وأنا في هذا على غير يقين - قال: سمعت قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ الْمُنْقَرِي يَقُولُ - وَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ هَذَا مَشْهُورٌ تُضْرَبُ بِهِ الْأَمْثَالُ فِي الْحِلْمِ وَالشَّرَفِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِيهِ: ((هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبْرِ)) يريد البدو، وفد على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والوافد الضيف والزائر المكرم، وأصل الوفد والوفادة الهدية، لا فرق عندهم بين قولك أوفدْتُ إليه وبين قولك^(٣) أهدَيْتُ إليه، فلما كان الضيف عند العرب لشرف نفوسهم ينزل منزلة الهدية في السرور به سموه وفداً، معناه هدية أهديت إلينا.

ففي الحديث أن قيساً سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن أفضل الأموال، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((نَعَمْ الْمَالُ الْأَرْبَعُونَ، وَالْأَكْثَرُ السُّتُونَ، وَوَيْلٌ لِأَرْبَابِ الْمَعِينِ)) فذكر أن له وادياً لا يخالطه فيه أحدٌ لكثرة ماله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((إِلَّا مَنْ مَنَحَ غَزِيرَتَهَا، وَنَحَرَ سَمِيَّتَهَا، وَأَطْرَقَ فَخْلَهَا - أَحْسَبَهُ قَالَ - وَأَفْقَرَ ظَهْرَهَا^(٤)، وَأَدَّى حَقَّ اللَّهِ مِنْهَا)) واستقام قيس في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وجرى منه في أيام الرِّدَّة بعض الاضطراب، ثم استمر^(٥) بعد ذلك. قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي وَفْدٍ مِنْ جَمَاعَةِ بَنِي تَمِيمٍ [وَعِنْدَهُ

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا علي بن غسان المعروف بأبي المعمر الشيباني البصري قال حدثنا أحمد بن زهير قال حدثنا مثنى بن معاذ العبدي قال حدثني يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا قيس بن الربيع عن الأغبر بن الصباح عن خليفة بن الحصين... الحديث.

(٢) في النسخ عصيمة، وهو عصمة بن الحصين بن وبرة... الخ، ترجمته في الاستيعاب والإصابة وطبقات ابن سعد وغيرها كما ذكره الإمام هنا، وراوي الحديث هو خليفة بن الحصين بن قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمُنْقَرِي، وهو يروي أيضاً حديث أمر النبي لقيس بن عاصم بالاغتسال بهاء وسدر، اهـ.

(٣) في بقية النسخ: (وقولهم) بضمير الجمع الغائب.

(٤) أي أعارها للركوب، هامش نسخة.

(٥) يعني على الاستقامة، هامش (أ).

الصَّلْصَالُ بْنُ الدَّهْمَسِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ عِظْنَا مَوْعِظَةً نَسْتَعِيبُ بِهَا، فَإِنَّا قَوْمٌ نَعْبُرُ الْبَرِّيَّةَ^(١)، فَقَالَ لِي: ((اغتسل بماءٍ وسِدْرٍ))^(٢).

قد تقدّم الكلام في الوفد وهو الطائفة من القوم، وقد يكون الوفد واحداً أو اثنين كما نقول في الخصم، والجماعة كافة القوم، فكأنه أتى في وجوه من أبيات بني تميم، وهو تميم بن مُرٍّ بن أَد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وهم كاهل^(٣) مضر، وشرح أخبارهم وتفصيل أبياتهم يطول.

الاعتسال معروف وهو تعميم البدن بالماء بحيث يجري الماء وذلك البدن حتى ينقش من الدرن، وما دون هذا مسح، وغسل بعض البدن دون بعض وضوء، مأخوذ من الوضوء وهي البياض والنقاء، والماء إذا أطلق أفاد ما خلقه الله تعالى في الأرض ابتداءً أو أنزله من السماء، من الأنهار الجارية والأمطار الهامية والبحار الساجية^(٤).

(١) ما بين المعقوفين زيادة من النسخة (أ) ومن كتاب الاعتبار وسلوة العارفين.

(٢) انظر مصنف عبد الرزاق (٩/٦) برقم (٩٨٣٣) ومسند أحمد (٢١٦/٣٤) برقم (٢٠٦١١) وسنن أبي داود (٩٨/١) برقم (٣٥٥) وسنن الترمذي (٧٤٤/١) برقم (٦٠٥) والسنن الكبرى (١/١٤٩) برقم (١٩١) وسنن النسائي (١٠٩/١) برقم (١٨٨)... الخ.

أما الحديث بكامله فقد ورد في كتاب الاعتبار وسلوة العارفين، ورواه أيضاً أبو حيان التوحيدي، المتوفى نحو ٤٠٠ هـ في كتابه البصائر والذخائر، وقال ابن حجر في الإصابة (٣/٣٦١) عند ترجمة الصَّلْصَالِ بْنِ الدَّهْمَسِ ما لفظه: قال قيس بن عاصم: وَقَدْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهُ الصَّلْصَالُ بْنُ الدَّهْمَسِ، فقال قيس: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِظْنَا عِظَةً نَسْتَعِيبُ بِهَا، فَوَعظَهُمْ مَوْعِظَةً حَسَنَةً، فَقَالَ قَيْسٌ: أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ آيَاتاً مِنَ الشَّعْرِ تَقْتَضِرُ بِهِ عَلَى مَنْ يَلِينَا وَتَذْخِرُهَا، فَأَمَرَ مَنْ يَأْتِيهِ بِحَسَنٍ، فَقَالَ الصَّلْصَالُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ حَضَرْتَنِي آيَاتٌ أَحْسِبُهَا تَوَافِقُ مَا أَرَادَ قَيْسٌ، فَقَالَ: هَاتِيهَا، فَقَالَ:

تَجَنَّبْ خَلِيطاً مَنْ فَعَالِكَ إِثْمَا	قرينُ الفتى في القبر ما كان يفعلُ
وَلَا بَدْءَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ أَنْ تُعَدَّهُ	ليوم ينادى المرء فيه فيقبلُ
فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولاً بِشَيْءٍ فَلَا تَكُنْ	بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
وَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ	ومن بعده إلا الذي كان يعملُ
أَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ	يقيمُ قليلاً بينهم ثم يرحلُ

(٣) أي مُتَعَمِّدُهَا الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَالْكَاهِلُ: مُقَدَّمٌ أَعْلَى الظَّهْرِ مِمَّا يَلِي الْعُنُقَ وَهُوَ الثَّلَثُ الْأَعْلَى، وَفِيهِ سِتُّ فُقَرٍ، أَوْ مَا بَيْنَ الْكَيْفَيْنِ، (انظر لسان العرب ١١/٦٠١).

(٤) سَجَا سَجُوجًا: سَكَنَ، وَدَامَ، وَمِنْهُ: الْبَحْرُ وَالطَّرْفُ السَّاجِي، (القاموس المحيط: ١٢٩٣).

والسدر شجرٌ معروفٌ، يتخذ من ورقه ذُرُورٌ تُرَحَّضُ به الأبدان فيُنْقِيها من الأدران، وإنما أراد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ طهارته من درن الشرك، واسترسال المشركين في أكل الميتة، وأكل ما ذكر عليه غيرُ الله وهو عندنا بمثابتها، وشرب الخمر، وما شاكل ذلك.

قَالَ: فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عَدْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عِظْنَا مَوْعِظَةً نَنْتَفِعُ بِهَا.

قد تقدم الكلام في معنى الواعظة، والموعظةُ ذكرُها. والانتفاع هو استعمال المنفعة ومباشرتها، والمنفعة هي اللذة والسرور وما أدى إليهما أو إلى أحدهما، فمعنى قوله: ننتفع بها نعمل لأجلها عملاً يؤدينا إلى المنفعة التي هي ثواب الآخرة، العظيم من كل جانب، الخالص من كل شائب.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((يَا قَيْسُ؛ إِنَّ مَعَ الْعِزِّ ذُلًّا، وَإِنَّ مَعَ الْحَيَاةِ مَوْتًا، وَإِنَّ مَعَ الدُّنْيَا آخِرَةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا، وَإِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثَوَابًا، وَلِكُلِّ سَيِّئَةٍ عِقَابًا، وَإِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا، إِنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ يَا قَيْسُ مِنْ قَرِينٍ يُدْفِنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ، وَتُدْفِنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ كَرِيمًا أَكْرَمَكَ، وَإِنْ كَانَ لَيْمًا أَسْلَمَكَ، ثُمَّ لَا يُخْشِرُ إِلَّا مَعَكَ، وَلَا تُبْعَثُ إِلَّا مَعَهُ، وَلَا تُسْأَلُ إِلَّا عَنْهُ، فَلَا تَجْعَلُهُ إِلَّا صَالِحًا، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحًا لَمْ تَأْخُذْ إِلَّا بِهِ، وَإِنْ كَانَ فَاحِشًا لَمْ تَسْتَوْحِشْ إِلَّا مِنْهُ، وَهُوَ فِعْلُكَ)).

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ: يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَ الْعِزِّ ذُلًّا.

أصل العزِّ في اللغة هو القهر والغلبة، ومنه قوله: من عزَّ بَزٌّ، المراد بذلك من غلبَ سلبٌ، وقال شاعرهم:

وَعَزَّتِ الشَّمَالُ الرِّيحَ وَقَدْ أَمْسَى كَمِيعُ الْفَتَاةِ مُلْتَفِعَا

الشَّمَالُ ريح الشمال وفيها سبع لغات، وسميت شمالاً لأنها تأتي من شمال البيت زاده الله شرفاً، وهي مناوِحة^(١) الجنوب، والجنوب اليمانية وهي تضرب جَنْبَ الْبَيْتِ الْأَيْمَنِ، والدَّبُورُ تأتي من دبره وهي الغربية، والقبول تستقبل بابه وهي الصُّبَا الشرقية، فمعنى قول الشاعر: عزت الشمال، يريد أن الشمال غلبت الجنوب وظهرت عليها في الهبوب، وذلك يكون في شدة البرد وكلب الزمان. وكميع الفتاة ضجيعها، يقول أمسي ملتفعاً متدثراً بشيابه لم يهم بشيء من أمرها،

(١) التَّنَاوُحُ: التَّقَابُلُ، يُقَالُ: تَنَاحَ الْجَبَلَانِ، وَتَنَاحَتِ الرِّيحَانِ: إِذَا تَقَابَلَتَا فِي الْمَهَبِ، ضِيَاءٌ، هَامِشٌ (أ).

وذلك يكون في شدة الزمان، وقد تعرض الكلمة فنذكرها، ولعل ذلك إن شاء الله سبحانه لا يتعري عن الفائدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢] أي غلبني. والمعنى فيما قال صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ عِزَّ الدُّنْيَا لَا دَوَامَ لَهُ؛ لِأَنَّ الدُّلَّ يَتَعَقِبُهُ لَا مُحَالَةَ؛ أَقْلُ الْأَحْوَالِ بِالْمَوْتِ فَيَصِيرُ مُحْكُومًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَاكِمًا، مُصَرَّفًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُصَرِّفًا، فَلَا عِزَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا عِزُّ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا ذُلَّ يَتَعَقِبُهُ، وَلَا مَوْتَ يُنْغِصُهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الذَّلِّ، وَأَنَّ أَصْلَهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْبَعِيرِ الَّذِي لَا يَنْفِرُ عَنْ طَالِبِهِ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَنْ رَاكِبِهِ.

وفي الرواية أن الاسكندر رحمه الله لما مات حضره الحكماء، فتكلم كل رجل منهم بما حضره مما يحفظ ويدون، فقال أحدهم وقد جُعلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في تابوت من ذهب: يا اسكندر؛ هذه القُدرة الطويلة العريضة طُوِيَتْ في ذراعين، وقال أحدهم: قد كُنْتَ حَاكِمًا فَأَصْبَحْتَ مُحْكُومًا عَلَيْكَ، وقال أحدهم: ما أشبه خروجك من الدنيا بدخولك فيها، دخلتَ وليس معك شيء، وخرجتَ كذلك، وقال حاجبه: قد كُنْتُ أَحْجَبُكَ مِمَّنْ تَكْرَهُ دُخُولَهُ، فَدَخَلَ الْمَوْتَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ، وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ، وَمِيلُنَا إِلَى الْإِخْتِصَارِ.

[قصة الحرقة ابنة النعمان بن المنذر مع المغيرة بن شعبه]

من ذلك أن المغيرة بن شعبه^(١) لما نزل الكوفة والياً أُعْلِمَ بِمَكَانِ الْحَرْقَةِ [وَأَسْمُهَا هِنْدٌ، وَالْحَرْقَةُ لَقَبٌ غَلَبَ عَلَيْهَا]^(٢) ابنة النعمان، وكانت مُعَمَّرَةً قد اعتزلت في دَيْرٍ لها وترهبت، فأمر

(١) هو المغيرة بن شعبه الثقفي، كان سبب إظهاره الإسلام أنه صحب قومًا، فاستغفلهم وهم نيام وقتلهم وأخذ أموالهم وهرب؛ فقدم المدينة وأظهر الإسلام،... وذكر الإمام المنصور بالله في الشافي أنه هو الساعي لصرف الأمر عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذكر قصته يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أبي بكر وعمر، وختم أيامه بالدعاء إلى بيعة يزيد، وشُهِدَ عَلَيْهِ بِالزُّنَى فَتَلَجَّلَجَ الرَّابِعُ ... قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: قال أصحابنا البغداديون: من كان إسلامه على هذا الوجه، وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به، من لعن علي عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل، وكان المتوسط من عمره الفسق والفجور وإعطاء البطن والفرج سؤالهما، وممالة الفاسقين، وصرف الوقت إلى غير طاعة الله، كيف تتولاه! وأي عذر لنا في الامساك عنه، وألَّا نكشف للناس فسقه. ١٠٥ من شرح النهج، وأورد بعد هذا الكلام كلاماً حسناً حول الخوض في مسألة الصحابة،... مات المغيرة سنة خمسين. (انظر شرح النهج: ج ٢٠ / ١٠). (انظر لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ٣ / ٢٥٤) (الشافي ط ٢ - ج ١ / ٤٣٧).

(٢) ما بين المعقوفين في الأصل أصل، وفي بقية النسخ أوردوه في الهامش، وقال: من خطه عليه السلام.

إليها يخطبها إلى نفسها، فقالت: لا حاجة لي فيه؛ إنما أراد ليرفع من نفسه ويضع مني، وإلا فأني خير في اجتماع أعور وعمياء، وكانت قد عميت، فلما علم ذلك منها نهض إليها فسلم عليها فسلمت عليه، فقال لها: أخبريني بأعجب شيء رأيت من أمركم، قالت: أعجب ما رأيت من أمرنا أن الشمس طلعت وما على وجه الأرض عربي إلا وهو يرجونا أو يخافنا، وغربت وما على وجه الأرض عربي إلا ونحن نرجوه ونخافه، تريد يوم أسر كسرى أباه، وأراد سبها فانهمزت في الرابطة^(١)، وطلبت الحيرة في قبائل العرب، فلقيتها مَلِيكة العَجَلِيَّة من ربيعة فشكت عليها فأجارتها، فاجتمعت قبائل ربيعة لذلك ولم يخلطهم من نزار أحد يقع له ذكر إلا الطَّمِيحُ الإيادي في أربعة آلاف من قومه، فحشد كسرى في تسعين ألفاً، فلقوه يوم ذي قار^(٢)، فكسروه وهزموا جنوده، وكان شعارهم اسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (الأمين الأمين) فنالوا ببركته ما نالوا، وكان ذلك من جملة الأطاف في إسلامهم، ويوم ذي قار يوم بدر بعينه، وهو في آخر العشر من رمضان، ولا أجتري على تعيينه.

ومثل ذلك ما روي عن أم جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أنها سُئِلت في يوم أضحى عن أعجب ما رأت من تقلُّب أحوال الدنيا، فقالت: إنَّ نظير هذا اليوم في العام الماضي وقع وعلى رأسي ستمائة وصيفة مختلفات الحلي والثياب، والله إني لأشتهي لحم عيدكم هذا فلا أقدر عليه، وكم لذلك من نظير، فنسأل الله تعالى الثبات في الأمر.

فالواجب على العاقل الاعتبار والازدجار، والنظر إلى نهاية هذه الدنيا دون بدايتها، وترك المنافسة في عزِّها المضمحل، وشرفها المتقل، فحلاوة رضاها لا تقوم بمرارة فطامها، وسرور ليالها لا يكا في غموم أيامها.

(١) الرابطة هي الخَيْلُ التي تحفظُ الثَّقْلَ، وَقِيلَ كَانَ فِي ثِقْلِهِ ثَمَانِمِائَةٌ دِرْع، ا.هـ. هامش الأصل.

(٢) ذو قار: منطقة في العراق شمال البصرة، سميت الوقعة باسمها، ويوم بدر: كانت في السنة الثانية من الهجرة قرب بئر تدعى بدر، على مسافة مائة وخمسين كيلومتراً تقريباً جنوب غرب المدينة باتجاه مكة، وكان عدة الذين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، وعدة المشركين في تسعمائة وخمسين، واستشهد من المسلمين أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من المشركين سبعون رجلاً من كبار القوم ورؤسائهم وصناديدهم، وأسر منهم سبعون، هذا على أغلب الروايات، فأظهر الله دينه وأعز جنده، ومن أراد التوسع في تفاصيل الوقعة فليراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٤/ ٨٤).

قوله عليه السلام: وَإِنَّ مَعَ الْحَيَاةِ مَوْتًا.

الحياة معنًى تصير به الأحاد جملة تجري عليها الأحكام. والموت معنًى يضادها على خلاف في ذلك بين أهل العلم.

وَمَعَهُ ذَلِكَ: أن الحيَّ إذا أخطر بباله أنه يموت لا محالة كان ذلك أكبر داعية له إلى الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، والإقبال على الآخرة، والرغبة فيها، إذ هي دار الخلود ودار الحيوان.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيْبًا.

كُلٌّ من ألفاظ العموم والاستغراق. والشَّيْءُ ما يصحُّ العلم به والخبر عنه مفرداً عن غيره. والحسيب فعيلٌ من المحاسبة. والرقيب مأخوذٌ من الترقب وهو التطلع والانتظار.

وَمَعَهُ ذَلِكَ: أن ما به شيءٌ يعلمه الإنسان في السرِّ والإعلان إلَّا وله عليه محاسبٌ من الله، وأنَّ العبد لا يقدم على صغيرة ولا كبيرة إلَّا والله تعالى عليها رقيبٌ، والملائكة شهودٌ. فكيف يجترئ العاقل والحال هذه أن يقدم على فعل معصية، أو ترك واجب من الطاعة.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثَوَابًا، وَلِكُلِّ سَيِّئَةٍ عِقَابًا.

الحَسَنَةُ في الأصل مأخوذةٌ من الحُسْن وهو المُلْحُ والحلاوة، فلما كانت الحسنة تؤدي إلى كل ملبح من ثواب الله تعالى سميت باسم ما تؤدي إليه، كما سمي القتال حَرْبًا لما كان يؤدي إلى الحَرْبِ الذي هو القتل والسلب، وأمثاله كثيرة وهو ظاهر في لسانهم، وإلا فالطاعة قد تكون شنيعة الظاهر موحشة، من ذلك الأشعثات والإغبرار، ونص الجبين لطعن الرماح، وضرب الشُّفار، وأكثر ما تقع الحسنة في مثل ذلك.

والسَّيِّئَةُ مأخوذةٌ من السُّوء، وهو الكريه المستشنع عرفاً، المستقبح لغة، فهو يسوء مُشَاهِدَهُ، هذا في أصل لغتهم، ولهذا أسماوا البرصَ سُوءًا، فحمل قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢١] على ذلك، معناه بياض من غير برص والله أعلم، وكانت تملأ المدينة نوراً تعشى له الأبصار، وهي نقیض الحسنة، وسميت سيئةً باسم ما تؤدي إليه؛ لأنها تؤدي إلى نكال الدنيا وعذاب الآخرة، وكل ذلك يسوء من شاهده، واقعاً له أو خائفاً من مواقعه، فيثقل^(١) من

(١) هكذا في الأصل، وفي نسخة أخرى: فَيَنْغَلُ، وفي نسخة أخرى: فَيَقِلُّ، ومعنى يَنْغَلُ: يفسد، ومعنى يثقل سَمْعُهُ: يذهب بَعْضُهُ، ا.هـ. (قاموس).

سماعه سمعُه، وينفر من موافقته طبعُه.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن الحسنة هي الطاعة، والسيئة هي المعصية، وهذا عامٌّ في كل معصية لم تُكفَّرْ، وطاعة لم تُعَفَّرْ، ونائل لم يُشَفَّرْ^(١)، وهذا حامل لكل ذي بصيرة على حراسة الحسنات من المحبطات، ومداواة السيئات بمترادف التوبات، وسمي الثواب ثواباً لرجوعه على العبد بالمسرة، أخذ من قولهم ثاب إذا رجع، ويسمى العقاب عقاباً لأنه يُسْتَحَقُّ عقيب فعل المعصية أو ترك الواجب من الثاني بلا فصل، فلتعقُّبه لذلك سمي عقاباً، ومنه سمي العقْبُ في جري الفرس عقباً لأنه يأتي بعد الجري الأول، ولمَّا كان الثاني يطأ عقَبَ الأول سُمِّي المتأخِّرُ عن الأول عقباً وعقاباً ومُعقِباً فافهم ذلك، والعقابُ على المعصية هو الألم والاستخفاف، ولا يكون عقاباً حتى يكون كذلك.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

الأجل هو غاية كل شيء ونهايته، ومن ذلك أخذ أجل المطلقة والمتوفى عنها زوجها؛ لأنه نهاية تربصها. **والكتاب** هاهنا هو العلم الكاشف عن نهاية الأجل، وأصل ذلك أن العالم يكتب علمه فسمي الكتاب لذلك علماً، وقد يسمى الشيء بالشيء إذا قُرب منه، كما سميت العلماء كراسي لقربهم من الكراسي التي تُترك عليها صحف العلوم، وسمَّوا العالمَ جِبراً - بكسر الحاء وهي أفصح اللغتين في ذلك - لكتابتِه علمه بالمداد الذي يسمَّى جِبراً.

فكأنه عليه السَّلام قال لكل غاية من أحوال ابن آدم في حياته أو موته أو غناه أو فقره أو صحته أو سقمه كتابٌ عند الله تعالى، أي علمٌ مكتوبٌ يدُلُّ عليه ملائكتُه ومن أطلع عليه؛ فيكون لطفاً لهم بالمشاهدة، ولنا بالخبر، فلا يَقْنَطُ القانط فيتوهم دوام شرِّه، ولا يغتر المغتر فيقطع على استمرار دوام خيره، بل الواجب أن يعلم أن لكل شيء من ذلك أجلاً معلوماً لا يتجاوزه، فيتلقى النعماء بالشكر، والبلوى بالصبر.

(١) أي لم يقلل ويكدر، تمت هامش (أ)، وقال في لسان العرب (ج ٤/ ٤١٨): التَّشْفِيرُ قلة النفقة، وعَيْشٌ مُشَفَّرٌ: قليل ضيق.

قوله عليه السلام: إِنَّهُ لَا بَدَّ لَكَ يَا قَيْسُ مِنْ قَرِينٍ يَدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ، وَتُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ.

القرين أصله في الإبل، يُقَرَن الصعْبُ إلى الدَّلُول، فلا يزال يجاذبه حتى يلين رأسه، قال قائلهم^(١):

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرَنِ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ^(٢)

وقد كان ابن العدوية - وهو نوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى^(٣) وكان من شياطين قريش - قَرَنَ أبا بكر وطلحة لما أسلما في حبل، فُسِّمَ القرينين لذلك، وكذلك سُمي عبيد بن أوس الأوسي مُقَرَّنًا لأنه قرن يوم بدر أربعة أَسَارَى، فيهم عقيل بن أبي طالب^(٤)، فُسِّمَ مُقَرَّنًا.

(١) هو جرير (٢٨-١١٠ هـ) جرير بن عطية بن حذيفة الحطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. وعاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجلهم - وكان هجاءً مُرًّا - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل.. وهو من أغزل الناس شعراً. وقد جمعت نقائضه مع الفرزدق في ثلاثة أجزاء، وديوان شعره مطبوع في جزأين، وأخباره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جداً. (الأعلام للزركلي ١١٩/٢).

(٢) الْقَنَاعِيسُ بالكسر من الإبل: العظيم، والرَّجُلُ الشديد المنيع، جمعها: قَنَاعِيسُ. (القاموس: ٥٦٨).

(٣) نوفل بن خويلد بن أسد القرشي: من أشد قريش شجاعة وأذى للمسلمين في الجاهلية، كان يدعى: أسد قريش، شهد بدرًا مع قريش، وكان النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يدعو يوم بدر: ((اللَّهُمَّ اكفنا ابن العدوية)) وأمه من بني عدي بن خزاعة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر، (الأعلام للزركلي ٨/٥٤).

(٤) عقيل بن أبي طالب أخو أمير المؤمنين عليهما السلام لأمه وأبيه، وكان يكنى أبا يزيد، قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((يا أبا يزيد إني أحبك حين حباً لقربائك مني، وحباً لما كنت أعلم من حُبِّ عمي إياك)). أُخْرِجَ عقيلٌ إلى بدر مُكْرَهًا كما أُخْرِجَ العباس، فَأَسِرَ وَفُدي وَعَادَ إلى مكة، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية، وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر، وتوفي في خلافة معاوية، وعمره ست وتسعون سنة... ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين شيئاً من حروبه أيام خلافته، وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه ولم يكلفه حضور الحرب... وكان أنسب قريش وأعلمهم بأيامها وكان مُبْغِضاً إليهم لأنه كان يعد مساوئهم، وكانت له طنفسة (بساط) تطرح في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيصلي عليها ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب وكان حيثن قد ذهب بصره وكان أسرع الناس جواباً وأشدهم عارضة... واختلف الناس في عقيل هل التحق بمعاوية وأمير المؤمنين حي أم بعد وفاته. قال الإمام الحجة مجد الدين المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار (ط ٣- ج ٣/٢٢٤): قلت: والصحيح أنه لم يصل إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام. قال شارح النهج:

والدفن هو المواراة، والمراد بالحي هاهنا العمل، فالتوبة تُمِيتُ المعاصي، على معنى أنها ترفع وتزيل حكمها، والمعصية الكبيرة تُمِيت الحسنات، على معنى أنها ترفع وتزيل حكمها، وذلك كله مجاز، والخطاب به من الله تعالى ومن رسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ جازز، خلافاً لما ذهب إليه الحشوية^(١)، وإنما دُفِنَ مع الإنسان وهو حي لبقاء حُكْمِهِ، فلا يظن أنه قد مات؛ لأنه لا بد من الحساب على الحسنات والسيئات، فعلى العاقل أن يتفقد هذا الحي المدفون الذي هو العمل، فيميت سيئاته بالتوبة، ويحيي حسناته بالاستغفار والاستقامة.

قوله عليه السلام: وَتُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ.

يريد أن حكم العمل لا يفارق صاحبه حياً ولا ميتاً، وأنه حاكم على الإنسان في حال موته كما أن الإنسان حاكم على العمل في حال حياته، متمكن من الزيادة والنقصان، فنسأل الله تعالى الاستكثار من صالح العمل، قبل حلول الأجل.

قوله عليه السلام: فَإِنْ كَانَ كَرِيماً أَكْرَمَكَ، وَإِنْ كَانَ لَثِيماً أَسْلَمَكَ.

مثل عَلَيْهِ السَّلَامُ العمل بالرفيق في الطريق المَخُوف، فَإِنْ كَانَ وثيقاً شريفاً مخوف الجانب لم يُقَدِّم من يلقاك في ذلك الوجه عليك بمكروهه، وإن كان لثيماً راضعاً^(٢) دُيِّتاً لم يُخَفْ جانبه،

وهذا هو الأظهر عندي، وعرض نفسه وولده على أمير المؤمنين عليه السلام فأعفاه، وجوابه عليه في النهج وغيره؛ وله جوابات على معاوية مسكتة، منها: قوله وقد سأله أين يكون عمك أبو لهب؟ قال: إذا دخلت جهنم فاطلبه تجده مضاجعاً لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية - يعني حمالة الخطب، انتهى كلام الإمام مجد الدين المؤيدي عليه السلام. (وللمزيد انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١١ / ٢٥٠).

(١) الحَشَوِيَّةُ: فرقة يسمون أنفسهم بأنهم أصحاب الحديث وأنهم أهل السنة والجماعة، وهم بمعزل عن ذلك، إلا أنهم مجمعون على الجبر والتشبيه، ويقولون: إن الله تعالى على العرش، ويجوزون عليه النزول والصعود، ويثبتون الأعضاء لله سبحانه، ويروون: له يدان كلتاها يمين، ويقولون بِقَدَمٍ ما بين الدفتين من القرآن، ويدَّعون أن أكثر السلف منهم وهم براء من ذلك، وينكرون الخوض في الكلام والجدل، ويعولون على التقليد وظواهر الروايات. (انظر كتاب الشافي ط ٢ - ج ١ / ٣٧٠).

(٢) لَثِيْمٌ رَاضِعٌ: أي يَرْضَعُ اللَّبَنَ مِنَ الصَّرْعِ لِثَلَا يُسْمَعُ صَوْتُ الحَلْبِ فَيَطْلَبُ مِنْهُ اللَّبَنُ، تمت ضياء، هامش (أ). (انظر القاموس المحيط: ٧٢٢).

ورَهَقَتْكَ^(١) من المخوف نوابه، وأصل الكريم عند العرب الشريف، النفيس القدر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ [الشعراء: ٥٨، الدخان: ٢٥] وقال في شراب أهل النار نعوذ بالله منهم: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ [الواقعة] يريد ولا شريف والله أعلم، فإذا قُصِدَ به الإنسان أفاد السيد الجحججاج الذي لا يُكَدَّرُ شَرُّهُ، ولا يُرَوَّعُ سِرُّهُ^(٢)، ومن ذلك قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في عدي بن حاتم^(٣) لَمَّا تَنَحَّى عن المخدَّة: ((إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ)) فكان فعالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لُطْفًا في إسلامه، فرفيقه معه في الطريق المخوف أَمْنٌ من التبعات.

واللثيم عندهم هو البخيل الدني المَهين، لا يمنع جازه، ولا يكرم زواره، وأصل الكرم واللؤم مأخوذ من الإبل، يقال ناقة كريمة إذا كانت غزيرة حسنة الخلق، تَدُرُّ عند الإِبَسَاسِ^(٤)، وتأنس بالنقر^(٥) والإيناس، والناقة اللثيمة بخلاف ذلك، قليلة اللبن، سيئة الخلق، تَزِينُ^(٦) حالبها على غير طائل، وتمنع الموجود المبس السائل، ثم نقل ذلك إلى الناس، وقد يبالغون في ذلك حتى يسمون اللثيم لؤماً وينسبون إليه، قال شاعرهم وأحسبه جريراً في

(١) رَهَقَهُ بِالْكَسْرِ يَرْهَقُهُ رَهَقًا: أَيُ غَشِيَهُ، (النهاية ٢ / ٢٨٣).

(٢) السَّرْبُ: الْقَطِيعُ مِنَ الطَّيْرِ وَالشَّاءِ وَغَيْرِهَا، وَالطَّرِيقُ، وَالْبَالُ، وَالْقَلْبُ، وَالنَّفْسُ، (القاموس: ٩٦).

(٣) عدي بن حاتم الطائي، الجواد بن الجواد، قدم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سنة تسع، فأكرمه وفرح بإسلامه، وشهد فتوح العراق وكسرى، وفتوح الشام، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه، وكان من خلص أصحابه ومحبيه؛ ثم نزل الكوفة ومات سنة ثمان وستين، عن مائة وعشرين.

خرج له: الجماعة، وأمتنا الخمسة، إلا المؤيد بالله (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣ / ٢١٨).

(٤) الإِبَسَاسُ: قَوْلُ الْحَالِبِ بِسِيسٍ، يُقَالُ لِلنَّاقَةِ عِنْدَ الْحَلْبِ، تَمَتْ ضِيَاءُ. هامش (أ).

(٥) النَّقْرُ: أَنْ تُلْزِقَ طَرْفَ لِسَانِكَ بِخَنَكِكَ ثُمَّ تُصَوِّتَ، أَوْ هُوَ اضْطِرَابُ اللِّسَانِ، أَوْ هُوَ صَوْتُ تَزَعُّجٍ بِهِ الْفَرَسُ، قاموس، هامش (أ). (القاموس المحيط: ٤٨٦).

(٦) الزَّيْنُ دفع الشيء عن الشيء كالناقة تَزِينُ ولدها عن ضرعها برجلها وتَزِينُ الحالب، (لسان: ١٣ / ١٩٤).

رؤية بن العجاج^(١):

أَبَا رَاجِيزِ يَا ابْنَ اللَّؤْمِ تُوْعِدُنِي وَفِي الْأَرَاكِيزِ خِلْتُ اللَّؤْمَ وَالْخَوْرَ

هكذا روايته بالرفع، فكأنه ألغى (خِلْتُ) وذلك عندهم جائز في مثل هذا، والحديث ذو شجون.

قوله عليه السلام: ثُمَّ لَا يَحْشُرُ إِلَّا مَعَكَ، وَلَا تُبْعَثُ إِلَّا مَعَهُ.

الحشر هو الجمع والسوق، وفي الحديث أن الناس يحشرون إلى جهة الشام عراة حفاة بُهْمًا^(٢)

فكأنه عليه السَّلام قال يساق معك عملك إلى موقف الحساب، فانظر أي صاحب تستصحب.

((وَلَا تُبْعَثُ إِلَّا مَعَهُ)) البعث والنبث في نظائرهما معناه استخراج الشيء من الشيء، هذا في

الأصل، فإذا خرج الميت من التراب قيل بَعِثُ ومبعوث، يقول: عند خروجك من الجدث وهو

البعث يخرج معك عملك، وهذا تنبيه على شدة ملازمة العمل للعامل، ومن هذا يفزع كل عاقل.

(١) رُؤْيَا بَنِ الْعَجَّاجِ (٠٠٠ - ١٤٥ هـ) رؤية بن عبد الله العجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو الجحَّاف:

راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية، وقد أسنّ. ا.هـ.

(الأعلام للزركلي ٣/ ٣٤) وقال ابن خلكان في الوفيات أيضا (٢/ ٣٠٤): ... وكان رؤية مقبياً بالبصرة، فلما

ظهر بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وخرج على أبي جعفر

المنصور وجرت الواقعة المشهورة؛ خاف رؤية على نفسه وخرج إلى البادية ليتجنب الفتنة، فلما وصل إلى

الناحية التي قصدها أدركه أجله بها، فتوفي هناك سنة ١٤٥ هـ. ا.هـ.

والعجب كل العجب من تسميتهم وإطلاقهم على خروج أئمة أهل البيت عليهم السلام على الطغاة والظلمة

طلباً للعدل وإقامة الشريعة بأنها (فتنة)، وهو ديدنهم ابتداءً بسيد الوصيين ثم الحسين بن علي وزيد بن علي

والنفس الزكية والنفس الرضية عليهم السلام... الخ.

(٢) الْبُهِمُ جَمْعُ بَهِيمٍ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ لَوْنَهُ لَوْنُ سِوَاهُ، يَعْنِي لَيْسَ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْعَاهَاتِ

وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا كَالْعَمَى وَالْعَوَرِ وَالْعَرَجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ أَجْسَادُ مُصَحَّحَةٍ لِحُلُودِ الْأَبَدِ

فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ. (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٦٧).

قوله عليه السلام: وَلَا تُسْأَلُ إِلَّا عَنْهُ.

زيادة تأكيد في الحُصْ على إصلاحه واستنجا به^(١) مخلصاً، يقول إنك تُسأل عن عملك لا محالة، كما يقول الرَّصْدُ^(٢) للمارِّ: من رفيقك؟ فإن استصحب منيع الجانب نجا ولم يُعرض له إلا بخير، وإن استصحب لثيماً راضعاً^(٣) أَشْبَعَ من لحمه الطير، وعند السؤال يبادر إلى الاعتصام بذكره إن كان كريماً، ويلوذ بالجمجمة^(٤) والتورية إن كان لثيماً، وفي هذه الألفاظ لطفٌ عظيم لمن فهم معناها.

قوله عليه السلام: فَلَا تَجْعَلْهُ إِلَّا صَالِحاً.

وهو القرن المقدّم الذكر، والمراد العمل، فلما قُرِنَ به الإنسان سُمِّيَ قريناً كما قدمنا في مثله. ومعنى الصالح هو السالم من العيوب والمطاعن القادحة.

قوله عليه السلام: فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحاً لَمْ تَأْنَسْ إِلَّا بِهِ، وَإِنْ كَانَ فَاحِشاً لَمْ تَسْتَوْحِشْ إِلَّا مِنْهُ، وَهُوَ فِعْلُكَ.

يريد يوم الخوف الأكبر وهو يوم المحشر، تأنس به إن كان صالحاً وتستوحش منه إن كان لثيماً فاحشاً. **الفَحْشُ** والقبح والشواعة معناها في أصل اللغة واحدٌ، ولها في اللغة نظائر. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَهُوَ فِعْلُكَ، وصدق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ من الأصحاب من يُستوحش منه قبل لقاء العدو، لِمَا يُعَايِن من قلة ثباته واضطرابه وتخوفه وإرعابه حتى يكون أَهَمَّ عليك ممن بين يديك لإلقائه بَعَاغٍ^(٥) جُبْنِهِ عليك.

(١) أي جعله نجيباً، والنَّجِيبُ: الْفَاضِلُ الْكَرِيمُ.

(٢) الرَّصْدُ: الْقَوْمُ يَرْصُدُونَ كَالْحَرْسِ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ وَالْمُؤَنَّثُ، هـ. (لسان العرب: ٣/ ١٧٧).

(٣) لَثِيمٌ رَاضِعٌ: أَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْضَعُ إِبِلَهُ، لِثَلَاثِ مَسَمَعِ صَوْتٍ حَلْبِهِ فَيَطْلُبُ مِنْهُ، (القاموس: ٧٢٢). وقد مرَّ.

(٤) جَمَجَمَ الرَّجُلُ وَتَجَمَجَمَ: إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ كَلَامَهُ، (مختار الصحاح ٦٢).

(٥) الْبَعَاغُ: الْجَهَازُ وَالْمَتَاعُ.. أَلْقَى بَعْعَهُ وَبَعَاعَهُ أَيِ ثَقَلَهُ وَنَفْسَهُ، وَقِيلَ: بَعَاعُهُ مَتَاعُهُ وَجَهَازُهُ. وَالْبَعَاغُ: ثِقْلُ السَّحَابِ مِنَ الْمَاءِ... (لسان العرب ٨/ ١٧).

الحديث الثالث

عَنْ^(١) أَبِي الدَّرْدَاءِ^(٢)، وَاسْمُهُ عُوَيْمِرُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ زَيْدِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ هَذَا عَظِيمُ الْخَطَرِ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْعُلَمَاءِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هُمْ ثَلَاثَةٌ، رَجُلٌ بِالشَّامِ، يَعْنِي نَفْسَهُ، وَرَجُلٌ بِالْكُوفَةِ، يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالَّذِي بِالشَّامِ يَسْأَلُ الَّذِي بِالْكُوفَةِ، وَالَّذِي بِالْكُوفَةِ يَسْأَلُ الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ، وَالَّذِي فِي الْمَدِينَةِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تَشْغَلُوا، وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ تَسْعُدُوا، وَأَكْثَرُوا الصَّدَقَةَ تَرْزُقُوا، وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ تُخْصَبُوا، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ تُنْصَرُوا، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَكْيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَحْزَمَكُمْ أَحْسَنُكُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ، أَلَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَاتِ الْعَقْلِ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّزَوُّدَ لِسُكْنَى الْقُبُورِ، وَالتَّأَهُبَ لِيَوْمِ النُّشُورِ))^(٣).

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه قال حدثنا علي بن عبد العزيز قال حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام الجُمُحِي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا محمد بن أبي عدي عن عبد الله بن مرة عن أبي الدرداء.... الحديث.

(٢) قال الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام: أبو الدرداء، عويمر بن مالك - وقيل: عامر، وقيل: ابن ثعلبة - الأنصاري، الخزرجي، أسلم عقيب بدر، كان من عبّاد الصحابة، ولاء عثمان دمشق.. توفي سنة اثنتين وثلاثين. (لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ٣/ ٢٧٢).

(٣) الجزء الأول من الحديث روي في صحيح مسلم رقم (١١٨) سنن ابن ماجه (٣٤٣/١) برقم (١٠٨١) ومسند أبي يعلى (٣/ ٣٨١) ومسند الشهاب للقضاعي (١/ ٤٢٠) وشعب الإيمان للبيهقي (٤/ ٤٢٣) برقم (٢٧٥٤). والجزء الأخير من الحديث رواه: ابن أبي شيبة أيضاً (٧/ ٧٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٤٤) والطبراني في الصغير (٢٠٩) والبخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١/ ٣٩٤) وابن أبي حاتم في الجرح (٤/ ١/ ٣٣٠) وروى الحديث بكامله ابن أبي الدنيا في كتاب الموت.

[التوبة]

التوبة والرَّجْعَةُ معناهما في أصل اللسان واحدٌ، ولا فرق عندهم بين قول القائل: تاب فلان إلى بارئته، وبين قوله: رجع إلى بارئته، وقد ورد هذا الأمر من يجب اتّباعه، وهو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ، وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦١] وإنما أمر بها قبل الموت لأنها الحال التي يقع للتوبة فيها تأثير؛ لأنها حال بقاء التكليف، وإلا فمعنى التوبة في مستحقي العقاب من أهل الآخرة موجود، فلا يغني عنهم ذلك من عذاب الله تعالى شيئاً.

ومعنى التوبة الندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود إلى مثله لأجل قبحه، وهو يتعلق عندنا بالْجُمْلِ والتفاصيل، على معنى أنها تصح من ذنب دون ذنب، وبين أهل العلم في ذلك خلافاً، غير أننا نقول أنها إذا وقعت من ذنب وبقي مُصِراً على كبيرة بقي مستحقاً للعقاب والدم، هذا أكثر ما فيه، وإلا فعندنا -بل هو إجماع الأمة- أن من تاب من النصرانية إلى دين الجبرية أن توبته صحيحة، وأنه قد خرج من حكم النصاري إلى حكم المسلمين، وإن كان عندنا مُصِراً على ذنب عظيم، بل من أئمتنا عليهم السلام من جعله كفراً، وكذلك من المجوسية وبقي مُصِراً على ظلم دينارٍ لرجلٍ؛ كانت توبته صحيحة بلا خلاف، وإن عُدَّ ظالماً.

والتوبة من أقوى أساس الدين، بل هي قاعدة الدين، ولو لم يكن فيها إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة] لكان كافياً، إذ المعلوم من أهل الدنيا أنهم يُعْرِضُونَ نفوسهم للأخطار العظيمة، والمصائب الجسيمة، كالقتل والجراح وذهاب الأولاد والعشائر والأموال والذخائر؛ ليحبهم سلطان الدنيا المسكين الضعيف الذي لا يقدر على مكافأتهم بشيء إلا وأصله من الله، وربما لا يصلون إلى ذلك، إما لبخله، أو لعجزه، أو لاخترامهم دونه، وهو مع ذلك حقير، والذي عند الله باقٍ دائمٌ عظيمٌ خالصٌ من المكدرات، وفي هذا معتبر.

فالواجب على العاقل الفزع إلى التوبة، والمبادرة بها عند إرهاق^(١) الذنوب وتظاهر الخُوب، ومن نعم الله علينا وعلى الناس -ولكن أكثر الناس لا يشكرون- أن جعل باب التوبة مفتوحاً لتتدارك بها ما فات، ونحیی بها ما مات، وفي ذلك ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ أنه

(١) الإِرْهَاقُ: الغَشْيَانُ، هامش (أ).

قال: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَ بَاباً لِلتَّوْبَةِ عَرَضُهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ)) وهذه مِنَّةٌ جسيمة على هذه الأمة المرحومة تصغر عندها المنن، وفي هذا الخبر دلالة على أن طلوع الشمس من المغرب من آيات الله العظام التي ينقطع التكليف عندها، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وذلك لا يكون إلا بغتة.

فالواجب على كل عاقل أن يُنسي تائباً ويُصبح تائباً، وخاصة الإصباح، وإن كان في المُمسَى^(١) مخوف آخر وهو مفاجأة الحِمام في المنام، فقد وقع ذلك بكثير من الناس، فالأمر - والله المستعان - متقارب، وأما في الصباح فخيفةٌ من مفاجأة هذه الكائنة الهائلة.

قوله عليه السلام: وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا.

المبادرة والمسارعة والحُثَّةُ والمسابقة هو توجيز^(٢) الفعل في وقت الحاجة إليه، والعجلة توجيز الفعل قبل الحاجة إليه، فالمبادرة محمودة، والعجلة مذمومة، ومعنى الجميع واحد وإنما تختلف بالأوقات.

ومدار التكليف - زاده الله تعالى شرفاً وجِدَّةً - على وجهين: فعل وترك، فالفعل على وجهين: فعل قلب، وفعل جارحة، وفعل الجارحة على وجهين: فعل اللسان وفعل الأركان، وجميع هذا التكليف المتعلق بهذه الجوارح في الفعل والترك ينقسم إلى واجب ونَدْب، والترك يتعلق بالقلب أيضاً واللسان وسائر الجوارح على نحو ما قدمنا في الفعل، فعلى هذه الأقسام مدار التكليف العقلي والشرعي.

فالواجب على العاقل أن يعرف أحكام الأفعال؛ ليؤدي كلَّ شيءٍ من ذلك مطابقاً لمراد الحكيم تعالى منه فيخرج من عهده ما لزمه، ووجوب ما هذا حاله معلومٌ لكلِّ عاقل متأمل، ألا ترى أننا لو علمنا أنَّ بين أيدينا ملكاً قادراً؛ وعَلِمْنَا أنَّ علينا له حقاً واجباً، وعلمنا أنه لا يقبل في حقه إلا نقداً مخصوصاً، وعلمنا أننا قادمون عليه لا محالة؛ فإنَّ كلَّ عاقل متأمل يعلم وجوبَ تعرُّف ذلك النقد وتحصيله ليخلص بتسليمه من

(١) المُمسَى: الإمساء، والاسمُ: المُسَيُّ، بالضم والكسر. (القاموس: ١٣٣٤) وكذلك المُصْبِحُ، كُمُكْرَمٍ: مَوْضِعُ الإصْبَاح، وَوَقْتُهُ. (القاموس: ٢٢٧).

(٢) تَوْجِيزُ الْفِعْلِ بِمَعْنَى تَجْزِئِهِ وَتَجْهِيْزِهِ، أَي فُضِّئَتْ وَإِنْهَئَتْ، قَالَ فِي تَهْذِيبِ اللُّغَةِ: أُنْجِزَ عَلَيْهِ وَأَوْجِزَ وَأُجْهِزَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

عُهُدَةً مَا لَزِمَهُ، وَمَا بِهِ فَعَلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ حُكْمٌ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِيهِ الزُّبُرُ﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿[القمر]﴾ وَإِنَّمَا خَصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ الْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ لِأَنَّ عَامِلَهَا غَانِمٌ، وَتَارِكُهَا غَارِمٌ، وَصَلَاحُهَا سَلَامَتُهَا مِنْ آفَاتِ التَّبَعَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَفْعَالِ الْمُقْبِحَاتِ، وَلَمَّا تَعَلَّقَتْ بِهَا إِرَادَةُ الْحَكِيمِ اخْتَصَّ ذَلِكَ الْوَصْفُ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْدُوبَاتِ؛ إِذْ قَامَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْمُبَاهَاتِ.

قوله عليه السلام: قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا.

يُرِيدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا يَحْدُثُ مِنْ مَوَانِعِ الْأَسْقَامِ وَحَوَادِثِ الْأَيَّامِ الَّتِي لَا يَنْجُو مِنْهَا فِي مَجْرَى الْعَادَةِ أَحَدٌ.

[حال عبد الملك بن مروان عند موته والعبرة في ذلك]

وَفِي الرِّوَايَةِ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ ^(١) لَمَّا أَصَابَتْهُ الْعِلَّةُ كَانَ يُطَلُّ مِنَ الرَّوْشَنِ ^(٢) فَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا أَهْلَ الْعَافِيَةِ؛ لَا تَعْبُطُوا الْمُلُوكَ عَلَى مَلِكِهِمْ؛ فَوَاللَّهِ مَا رَزَقَ اللَّهُ أَحَدًا أَجَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ، وَأَصَابَتْهُ عِلَّةٌ قَضَى لَهُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالطَّبِّ أَنَّهُ إِنْ شَرِبَ مَاتَ لَا مُحَالَ، فَلَمَّا جَهَدَهُ الْعَطَشُ دَعَا بِالمَاءِ فَمُنِعَ مِنْهُ، فَدَعَا بِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ فَسَأَلَهَا المَاءَ فَسَقَتْهُ فَمَاتَ مِنْ حِينِهِ.

وَهَذِهِ نَصِيحَةٌ مِنْ طَيِّبِ الدِّينِ وَمُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَمُرْشِدِ الضَّلَالِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ لَا تَسَاوِيهَا رَغَائِبُ الْأَمْوَالِ، فَالْوَاجِبُ قَبُولُهَا، وَالْمُبَادَرَةُ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ نَزُولِ الْأَشْغَالِ، وَالْأَشْغَالُ هِيَ الْمَوَانِعُ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ، وَأَحْسَبُ أَنَّ تَفْسِيرَهُ قَدْ تَقَدَّمَ.

(١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، يَكْنِيهِ أَوْلِيَاؤُهُ: أَبُو الْوَلِيدِ وَأَبَا مَرْوَانَ، وَكُنْيَتُهُ اللَّازِمَةُ رَشَحُ الْحَجَرِ لِبَخْلِهِ، وَأَبُو الذَّبَابِ لِبَخْرِهِ، وَكَانَ أَفْوَهَ، مَفْتُوحُ الْفَمِ مَشْبِكُ الْأَسْنَانِ بِالذَّهَبِ، وَهُوَ الْمُجَهِّزُ الْجُنُودِ الْعَظِيمَةِ إِلَى حَرَمِ اللَّهِ وَحَرَمِ رَسُولِهِ، وَرَامِي الْكَعْبَةِ بِالْمَجَانِيقِ، وَأَمْرٌ بِهَدْمِهَا وَرَدِّهَا عَلَى أَسَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَوَلَّى الْحِجَاجَ بَنُ يُوسُفَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَفَعَلَ الْعَظِيمَ، وَرَكِبَ الْجَسِيمَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِظَائِمِهِ إِلَّا تَوَلَّى الْحِجَاجَ عَلَى أَمْرِ الْأُمَّةِ مَعَ ظُهُورِ أَمْرِهِ، وَعَمُومِ شَرِّهِ... تَوَلَّى سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِينَ، وَتَوَلَّى لِلنَّصَفِ مِنْ شَوَالِ سَنَةِ سِتِّ وَثِنَانِينَ، وَدُفِنَ بِدِمَشْقَ، وَكَانَ عَمَرُهُ سِتِينَ سَنَةً عَلَى خِلَافِهِ. (انظر كتاب الشافي ط ٢ - ج ١ / ٤٨٣).

(٢) الرَّوْشَنُ: الْكُوَّةُ وَالرُّفُّ كَمَا فِي (لِسَانِ الْعَرَبِ) وَ (الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ) وَقَالَ فِي حَوَاشِي شَرْحِ الْأَزْهَارِ: الرَّوْشَنُ: مَا يُخْرُجُ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَى هَوَاءِ الشَّارِعِ، وَهُوَ صَغِيرُ الْحُجْمِ، أَهْ أَثَارِ.

قوله عليه السلام: وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ تُسْعَدُوا.

الوصل نقيض القطع، وهو خلط الشيء بالشيء وإحامه فيه، ومن ذلك الحديث في الوصلة التي تصلُ شعراً بشعر الناس. **والربُّ** هو السيّد المالك، وسمي ربّاً لتربيته مملوكه، وهو غذاؤه وترشيحه^(١)، يقال ربّاه وربّته بمعنى واحد، وقد قال راجزهم في صفة الفرس:

كَانَ لَنَا وَهُوَ قُلُوبُ نَزِيْبِهِ^(٢) مُجْعَتُنِ الْخَلْقِ يَطِيرُ رَعْبُهُ

يريد نصنعه ونرشدّه، هذا هو الأصل، ثم كثر ذلك حتى استعمل في المالك وإن لم يقع منه تربية، وهذا الاسم للباري تعالى على وجه الحقيقة؛ لأنه الذي ربّانا ورشدنا وصنعنا، وهو مع ذلك مالكنّا، ومالك آبائنا وأمّهاتنا، فنحن خولُه^(٣) على وجه الحقيقة، فلا نستطيع القيام بما يجب علينا إلّا مع ضربٍ من العفو والمسامحة.

قوله عليه السلام: تُسْعَدُوا.

يريد تسلموا وتغنموا، أصل السعادة في اللغة السلامة والغنمة، ولا فرق في لسانهم بين الجّد والسعد، بل يفسرون أحدهما بالآخر، وقد كان بسطام بن قيس^(٤) يسمى ذا الجدين لأنه كان مظفراً في الغارات يسلم ويتغنم، فجاء الإسلام فاستقام على كفره وكان نصرانياً، فأغار على بني

(١) التّرشِيحُ: التّربية والتّهْيئةُ لِلشَّيْءِ. (النهاية: ٢/ ٢٢٥).

(٢) قَالَ فِي: (الْمُحْكَمُ وَالْمَحِيطُ الْأَعْظَمُ) بَعْدَ أَنْ أُوْرِدَ الْبَيِّنَاتُ بِلَفْظِ: (نَزِيْبِهِ) مَا لَفْظُهُ: كَسَرَ حَرْفَ الْمُضَارَعَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّ ثَانِي الْفِعْلِ الْمَاضِي مَكْسُورٌ [رَبِيْبُهُ] كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ سَيَّوِيْهِ فِي هَذَا النَّحْوِ وَهِيَ لُغَةٌ هُذَيْلٍ فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْفِعْلِ. ا.هـ.

وَالزَّعْبُ أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْ شَعَرِ الصَّبِيِّ، وَالْمُهْرُ، وَرِيْشُ الْفَرَسِ، وَاحِدُهُ رَعْبَةٌ. (لسان العرب ١/ ٤٥٠).
وقال في هامش الأصل: الْمُجْعَتُنِ: مُجْتَمِعُ الْخَلْقِ. ا.هـ.

والرجز نسبة الجوهري في الصحاح لـ (ذُكَيْنِ بْنِ رَجَاءٍ)، وهو ذُكَيْنُ بْنُ رَجَاءِ الْفُقَيْمِيِّ التَّمِيمِي، راجز أموي مشهور، توفي سنة ١٠٥ هـ. ا.هـ.

(٣) الْحَوْلُ: الْعَيْدُ، الْمَمَالِيكُ آبَاؤُهُمْ وَأُمَهَاتُهُمْ، هَامِشُ الْأَصْلِ.

(٤) بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ مَسْعُودِ الشَّيْبَانِي، أَبُو الصَّهْبَاءِ: سَيِّدُ شَيْبَانَ، وَمِنْ أَشْهُرِ فُرْسَانَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِفُرْسِيَّتِهِ. وَكَانَ يُقَالُ: أَعْلَى فِدَاءٍ مِنْ بِسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ، أَسْرَهُ عَيْنُهُ بْنُ الْحَارِثِ، فَافْتَدَى بِأَرْبَعِمِائَةِ نَاقَةٍ وَثَلَاثِينَ فَرَساً. أَذْرَكَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يُسْلِم. وَقَتْلُهُ عَاصِمُ بْنُ خَلِيفَةَ الضُّبِّي يَوْمَ الشَّقِيقَةِ (بعد البعثة النبوية) قَالَ الْجَاهِلِيُّ: بِسْطَامُ أَفْرَسُ مَنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ. (الأعلام للزركلي ٢/ ٥١).

ضَبَّةَ فقتله عاصم بن خليفة الضَّبِّي ولم يكن يُظَنُّ مثل ذلك^(١)، فقال في ذلك الشاعر:

وَفَاعِلٌ فَعَلَاتٍ لَمْ تَظُنَّ بِهِ كَعَاصِمٍ إِذْ تَوَلَّى قَتْلَ بِسْطَامٍ

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَمَرْنَا - وهو واجب الاتِّباع - بوصل الذي بيننا وبين ربَّنَا، ولا غنى لأحدٍ عن ذلك؛ لأنَّ العبد لا يستغني عن صلة مولاه وتحريِّ رضاه، لو لم يكن بينه وبينه إلا مجردُ المِلْك، فإنَّ كان الذي أوجده وأحياه، وأطعمه وسقاه، وملَّكه وأقناه، ولا مالكَ له سواه، وهو محتاجٌ إليه في مضبَّحه ومُمساه؛ فإنَّ قُبْحَ قطع ما بينه وبينه يلحقُ بالضروريات الأوليات، وأنت إذا تأملتَ الأحوال والأوقات رأيتَ من النعم الكبار الجليلة الأخطارَ ما لا يقومُ بها شكرُنا، ولا يؤدي أقلَّ قليلها كثيرُ جُهدنا، ولم لا يكونُ الأمرُ كذلك؛ وما به طُرفة عينٍ إلا وعليْنَا منه نعمةٌ مُجدَّدة لا نقدر على إحصاء عدِّها وتكْييفِ حدِّها، ولكن جملة ذلك أنا وما نتقلَّبُ فيه في ليلنا ونهارنا من تناول محبوب وإدراك مطلوب من جوده تعالى وكرمه.

التفسير قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يوصِلَ﴾

والذي نخترُ في معنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((وَصِلُوا الَّذِي يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِي رَبَّكُمْ تُسْعِدُوا)) أنَّ المراد بذلك ولَاءُ آلِ مُحَمَّدٍ عليه وعليهم أفضلُ السلام، وإنَّا قلنا ذلك لأنَّ السعادة تثبتُ بثبات ولائهم عليهم السلام، وتزول بزواله.

فإن قيل: فهذا ثابتٌ في المؤمنين، قلنا: ولا سواء؛ لأنهم قائلون في ذلك بأنفسهم، ولا إيمان للمؤمنين إلا بهم، وذلك ثابتٌ فيما رويناه بالإسناد الموثوق به إلى أبي ذرٍّ الغفاري أنه قال - وهو أخذٌ بحلقة باب الكعبة على أسباع الحجيج وأعيانهم، فكان ذلك سبب تواتر هذا الخبر، وأبو ذرٍّ

(١) قَتَلَهُ يَوْمَ الشَّقِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي شَيْبَانَ فِيهِمْ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ أَغَارُوا عَلَى بَنِي ضَبَّةَ وَاسْتَأْفَوْا إِيْلَهُمْ، فَهَبَّ بَنُو ضَبَّةَ وَأَدْرَكُوا بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ، فَلَمَّا لَحِقُوهُ جَعَلَ بِسْطَامُ يُعْرِقُ الْإِبِلَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا بِسْطَامُ؛ مَا هَذَا السَّفَهَ، لَا تَعْرِقْهَا لَا أَبَا لَكَ، إِمَّا لَنَا وَإِمَّا لَكَ، ثُمَّ ضَرَبَهُ عَاصِمُ بْنُ خَلِيفَةَ الضَّبِّيَ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ عَاصِمٌ ضَعِيفًا، وَرَأَتْهُ أُمُّهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَمَعَهُ حَدِيدَةٌ؛ فَقَالَتْ لَهُ: مَا تَفْعَلُ بِهَذِهِ؟ فَقَالَ: أَقْتُلُ بِهَا بِسْطَامًا، فَقَالَتْ مُسْتَنْكِرَةً: اسْتَكْ أَضِيقُ مِنْ ذَلِكَ، (شرح ديوان الحماصة للتبريزي ١/ ٤٠٣).

نازلٌ في ذلك منزلة الأعداد الكثيرة؛ لقطع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ على صدق لهجته، فدلَّ ذلك على عِصْمَتِهِ فيما يتعلق بباب الأخبار: (أيها الناس؛ من عرفني فأنا من قد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ يقول: ((مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ))^(١) ومعلوم أن أمة نوح هلكت إلا من ركب السفينة، كذلك هذه الأمة إلا من تمسك بالعترة، فهم على هذا الوصل بين العباد وربهم. فتعبدنا اتباع سلفنا الصالح عليهم السلام، وتعبد أهل عصرنا باتباع جماعتنا أو أحاد أولي الأمر منا.

(١) حديث السفينة: من طرق أهل البيت رواه الإمام الهادي في الأحكام (١/ ٣٢) وفي مجموع كتبه ورسائله (ص ٦٣) وفي صحيفة الرضا علي بن موسى الكاظم، وأمالى أبي طالب (ص ٢٠٠) والأمالى الخميسية (١/ ١٥٤، ١٥١) والإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في الشافي ط ٢ (ج ١/ ١٦٧) .. وكما قال الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام فهو خبر معلوم بالتواتر، لا اختلاف فيه بين الأمة (وانظر المزيد في تخريج الشافي ج ١/ ١٦٧-١٧٧).

أما روايته من طريق غيرهم فقد رواه الطبراني في الصغير (٢/ ٨٤) رقم (٨٢٥) وفي الكبير (٣/ ٤٥) رقم (٢٦٣٦) والأوسط (٤/ ٩) برقم (٣٤٧٨) والحاكم في المستدرک (٢/ ٣٧٣) برقم (٣٣١٢) و (٣/ ١٦٣) رقم (٤٧٢٠) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٠٦) عن ابن عباس، والبزار في مسنده في موضعين (٩/ ٣٤٣) رقم (٣٩٠٠) و (١١/ ٣٢٩) رقم (٥١٤٢) ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٧٣) رقم (١٣٤٢)، وابن حجر العسقلاني في المطالب العالية (١٦/ ٢١٩) برقم (٣٩٧٣) وفي إتحاف المهرة (١٤/ ١١٣) برقم (١٧٤٨٩) ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٦٨) عن أبي ذر وعن ابن عباس وعن عبدالله بن الزبير وعن أبي سعيد الخدري، ورواه أحمد بن حنبل في الفضائل (٢/ ٧٨٥) رقم (١٤٠٢) والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١١٢) برقم (١٩٠٤) والدولابي في الكنز والأسماء (١/ ٢٣٢) برقم (٤١٩) والأجري في الشريعة (٥/ ٢٢١٤) برقم (١٧٠٠) وابن أبي شيبة عن علي موقوفاً (٦/ ٣٧٠) وابن المغازلي في مناقبه (ص ١٨٧) رقم (١٧٣) والكنجي الشافعي في كفاية الطالب (ص ٣٣٩) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٩٧) والسمهودي في جواهر العقدين (ص ٢٦٠) ومحمد بن سليمان في مناقبه (٢/ ١٤٦) رقم (٦٢٤) والقزويني في ينابيع المودة (ص ٣٥) والمحجب الطبري في الذخائر (ص ٢٠) ... (وانظر تفصيل ذلك في لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام ط ٣- ج ١/ ١٨٣-١٩٠).

وقد روينا عن بعض آبائنا عليهم السلام أنه قال في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٦، الرعد: ٢٦] قال: (هم الذين لا يوجبون اتباع أهل بيت محمد عليه وعليهم أفضل السلام) وهذا معنى مستقيم على قولنا، وجميع الطاعات ترتب على ما قلنا في استحقاق السعادة الدائمة، فمن وصل ما بينه وبين ربه بولائهم واتباعهم سعد سعادة لا شقاوة بعدها؛ وهي السلامة من عذاب الله الأكبر، والغنيمة بالثواب العظيم الموفر، الذي لا يُنْغَصُ ولا يُكَدَّرُ، وفقنا الله سبحانه للاتباع، وكثّر في طاعته لنا الأتباع، بحقه العظيم، وصلى الله على محمد وآله.

قوله عليه السلام: وَأَكْثِرُوا الصَّدَقَةَ تَزَوُّوا.

الإكثار نقيض الإقلال، وهما معروفان. **والصدقة** مأخوذة في الأصل من الصدق، وأصل الصدق البراءة من العيوب، وأكثر ما يستعمل الصدق في الخبر إذا كان له مخبر، أو ما يجري مجراه كان على ما هو به، وقولنا: إذا كان له مخبر، احترازاً من الأخبار التي تعود إلى النفي المحض، والسلب الصرف، كالخبر بأن لا ثاني مع الله، وما شاكل ذلك، وأصله ما قدمنا؛ لأن الكذب في الحديث بمنزلة الخور في القناة، يقال قناة صدقة ورمح صدق الكعوب، فلما كانت الصدقة صحيحة بريئة من العيوب لأنها تُخْرِجُ الله تعالى سميت صدقة، وهذا الأمر من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عامٌّ مُجْمَلٌ، يدخل تحته الفرض والنفل، وقد يُمَيِّزُ كُلُّ واحدٍ منهما عن الآخر بدليله.

[الرزق، وتأثير الصدقة على الرزق]

والرزق أصله تفريق الفرائض في الجند على قدر رأي السلطان فيهم، يقول قائلهم: رزق السلطان جنده، إذا فَرَّقَ فيهم العطاء وقسمه بينهم، فإذا أُضِيفَ إلى الله تعالى أفاد ما قَسَمَ بين عباده على مقدار ما يعلم من المصلحة في التقليل والتكثير، وقد قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

وحَدُّ الرزق: هو ما للإنسان تناوله وليس لأحد منعه على بعض الوجوه، واحترازنا بقولنا: على بعض الوجوه من اليتيم، فإنَّ لوليّه منعه من تناول رزقه إذا رأى في ذلك صلاحاً، وكذلك من أراد أكل شيء من ماله في نهار شهر رمضان لغير عُذْرٍ كان لنا منعه من تناوله إذا تكاملت فينا

الشروط، وقد ورد في هذا الكلام من النبي عليه وعلى آله السلام أمرٌ وخبرٌ، فالأمر قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((أَكْثِرُوا الصَّدَقَةَ)) والخبر قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((تُرْزَقُوا)) فالأمر يجب اتباعه لكونه في الحكم من حكيم أعلى منّا رتبةً، والخبر يجب تصديقه لكونه من ظهر المُعْجِزُ على يديه.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن الرزق الذي شرطه الله تعالى بالصدقة لمصلحة يعلمها، وفي الحديث: ((اسْتَرْزُقُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَاتِ)) المراد بذلك عندنا المشروط؛ فإنه يقف على تقديم الصدقة، ولأنّا قد علمنا منه أنه تعالى يَرْزُقُ المتصدق والمانع بالمشاهدة، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن في الحديث حذفاً، مثله موجود في كلام الفصحاء، تقديره: ترزقوا رزقاً دائماً خالصاً من كل شائب، عظيماً من كل جانب، وهو ثواب الآخرة؛ إذ هو الذي له تأثير، وخطره كبير، فأما الدنيا فوجدتها تؤول إلى الدمار، وربحها إلى الخسار، ونضارتها تؤول إلى الاصفرار، وطاليتها وكاسبتها يساق غداً إلى النار، فيُخلد في العذاب الشديد الطويل، وَيَهْتَفُ بالويل والعويل، ويقول كما حكى الله سبحانه: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى] فيا لها حسرة ما أطمعها وأهمها على من أذهب طبيائته في أيام حياته، وكيف يرغب في تحصيل دنيا هذا آخرها.

والصدقة نفلٌ وواجبٌ كما قدمنا، فالواجب الزكوات والأعشار، والنفل ما عدا ذلك من سائر القُرب المتعلقة بإتفاق المال، وأهل الواجب منها معلومون، والنفل عام في جميع العباد، وقد يتفاضل لوقوعه على وجوه، وكذلك الواجب من الصدقة أيضاً قد يتفاضل؛ لأنّ القريب إذا كان يستحقه وُصِرَفَ إليه كان فيه ثواب عظيم، روينا ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يكون صدقةً وصلّةً^(١).

(١) في الأمالي الخميسية عن سلمان بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((صَدَقْتُكَ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةً، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ)).

[الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

قوله عليه السلام: وَأَمُرُّوا بِالْمَعْرُوفِ تُخَصَّبُوا.

الأمر هو قول القائل لغيره افعل أو ليفعل على جهة الاستعلاء دون الخضوع وهو مرید لوقوع المأمور به، وقد حده غيرنا من أهل العلم بغير ذلك، والصحيح عندنا ما ذكرنا، وأصل المعروف من المعرفة، والمنكر من النكرة، فلما كانت العقول تعرفُ الحسن ويستقر حسنه فيها على معنى أنها تقبله، وقد قال علي عليه السلام وهو أحد ألسنة العرب في رسالته إلى الزبير رحمه الله: (عَرَفْتُ ابْنَ خَالِكَ بِالْحِجَازِ وَأُنْكَرْتُهُ بِالْعِرَاقِ) فمن لم يقبل المعروف ويفعله فهو لا يعرفه، ومن لم يرد المنكر ويتركه فهو لا ينكره، وإذا كان للحسن صفة زائدة على حسنه كانت معرفته أكد، وقبوله أسرع، وقد كان قائلهم إذا قال ما لا يريدون ولا يقبلون قالوا: ما نعرف ما تقول، وإذا قال قولاً لم يقبله غيره قال: أنكرت قولي، ثم صار في عرف الشريعة زادها الله شرفاً المعروف يفيد الطاعات، والمنكر يفيد المعاصي، وله شبهة بما تقدم.

والمعروف ينقسم إلى قسمين: واجب ومندوب، فترك الواجب محذور، وترك المندوب مكروه، وله شروط موجودة في كتب الكلام، وقد أودعنا شرح الرسالة الناصحة ما فيه كفاية بحمد الله تعالى.

والخصب نقيض الجذب، وهو تدارك الأمطار، وكثرة الثمار والأشجار، وأصل الخصب عندهم كثرة الخير، والخير ما تختاره النفوس وتميل إليه، وقد قالوا في وجه الكريم أنه خصيب؛ تشبيهاً بالأرض التي صفتها ما قدمنا.

ومعنى ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وفعلوه تعلقت المصلحة في تكليفهم بإخصاب أرضهم، ولا شك في حسن الأمر بالمعروف، بل وجوبه إذا تكاملت شروطه وإن لم يتعجل فيه نفع، فإذا كان في مقابله خصبُ البلاد وشمولُ الخير لكافة العباد كان ذلك أبلغ لانضياف خير إلى خير، وهو الموعد القريب لكونه آتياً لا محالة على ما يختص به من الدوام والعظم والخلوص من كل شائبة، فمن ضيع ما هذا حاله فهو عندنا

المغبون المَحْرُوبُ^(١)، فإن تعلق بالإخلال به وَعِيدٌ مَنْ لا يجوز عليه إخلاف الوعيد كان المخُلُّ به عندنا مخذولاً مغلولاً مثيراً محسوراً، فنسأل الله تعالى العون على تأدية كل واجب، وترك كل قبيح، وصلى الله على محمد وآله.

قوله عليه السلام: وَأَنْتَهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ تَنْصَرُوا.

قد تقدم الكلام في معنى المنكر. والنصر هو الإغاثة والإعانة في أصل اللسان العربي، لا فرق عندهم بين قولك نصرته وأعتته.

والنصر يكون من قبل الله تعالى لأوليائه على أحد وجهين: إما بأن يُظهِرَهُم على الأعداء بتقوية قلوبهم وتضعيف قلوب عدوهم؛ فيسفكوا دماءهم ويتحكموا في أموالهم وأولادهم بحكمهم، فهذا نصرٌ مُعَجَّلٌ، وإما بأن يخلي بينهم وبينهم في العاجل، فيصل إلى أوليائه من الضرر ما ينقطع لا محالة، أعظمه القتل، فهو ألم بعض ساعة، وفي مقابلته من الثواب ما لو خُير جميع العقلاء بين تحمل تلك المشقة ووصول ذلك الضرر ونيل ذلك الثواب أو الظهور على العدو وفقد ذلك الثواب؛ لاختار جميع العقلاء ذلك بلا طائل نظير.

وفي الحديث: ((مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدَ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُقْتَلَ فِي اللَّهِ مَرَّةً أُخْرَى لِعِظَمِ مَا يَرَى مِنَ الثَّوَابِ الْأَوْفَى)) وقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه حكى عن عبد الله بن عمرو بن حرام^(٢) - وهو أب

(١) المَحْرُوبُ: الْمَسْلُوبُ، قال في القاموس ص ٧٣: حَرْبُهُ حَرْبًا، كَطَلْبُهُ طَلَبًا: سَلَبَ مَالَهُ، فَهُوَ مَحْرُوبٌ وَحَرْبٌ.

(٢) عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كَعْبِ بْنِ سَلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، يكنى أبا جابر.. كان نقيباً، وشهد العقبة ثُمّ بدرًا، وقتل يوم أحد شهيداً... ودفن هُوَ وَعَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، (الاستيعاب ٣/ ٩٥٤).

قال الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام: جابر بن عبد الله الأنصاري، الخرجي؛ غزا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بضع عشرة غزوة. قلت [أي الإمام مجد الدين عليه السلام]: وفي الاستيعاب: أنه شهد صفين مع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام واستشهد والده بأحد - رضوان الله عليهما، وكان جابر من سادات الصحابة وفضلائهم، وأهل الولاء الخالص لأمر المؤمنين وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَام. توفي بالمدينة، سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن أربع وتسعين؛ وهو آخر الصحابة موتاً بها. خرج له: أئمتنا الخمسة، وجماعة العامة.

جابر بن عبد الله، وكان من خيار عباد الله، وهو أحد قتلى أحد رضي الله عن حمزة وعنهم - أن الله تعالى أحياه وقال له: يا عبد الله بن عمرو؛ ما تحب أن أعمل لك؟ فقال: يا رب تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى؛ وذلك لعظم ما شاهد من ثواب الله تعالى^(١).

وهذا هو النصر الكبير والفتح المبين؛ أن يصبح عدوّه ذليلاً حقيراً معذباً مهيناً بعينه وعلمه، ويصبح ملكاً أميراً عزيزاً خطيراً بعين عدوه وعلمه، ولا تأثير لتراخي الأوقات، إذ الواصل في حكم الحاصل، والأمور بخواتيمها.

وفي الحديث: ((إِنَّ بَنِي أُمَيَّةٍ يُخْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الذَّرِّ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ يَطَاهُمُ النَّاسُ)) وأي نصر في سرور ساعة يتعقبه غمُّ الأبد، وذلةٌ أو ذُلٌّ في غمِّ ساعة يتعقبه سرور الأبد وعزه، فلعن الله العادلين بالله تعالى الجاعلين هذا شُبْهَةً في دينه، أما يخافون العقول السليمة تُبَكِّتُهُمْ، والعِترَةُ المستحْفَظَةُ تسكتهم، فعلى المعنيين المتقدمين يُحْمَلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٣﴾ [الصافات] وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ [الروم] إلى ما شاكل ذلك من آيات القرآن الكريم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧، القصص: ٨٣] فإذا عرف العاقل حقيقة النصر هَانَ عليه الأمر في استظهار المبطلين على المحقين في دار الدنيا، وعلم أن المحقَّ في الحقيقة منصورٌ وإن كان مقهوراً، ومن عرف ذلك حقيقة المعرفة هانت عليه الشدائد.

قصة عثمان بن مظعون مع كفار قريش في بداية الدعوة النبوية

وقد روينَا أن عثمان بن مظعون^(٢) بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب - وكان من جَلَّةِ المهاجرين وسادة المؤمنين - كان في جوار الوليد بن المغيرة لعنه الله وقت

روى عنه: الباقر، وأبلغه السلام عن جده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأخوه الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام، والحسن البصري، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن المنكدر حديث: ((اللهم رب هذه الدعوة)) وعطية زيارة قبر الحسين عليه السلام، وأبو الزبير المكي، والشعبي، وعمرو بن دينار، حديث: ((لأعطين الراية... الخبر)) انتهى (لوامع الأنوار ط ٣ - ج ٣ / ١٠١ - ١٠٢).

(١) ذَكَرَ هَذِهِ الرُّوَايَةَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِهِ الاسْتِيعَابِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ (٣ / ٩٥٥).

(٢) قال الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام: عثمان بن مظعون (بمعجمة مشالة، فمهملة)

الجوار بمكة، وذلك أن كثيراً من المؤمنين لم يتمكن من الإقامة في مكة إلا بدمية وجوارٍ، إلا من كَبُرَ فيهم مكانه، فأما ضَعْفَةُ الناس ففي العذاب الشديد، فلما نظر عثمان بن مظعون ما فيه إخوانه من المشقة في الله تعالى والضرر قال: إني لمغبون؛ إخواني يعذبون في الله! وأنا من ذلك بمعزلٍ ومفازة^(١) بجوار رجل كافر! إني لنفي ضلال! فأتى الوليدَ فقال: يا عم إني قد برئتُ من جوارك، فقال: يا بن أخي هل عَرَضَ لك أحدٌ بمكروه؟ فقال: ما كان ذاك، ولكني أحببتُ أن أكون من جملة أصحابي، فقال له الوليد: إني جوَزْتُكَ^(٢) علانيةً، ولا أبرأ من جوارك إلا علانيةً، فأت بنا البيت، فجاء إليه، فقال: يا معشر قريش إنكم تعلمون جواري لعثمان بن مظعون، وإنه قد أحبَّ الخروجَ منه لغير أمر يلحقه من أحد من الناس، كذلك يا عثمان؟! قال: نعم، فجلسوا، وكان في القوم ليبيد بن ربيعة العامري^(٣)، فاستنشدته قريش، فأنشد قصيدته التي أولها:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

فقال له عثمان: صدقت، فقال:

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

بن حبيب، أبو السائب الجُمَحِيُّ، أسلم قديماً، وهاجر المهجرتين، وشهد بدرًا، وكان يصوم النهار ويقوم الليل، توفي بعد سنتين من الهجرة، ويقال: إنه أول الصحابة موتاً..

قلت [أي الإمام مجد الدين عليه السلام]: وفي الاستيعاب والإصابة: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبَّله بعدما مات، وهو أول من دُفِنَ بالبقيع، ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجراً عند رأسه وقال: ((هذا قبر فرطنا)) ولما توفي إبراهيم ابن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الْحَقُّ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ عُمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ)) انتهى. (لوامع الأنوار ط ٣-ج ٣/ ٢١٧).

(١) أي مَنَجَاة، قَالَ تَعَالَى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي بِمَنَجَاةٍ مِنْهُ، وتأتي بمعنى الصحراء المهلكة، قال في القاموس المحيط (٥٢٠) الْمَفَازَةُ: الْمَنَجَاةُ، وَالْمَهْلِكَةُ، وَالْفَلَاةُ لَا مَاءَ بِهَا، هـ.

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: أَجَزْتُكَ.

(٣) ليبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يعد من المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قيل: هو:

مَا عَاتَبَ الْمَرْءُ الْكَرِيمُ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ

وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات.. (انظر الأعلام للزركلي ٥/ ٢٤٠).

فقال له عثمان: كذبت، فإن نعيم أهل الجنة لا يزول، فالتفت إليهم ليبد فقال: لقد عهدتكم ولا يؤذى جليسكم، فقام رجل من القوم إلى عثمان فلطمه على خده وعينه لطمه هائلة، وقاموا إليه وقالوا: إن هذا رجلٌ مجنون في أصحابٍ له مجانين، فقال له الوليد: ما كان أغناك عن هذه اللطمة يا عثمان؛ فقال: يا عم؛ إن عيني هذه لمحتاجة إلى مثل ما أصاب الأخرى في الله سبحانه. وذلك لأنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ كان يخبرهم وهم لا يشكون في صدق حديثه بعواقب الأمور وعظم الثواب.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَكْيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ.

الكَيْسُ عند العرب هو الرجل الكامل في جميع الأمور، وأصل الكَيْسِ الكمال، ومنه سمي جملة من العقود كيساً يريدون ألف دينار، وكذلك الكأس لامتلائه من الشراب سمي كأساً، وهم لا يسمون الإناء الفارغ كأساً، وقد يسمون الخمر نفسها كأساً، والأصل في الجميع ما ذكرنا. والذِّكْرُ نقيض النسيان، ويقول قائلهم اجعل هذا الأمر على ذُكْرٍ منك، بضم الذال، لا أعرف سواه. **فمعنى ذلك** أن الكامل من لم ينس الموت، بل يذكره ويعلم هدمه للذات وتنغيصه للشهوات، فإنه يكون -والحال هذه- أقرب إلى فعل الواجبات، وترك المقبحات، والمبادرة إلى الحسنات، والمحاذرة من المحظورات، متوقفاً لنزوله، خائفاً لحلوله، لا ترقاً عبرته، ولا تنخفض زفرته، فذلك الكامل حقاً بغير كذب.

قوله عليه السلام: وَأَخْزَمَكُمْ أَحْسَنُكُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ.

الخزْمُ نقيض التواني، وأصله التحشد وتجمع الأطراف، ومنه سمي الخزام والمحزم لَمَّا ضم جوشوش^(١) الفرس حتى كأنه الذي جمعه، فيستقيم جريه عند ذلك. **والحسن** نقيض القبيح، وهو يستعمل في أصلهم في كل ما أحبته القلوب ولاء طابعها، يقول قائلهم: أحسنت تدبير الأمر، وأحسنت رَمَ المال.

والتأهبُّ والاستعدادُ معناهما واحد، وهو جمع الزانة^(٢) والآلة للمهم المستظر، وهو مأخوذ

(١) الجَوْشُوشُ: الصَّدْرُ. (القاموس المحيط: ٥٨٦).

(٢) تكررت هذه اللفظة، وهو عليه السلام يقصد اللوازم المطلوبة للرحيل والسفر.

من العُدَّة وهي ما ذكرنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]. والاستعداد للموت هو المبادرة بفعل الطاعات، وترك المحظورات، إذ لا سبيل لأحد إلى ردّ فائت الأوقات، فإذا جاء الموت ومع الإنسان هذه العُدَّة وهي الأعمال الصالحات لم يُلَوِ رأسه إلى الدنيا ولا تأسَفَ عليها.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَاتِ الْعَقْلِ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُورِ.

العلامة والأمرة والدلالة والآية في أمثال لها معناها في أصل اللغة واحد، ثم قد صارت معانيها في الشرع الشريف مختلفة، وهي على ذلك متقاربة، إلا أن الأمرة والعلامة معانيهما متفق، وهو ما يوصل الناظر فيه على الوجه الصحيح إلى غالب الظن، وأصل العلامة حجارة تُنصب بالبناء في المومة^(١) المتسعة الأطراف تستدل بها السيارة على الجادة، ومنه أخذ علم الأمرة لترجع إليه المقاتلة حين اضطراب أمواج الخيل وانتقاض الصفوف، يدهم على الرئيس ليأووا إليه، وكذلك الأمرة أخذت من الأمار، وهي أعلام تنصب كذلك.

[العقل]

والعقل علومٌ يخلُقها الله تعالى في قلوب المتعبدين فيجب بعدها التعبد، وقد خالف قوم من الجهال ممن يُنسب إلى الشيعة^(٢)، فقالوا: إن العقل القلب، وهذا القول أضعف من أن يُنصب على

(١) المومة: المفاضة الواسعة الملساء، وقيل: هي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس بها. (لسان ١٢ / ٥٦٦).

(٢) قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في حقائق المعرفة (ص: ٤٩) أجمع الموحّد والملحد على أن العقل هو العلم، وأنه عرض؛ إلا فرقة..... إلى قوله: وهم أصحاب مطرف بن شهاب، فإنهم قالوا: (العقل) هو القلب، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ونسوا قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقد فسر الهادي إلى الحق عليه السلام قول الله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، قال: لمن كان له قلب يعقل به، ولو كان العقل هو القلب، لَمَا حَسِدَ العاقل عليه، ولا دُمَّ بنقصانه، ولا كان يزول عند النوم وشبهه، إذ ليس كل من له قلب بعاقلي؛ كالطفل والمجنون والبهيمة؛ وكل من له عقل فله قلب، اهـ.

بطلانه دليل، ومما يذكر على وجه الاستظهار أن العلم باستحالة عدم الشيء ووجوده في حالة واحدة يعلم باضطراب، وقد علمنا أن عقل النائم معدوم، وقلبه موجود.

وخالف قوم من الأوائل في محله ومعناه، فقالوا: هو بعض من كل، على معنى أنه جزء من العقل الأول، وهذا باطل؛ لأنه لا دليل عليه، فما ابْتُني عليه فهو كذلك، وهو قوله أن محله الدماغ، وقد تكلمنا عليهم وعلى غيرهم في شرح الرسالة^(١) بما فيه كفاية بمن الله تعالى.

وسمي العقل عقلاً لأنه يَعْقِلُ صاحبه عن القبائح، بمعنى يمنعه، وهو مأخوذ من عقال الناقة الذي يمنعها عما يكره راعيها، ولا شك أن الدين لا يتم إلا بالعقل، وقد روي في ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((قَوَامُ^(٢) الْمَرْءِ عَقْلُهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ)) ومثل ذلك مروي عن مُجَمِّع بن حارثة الأنصاري^(٣) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((إِنَّمَا يُدْرِكُ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِالْعَقْلِ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ)) وروي عن معاوية بن قُرَّة^(٤) أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((النَّاسُ يَعْمَلُونَ وَيُعْطَوْنَ أَجُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ)) وهذا إشارة منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ إلى أن العاقل العامل بمقتضى عقله يعرف واجبات القلوب وواجبات الجوارح، ويعرف أحكام الأفعال والتروك، فيعلم ما يفعل، وكيف يفعل، وعلى أي وجه يفعل، وما يترك، وكيف يترك، وعلى أي وجه يترك، فيوقع ذلك مطابقاً لمراد الحكيم تعالى منه، ويستقل عبادته في جنب الحق والنعم، فيبلغ الغاية القصوى في استحقاق الثواب.

(١) شرح الرسالة الناصحة ص ٥٨ وما بعدها - إصدار مكتبة أهل البيت (ع).

(٢) قَوَامُ الْأَمْرِ، بِالْكَسْرِ: نِظَامُهُ، وَعِمَادُهُ، وَمِلَاكُهُ، (القاموس المحيط: ١١٥٢).

(٣) في جميع النسخ: بن حارثة، ويقال: مُجَمِّع بن جارية، وأخوه يزيد بن جارية الذي شهد صفين مع الإمام علي عليه السلام.

(٤) قال في الجداول الصغرى: معاوية بن قرة بن إياس المزني، أبو إياس البصري، عن علي مرسلًا وابن عباس وابن عمر وأنس ومعتل بن يسار، وعنه ابنه إياس وشعبة والأعمش وأبو عوانة وخلق، وثقه ابن معين وأبو حاتم، توفي سنة ثلاث عشرة ومائة، وولد يوم الجمل، احتج به الجماعة، اهـ.

التجاني والتجانف معناه الميل والازورار. ودار الغرور هي دار الدنيا، والدنيا أوقات التكليف، والآخرة أوقات الثواب والعقاب الدائمين، وإنما سميت دار الغرور لأنها تغرُّ من اغترَّ بزخرفها، أي تخدعه بزيتها، فينسى ويبلِّ عاقبتها حتى يحرَّ للبدن والفم، فيقدِّم على ما قدَّم، ويندم ولات حين مندم، وكيف يغترُّ عاقلٌ بغرورها وقد وعظته بالآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، والبنين والبنات، كم من نائم فيها لم يستيقظ، ومستيقظ لم ينم، وسارح لم يرح، ورايح لم يسرح، وقد قال بعض الصالحين: إنَّ امرأً ليس بينه وبين آدم حيٌّ كعريقٍ في الموت، وأقول: صدق.

قوله عليه السلام: وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ.

أصل الإِنَابَةُ الرجوع، وذلك موجود في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠، ٣٢] أي راجعين إليه. والدار في أصل اللغة المكان الذي يسكن فيه الحي أياً، فيتتابون المراعي ويرجعون إليه، وسميت داراً لأنهم يدورون بها ويرجعون إليها، وسميت الآخرة دار الخلود لأنها لا زوال عنها ولا انتقال، وقد تقدم الكلام في مثل ذلك.

ومعنى الإِنَابَةُ هاهنا بل في عرف الشريعة شرفها الله الإقبال على الطاعات والقرب المنجيات، فبذلك تُنال دارُ الخلود والرضوان، والروح والريحان، وهي دار القرار ودار الحيوان، ولم لا تكون كذلك وهي دارٌ لا ينفدُ نعيمُها، ولا يظعنُ مُقيمُها، ولا يُكدَّرُ شرابُها، ولا تهجم قباها، ولا يبأس أربابها، وكيف لا يعمل لها العاملون؛ وينيب إليها المنيبون؛ وأهلها في الغرفات آمنون، وفي منازل اللذات قاطنون، يمسسون^(١) بين ثياب العبقري الأحمر، والسندس الأخضر^(٢)، والطميم المدثر، والدَّمَقِيبِ^(٣) المصوَّر، ثيابٌ خلقها الجبار، لم تصنع

(١) يَمِيسُونَ: يَتَبَخَّرُونَ، ا.هـ. (انظر القاموس المحيط ٥٧٦).

(٢) الْعَبْقَرِيُّ: الدِّيَّاجُ، أو الكامل من كل شيء، والسَّيِّدُ، والذي ليس فوقه شيء، والشديد، وضرب من البسط، ا.هـ. (انظر اللسان: ٤/ ٥٣٥). والدِّيَّاجُ: الثَّيَابُ الْمُتَّخِذَةُ مِنَ الْإِبْرَيْسِمِ، وهو الحرير. ا.هـ. والسُّنْدُسُ: رَقِيقُ الدِّيَّاجِ وَرَفِيعُهُ، وَالْإِسْتَبْرَقُ: غَلِيطُ الدِّيَّاجِ، ا.هـ. (لسان العرب ٦/ ١٠٧).

(٣) الدَّمَقِيسُ: الْقَزُّ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَرِيرِ، ا.هـ. قاموس.

في هذه الدار، ولم تر مثلها الأبصار، لم تُنسب إلى تَيْسٍ وِدْمِيَّاتٍ^(١)، ليست بقَهْرِيَّةٍ ولا قُوْهِِيَّةٍ^(٢)، ولا سَيْرِيَّةٍ، ولا مَفُوفَةٌ مزورة^(٣)، ولا حَضْرَمِيَّةٌ مُحْبَرَةٌ، ولا تَيْسِيَّةٌ مُهْلَهَلَةٌ^(٤)، ولا هشامية مثقلة، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قوله عليه السلام: وَالتَّرْوُدُ لِسَكْنَى الْقُبُورِ.

أصلُ الزاد ما يستصحب في الأسفار من الطعام والشراب، وهو البتات أيضاً إلا أن البتات أقلُّ من الزاد. وسكنى القبور هو الإقامة فيها حتى يقع البعث وخروج الموتى منها، شُبَّه ذلك بسكون الإنسان في داره حتى تعن له الحاجة في غيرها.

وأما المعنى في ذلك فَإِنَّ زَادَ الْقُبُورِ التَّقْوَى.

قوله عليه السلام: وَالتَّاهِبُ لِيَوْمِ النُّشُورِ.

التَّاهِبُ قد قدمنا معناه وأنه هو والاستعداد بمعنى واحد. ويوم النشور هو يوم القيامة، وسمي البعث نشراً لأنه أخذ من النُّشْرِ الذي هو نقيض الطي، فكأن الميت كان مطويّاً فنشر، وهو

(١) تَيْسٌ وِدْمِيَّاتٌ: بِلَدَتَانِ في شِمالِ مِصْرَ، عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الرُّومِ [البَحْرُ الْأَبْيَضُ] اشتهرتا بِصِنَاعَةِ الْكُتَّانِ وَالْأَنْسِجَةِ، وَعَلَى الْخُصُوصِ تَيْسٌ، وَنظراً لِبَرَاعَةِ أَهْلِ تَيْسٍ فِي صِنَاعَاتِ النِّسِيجِ فَقَدْ كَانَ يُعْهَدُ إِلَيْهِمْ سَنَوِيّاً بِتَصْنِيعِ كَسَوَةِ الْكَعْبَةِ الْمُسْرَفَةِ، ا.هـ.

(٢) الْقَهْرِيُّ: (بفتح القاف وكسرها) ثِيَابٌ مِنْ صُوفِ أَحْمَرَ كَالْمِرْعَرِيِّ وَرُبَّمَا يُجَالِطُهُ الْحَرِيرُ. (انظر القاموس: ٥٢٢) و (النهاية: ٤/ ١٢٩).

وَالْقُوْهِِيَّةُ: ثِيَابٌ بَيْضٌ، وَالثِّيَابُ الْقُوْهِِيَّةُ مَعْرُوفَةٌ مِّنْ سُوبَةِ إِلَى قُوْهِسْتَانَ. (انظر لسان العرب ١٣/ ٥٣٢).

(٣) السَّيْرِيَّةُ: نِسْبَةٌ إِلَى الْحِلَّةِ السَّيْرَاءِ: كَالْعِبَاءِ: نَوْعٌ مِنَ الْبُرُودِ فِيهِ خُطُوطٌ صُفْرٌ، أَوْ يُجَالِطُهُ حَرِيرٌ. ا.هـ. (انظر القاموس: ٤١٢).

وَالْبُرُودُ الْمُفُوفَةُ: الرِّفِيقَةُ، أَوِ الَّتِي فِيهَا خُطُوطٌ بَيْضٌ، وَالْفُوفُ: صَرَبٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ. (انظر النهاية: ٣/ ٤٧٩).
وَالْمُرُورَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُحَسَّنَةِ وَالْمُصْلَحَةِ، قَالَ فِي النَّهَايَةِ: التَّرْوِيرُ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ. وَكَلَامٌ مُرَوَّرٌ: أَيُّ مُحَسَّنٌ. (النهاية: ٢/ ٣١٨).

(٤) الْمُحْبَرُ: الْمُحَسَّنُ وَالْمَزِينُ وَالْمُنَقَّشُ، ا.هـ. وَالتَّيْسِيَّةُ: الْمَسُوبَةُ إِلَى تَيْسٍ، ا.هـ.

وَالثَّوْبُ الْمُهْلَلُ: الرِّقِيقُ، سَخِيفُ النَّسِجِ. (اللسان: ١١/ ٧٠٥).

يوم هائل عظيم، ولهذا قال تعالى لنبه عليه السَّلام: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ أي كرهه تُنكره القلوب لأنه خلاف المعتاد فتتفر عنه نفار الطبع ﴿خُشَّعاً أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ الخاشع بمعنى الخاضع، وهو المطرق المتواضع، وخص الأبصار لأن فيها يعرف العز والذل، والخروج نقيض الدخول. والأجداث قد تقدم القول فيها. والجراد معروف، وانتشاره تفرقه في كل جهة لكثرة ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر] الإهطاع الخضوع والاستكانة، والكافرون هم الْمُغْطَوْنَ لنعم^(١) الله تعالى، والعَسِيرُ هو الشديد، ولا شك في شدة ذلك اليوم وصعوبته، لولا ذلك لما فَرَّ المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وقد كان في شدائد الدنيا يعرض دون سفك دمائهم دمه، ويقتحم دونهم القتمة، فنسأل الله تعالى الأمان في ذلك المقام الهائل، والخطب النازل.

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: نعم الله، بدون اللام.

الحديث الرابع

عَنْ^(١) ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ وَاحِدُ زَمَانِهِ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ، اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى مَحَبَّتِهِ مَعَ اخْتِلَافِهَا فِي غَيْرِهِ، وَلَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا تَصْعَبُ الْإِحَاطَةُ بِهِ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ طَرَفًا عَلَى وَجْهِ الرِّعَايَةِ لَوَاجِبِ حَقِّهِ، وَإِلَّا فَشَهْرَةٌ أَمْرُهُ تَغْنِي عَنْ الْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ.

فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَبَاهُ الْعَبَّاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعَثَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَأَتَى وَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنَاجِيهِ، فَاسْتَحْيَا أَنْ يَقْطَعَ نَجْوَاهُمَا، وَلَمْ يَعْرِفْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَجَعَ إِلَى أَبِيهِ فَأَعْلَمَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَعْلَمَهُ بِذَلِكَ، فَضَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَمَسَحَ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ فَتَّهْهُ فِي الدِّينِ وَانْشُرْ مِنْهُ)) فَكَانَ كَذَلِكَ، فَرُوتَ مِنْهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ، وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ لِأَبِي أَيُّوبَ^(٢) مَا فَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ رَحِمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ مَعَاوِيَةَ مُحْرَمًا فِي قِصَّةٍ فِيهَا بَعْضُ الطُّولِ^(٣)، فَتَزَلَّ فِي أَسْفَلِ مَنَزَلِهِ، وَأَنْزَلَ أَبَا أَيُّوبَ أَعْلَاهُ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ، وَهُوَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عُرْفَةَ قَالَ حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ حَدَّثَنَا

عَثْمَانُ بْنُ عَمْرِ بْنِ فَارِسٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... الْحَدِيثُ.

(٢) أَبُو أَيُّوبَ، خَالِدُ بْنُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، النَّجَارِيُّ، شَهِدَ الْعَقْبَةَ وَبَدْرًا، وَمَا بَعْدَهَا، وَلَمَّا قَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَيْهِ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّى بَنَى مَسْجِدَهُ وَمَسَاكِنَهُ، وَشَهِدَ مَعَ الْوَصِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشَاهِدَهُ كُلَّهَا، وَلَزِمَ الْجِهَادَ حَتَّى تَوَفَّى فِي قُسْطَنْطِينِيَّةٍ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ. (لَوَاعِمُ الْأَنْوَارِ لِلْإِمَامِ

الْحُجَّةِ/ مَجْدُ الدِّينِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَيَّدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - ط ٣ - ج ٣/ ٢٦٤).

(٣) خِلَاصَةُ الْقِصَّةِ: أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ أَتَى مَعَاوِيَةَ فَشَكَا عَلَيْهِ أَنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا، فَلَمْ يَرِ مِنْهُ مَا يَحِبُّ، وَرَأَى مَا يَكْرَهُ؛ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرًا)) قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ أَمْرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: قَالَ: ((أَضْرِبُوا)) قَالَ: فَاضْرِبُوا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُكَ شَيْئًا أَبَدًا. فَقَدَّمَ الْبَصْرَةَ فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ عَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَفَرَّغَ لَهُ بَيْتَهُ وَقَالَ: لِأَصْنَعَنَّ بِكَ كَمَا صَنَعْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ أَهْلَهُ فَخَرَجُوا، وَقَالَ: لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ كُلِّهِ، وَأَعْطَاهُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَعِشْرِينَ مَمْلُوكًا... انْظُرْ مَصَادِرَهَا مِنْ كُتُبِ الْقَوْمِ (سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ لِلذَّهَبِيِّ ٢/ ٤١١) وَ (فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ٢/ ٩٦٣) وَ (تَارِيخُ دِمَشْقَ لِابْنِ عَسَاكِرَ ١٦/ ٥٤) وَ (الْخَصَائِصُ الْكُبْرَى لِلْسَّيْوَتِيِّ ٢/ ٢٥٥).

مَثْقَال، وَأَعْطَاهُ مِثْلَهَا لَخَاصَةِ نَفْسِهِ، وَوَهَبَهُ أَثَاثَ الْمَنْزِلِ وَكَانَ مَالاً، وَهُوَ الْفَقِيهَ الَّذِي لَا يَدْفَعُ، وَالْمِصْقَعُ الَّذِي لَا يَنْزَاعُ، وَقَدْ كَانَ ذَهَبَ بَصْرَةَ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَدُونَ نَسَبِهِ فَلَقَّ الصَّبَاحَ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ شَرَّكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ فِي نَسَبِهِ، وَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَآيَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَآيَتِكُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مُحَافَتَيْنِ، بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنْ الشَّيْبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنْ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ^(١) إِلَّا الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ))^(٢).

المَعَالِمُ والأَعْلَامُ معناها واحدٌ، وقد تقدم الكلام فيها، وذلك من طريق المعنى يحتمل وجهين، أحدهما: أَنَّ ابْنَ آدَمَ فِي الدُّنْيَا لَا بَدْلَ لَهُ مِنْ مَعْلَمٍ يَقْصِدُهُ، وَغَايَةَ يَجْرِي إِلَيْهَا، وَنِهَآيَةً يُؤْمِنُهَا مِنَ الْآمَالِ وَالْأَجَالِ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَفْظَ الْأَمْرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّهْدِيدُ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ انْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمُ الَّتِي هِيَ آمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَسْتَنْدُمُونَ فَلَا تَرْحَمُونَ، فَلَا الْمَعْلَمُ الَّذِي هُوَ الْأَمَلُ موجودٌ بَاقٍ، وَلَا لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَاقٍ.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَإِنَّ لَكُمْ نِهَآيَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَآيَتِكُمْ.

النِّهَآيَةُ أَحْسَبُهَا مَرْكَزُ الْغَايَةِ، وَالْغَايَةُ رَايَةٌ كَانَتْ تُرْفَعُ لِصَاحِبِ الْخَمْرِ وَالْعَطْرِ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا أَهْلُ الشَّرَفِ وَالْمَالِ؛ لَكثْرَةِ الزَّحَامِ، فَمَنْ بَلَغَهَا فَقَدْ انْتَهَى لِبُلُوغِهِ الْغَايَةَ، وَوَصُولُهُ النِّهَآيَةَ، ثُمَّ جُعِلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِكُلِّ أَمْرٍ يُقْصَدُ إِلَيْهِ فَيُوقَفُ عِنْدَهُ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي كَلَامِهِمْ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ كَمَا قَدَّمْنَا، أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَخْرَجَ اللَّفْظَ -عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ- خُرُوجَ التَّهْدِيدِ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ أْبْلَغُوا نِهَآيَةَ أَمْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَلَنْ تَبْلَغُوا مَبْلَغاً وَلَنْ تَفُوزُوا بِطَائِلٍ.

(١) فِي نَسْخَةٍ أُخْرَى وَفِي كِتَابِ الْإِعْتِبَارِ: (وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ...).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا (٢٠٨-٢٨١هـ) فِي كِتَابِهِ قَصْرُ الْأَمَلِ.

والوجه الثاني من الوجهين الأولين في ذكر المعالم والنهاية أنه أراد بالمعالم معالم الدين وبالنهاية الجنة التي إليها ينتهي المؤمنون، ومعالم الدين حدوده التي لا يتعداها إلا العَادُونَ، فالوقوف دونها تقصير، والمجاوزه لها تعدُّ، وكلُّ واحد من الأمرين مذموم، أعني الوقوف دونها، والمجاوزه لها، ولكم نهاية هي الجنة، مثل نهاية الخيل في السبق، فكأنه قال: الجنة نهاية لكم، فاستبقوا إليها لتفوزوا بسكونها، وتسعدوا بقطونها، ولكل واحد من التَّوَالِين وجه صحيح.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ، بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ.

الإيمان هو التصديق، والمؤمن هو المصدق، هذا في الأصل، وقد صار في عرف الشريعة يفيد المصدق بقلبه المتبع في القول والعمل لصاحب الشرع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ، والمخافة هي مكان الخوف ومُظَنَّتُهُ، والخوف هو توقع مكروه متظر لا يتعين وقته، وما كان في مقابلة الواقع المعلوم فهو إشفاق وجزع، قال لييد:

فَعَدَتْ كِلَا الْفَرْجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّه مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامُهَا

أي مكان الخوف ومُظَنَّتُهُ خلفها وأمامها، فاشتدَّ عَدُوُّهَا لشدَّة خوفها، وقد قدمنا الكلام في الأجل، وأنه الوقت المضروب لأمر من الأمور يكون انتهاؤه عنده. **والماضي** نقيض الباقي. ومعنى الدراية والعلم واحد.

و(الله) تعالى الذي تأله القلوب إليه، أي تصغي وتميل إلى محبته، وهو أهل ذلك. **والصانع** هو القادر الحكيم لا يكون صانعاً حتى يكون كذلك. **والقاضي** هو المتم لفعله المحكِّم له.

ومعنى هذا أن المؤمن لا يزال خائفاً حتى يلقي الله فيؤمِّنه لأنه قد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: لَا أَجْعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ، وَلَا أَجْعُ عَلَيْهِ خَوْفَيْنِ، مَنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّتُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتُهُ فِي الْآخِرَةِ)).

والأجل الماضي هو لأعماله السالفة المتقضية، فهو في تلك الحال خائف لتبعاتها، لا يدري ما يصنع الله تعالى به لأجلها، وهل وقعت مُخَلَّصة له عن عهدة ما لزمه؛ فيستحق عليها الثواب،

أم على غير ذلك الوجه؛ فيستحق عليها العقاب، وفي هذا تنبيه على أن العبد لا يتمكن من العلم بأنه من أهل الجنة مع بقاء التكليف إلا بسمع، وهذا الأمر يُشعل نار الخوف في قلب كل عاقل.

وكذلك الكلام في الأجل الباقي الذي لا يدري ما الله قاضٍ فيه؛ لأنه يبقى خائفاً من نفسه مترقباً، لأن الأعمال بخواتيمها، فيخشى أن يعمل معصية فيقضي الله تعالى عليه بها، على معنى أن يخبر بها ملائكته ورسله عليهم السلام، أو يقضيها في اللوح المحفوظ، على معنى أن يحكم كتابتها فيه، فأما القضاء بالأعمال على معنى أنه يفعلها تعالى أو يجبر عليها فذلك لا يجوز على الله تعالى؛ لأن العباد يُمدحون على بعضها ويُذمّون على بعض آخر، ومثل ذلك لا يجوز في فعله تعالى، ولأن بعضها قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح، ولأن الرضى بقضاء الله تعالى واجب، والرضى بالمعاصي لا يجوز.

قوله عليه السلام: فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ.

الأخذ نقيض الإعطاء، فمن أعطى نفسه من نفسه أهلكها، ومن أخذ لها منها أنجاها، نفس الشيء هو الشيء، وما عمل الإنسان من خير أو شر فهو له وعليه؛ لأن ميزان العدل منصوب، وهو بين أيدينا، ولا بد من وزن أعمالنا فيه، فما شئنا فلنعمل، وقد قال العبد الصالح سليمان عليه السلام: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ عَقْبٍ كَرِيمٍ﴾ [النمل].

قوله عليه السلام: وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ.

سُميت الدنيا دنيا لدنوها إلينا، ولو كان لدناءتها وصغر حالها لكان وجهاً، والآخرة آخرة لتأخرها عنا قليلاً، وأخذ المرء من دنياه لآخِرته هو ما يُقدّم بين يديه من الإنفاق والأعمال الصالحة؛ لأن هذه الدنيا سوق؛ ربحها الجنة، وخسارتها النار، ودار المستقر أماننا، وقد روينا في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أنه ما قدمه بين يديه؛ لأن ما خلف هو نصيب الوارث، وهو الوجه عندنا، وهذا عمل الحازم المتيقظ أن يأخذ من الفاني للباقي، ومن الماضي للآتي.

قوله عليه السلام: وَمِنَ الشَّيْبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ.

الشباب مأخوذ من النمو والزيادة، يقال شبَّ إذا نما وزاد، والمرء في ريعان الشباب وشرخه ينمو ويزيد، فإذا انتهى إلى حال الكبر صار ينقص، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٧] معناه نرده إلى حال الطفولية في ذهاب الإرية والضعف، وهذه حال مُرْهَدَةٍ في هذه الدنيا لكل مستبصر؛ إذ زيادتها تؤول إلى النقصان، وربحها إلى الخسران، وسرورها إلى الأحزان، وكل من عليها فان. والكِبَرُ هو تنامي الشيء بحيث لا يزداد، وهي حال الضعف الأخير.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن مُعَلِّمَ الخير صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ ومرشد الضَّالِّالِ نَبَّهَ على اغتنام أيام الشبيبة، وهي لا تُرَدُّ، فليستعملها العبد في طاعة الله تعالى، ويغنم وفارة الشبيبة وجلدَها، فلعلَّه يروم في حال الكبر أموراً يُقَعِّده الضعف عنها، فيندم ولات حين مندم.

قوله عليه السلام: وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ.

الحياة والموت معلومان جملة، وقد تقدم الكلام في معناهما مفصلاً في الحديث الأول. وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن الواجب على العبد أن يعمل في وقتِ العمل فيه مقبول، والسعيُّ مشكور، وهو مدة الحياة قبل نزول الموت؛ لأن العمل ينقطع في تلك الحال، ويسقط حكمه لو قُدِّر وقوعه، والموت غير مؤقت بوقت معلوم، فالواجب على العاقل أن يكون في كل وقت على حالٍ إن نزل به الموت وهو عليها لم يندم على ما فات؛ لأن ذلك من عزم الأمور.

قوله عليه السلام: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ.

قَسَمٌ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بربِّه؛ لأنه الذي بيده النفوس، يقبض ما شاء ويرسل ما شاء، وكانت له عَلَيْهِ السَّلَامُ يمينان، إحداها هذه، والأخرى (أَمَّا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ) ولعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ يمينان، إحداها: (وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ) والأخرى: (وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ). ومعنى قوله: نفس محمد أي قابض نفس محمد بقدرته، واليد هاهنا هي القدرة، فهي تحت قدرته يفعل فيها ما شاء، لا مانع له من ذلك، كالذي يقبض على الشيء بيده فيتحكم فيه، لا أن له -تعالى عن ذلك- يداً بمعنى الجارحة كما تقوله المجسمة؛ لأن ذلك مستحيل في حقه، إذ هو قديم، والأجسام محدثة.

قوله عليه السلام: مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ.

أجاب القسم بـ (مَا)، والموت قد تقدم معناه. والمستعتب هو المُطَالَب بالإعتاب، وهو تعقيب السيئة بالحسنة، والإتيان بالعدر بعد الإساءة.

فأخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بل أقسم وهو صادق القسم لتأكيد الحجة على جميع الأمم أن لا معذرة بعد الموت، ولا توبة، لأن الموت يرفع التكليف، وهذا مُهِمٌّ لا سيما على المتفكرين؛ لأن الموت إذا كان منقطع الاستعتاب والإعتاب وكان وقته عنهم مستوراً كانوا على وجل شديد.

قوله عليه السلام: وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ.

بعد نقيض قبل، وقد تقدم الكلام في معنى الدنيا، وأنها أوقات التكليف، لأنها أدنى إلينا من أوقات الثواب والعقاب. والدار ما تُسَكَّن أياماً، قد تقدم الكلام فيه، وسميت الجنة جنة لإجنان أشجارها، أي سترها لعروسة قرارها، وقد كان من الأنصار شيخ يقال له حاطب قد عَشِيَ^(١) في الجاهلية، وكان له ابن يقال له زيد بن حاطب مؤمناً، فحضر أحداً مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأصابته جراحات، فحمل إلى دار قومه وبه رمق، فجاءه الرجال والنساء يهتونه ويقولون هنيئاً لك يا بن حاطب بالجنة، فنجم نفاق حاطب، فقال: خدعتم هذا الفتى عن نفسه، أتبشرونه بجنة من حرمل؟! فسمى روضة الحرمل جنة لإجنانها قرارها، وهو ممن يعتمد على لسانه.

فأما النار فمعناها ظاهر، وخطرها عظيم، نعوذ بالله منها، وفي الحديث: ((إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ)) وفي آخر: ((مَنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ دُخَانِ نَارِ جَهَنَّمَ وَلَوْ لَا ضُرِبَتْ عَلَى الْمَاءِ سَبْعَ مَرَارٍ)) وفي أخرى: ((غُسِلَتْ بِسَبْعِينَ مَاءً مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيُّ أَنْ يُسْعِرَهَا)) وفي أخرى: ((مَا انْتَفَعَ بِهَا بَنُو آدَمَ)) والجميع هو جسيم.

والنار أذراك، والجنة دَرَجٌ، وبين الدارين بون بعيد، وقد أقسم الصادق القسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار، فكيف ينأى هارب النار، أو يغفل طالب الجنة.

(١) عَشِيَ عَشَى مِنْ بَابِ تَعَبَ: ضَعُفَ بَصَرُهُ فَهُوَ أَعَشَى، وَالْمَرْأَةُ عَشَوَاءُ، (المصباح المنير ٢ / ٤١٢).

الحديث الخامس

عَنْ^(١) أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - وكان من جُلَّةِ الأنصار، وله في الإسلام خطر، وقد قدمه قومٌ من أكابر الصحابة رضي الله عنهم للصلاة بهم لَمَّا أدخلهم منزله، فكان لذلك حُكْمٌ في الشريعة أن صاحب المنزل أولى بالإمامة فيه، وكذلك صاحبُ العمل في عمله، وكان أبو سعيد مولى لبني الأُبَجر^(٢)، والأُبَجر يقال له خُدْرَة فلذلك قيل له الخُدْري، وهو خُدْرَة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، [ومن بني خُدْرَة]^(٣) عبدُ الله بن ربيع بن قيس بن عمرو بن عَبَادٍ [بن]^(٣) الأُبَجر - قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: ((إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِعَالِمٍ نَاطِقٍ، أَوْ مُسْتَمِعٍ وَاعٍ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ هُدْنَةٍ، وَإِنَّ السَّيْرَ بِكُمْ سَرِيعٌ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ وَالتَّهَارَ كَيْفَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ)) فَقَالَ لَهُ الْمُقَدَّادُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ وَمَا الْهُدْنَةُ؟ قَالَ: ((دَارُ بَلَاءٍ وَانْقِطَاعٍ، فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمْ الْأُمُورُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَشَهِيدٌ مُصَدِّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرٍ سَبِيلٍ، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ))^(٤).

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو موسى جعفر بن إبراهيم بن الهادي قال حدثنا أحمد بن سلام بن عمر الدقاق قال حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد... الحديث.
(٢) قال في هامش الأصل: وهو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن نعلبة بن عبيد بن الأُبَجر،...
(٣) ما بين المعقوفين زيادة، استوجبت إضافتها، فعبد الله بن ربيع بن قيس هو أحد الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة وبدراً، (انظر الاستيعاب، وطبقات ابن سعد، وغيرها من كتب التراجم).

(٤) رواه الإمام أبو طالب في تيسير المطالب، والإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة، ورواه بكامله في كنز العمال (٢/ ٢٨٩) رقم (٤٠٢٧) بزيادة في آخره، وحديث: ((إِنَّ الْقُرْآنَ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدِّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ)) رواه في مصنف عبدالرزاق (٣/ ٣٧٢) رقم (٦٠١٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٣١) رقم (٣٠٠٥٤) وصحيح ابن حبان (١/ ٣٣٢) رقم (١٢٤) وحلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٠٨) والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) رقم (٨٦٥٥)، وشعب الإيمان للبيهقي

الخير قد تقدم معناه، والمراد به هاهنا النفع وإحماذ العاقبة. والعيش هو الحياة لأنهم يجعلون في كلامهم: عاش نقيضاً لمات وذلك ظاهر.

[العلم وحقيقة العالم، وما ورد في فضل العلماء]

ولا يُعدُّ المرء عالماً حتى يكون عالماً بذات الباري تعالى وصفاته، وما يجوز عليه في الإثبات والنفي وما لا يجوز، وأفعاله تعالى، وأحكام أفعاله، وما يجوز منها وما لا يجوز، وتوابع ذلك من النبوات والشرائع، وما يتبعها من الإمامة وتوابعها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، فإذا عَرَفَ هذه الجملة عُدَّ عندنا من العلماء.

ثم العِلْمُ بعد ذلك يتفاضل؛ فلا عالمٌ إلا وفوقه عليمٌ حتى ينتهي الأمر إلى العالم لذاته وهو الله سبحانه.

ولنما قلنا من عرف ما قدمنا عُدَّ عالماً؛ لأننا رويناه بالإسناد الموثوق به إلى عمر أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَضْلٌ: آيَةُ مُحْكَمَةٍ، وَفَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَسُنَّةٌ قَائِمَةٌ)) فدخل تحت هذه الجملة جميع ما قدمنا.

والناطق هو الذي ينشر علمه ويُبَيِّثُه لمن يستحقه من أهله؛ لأن الله تعالى قد أخذ ميثاق أهل العلم بذلك، وذلك ظاهر في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ

(٣/ ٣٨٩) رقم (١٨٥٥) وحديث: عَنِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ [الْهُمْدَانِي] عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: سَتَكُونُ فِتْنٌ، قُلْتُ: وَمَا الْمَخْرُجُ مِنْهَا؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ تَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَيْرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَصْلَهُ اللَّهُ، فَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَرِيعُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ الْجَنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ هُوَ الَّذِي مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ)) رواه في سنن الدارمي (٤/ ٢٠٩٨) رقم (٣٣٧٤) ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥) رقم (٣٠٠٧) وسنن الترمذي (٥/ ١٧٢) رقم (٢٩٠٦) ومسند البزار - البحر الزخار (٣/ ٧١) وشعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٣٣٥) رقم (١٧٨٨)..

مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَفَؤَلَيْكَ يُلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيُلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا ﴿البقرة﴾ فدلَّ على عِظَمِ المعصية في كتمان العلم، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِمَّا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ فِي أَمْرِ الدِّينِ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَجَامٍ مِنْ نَارٍ)).

وأهلُهُ طُلَّابُهُ الراغبون في قُوَّةِ الدين وصلاح الإسلام، فأَمَّا مَنْ كَانَ يُعَلِّمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَرِيدُ بعلمه الدنيا وزينتها والاستظهارَ على أولياء الله بحججه فلا بأس في منعه، بل ربما يجب ذلك، وعليه يحمل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَا تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتُظْلِمُوهَا، وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتُظْلِمُوهُمْ)) وأهل العلم هم صفوة الله من خلقه وسادتهم آل محمد عليهم السلام، بذلك تظاهرت الآثار عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، من ذلك ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((قَدْ مُوِّهُمُ وَلَا تَقْدُمُوهُمْ، وَتَعْلَمُوا مِنْهُمْ وَلَا تَعْلَمُوهُمْ، وَلَا تُخَالِفُوهُمْ فَتُضِلُّوْا، وَلَا تَشْتُمُوهُمْ فَتَكْفُرُوا)) وأمثال هذا كثير.

وفي عموم فضل العلماء جملة^(١) ما روينا بالإسناد الموثوق به إلى جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمَّا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿العنكبوت﴾ قَالَ: ((الْعَالِمُ الَّذِي عَقَلَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ)) وهي مرتبة عظيمة للعلماء حيث أحال الله تعالى بمعرفة معاني أمثاله - وهو علام الغيوب - على العلماء، وقد روينا بالإسناد الموثوق به إلى ابن عمر قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَضِعَتْ مَنَابِرُ مَنْ ذَهَبَ عَلَيْهَا قَبَابٌ مِنْ فِضَّةٍ مُرْصَعَةٌ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُدِ جَلَّاهَا السُّنْدُسُ وَالْأَسْتَبْرَقُ، ثُمَّ يُجَاءُ بِالْعُلَمَاءِ فَيَجْلِسُونَ فِيهَا، ثُمَّ يُنَادِي الرَّحْمَنُ عَزَّ وَجَلَّ: أَيُّنَ مَنْ حَمَلَ إِلَيَّ أُمَّةً مُحَمَّدٍ عِلْمًا أَتَى بِهِ يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ؟ أَجْلِسُوا فِي هَذِهِ الْمَنَابِرِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ)) فهذا في معنى العالم الناطق بعلمه.

والمستمع الواعي هو المتعلم الذي يحفظ ما يسمع، ليتنفع به وينفع، وهذا لَاحِقٌ بالعالم، وهو

(١) لفظة: جملة، زيادة في (أ) وفي نسخة أخرى.

شريك له في الأجر، وفي ذلك ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ، إِلَّا أَنْ لِلْعَالِمِ أَجْرَيْنِ وَلِلْمُتَعَلِّمِ أَجْرًا)) فَكُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ لَا هِيَأُ مُتَلَذِّذًا.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ هُدْنَةٍ.

لا فرق بين الزمان والدهر والعصر، والمراد بذلك مدة بقاء التكليف على الكافة، وهو يتناول الكل إلا ما خصه الدليل. والهدنة هو الوقت الذي لا يكون فيه داع إلى الله تعالى ظاهرًا، وهدنة الحرب من ذلك، وهي المسالمة ورفع السيف، ومنه قيل في الرجل هَدَانٌ للذي لا يُحِلِّي ولا يُمِرُّ. يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ فاشتاتنا شأن أنفسكم، وأعدوا اليقين وحسن النظر في معاني كتاب الله تعالى على ما يأتي بيانه، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ يوشك أن تقعوا في زمان هدنة، ليس فيها للأمة راع، ولا لها إلى الله داع، ولا منبه على الخير ظاهر اليد واللسان.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ السَّيْرَ بِكُمْ سَرِيعٌ.

السير معروف، والسرعة قد تقدم معناها.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنْ الْمَرْءَ يُسَارُّ بِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ واقفًا في بيته نائمًا على فراشه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقد قال بعض المتفكرين^(١) في هذا الشأن:

(١) هو التهامي الشاعر، علي بن محمد بن فهد أبو الحسن وهو من الشعراء المُحْسِنِينَ المجيدين، مولده ومنشؤه باليمن، وطراً على الشام، وسافر منها إلى العراق وإلى الجبل، ولقي صاحب بن عباد وقرأ عليه، وانشغل مذهب الاعتزال، وتقلد الخطابة بالرملة وتزوج بها، وكانت نفسه تحذته بمعالي الأمور، وكان يكتبه فيقول تارة إنه من الطالبين، وتارة من بني أمية، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين، وكان متورعاً صليفاً النفس متقشفاً يطلب الشيء من وجهه، ولا يريد إلا من جلّه، نسخ شعر البحري فلما بلغ أبياتاً فيها هجؤا امتنع من كتبها، وقال: لا أسطر بخطي مثالب الناس، وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفياً ومعه كتب كثيرة... فاعتقل بالقاهرة وقتل سراً سنة ٤١٦هـ، وهو صاحب القصيدة التي مطلعها:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
يُنَايِرُ رِئَايَ الْإِنْسَانَ فِيهَا مُحَرِّراً حَتَّى يُرَى خَبِيراً مِنَ الْأَخْبَارِ

وهي طويلة عدد أبياتها نيف وثمانون بيتاً، في ترقية ولد له توفي صغيراً. (انظر تاريخ دمشق ٤٣/ ٢٢٠، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٧٨، والوفاء بالوفيات ٢٢/ ٧٤).

وَنَحْنُ عَلَى الدُّنْيَا كَرَكِبٍ سَفِينَةٍ نَظُنُّ وَقُوفاً وَهِيَ مِنْ تَحْتِنَا تَجْرِي فَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَ.

قوله عليه السلام: وَقَدْ رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

الليل في أصل اللغة من غروب الشمس إلى طلوعها، والنهار من طلوعها إلى غروبها، والليل في عرف الشريعة المعظمة زادها الله تعالى شرفاً من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقد ذكر دليل ذلك سبحانه في سورة القدر، والنهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتتعلق بذلك أحكام ليس هذا موضع ذكرها.

قوله عليه السلام: كَيْفَ يَبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ.

والبلى نقيض الجدة، ومعناه تخريب البنية وتغيير الصورة، و (كُلُّ) من ألفاظ العموم، وما به جديدٌ إلّا والأيامُ تُبْلِيهِ، والليالي تغنيه، وفي هذا لطفٌ عظيمٌ لمن تفكر فيه، فإنّ العاقل إذا فكر في صيرورة أمره وما ينتهي إليه حاله زَهَدَ في هذه الدنيا ولم يَغْتَرَّ بغرورها لأنه يعلم أنه ربما صار بعد الصورة الحسنة والهيئة الرائعة تراباً يطأه من كان يأنف أن يمسه من الهوام والأنعام وضعة الأنام، وربما صار مَرْتَعاً للسباع ومسرّحاً للأنعام، وربما بُي بجسده المكرم عنده حَشٌّ^(١) أو مِرْحَاض بعد أن كان مُبْرِماً نقاضاً، بساطاً قَبَاضاً، فكيف يفتن ذو عقل سديد أو يغتر بجده ومصيرها إلى ما قدمنا، وقد قال الشاعر^(٢) في مثل ذلك:

(١) الْحَشُّ: يَفْتَحُ الْحَاءُ وَصَمَّهَا الْبُسْتَانُ وَهُوَ أَيْضاً الْمَخْرُجُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ فِي الْبَسَاتِينِ، (مختار الصحاح: ٧٣) وَالْمِرْحَاضُ: الْمَغْتَسَلُ.

(٢) البيت هو لأبي العلاء المعري، وقد أخذ معناه من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في قوله: ((تَطَاوَنَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنِيثُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفْظُوا، .. الخ)) من كلام له بعد تلاوة: «أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ». والبيت من مرثيته المشهورة التي مطلعها:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْتُمُ شَادِي
ومنها:

سِرُّ إِنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُويْدَا لَا اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مَرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاكُمِ الْأَضْدَادِ

وهو أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي المعري: شاعر فيلسوف. ولد

حَقَّفِ الْوُطءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
قوله عليه السلام: وَيَقْرَبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ.

التقريب نقيض التباعد وهو إدناء الأمر من الأمر، ولا شك أن الليل والنهار يأتیان بذلك؛ إذ ما به كائن إلا وهما يوصلان إليه وإن طال الأمد، والأمر في ذلك ظاهر.

قوله عليه السلام: وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ.

والإتيان نقيض الذهاب، والموعود كل ما تقدم الخبر بإتيانه، فكل ما وعد به صادق الوعد أتى به الليل والنهار لا محالة، وقد جرى الوعد من صادق الوعيد والوعد، بما بين أيدينا من القيامة وأهواها وروائعها وزلزالها، والعروة ونوائبها، والمحاسبة وعجائبها، والنار ومصائبها، والجنة ومراتبها. وهذه أمور عظيمة هائلة لا ينبغي للعاقل أن يغفل عنها، واستعمال الفكر في الخلوص من شدائدها ونيل فوائدها.

قال أبو سعيد: فَقَالَ لَهُ الْمُقَدَّادُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا الْهُدْنَةُ؟

المقداد^(١) حليف بني زهرة بن كلاب، وكان له في المسلمين شأن، وهو المقداد بن عمرو بن ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ ثُمَامَةَ بْنِ مَطْرُودِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ ثَوْرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ الشَّرِيدِ بْنِ هَزَلِ بْنِ قَائِسِ بْنِ دَرِيمِ بْنِ الْقَيْنِ بْنِ أَهْوَدَ بْنِ بَهْرَانَ^(٢) بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَافِ بْنِ

ومات في معرة النعمان، أصيب بالجدري صغيراً فعَمِيَ في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ... سَمَى نَفْسَهُ رَهِينَ الْمُحْبِسِينَ لِلزُّومَةِ مِنْزَلَهُ وَلِذَهَابِ عَيْنِهِ. (الأعلام للزركلي ١ / ١٥٧).

(١) هو المعروف بالمقداد بن الأسود الكندي، تُسَبِّحُ إِلَى الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَعُوثِ الزُّهْرِيِّ؛ لِأَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّهُ، وَنَشَأَ فِي حَجَرِهِ، وَتَبَنَاهُ، كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَهَاجَرَ الْهَجْرَتَيْنِ، وَكَانَ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَخْلَصِينَ، وَكَانَ شَجَاعاً مُجَاهِداً حَسَنَ الطَّرِيقَةِ، شَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَ بَدْرِ فَارِسَ غَيْرِهِ، وَوَرَدَ فِيهِ الْحَدِيثُ: ((أَمَرَنِي رَبِّي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ))، فَقِيلَ: مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: ((عَلِيٌّ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَالْمُقَدَّادُ، وَسَلْمَانٌ)) وَمُنَاقِبُهُ كَثِيرَةٌ، وَهُوَ أَحَدُ الَّذِينَ كَانُوا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ مَعَ السَّابِقِينَ الْوَاقِفِينَ حَوْلَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ حَادِثَةِ السَّقِيْفَةِ... تَوَفَّى بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ٣٣ هـ، عَنْ سَبْعِينَ سَنَةً (وعليه فمولده سنة ٣٧ قبل الهجرة) (انظر لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣ / ٢٥٤).

(٢) هكذا في النسخ كلها: بهران، وفي كتب التراجم والطبقات: بهراء.

قُضَاعَةً، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا نَسَبَهُ بِطَوْلِهِ لِأَنَّ الْمَنَافِقِينَ طَعَنُوا فِي نَسَبِهِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَذَمُّوهُ، وَلَهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَرِثَةٌ.

قوله عليه السلام: دَارُ بَلَاءٍ وَانْقِطَاعٍ.

البلاء هو الامتحان، والانقطاع هو الانفصال، قال قائل أهل اللغة:

فَالْيَوْمَ أَبْلُوكَ وَتَبْتَلِيَنِي وَالْيَوْمَ تَبْلُو غِلْظِي وَلِيَنِي

معناه امتحنك وتمتحنني، فأشار عَلَيْهِ السَّلَامُ للمقداد وللمسلمين إلى أن بلوى الدنيا دائمٌ، وانقطاعها لازم، وأن حُجَجَ الله سبحانه من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الأئمة الأعلام وأتباعهم من كبار أهل الإسلام، ربما انقطعوا وذُلُّوا، وقُتِلُوا فَقَلُّوا، وفُرِقُوا فَانْغَلَّوْا^(١)، يُبَدِّلُونَ أَسْمَاءَهُمْ، ويحولون أَسْمَاءَهُمْ، فلم يبقَ لَهُمْ عِلْمٌ شَاهِرٌ^(٢)، ولا أَمْرٌ ظَاهِرٌ، فَأَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا بِهِ تَقَعُ النِّجَاةُ عِنْدَ فَقْدِ الدَّعَاةِ، وهو الرجوع إلى القرآن المجيد، الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمُ الْأُمُورُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ.

الالتباس هو اختلاط بعض الأمور ببعض حتى لا يمكن تخليصها إلا بعناء ومشقة، أُخِذَ ذَلِكَ مِنَ اللَّبْسِ وَهُوَ الْخَلْطُ. وَالْأُمُورُ هِيَ الْحَوَادِثُ وَالْمَسَائِلُ الْمَشْكَلَاتُ. وَقَطْعُ اللَّيْلِ: سُدُفُهُ، وَاللَّيْلُ الْمُظْلِمُ خِلَافُ اللَّيْلِ الْمُقْبِرِ، وَعِنْدَ شِدَّةِ الظَّلَامِ يَصْعُبُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُتَشَابِهَةِ.

قوله عليه السلام: فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ.

[القرآن]

أَغْرَاهُمْ بِلِزُومِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِالِاسْتِزْاءَةِ بِنُورِهِ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْقُرْآنِ فِي حَدِيثٍ فِيهِ بَعْضُ الطَّوْلِ؛ قَالَ فِيهِ -يعني القرآن-:

(١) أَيِ انْدَسَوْا، هَامِشٌ (أ).

(٢) فِي النِّسْخِ: (عَلِمَ قَاهِرٌ) وَفِي الْأَصْلِ مَصْحُوحٌ فَوْقَهَا بِ شَاهِرٌ، وَصَحَّحَهَا فِي نَسْخَةٍ أُخْرَى بِأَنَّهَا مِنْ نَسْخَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ.

((لَا تَحْصِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَبْلَى غَرَائِبُهُ، فِيهِ مَصَابِيحُ الْهُدَى، وَمَنَارَاتُ الْحِكْمَةِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَةَ، فَلْيُولِجْ رَجُلٌ بَصْرَهُ، وَلْيَبْلُغِ الطَّرِيقَةَ نَظْرَهُ، يَنْجُ مِنْ عَطَبٍ، وَيَتَخَلَّصُ مِنْ أَشْبٍ ^(١)، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَتِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ، بِحُسْنِ تَخَلُّصٍ، وَقَلَّةِ تَرْبُصٍ)).

وفي مثل هذا ومعناه آثارٌ كثيرة، وهو دليل واضح على ما ذكرناه من معنى الهدنة؛ لأنَّ السلطان يزع ^(٢) ما لا يزع القرآن، بذلك ورد الأثر، وقد روينا عن ابن شبرمة ^(٣) قال: دخلنا على أبي مسلم ^(٤) وهو يقرأ في المصحف، وبين يديه سيفٌ مسلولٌ، فقلنا: ما هذا؟! فقال: ليس إلا هذا أو هذا.

قوله عليه السلام: فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ.

الشافع هو سائل الخير لغيره إما بدفع ضرر، أو بزيادة نفع. والمشفَّع الذي لا تُرَدُّ شفاعته، وأنزله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ منزلة الشافع لأنَّ الثواب الجزيل يُنال به، فكأنَّه في الحكم أُخِذَ بشفاعته وسؤاله، وقد روينا بالإسناد إلى جابر بن عبد الله قال: قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ ^(٥) وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَازِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُهَا)) وهذا من أعلى ما يُنال بالشفاعة، فلذلك سُمِّيَ القرآنُ شافعاً، وفي الحديث:

(١) الْأَشْبُ: الاختلاط المفضّل، تمت، هامش (أ). وقال في لسان العرب (١/ ٢١٤): الْأَشْبُ شِدَّةُ التِّفَافِ الشَّجَرِ وَكَثْرَتُهُ حَتَّى لَا يَجَازَ فِيهِ، أ.هـ.

(٢) يَزْعُ: يَكْفُفُ وَيَمْنَعُ، قال في النهاية: وَزَعَهُ يَزْعُهُ وَزَعَا فَهُوَ وَازِعٌ، إِذَا كَفَّهَ وَمَنَعَهُ، أ.هـ. (النهاية ٥/ ١٨٠).

(٣) عبد الله بن شُبرمة بن الطُّفَيْلِ، الضُّبِّي، محدثٌ فقيهٌ من مشاهير التابعين، أقام بالكوفة، وذكر السيد أبو العباس الحسني في المصابيح أنه ممن بايع الإمام زيد عليه السلام، توفي سنة ١٤٤هـ، أ.هـ.

(٤) أبو مسلم الخراساني هو: عبد الرحمن بن مسلم، في نسبه خلاف كبير، فقال بعضهم: هو من أصبهان، وقال بعضهم: من خراسان، وقيل: من العرب، وادعى هو: أنه ابن سليط بن علي بن عبد الله بن عباس، ولد سنة (١٠٠هـ) ونشأ عند إدريس بن عيسى [العجلي]، وهو مؤسس الدولة العباسية، خرج بعد مقتل الإمام يحيى بن زيد عليه السلام زاعماً أنه أخذ بثأر أهل البيت (ع)، ثم وضع الملك في العباسية، وسلط الله عليه الملك الثاني أبا جعفر الدوانيقي فقتله بـ (رومية المدائن) سنة (١٣٧هـ) أ.هـ.

(٥) في نسخة أخرى: اقْرَأْ وَارْقَ.

((إِنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ)) المراد بذلك الْمُتَّبِعُونَ له العاملون به، وروينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُتُبَانٍ مِنْ مَسْكِ، لَا يَفْزَعُونَ وَلَا يَمْتَلُونَ.

قوله عليه السلام: وَشَاهِدٌ مُصَدِّقٌ.

الشهادة في أصل اللُّغَةِ هي الحضورُ، وأُخِذَ الشَّاهِدُ من ذلك؛ لِأَنَّهُ لَا يَشْهَدُ إِلَّا بِمَا يَحْضُرُ عنده، أو يكون في حكم الحاضر، فجعل عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقُرْآنَ في حكم الشاهد لحامله بأنه عَمِلَ به إن كان عَمِلَ به؛ فيستحق ما وجب، كما يُسْتَحَقُّ الحق عند الشهادة، وكلُّ ذلك على وجه المثل.

وتصديق الشاهد يقع بأحد وجهين: إما بالتعديل، وإما بتصديق الخصم، وبكلٍّ واحدٍ من الأمرين تَبَيَّنَتْ شهادته، وهذه حال القرآن شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَهُ مع من قام بِلِوَاظِمِهِ، وانقاد لأوامره، ووقف عند متشابهه، وعمل بمحكمه، وتفكر في أمثاله، وقام بما يجب من إجلاله، فهذا الذي يشهد له القرآن بين يدي ربه بأنه قد قام به حق القيام، وتأدية ما عليه لذي الجلال والإكرام، من الحق فيه، والحق به، والحق له.

قوله عليه السلام: مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَةً إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَةً إِلَى النَّارِ.

الجعل يكون بمعنى الخلق، وبمعنى الترك، وبمعنى الحكم، وبمعنى الإلقاء، والمراد به هاهنا الإلقاء والترك. وأمام نقيض خلف، وظهوره يغني عن استشهاد.

ومعنى **جَعَلَهُ لَهُ أَمَامَهُ**: أن يقتدي بأوامره فيفعلها، وينهايه فيحذرهما، وَيُرَدُّ متشابههُ إلى محكمه، وَيُؤْمَنَ بمنسوخه، ويعمل بناسخه، ويتدبر أمثاله، ويتفهم إشكاله، ويستعين في معرفة غرائبه وفهم عجائبه بسؤال تراجمته وأربابه، وورثته وأصحابه، عِثْرَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الْمُسْتَحْفَظِينَ، رُعَاةَ سِرِّهِ، وَحُمَاةِ سِرِّهِ^(١)، الذين قرنه بهم، وقرنهم به، وذلك لما روينا بالإسناد الموثوق به إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ اعْلَمُوا أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي عِثْرَةِ نَبِيِّكُمْ، فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ عَنْ أَمْرِ تَنْوِيسٍ مِنْ أَصْلَابِ أَصْحَابِ السِّفِينَةِ، هَؤُلَاءِ مِثْلُهَا فِيكُمْ، وَهُمْ كَالْكَهْفِ لِأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَهُمْ بَابُ السَّلْمِ، فَادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً، وَهُمْ بَابُ حِطَّةٍ، مَنْ دَخَلَهُ غُفِرَ لَهُ، خُذُوا عَنِّي عَنْ خَاتَمِ

(١) السَّرْحُ: الْمَالُ السَّائِمُ. (لسان العرب ٢ / ٤٧٨). والسَّرْبُ هاهنا هو مَا لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ وَمَالٍ، وقد مرت.

الْمُرْسَلِينَ حُجَّةً مِنْ ذِي حُجَّةٍ قَالَهَا فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا مِنْ بَعْدِي أَبَدًا؛ كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي، إِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْخَوْضَ)).

ومعنى قوله عليه السلام: وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ.

قد قدمنا معنى الجعل في أصل اللغة، والمراد به هاهنا أن ينبذ حكمه وراء ظهره، فلا يُحِلُّ حلاله، ولا يُحَرِّمُ حرامه، ولا يقوم بفرائضه، ولا يلتزم أحكامه، ولا يتدبر معانيه، ولا يُعَزِّزُ^(١) مناهيه، فهو لا محالة يسوقه -والحال هذه- إلى النار، وأصل السَّوْقِ في البهائم، وهو معروف، وذلك أَنَّ البهيمة ذليلة في جنب السائق، فكذلك حكم من نبذ القرآن وعطل أحكامه؛ لأنه ضيَّع حُجَّةَ اللَّهِ عليه، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا زَبَانِيَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا حَمَلَةُ الْقُرْآنِ أَسْرَعَ مِنْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرانِ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ سُوْرَعِ الْيَنَانِ؟! بَدِئْ بِنَا؟! فَيَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ، فَلِذَلِكَ يُسَاقُونَ سَوْقًا شَدِيدًا وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا حَيْدًا)) عصمنا الله من مثل حالهم، وأعاذنا من مرجعهم ومآلهم.

قوله عليه السلام: هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرٍ سَبِيلٍ.

هذا عائد إلى القرآن الكريم، ولا شك أنه كذلك، ولم لا يكون كذلك وهو الذي عجز عن الإتيان بمثله الخلق، وعجب منه أهل البصائر من الجن: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن] وأيُّ هادٍ أهدى، وأيُّ شيء أعجب منه وهو على سعته وطوله وتنوع فصوله في غاية الفصاحة، ومنتهى البلاغة والبراعة، لا يستطيع الشاعر المُفْلِقُ^(٢)، ولا الخطيب المِصْقَعُ، والمترسل المُنَمَّقُ، والقائل المتشدِّق أن يأتي بمثل فصلٍ من فصوله.

(١) التَّعْزِيزُ: التَّوْقِيرُ وَالتَّعْظِيمُ. وَهُوَ أَيْضًا التَّأْدِيبُ (مختار الصحاح ٢٠٧) ولعله هنا بمعنى عدم تعظيم

وتهيب اقتراف المناهي وارتكابها.

(٢) أَفْلَقَ الرَّجُلُ إِذَا أُنِيَ بِالْفُلُقِ وَهُوَ الْعَجِيبُ، وَمِنْهُ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِش (أ).

والواضح هو الظاهر اللائح، لا فرق بين ذلك. والدليل هو ما يوصل النظر فيه على الوجه الصحيح إلى العلم اليقين، وكذلك حال القرآن الكريم؛ لأن من نظر في شيء منه على ما قدمنا أوصله نظره إلى العلم اليقين. والسييل هو الطريق، والمراد به هاهنا طريق الجنة التي من لزمها انتهى إلى النعيم الدائم، والملك العقيم، ونعم عقبى الدار.

قوله عليه السلام: مَنْ قَالَ بِهِ صَدِّقٌ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرٌ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدْلٌ.

التصديق نقيض التكذيب، ومعنى التصديق أن يقال للمتكلم به والمُخبر عن خبره: صَدَقْتُ، أو يقال للعامل به والمصدِّق بمقتضى خبره: قد صَدَقْتُ، ولا بد من تصديق من قال بالقرآن وعمل بمقتضاه، فإن من لتصديقه حكمٌ وتأثيرٌ وهو الملك الجبار والملائكة الأبرار والأنبياء الأخيار والأئمة الأطهار والمؤمنون الأحرار يُصدِّقون القائل بالقرآن والعامل به تصديقاً يورثه دار الكرامة، فهذا أحد وجهي التصديق.

والوجه الثاني أن لا بد من إطباق الكل على تصديقه يوم القيامة، الأخيار والأشرار، والمؤمنين والكفار، والتصديق لم يؤقت، فيكون معنى التصديق ذلك، وهو يومٌ ينجو فيه الصادقون ويهلك الفاسقون، وهذا من أقوى الأسباب الموجبات للقول والعمل بموجب القرآن الكريم. **والعامل به** هو العامل بمقتضاه المؤثر لهداه على هواه. **والأجر** هو الثواب على عملٍ أو تركٍ، فإذا قال بالقرآن وعمل به أوتي أجراً عظيماً، وقد قدمنا في معنى ذلك صدرأ.

الحكم في أصل اللغة هو المنع، وفي عرف الشريعة المكرمة القطع على أحد الخصمين بلزوم الحق لصاحبه إن اختلف حالهما، والقطع بالتعديل بينهما إن استوى حالهما، ولما كان أصل الحكم المنع وكان الحاكم بحكمه يمنع أحد الخصمين عما ليس له؛ سُمِّي حاكماً. **والعدل** نقيض الجور، وهو الإنصاف من النفس والانتصاف لها.

ومعنى ذلك: أن من حكم بكتاب الله تعالى فقد أخذ لنفسه بالوثيقة، وسلك أوسط طريقة، وعدل على الحقيقة، لأن كتاب الله تعالى قاعدة العدل وأساسه، وعينه ورأسه، ومُهجته وأنفاسه، والأمر فيه ظاهرٌ، ومنه حديث معاذ حين بعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ إلى أرض

اليمن، فقال له: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو احتياطاً. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يَرْضَىٰ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ)) فقد رأيت كيف جعله عَلَيْهِ السَّلَامُ بتقريره أصلاً للحكم، فلذلك يَعِدُّ به من حكم، فنسأل الله تعالى أن يجعله لنا عن الشرِّ ذائداً، وإلى الجنة قائداً، والصلاة على محمد وآله.

الحديث السادس

عَنْ^(١) ابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ عُمَرَ هَاهُنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ رِيَّاحٍ^(٢) بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ بْنِ رَزَّاحٍ بْنِ عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَهُوَ مِنْ أَصَاغِرِ الصَّحَابَةِ سِنًا وَأَكْبَرِهَا قَدْرًا وَحَالًا، وَقَدْ أَشِيرَ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ، وَمَالَ إِلَيْهِ هَوًى كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَّةِ، وَكَانَ خَوْفُ الْجَانِبِ فِي أَيَّامِهِ، عَلَى لَيْنٍ وَانْقِطَاعٍ كَانَ فِيهِ، وَكَانَ يَرِيدُ الْأَمْرَ إِنْ لَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ اثْنَانِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْجَهْدِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرُوِيَ عَنْهُ نَدَامَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَخَلُّفِهِ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلَاةٍ، وَلَهُ رَوَايَةٌ وَسِيعَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى غَفْلَةٍ كَانَتْ فِيهِ، وَلَمْ يُخْتَلَفْ فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُ وَالْأَخْذُ مِنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَا يُكْمَلُ عَبْدٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ [عَزَّ وَجَلَّ] حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، وَالتَّفْوِيزُ إِلَى اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالرَّضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، إِنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ))^(٣).

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عبد الله بن المعتز قال حدثنا عفان بن مسلم قال حدثنا حماد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر... الحديث.

(٢) في النسخ كالتالي: بن عبد العزى بن عبد الله بن قُرْطٍ بن رِزَّاح بن عدي، تقديم وتأخير، وما أثبتناه من الاستيعاب وشرح النهج وغيرها من المراجع، وورد أيضا في ذكر نسب كثير من الصحابة مثل سعيد بن زيد، ابن عم عمر بن الخطاب وكذلك نسب عمرو بن سراقه بن المعتمر.

(٣) قال البزار حدثنا عبد الله بن أحمد بن شيبويه حدثنا أبو اليان حدثنا سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((خَمْسٌ مِنَ الْإِيمَانِ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَلَا إِيمَانَ لَهُ: التَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالرَّضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَالتَّفْوِيزُ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى)). (مسند البزار ١٥/١٢) رقم (٥٣٨٠) والطرف الآخر من الحديث: ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) رواه المرشد بالله في الخميسية (١٩٣/٢) في ثلاثة مواضع، وفي أمالي أبي طالب (٣٣١/١) وأخرجه أبو داود (٢٢٠/٤) رقم (٤٦٨١) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٠/٧) رقم (٣٤٧٣٠) والطبراني في المعجم الكبير (٧٦١٣ و ٧٧٣٧ و ٧٧٣٨) وابن بطه في الإبانة الكبرى (٦٥٧/٢) رقم (٨٤٥) والبيهقي في شرح السنة (٥٤/١٣) رقم (٣٤٦٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٧/١١) رقم (٨٦٠٥) وغيرهم.

الإكمال والإتمام يفيدان معنى واحداً، وهو فعل مُوجب الأمر مطابقاً لغرض الأمر بغير زيادة ولا نقصان.

والعبدُ المراد به هاهنا المُكَلَّفُ، وسُمِّيَ عبداً لأنه مُذَلَّلٌ ذليلٌ لله سبحانه، وأصلُ التعبيد التذليلُ، من ذلك قولهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي مُذَلَّلٌ، فأما التعبيد بمعنى التذليل فهو عام في جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، إذ ما به مخلوقٌ إلا وقد ذلَّه الله تعالى بالفناء والحاجة، وتعزَّزَ سبحانه بالبقاء والغنى، وكيف لا نكون في جنبه مُذَلَّلِينَ، ولطاعته مؤهَّلِينَ، وإن رام الإباق الجاهلون، ونسي واجبَ حقِّه الغافلون، وهو مالِكُنَا ومالِكُ آبائنا وأبنائنا، ولا يصحُّ خروجُنا عن ملكه بوجه من الوجوه، ومن لنا بذلك، فالحمد لمن جعلنا كذلك، وأخرجنا من العدم إلى الوجود ولم تكن شيئاً مذكوراً، فنحن عبيده حقاً حقاً، خوفاً أرقاءً، فكيف يسوغ عصيائه، أو يحسن نسيائه، فهذا في معنى المذلل، وهو عام كما ترى في جميع العباد، وأما الذليل لله تعالى فهو قليلٌ من الناس، والمغبون من لم يذللَ لربه، ويعترف بذنبه في وقتٍ تُقبَلُ فيه المَعْدِرَةُ، وتَنفَعُ النَدَامَةُ، وتَعْقِبُ الذَّلَّةُ الْفَانِيَةَ الْعِزَّةَ الْبَاقِيَةَ.

والإيمان في أصل اللُّغة هو التصديق، ولا فرق بين قولك آمنتُ به وبين قولك صدقتُ به، فأما في عرف الشريعة المعظمة فالإيمان له أصولٌ وفروعٌ شرحها يطول، ولعلَّ أفنان الكلام في كتابنا هذا إن شاء الله تحيط بأكثرها فتأمَّلْه، فلا يكون المؤمن مؤمناً شرعاً إلا بفعل جميعها.

الخصال والخلال والطرائق معناها واحدٌ، وهي التي يلزم الإنسان فِعْلُهَا، ويستقيم عليها من جميع الأمور.

[التوكل]

فأول ما ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ من الخمس الخصال: التوكل على الله، وبدأ بذكره لأنه أعلاها، ومعناه أن لا تهتمَّ بالأمر المُهمِّ اعتماداً على غيرك فيه، ولذلك سُمِّيَ الرجل وكَلَّاءً، وهو الذي لا يهتم بالأمر اعتماداً على غيره فيها، وهو ذمٌّ عندهم.

ومعنى التوكل على الله تعالى أن تعتمد في كل مُهِمٍّ عليه، وتُردَّ كلُّ مُلِمٍّ إليه، وتضع يدك في يديه، ولا ترجو لكل شديدة سواه، ولا توالي خوفاً من المشاق عِداه، تُؤثِّرُ إن أعطاك لِتَرْضِيَهُ وَلِيَّهُ، وَتَشْكُرُ إن منعك لِتَكْتِبَ عُدُوَّهُ، ولا تطلبُ شيئاً من رزقه بمعصيته، ولا تعصيه عزَّ وعلا لِرِضَا أَحَدٍ من خلقه، ولا تقصِّر في شيء من عبادته ولوازم تكليفه، فهذا معنى التوكل عندنا، وبه يسمَّى العبدُ متوكِّلاً شرعاً.

[التفويض]

وثانيها: التفويض إلى الله، أصلُ التفويض التخليُّ للغير يصنع ما أراد بلا منع ولا اعتراض عليه، ولا حدَّ دونه، وهو مأخوذٌ من فاض الماء إذا أخذ على وجهه بلا حاجز يمنعه، ولا حائل يردعه، ومن ذلك قولهم: الناس فوضى، أي مستوون فلا فاضل فيهم يمنعه عن بعض الأمور ويأمرهم ببعضها، قال الشاعر:

لَا يَصْلُحُ^(١) النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جَهَّاهُ لُهُمْ سَادُوا

ومعنى التفويض إلى الله تعالى أن تعلم أن يده في مالك ووليدك، وسيدك وليك^(٢)، وطاردك وتاليدك^(٣) أولى وأعلى من يدك، فلا تعقب فعله في ذلك - وإن خالف رضاك وجانب هواك - بكرهة أبداً، وإن لم يدع لك مالاً ولا ولداً، فهو خيرٌ خلفٍ من كلِّ فائتٍ، وبقيةٌ من كلِّ هالكٍ، فمن لم يفوض أمره إليه^(٤) على هذا الوجه لم يكْمُلْ إيمانه، وظهر عصابته.

(١) في الأصل وفي نسخة أخرى: وَأَصْبَحَ النَّاسُ فَوْضَى... الخ.

(٢) السَّبْدُ: الوَبَرُ، وَقِيلَ: الشَّعْرُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: مَا لَهُ سَبْدٌ وَلَا كَبْدٌ، أَي مَا لَهُ ذُو وَبَرٍ وَلَا صُوفٍ مُتَبَدِّدٍ، يُكْتَنَى بِهِمَا عَنِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ... وقال الأصمعي: ما له سَبْدٌ وَلَا كَبْدٌ أَي ما له قليل ولا كثير. (لسان: ٢٠٢/٣)

(٣) الطَّارِفُ والطَّرِيفُ: مَا اسْتَحْدَثَتْ مِنَ الْمَالِ وَاسْتَطَرَفَتْهُ، وَالتَّلَادُ والتَلِيدُ ما وَرِثَتْهُ عَنِ الْأَبَاءِ قَدِيمًا. (لسان: ٢١٤/٩).

(٤) في الأصل: فمن لم يفوض إليه أمره، وفي (أ): فمن لم يفوض أمره إلى الله. والمثبت من نسخ أخرى.

[البلاء والصبر]

وثالثها: الصبر على بلاء الله، أصل الصبر الحبس على ما تكرهه النفس، ومنه قولهم: قُتِلَ صَبْرًا، إذا حبس لل سيف بحيث لا يتمكن من دفاع، ولا يقدر على امتناع، ولا فرق عندهم بين قولك صَبَرْتُ نفسي على كذا وكذا، وبين قولك حبسْتُها، قال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ (١):

وَأَعْطِفَ النَّفْسَ عَلَى مَكْرُوهِهَا حِينَ لَا يُعْطِفُهَا إِلَّا الصَّبْرُ (٢)

يريد الحابس لها على المكاهه التي فيها معالي الأمور، ولا يتم ذلك إلا بمنعها عن الجزع، وصرفها عن الفزع، عند نزول الخطوب المهمة، وهجوم التوب المؤلمة الملمة، وتضاعف المشاق الجليلة الحادثة، والأمور الناجمة الكارثة، فحينئذ يفرق بين الصابر والجازع، والمرع والرائع.

والبلاء هو المحنة والفتنة، لا فرق بين ذلك في لسانهم، وسيأتي تفصيله إن شاء الله، لا فرق عندهم بين قولك ابتليته وامتحنته.

والصبر هو أحد نصفي الإيمان وأرجحها، وذلك لما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر)) وفي الرواية أن عمر بن الخطاب قال: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت، فكأنه أشار إلى أن كل واحد منهما يوصل راكبه إلى الجنة.

والبلاء من قبل الله تعالى على وجهين: بلاء فعل واضطرار، وبلاء تعبّد واختبار، فبلاء الفعل والاضطرار على وجهين: محنة ونعمة، ونريد بالمحنة هاهنا ما تنفر عنه النفوس، وبالنعمة ما تلتذ به، وأما إذا رُجع إلى التحقيق فكل ما جاء من قبله من مكروه أو محبوب فهو نعمة حسنة، وقد قسّم الحكيم سبحانه البلاء في كتابه الكريم كما قسمنا، ومن كتابه العزيز تفهّمنا ما فهمنا، قال عزّ

(١) طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي (نحو ٨٦ - ٦٠ ق هـ) أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعب (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعب شابا في (هجر) قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل: ابن ست وعشرين... أشهر شعره معلقته، ومطلعها: حَوْلَةَ أَطْلَاجٍ يَبْرُقُ نَهْمِدٍ... (الأعلام للزركلي ٣/ ٢٢٥).

(٢) الصَّبْرُ: جَمْعُ صَابِرٍ وَصَبَّارٍ وَصَبِيرٍ وَصَبُورٍ، وَالْأُنْثَى صَبُورٌ أَيْضاً، بِغَيْرِ هَاءٍ، (انظر اللسان ٤/ ٤٣٨).

من قائل في ذلك: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ فيقول ربي أكْرَمَنِي ﴿﴾ [الفجر] وأقول قد أكرمك ونعمك، فكيف شكرت المنعم المكرم، وهل أجزت البلية فقد سماها بلوى، أم جعلت إجازتها لعباً وهواً، وركضاً في ميادين الأهواء، أين أنت عن الشكر والإيثار الذي هو تعبُّدك في هذه البلوى إن كنت من المهتدين، ألم تسمع إلى قول العبد الصالح سليمان عليه السَّلام إن كنت من المتوسمين: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَالشُّكْرَ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ [النمل] غنيٌّ حيٌّ لا يحتاج، كريمٌ يعطي من يشاء بغير حساب، وليس هذا لأحد سواه.

وقال تعالى في المعنى الثاني من البلوى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ فيقول ربي أَهَنَّنِي ﴿﴾ [الفجر] أهانك ليزداد بإهانتك سلطاناً إلى سلطانه؟! أو يجبر بنقيصتك نقصاً في شأنه؟! أفلا يستحي الجهال بمواقع الحكمة من العليم الحكيم! أو يردُّوا الأمر إلى من أُمروا بالأخذ عنه والتعليم، ليَقُومُوا لهم أودَّ عقولهم، ويحلُّوا عُقدَ كَدِّ تحصيلهم من وُلاة الأمر، وورثة الكتاب، وسفن النجاة، على أبيهم وعليهم أفضل السلام والصلاة.

فالبلوى تخرج على هذين المعنيين، وقد هلك بجهل ذلك كثيرٌ من الناس؛ فقد رأيت كيف سمى سبحانه التضييق في الرزق باسم التوسيع، وهو أحدهما عاقبة، وأهونها على المتفكرين مشقَّة، وفي الحديث المروي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((أُبَشِّرُوا صَعَالِيكَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَوْزِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَقْدَارِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْأَغْنِيَاءُ مَوْقُوفُونَ يُحَاسِبُونَ عَلَى فَضْلَاتِ أَمْوَالِهِمْ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبُوهَا، وَفِيمَ أَنْفَقُوهَا)) وقد رجَّح أمير المؤمنين عليه السَّلام بلوى المحنة على بلوى النعمة في أبيات رويها عنه، قال فيها:

عَطِيَّتُهُ إِذَا أُعْطِيَ سُورُورٌ^(١) فَإِنْ سَلَبَ الَّذِي أُعْطِيَ آثَابَا
فَأَيُّ النَّعْمَتَيْنِ أَجَلٌ قَدَرًا وَأَعْظَمُ فِي عَوَاقِبِهَا إِيَابَا
أَنِعْمَتُهُ الَّتِي أَهْدَتْ سُورُورًا أَمْ الْأُخْرَى الَّتِي ذَخَرَتْ ثَوَابَا

(١) في النسخ: سروراً، لكنه شطب على الألف في الأصل وفي بعضها، والوجهان محتملان.

فأنواع الصبر على هذا ثلاثة:

احتمال المشقة باستصغار البلوى وتهوينها، وهو أعظمها أجراً.

وصبرٌ على الثناء باللسان وذكر ما يمكن ذكره من النعمة، إذ ذكرُ جميعها لا يدخل تحت الإمكان.

وصبرٌ على العمل بالأركان للخروج عن عهدة ما لزم.

وإذا أردتَ الإجمالَ قلتَ: الصبرُ على وجهين؛ صبرٌ على الفعل، وصبرٌ على الترك، فالفعل فعل الطاعة، والترك ترك المعصية.

واعلم أن الموفق من العباد من تأمل ما ذكرنا بعين البصيرة؛ ليقابل كلَّ واحدةٍ من البليتين بما ينبغي أن يُقابَلَ به محبوبُ الحكمة وكرهه ليخرج عن الواجب في ذلك، فنسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ربنا ويرضى.

[التسليم لأمر الله]

ورابعها: التسليم لأمر الله، ومعنى التسليم التمليكُ، لا فرق عند أهل اللغة بينهما، فمخرج ذلك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ حَصَّ المتعبدِينَ على أن يُمْلَكُوا أمرَ الله تعالى نفوسَهُم وأولادَهُم وأموالَهُم وأودادَهُم، فينقادوا لأمر الله تعالى فيهم بالكريه والشهي، والشويه والبهى، انقياد المملوك الذليل الحاذر لمالكة العزيز القاهر، وذلك لا يكون إلا بأن يقابل الأوامر فيهم بالائتمار، والأفعال بالرّضى والاعتبار، فلا يدعُ من ذلك أمراً مما يعود إلى الفعل وإن كان كريهاً إلا رضيه، ولا أمراً مما يعود إلى القول إلا سمعه واتبعه، فإن ورد بواجبٍ فعَلَهُ لوجوبه، وإن ورد بنديٍّ فعَلَهُ لأجل ندب الحكيم إليه وتهذيبه.

وقوامُ ذلك كله وشخصه وظله لا يستقيم إلا بالتحفظ عن ارتكاب المحظورات ووطء المحذورات؛ لأنها له في الحقيقة محبطاتٌ مهلكاتٌ، وأمرنا -بحمد الله تعالى- في تكليفنا أخفُّ من أمرٍ من كان قبلنا؛ انظر إلى قومٍ من بني إسرائيل أمروا بقتل أنفسهم، فقتلوا الأمر بالتسليم، فبركوا على رُكَبِهِمْ وحزوا أعناقهم بسيوفهم، إنَّ هذا هو البلاء المبين.

وقد كنا أولى بالرضى عن الله تعالى من جميع الأمم لِمَا خصنا به من بينهم من قِصْرِ الأعمار، وتخفيف الحدود، وكرم الخلال، وشرف الوضوء الذي أخبر نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَنَّا نَعْرِفُ به يوم القيامة من بين الأمم، وقد قيل إِنَّ أَكْثَرَ معاصيهم كانت لا تَعْرِى عن الحدود، فكان أحدهم إذا قارف ذنباً أصبح مكتوباً على جبينه: إِنَّكَ عصيت في كذا وكذا، ولا كَفَّارَةٌ لذلك إِلَّا أَنْ تُصْطَلَّمَ^(١) أَنْفُكَ، أو تُقَطَّعَ يَدُكَ، أو تجدع أذنك، فَإِنْ فعل ذلك أطاع، وإن تركه عصي، والأمر علينا بخلاف ذلك كُلِّهِ، نذنب الذنوب المتظاهرة فيسترها بحلمه، ونتوب التوبة الخالصة بيننا وبينه فيحفظ أجرها عنده، ويظهر ذكرها على ألسنة عبادِهِ، فله الحمد كثيراً.

[الرضى بالقضاء، ومعاني القضاء]

وخامسها: الرِّضَى بقضاء الله، الرضى نقيض السخط، وأحسنُ الناس طاعةً لله أحسنهم رضىً عن الله.

والقضاء في كتاب الله تعالى على ثلاثة أوجه:

يكون بمعنى الخَلْقِ والتمام، يحكيه قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْتُهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١] معناه خَلَقَهُنَّ وَأَتَمَّ خَلْقَهُنَّ.

ويكون بمعنى الإخبار والإعلام، يحكيه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كَبِيرَاتٍ﴾ [الإسراء] معناه أَخْبَرْنَا وَأَعْلَمْنَا.

ويكون بمعنى الأمر والإلزام، يحكيه قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبِّيكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] معناه أَمَرَ وَأَلَزَمَ.

وأهمُّ ما يتعلق بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالرِّضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ؛ قضاء الفعل وقضاء الأمر، فقضاء الأمر يتعلق بالعبادات، فالواجب على العبد أَنْ لا يسخطها، ويقابلها بالالتزام فعلاً وتركاً، وقضاء الفعل يتعلق بالامتحانات، لأنَّ الرضى بها من أَجْلِ العبادات، ويتعلق بالرضى في ذلك أَنْ يُوقَعَ الحكيم سبحانه في أحدنا أو في ولده أو حبيبه أو غيره فعلاً تكرهه نفسه، ويتفر عنه طبعه، كالموت والزَّمَانَةُ

(١) صَلَّمَ الشَّيْءَ صَلًّا: قَطَعَهُ مِنْ أَصْلِهِ، وَقِيلَ: الصَّلْمُ قَطْعُ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ مِنْ أَصْلِهِمَا. (لسان ١٢ / ٣٤٠).

والعلل الشاقة كالجدام والبرص والجنون والعمى ... إلى غير ذلك من أنواع البلاء وحتم القضاء، فإنَّ الواجب على المكلف أن يتلقى ذلك بالرضى وحسن الشاء؛ لأنَّ ذلك عنوان الحكمة، ورأس العبادة، وهو المأخوذ عن الأنبياء عليهم السلام، والأئمة والأصفياء، لا ينكر ذلك أحدٌ من العلماء، وكيف يُنكَرُ على أحكم الحكماء وعنده العوضُ والجزاء، وهو أعلم بمصالح العقلاء.

وفي الحديث أن موسى عليه السَّلام قال: يا رب؛ أرنى أحبَّ خلقك إليك وأكثرهم لك عبادة، فأمره الله تعالى أن ينتهي إلى قرية على ساحل بحرٍ، وأخبره أنه يجده في مكان قد سماه له، فوصل عليه السَّلام إلى ذلك المكان فوقع على رجلٍ مجذومٍ مُقْعَدٍ أَبْرَصٍ، يُسَبِّحُ الله تعالى، فقال موسى عليه السَّلام: يا جبريل، أين الرجل الذي سألتُ ربِّي أن يريني إياه؟ فقال جبريل عليه السَّلام: هو يا كليم الله هذا. فقال: يا جبريل، إني كنت أحبُّ أن أراه صَوَّاماً قَوَّاماً. فقال جبريل عليه السَّلام: هذا أحبُّ إلى الله تعالى وأعبدُ له من الصَّوَّامِ القَوَّامِ، وقد أُمِرْتُ بإذهاب كرميته؛ فاسمع ما يقول. فأشار جبريل عليه السَّلام إلى عينيه فسالتا على خديه، فقال: مَتَّعَتْنِي بهما حيثُ شئتُ، وسلبتني إياهما حيثُ شئتُ، وأبقيت لي فيك طول الأمل يا بارُّ يا وَصُولُ. فقال له موسى عليه السَّلام: يا عبد الله؛ إني رجلٌ مجابُّ الدعوة، فإنَّ أحببتَ أن أدعوك لك الله تعالى يرُدُّ عليك ما ذهب من جوارحك ويرثك من العلة فعلتُ؟ فقال رحمة الله عليه: لا أريد شيئاً من ذلك، اختياره لي أحبُّ إليَّ من اختياري لنفسي، وهذا هو الرضا المحض كما ترى، فقال له موسى عليه السَّلام: سمعتك تقول يا بارُّ يا وَصُولُ، ما هذا البرُّ والصلة الواصلان إليك من ربك؟ فقال: ما أحدٌ في هذه البلد يعرفه غيري، أو قال يعبدُه، فراح عليه السَّلام متعجباً وقال: هذا أعبد أهل الدنيا.

ومثل تعجبه عليه السَّلام ممَّنْ رضي بقضاء الفعل تعجبنا ممَّنْ رضي بقضاء الأمر المؤدِّي إلى تلف النفوس، وذهاب الأعضاء، ومفارقة الأولاد والنساء، كزُهَيْرِ بْنِ الْقَيْنِ الْعَجَلِيِّ، ومسلم بن عوسجة الأسدي، وأبي حِجَلِ المشهَرِّ، وحبيب بن المظهر^(١)، وأمثالهم رضي الله عنهم وأبلغهم

(١) هم الذين استشهدوا في معركة الطف مع الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

* فأما زهير بن القين فقد كَانَ بِمَكَّةَ - وَكَانَ عِثْمَانِيَا - فأنصرف من مَكَّةَ متعجلاً فضمه الطريق وحسينا، فكان يسايره وَلَا يَنَازِلُهُ، ينزل الحُسَيْنُ فِي نَاحِيَةِ وَزْهَيْرٍ فِي نَاحِيَةٍ، فَأَرْسَلَ الحُسَيْنُ إِلَيْهِ فِي إِتْيَانِهِ، فَأَمَرَتْهُ امْرَأَتُهُ دَيْلَمَ

من رحمته غاية الرضى، فإنهم رأوا بحاراً من الحديد تَلْظَى تحتها عبيدُ الدنيا، فخاصوها رضى بالقضاء وتعرضاً للرضى.

[الحب في الله والبغض في الله]

قوله عليه السلام: إِنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ.

الحُبُّ نقيضُ البغض، ومعنى الحب أن يمتلئ القلبُ بالفكر في المحبوب سروراً، واللسان بذكره حلاوة، والبصر بمشاهدته نوراً. ومعنى قوله: أَحَبَّ لِلَّهِ؛ يريدُ أَحَبَّ أولياءِ الله لِمُجَرَّد انقطاعهم إلى الله، وإن لم يصله منهم نفعٌ في الدنيا، وقد روينا بالإسناد الموثوق به إلى أبي ذر رحمه الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ)).

والبُغْضُ فِي اللَّهِ نقيضُ الحب في الله، ومعناه أن تبغض أعداء الله لأجل عداوتهم لله وإن لم يصلك منهم ضررٌ، ولا يقع الحبُّ في الله والبغض في الله على لُطْفِ الْعِشْرَةِ وحسنِ الجيرة، وسوء العشرة وقبح الجيرة؛ لأنَّ لين الجانب وحسن الجوار ولطف العشرة من أخلاق الصالحين، والمقربات إلى رب العالمين، وقواعد الدين.

فالمراد من الحب والبغض ما يتعلق بالقلب على نحو ما قدمنا، اللهم إلا أن يكون المُحَادُّ لله عزَّ وجلَّ عدوًّا مبايناً للمؤمنين، سائلاً عليهم سيف العدوان مع المعتدين، تَعَيَّنَ الفرضُ حينئذٍ في منابذته باليد واللسان، والسيف والسَّنان، ورفع ستر المجاملة، إلَّا ما يوجِبُهُ تدبيرُ الحرب والمباينة، فإن الرأي في ذلك يختلف، وعلى العبد الاجتهاد، وعلى الله التوفيق، وإنما قلنا ذلك لأن الإذهان يكون في تلك الحال معصية، ولين الجانب إليه ضلالة.

بنت عَمْرُو أن يأتيه فأبي فقالت: سبحان الله؛ أبيعك إليك ابن بنت رسول الله فلا تأتيه؟! (فصار إليه) فلما صار إِلَيْهِ ثُمَّ انصرف إِلَى رحله، قال لامرأته: أنت طالق، فالحقي بأهلك فإنني لا أحب أن يصيبك بسبيي إلَّا خير!!! ثُمَّ قَالَ لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد. وصار مَعَ الْحُسَيْنِ، واشتهر عنه قول للحسين: والله لو كنا في الدنيا لمخلدين لآثرنا فراقها في نصرتك ومواساتك!!! فدعا له الحسين بخير، وهو الذي كان على ميمنة أصحاب الحسين في المعركة، وحبيب بن المظْهَر على الميسرة، ويسمى حبيب بن مظاهر، (انظر أنساب الأشراف للبلاذري ج ٣/ ٣٧٩).

وقد روينا في مثل ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مَلَأَ اللهُ قَلْبُهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا)) فهذا ضدُّ الذين كما ترى، ولا يجهل تغيير التكليف بالأوقات والأشخاص إلا الجاهلون.

وقد يتعلق بمعنى الحب في الله إخلاص الودِّ لآل محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام خاصةً وللمسلمين عامةً، وفي ذلك ما روينا بالإسناد إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما نزلت هذه الآية: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد] ((ذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ اللهُ وَرَسُولَهُ، وَأَحَبَّ أَهْلَ بَيْتِي صَادِقًا غَيْرَ كَاذِبٍ، وَأَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ شَاهِدًا وَغَائِبًا، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ فَتَحَابُّوا)) ومعنى ذكر الله هاهنا معرفته، لأنك تذكره بأسمائه الحسنَى وآلائه العلى، ولا شك أنه يَقْبُحُ منك أن تذكرَ بالإجلال والتعظيم من لا تعرف، ولأن ذلك لا يستقيم في الأصل، ألا ترى أنه لا يحسنُ منك أن تقول: أكرم الناس وأعلمهم وأحلمهم زيد، فإذا قيل: ومن زيد؟ قلت: لا أعرفه، وإذا عَرَفَ اللهُ تعالى حقيقة المعرفة تَرَبَّتِ المحبةُ عليها على حدٍّ ما جاء في الخبر.

قوله عليه السلام: وَأَعْطَى اللهُ، وَمَنَعَ اللهُ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ.

الإعطاء نقيض المنع، ومعنى الإعطاء لله تعالى هو تسليم الحقوق الواجبة إلى أوليائه المستحقين لها، ومعنى **المنع لله** أن تمنع أعداء الله من الحقوق الواجبة لأوليائه؛ إذ هم لا يستحقون شيئاً منها لكونها مشروطة بالطاعة^(١)، فأما عطايا النفل وما يتعلق بالإحسان والمروءة فما حُظِرَ ذلك عن أحد، وقد قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء] وقد ورد في الآثار المقدسة الحُصُّ على صلة القاطعين، والإحسان إلى المسيئين، والتجاوزُ عن المذنبين، وجميع ما ذكرنا معلوم من أخلاق الصالحين مع الطالحين.

(١) لفظة (الطاعة) زيادة من بقية النسخ.

الحديث السابع

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ؛ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ وَقِيلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، مشهور من أهل الصُّفَّةِ^(٢) المبرزين في الانقطاع والملازمة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وله رواية عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ واسعة، وكان له مكان عند الأمة لمكان الصحبة، وهو دُوسِيٌّ، ودوس قبيلة من اليمن، وقد روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهَبَ إِلَّا مِنْ قُرْشِي أَوْ أَنْصَارِي أَوْ دُوسِي)) وفي أخرى: ((أَوْ ثَقْفِي)) وذلك لأنهم أهل أمصار، وفيهم السؤدد والكرم، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الْعَبْدَ لَا يُكْتَبُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَلَا يَنَالَ دَرَجَةَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأْتِقِهِ، وَجَارُهُ بِوَادِرِهِ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَارَ مَا بِهِ الْبَأْسُ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ مَنْ خَافَ الْبَيَاتَ أَذْلَجَ، وَمَنْ أَذْلَجَ فِي الْمَسِيرِ وَصَلَ، وَإِنَّمَا تَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِكُمْ لَوْ قَدْ طَوَيْتَ صَحَائِفَ آجَالِكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ))^(٣).

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة المعروف بالمحامي في منزله قال حدثنا أبو قلابة قال حدثنا الحسين بن حفص الأصبهاني قال حدثنا سفيان الثوري عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) أهل الصُّفَّةِ: هُمْ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ، فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى مَوْضِعٍ مُظَلَّلٍ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ يَسْكُنُونَهُ، (النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٧).

(٣) الطرف الأول من الحديث مروي بالفاظ عدة في جميع كتب الحديث منها بلفظ: ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) مع زيادة: ((وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)) في بعضها، وبعضها بزيادة: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَأْتِقِهِ))...، وأما حديث: ((لَا يَنَالَ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَارَ مَا بِهِ الْبَأْسُ)) أخرجه في مسند ابن أبي شيبة (٧٢/٢) رقم (٥٩١) ومسند عبد بن حميد (١٧٦/١) رقم (٤٨٤) وسنن ابن ماجه (١٤٠٩/٢) رقم (٤٢١٥) والمعجم الكبير للطبراني (١٦٨/١٧) رقم (٤٤٦) ومسند الشهاب للقضاعي (٧٤/٢) رقم (٩٠٩) وغيرهم، وآخر الحديث روي بلفظ: ((نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الْفَاجِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ)) في

قد تقدم الكلام في معنى العبودية وأصل التسمية، وكذلك الكلام في الكتابة.

فمعنى ذلك أن اسمه لا يُكْتَبُ في الذكر الحكيم في ديوان المسلمين حتى تكون صفته ما ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أن يَسْلَمَ الناسُ من شرِّه وضرِّه بجميع جوارحه، وإنما خصَّ اليد واللسان لأنَّ عليهما مدار أكثر الأعمال، أما اللسان فبها تقع الغيبة، والنميمة، والسعاية إلى السلطان الباغي، والإغراء، والتهدد، والاستخفاف.. إلى غير ذلك من المؤذيات، وهذه الأمور من أشق ما يلحق بالمسلمين ضرره، فتركها حيثنذ يكون من أفضل الإسلام، وقد روينا عن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ رجلٌ فقال: يا رسول الله؛ أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: ((مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) قال: فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((مَنْ عَقَرَ جَوَادُهُ وَأَهْرِيقَ دَمَهُ)) والآثار في مثل هذا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ كثيرة واضحة، وميلنا إلى الاختصار، فلنذكر من كل شيء طرفاً.

[الغيبة والنميمة، والاستطالة في عرض المسلم، والسعاية بالمسلمين]

أما الغيبة فروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((الْغَيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَى)) قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي ثُمَّ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغَيْبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفَرَ لَهُ صَاحِبُهُ)) فصَّرح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ بأنها أشدُّ من الزنى، ثم بيَّن وجه العلة، وقد علم الكافَّة ما قَبَّحَ اللهُ تعالى من أمر الزنى بقوله: ﴿إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء]

الفاحشة مأخوذة من الفحش وهو القبح المتناهي، وساء: شنع وقبح، سبيلاً: أي طريقاً، فإذا كانت الغيبة أشدَّ من هذا فكيف يكون حالها أعادنا الله منها.

وأما النميمة فهي أشدُّ ضرراً من الغيبة؛ لأنَّ بها تُسْفَكُ الدماء، وتُسَبَّحُ القرى، وتُرَكَّبُ الدهماء، وهي الداء العياء، والجرح الذي لا يبرأ، وفي غريب الحديث: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ)) فسَّره أهل العلم بالنِّمَامِ؛ لأنَّ الْقَتَّ النميمةُ في كلام العرب، وهذا خبرٌ مُرْعِبٌ للمتوسمين، لأننا

مسند الشهاب للقضاعي ١/ ١١٩ رقم (١٤٨) وفي كتاب التمهيد لابن عبد البر يسنده إلى الإمام جعفر الصادق عن آبائه عن رسول الله (١٢/ ٢٦٥) ولفظ: ((نَبِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَعَمَلُ الْمُتَافِقِ خَيْرٌ مِنْ نَبِيَّتِهِ..)) في المعجم الكبير للطبراني (٦/ ١٨٥) رقم (٥٩٤٢) وحلية الأولياء، عن سهل بن سعيد.

نخشى أن يكون النفي في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ)) مؤبداً، وذلك بأن يكون في معلومه تعالى أن يكون من جملة ما يستحق على النميمة سلب التوفيق والتسديد إلى التوبة، فلا يدخل الجنة أبداً، وهذا خطرٌ عظيمٌ يلزم المسلم الاحتراز منه والخوف.

وأما انتقاص العرض فهو أيضاً جُرمٌ كبيرٌ، وحُوبٌ عظيمٌ، وقد روينا عن سعيد بن زيد^(١) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((مَنْ أَرَبَى الرَّبَا الْأَسْتِطَالَةَ فِي عَرْضِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ)) وروينا في مثل ذلك بالإسناد إلى علي بن موسى الرَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يرفعه بطريق آبائه إلى علي عليه وعليهم السلام قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ بَهَتْ مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً أَوْ قَالَ مَا لَيْسَ فِيهِ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى تَلٍّ مِنَ النَّارِ حَتَّى يُخْرَجَ مِمَّا قَالَ)) ولا شك أن من لوازم الإيمان توقير المسلمين وتعظيمهم، فمن آذاهم واستخفَّ بهم فقد فعل نقيض الواجب، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَفِّرْ كَبِيرَنَا)).

وفي السعاية بالمسلمين آثارٌ ظاهرةٌ، وقبح السعاية بالمسلمين لا يفتقر إلى برهان، والتهدُّدُ جنائيةٌ كبرى، لأنه الأذى وزيادة، وقد تقدم فيه ما تقدم، وكذلك في الاستخفاف إثمٌ كبيرٌ وقد تقدم دليله، وجنایات اليد معلومة، والأمر فيها ظاهر.

قوله عليه السلام: وَلَا يَنَالُ دَرَجَةَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأَقْفِهِ، وَجَارُهُ بِوَادِرِهِ.

الدرجة هي المرتبة العظيمة في عرف الشريعة، وهي في أصل اللغة: المراقى إلى الأمور العالية، ولا أعلى من الثواب، فسميت مراتبُهُ دَرَجَاتٍ أخذ من ذلك. والمؤمنون هم المصدقون بها جاء من عند الله، المتقادون له قولاً وعملاً، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَلَّهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ

(١) سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ ثَقَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ رَبَاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطِ بْنِ رَزَاحِ بْنِ عَدِيٍّ، هو ابنُ عَمِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَزَوْجُ أُخْتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ، أَسْلَمَ هو وزوجته فاطمة بنتُ الْخَطَّابِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَلَى يَدَيْهَا فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ، يُكْنَى أَبَا الْأَعْوَرِ، شَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا إِلَّا بَدْرًا، تُوُفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ (٥١ هـ)، وَلَهُ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً.

الصَّدِيقُونَ ﴿٥﴾ [الحجرات] فهذه ^(١) بيانٌ لِمُجْمَلِ لفظ المؤمنين، فيجب أن يُراعى فصولها ويُعرَفَ معانيها، إذ لا إيمان لمن أخلَّ بشيء منها؛ لأنَّ الحَكِيمَ جَلَّ وعلا عَقَّبَ التَّأَكُّدَ بالنفي، ثم فَصَّلَ معاني الإيمان، فبدأ سبحانه بالتصديق باللسان والقلب؛ لأنَّ تصديق اللسان لا حكم له، وقد كَذَّبَ الله المنافقين لَمَّا قالوا الحقَّ بألسنتهم ولا علم في قلوبهم، وذلك ظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون] فجري التصديق باللسان من دون اعتقادٍ في القلب صحيح مجرى الاستهزاء، فلذلك استَحَقَّ فاعله الذمَّ والعقاب.

ولا يقع الإيمان بالله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ إلا بمعرفة، ولا تقع معرفة في ذلك مع بقاء التكليف إلا بدلالة، سيما وقد أكد ذلك بترك الارتياب، ولا يزول الارتياب إلا بعد استحكام العلم بالبرهان، فيجبُ معرفة الباري تعالى وصفاته، وما يجوز عليه وما لا يجوز، وأفعاله وأحكام أفعاله، وما يجوز عليه في ذلك وما لا يجوز، والنبوة وما يتبعها، والشرائع وما يتبعها، بأدلة واضحة، والعمل بمقتضى ذلك، ولذلك عقبه بذكر العمل، وابتدأ بذكر أفضل الأعمال الذي هو الجهاد، لأنَّ به خُدَّتْ نيران الضلال، واشتعلت أنوار الحق، وكُبِّرَ به الحَكِيمُ تعالى من رؤوس الجبال وبطون الأودية، ونكص الشيطان على عقبيه، وتبرأ ممن اعتمد عليه لَمَّا نظر إلى أولياء الله مستبسلين للموت، كأنهم جمالٌ تَحْطُمُ يَساً، هُمُّهُمْ أمامهم.

وقدَّم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس لأنَّ المقاتل أكثر من المنفق فيما نشاهده، فكان الإنفاق أصعبَ الأمرين على النفوس، وبه تُجَهَّزُ الجيوش، وتُعَانِ الغزاة، وتُبْلَغُ الأغراض في العدو، وذُرْهُمُ سبعمائة درهم، ودينارُه سبعمائة دينار، هذا الفرض العام، وقد يضاعف الله تعالى لمن يشاء - وهم أهل القصود والمعرفة بوجوه الإيقاعات - أضعافاً لا يعلم بها إلا الله، وهذا هو البيع المفيد، والمتجر الربيح، وقد رويناه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا أَوْ حَاجًّا أَوْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ)).

(١) في نسخة: فهذا، ولعل الضمير هنا يعود على الآية.

ثُمَّ عَقَّبَ سُبْحَانَهُ الْجِهَادَ بِالنَّفْسِ لِكَوْنِهِ أَحَدَ مَرْتَبَتِي الْجِهَادِ، وَرُكْنِي قَاعِدَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ رَوَيْنَا فِي ذَلِكَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَصِينِ^(١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((مَقَامُ الرَّجُلِ فِي الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ رَجُلٍ سِتِّينَ سَنَةً)) وَهَذَا أَمْرٌ مَن حُرِمَهُ فَقَدْ حُرِمَ، فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا تَوْفِيقَهُ وَتَسْدِيدَهُ وَعَوْنَهُ وَتَأْيِيدَهُ إِلَى سَبِيلِ رِضْوَانِهِ.

ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ ادَّعَى الْإِيمَانَ بِغَيْرِ مَا ذَكَرْنَا فَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَأَنَّ دَعْوَاهُ تَلْحَقُ بِدَعْوَى الْمُنَافِقِينَ، فَالْوَاجِبُ التَّحْفِظُ وَالِاحْتِرَازُ.

قوله عليه السلام: حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأَيْقَنَهُ.

يُرِيدُ أَخَاهُ فِي الدِّينِ لَا أَخَاهُ فِي النَّسَبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَى بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ الْأَجَانِبِ، وَعَادَى بِتَرْكِ الْإِيمَانِ بَيْنَ الْأَقَارِبِ، وَفِي الرَّوَايَةِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: مَا حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ حَرَصِي عَلَى قَتْلِ أَخِي عُتْبَةَ، وَكَانَ أَخُوهُ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الَّذِي شَقَّ شَفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ الْيَمْنَى السُّفْلَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فَعَمَّ وَلَمْ يَخْصُ، وَقَالَ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ .. الآية [المجادلة: ٢٢] فَخَصَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَحَادِّثِينَ، وَقَطَعَ إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ.

الْبَوَائِقُ جَمْعُ بَائِقَةٍ، وَالبَائِقَةُ الْفَعْلَةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ هَاهُنَا عَظِيمَةُ قَبِيحَةٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ مَأْمُونًا الْجَانِبَ عَلَى الْأَخِ وَالصَّاحِبِ.

قوله عليه السلام: وَجَارُهُ بِوَادِرُهُ.

يُرِيدُ سَوَابِقَ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَطَرَفِهِ، فَهَذِهِ سَوَابِقُ الْجَوَارِحِ الَّتِي يُخَشَى بِوَادِرُهَا، وَالْجَارُ سُمِّيَ جَارًا لِمَجَاوَرَةِ دَارِهِ لِدَارِ مَجَاوِرِهِ، وَالْمَجَاوِرَةُ هِيَ الْمَلَازِمَةُ، وَسَمَّوُا الْمَرْأَةَ جَارَةً لِذَلِكَ، وَقَدْ كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ عَلَى جَهْلِهَا تُشَدِّدُ فِي أَمْرِهِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، قَالَ شَاعِرُهُمْ:

(١) هُوَ عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ بْنِ عُيَيْدٍ، أَبُو نُجَيْدٍ الْخَزَاعِيُّ الْبَصْرِيُّ، أَسْلَمَ عَامَ خَيْرٍ، وَشَهِدَ مَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ فَضْلَاءِ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ مَجَابِ الدَّعْوَةِ، مَاتَ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٥٢ هـ، وَأَخْرَجَ لَهُ الْجَمَاعَةُ وَأَثْمَتْنَا الْخَمْسَةَ إِلَّا الْجَرَجَانِي، عَنْهُ أَبُو رَجَاءٍ الْعَطَارْدِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَرْدَةَ، وَأَبُو نَضْرَةَ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ (لَوَاعِمُ الْأَنْوَارِ لِلْإِمَامِ الْحُجَّةِ / مَجْدِ الدِّينِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَيَّدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام - ط ٣ - ج ٣ / ٢٣٦).

أَجَارْتُنِي بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقُهُ كَذَلِكَ خُطُوبُ الدَّهْرِ تَعْدُو وَطَارِقُهُ

ولم يوجد بالهاء إلا هذا، وإنما هو طالق بغير هاء، وجاء الإسلام بتوكيد ذلك في الكتاب العزيز، قال الله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْأَرْحَامِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء] الجار ذو القربى قريب النسب، والجار الجنب بعيد النسب، والصاحب بالجنب هو الرفيق في الطريق، فقد رأيت كيف قرن الحكيم سبحانه حق الجار بحقه وحق أهل الحقوق عنده، وجعل رعايته جزءاً من أجزاء عبادته.

قوله عليه السلام: وَلَا يَعْدُ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَدَارَ مَا بِهِ الْبَأْسُ.

العدُّ هو إضافة الشيء إلى الشيء بعد الابتداء، وأوّل مراتب العدِّ في اللفظ الواحد، وفي الفعل ثنّي الخنصر، ومنه قولهم في المدح: فلان ثنّي الخناصر باسمه، أي ثنّى بعده أولاً قبل غيره، وقولهم: فلان واحد عصره، معناه يُبدَأُ في لفظ العدِّ بذكره، فمعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: يُعَدُّ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أي يجعل من آحاد مجملتهم فيكون منهم، والمتقون هم المحاذرون موقعة المعصية وترك الطاعة، فكانهم يجعلون محاذرتهم تقاء لهم من المغاضب والعذاب، وهم خلصان عبادة الله، والموعودون بعاقبة الدار وفوز الجوار.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَتَّى يَدَعَ، معناه حتى يترك. والْبَأْسُ ما تَبَأَسُ منه النفس بمعنى تنفر، فما لا بأس به هو ما لا كراهة فيه خوف ما فيه الكراهة تحفظاً واحتياطاً للدين، وإشفاقاً من موقعة الخطأ، وفي الحديث: ((إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَحِمَى اللَّهِ تَعَالَى حِمَارَهُ، فَمَنْ أَرْتَعَ قَرِيباً مِنَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ سَائِمَتُهُ)) فأشار عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى التباعّد عن الأمور التي تقرب من المحظورات؛ إشفاقاً من التجاوز إليها، والهجوم عليها، لسهوّ عارٍ، أو بادرة غضبٍ، أو غلبة هوى.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ مَنْ خَافَ الْبَيَاتِ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ فِي الْمَسِيرِ وَصَلَ.

أيها الناس؛ خطابٌ عام. والخوفُ نقيض الأمن، وقد تقدم الكلام في معناه. والبيات هو الهجوم بالليل على المسترسل لإيقاع المساء به، وذلك ظاهرٌ عند العرب. والإدلاجُ مسيرُ الليل من أوّله، والإدلاجُ بالتشديد مسيره من آخره، قال راجزهم:

إِنَّهَا لَسَائِقًا خَدَجًا لَا يُدْلِجُ اللَّيْلَةَ فِيمَنْ أَدْلَجَا

يريد لا يسير من أول الليل فيمن سار، (لها) عائد إلى الإبل، فأما قول الآخر:

يَقُولُ حَادِي الْقَوْمِ أَصْبَحَ أَدْلَجَ

فقد قيل معناه المبالغة في الأمر، وإلا فلا يقع بين أهل المعرفة باللسان اختلاف في أن الإدلاج بالتخفيف مسير الليل في أوله وأن الإدلاج بالتشديد مسير الليل من آخره، والتعريس النزول في آخر الليل للاستراحة، والتغوير نزول وسط النهار، والابتكار سير أول النهار، والتأويب سير آخره، والإساذ خلط الليل بالنهار في السير.

أشار عليه السلام بالبيات إلى ما لا يؤمن وقوعه من الجواري المفصعات، والكوارث المبهظات، التي تقطع التكليف، كالقتل والموت والإلجاء، وما به عاقل إلا وجواز هجومها عليه بغتة متقرر في عقله، ومصيبة الإنسان في عذاب الأبد ونكال المسند^(١) أعظم من مصيبة المييت في قتله أو سلب ماله أو روعته، وأهل العقل والحزم إذا خافوا البيات ممن يخاف جانبه سراً ليلهم، ولم يناموا على الخوف، ويذمون من غفل عن ذلك، فالمخوف هيئ كما ترى، فما حال من خاف الأمور العظيمة، والأهوال الجسيمة ثم تأخر عن الاستعداد، فنسأل الله سبحانه التوفيق.

قوله عليه السلام: وَمَنْ أَدْلَجَ فِي الْمَسِيرِ وَصَلَ

إشارة منه عليه السلام إلى أن الحازم لا ينام على الخوف، وأنه ينال بإدلاجه فرحتين عظيمتين يحسن لكل واحدة منهما الفعل لو انفردت، فكيف مجموع ذلك؛ إحداها السلامة من شر المخوف المييت، والثاني الفوز بوصول الأهل والمال في الجنة، لأن ما به أحد إلا وله في الجنة أهل ومال، فإن لم يعمل عملاً يستحق به ذلك الأهل والمال ورثته العاملون له، وحرمته الغافلون، فكيف ينام النائمون ويغفل الغافلون؟! وذلك ظاهر في قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلْيَكُ هُمْ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴿[المؤمنون]﴾ فيبين تعالى ما ذكرنا في معنى الورثة.

قوله عليه السلام: وَإِنَّمَا تَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِكُمْ لَوْ قَدْ طُوِيَتْ صَحَائِفُ آجَالِكُمْ.

المعرفة والعلم معناهما واحد، وعاقبة الشيء ما يتعقبه من أحكام الأعمال من خير وشر، ولا بد من معرفة عواقب الأعمال بالرؤية والمباشرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

(١) المسند هو الدهر، تمت هامش (أ).

يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿٨٥﴾

والطُّيُّ نقيض النشر، والصحائف هي الكتب التي تُدَوَّن فيها الأعمال. وأجالكم يحتمل آجال الكافّة، ويحتمل أن يكون لكل واحدٍ منّا آجالاً، أجلٌ لموته، وأجلٌ لقتله، وأجلٌ لعمله، وصحائف هذه الآجال لا تُطوى إلا عند انقطاع تكليف العبد، وعند ذلك يَعْرِفُ عاقبة عمله، فإن كان خيراً استَرَ به سروراً لا غمَّ بعده أبداً، وإن كان شراً اغتَمَّ له غمّاً لا سرور بعده أبداً، والتفكّر في هذا يقطع الأنفاس، ويكثر الوسواس.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ.

النية والإرادة معناهما فينا واحدٌ، ولا يجوز إطلاق النية على الباري تعالى، وقد تقدم الكلام في معنى المؤمن والإيمان، والخير والشر، ولا فرق بين الفعل والعمل. والفسقُ هو الخارج عن الدين بكبائر العصيان، هذا في العرف، وأما في الأصل فمعنى الفسق الخروج على كلّ وجه، ومنه قولهم فسقت الرُّطبة إذا خرجت، وسُمّيت الفويرة فُوسِقة لخروجها من جحرها كثيراً تريد الاغتيال والخيانة.

ومعنى الحديث أن عمل المؤمن الذي صار به مؤمناً خيراً، ونيته للخير من جملة أعمال الخير، بل هي قِوَامُ العمل؛ لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى)) وعملُ الفاسق الذي به صار فاسقاً شراً، ونية الشر من جملة أعمال الشر، وهي مما تعمّده القلوب وتكتسبه، وقد ورد السمع بالمواخذه بأعمال القلوب، خلافاً لما ذهب إليه المجبرُ الحشوية^(١) مِنْ أَنَّ نِيَّةَ الشَّرِّ لَا تَكْتَبُ وَنِيَّةَ الْخَيْرِ تَكْتَبُ، ويروون في ذلك أحاديث مُتَأَوِّلة على ما يشهد له البرهان العقلي، ومُحْكَمُ القرآن الجلي.

(١) المجبرة: يسمون مجبرة وقدرية، ولا يرضون بهذه التسمية بل يسمون أنفسهم أهل السنة، ويجمع مذهبهم القول بخلق الأفعال وإرادة المعاصي، وأن الله يعذب من يشاء بغير ذنب، وأنه تعالى يفعل الفعل لا لغرض، وأنه لا يقبح منه شيء، وأن القبائح بقضائه وقدره .. إلى غير ذلك (من حاشية في كتاب الإصباح على المصباح تحقيق السيد العلامة المجتهد عبد الرحمن شايم المؤيدي سلام الله عليه). وأكثرهم حشوية وقد سبق تعريف الحشوية في حاشية سابقة خلال شرح الحديث الثاني ص ٥٦.

الحديث الثامن

عَنْ^(١) ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَعْتِهِ وَنَسَبِهِ وَشَرْفِهِ وَحُسْبِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ فِيهَا، وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، وَمَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ كَانَ أَبْعَدَ لَهُ مِمَّا رَجَا، وَأَقْرَبَ مِمَّا اتَّقَى، وَمَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَامًا، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَحْسَنَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَاقَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ))^(٢).

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري عن أبيه قال حدثنا علي بن حرب قال حدثنا أسباط بن محمد عن هشام عن حسان عن عكرمة عن ابن عباس... الحديث.

(٢) الطرف الأول مروى بلفظ: ((مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا)) في المعجم الأوسط (٣/ ٣٤٦) رقم (٣٣٥٩) والمعجم الصغير (١/ ٢٠١) رقم (٣٢١) وفي مسند الشهاب للقضاعي (١/ ٢٩٨) رقم (٤٩٣) وفي شعب الإيمان للبيهقي في موضعين (٤٨٧، ٣٥١/ ٢) برقمي (١٠٤٤ و ١٢٨٩).

وحديث: ((مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْوَتْ لِمَا رَجَا وَأَقْرَبَ لِمَعِجِيٍّ مَا اتَّقَى)) رواه القضاعي (٣٠٧/ ١) بطريقتين: عن أنس بن مالك، وعن الزهري، ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٣٩).

وحديث: ((مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ دَامًا)) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩٩) رقم (٤٩٨).

وحديث: ((مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ النَّاسَ)) عن عائشة، رواه ابن الجعد في مسنده (١/ ٢٤١) رقم (١٥٩٣) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨) وبلفظ: ((مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ)) في صحيح ابن حبان (١/ ٥١١) برقم (٢٧٧) وفي مسند الشهاب لقضاعي (١/ ٣٠١) رقم (٥٠١) وفي الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٤٧٤) رقم (١٠٥٩) ومسند عبد بن حميد (١/ ٤٤٠) رقم (١٥٢٤).

وحديث: ((مَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَحْسَنَ سَرِيرَتَهُ أَحْسَنَ اللَّهُ عِلَاقَتَهُ)) رواه الدولابي في كتاب الكنى والأسماء (٢/ ٨٨٨) برقم (١٥٥٩) ورواه الحاكم النيسابوري في تاريخه نيسابور عن ابن عمرو [بن العاص].

الانقطاع هو انفعال من القطع وهو صرم الرجاء والأمل والطلب والطمع إلا في الله تعالى ومنه، فإن كل مأمولٍ سواه ربما خاب فيه الأمل؛ لعجزه عن إعطاء المأمول، أو بخله به، أو محاذرة الفقر والفاقة لأجل تسليمه، إلى غير ذلك من صوارف العاجزين، والحكيمة سبحانه بخلاف ذلك كله، وكيف وهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجة، القادر الذي يستحيل عليه العجز، الجواد الواسع الذي لا يَفِرُّ^(١) مُلْكُهُ المنع، ولا يُكْذِي^(٢) كَرَمَهُ الإعطاء، وهو على ما يشاء قدير، وفي الحديث المروي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيْكُمْ وَمَيْتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فَسَأَلَنِي كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ إِلَيْهِ أُمْنِيَّتُهُ، وَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مَا سَأَلَ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ مَرَّ أَحَدُكُمْ عَلَى شَفِيرِ الْبَحْرِ فَعَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ انْتَرَعَهَا)) وهذا لعمر الله الجود الذي لا يُسَاجِلُ، والاعتدال الذي لا يُقَابِلُ.

ومعنى الانقطاع في كلامهم ظاهرٌ، يقول قائلهم انقطع فلان إلى فلان، إذا لم يأمل أحداً سواه، ولم يتعدَّ في أوامره رضاه، فإذا عمل العبد فيما بينه وبين الله تعالى هذا العمل كان قد انقطع إليه حقيقة الانقطاع.

قوله عليه السلام: كَفَاهُ اللهُ كُلَّ مَوْئَةٍ فِيهَا.

الكفاية هي دفع المَخُوفِ بغير أو إعطاء، والمؤنة هي الثقل والكلفة، والضمير في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فِيهَا) عائِدٌ إلى الدنيا.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْمُنْقَطِعَ إِلَى اللهِ تَعَالَى يُكْفَى جَمِيعَ مَوْنِ الدُّنْيَا وَمَشَاقِّهَا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إما بدفع المكروه، وإما بتعريفه له ما في مقابلته من العَوَضِ، فيرتفع ثَقُلُ تلك المشاق ويخفُّ حَمْلُهَا؛ فلا يبقى على العبد طائل مشقَّةٍ فيها، بل يبقى خِفَافاً وسروراً وَجَدَلاً وَجُبُوراً.

وقد روي أن جعفر بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في يده عَرَقٌ^(٣) يوم مؤنة ينهشه ليتقوى به؛

(١) من الوفور، وهو الزيادة.

(٢) أَكْدَى الْمَطَرُ: قَلَّ وَكَثِدَ. وَكَدَى الرَّجُلُ يَكْدِي وَأَكْدَى: قَلَّ عَطَاءُهُ، وَقِيلَ: بَخِلَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾. (لسان العرب ١٥ / ٢١٦).

(٣) الْعَرَقُ بِالسُّكُونِ: الْعَظْمُ إِذَا أَخَذَ عَنْهُ مُعْظَمُ اللَّحْمِ. ١. ه (النهاية ٣ / ٢٢٠).

إِذْ سَمِعَ الْخَطْمَةَ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَلْقَاهُ وَصَمَدًا^(١) الْعَدُوَّ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدُ شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا عَلَيَّ إِنْ لَأَقِيْتُهَا ضِرَابُهَا

فقد رأيت كيف قابل المكروه بحبذا، وهم لا يقابلون به إلا ما يتناهى في الخفة على قلوبهم
والسرور بلقائه، قال قائلهم:

وَيَا حَبَّذَا بَرْدُ أَنْيَابِهِ إِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَاجْلَوَّذَا^(٢)

وبكل واحد من الأمرين: إمّا صرف المؤنة وإما تخفيف مؤنتها بتعريف المكلف ما في مقابلتها
تقع الكفاية.

قوله عليه السلام: وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا.

قد تقدم معنى الانقطاع، وهو أن لا يجعل له همّاً ولا أملاً إلا الدنيا، وهو الناصح الصادق
عليه السلام أن من جعل الدنيا همه وأمله وجعل لها سعيه وعمله؛ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، على معنى أنه لا
يُعْطَى خيراً سواها، وقد علم العالمون قلة بقائها، وسرعة فنائها، فمن وُكِّلَ إليها وُكِّلَ إلى غير
كافٍ، وإلّا وُكِّلَ إليها لأنّه لم يعمل للأخرة فيستحق ثوابها وحورها وقبابها وبردها وشرابها،
وكيف يستحق ذلك وقد جعل همه جمع خطامها، والتلبس بدنس آثامها، فليس يبلغ من مطالبها
نهاية إلا وخفقت لطرّفه في أقصى آمالها غايةً، فلا يزال لكدّها وكدحها في نصبٍ شديد، حتى
ينزل ما كان عنه يحميد، فيندم حيث لا ناصر يمنعه، ولا عذر ينفعه، فلا تأس على القوم الكافرين.
ولم لا يكون كذلك وقد خرب ما أمر بعمرانه من الآخرة الباقية، وعمر ما أمر بتخريبه من

(١) صَمَدٌ: أَي قَصْدٌ، قَالَ فِي مَقَائِسِ اللُّغَةِ (٣/ ٣٠٩): الصَّمَدُ: الْقَصْدُ. يُقَالُ: صَمَدْتُهُ صَمَدًا. وَفُلَانٌ مُصَمَدٌ، إِذَا
كَانَ سَيِّدًا يُقَصَّدُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ. وَصَمَدٌ أَيْضًا. وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الصَّمَدُ؛ لِأَنَّهُ يَصْمَدُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ بِالْدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ.

(٢) اجْلَوَّذَا: إِذَا أَسْرَعَ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجُلُوزِ فِي السَّيْرِ وَهُوَ الْإِسْرَاعُ. وَالْبَيْتُ الَّذِي قَبْلَهُ:

أَلَا حَبَّذَا حَبَّذَا حَبَّذَا حَيِّبٌ تَحَمَّلْتُ مِنْهُ الْأَذَى
وَيَا حَبَّذَا بَرْدُ أَنْيَابِهِ إِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَاجْلَوَّذَا

. (انظر اللسان ٣/ ٤٨٢).

الدنيا الفانية، وقد كان يكفيه من الدنيا اليسير لو نظر بعين البصير، واستعمل مواد التفكير، وأين أولئك؟ ومن لنا بذلك؟!

وقد روينا أن سعداً دخل على سلمان رضي الله عنهما في مرضه وهو يبكي، فقال: يا أبا عبد الله أبشر، ما هذا البكاء؟ تقدّم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو عنك راضٍ، فقال سلمان: يا سعد؛ سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْحَقَنِي فَلْيُكُنْ زَادَهُ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاحِبِ)) أما ترى ما قد جمعنا؟! فيبيع كل ما في بيته ببلغ ثمانية عشر درهماً، فليست الدنيا على هذا بأهل أن ننقطع إليها أو نعتد عليها، وكيف وهي غرارة وغرور ما فيها، لا حقيقة لشيء منها، إنما هي فكرة هائم، أو حلم نائم.

قوله عليه السلام: وَمَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ كَانَ أَبْعَدَ لَهُ مِمَّا رَجَا، وَأَقْرَبَ مِمَّا اتَّقَى.

المحاولة هي المفاعلة من الخول والحيلة والمكر والغيلة، وهذه الألفاظ متقاربة، والمحاولة أن تأتي الأمر من جميع جهاته، وهي أحواله، وهذا غاية الممكن، وتحصيل المطلوب أن يعالجه من كل جهة. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (حَاوَلَ أَمْرًا) يريد وجهاً من وجوه مطالب الدنيا كائناً ما كان، وقوله: (بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ) المَعْصِيَةُ نقيض الطاعة، وهي فعل ما يُهَيِّ المرءُ عن فعله أو ترك ما أمر بفعله، والطاعة بالعكس من ذلك، ومحاولته بالمعصية أن يجعل المعصية صلةً إليه ولطفاً فيه.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كَانَ أَبْعَدَ لَهُ مِمَّا رَجَا) من ثواب الله تعالى ورضوانه، (وَأَقْرَبَ مِمَّا اتَّقَى) يريد عَلَيْهِ السَّلَامُ من عذابه وسخطه، لا يكون للخبر - إذا كان المراد به العموم - وجه إلا ذلك، لأننا نرى كثيراً من أهل الدنيا يحاول أموراً يرجوها بمعصية الله تعالى فينالها، بل رُبُّها لا يتمكن من نيلها إلا بذلك.

ألا ترى أن معاوية لعنه الله ما استتبَّ له الأمر الذي رجا من الدنيا إلا بمعصية الله في مخالفة وليّ الأمر في الكافة علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستعمال الأمور المحظورة في المكر والخديعة، والفساد في البلاد، فاستفحلت أموره لذلك، وحدثت شوكتُهُ، وتقوى أمرُهُ؛ حتى استولى على أمر الأمة غصباً بلا استحقاق، ولا هو لذلك بأهل، وقد تَبَّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذلك بقوله: والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه ينظر الفرصة وبينه وبينها حائل من أمر الله

فيتعداه وأنا أتوقف عن ذلك، أو كلاماً هذا معناه^(١).

وقد جَعَلَتِ الزنادقة الملحدون لعنهم الله هذا القول شُبْهَةً، فأعمى الله بصائرهم وأبصارهم، وبدّد عقولهم وأفكارهم، أي شُبْهَةً في كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ على الوجه الذي ذكرنا، وأما إذا أُريدَ به الخصوص فلا مانع من ذلك بأن يكون الحكيم تعالى عليم أن المصلحة في صرف من حاول أمراً مخصوصاً عن غرضه، وتبعيده عن رجائه، والعقل يقضي بذلك ولا يمنع منه.

قوله عليه السلام: وَمَنْ طَلَبَ مُحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَائِمًا.

الطلبُ هو التماسُ الأمر بما يمكن من الوجوه، وقد يسمّى الطالبُ طالباً للمبالغة، قال كعب بن مالك^(٢) رحمه الله في قصيدته العينية:

فَخَرَّتْ عَلَيْنَا ابْنُ الزَّبْعَرَى وَقَدْ سَرَى لَكُمْ طَلَبٌ فِي آخِرِ اللَّيْلِ مُتَبَعٌ^(٣)

ومحامد الناس هي المذائح والثناء. ومعاصي الله تعدّي حدوده في الفعل والترك.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (عَادَ) بمعنى رجع (حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَائِمًا) الدَّائِمُ نقيضُ الحامد، وهو الذي يذكر الإنسان بالانتقاص، وهو مأخوذ من الذمامة وهي النقص، فقليل لكل من انتقص غيره: دَائِمٌ.

ومعنى الحديث أن الأغلب فيمن طلب محامد الناس - التي هي ثنائهم ومدحهم - بمعاصي الله سبحانه، معناه وتوصل إلى ذلك بمعاصي الله؛ أن حَامِدُهُ منهم يعودُ دائماً في الدنيا، ومن ذلك

(١) ورد في نهج البلاغة: (وَاللَّهُ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلَكُلُّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (خ رقم: ٢٠٠).

(٢) كعب بن مالك بن عمر، أبو عبد الله الخزرجي السلمي - بفتح السين واللام - شهد العقبة والمشاهد كلها إلا بدرًا وتبوك؛ وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم. عنه: بنوه: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الملك. توفي بالمدينة سنة خمسين. خرج له: المؤيد بالله، والمرشد بالله، ومحمد، والجماعة. قلت [أي الإمام مجد الدين]: وهو أحد شعراء رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وسلم المجيدين. (لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ٣ / ٢٤٣).

(٣) البيت ذكر في سيرة ابن هشام والروض الأنف بلفظ:

فَخَرَّتْ عَلَيَّ ابْنُ الزَّبْعَرَى وَقَدْ سَرَى لَكُمْ طَلَبٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مُتَبَعٌ

الرواية العامة^(١): (كُلُّ صَدَاقَةٍ فِي غَيْرِ مَرْضَاتِ اللَّهِ آخِرُهَا عَدَاوَةٌ) ومثل ذلك من المشهور: (مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا أُغْرِيَ بِهِ) وقد قال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ١٥] فهذا في أمر الدنيا يحتمل ذلك على الأكثر والأغلب؛ وذلك مشاهد، وأمّا في الآخرة فعلى سبيل العموم لا بد من أن يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويقولون ما حكى الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَصَلَّاتْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت] وهذا غاية الذم والاستخفاف، فعلى أيّ واحد من الأمرين حُمل اللفظ كان صحيحاً، وإن حُمل على مجموعهما فهو جائز.

قوله عليه السلام: وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ يَسْخَطِ اللَّهُ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ.

الإرضاء نقيض الإغضاب، وهو الفعل أو الترك الذي ترضى النفوس عنده، أي تطيب وتسكن. **والناس** هم بنو آدم، وهم أحد أجناس المتعبدين الثلاثة الذين هم الملائكة والإنس والجن، وسمّيت الإنس إنساً لأنفسهم وتأنيسهم، وسمّيت الملائكة ملائكة لأنهم رسل الله سبحانه في الأمور المهمة، ومنه سمّيت الرسالة ألوكة ومألكة^(٢)، وسمّيت الجنة جنةً لاجتماعهم عن الأبصار.

والسخط نقيض الرضى. ومعنى **وكله الله إليهم** صرف أمره إليهم، ومن ذلك سُمّي الوكيل وكيلاً لأن الأمر يُصرف إليه، وهذا أمر هائل، وفزع شاغل، لمن فكّر في معناه، لأن العبد إذا علم أنه لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع، ولا نافع لمن ضرّ، ولا ضارّ لمن نفع، ولا واضع لمن رفع، ولا رافع لمن وضع، ولا كاسر لما جبر، ولا جابر لما كسر، ولا باسط لما قبض، ولا قابض لما بسط، ولا حارم لمن أعطى، ولا معطي لمن حرم، ولا مثيب لمن عاقب، ولا معاقب لمن أثاب، ثم علم مع ذلك أنه قد وُكِّلَ إلى غير مَنْ هذه صفته كيف يَقَرُّ نافرُهُ، أو يسلو خاطرُهُ، وهو موكولٌ إلى من لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرّاً، فكيف يرضى عاقلٌ أن يُصرف أمره إليه، وأن يمسي ويصبح متوكلاً عليه.

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: العامة.

(٢) فيها الوجهان: بضم اللام وفتحها، ذكره في القاموس المحيط (ص: ٩٣٢).

قوله عليه السلام: وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ.

هذا نقيض ما تقدّم، وهو أولى الأمرين بالعاقل المميز، وأحمدهما عاقبة، لأنّ الخالق أولى بالإرضاء من المخلوق، والمالك من المملوك، ومن أرضى المملوك بسخط المالك فقد رضى بنفسه في المهالك، ومن أرضى المالك بسخط المملوك فقد عمل بالواجب، وقد قال بعض الحكماء ما يليق ذكره بهذا المكان، وهو قوله في أدب الوزارة: إذا خالطت ملكاً حازماً فأرضه بسخط حاشيته، وإذا صحبت ملكاً أحمقاً فأسخطه برضا حاشيته.

والحازم هو العالم بوجوه المنافع وأسباب المضار، الذي لا يمنعه التواني عن الاستعداد، والله تعالى العالم لذاته، القادر لذاته، الذي يستحيل عليه الغفلة والنسيان، وهو الذي لا يُنجي من غضبه إلا رضاه، ولا من معصيته إلا معرفته، وكلُّ الخلق عبيده، والدارُ داره، فكيف يُرضي العبد عبداً مثله بسخط مولاها جميعاً على علمه، وقد قدّم في ذلك وعيده، هذا ما لا يقبله عقل سليم، ولا يفعله رجل عليم.

وكفاية شرهم يكون بأحد أمرين: إمّا بصرفهم ودفع ضررهم عنه، وإمّا بأن يجرّ ثوابه في الآخرة، ويتنزّع له من أعواضهم ما يرتفع حكم شرهم لأجله، فلا يُعدُّ شرهم شراً لذلك، فإذا كان ذلك كذلك فقد كُفِيَ.

قوله عليه السلام: وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

الإحسانُ فيما بينه وبين الله تعالى أن يعامل الحكيم سبحانه معاملة المحسنين في التسوية بين باطنه وظاهره، وإخلاص العمل لوجهه، وإيثار رضاه على رضا نفسه، فهؤلاء هم المحسنون حقاً، الذين لا تضيع أجورهم، ولا تُجرّح في موقف الحساب صدورهم.

وكفاية الله تعالى له فيما بينه وبين الناس أن يصرف عنه شرهم بأحد أمرين: إمّا بأن يصرف عنه من شرهم ما يتعلق بفساد دينه، فهذا صرفه واجب، وهو من الحكيم تعالى واقع، وإمّا بأن يكفيه فيما بينه وبينهم بأن يجعل بينه وبينهم حدوداً من أمره إن اعتدوها أجرى عليهم حكم العادين في

الدنيا، وعاقبهم عقاب المذنبين في الآخرة، وأجرى عليه حكم المظلومين في الدنيا، وأعطاه أجر الصابرين في الآخرة، فهذا أحمد كفاية عاقبة، وأحسن تأويلاً، وأوضح دليلاً.

قوله عليه السلام: وَمَنْ أَحْسَنَ سِرِّيَّتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلاَنِيَّتَهُ.

السريّة باطنة لبّ الإنسان ودخيلة قلبه، وقد تقدّم تفسيرها، وإحسان السريّة أن لا يتضمّن شيئاً من الإرادات والاعتقادات المقبّحات، وأن تكون عقدة قلبه موقوفةً من ذلك على المحسّنات. **والعلانية** هي الحالة الظاهرة، والإعلان نقيض الإسرار، يقال استسرّ الأمر إذا خفي، ومنه سرائر الهلال، وعلّن إذا ظهر، وإصلاح علانيته هو سلامة ظاهر أمره من الفساد والقبیح، وقد يكون بأن يُقيّله الله تعالى العثرات، ويتجاوز عنه السيئات، لأنّ ما بدر منه من المقبّحات في ظاهر أمره من زلة طارئة، أو هفوة غارية، فلا حقيقة له في باطن سره، فيستر الله تعالى عليه ويحبّبه إلى أوليائه، حتى يشهدوا له بما يعلمون من سلامة ظاهره، فتكون علانيته لذلك صالحة، فيجعل له بذلك لسان صدق في الآخرين، ويجري له ذكراً حسناً على ألسن الزاكِرِينَ، وينشر عنه ثناءً جميلاً في الغابرين، وهذه أحسن صلاح العلانية، وأولى ما سعى له أهل العقول السوية. ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يصلح علانيته في الآخرة، فيجعل ثوابه موفوراً، وذنبه مغفوراً، وسعيه مشكوراً.

قوله عليه السلام: وَمَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ.

العمل للآخرة هو العمل الصالح الخالص لوجهه تعالى، الذي يلقي به العبد ربّه، كالعائب يصلّ أهله آمناً مسروراً، مؤيداً منصوراً، قد جعل الله من بين يديه نوراً، ومن خلفه نوراً، وقد قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف].

وأما كفاية أمر دنياه فإن يُخَفَّفَ عليه بعلم يهون ما بين يديه من مؤن الدنيا، ويكرّه إليه قبيحها، ويحبّب إليه حسنّها، ويُرْهِدَه في حلالها، فلا يبقى عنده لها مؤنة ظاهرة، ولا مشقة باهرة.

الحديث التاسع

عن^(١) ابن عُمرَ، قد تقدّم الكلام في نسبه ونعته وطرف من ذكر حاله وصفته، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ، إِنَّ اللِّسَانَ أَمْلُكُ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ، أَلَا وَإِنَّ كَلَامَ الْعَبْدِ كُلَّهُ عَلَيْهِ، إِلَّا ذِكْرًا لِلَّهِ، أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ إِصْلَاحًا بَيْنَ مُؤْمِنَيْنِ)) فَقَامَ إِلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَتَوَاحِدُ بِمَا تَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ((وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، فَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ فَلْيَحْفَظْ مَا جَرَى بِهِ لِسَانُهُ، وَلْيَحْرُسْ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ جَنَانُهُ، وَلْيُحْسِنْ عَمَلَهُ، وَلْيُقَصِّرْ أَمَلَهُ))^(٢) ثُمَّ لَمْ تَمُتْ أَيَّامٌ حَتَّى تَزَلَّتْ هَذِهِ

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة القاضي المحاملي قال حدثنا أبو قلابة قال حدثنا بشر بن عمر الزهراني قال حدثنا شعبة عن الحكم عن نافع عن ابن عمر... الحديث.

(٢) الحديث: ((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ)) روي في مسند الشهاب للقضاعي بطريقين (٣٣٨/١) برقم (٥٨١ و ٥٨٢) وفي شعب الإيمان للبيهقي بطريقين أيضا (١٧/٧) رقم (٤٥٨٥ و ٤٥٨٩) وفي أخبار القضاة لوكيع (٤٧/٣) وفي كتاب الزهد لابن المبارك (١٢٨).

والحديث: ((كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) روي في التاريخ الكبير للبخاري (رقم ٨٣٧) وفي سنن الترمذي (١٨٦/٤) رقم (٢٤١٢) وفي مسند عبد بن حميد (٤٤٨/١) رقم (١٥٥٤) وفي مسند أبي يعلى (٥٦/١٣) رقم (٧١٣٢) وفي المعجم الكبير للطبراني (٢٤٣/٢٣) وفي مسند الشهاب للقضاعي (٢٠٢/١) رقم (٣٠٥) وفي شعب الإيمان للبيهقي (٥٦/٢) رقم (٥١١) وفي بعضها بلفظ: ((كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ...)).

وحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: ((تَكَلَّمَ كُلُّ عَبْدٍ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانَتْ أَلْسِنَتُهُ تَكَلَّمُ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ سَكَتَ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)) روي في تفسير (١٠٩/٢) وفي مسند أبي داود (٤٥٦/١) رقم (٥٦١) وفي مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٠/٥) رقم (٢٦٤٩٨) وفي مسند أحمد (٣٦/٣٤٥) رقم (٢٢٠١٦) وفي مسند عبد بن حميد (٦٨/١) رقم (١١٢) والطبراني في الأوسط (٢٨٣/٧) رقم (٧٥٠٣) والكبير (٦٤/٢٠) رقم (١١٦) والبغوي في شرح السنة (٢٦/١) رقم (١١) وفي تفسيره (٥٩٨/٣) وأخرجه ابن ماجه (١٣١٤/٢) برقم (٣٩٧٣) والترمذي (٣٠٨/٤) رقم (٢٦١٦) والنسائي في الكبرى (١٠/٢١٤) رقم (١١٣٣٠) والبيهقي في الشعب (٢٩٩/٤) رقم (٢٥٤٩)، الخ.

الآية: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٣].

الرحمة نقيض الغضب، وهو الفضل والإحسان من الله تعالى، والشفقة والمحبة من العباد، وقد تقدم الكلام في معنى اسم الله تعالى، وكذلك الكلام في تسمية العبد عبداً.

والكلام هو الأصوات المقطعة بالحروف المرتبة، وهو ينقسم إلى مفيد وغير مفيد، فإذا أردت فصله قلت: الموضوع للإفادة.

والغنم أحد فوائد الأموال، ورغائب الآمال، وقد يكون بشدة وقتال وبغير شدة وقتال، فإذا كان بغير شدة وقتال، قيل: غنيمة باردة، ومغنم بارد، معناه لم يصلوا فيه حرَّ القتال، وروي عن الأصمعي أن الغنيمة الباردة هي الواجبة الثابتة، من قولهم: برد عليه لي حق، إذا وجب، وبالجوهين جميعاً فسرنا قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الصِّيَامُ فِي الشَّتَاءِ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ)).

والسكوت نقيض الكلام، ومعناه أن لا يتكلم، والسلامة نقيض الغرامة.

ومعنى الحديث أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: دعا بالرحمة لمن تكلم بما يكون به غانماً وهو الكلام بكتاب الله تعالى وذكره بالتحميد والتمجيد، وذكر ملائكتهم عليهم السلام وأنبيائه صلوات الله عليهم وأتباعهم قدس الله أرواحهم بالإجلال والتعظيم، والأمر بطاعة الله سبحانه، والنهي عن معصيته، مع القول بالحق في جميع ما افترض على عباده.

وأما الكلام فيما يعنيه من معاملة دنياء، وأسباب معاشه، ومكاسب الحلال، فقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً، وقد ينقلب في بعض الأحوال محظوراً إذا أردت به المكائلة والسمعة، فانظر إلى الضمائر ما تصنع إن كنت من الناظرين.

وما عدا ما قدمنا من أنواع الكلام فهو فضل من القول، منه المباح والمكروه والمحظور، والاحتراز منه على العموم أولى، فأما معرفة عيونه وأحكامه ففرض واجب؛ ليمكن العبد من الاحتراز عن محظوره ومكروهه، وذلك لا يقع إلا بمعرفة عيونه ووجوهه.

ومن كلام الحكماء: (إذا كان الكلام من فِضَّة فَالصَّمْتُ من ذهب) ومن استفتاحاتهم: (مَنْ صَمَتَ نَجَا) وقال لقمان عَلَيْهِ السَّلَام: (الصَّمْتُ حُكْمٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ) وكان سبب هذا الكلام: أنه

أتى إلى داود صلوات الله عليه وكان معاصراً له، وداود صلوات الله عليه يعمل دِرْعاً أول درع رُئِيت في الدنيا، فلم يدر لقمانُ عَلَيْهِ السَّلَام ما هي وما المراد منها؟! فجعل يُراوِدُ نفسه هل يسأل أم يسكت حتى يتبين له الأمر، فملك نفسه، فلما أتمّها داود عَلَيْهِ السَّلَام لبسها وجال فيها، وقال: نِعْمَ جُنَّةُ الحرب أنتِ، فعلم لقمان عند ذلك أنها أُرِيدَتْ للحرب بغير سؤال، فقال ما قدمنا، وفي الرواية أن داود عَلَيْهِ السَّلَام كان يعالج الحديد أول أمره بالنَّار، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ١١] قيل معناه: لا تُدَقِّ المسبار فيقلِّق، ولا تُغْلِظْه فيفصم^(١) والله أعلم، ثم أُلِين له الحديد بعد ذلك، فكان يعمل الدرع في يوم واحد، يَفْتِلُهُ بأصبعة فتلاً كيفما أراد بقدرة الله تعالى؛ معجزة له صلوات الله عليه.

[اللسان]

قوله عليه السلام: إِنَّ اللِّسَانَ أَمْلَكُ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ.

اللسان هو العضو الذي جعله الله تعالى آلةً للكلام، ولُغَةُ كُلِّ قومٍ لسانُهم، وقد يُسمُّون الرسالة لساناً، قال أعشى باهلة^(٢):

إِنِّي أَتَنِي لِسَانٌ لَا أَسْرُبُهَا مِنْ عُلُوٍّ لَا كَذِبٌ فِيهَا وَلَا سَخَرٌ

فعنى باللسان هاهنا الرسالة.

والأَمْلَكُ هو الأغلب والأولى، ولا شك أنه أَمْلَكُ أعضاء ابن آدم له؛ لأنَّ به المحاورات

(١) بقافين، قال في الضياء قَلِقَ إذا لم يستقر، تمت، هامش (أ)، قال في لسان العرب (١٠ / ٣٢٤): الْقَلَقُ: أَنْ لَا يَسْتَقِرَّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ أَقْلَقَهُ فَقَلِقَ. وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ: (أَقْلَقُوا السُّيُوفَ فِي الْغِمْدِ) أَيَّ حَرَكُوهَا فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ أَنْ تَحْتَاجُوا إِلَى سَلِّهَا لِيَسْهَلَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، أ. هـ.

وَالْفَصْمُ: الْكَسْرُ مِنْ غَيْرِ يَبْنُوِيَّةٍ، فَصَمَهُ يَفْصِمُهُ فَصْماً فَأَنْفَصَمَ: كَسَرَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبِينَ، (لسان ١٢ / ٤٥٣).

(٢) أعشى باهلة: هو عامر بن الحارث بن رباح الباهلي، من همدان: شاعر جاهلي. يكنى (أبا حفصان) أشهر شعره رائية له في رثاء أخيه لأمه (المنتشر بن وهب) أوردها البغدادي برمتها، وهذا البيت هو مطلعها، وهذا البيت من الشواهد النحوية، والشاهد في قوله: (مِنْ عُلُوٍّ) فتروى بالضم والفتح والكسر (انظر الأعلام). والدليل على أنه عنى به الرسالة هو تأنيثه للفعل: (أَتَنِي).

والمجادلات والواعظات والمطربات والملهيات والمجدلات والمغريات والمغرمات، وبه النميمة والغيبة والتهدد والأمر والنهي، وبه يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال قائلهم: رَبِّ قولِ أنفذْ من صول، وسُمِّي الكلامُ كلاماً لأنه يَكَلِّمُ القلوبَ، أي يجرحها، ورُبَّتْ كلمة بنتٌ مجدداً أثيلاً، ورُبَّتْ كلمة أفرئت ذُلّاً طويلاً، ولا إنسان إلا اللسان، هو أطيّب شيء إذا طاب، وأخبث شيء إذا خبث.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ كَلَامَ الْعَبْدِ كُلَّهُ عَلَيْهِ، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ، أَوْ أَمراً بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهياً عَن مُنْكَرٍ، أَوْ إِصْلاحاً بَيْنَ مُؤْمِنِينَ.

قد تقدم الكلام في تسمية الكلام، ولم سُمِّي العبدُ عبداً بما فيه كفاية، و (كُلُّ) من ألفاظ العموم، وما على الإنسان نقيض ما يكون له.

[الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مُهِمَّاتِ أصول الدين، ولهما شروطٌ معلومةٌ في كتب الأصول، والنهي عن المنكر وجهٌ واحدٌ وهو الوجوب، وهما مأخوذان من المعرفة والإنكار، فالمعروف ما تُعرف القلوبُ حُسْنَهُ وزيادته على الحسن فتسكن إليه، والمنكر ما تُنكره القلوبُ فتقضي بقبحه وتنفر عنه، وللمعروف وجهان وجوب وندب، والمُراعَى في ذلك الدليل، والإصلاح بين المؤمنين نقيض الإغراء والإفساد، وخَصَّ المؤمنين بذلك لأنهم الذين يتعلق بفساد أمرهم إفساد الدين؛ لأنَّ المجرمين ربما يكون هلاكهما وفلُّ شوكتهما سبباً لقوة الإسلام، كما كان في حرب بكر وتغلب، وهوازن وغطفان، وغيرهم من القبائل العاتية قبل النبوة شرفها الله؛ إرهاباً لها، وتوطيداً لأسبابها، وتقوية لأواخيها، حتى جاءت النبوة شرفها الله، ولم يبقَ من جيش الكفر إلا فُلُهُ^(١)، ومن وَبَلِ الضلال إلا طَلَّهُ، وقد تقدّم الكلام في معنى الإيذان ولم سُمِّي المؤمنُ مؤمناً.

المُجْتَمِعُ: ابتداء بذكر الله تعالى لأنَّ به تطمئن القلوب، ويُرحض درنُ الذنوب، وهو أساس الإيذان وقاعدته، ومعنى ذكر الله تعالى معرفته بالقلب، وإظهار ذلك باللسان، لا يكون ذكراً حتى

(١) قومٌ فلُّ: مُنْهَرَمُونَ، ج: فُلُولٌ وأفلالٌ، وَسَيْفٌ قَلِيلٌ وَمَقْلُوبٌ وَأَقْلٌ وَمُنْقَلٌ: مُثْلَمٌ، (القاموس ١٠٤٤).

يكون كذلك، فإن تعرّئ عن معرفة القلب فهو لغوٌ أو سهوٌ ولا ثمرة لواحد منهما، وفي الذكر آثارٌ كثيرة، نذكر منها طرفاً كافياً؛ إذ كتابنا هذا مبنيٌّ على الاختصار.

من ذلك ما روينا عن علي عليه السلام قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الْفَجْرَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَحَاجٍّ بَيَّنَّ اللَّهُ)).

والأمر بالمعروف هو قول القائل لغيره افعَل على جهة الاستعلاء دون الخضوع وهو مريد لوقوع المأمور به، والمعروف هو الحسنُ الراجحُ الحسن، ولا يوجب كون الأمر أعلا رتبة، وقد بينّا ذلك في كتاب صفوة الاختيار في أصول الفقه.

والنهي عن المنكر هو قول القائل لغيره لا تفعل أو لا يفعل على وجه الاستعلاء دون الخضوع، وهو كاره لوقوع المنهي عنه مما ليس له أن يفعله.

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دارت رَحَى الإسلام، وجرى الشرع الشريف على نظام، وَقُوضَتْ^(١) قواعد الكفر بعد الالتئام، وبُدِّدَتْ جموعُه بعد الانتظام، وصار خدّ الفسق ضارِعاً^(٢)، وعُنقه خاضعاً، وَيَأْوُهُ^(٣) متواضعاً، وجرّاه^(٤) واضعاً، وصوته خاشعاً.

وأي تَعَبُّدٍ أعظمُ نفعاً وأبلغُ وسعاً من الأمر بالمعروف الأكبر والنهي عن الفحشاء والمنكر، وقد نوّه الحكيم سبحانه بأساء قومٍ ضيعوه، فقال عزّ من قائل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة] فعقّب الحكاية عنهم بأبلغ التوبيخ والذم، وأمر به أمراً لازماً في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

(١) قَوْضَ الْبِنَاءُ تَقْوِيضًا: نَقَضَهُ مِنْ غَيْرِ هَذِمَ. (مختار الصحاح: ٢٦٢).

(٢) أي ذليلاً، قال في القاموس: ضَرَعَ إِلَيْهِ يَضْرَعُ ضَرَعاً وَضَرَاعَةً: خَضَعَ وَذَلَّ، فَهُوَ ضَارِعٌ، (لسان: ٨/ ٢٢١).

(٣) الْبَأْوُ: الْكِبَرُ وَالْفَخْرُ. يقال: بَأَوْتُ عَلَى الْقَوْمِ أَبَأَى بَأَوْاً. (لسان العرب: ١٤ / ٦٣).

(٤) الْجِرَانُ مُقَدَّمُ عُنَى الْبَعِيرِ مِنْ مَذْبَحِهِ إِلَى مَنْحَرِهِ، فَإِذَا بَرَكَ الْبَعِيرُ وَمَدَّ عُنُقَهُ عَلَى الْأَرْضِ قِيلَ أَلْقَى جِرَانَهُ بِالْأَرْضِ، (لسان العرب ١٣ / ٨٦).

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ [آل عمران] المراد بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر دون غيرهم، والمفلحون هم الباقون المنجحون، لأن معنى الفلاح هو البقاء والنجاح، وما أبقى الله تعالى من كل أمة من الأمم الماضية إلا الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهم الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، وذلك معلوم في نوح عَلَيْهِ السَّلَام وأمه الغرقى، وصالح عَلَيْهِ السَّلَام وأمه التي دمرها عز وجل فما أبقى، وهود ذي التحنن والألطف وما فعل سبحانه بقومه في الأحقاف، وأهل سدوم وعمورا (١) إذ جعلهم هباءً منثوراً، ونجى لوطاً عَلَيْهِ السَّلَام بأهله مسروراً مؤيداً منصوراً، وكان سبحانه بالصالحين خبيراً، وكم يَعُدُّ العَادُونَ أَوْ يُكَيِّفُ الحَادُونَ، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: إِنِّي مُعَذِّبٌ مِنْ أُمَّتِكَ مِائَةَ أَلْفٍ، أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ؛ فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟! فَقَالَ تَعَالَى: عَمَلٌ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ بِالْمَعَاصِي فَلَمْ يَغْضَبُوا لِعُصْيَانِي)) وقال عَلَيْهِ السَّلَام: ((لَيْسَ لِعَيْنٍ تَرَى اللَّهَ يُعْصِي فَتَطْرَفُ حَتَّى تُغَيَّرَ أَوْ تُسْقَلَ)).

وأما الإصلاح بين مؤمنين فهو من لوازم الدين، وكيف لا يكون كذلك والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات] فأمر بذلك، وأمره تعالى واجب الاتباع، ثم أشار إلى الوعيد على تركه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأنه لا يَتَّقَى من قِبَلِهِ تعالى إلا العذاب والسخط، ووعدنا بالرحمة على فعله، لأنَّ (لَعَلَّ) مِنَّا تَرْجٍ، ومنه تعالى للقطع والوقوع، فأبى رخصة في ترك ما هذا حاله، فالواجب الفزع له، والاهتمام به، والقيام فيه، بكل وجه من وجوه الإمكان.

فَقَامَ إِلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَقَالَ (٢): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَوَاخَذُ بِمَا نَسَكَلُمُ بِهِ؟

(١) هما مدينتا قوم لوط، وهي منطقة حول البحر الميت.

(٢) في جميع النسخ: فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: ... الخ.

[معاذ بن جبل]

معاذ بن جبل هو من العلماء المجتهدين، وله في الإسلام تقدمٌ، وفي الصحبة مزيةٌ، وبعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ إلى اليمن والياً، فنزل الجند، ومات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ وهو عليها، وهذا نسبه: هو مُعَاذُ بْنُ جَبَلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُوسِ بْنِ عَائِدِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُذُنٍ^(١) بْنِ سَعْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَسَدِ بْنِ سَارِدَةَ بْنِ تَرِيدَ بْنِ جُشَمِ بْنِ الْخَزْرَجِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَارِ بْنِ الْأَزْدِ بْنِ الْغَوْثِ.

والمواخلة مفاعلة من الأخذ، فكأنه قال نؤخذ بجريرة ما نقول أم تُسامح في هذا القدر؟
فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَبِيباً لَهُ: **وَهَلْ يَكُتُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ.**

الكُبُّ جَعْفٌ^(٢) الشيء لوجهه. **والمناخر** هي الأنوف، وهي أشرف ما في الإنسان، فيصير بعد الشرف بساطاً له في النار، وهذا أعظم النكال.

وحصائد الألسنة ثمارها، وهذا من الاستعارات الفصيحة، والإشارات البليغة أن جعل الكلام زرعاً والمستحق عليه ثمراً لذلك الزرع، وهذا من أحسن استعارة وأغرب إشارة؛ لأنَّ المقصود من الزرع ثمره، ومن الكلام فائدته ونفعه، فمن زرع من كلامه خيراً حصد خيراً وسلامةً وغنماً، ومن زرع من كلامه شراً حصد نكالاً وغرامةً وغتاً، فالواجب مراعاة أمر اللسان؛ إذ يتعلق به مثل هذا الشأن.

وقد روي أن أبا بكر^(٣) بن أبي قحافة لما حضرته الوفاة جعل يُنْضِضُ^(٤) لسانه وهو يقول:

(١) كذا في جميع النسخ، وفي كتب التراجم والطبقات: بن أدي.

(٢) جَعَفَهُ جَعْفًا فَأَنْجَعَفَ: صَرَعَهُ وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَأَنْصَرَغَ. (لسان ٩ / ٢٧).

(٣) أبو بكر: هو عبدالله بن عثمان بن عامر التيمي، من المهاجرين؛ بايعه أبو عبيدة وعمر ومن تبعهما يوم السقيفة، مع عدم حضور الوصي عَلَيْهِ السَّلَام والعباس، وكافة بني هاشم، ومن معهم من سادات المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وكانت بيعته - كما قال عمر برواية البخاري ومسلم وغيرهما - فلتة، وتعب ذلك الاختلاف الكثير، والحكم لله العلي الكبير. وكان في أيامه قتال أهل الردة، وغيرهم. توفي في جمادى، سنة ثلاث عشرة، عن ثلاث وستين على الأشهر. عنه: سويد بن غفلة، وغيره. خرج له: أئمتنا الأربعة، والجماعة.

(لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣ / ٢٦٦).

(٤) يُنْضِضُ لِسَانَهُ: أَيِ يَجْرُكُهُ. (لسان ٧ / ٢٣٨).

هذا أوردني الموارد، وفي غريب الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ وَقِيَ شَرَّ لَفْلَقِهِ وَذَنْبِهِ وَلَجَ الْجَنَّةَ)) يريد فَرْجَهُ وَلِسَانَهُ، فرحم الله امرأً لم يُهْلِكْ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ قَبْضَ أَطْرَافِهَا مِنْ أَفْضَلِ إِنْصَافِهَا، فَوْسَمَ إِغْفَالُهَا بِالتَّقْوَى، وَمَنْعَهَا عَنِ الْأَهْوَاءِ، وَلَمْ يَدْعَ لِلَّسَانِ نَهْجاً مِنْ الْمُهْلِكَاتِ خَالِياً، بَلْ يَجْعَلُ عَقْلَهُ عَلَيْهِ وَالْيَأْ، وَذِكْرَهُ وَنَظَرَهُ لَهُ كَالْيَأِ^(١)، فَمَا كَانَ لَهُ؛ تَكَلَّمَ بِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ، وَمَنْ لَهُ بِنَجَاجَةٍ مَعَ ذَلِكَ، فَتَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً يَدْفَعُ بِهَا عَنْهَا^(٢) شَرَّ أَطْرَافِهَا، وَتَسْكُنُ فِي أُعْطَافِهَا^(٣)، تُحِبُّ إِلَيْنَا رِضْوَانَهُ، وَتُبْعُضُ إِلَيْنَا عَصِيَانَهُ، حَتَّى يَمْتَزِجَ ذَلِكَ بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا، وَيَعْتَلِجَ بِهَمَمِنَا وَأَفْكَارِنَا، وَيَخْتَلِطَ بِلَحُومِنَا وَدِمَائِنَا وَعِظَامِنَا وَأَلْبَابِنَا وَأَخْمَاخِنَا وَأَعْصَابِنَا، لَنَنْجُو غَدَاً مَعَ النَّاجِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ.

فأما بغير هذا الحال فالأمر خطر جداً، كيف ينجو بغير رحمة من الله تعالى مَنْ كَانَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ حَقٌّ، وَلَهُ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ رَقِيبٌ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق] الرقيب المنتظر المتربص الذي لَا يَغْفُلُ فِي الْأَغْلَبِ، وَالْعَتِيدُ الْحَاضِرُ الَّذِي لَا يَغِيبُ.

قوله عليه السلام: فَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ فَلْيَحْفَظْ مَا جَرَى بِهِ لِسَانُهُ، وَلْيَحْرُسْ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ جَنَانُهُ.

لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ النَّارِ، وَأَنَّ مَنْ أَرْسَلَ لِسَانَهُ كُتِبَ عَلَى مَنْخَرِيهِ فِيهَا؛ عَقَبَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ مَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ مِنْهَا - جَعَلْنَا اللَّهُ مِنَ الْمُبْعِدِينَ عَنْهَا - فَلْيَحْفَظْ مَا جَرَى بِهِ لِسَانُهُ، يَرِيدُ حِرَاسَتَهُ وَمُلَاحَظَتَهُ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ، وَلَا يَدْعُ مَا يَكُونُ لَهُ، فَإِنَّ إِخْرَاجَ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ لَوْعَةٌ وَغَرَامَةٌ، وَتَرْكُ مَا يَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ، وَالْقَوْلُ فِي الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ السَّكُوتِ، وَالسَّكُوتُ فِي الْبَاطِلِ خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ.

(١) أي متكرراً متردداً، قال في القاموس المحيط: كَلَّأَ بَصَرَهُ فِي الشَّيْءِ: رَدَّدَهُ. (القاموس المحيط: ٥١).

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: يدفع عنا بها شر... الخ.

(٣) الْعِطْفُ: الْمَنْكِبُ... وَإِنْطُهُ عِطْفُهُ. وَالْعُطُوفُ: الْآبَاطُ. وَعِطْفًا الرَّجُلُ وَالِدَّابَّةَ: جَانِبَاهُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ وَشِقَاقِهِ مِنْ لَدُنْ رَأْسِهِ إِلَى وَرِكَه، وَالْجُمُعُ أُعْطَافٌ. (لسان ٩ / ٢٥٠).

قوله عليه السلام: وَلِيَحْزُنَ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ جَنَانُهُ.

الحراسة هي الحياطة والحمى. والانطواء هو التضمّن. والجنان هو القلب، وسُمّي جناناً لاستجنانه بالجوانح، وحراسته له أن لا يدع شيئاً من الباطل يدخله، ولا شيئاً من الحق يشذ عنه، والقلب سلطان الجوارح وأميرها، ويعقله يتم صلاحها، ويتّسق تدبيرها، ولذلك أدخل كثير من الضعفة على نفسه الشبهة بأن الإنسان على الحقيقة أمر يحلّ القلب، وهذا فاسد لغّة وشرعاً، ولا دليل عليه عقلاً، وسقوطه ظاهر لا يفتقر إلى برهان، وفي الحديث: ((حِرَاسَةُ الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنْ الْعَمَلِ)) وأعمال القلب الاعتقادات والإرادات والكراهات والندم، وهي أصل التعبّد، وعليها مداره، فهي لذلك أعلاه وأجلّه، وفي الحديث: ((إِنَّ فِي ابْنِ آدَمَ بَضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) فالواجب على العاقل حراسة قلبه بِلَبِّهِ، واستصغار فعله، واستكبار ذنبه، وتسعير نار الخوف التي هي أساس التوبة، وتعجيل الرجعة والأوبة.

قوله عليه السلام: وَلِيُحْسِنَ عَمَلَهُ، وَلِيَقْصُرَ أَمَلَهُ.

تحسين العمل بالقصد الخالص لله تعالى وحراسته من المقبحات بعد تعرّف حكمه وتفهم معناه، وعمل العبد ما يتعلق بالقلب والجوارح.

وتقصير الأمل أصل لكل نجاة وسلامة وتوبة واستقامة، وتطويله سبب الأمور الموبقات، والأسباب المهلكات، فرحم الله امرأً جعل أمله خلف ظهره، وأجلّه بين عينيه، فبادر هجومه، وحاذر لزومه، ومزاد الزاد خالية، ومزاد الماء واهية، وراحلة السفر نَقَبَةً^(١) حافية، والطريق بعيدة حامية، فحيثُ تدقع العين باكية، والزفرة عالية، وتنزل حسرة هي ماهية، فترفع الواعية^(٢)، وتنحط الداهية، وفي ذلك ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((مَنْ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ غَدًا فَإِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا، وَمَنْ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا يَقْسُو قَلْبَهُ)).

(١) نَقَبَ الْبَعِيرُ: حَفِيَ، أَوْ رَقَّتْ أَخْفَاهُ. (القاموس المحيط: ١٣٩)

(٢) الْوَاعِيَةُ: الصَّارِخَةُ، وَقِيلَ الْوَاعِيَةُ الصُّرَاخُ عَلَى الْمَيِّتِ، لَا فِعْلَ لَهُ. (لسان العرب: ١٥/٣٩٧).

قال الراوي: ثم لم تمض أيام حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٣].

النجوى هو المشورة والمراجعة في الأمور، هذا في أصل اللغة، وهو مقرر في الشريعة، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩] وقال: ﴿إِنَّمَا التَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ [المجادلة: ١٠] وذلك أن المنافقين كانوا يشترون على أعيان المسلمين إيهاماً لهم أن قد بلغنا أمرٌ فيه ما تكرهون، فيغتم لذلك المؤمنون، وقال تعالى في قصة أولاد يعقوب: ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَالَصُوا نُجْيًا﴾ [يوسف: ٨٠] أي مُشْتَوِرِينَ يرومون ما يفعلون وما يذرون لَمَّا أَخَذَ أخوهم، فانصرم الأمر على إقامة يهوذا حتى يأتيه رأيٌ أيُّه أو يُنْزِلَ اللهُ تعالى عليه وحياً يهديه، لأنه كان أخذ بظاهر الشريعة عندهم وهم سلام الله عليهم لا يعلمون باطن التدبير في ذلك.

والصدقة على وجهين واجب ونفل، فالأمر بالواجب واجب، والأمر بالنفل نفل، والمعروف يشمل الفعل والقول والترك، وهو على قسمين كما قلنا في الصدقة.

والإصلاح بين الناس واجبٌ كما قدمنا وهم المؤمنون، وذلك عام في عامة الناس إن كان يقع بفسادهم فساد شيء من الدين، وإن كان على غير ذلك الوجه كان فيه النظر من الناظرين، والتوفيق من رب العالمين.

الحديث العاشر

عَنْ^(١) أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ بْنِ سُلَيْمٍ بْنِ حَضَارِ بْنِ حَرْبِ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَتْرِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَامِرِ بْنِ عُذْرِ بْنِ وَائِلِ بْنِ تَاجِيَةَ بْنِ الْجُمَاهِرِ بْنِ الْأَشْعَرِ بْنِ أَدَدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ هَمِيسَ بْنِ عَمْرِو بْنِ يَشْجُبَ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَا تَسْبُوا الدُّنْيَا فَنِعِمَّتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ، إِنَّهُ إِذَا قَالَ الْعَبْدُ لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا، قَالَتِ الدُّنْيَا: لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ))^(٢).

قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى بَعْضُهُمْ فَقَالَ:

يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

السَّبُّ هُوَ الذَّمُّ وَالسَّعْ^(٣). والدنيا هي أوقات التكليف كما قَدَّمْنَا. وَنِعَمٌ تَقِيضُ بِنَسْ، وهما من الأفعال التي لا تنصرف، وَنِعَمٌ يَقَابِلُهَا الْأُمُورُ الْمَحْبُوبَةُ الشَّرِيفَةُ، وَبِنَسْ يُقَابِلُهَا الْأُمُورُ الْمَكْرُوهَةُ الْفَظِيحَةُ، وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ هَذَيْنِ الْفَعْلَيْنِ حَتَّى أُحْلِقَا فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ بِالْأَسْمَاءِ، وَالتَّاءُ فِي نِعِمَّتْ وَقَعَتْ لِلتَّائِيثِ. وَالْمَطِيَّةُ مَا يُمْتَطَى، وَهُوَ أَنْ يَرْكَبَ ظَهْرَهُ، وَظَهْرُهُ مَطَاهُ^(٤)، هَذَا فِي الْأَصْلِ، ثُمَّ صَارَ فِي عَرَفِ اللُّغَةِ يُقِيدُ مَا يُمْتَطَى مِنَ الْإِبِلِ خَاصَّةً، حَتَّى لَا يُقَالُ لِلدَّابَّةِ مَطِيَّةٌ وَلَا لِلْحِمَارِ.

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا أَبِي قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ التَّنِيْسِي قَالَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ الشَّاذْكُونِي قَالَ حَدَّثَنَا النُّعْمَانُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ قَالَ حَدَّثَنَا سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى.. الْحَدِيثُ.
(٢) الْحَدِيثُ: ((لَا تَسْبُوا الدُّنْيَا، فَنِعَمَ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ)) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي كِتَابِهِ الدَّعَاءِ (٥٦٨/١) رَقْم (٢٠٥٢) وَرَوَاهُ الشَّاشِي فِي مَسْنَدِهِ (٣٨٧/١) رَقْم (٣٨٣) وَرَوَاهُ ابْنُ عَدِي فِي الْكَامِلِ فِي الضَّعْفَاءِ (٥٠٢/١)، وَقَالَ فِي كِتَابِ الْعَمَالِ: أَخْرَجَهُ الدِّيْلَمِيُّ وَابْنُ النُّجَّارُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أ.هـ. قُلْنَا: وَقَدْ ضَعَفُوهُ لَوْجُودِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبَانَ الْغَنَوِيِّ، وَلَعَلَّ السَّبْبَ أَنَّهُ مِمَّنْ يَرَوِي عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْوَاسِطِيِّ، وَهِيَ عَادَتُهُمْ فِي شَأْنِ كُلِّ مَنْ لَهُ صِلَةٌ أَوْ ارْتِبَاطٌ بِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَتْبَاعُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
(٣) السَّعْ: هُوَ أَنْ يَتَسَابَّ الرَّجُلَانِ فَيَرْمِي كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ بِمَا يَسُوءُهُ. يُقَالُ سَبَعَ فُلَانٌ فُلَانًا، إِذَا انْتَقَصَهُ وَعَابَهُ، (انظر النهاية: ٢/٣٣٧).

(٤) أَي: وَظَهْرُهُ هُوَ مَطَاهُ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي الصَّحاحِ (٦/٢٤٩٤): الْمَطَا، مَقْصُورٌ: الظَّهْرُ، وَالْجَمْعُ الْأَمْطَاءُ.

قوله عليه السلام: عَلَيْهَا يَتَلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ.

الهاء في (عَلَيْهَا) عائدٌ إلى الدنيا التي جعلها في الاستعارة الغربية الموقفة النبوية مطيئةً تشبيهاً؛ لَمَّا أَشْبَهَ حَالَهَا حَالَ الْمَطِيَّةِ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ زَادَنَا وَزِينَتَنَا، وَمِهَادَنَا وَوَسَادَنَا، وَأَمْوَالَنَا وَأَوْلَادَنَا، وَنَصَلَ إِلَى رَبِّنَا وَنَحْنُ عَلَى ظَهْرِهَا نِيَّامٌ وَأَيْقَاطُ، وَفَرَهَيْن^(١) وَأَنْقَاضُ، فَخَاسِرٌ وَرَابِحٌ، وَصَالِحٌ وَطَالِحٌ، فَإِنْ جَعَلْنَا بِضَاعَتَنَا إِلَى سَوْقِ الْآخِرَةِ التَّقْوَى كَثُرَتْ أَرْيَاخُنَا، وَظَهَرَ فَلَاحُنَا، وَاشْتَهَرَ نَجَاحُنَا، وَإِنْ كَانَتْ بِضَاعَتُنَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ - النِّيَّاتُ الْفَاسِدَةُ، وَالْأَعْمَالُ الْكَاسِدَةُ كَثُرَ الْخُسَارُ، وَظَهَرَ الْبَوَارُ، وَفُقِدَ الْأَنْصَارُ، وَلَمْ يَقَرَّرْ قَرَارُ، وَلَا يَبْرُدَ أَوَارُ^(٢)، فَلَا نُمْكِنُ مِنَ الْمَعَاوِدَةِ لِلْإِسْتِبْضَاعِ^(٣)، وَلَا يَنْفَعُنَا الشَّدُّ وَالْإِيضَاعُ^(٤).

قوله عليه السلام: عَلَيْهَا يَتَلُغُ الْخَيْرَ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ.

هذه صفة المؤمن؛ لأنه نقل عليها زاده، وحمل عتاده، إلى دار معاده، ومثنى وساده، ومحط رحله، ومنتهى سبله، ففاز مع الفائزين، ونجا من شرِّ تبعات العاجزين.

قوله عليه السلام: إِنَّهُ إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا، قَالَتِ الدُّنْيَا: لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ.

العبد المراد به المكلف وقد تقدم معناه. اللعن الإبعاد والطرْد، وقد سميت النار لعنة - نعوذ بالله منها - لِيُعَذِّدَ سَاكِنُهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ قَاتِلُ أَهْلِ الشَّرْعِ لِمَنْ سَخِطَ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ: إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، وَفِي لَعْنَةِ اللَّهِ، وَهُوَ يَرِيدُ النَّارَ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى كَفَاتِيهَا، فَكَأَنَّ قَاتِلَهُمْ يَقُولُ: أَبْعَدَ اللَّهُ الدُّنْيَا، وَهَذَا يَحْمِلُ عَلَى مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَهُوَ حَامِلٌ لَذَنْبِهِ عَلَى الدُّنْيَا، وَمَنْزَعٌ لِنَفْسِهِ عَنْ

(١) فَرَهَيْنَ: أَيِ فَرَحَيْنَ وَمَرَجَيْنَ، وَأَشِيرَيْنَ وَبَطْرَيْنَ، وَمَعْنَى أَنْقَاضٍ: مَهْزُولِينَ قَدْ أَنْصَانَا (أَضْنَانَا) السَّيْرُ وَطُولُ السَّفَرِ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ: النَّقْضُ: الْمَهْزُولُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْحَيْلِ... وَالْجَمْعُ أَنْقَاضٌ. (لسان ٧ / ٢٤٣).

(٢) الْأَوَارُ: حَرُّ النَّارِ وَالشَّمْسِ، وَالْعَطَشُ، وَالْجَمْعُ: أَوْرٌ، هـ. (القاموس المحيط: ٣٤٥).

(٣) الْإِسْتِبْضَاعُ: التَّبَضُّعُ وَالتَّرَوُّدُ بِالْبِضَاعَةِ، قَالَ فِي اللِّسَانِ (٨ / ١٥): اسْتَبْضَعْتُ: جَعَلْتُ بِضَاعَتَهُ، وَفِي الْمَثَلِ: كَمُسْتَبْضِعِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أ.هـ.

(٤) الشَّدُّ: السَّيْرُ الشَّدِيدُ، وَالْإِيضَاعُ: حَيْثُ السَّيْرُ، تَمَّتْ، هَامِش (أ) (انظر اللسان ٨ / ٣٩٩).

(٥) فِي النِّسْخِ: إِنْ الْعَبْدُ إِذَا قَالَ: ... الْخ، وَمَا أَثْبَتَ فَمِنْ نَصِ الْحَدِيثِ الْأَصْلِيِّ.

ذلك، فكأنه يقول: لولا هذه الدنيا وزخرفها لما عصينا ربنا، وزيتها التي فتتنا وأغوتنا، فهذا يستحق الذم منّا بلسان المقال، ومن الدنيا بلسان الحال، وقد سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يذم الدنيا، فقال: (يَا هَذَا أَنْتَ الْمُجْتَرِمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُجْتَرِمَةُ عَلَيْكَ؟ أَغَرَّتْكَ بِمَصَارِعِ آبَائِكَ فِي الدُّنْيَا أَمْ بِمَصَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ...) في كلام طويل^(١)، فأما على وجه غير هذا فذمها ونقصها وتصغيرها وتحقيرها نزل من السماء، وشحنت به صحائفها العلماء، قال الله تعالى: ﴿إِغْلَمُوا أَتَمَّا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِيهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد].

المغفرة من الله والرضوان يكونان لمن جعلهما راحلة رحل لا مالا وأهلا، وطاعة الدنيا لله سبحانه هو انقيادها انقياد الفعل للفاعل، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت] وإن لم يكن ثم قول، ولا يمتنع على الحكيم فعله، ولا المنع من فعل غيره؛

(١) رويت في الأمالي الخميسية، وفي الاعتبار وسلوة العارفين، وهي من ضمن حكمه عليه السلام في نهج البلاغة، حيث قال عليه السلام وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ الدُّنْيَا: ((أَيُّهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمُخْدُوعُ بِبَاطِلِهَا؛ أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟! أَنْتَ الْمُجْتَرِمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُجْتَرِمَةُ عَلَيْكَ؟! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ! أَيْمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى؛ أَمْ بِمَصَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؛ كَمْ عَلَلَّتْ بِكَفَيْكَ! وَكَمْ مَرَّضَتْ بِبَيْدِكَ! تَبْتَغِي هُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ هُمُ الْأَطْيَاءَ، لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ، وَلَمْ تُسْعِفْ فِيهِ بِطَلَبِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ، وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسُكَ، وَيَمْضِرُّ مَضْرَعَكَ. إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فِيهَا عَنَّا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَرَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَمَهْبُطُ وَحْيِ اللَّهِ، وَمَسْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ أَذْنَتْ بَيْنَهَا، وَكَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا، فَمَثَلَتْ هُمُ بِلَايَتِهَا الْبَلَاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ، رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا، وَتَحْزِينًا وَتَحْزِيرًا، فَذَمُّهَا رِجَالُ غَدَاةِ الدَّامَةِ، وَحَمْدُهَا آخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرْتَهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثْتَهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعظْتَهُمْ فَاتَّعَظُوا)) ا.هـ.

إذ هو القاهر فوق عباده وهو القادر لذاته.

وقول الدنيا: (لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانًا لِرَبِّهِ) معناه أَبْعَدَ اللَّهُ أَعْصَانًا لِرَبِّهِ، قولُ لِسَانِ الْحَالِ لَا لِسَانِ

المَقَالِ، وعلى أنه لو كان لها عقلٌ وَلِسَانٌ لَقَالَتْ ذَلِكَ، وقد قال الشاعر:

وَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ: سَمِعَا وَطَاعَةً وَحَدَّرَتَا كَالدَّرِ لَمَّا يُثَقَّبِ

ومثله كثيرٌ، ولا يصح في التأويل غير ذلك، وقد أوضح السيد الشريف تأويلنا هذا بما ذكر من

البيت المأخوذ من معنى الخبر الشريف، وهو قول بعضهم:

يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

ألا ترى أنهم حملوا ذنوبهم على زمانهم إفكاً وبهتاناً، وزوراً وحسباناً، فأحال الشاعر الحكيمُ

الذنبَ عليهم لأنهم الفاسدون دونه، إذ منهم المعصية والعدوان، والزور والطغيان، فأما الزمان

فخيرُه اختبار، وشرُّه اعتبار، وهو ليل ونهار، وريح وخسار، وفوز ودمار، فمن تلقى الخير

بالشكر والادكار، والشرَّ بالحمد والاصطبار فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

الحديث الحادي عشر

عَنْ (١) ابْنِ عَبَّاسٍ -وقد تقدّم الكلام في نسبه وشرح بعض خلاله، وهل يخفى البدر عند كماله- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَّرْتُمُوهُ فِي ضَيْقٍ وَسَعَةٍ عَلَيْكُمْ فَرَضِيْتُمْ بِهِ فَأَجْرْتُمْ، وَإِنْ ذَكَّرْتُمُوهُ فِي غِنَى بَعْضُهُ إِلَيْكُمْ فُجِدْتُمْ بِهِ فَأُتِيتُمْ، فَإِنَّ الْمَنَايَا قَاطِعَاتُ الْأَمَالِ، وَاللَّيَالِي مُدْنِيَاتُ الْأَجَالِ، وَإِنَّ الْمَرْءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ؛ يَوْمٍ قَدْ مَضَى، أُحْصِيَ فِيهِ عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ، إِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَحُلُولِ رَمْسِهِ يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ وَقِلَّةَ غِنَى مَا خَلَّفَ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمْعُهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعُهُ)) (٢).

الإكثار معروف وهو نقيض الإقلال. والذكر هاهنا نقيض النسيان، وهو خطور المذكور في البال في جميع الأحوال. والهادم مأخوذ من الهدم وهو التخریب، والهادم فاعل الهدم، ومعناه يناقض معنى العامر، والهادم هاهنا هو الموت، ولا نعلم شيئاً أهدم منه للذات، ولا أكدر للشهوات، وكيف لا يكون كذلك؟! وكم من مسرور قد هدم سروره بالأحزان، ومثلث قد نغص لذته بالأشجان، فأصبح بعد الضحك باكياً، وبعد الطرب شاكياً، وكم في ذلك من شاهد ظاهر، ومثل سائر.

[قصة الوليد بن يزيد بن عبد الملك]

من ذلك ما رُوِيَ عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٣) - وكان جبّاراً مترفاً - أنه قال يوماً لجلسائه: يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّ مَلِكاً مَا تَمَّ لَهُ سُرُورٌ يَوْمٍ! قالوا: كذلك روي! فقال -بزعمه بفيه

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو الحسن محمد بن إسماعيل المكتّب قال حدثنا أحمد بن إسماعيل الوراق قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عباس... الحديث.

(٢) الحديث: ((أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ فَمَا ذَكَرُهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَعَهُ عَلَيْهِ وَلَا ذَكَرُهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ)) رواه ابن حبان (٧/ ٢٦٠) رقم (٢٩٩٣) ومثله القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٩١) رقم (٦٦٨) ومثله الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٦) رقم (٥٧٨٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٣٩) رقم (١٠٧٦).

(٣) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني أمية، تولى بعد هشام بن عبد الملك في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ، وقُتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة

الْكُنُكْتُ^(١)، مُتَأَلِّياً عَلَى مَنْ كُلُّ مُلْكٍ غَيْرِ مُلْكِهِ بَاطِلٌ، وَكُلُّ سُلْطَانٍ غَيْرِ سُلْطَانِهِ زَائِلٌ - : وَاللَّهُ لَأَسْتَكْمِلَنَّ لَذَّةَ يَوْمِي هَذَا، ثُمَّ أَخَذَ جَارِيَةً لَهُ يَقَالُ لَهَا: حَبَابَةُ، وَكَانَتْ اشْتَرَيْتُ بِهَا لِي جَسِيمًا، وَلَمْ يَرِ مِثْلُهَا، وَدَخَلَ بَسْتَانًا فِي جَانِبِ دَارِ الْخِلَافَةِ، فِيهِ أَنْوَاعُ الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ، وَأَخَذَ غَلَامًا لَطِيفًا يَصْلَحُ لِلْخِدْمَةِ، مِنْ أَظْرَفِ الْغُلَمَانِ، وَقَالَ لِحَاجِبِهِ: اطْوِ عَنِّي جَمِيعَ الْأَخْبَارِ وَلَوْ أُخِذَ نِصْفُ الْمَمْلَكَةِ، وَأَخَذَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالطِّيبِ، وَدَخَلَ إِلَى مَجْلِسِهِ فِي بَسْتَانِهِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ وَهِيَ تَضَاحِكُهُ وَتَغْنِيهِ وَتَمْلُحُ^(٢) فِي عَيْنِهِ، إِذْ دَعَا الْوَلِيدَ بَرْمَانَ مَقْشَّرَ فِي جَامِ جَوْهَرٍ، فَجَاءَ بِهِ الْغَلَامُ، فَأَخَذَتْ حَبَّةَ فَطْرَحَتْهَا فِي فَمِهَا وَضَحَكَتْ فَشَرَقَتْ بِهَا فَمَاتَتْ، فَقَلْبُهَا فَكَانَ الْحَقُّ، فَصَاحَ وَأَعْوَلَ، فَمَا لَبَثُوا أَنْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مَكْشُوفُ الرَّأْسِ، مَتَوَفٍ الشَّعْرَ، مَخْمُوشٍ الْوَجْهَ، بَاكِي الْعَيْنَ، حَزِينُ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَقْبِرْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ بَنُو أُمَيَّةَ إِلَى مُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَالُوا: هَذِهِ سُبَّةٌ لَا تَنْسَى، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مَا أَنْتَ وَحَبْسَ هَذِهِ الْجَيْفَةِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ فِي حَبْسِهَا عَارَ الْأَبَدِ، فَقَبْرُهَا وَحَزَنٌ عَلَيْهَا حَزَنًا شَدِيدًا.

[قصة صاحب الخورنق]

وإِنْ ذَكَرْتَ صَاحِبَ الْخَوْرَنْقِ^(٣) فَفِي أَمْرِهِ عَجَبٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِينَ الْمُتَّبِعِي الْأَحْوَالِ، فَأَطَّلَ ذَاتَ يَوْمٍ رَأْسَ الْخَوْرَنْقِ فَمَدَّ بَصَرَهُ فِي نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ حَتَّى انْقَطَعَ فِي الْبَسَاتِينِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْوَاعِ الثَّمَارِ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا الَّذِي أَرَى؟! فَقَالُوا: لَكَ؛ أُبَيَّتَ اللَّعْنُ، فَالْتَفَتَ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ فَمَدَّ بَصَرَهُ حَتَّى انْقَطَعَ فِي الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا؟!

سنة ١٢٦ هـ، وَكَانَ مَهْمَلًا لِأَمْرِهِ، قَلِيلُ الْعَنَاءِ بِأَطْرَافِهِ، وَكَانَ صَاحِبَ مَلَاةٍ وَقِيَانٍ وَإِظْهَارٍ لِلْقَتْلِ وَالْجَوْرِ، وَتَشَاغُلٍ عَنِ أُمُورِ النَّاسِ، وَشَرِبَ وَمَجُونٌ، فَبَلَغَ مِنْ مَجُونِهِ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ عَلَى الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَجْلِسُ فِيهِ لِلْهُو، وَلِمَزِيدٍ مِنْ أَحْبَابِهِ: انْظُرْ تَارِيخَ الْيَعْقُوبِيِّ (٢/ ٣٣٣) وَمَرْوَجُ الذَّهَبِ (٣/ ٢١٣) وَالشَّافِي ط ٢ (ج ١/ ٥٠٠).

(١) الْكُنُكْتُ، كَجَعْفَرٍ وَزَبْرِجٍ: الثَّرَابُ، وَفُتَاتُ الْحِجَارَةِ. (الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ: ١٧٤).

(٢) أَيْ تَتَحَسَّنُ أَمَامَهُ، قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ (٢/ ٦٠١): الْمَلْحُ: الْحُسْنُ مِنَ الْمَلَاةِ. وَقَدْ مَلَحَ يَمْلُحُ مَلُوحَةً وَمَلَاةً وَمَلْحًا أَيْ حَسَنًا، فَهُوَ مَلِيحٌ وَمُلَاحٌ وَمُلَاحٌ. وَالْمُلَاحُ أَمْلَحُ مِنَ الْمَلِيحِ، أ.هـ.

(٣) الْخَوْرَنْقُ: اسْمٌ قَصِيرٌ كَانَ فِي الْعِرَاقِ، بَنَاهُ الثُّعْمَانُ الْأَكْبَرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْأَعْوَرُ، وَهُوَ الَّذِي لَبَسَ الْمُسُوحَ فَسَارَ فِي الْأَرْضِ، ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ، تَمَّتْ، هَامِش (أ) (انْظُرِ الصَّحَاحَ لِلْجَوْهَرِيِّ ٤/ ١٤٦٨).

فقالوا: لك؛ أبيت اللعن، فقال: هل تعلمون أحداً أوتي مثل ما أوتيت؟ فقال له رجل من الرابضة - وهم بقيّة الحجة لله تعالى على كلّ أمة - : أيها الملك؛ أبيت اللعن، هل هذا المُلْك الذي أنت فيه وصل إليك من غيرك؟ أم أنت فيه لابتٌ لم تزل؟ قال: بل وصل إليّ من آبائي، ماتوا فورثت بعدهم ملكهم، قال: فهل تأمن أن يصيبك ما أصابهم؟ قال: هو واقع لا محالة، قال: فما أراك في شيء، قال: فما المخرج؟ قال: أحد أمرين: إمّا أن تعمل في هذا الملك بطاعة الله تعالى، فتُنْصِفَ المظلوم، وتُحْسِنَ إلى الرعية، وإمّا أن تعتزل الدنيا، وتنقطع إلى الله تعالى ليورثك مُلْكاً لا يبلى ولا يزول. فقال له: أنظرني هذه الليلة لأنظر في أمري، فإن عزمْتُ على الوقوف في مُلكي كنتَ وزيراً لا تُعْصِي، وإن انقطعْتُ إلى ربي كنتَ صاحباً لا تُقْلَى، فأَمْسَى ليلته يُفَكِّرُ، فلما كان في آخر الليل أخذ ثياب صوف، وفزع إلى الله تعالى، فلما فتح الباب وجد صاحبه عليه يتنظره، فقال: ما أجمعتَ عليه؟ قال: على ما ترى، فقال: وفُتِّتَ، ثم سَاحَا في الأرض، فَضْرِبَتْ به الأمثال، فقال الشاعر (١):

وَتَأْمَلُ رَبَّ الْخَوَرَنَقِ إِذَا شَاءَ رَفَ يَوْمًا، وَلِلْهَدَى تَفَكِيرُ
شَادَهُ مَرَمَرًا، وَكَلَّلَهُ كُلَّ سَاءَ (٢) فَلِلظَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
سَرَّهُ حَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُ لِكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ (٣)
فَارَعَوَى قَلْبَهُ وَقَالَ فَمَا لَذَ ذَةُ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ

وهي أبيات.

وقد روينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((أَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ، وَكُونُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى حَذَرٍ، فَمَنْ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ غَدًا فَإِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا، وَمَنْ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا يَقْسُ قَلْبُهُ)) وصدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ. فنسأل الله تعالى التوفيق لاستشعار ذكر الموت وحُسن الاستعداد لحلول الفوت.

(١) هو عدي بن زيد العبادي، من زيد مناة. والأبيات من قصيدته المشهورة التي صدرها:

أَرْوَاحُ مُودَّعٍ أَمْ بُكُورُ لَكَ فَاعْمِدْ لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ

(٢) الكِلْس: شبه الجِص يُبْنَى به، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٦/ ١٩٧).

(٣) السديِر: نهر معروف في العراق، هامش (أ) (انظر تهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٨).

قوله عليه السلام: فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي ضَيْقٍ وَسَعَةٍ عَلَيْهِمْ فَرَضِيْتُمْ بِهِ فَأَجَزْتُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي غِنَى بَغْضَةٍ إِلَيْكُمْ فُجِدْتُمْ بِهِ فَأُتَيْتُمْ، فَإِنَّ الْمَنَآيَا قَاطِعَاتُ الْأَمَالِ، وَاللَّيَالِي مُدْنِيَاتُ الْأَجَالِ.

الضَيْقُ نقيض السَّعة وهما معروفان. والرضى نقيض الغضب. والأجر عندهم ما يقع في مقابلة العمل، وقد قال سبحانه حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف] والغنى نقيض الفقر. والبغض نقيض المحبة. والجود نقيض البخل، والثواب ما يقع من النفع في مقابلة العمل، أخذ من ثاب يثوب أي رجع يرجع، فلما رجع العمل على صاحبه بالنفع العظيم سُمِّي ثواباً لأجل ذلك.

المُعْجَى: لما كان خير الدنيا وشرها في الضيق والسعة اللذين بلانا الحكيم سبحانه بهما في قوله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فالضيق يقع في الامتحانات والبلايا من الأمراض والأسقام والعلل ومحن التكليف كالجهاد والخوف والفقر إلى غير ذلك، والسعة تقع في الغنى والرفاهية والأرزاق والمواد والمنافع، وكأنَّ الموت يأتي على ذلك فيرفع مشقة المكروه إمَّا إلى ما هو أشدَّ منه من العذاب الأليم والخطب الجسيم، وإمَّا إلى ما ينسيه ويصغره من الثواب العظيم والملك العقيم، فمن فكر في نزول الموت وهو في ضيق بأحد الأمور التي قدَّمتنا وسَّعَهُ عليه بسرعة الزوال ووَشَّكِ الارتحال، وعلم أنَّ المنقطعات من المضار في حكم المعدومات عند أهل التحقيق، فلم يرفع بها رأساً، واستصغر خطرهما ورضي بها؛ فيؤَجَّر عند ذلك أجراً بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر] وإنَّ ذَكَرَ الموت وهو في غِنَى بكثرة مالٍ وسعة حالٍ بَغْضَ ذلك الغنى إليه بأحد أمرين لا بد من وقوعهما، إمَّا بذكر فراق الأهل والمال، ووحشة المُقَدَّم وهول المآل، وإمَّا باحتياج ذلك الأهل والمال وانتزاعه منه؛ فيبقى لذلك كئيباً حزيناً كأنه ما غَنِيَ ساعة واحدة بأهلٍ ولا مال، فكأنَّ لم يكن الأهل، وكأنَّ لم يكن المال، فحينئذٍ يفرح العاقل المتوسِّم بتقديم الأهل والمال، وتخفيف باهظ الأثقال، من دار البوار إلى

دار القرار، وذلك أبلغ الجود - أي السباحة - لله سبحانه وفيه ^(١) بالأهل والمال، وعلى ذلك تقع المكافأة بمحارِبِ النَّصَارِ ^(٢)، وحدائق الأشجار، وكواثر الأنهار، والعُربُ الأَبكار، إلى غير ذلك مما وعد به العزيز الغفار، ممَّا لَا يُتَّهَى له إلى حدٍّ، ويُشَارُ فيه إلى مقدار، وقد نَبَّهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على أحدِ الْمُعْنَيْنِ اللَّذَيْنِ ذكرناهما بقوله: ((فَإِنَّ الْمَنَايَا قَاطِعَاتُ الْأَمَالِ، وَاللَّيَالِي مُدْنِيَاتُ الْأَجَالِ)) المنايا جمع منية، والمنية هي فراق الروح للجسد بأيِّ وجه كان، قال بعض من يُوثَّقُ بلسانه:

دَعَتْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنِيَّةٌ تَكُونُ بِمِرْصَادِ الْفَتَى حَيْثُ يَمَّمَا
وقال الحريري وحقُّه في معرفة اللسان لا يُجْهَلُ:

فَالْمَنَايَا وَلَا الدَّنَايَا وَخَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْخَنَارُكُوبِ الْجِنَازَةِ
والقطعُ نقيضُ الوصل، والآمالُ جمعُ أمل وهو ما يُرجا وصولُه من الخير في المستقبل، وأصلُ الأملِ القصد، فلما كان الخيرُ المرجو يُقْصَدُ إليه سُمِّيَ أملاً، والليالي زوجات الأيام، وأولادُهما المصائب والأحداث، والمدنياتُ هي المقرِّبات، تقول: أدنى يدني، كما تقول: قَرَبَ يُقَرِّبُ، والآجُلُ هاهنا هي الأوقات لفراق الأرواح للأجساد، وفي العموم جميع أوقات الأمور المتوقَّعات.

وَالْمُعْنَى: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبَّهَ على ذكر المنايا وَأَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ الْأَمَلَ وَيُدْنِينَ الْأَجَلَ، وذلك ظاهرٌ، كم من أمل مقطوع قطعته المنايا، وأجل بعيد أدنته الليالي، فصار الأمل بعيداً قاصياً، والأجل قريباً دانياً، فأوشِكُ بموصولٍ عَصَّتْهُ شِفَاؤُ الْمَنِيَّةِ أَنْ يَنْقَطِعَ، وبعيدٌ جُعِلَتِ اللَّيَالِي له مَطِيَّةً أَنْ يَصِلَ، فالحازم - والحال هذه - من جعلَ الْأَمَلَ خَلْفَهُ، والأَجَلَ أَمَامَهُ، فحاذرَ لزامه، وأَجَالَ في مكاسب الخير سهامه، ففازَ بالسلامة، ونجا من الحسرة والندامة.

(١) أي لله وفي الله.

(٢) ذَهَبَ نَصَارُ أَيِّ خَالِصٍ، وَقَدَحُ نَصَارٍ، وَقَدَحُ نَصَارٍ، بالنعت والإضافة، أَي أُحِذَ مِنْ أَثْلِ وَرَبِيِّ اللَّوْنِ، تمت ضياء، هامش (أ).

قوله عليه السلام: وَإِنَّ الْمَرْءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ، يَوْمٌ قَدْ مَضَى أَحْصَى فِيهِ عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِيَ لَا يَذَرِي لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ.

المرءُ موضوعٌ في أصل اللُّغة للذكر، والمرأة للأُنثى، والألف واللام للجنس، وهما عندنا يفيدان العموم والاستغراق، وخصَّ الذكور هاهنا لأنَّ الإناث في حُكْم التابع وإن كان المراد الجميع، والأيام ثلاثة: يومٌ نحن فيه، ويومٌ خلفنا، ويومٌ أمامنا، فيومنا الذي نحن فيه بين يومين؛ الأمس ماضٍ ذاهبٌ، والغد معدوم، فبذهاب الماضي أحصي فيه العمل، وبعدم الباقي لم يمدد العاقل إليه الأمل.

والإحصاءُ والحصُّ والاستقصاءُ معناها واحدٌ وهو استيعاب الأمر حفظاً وتديراً، والمراد به هاهنا الحفظ، وقد قال تعالى حاكياً عن أهل النار نعوذ بالله تعالى من مثل حالهم: ﴿يَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

والختم: هو العلامة في الأصل، فلما كان إلصاق الكتاب بالشمع أو شِبْهِهِ عَلَمًا لِلْمَنْعِ مِنْ فُضْهِ وقراءته قيل فيه مختومٌ، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٤] معناه والله أعلم ثُلُصُقُ شِفَاهِهِمْ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فَلَا يستطيعون الكلام في تلك الحال.

ومعنى الختم في هذا الخبر أن يفصل بين عملٍ كُلِّ يومٍ وليلٍ، وليلٍ ويومٍ بعلامات حتى يقرر على عمل كل يوم وعمل كل ليلة على حدة، وهذا فزع عظيم، وخص الأيام بالذكر وإن كانت الليالي من أوقات التكليف، وقد تقع فيها الأعمال، لأنَّ أكثر أعمال الخير والشر تقع في الأيام دون الليالي.

وَيَوْمٌ قَدْ بَقِيَ لَا يَذَرِي لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ.

الباقي نقيض الماضي، و(لعل) من ألفاظ الترجي، والمترجى لا يُقَطَّعُ بوصولهِ. والوصولُ معروف وهو بلوغ الأمر المترجى.

فَالْمَعْنَى **وَذَلِكَ**: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبَّهَ عَلَى تَعَجِيلِ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ، إِذْ هِيَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَفَقْدُهَا سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ، لِأَنَّ يَوْمَنَا الْمَاضِيَ قَدْ خَتَمَ عَلَيْنَا عَمَلَنَا فِيهِ، وَيَوْمَنَا الْبَاقِيَ لَسْنَا عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْبُلُوغِ إِلَيْهِ، فَالْوَاجِبُ الْفَرْعُ فِي وَقْتِنَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، وَلَيْسَ فِي أَيْدِينَا عَلَى الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ لِإِبْطَالِ مَا تَقَدَّمَ فِي يَوْمِنَا الْمَاضِيَ بِالتَّوْبَةِ، وَالِاسْتِدْرَاكِ وَتَرْكِ التَّسْوِيفِ لِلْعَمَلِ فِي يَوْمِنَا الْآتِي الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يَخْتَرِمَنَا دُونَهُ الْحَمَامُ، وَيَهْجُمَ عَلَيْنَا الْهَلَاكُ، فَنَطْمَعُ فِي الْفَكَاكِ وَلَاتِ حِينَ فَكَاكِ، وَكَيْفَ وَقَدْ خَبَطْتَنَا -إِلَّا أَنْ يَرْحَمَنَا رَبَّنَا- الْحِبَالَةُ، فَاسْتَحْكَمْتُ عَلَيْنَا أَنَا شَيْطَانُ^(١) الشِّبَاكِ، فَيَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ - وَكَلْنَا ذَلِكَ الْمَغْرُورَ إِلَّا أَنْ تَدَارَكْنَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّنَا - مَا حَمَلَكَ عَلَى الْغَفْلَةِ وَأَنْتَ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ مِنَ الْمَهْلَةِ.

قوله عليه السلام: إِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَخُلُولِ رَمْسِهِ.

العبدُ قد تقدم الكلام فيه، وهو المذلل لربِّه بالعجز والحدوث. **والخروج** نقيض الدخول. **والنفسُ** هاهنا الروح، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٤] المراد أرواحكم والله أعلم، وهي تنفيذ في الأصل أشياء مختلفة، منها ذات الإنسان كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَاقٍ وَشَهِيدٌ﴾ [ق] سائق يسوقها لحسابها، وشاهد يشهد عليها بعملها، ومنها الدم كما قال شاعرهم:

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ السِّيُوفِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ السِّيُوفِ تَسِيلُ

ومنه قول أهل الشرع: ما لا نفس له سائلة، يريد: ما لا دم له سائل، والخروجُ نقيض الدخول. **والخلولُ** نقيض الرحيل وهو مأخوذ من حلَّ عقد الرِّحال عند النزول، فسُمي النازل حالاً لَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَحِلْ عُقْدَةُ رَحْلِ أَصْلًا، قَالَ أَعَشَى بَكْرٌ:

بِهِ تُنْقَضُ الْأَحْلَاسُ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَتُعَقَّدُ أَطْرَافُ الْحِبَالِ وَتُطْلَقُ

(١) جمع أنشوطَة، كأنبوثة، وهي عُقْدَةٌ يَسْهُلُ حَلُّهَا كَعُقْدَةِ التَّكَّةِ، تَمَتْ، هَامِش (أ) (القاموس المحيط ٦٩٠).

والرَّمْسُ هو القبرُ، وُسْمِي رَمْساً لأنَّ الميت يُرْمَسُ فيه، بمعنى يُغَيَّبُ ويُورَى كما يُرْمَسُ الإنسان في الماء، وهو محله إلى أن يصيح به صائح البعث، فيرحل منه إلى موقفٍ؛ إمَّا آمناً مسروراً، وإمَّا خائفاً مثبوراً.

قوله عليه السلام: يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ وَقَلَّةَ غِنَى مَا خَلَفَ.

الرؤية والإدراك والمشاهدة معناها واحدٌ. **والجزاء** في أصل اللغة هو العِوَضُ، والمراد به هاهنا الثواب؛ لأنَّه جعله في مقابلة ما أسلف العبد من الإنفاق، وقَدَّمَ بين يديه من الأرفاق، لوقت الحاجة والإملاق، عند التفاف الساق بالساق، وعدم الطبيب والرَّاق، فكم من فائز قبل حلول التهويز^(١)، ومُعْتَرٍّ بالتمني والتجويز.

ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ، متعلق بقوله: عند حُلُولِ رَمْسِهِ؛ يرى ذلك ويشاهده، و(عند) اسم الحال و(قبل) اسم الماضي و(بعد) اسم المستقبل، وهذا دليلٌ واضحٌ على عذاب القبر، فلا وجه لإنكار ذلك إلَّا بمخالفة الدليل، وتَنَكُّبِ السبيل، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ في حديثٍ فيه بعض الطول أن الميت يُعاد إليه روحه، ويقعد في قبره، ويبعث الله تعالى إليه ملكين صفتها كذا وكذا هو لا عظيماً، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما كنت تعمل؟ فإن فارق الدنيا مؤمناً قال: ربي الله، وديني الإسلام، وكنت أعبد الله تعالى لا أشرك به شيئاً، فيقولان أحسنت يا ولي الله، ثم يفتحان له باباً إلى النار فيَصُدُّ عنها، فيقولان لو أتيت على غير ما أتيت لكان إلى هذه مصيرك، ثم يفتحان له باباً إلى الجنة فيَهْشُ إليها، فيقولان: أما إذا أتيت على ما أتيت فإلى هذه مصيرك، ثم يقولان له: تَمَّ نومة العروس غير المؤرَّق، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: فوالذي نفس محمد بيده إنَّه ليصل إلى قلبه فرحة لا تترد أبداً، وإن فارق الدنيا فاسقاً قالوا له مثل ما تقدم، فيقول: لا أدري، فيقولان: لا دريت يا عدو الله ولا تليت، ثم يضربانه ضربة تتطايرُ شرراً في قبره، ثم يعيده الله تعالى ويفتحان له باباً إلى الجنة فيَهْشُ إليها، فيضربانه ويقولان: أما لو أتيت على غير ما أتيت لكان إلى هذه مصيرك، ثم يفتحان له باباً إلى النار فيَصُدُّ عنها،

(١) التَّهْوِيزُ: المَوْتُ، قال في القاموس المحيط (٥٢٩): هَوَزَ تَهْوِيزاً: مات.

فيضربانه ويقولان: أما إذا أتيت على ما أتيت فلإن هذه مصيرك، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: فوالذي نفس محمد بيده إنَّه ليصل إلى قلبه حسرة لا تترد أبداً. فهذا وجه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: يرى جزاء ما أسلف. والإسلاف والإسلام معناها واحد، ومنه قيل: سَلَفٌ، للقرض مطلقاً، وسَلَمٌ، للقرض على وجه مخصوص وهو البيع الجاري مجراه، والغنى هو النفع الذي ترتفع به الحاجة، والتخليف هو ترك الشيء خلف ظهره، وهو مأخوذ من الخلف، وهو نقيض التقديم.

والمعنى في ذلك: أنه ينظر إلى جزائه في قبره على ما أسلف بين يديه إن كان أسلفه، وقلة نفع ما خلَّف خلف ظهره إن كان خلفه، فالْمُخَلَّفُ على التحقيق حسابٌ وعناءٌ، والمقدم على التحقيق ثوابٌ وعناءٌ، والتقديم أصلح الأمرين، وأنفع الدُّخَرَيْنِ.

قوله عليه السلام: وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمْعُهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعُهُ.

لأن أحوال الناس تختلف، فلذلك ضَجَّعَ^(١) القول فيه، والباطل هو المذهب الهالك الذي لا حقيقة له. والحق هو الواجب اللازم الذي لا شك فيه. والمنعُ نقيض الإعطاء.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أن الحق على من جمع المال من الباطل ومنع الحق فيه وهو تسليمه إلى مستحقه يكون أوضح وجوباً وأعظم حُوباً، فإما جامع المال من الباطل، لمن تجمعه في دار النفاق والزوال؟! أَلِنَفْسِكَ!! فقد علمت وَشَكَ الرِّحِيلَ، وسرعة الانتقال، أم لولدك!! فما تنفعك لَدُّهُ وَأَنْتَ فِي أنواع النكال، وجوامع الأغلال، ويا مانع الحق لِمَ منعتَه؟! أَجِهَلْتَ أَنَّ الحق الذي عليك هو حَقُّكَ مِنْ مَالِكَ عِنْدَ حُلُولِ ارْتِحَالِكَ، فإما أبخل البخلاء؛ لأنك بخلتَ على نفسك بما يُؤْنَسُكَ مِنْ وحشة هول المَطَّلَعِ عِنْدَ حُلُولِ رَمْسِكَ؛ بماذا تعتذر إلى ربك، وتتنصَّلُ من عظيم ذنبك؟!.

(١) أي ضَعَّفَ ولم يبالغ ولم يجزم فيه، وهو الإتيان بلفظة (لَعَلَّهُ).

الحديث الثاني عشر

عَنِ^(١) ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ، لَنْ يَعْدُوا أَمْرُهُ مَا كُتِبَ لَهُ؛ فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَإِنَّ الْعُمَرَ مُحْدُودٌ لَنْ يَتَجَاوَزَ أَحَدٌ مَا قُدِّرَ لَهُ؛ فَبَادِرُوا قَبْلَ نَفَادِ الْأَجَلِ، وَالْأَعْمَالَ مُحْصِيَةً - (قال السيد: الوجه مُحْصَاةٌ) - لَنْ يُهْمَلَ مِنْهَا صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ، فَأَكْثَرُوا مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ فِي الثَّنُوعِ لَسَعَةً، وَإِنَّ فِي الْاِقْتِصَادِ لَبُلْعَةً، وَإِنَّ فِي الزُّهْدِ لِرَاحَةً، وَلِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءٌ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ))^(٢).

[الرزق والقسمة، والحكمة من التفضيل في الرزق]

الرزق هو ما أمدَّ الله تعالى به عباده ممَّا لهم تناوله، وليس لأحدٍ منعهم منه على الإطلاق، وقد يكون خاصًّا في أنواع الأموال؛ لأنه في الأصل وضع لذلك، وقد يُستعار للولد فيقال: فلانٌ رُزِقَ مالاً وولداً. **والقسمة** التفرُّيق على الوجه الذي يُطابق الحكمة، ولا يُعتبر فيه المساواة كما ذهب إليه بعضُ جُهَّال الشيعة^(٣)؛ لأنَّا نعلم أن قسمته تعالى في الموارث عادلة، لا ينكر عدله في ذلك أحدٌ من المسلمين، وقد تختلف اختلافًا لا تحتل العقول معرفة علله في زيادته ونقصانه، بل لا يعاد في ذلك إلا إلى اختياره، وتسليم الأمر له جملة، وأنه لا يفعل إلا الحكمة، وذلك في مثل تسويته تعالى تارة بين الأب والأم، وتارة فضَّل الأب، وعند بعض أهل العلم فضَّل الأم، وتارة فضل أولاد الأب والأم على أولاد

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري قال حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن

شريك قال حدثنا ابن أبي مريم عن ابن فروخ عن أسامة عن عكرمة عن ابن عباس... الحديث.

(٢) روى نحوه الطبراني في الكبير (١٦٦/٨) رقم (٧٦٩٤) وفي الأوسط، ورواه البزار في مسنده (٣١٤/٧)

رقم (٢٩١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١٨٥/٢) رقم (١١٥١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧٩/٧)

رقم (٣٤٣٣٢) والبغوي في السنة (٣٠٤/١٤) رقم (٤١١١) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧/١٠).

(٣) هم المطرية حيث ذكر ذلك الإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة ص ٢٧١.

الأم، وتارة أعطى أولاد الأم كما اختاره علي عليه السلام، وحرّم أولاد الأب والأم^(١).

ومن طلب تعليل هذا بغير اختياره تعالى وحكمته لحق بالقرامطة، وتاه في ميدان الضلال، ويكفيك في هذا قول الله سبحانه: ﴿كَلَّا تُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء] ﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ أراد سبحانه المؤمنين والكفار، والأخيار والأشرار، ولا وجه للآية يُعقل إلا هذا، ثم يَنّ تعالى كيفية الإعطاء، فقال سبحانه: ﴿نَظَرُ كَيْفٍ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء] فصّرّح بالمفاضلة بين عبادته بالإمداد، وحثّ على النظر إلى ذلك بعين الفكر والإرشاد، وقال تعالى شافعاً لما ذكرنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء] خبيراً بما يصلحهم من ذلك، بصيراً بعواقب أعمالهم ومبالغ آجالهم.

وقال تعالى في الدلالة على أنه الرازق لأهل المعاصي من عباده - فقد خالف فيه من خالف في المفاضلة مخاطباً للمشرّكين خاصة، ولا معصية أكبر من الشرك بالله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] فصّرّح سبحانه بأنّه الرازق لهم، وإن كانوا قد أضافوا إلى الشرك خطأً كبيراً هو قتل أولادهم، فلم يمنع ذلك من رزقهم في دار الدنيا، ولا يتحقق التكليف ما لم يكن تعالى مُنْعِماً عليهم، فانظر إلى هذه المقالة كيف تؤدّي إلى سقوط التكليف بوجوب شكر الباري تعالى عن أكثر العباد، وأين الناظرون.

وقال تعالى في الدلالة على التفضيل في الرزق: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادٍّ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل].

فقد تبين لك صحة ما ذهبنا إليه من أنّ القسمة بعدلٍ، وإن وقعت فيها المفاضلة؛ لأنها تقع مطابقة لما يعلم الله تعالى من المصلحة وإن كانت متفاضلة كما صرح تعالى بذلك تصريحاً لمجال

(١) وذلك عندما يكون الورثة هم: زوج وأم وإخوة لأُم وأخ شقيق أو أكثر. وتسمى المسألة الحجرية، والمنبرية، والحماوية.

للتأويل فيه، ثم بين عجزنا عن رزق أنفسنا بأننا لا نقدر على ردِّ ما رزقنا على مَلِكٍ أيا لنا بوجهٍ من الوجوه مع بقاء المَلِكِ؛ لأنَّ ما صار في أيديهم فهو مالنا دونهم، ولا يمكننا الخروج عنه لهم مع بقاء ملكهم لنا، مع أنه يمكننا إخراجهم وتحريرهم عن رِقْنِا بعتقهم وتمليكهم ما شئنا من أموالنا، ومثل هذا التقدير مستحيلٌ فينا؛ لأنه لا يمكننا تحرير أنفسنا عن ملكه لنا أصلاً، بل ذلك مستحيلٌ فينا، كما أنه جائزٌ ممَّا في ممالكنا الذي مَلَكْنَا مِنَّةً مِنْهُ تعالى علينا، فلا يمكننا أن نُملِكهم شيئاً من رزقنا مع بقاء رِقْنِا، فأما نفقتهم وكسوتهم فهي من قِبَلِهِ تعالى واجبة لهم عندنا، وما عدا ذلك لا يمكننا إيصاله إليهم حتى يكون رزقاً لهم، فكيف يمكننا أن نرزق أنفسنا، أو نجحد رزق ربنا ومفاضلته بيننا، وقد صرَّح بذلك في القرآن المجيد، فمخالفته ضلالٌ بعيد، وزيفٌ شديد، وما الملجئُ إلى ذلك، وقد روينا عن جابر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ قال: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَلَا تَسْتَطِيعُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرَّمَ)).

[من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في الرزق]

وقد صرَّح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بمقالتنا هذه في الشر تارة، وفي النظم أخرى بما لا يتسع الكتاب لإحصائه، وإنما نذكر منه طرفاً كافياً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.

من ذلك ما روي عنه في كتاب نهج البلاغة من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَقَسَمَ الْأَرْزَاقَ فَقَلَّلَهَا وَكَثَّرَهَا، وَقَسَمَهَا عَلَى الضُّبِقِ وَالسَّعَةِ وَعَدَلَ فِيهَا، وَامْتَحَنَ مَنْ أَرَادَ فِي ذَلِكَ بِمِيسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَأَرَادَ بِذَلِكَ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ مِنْ غِنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا، وَقَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ^(١) فَاقْتَهَا، وَبَفَرْجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا) في كلام طويل^(٢)، فإذا تأملتَ مقالتنا علمتَ أننا اغترفنا من ذلك القَلِيبِ، وضرَبنا في عِلْمِ آبائنا بِأَوْفَرِ نصيب، ورويَنا عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في النظم أنه قال:

(١) الْعَقَابِيلُ جَمْعُ عُقْبُولَةٍ وهي بقايا المرض، تمت ضياء، هامش (أ) وقال في القاموس: الْعَقَابِيلُ: بَقَايَا الْعِلَّةِ، وَمَا يُخْرُجُ عَلَى الشَّفَةِ غَبَّ الْحُمَى، ... وَاحِدَةُ الْكُلِّ: عُقْبُولَةٌ وَعُقْبُولٌ، هـ. (القاموس المحيط: ١٠٣٥).

(٢) هي الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح، و.

إِذَا يَفْضِي لَكَ الرَّحْمَنُ رِزْقًا يَعُدُّ لِرِزْقِهِ الْمَفْضِيَّ بَابًا
وَأَنْ يَحْرِمَكَ لَا تَسْطِغْ بِحَوْلٍ وَلَا رَأْيِ الرَّجَالِ لَهُ أَكْتِسَابًا
فَأَقْصِرْ فِي خُطَاكَ فَلَسْتَ تَعْدُو بِحِيلَتِكَ الْقَضَاءَ وَلَا الْكِتَابَ

وهذا تصريح بما ذهبنا إليه في القسمة، وأنها من الله تعالى، وأنه عادل في المفاضلة فيها، وأن حِرْصَ الحريص لا يُغني عنه شيئاً.

يقال عدا الأمر إذا تجاوزته، وحقيقة الكتاب لغة أن يكتب السلطان لكل رجل قطاً^(١) بما يعطيه من رزقه، فلَمَّا قَسَطَ سبحانه لكل إنسان، بل لكل دابة، ما يتعلق بإصلاحها من رزقه السامع، ومنه البالغ، وقَطَطَ ذلك في اللوح المحفوظ؛ أخبر بذلك سبحانه على لسان نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خبراً صادقاً، مؤذناً بأن الرزق قد فُرع منه، وأن أحداً لا يتجاوز المكتوب له في الذكر الحكيم.

والإجمال نقيض الإلحاف، وهو التخفيف في السؤال، والميل إلى التعريض في المقال، وترك الكد الذي يؤدي إلى ترك شيء من المفروضات، أو نبذ شيء من المشروعات. والطلب معروف وهو البحث عن الشيء المراد والتعرض له، ومعناه هاهنا عائد إلى الرزق لأنه المعهود.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ الْعُمَرَ مَحْدُودٌ، لَنْ يَتَجَاوَزَ أَحَدٌ مَا قَدَّرَ لَهُ، فَبَادِرُوا قَبْلَ نَفَادِ الْأَجَلِ.

العُمر مُدَّةُ حياة الإنسان، وقد يكون مطلقاً، وقد يكون مشروطاً. والمحدود: الذي يضرب له أوقات معلومة يمنع من تجاوزها، يقال: حدّه، إذا منعه، وأصل الحدّ المنع، ومن ذلك تسميتهم البواب حدّاداً قال الفرزدق:

يَقُولُ لِي الْحَدَّادُ وَهُوَ يَقُودُنِي إِلَى السَّجْنِ: لَا تَجْزَعْ فَمَا بِكَ مِنْ بَأْسٍ

و(لَنْ) إذا أطلق أفاد نفي الأبد. والتجاوز: هو تعدي الحدود المضروبة. وأحد تحقيق واحد، فهو أبلغ منه في الأفراد. والتقدير هو إيقاع الشيء مرتباً ترتيباً يطابق الحكمة. ومعنى المبادرة

(١) القط: النَّصِيبُ، وأصله الصَّحِيفَةُ لِلْإِنْسَانِ بِصَلَةٍ يُوصَلُ بِهَا، قَالَ: وَأَصْلُ الْقِطِّ مِنْ قَطَطْتُ، ا.هـ. (لسان/٧/٣٨٢).

والمسارعة واحدٌ. وقبل نقيض بعد. والنفاذ: هو التقضي والزوال. والأجل: هو الوقت المضروب نهايةً للعمر.

والمعنى في ذلك: أنه عليه السلام أخبر بأن العمر محدودٌ، حدّده مالكة على وجوه علم حسنها من تطويل وتقصير على قدر مقدور، وأنّ أحداً لا يمكنه تجاوز ما قُدِّرَ له منها، وعلينا له حقوق مؤقتة، وحياتنا آجال مضرّوبة، فإنّ ضيعنا ما فرض علينا في أعمارنا التي وهبها لنا لم نتمكن من الزيادة عليها، ومجازة آجالنا لاستدراك ما فاتنا، وضاع علينا من أعمالنا بتسويقنا وآمالنا، وكيف يسوغ ذلك لنا والأعمار محدودة، والآجال مضرّوبة، وتجاوزها مستحيل، وليس إلى ردّ القضاء سبيل، فهل ترى للغفلة وجهاً! أو للتقصير سبباً! فالتشمير شأن أهل التدبير.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في كتاب نهج البلاغة في الآجال: (وَقَسَمَ الْآجَالَ فَطَوَّهَاقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَجَعَلَ الْمَوْتَ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعاً لِمَرَاثِرِ أَقْرَانِهَا^(١)) صرّح عليه السلام بأنّ تطويل الآجال وتقصيرها، وتقديمها وتأخيرها إلى الله سبحانه دون عباده، ولا يمكنهم تطويل ما قصّر، ولا تقصير ما طوّل، ولا تأخير ما قدّم، ولا تقديم ما أخر.

قوله عليه السلام: وَالْأَعْمَالُ مَخْصِيَّةٌ، هكذا سمعناه، ووجهه مُخَصَّاةٌ كما ذكره السيد الشريف - لَنْ يَهْمَلَ مِنْهَا صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ، فَكَثِّرُوا مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ.

المراد بالأعمال هاهنا أعمالُ العباد، وهي أعمال الجوارح والقلوب التي يحصيها عليهم علّامُ الغيوب، وقد تقدّم معنى الإحصاء وهو تعميمها بالكتابة والحفظ. والإهمال أصله في الإبل تُترك سدى، لا تُرعى. والصغيرة: ما يكون عقاب صاحبها في كل وقت أقلّ من ثوابه في كل وقت، وأعداد كبائر المعاصي كثيرة لا ينحصر أعيانها، ولا نعلم من الطاعات كبيرة إلا التوبة، وباقيها مع الذنوب في حكم الصغائر، فإذا تفكرت في هذا أكسبك خوفاً شديداً.

(١) خَالِجاً: جاذباً ومُتَرِّعاً. والأشطان: الحبال، ومفردهما: شَطَنٌ. وَالْمَرَاثِرُ: الحبالُ الْمَفْتُولَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ طَائِقٍ، واحداً: مَرِيٌّ وَمَرِيرَةٌ. وَالْأَقْرَانُ جَمْعُ قَرْنٍ: وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُقَرَّنُ بِهِ الْبَعِيرَانِ أَوِ الْأَسِيرَانِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْبَعِيرِ الْمَقْرُونُ بِآخَرٍ، ا.هـ. قاموس، وهي أيضاً من الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح.

والإكثار: نقيض الإقلال. وصالحُ العمل: ما سَلِمَ في باطنه وظاهره من الفساد، وذلك لا يكون إلا فيما تجرّدت النية فيه لله تعالى، وكان خالصاً لوجهه، لا يشوبه شيءٌ من الرياء والسمعة والقصود الفاسدة.

والمُعْتَنَى: إذا كانت هذه القصة وكانت الأعمال مُحْصاة علينا بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذا، ويقول الله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٢﴾ [القمر] أي مكتوب محفوظ، وإنّما أمر عَلَيْهِ السَّلَامُ بإكثار الصالح من العمل؛ لأنَّ الصغير والكبير غير مهممل ولا ساقط الحكم رأساً، وعند كثرة العمل الصالح يصير العمل الطالح مصروفَ الحكم بحكم الزيادة، وقد يكون العمل صغيراً باعتبارٍ، وقد يكون كبيراً باعتبارٍ، بسبب اختلاف أحوال العاملين في الأعمال، وفي هذا دليلٌ على الموازنة، وأنَّ الصغير من أعمال الخير نافع، والصغير من أعمال الشرِّ ضارٌّ، فليشتغل قلب المكلف العاقل بمراعاة الأفعال والتحفظ في الأعمال.

واعلم أنَّ التوبة أجلُّ أعمال الخير، وأكثرها نفعاً، وهي مأثورة عن الأنبياء عليهم السلام والأئمة الصالحين رضي الله عنهم، وهي تقع عن الذنب المعلوم المُعَيَّنِ مُعَيَّنَةً، وعن الذنب المجهول على الجملة مُجْمَلَةً، وإنما كانت حالها عظيمة لأنَّ بها يتحقق تعظيم المخلوق للمخالق سبحانه وإجلاله؛ لأنها تتضمن تحرّي رضاه، والتوصل من سخطه، فمن لزمها في أكثر الأوقات فقد وُفِّق وفاز، وعلى ذلك يحمل ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((يُغْفَرُ لِلْعَالَمِ أَرْبَعِينَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْجَاهِلِ ذَنْبًا وَاحِدًا)) لأنَّ العالم يعرف أحكام أفعاله، ويعرف ما في التوبة من النفع فلا يغفل عنها، والجاهل ربما جهل ذلك، وأقلُّ ما يوقعها الحازم المحترس في أول يومه لما مضى في ليله وفي أول ليله لما مضى في يومه، فلا يُمَسِّي إلا تائباً ولا يُصْبِح إلا تائباً، فحينئذ تنمو الأفعال وتتناهى في الزيادة والرجحان.

قوله عليه السلام: إِنَّ فِي الْقُنُوعِ لَسَعَةً، وَإِنَّ فِي الْإِقْتِسَادِ لِبَلْغَةً، وَإِنَّ فِي الزَّهْدِ لَرَّاحَةً.

القنوع: من أسماء الأضداد، وقد يكون اسماً للسائل المُلْحِّ، وقد يكون للمتعفف، والمراد هاهنا العفة. **والسَّعة** نقيض الضيق. **والإقتصاد** هو الاكتفاء بالقليل عن الكثير، وحسن الترفيح^(١) والتدبير. **والبُلْغَةُ** ما يوصلك من الشيء إلى الشيء بغير زيادة، لأن أصل البلاغ الإيصال. **والزهْدُ** هو ترك أكثر الحلال خيفة من مشقة الحساب، ومواقعة العذاب، وأصل الزهد القلة، يقول قائلهم: أزهدتُ بمعنى أَقَلَلْتُ، والزهد القليل، فكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: في القليل راحة من همِّ جمعه، وهمِّ فراقه، ومشقة حسابه. **والراحة** نقيض التعب.

والمعنى في ذلك: أن من قنع بالقليل في هذه الدنيا أفضى به القُنُوع إلى السعة في الأخرى، وقد قال بعض الصالحين: إن طلبت من الدنيا ما يكفيك فأقل الأشياء منها يكفيك، وإن طلبت فوق ما يكفيك فكل ما فيها لا يكفيك، فأشار إلى أن طالب الكثير لا ينتهي إلى غاية؛ لأنَّ الاحتواء على جميع ما في الدنيا مستحيل، ومحمله - لو اتفق - ثقيل، ومرعاه وييل^(٢)، ومتاع الغرور فيه قليل، وليس إلى نيل الخلود سبيل.

هذا وَمَنْ لِلْمُخِفِّ بِاللِّحَاقِ إِذَا أُرْسِلَتْ خَيْلُ السِّبَاقِ، وَأَلْصَقَ الْقَطِيعَ^(٣) بِالسَّاقِ، وَكَانَ إِلَى الْحَكَمِ الْعَادِلِ الْمَسَاقِ، فَكَمْ مِنْ مُجَلَّدٍ^(٤) مَقْطُوعِ الْأَبَاهِرِ، وَكَمْ مِنْ جَلْدٍ لِلْخَدِّ عَاثِرٍ، وَكَمْ مِنْ

(١) التَّرْفِيقُ والتَّرَفُّعُ: إصلاح المعيشة. (لسان العرب ٢ / ٤٥١).

(٢) الرِّبِيلُ: الَّذِي لَا يُسْتَمَرُّ. وَمَاءٌ وَبَيْلٌ وَوَبِيءٌ: وَخِيمٌ إِذَا كَانَ غَيْرَ مَرِيءٍ. (لسان العرب ١١ / ٧٢٠).

(٣) الْقَطِيعُ: السَّوْطُ، قَالَ نَشَوَانٌ فِي مَعْجَمِهِ شَمْسُ الْعُلُومِ وَدَوَاءُ كَلَامِ الْعَرَبِ مِنَ الْكُلُومِ (٨ / ٥٥٤٨) مُسْتَشْهِدًا: قَالَ الْكَمِيتُ:

فَقُلْ لِيَبْسِي أُمِّيَّةٌ حَيْثُ كَانَتْ وَإِنْ خِفْتُ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا
أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مَنْ يَجُورُكُمْ أَجِيعَا

(٤) كتب عليها في الأصل: أَي مَتَيْنِ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الْجَلْدِ الَّذِي هُوَ الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ، وَرَجُلٌ جَلْدٌ: أَي قَوِيٌّ فِي نَفْسِهِ وَجَسَدِهِ، (انظر لسان العرب ٣ / ١٢٥).

موفقٌ فاز بِقِدْحِ القَائمِ وَجَدَ^(١) الوَترَ، فَمِنَ أُنْهَتِهِ القِنَاعَةُ إِلَى السَّعَةِ فَازَ، وَمِنَ أُنْهَتِهِ الرَّغْبَةُ إِلَى الضَّيْقِ عَطَبَ، وَالْاِكْتِفَاءُ بِالْقِيلِ - الَّذِي هُوَ الْإِقْتِصَادُ - فِيهِ بَلَاغٌ لِلْمُقْتَصِدِينَ إِلَى مَرَاتِبِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَدَرَجِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ.

وَالْإِقْتِصَادُ هُوَ أَصْلٌ قَوِيٌّ مِنْ أَصُولِ السَّلَامَةِ، إِذْ تَتَعَلَّقُ بِهِ النِّجَاةُ مِنَ الْعَطَبِ، وَالتَّخْلُصُ مِنَ الْأَشْبِ، لِأَنَّ الْمُتَوَسِّعِينَ فِي الدُّنْيَا رُبَّمَا أَفْضَتْ بِهِمُ السَّعَةُ إِلَى ضَيْقِ الْحِسَابِ، وَوَرُطَةِ الْعِقَابِ، وَمَا تَطْلُبُ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ بَعْدَ الْبَلَاغِ، وَالنِّجَاةُ فِي دِينِكَ مِنَ الْإِبْتَاغِ^(٢) إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُتَفَكِّرِينَ.

[الزهد]

فَأَمَّا الزَّهْدُ فَهُوَ تَاجُ الْإِسْلَامِ وَعَنْوَانُ السَّلَامَةِ، وَبِهِ يَنْجُو الْعِبَادُ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ، وَالْمَحْرُومِ مِنْ حُرْمِهِ، وَالْمَرْزُوقِ مِنْ رُزْقِهِ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَصَّتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَفَاضَلَ فِيهِ الصَّالِحُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَجُعِلَ شَرْطًا فِي الْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ خَلَافَةُ النَّبِيِّ، فَانْظُرْ إِلَى خَطَرِهِ مَا أَكْبَرَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ رَاحَةً كَمَا ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ الشَّرِيفِ؛ لِأَنَّ الزَّاهِدَ بِالزَّهْدِ غَنِيٌّ؛ فَهُوَ فِي رَاحَةِ الْغِنَى لَا بُدَّ طَوِيلَ عَمْرِهِ، وَالرَّاهِبَ بِالرَّغْبَةِ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا رَغِبَ فِيهِ؛ فَهُوَ فِي ذُلِّ الْفَقْرِ وَضَيْقِهِ سَادِكٌ^(٣) طَوِيلَ دَهْرِهِ، وَفِي ذَلِكَ رَوَيْنَا عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ لِلَّهِ خَوَاصًّا يُسْكِنُهُمُ الرَّفِيعَ مِنَ الْجَنَانِ، كَانُوا أَعْقَلَ النَّاسِ)) قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ كَانُوا أَعْقَلَ النَّاسِ؟ قَالَ: ((كَانَتْ نَهْمَتُهُمُ الْمُسَابَقَةُ إِلَى رَبِّهِمْ، وَالْمُسَارَعَةُ إِلَى مَا يُرْضِيهِ، وَزَهْدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفُضُولُهَا وَرِيَاسَتُهَا وَنَعِيمُهَا، وَهَانَتْ عَلَيْهِمْ فَصَبَرُوا قَلِيلًا وَاسْتَرَاحُوا طَوِيلًا)).

(١) الْجَدُّ: الْحِطُّ وَالسَّعَادَةُ وَالْغِنَى. (النهاية: ١/ ٢٤٤)، وَالْوَاتِرُ: لَعْلُهُ الْمُوتَرُ قَوْسُهُ.

(٢) الْإِبْتَاغُ: الْهَلَاكُ، قَالَ فِي الْقَامُوسِ: بَاغَ يَبِغُ: هَلَكَ (القاموس المحيط: ٧٨٠)

(٣) سَادِكٌ: أَيُّ مُلَازِمٌ، قَالَ فِي الْقَامُوسِ: سَدِكَ بِهِ، كَفَرِحَ، سَدَكَأَ وَسَدَكَأَ: لَزِمَهُ. (القاموس المحيط: ٩٤٢)

وَالسَّيِّدُ، كَكَيْفٍ: الْمُؤَلَّغُ بِالشَّيْءِ.

قوله عليه السلام: وَلِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءٌ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ.

(كُلُّ) من ألفاظ العموم؛ لأنه يقابل بالبعض، فلولا أنه يَعُمُّ لما جاز ذلك فيه. والعمل هو عمل القلب والجوارح، وهذه اللفظة تؤيد القول بالموازنة. والجزاء هو ما يُكَافَأُ به العبد في مقابلة عمله، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٨) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى (٩) ثُمَّ يُجْزَىهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (١٠) [النجم].

والآتي نقيض الماضي. والقريبُ نقيض البعيد.

والمعنى في ذلك: أن العبد إذا علم بخبر الصادق الذي لا يجوز عليه الكذب في خبره وكلامه أنه يجازى على قليل عمله وكثيره، وكبيره وصغيره؛ كان ذلك لطفاً له في الاستكثار من الطاعات، والاحتراز من المقبّحات، وإذا علم أن الوعد والوعيد صادقان، وأنها آتيان، والآتي قريب كما قال عليه السلام، وكما يشترك في العلم به الخاصة والعامة، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَمَا إِنَّ الْبَعِيدَ لَمَّا مَضَى - وَإِنَّ الَّذِي يَأْتِي غَدًا لَقَرِيبُ

فإذا كان ذلك كذلك، وعلم أن الأمر في الوعيد عظيم، وأن الخطب في الموعد جسيم، وخاف أحدهما، ورجا الآخر كان أقرب إلى الاجتهاد في تحصيل ما رجا، والاجتهاد في الاحتراز مما خاف، فنسأل الله تعالى اجتهاداً نافعاً، وخوفاً دافعاً، والصلاة على النبي وآله.

الحديث الثالث عشر

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذِكْرِ نَسَبِهِ وَصَفَتِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ أَوْ مَوَاعِظِهِ: ((أَمَّا رَأَيْتَ^(٢) الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغَرَّةِ، وَالْمُرْعَجِينَ بَعْدَ الظَّمَأُنِينَةِ، الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَجَنَحُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ، حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَلَا مَا كَانُوا أَمَلُوا أَدْرَكُوا، وَلَا إِلَى مَا فَاتَهُمْ رَجَعُوا، قَدِمُوا عَلَى مَا عَمِلُوا، وَنَدِمُوا عَلَى مَا خَلَفُوا، وَلَنْ يُغْنِيَ التَّدَمُّ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا قَدَّمَ خَيْرًا، وَأَنْفَقَ قَصْدًا، وَقَالَ صِدْقًا، وَمَلَكَ دَوَاعِيَ شَهْوَتِهِ وَلَمْ تَمْلِكْهُ، وَعَصَى أَمْرَ نَفْسِهِ فَلَمْ تُهْلِكْهُ)).

قد تقدّم الكلام في معنى الخطبة، ولا بُدَّ من التّحميد في أولها. والموعظة: هي التذكير بآلاء الله تعالى وبلائه، والتخويف من عقابه، والترغيب في عطاءه وثوابه.

قوله عليه السلام: أَمَّا رَأَيْتَ الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغَرَّةِ.

الرُّؤْيَا معروفة وهي تكون بمعنى العلم، وأصلها المشاهدة. والمأخوذ: هو المبطوش به. والغرة أن يبعث الإنسان الأمر وهو على غير أهبة ولا استعداد، يقال جاءهم الأمر فجأة على غرة، ومن ذلك حديث بني المصطلق، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ غزاهم وهم غارون، فواقعهم على الماء فاجتاح الأموال، وسبى الذرية، واصطفى جويرية في قصة طويلة^(٣)، فعُلّق بهذا الخبر من الحكم جواز الغارة والغزو من دون تجديد الدعوة إذا كانت قد بلغت.

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو العباس المعمرى قال حدثنا أبو خليفة الفضل بن حباب قال حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا جرير بن خازم قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك... الحديث.

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: أما رأيتم.

(٣) أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وسلم بعد أن سببت في غزوة بني المصطلق، حيث وقعت في سبي ثابت بن قيس بن شماس فكابتها، وجاءت تستعين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ في كتابتها، فقال لها: ((أَوْخَيْرِي مِنْ ذَلِكَ؛ أَوْدِي عَنْكِ وَأَتَزَوَّجُكَ))، قالت: نعم، فأدى عنها كتابتها وتزوجها، وخرج الخبر بذلك إلى المسلمين فأطلقوا ما كان بأيديهم من السبي، وقالوا: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، توفيت في سنة ٥٦ هـ.

والمعنى في ذلك: التخويف من عاقبة الاغترار ببطشات الجبار، وهي من جملة نعمه عند ذوي العقول؛ لأن من أخافك حتى يوقعك في الأمن أنصح لك ممن أمتك حتى يوقعك في الخوف، وقد رأينا المأخوذِين على الغرة، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ به غيره، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا بغيرنا متعطين، ولا يجعلنا بأنفسنا لغيرنا واعطين، وأي عذر لنا في الاغترار وقد وعظنا بغيرنا إن كنا متعطين، ودكّرنا بالقوارع إن كنا متذكرين، فكم من مأخوذٍ على غرّة ونحن ناظرون، لم ينفعه المال والبنون، ولا دفعت عنه عشيرته الأقربون، بل حملوه ثقل أوزاره، وأزعجوه عن داره وقراره، في ثياب يسيرة، وزانة حقيرة، ودلّوه في أضيق حفيرة، فصبوا عليه التراب، وأسلموه للعذاب، فأبى واعظة أبلغ من هذه وأنجع^(١)، وآلم للقلوب وأوجع، وأهدى للمتعطين وأنفع، فيا أيها المغرور؛ أما رأيت المأخوذِين على الغرّة فكرهت سنّة الاغترار، وأخلدت إلى طاعة العزيز الجبار، فالتزمت بِعُراها^(٢) المتينة، وجعلتها لك في لجج بحار الضلال سفينة.

قوله عليه السلام: وَالْمُرْعَجِينَ بَعْدَ الطَّمَأْنِينَةِ.

الإزعاج هو الإخراج عن الأمر المسكون إليه بعنف وشدة، لا يكون إزعاجاً حتى يكون كذلك. **والطمأنينة** هو السكون والدعة، يقال اطمأن إلى هذا الأمر، أي سكن إليه. وقد رأينا المزعجين بعد الاطمئنان بالسماح والعيان، فما تطلب بعد ذلك من بيان؟ إن تفكرت في ملوك الإسلام فانظر إلى أُميّة الطاغية، وفتنها الباغية، وعزتها العالية، ونخوتها السامية، وسطوتها العاتية، فهل ترى لها من باقية؟! دهمتها الداهية النَّاد^(٣)، فألحقها بظالمي قوم عاد، بعد أن طغت في البلاد، وأكثرت فيها الفساد، ووثرّت المهاد، وثنت الوساد، وملكت النَّجَادَ والوهاد^(٤)، حتى كان يُحطَب لواحدهم كل يوم جمعة على ثمانين ألف منبر على رؤوس الأشهاد،

(١) أنجع: أي أُنْفَعُ وَأَبْلَغُ، قال في القاموس المحيط: أنجع الوَعظُ والخطابُ فيه: دَخَلَ فَأَثَرَ. ا.هـ.

(٢) العُرى: جُمع عُروَة، والعُروَة مَعْرُوفَةٌ؛ منها: عُروَةُ الدَّلْوِ والكوزِ ونحوه: مَقْبُضُهُ. وعُرى المَزَادَة: آذَانُهَا. وعُروَةُ القَمِيصِ: مَدْخَلُ زِرِّهِ. ا.هـ. قاموس.

(٣) النَّاد: على فَعَالٍ مَفْتُوحٍ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ، هِيَ الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ، هامش الأصل. (وانظر اللسان ٣/ ٤١٣).

(٤) النَّجَاد: جُمع نَجْدٌ: وهو مَا اُزْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْوَهَاد: جُمع وَهْدَةٌ: وَهْي مَا انْخَفَصَ مِنَ الْأَرْضِ، ا.هـ. قاموس.

فأي طمأنينة أعظم من هذا، فأحدث الله بعد أمرٍ أمراً، فأصبح المُهَنَّى بهم مُعَزَّى، فهل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً؟^(١) فإيا له من إزعاج ما ألمه وأهمه، ويطش ما أشده وأطمه.

وإن نظرت في أمر الجاهلية فكم من واعظٍ جلية، أين العمالقة والأكاسرة، والتبابعة والقياصرة، والفراعنة والمناذرة؟!^(٢) وترتهم الواترة، فردُّوا في الحافرة، وطُرِّحُوا في الساهرة^(٣)، فباءوا بصفقة خاسرة، وتجارة بائرة، فأصبحت قبورهم عامرة، وقصورهم دائرة، فهل يأمن الدنيا بعدهم لبيب، أو يسكن إليها أريب^(٤).

قوله عليه السلام: الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَجَنَحُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ.

الإقامة نقيض الانتقال. **والشبهات** الأمور الملتبسات بالحق المزورات، وسمَّيت شبهات لأنها تُشبه الحقَّ، فهي أبلغ في باب الافتتان ومعرض الامتحان، وقد روينا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (أَمَّا إِنَّ الْحَقَّ لَوْ خَلَصَ لَمْ يُخَفَّ عَلَى ذِي حِجَا، أَمَّا إِنَّ الْبَاطِلَ لَوْ خَلَصَ لَمْ يُخَفَّ عَلَى ذِي حِجَا، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْتُ^(٥) وَمِنْ هَذَا ضِغْتُ فَيَمْتَرِجَانِ فَيَمْتَرِجَانِ، فَيَسْتَوِي الشَّيْطَانُ عَلَى أُولِيائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى).

والجنوح هو السقوط والميل. **والشهوات** هي حبال الشيطان، وهي هاهنا المشتبهات، فسماها شهواتٍ لَمَّا كانت الشهوات تدعو إليها وتوقع فيها.

(١) الرِّكْزُ (بالكسر) الصوت الخفي، تمت، هامش (أ)، (انظر النهاية ٢ / ٢٥٨) (من الآية ٩٨ سورة مريم).

(٢) الْعَمَالِقَةُ: الْجُبَابِرَةُ الَّذِينَ كَانُوا بِالشَّامِ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ عَادٍ، الْوَاحِدُ: عَمَلِيقٌ وَعِمْلَاق. والأكاسرة: جمع كسرى وهو لقبُ ملوك الفُرس. والتَّبَاعَةُ: جمع تَبِعَ، وهو لقبُ ملوك حمير في اليمن. والقياصرة: جمع قيصر، وهو لقبُ ملوك الروم، والفراعنة: جمع فرعون، وهو لقبُ ملوك مصر، والمناذرة: هم ملوك الحيرة من أرض العراق، نسبة إلى المنذر بن ماء السماء، ا.هـ.

(٣) السَاهِرَةُ: الأرض، أَوْجُهَا. (القاموس المحيط: ٤١٢)

(٤) الْأَرِيبُ: الْعَاقِلُ الْفَطِنُ، ا.هـ. قاموس.

(٥) أَصْلُ الضَّغْتِ الْقَبْضَةُ مِنَ الْحَشِيشِ وَنَحْوِهِ، كَمَا فِي الْآيَةِ: «وَتُحَذِّدُكَ ضِغْتًا فَأَضْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْتَثُّ» [ص: ٤٤] ا.هـ. هامش الأصل. وقال في الصحاح: الضَّغْتُ: قَبْضَةُ حَشِيشٍ مُخْتَلِطَةٌ الرُّطْبِ بِالْيَاسِ. ا.هـ.

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْجَنَّةَ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ؛ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَهَا بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ؛ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ وَعِزَّتِكَ لَا دَخَلَهَا إِلَّا مَنْ رَحِمْتَ، ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ؛ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ وَعِزَّتِكَ لَا عِلْمَ بِهَا أَحَدٌ فَدَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَهَا بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ؛ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ وَعِزَّتِكَ لَا نَجَا مِنْهَا إِلَّا مَنْ رَحِمْتَ)).

المعنى في ذلك: أن المغترين بالله تعالى يُعَلِّلُون نفوسهم ويخدعونها بأنواع الشبه الركيكة، فمن عابِد حجرٍ نحتها بيده أو اشتراها بسببه^(١)، أو شجرٍ تَأْتَى في صنعه نَجَارُهُ، فكثُرَ لثمنه دينارُهُ، فأَتَى المغترُّ فأبرز فيه عَرْضاً ونقداً ليكون - وهو المشتري المالك له - عبداً، والجماد المصنوع المملوك له رباً وردءاً، وقد حكى الصادق سبحانه أنهم سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً، فيا لها من عجيبة تُشَبِّهِ العجائب، وغريبة تُزْري بالغرائب.

وإن فكرتَ في عبادة النيران ومُعْظَمَةِ الثيران نظرتَ إلى أمرٍ تُنْكِرُهُ العقولُ السَّوِيَّةُ، وتُنْفِرُ عنه النفوسُ الأَبْيَةُ، ثم انظرْ إلى المتدينين من أهل الكتب أين قَذَفَ بهم التعمُّقُ والعُجْبُ؟! فكم من هائِلٍ^(٢) منقطع قَتَلَ النبين ليمسك بزعمه بأحكام النبوة، ومُنْصَرِّ جعل للعبد المربوب صفة اللاهوتية، ومُسْلِمَ عَقَبَ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بسفك دماء الدُّرِّيَّةِ الزَّكِيَّةِ، والعترة الطاهرة المرضية، الذين شهد الذِّكْرُ الحكيم بأنهم خيرُ البرية، هذا وعالمٌ بزعمه أخذ منهم ما عِلِمَ، وهو لأثْلَتَهُمْ^(٣) الثابتة الطيبة ينحت وَيَصِمُ، وَيَرُومُ فَصَمَ

(١) السَّبْدُ: الشَّعْرُ، في قولهم: مَا لَهُ سَبْدٌ وَلَا كَبْدٌ أي ما له ذو شعر ولا صوف ولا وبر يَتَلَبَّدُ، تمت، هامش (أ).
(٢) هائِلٌ: مُتَّبِعٌ دِينِ الْيَهُودِ، وأصل الكلمة: هَادَ: تَابَ وَرَجَعَ.. فَهُوَ (هَائِلٌ) وَقَوْمُهُ (هُودٌ) قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: (الْيَهُودُ) التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَيُقَالُ أَيُّضًا: (هَادَ) وَ (تِهَوَّدَ) أَيُّ صَارَ (يَهُودِيًّا) أ.هـ. (انظر مختار الصحاح: ٣٢٩) وكذلك مُنْصَرِّ: بِمَعْنَى مُتَّبِعٌ دِينِ النَّصَارَى، أ.هـ.

(٣) قال في هامش الأصل: الْأَثْلَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي أَصْلِ الْإِنْسَانِ وَشَرَفِهِ، اسْتِعَارَةً، تمت. وقال في المصباح المنير: الْأَثْلُ شَجَرٌ عَظِيمٌ لَا ثَمَرَ لَهُ، الْوَاحِدَةُ أَثْلَةٌ، وَقَدْ اسْتُعِيرَتْ الْأَثْلَةُ لِلْعُرْضِ فَقِيلَ: نَحَتَ أَثْلَةً فَلَانٌ؛ إِذَا عَابَهُ وَتَنَقَّصَهُ، وَهُوَ لَا تُنَحَّتْ أَثْلَتُهُ؛ أَيُّ لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ وَلَا نَقْصٌ، أ.هـ. المصباح (٤/١) وَصِمُ: يُعْيِبُ، أ.هـ.

عُرْوَتِهِمُ الْوَثِيقَةُ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا لَا تَنْقَصُ^(١)، فَإِذَا دَهَمَتِ الْمُعْضَلَاتُ جَعَلَ يَلُودُ بِطُودٍ^(٢) عَزَّتِهِمْ لِيَعْتَصِمَ، يُنَكِّرُ فَضْلَهُمْ بِزَخَارِيفِهِ، وَيَنْقُصُ حَقَّهُمْ بِتَحَارِيفِهِ، وَاللَّهُ مِمَّنْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَقَرَ النَّافِرُونَ.

الْمُعْجَى: حَذَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الشَّبَهَاتِ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْعِلَّةِ وَالتَّمَكُّنِ لِعِبَادِهِ مِنْ جَلَاءِ الشَّبَهَةِ بِالْيَقِينِ، وَمِنْ الْجَنُوحِ إِلَى الشَّهْوَةِ لِيُكْتَبَ عَازِفٌ نَفْسَهُ عَنْهَا فِي زِمْرَةِ الْمُتَّقِينَ.

قوله عليه السلام: حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَلَا مَا كَانُوا أَمَلُوا أَذْرَكُوا، وَلَا إِلَى مَا فَاتَتْهُمْ رَجَعُوا.

الْآتِي هُوَ الْوَاصِلُ. وَالْغَادِي هُوَ الْذَاهِبُ. رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى هَاهُنَا هُمْ مَلَائِكَتُهُ الْغَضَابُ الْمُقَرَّبُونَ النَّاصِحُونَ الْمَجْرُبُونَ، الَّذِينَ جَرَى هَلَاكُ الْأُمَمِ الْعَاتِيَةِ عَلَى أَيْدِيهِمْ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَارَةً بِالصِّيَاحِ إِذَا هُمْ هَامِدُونَ، وَتَارَةً بِاقْتِلَاعِ الْمَدَائِنِ مِنْ أَسَاسِهَا إِذَا هُمْ خَامِدُونَ، وَتَارَةً بِالرَّمْيِ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ، وَتَارَةً بِالضَرْبِ الرَّعَابِيلِ^(٣) كَأَهْلِ الْقَلِيبِ^(٤) الْمُتَكَبِّرِينَ الْعَاتِينَ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَتَارَةً بِنَزْعِ الْأَرْوَاحِ عَنِ الْأَجْسَادِ بِكَالِيلِ حَدَادٍ شَدَادٍ، فَهَؤُلَاءِ رُسُلُ رَبِّنَا الْمَرْعُوجُونَ، وَكَمْ لَهُمْ مِنْ صَرِيعٍ عَلَى وَثِيرِ الْمَهَادِ، وَشَهِيرِ الْوَسَادِ، فَلَمْ يَوَاسِئِهِ أَوْلَادُهُ وَأَوْدَادُهُ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُ عِبِيدُهُ وَأُجْنَادُهُ، دَخَلَتْ رِسَالُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَغِيرُ فَسْحٍ، وَخَرَجُوا بِحَمِيمَتِهِ^(٥) مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ، فَيَا لَهَا مِنْ رَوْعَةٍ لَمْ تُسَكِّنْهَا النَّدَامَةُ، وَحَرِيْبَةٍ لَمْ تَعْقُبْهَا السَّلَامَةُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي الْأَمَلِ. وَالْإِدْرَاكُ هُوَ الْوَصُولُ وَاللَّحَاقُ. وَالْفَائِتُ هَاهُنَا هُوَ الْمُخْلَفُ الْمَتْرُوكُ، يُقَالُ فَاتَهُ الْأَمْرُ إِذَا سَبَقَهُ، وَأَدْرَكَهُ إِذَا لَحِقَهُ. وَمَعْنَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَاحِدٌ، وَكَيْفَ يَرْجِعُ إِلَى مَالِهِ وَيَفُوزُ بِغُرُورِ أَمَانِيهِ وَأَمَالِهِ مِنْ لَحْدَةِ اللَّاحِدِ، وَأُسْلَمَهُ الْوَلَدُ وَالْوَالِدُ، وَالْخِلُّ الْمَوَادِدُ، وَالْقَرِينُ الْمُسَاعِدُ.

(١) الْفَضْمُ: أَنْ يَنْصَدَعَ الشَّيْءُ فَلَا يَبِينُ، تَقُولُ: فَصَمْتُه فَانْقَضَ. (النهاية ٣/ ٤٥٢) وَالْعُرْوَةُ سَبْقُ تَفْسِيرِهَا.

(٢) يَلُودُ بِهِ: يَلْجَأُ إِلَيْهِ وَيَعُوذُ بِهِ، وَتَصْرِيفُهَا: لَا ذَا يَلُودُ لَوْ ذَا وَلَوْ ذَا وَلَوْ ذَا وَلَوْ ذَا وَلَوْ ذَا. ا.هـ. وَالطُّودُ: الْجَبَلُ الْعَظِيمُ، وَجَمْعُهُ: أَطْوَادٌ، ا.هـ. قَامُوسٌ.

(٣) الرُّعْبُولَةُ وَاحِدَةُ الرَّعَابِيلِ، وَهِيَ الْخِرْقُ الْمُتَمَزِّقَةُ، وَرَعَبَلُ اللَّحْمِ قَطْعُهُ، قَالَ:

تَرَى الْمُلُوكَ حَوْلَهُ مُرْعَبَلَهُ [يَقْتُلُ ذَا الدَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ]

وَتَوْبٌ مُرْعَبَلٌ أَيُّ مُزَّقٌ، تَمَّتْ ضِيَاءُ هَامِشٍ (أ).

(٤) أَهْلُ الْقَلِيبِ هُمُ الْقَتْلَى الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرِ، حَيْثُ قُتِلَ سَبْعُونَ مِنْ صَنَادِيدِ وَكِبَارَاتِ قُرَيْشٍ.

(٥) أَيُّ نَفْسِهِ، (ذَكَرَهُ فَوْقَهَا فِي الْأَصْلِ).

والمعنى في ذلك: أن المغترين تاهوا في بحار الاغترار، وافتسوا بطول الأعمار حتى أتتهم رُسُلُ الواحد القهار، فأزعجتهم عن القرار، وأنزلتهم دار البوار، فبأعظمها من حسرة لم يجبرها الصباح والعويل، ولا وُجدَ إلى دفعها سبيل.

قوله عليه السلام: قَدِمُوا عَلَى مَا عَمِلُوا، وَنَدِمُوا عَلَى مَا خَلَقُوا.

القدوم هو الورود، قال راجزهم:

أَقْدِمَ فَقَدْ قَدِمْتُ خَيْرَ مَقْدِمٍ قَدِمْتُ أَيَّامَ سُعُودِ الْأَنْجُمِ

والأعمال والأفعال معناها واحد، وهو ما يحصل بحسب الدواعي، ويتنفي بحسب الصوارف، ومن ذلك أعمال الخير المحمود العواقب، ومنه الشر الرامي بعامله في المعاطب. والندم هو ألم القلب وأسفه، ومعناه ظاهرٌ عندهم، وشاهده موجود في لسانهم، قال الفرزدق:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ^(١) لَمَّا غَدَتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نَوَارُ

ومخلفهم ما تركوه خلف ظهورهم من نضرتهم وسرورهم، وملكهم وحبورهم، وجنانهم وقصورهم، التي صارت عليهم نكالاً ووبالاً، بعد أن كانت نعيماً وظلالاً، وجالاً ومالاً.

المعنى: أنه عليه السلام أخبر بقدمهم على أعمالهم على وجه الإجمال؛ ليكون ذلك أبلغ في الحسرة والبلبال^(٢)، واشتغال خاطر والبال^(٣)، لأنه أخبر بقدمهم على أعمالهم مجملًا، وقد دلَّ الخطاب على أنها قبيحة، فقدمهم عليها من أدهى مصيبة وأعظم فضيحة، قدموا على أعمالٍ

(١) نَدَامَةُ الْكُسْعِيِّ، هو مثل قديم، والكُسْعِيُّ هو رجلٌ اختار شجرة شوحط، فلم يزل يراعيها، حتى إذا صلحت اتَّخَذَ منها قوساً، وبرئ أسهماً خمسة، وكَمَنَ في ناموس اتَّخَذَهُ، ورمى الوحش ليلاً، فَمَرَقَتْ سِهَامُهُ مِنَ الرَّمِيَةِ حَتَّى قَدَحَتْ النَّارَ عَلَى الصَّفَا، فظنَّ أنه أخطأ، ففعل ذلك مراراً، وهو يظنُّ أنه مخطئ، فكسَّرَ القوس، فلَمَّا أَصْبَحَ رَأَى الْوَحْشَ صَرَعَى فَنَدِمَ. (الأمثال للهاشمي ٢٥٦/١) ونوار اسم امرأة الفرزدق.

(٢) الْبَلْبَالُ: شِدَّةُ اهْتِمَامٍ وَالْوَسْوَاسُ فِي الصُّدُورِ وَحَدِيثُ النَّفْسِ، (لسان العرب ٦٩ / ١١) وقد مر.

(٣) الْخَاطِرُ: مَا يُخْطِرُ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَدْبِيرٍ أَوْ أَمْرٍ. ابْنُ سِيدَةَ: الْخَاطِرُ الْهَاجِسُ. (لسان العرب ٤ / ٢٤٩).

وَالْبَالُ: الْقَلْبُ، يُقَالُ مَا يُخْطِرُ فُلَانٌ بِبَالِي. وَالْبَالُ رَحَاءُ النَّفْسِ يُقَالُ: فُلَانٌ رَخِيُّ الْبَالِ. وَالْبَالُ الْخُلُ، يُقَالُ مَا بَالُكَ، ا.هـ. (مختار الصحاح: ٤٢) والمراد هنا هو القلب.

قبيحة منكراً، شهد عليهم بها الكرائم البررة، وسَطَّرَها الكاتبون الطَّهْرَة، وقد كانوا يكتُمون أكثرَها عن الأبعد والأقارب، والوزير والصاحب، والرقيب سبحانه- الذي لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء؛ لإحاطة علمه وقوة سلطانه - لهم مشاهد، وبها عليهم حاكم وشاهد، فحيثُ تَحَقَّقَتْ عليهم الندامة، وغمرتهم أهوال الطامة، وصار ما خَلَّفُوا عليهم حسرة، وقد كان ذخيرة لهم ليوم العسرة، فانظر إلى عواقب التقديم ما أَحَدَها، وفوارط^(١) الإنفاق ما أسعدها، فلا تَمَلْ إلى التخليف، ولا تغترَّ بالتسويق.

قوله عليه السلام: وَلَنْ يَغْنِيَ النَّدَمُ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ.

الإغناء هو الكفاية، لا فرق بين قولك: أغناني، وبين قولك: كفاني وأحسبني إذا لم يفقد ما سواه مما يتعلق ببابه، وقد تقدم معنى الندم. والقلمُ: ما تقع به الكتابة وهو معروف، وقد قال تعالى: ﴿لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم] وجَفَأُ القلم إذا فرغ الكاتب من الكتابة، ولا تَحِفُّ كتابة أعمال ابن آدم إلا عند انقطاع تكليفه، وعند ذلك لا تغني عنه الندامة فتيلًا، ولا تشفي له غليلاً^(٢). والمعنى في ذلك: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَبَّهَ ابن آدم على الاهتمام بأمر الآخرة، والتأهب لها قبل الوصول^(٣) إليها، إذ الإنسان في تلك الحال لا يتمكن من إصلاح عملٍ فاسد، ولا رَدَّ سهمٍ صارِد^(٤)، فكيف إذا كَظَمَهُ هَوْلُ المَشَاهِد، وعدمُ المعين والمُساعد، يُعَلِّلُ نفسه بالندامة التي لا تنفعه، والحسرة التي لا تمنعه.

(١) الفوارطُ: السَّوَابِقُ، والفارطُ: هو الْمُتَقَدِّمُ السَّابِقُ، قَرَطَ يَقْرُطُ فُرُوطًا، (لسان العرب ٧/ ٣٦٦).

(٢) الفَتِيلُ: مَا يَكُونُ فِي شَقِّ النَّوَاة. وَقِيلَ: مَا يُفْتَلُ بَيْنَ الْأَصْبَعَيْنِ مِنَ الْوَسَخ. (النهاية: ٣/ ٤٠٩) والغَلِيلُ: الْعَطَشُ، أَوْ شِدَّتُهُ، أَوْ حَرَارَةُ الْجَوْفِ، ا.هـ. (القاموس: ١٠٣٩).

(٣) في الأصل: قبل المصير.

(٤) صَرَدُ السَّهْمِ: نُفُوذُهُ، قال:

فَمَا بُقِيََا عَلَيَّ تَرَكُّمَانِي وَلَكِنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النَّبَالِ

تمت ضياء، هامش (أ) (انظر أساس البلاغة للزمخشري ١/ ٥٤٣).

قوله عليه السلام: فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً قَدَّمَ خَيْرًا، وَأَنْفَقَ قَصْدًا، وَقَالَ صِدْقًا.

الرحمة من الله تعالى هي الرضى والغفران. والإنفاق هو العطاء والإحسان. والقصد هو الإنفاق على وجه يتعزى عن التبذير والتقتير مع تجريد الإرادة به وجه الله تعالى. والصدق نقيض الكذب، وهو الخبر الذي إذا كان له مخبر كان على ما هو به.

والمعنى في ذلك: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ دعا بالرحمة لمن قَدَّمَ الخَيْرَ من المال بين يديه؛ إذ هو لا محالة صائرٌ إليه، وما خلّفه فهو حسرة عليه، وأنفق قصدًا إنفاقاً يوافق رضا الله سبحانه، ويقصد به وجهه، لا تبذيراً ولا تقتيراً، ونزّة لسانه من الكذب المؤدّي إلى الهلاك، وهو أصلٌ لكل شرٍّ، وقد وردت الآثار مفصلة فيما ذكره عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أما رحمة الله تعالى فهي أصلٌ لكل خير، وبها تقع النجاة والسلامة من كل شرٍّ، والفضل والكرامة والظفر، وقد روينا في ذلك عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، أَمَّا الْهُوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيَصُدُّ عَنِ الْآخِرَةِ، وَهَذِهِ الدُّنْيَا مُرْتَحِلَةٌ، وَهَذِهِ الْآخِرَةُ قَادِمَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ فَافْعَلُوا؛ فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ فِي دَارِ عَمَلٍ وَلَا حِسَابٍ، وَأَنْتُمْ غَدًا فِي دَارِ حِسَابٍ وَلَا عَمَلٍ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ فِي الْمِضْمَارِ، وَغَدًا فِي السَّبَاقِ، وَالسَّبَاقُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْمُتَخَلِّفُ إِلَى النَّارِ، وَبِالْعَفْوِ تَنْجُونَ، وَبِالرَّحْمَةِ تَدْخُلُونَ، وَبِأَعْمَالِكُمْ تَقْتَسِمُونَ)) وإذا كان هذا حال الرحمة هانت في طلبها الشدائد وركوب الأوباد^(١).

وأما تقديم الخير فميدانه لسعة أنواعه رحيبٌ، وفاعله عند جميع العقلاء مصيبٌ، وفيه آثارٌ لا تنحصر، وحُسْنُهُ في كلِّ عقل مستقر، وقد روينا بالإسناد إلى أبي الدرداء أنّه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ شَمْسُهُ إِلَّا وَكُلٌّ بِجَنْبَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ نِدَاءً:

(١) الأوباد العظام، أصله في الإبل المُتَابِدَةُ، أي المُتَوَحَّشَةُ، تمت. هامش (أ). وقال في اللسان (٣/ ٦٩): الأوباد جمع أبدة وهي التي قد تَوَحَّشَتْ ونفرت من الإنسان...، وَالْأَبْدَةُ: الدَّاهِيَةُ تَبْقَى عَلَى الْأَبْدَةِ: وَالْأَبْدَةُ: الْكَلِمَةُ أَوْ الْفِعْلَةُ الْغَرِيبَةُ، وجاءَ فَلَانٌ بِأَبْدَةٍ - أي بِدَاهِيَةٍ - يَبْقَى ذِكْرُهَا عَلَى الْأَبْدَةِ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْنَى، وَلَا غَابَتْ شَمْسٌ إِلَّا وَكُلٌّ بِجَنَبَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ نِدَاءً: اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَاعْطِ مُمَسِّكًا تَلْفًا)) وأنزل الله عز وجل قرآنًا في قول الملكين: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس] وأنزل في قولهما: وأعط منفقاً خلفاً، وممسكاً تلفاً: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالتَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل] وتقديم الخير هو الشفيق المناصح، وهو العمل الصالح؛ لَأَنَّهُ أَشَدُّ الْخِلَافِ مَوَاسَاةً لَخَلِيلِهِ، وَأَشْفَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَغَلِيلِهِ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لِلْإِنْسَانِ أَخِلَاءُ ثَلَاثَةٌ: فَأَمَّا خَلِيلٌ فَيَقُولُ: مَا أَنْفَقْتَ فَلَكَ، وَمَا خَلَّفْتَ فَلَيْسَ لَكَ، فَذَلِكَ مَالُهُ، وَأَمَّا خَلِيلٌ فَيَقُولُ: أَنَا مَعَكَ، فَإِذَا أَتَيْتَ بَابَ الْمَلِكِ تَرَكْتُكَ وَرَجَعْتُ، فَذَلِكَ أَهْلُهُ وَحَشَمُهُ، وَأَمَّا خَلِيلٌ فَيَقُولُ: أَنَا مَعَكَ حَيْثُ دَخَلْتَ وَحَيْثُ خَرَجْتَ، فَذَلِكَ عَمَلُهُ، وَيَقُولُ: وَإِنْ كُنْتُ لَأَهْوَنُ الثَّلَاثَةِ عَلَيْكَ)).

وَأَمَّا الصَّدَقُ فَهُوَ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ وَجَلِيَّةُ اللِّسَانِ، وَزَيْنُ الْإِنْسَانِ، وَتَرْجُمَانُ الشَّرَفِ، وَعَنْوَانُ الْكِرَمِ، وَكَتَرُ السُّؤْدَدِ^(١)، وَكَبْتُ الْحُسَدِ، وَبِالصَّدَقِ يُوقَرُ الصَّغِيرُ، وَبِالْكَذِبِ يُحَقَّرُ الْكَبِيرُ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا)) وَرَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((تَقَبَّلُوا لِي بِسِتِّ أَتَقَبَّلُ لَكُمْ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفُ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ فَلَا يُخَنُّ، غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ)).

(١) السُّؤْدَدُ: الشَّرَفُ، مَعْرُوفٌ، وَقَدْ يُهَمَزُ وَتُضَمُّ الدَّالُ طَائِفَةٌ. (اللسان: ٣/ ٢٢٨) وَكَتَبَتْهُ، يَكْتُبُهُ: صَرَعَهُ، وَأَخْرَاهُ، وَصَرَفَهُ، وَكَسَرَهُ، وَرَدَّ الْعَدُوَّ يَغِظُهُ، وَأَذَلَّهُ. (القاموس المحيط: ١٥٨).

قوله عليه السلام: وَمَلَكَ دَوَاعِي شَهْوَيْهِ وَلَمْ تَمْلِكْهُ، وَعَصَى أَمْرَ نَفْسِهِ فَلَمْ تُهْلِكْهُ.

الملك هو التصرف في الأمر تصرفاً عاماً، هذا في الأصل، ومنه قيل في العجين مملوك للذي أجيد عجنه؛ لأنه يتصرف فيه تصرفاً بليغاً، ومملوك الرِّق أُحْذَ من ذلك. ودواعي الشهوة هي المؤديات إليها، وأصل أكثرها النظر وتوابعه من الفكر المؤدية إلى الملاذ الموقعة في العذاب الدائم. والشهوة عَرَضٌ يُثْمِرُ اللَّذَّةَ عند إدراك المشتهى بها. والمعصية نقيض الطاعة. والأنفس الأمارَةُ بالسوء يجب عصيانها. والهلاك نقيض السلامة.

والمعنى في ذلك: أن من ملك دواعي شهوته وعصى أمر نفسه فلم يملك الشهوة زمّامه، ولم يجعل النفس إمامه؛ سلّم من الهلاك، وخُلص من الارتباك، ومن ملك دواعي شهوته قياده، وأُتبع أمر النفس سواده؛ خَبَطَ كِفَّةَ الحابل^(١) فوقع في الشغل الشاغل.

(١) كِفَّةُ الحابل (بالكسر): حِبَالَةُ الصَّائِد. (انظر لسان العرب ٩ / ٣٠٤).

الحديث الرابع عشر

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا، وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلَا تَعَاقِبُوا ظَالِمًا فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ، وَلَا تَرَاءُوا النَّاسَ فَيَحْبَطَ عَمَلُكُمْ، وَلَا تَمْنَعُوا الْمَوْجُودَ فَيَقِلَّ خَيْرُكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الْأَشْيَاءَ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ اسْتَبَانَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ، وَأَمْرٌ اسْتَبَانَ عَلَيْهِ فَاجْتَنِبُوهُ، وَأَمْرٌ اخْتَلَفَ عَلَيْكُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ مُؤْنَتُهُمَا عَظِيمٌ أَجْرُهُمَا لَمْ يُلَقَ اللَّهُ بِمِثْلِهِمَا، الصَّمتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ))^(٢).

الإعطاء نقيض المنع. والحكمة العلم النافع، وهو علم القرآن وتفصيل معانيه، وتفسير مجمله، والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ومجمله ومبينه، وناسخه ومنسوخه، والاعتبار بعيره، والفهم لأمثاله العجيبة، وقصصه الغريبة، فهذا عندنا رأس الحكمة ومفتاح الرحمة.

وأهل الشيء هم أولى الناس به وأدناهم منه، وذلك في لسان العرب ظاهر، وقد قال عبد المطلب فيما يروى:

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي كَعْبَتِهِ لَمْ يَزَلْ ذَاكَ عَلَى عَهْدِ آبَرِهِمْ^(٣)

معناه: نحن أولى الناس بالله تعالى لاتباعنا أمره، وقد أقرَّ الشرع الشريف ذلك، روي عن النبي

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا عبد الكريم بن الهيثم قال حدثنا أبو البيان قال حدثنا شعيب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) الجزء من الحديث: ((أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفٌ مُؤْنَتُهُمَا عَظِيمٌ أَجْرُهُمَا لَمْ يُلَقَ اللَّهُ بِمِثْلِهِمَا، الصَّمتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ)) بهذا اللفظ وبالألفاظ مقاربة، رواه البزار في مسنده: (٣٥٩/١٣) رقم (٧٠٠١) وأبو يعلى في مسنده (٥٣/٦) رقم (٣٢٩٨) والطبراني في الأوسط: (١٤٠/٧) رقم (٧١٠٣) والبيهقي في الشعب: (٢٠/٧) رقم (٤٥٩١) و(٣٦٩/١٠) رقم (٧٦٤١) عن أنس.

(٣) إبراهيم عليه السلام، قَالَ ابْنُ جَنِّي: وفيه أربع لغات: إِبْرَاهِيمُ، وَإِبْرَاهِمُ، وَإِبْرَاهِمُ، وَإِبْرَاهِمُ، ا.هـ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهْلِينَ، أَهْلُ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ، فَأَهْلُ الْحِكْمَةِ هُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِأَوَامِرِهَا، الْمُتَّبِعُونَ أَحْكَامَهَا، الْمُحَلَّلُونَ حَلَالَهَا، الْمُحَرَّمُونَ حَرَامَهَا، الْجَاعِلُونَ الْوُقُوفَ عِنْدَ مُلْتَبَسِهَا رُسُوخًا فِي الْعِلْمِ دُونَ التَّقَحُّمِ عَلَى سُدِّهَا الْمُرْتَجَّةِ^(١)، وَالتَّعَدِّي عَلَى حُدُودِهَا الْمَضْرُوبَةِ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْعِلْمَ سَبَبًا لِلْقَوْلِ، وَأَسَاسًا لِلْعَمَلِ)) فَأَمَّا أَهْلُ الْأَلْسِنَةِ الْحَدَادِ وَالْقُلُوبِ الْخَالِيَةِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُعْتَزُّونَ عَلَى ضَعْفَةِ أَهْلِ الْحَقِّ بِعَوِيصِ^(٢) الْجِدَالِ، وَزُخْرُفِ الضَّلَالِ لِيُعَدُّوا بِزَعْمِهِمْ فِي الْعِلْمَاءِ، فَإِذَا سُئِلُوا عَنِ الْغَوَامِضِ هَدُّوا جَوَابَهَا، وَتَقَحَّمُوا عِقَابَهَا، بِغَيْرِ رُيَّةٍ^(٣) صَادِقَةٍ، وَلَا فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَلَا بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ، فَهَؤُلَاءِ - وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَحْمُودُ الْمَعْبُودُ - أَعْدَاءُ الْحِكْمَةِ لَا أَهْلَهَا.

والظلم هو الضرر العاري عن نفع أوفى عليه، أو دفع ضرر أعظم منه، أو استحقاق لذلك، وقد كان أصله في اللغة وضع الشيء في غير موضعه على أي وجه كان، حتى سَمَّوُا اللَّيْنَ الَّذِي يُشْرَبُ قَبْلَ اسْتِحْكَامِ رُؤْيِهِ ظَلِيمًا وَمَظْلُومًا، فَقَالَ قَاتِلُهُمْ:

وَأَهْوَنُ مَظْلُومٍ سِقَاءٌ مُرَوِّبٌ

ثم صار يفيد بالشرع الشريف ما قدَّمنا أولاً، فلا يُعْقَلُ من قولنا: ظَلُمْتُ عند الإطلاق سواء، وذلك يكشف عن معنى الحقائق، فلما كان مَنْ أَعْطَى الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنْزَلَ بِهَا ضَرراً عَارِياً عن نفع يعود عليها يوفي على الإضرار، وعن دفع ضرر عنها يَصْغُرُ في جنبه ذلك، ولا هي مستحقة لذلك، وكيف تستحقُّه وبها تقع النجاة والحياة الأبدية في النِّعَمِ الْهَنِيئَةِ، وَالْخَيْرَاتِ السَّيِّئَةِ.

وكل ما ذكرنا في الحكمة فهو استعارات سائغة، فجاز أن يوصفَ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ أَهْلِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قَدَّمْنَا ظَالِمًا لَهَا عَلَى وَجْهِ التَّمْثِيلِ وَالْمَجَازِ.

(١) السُّدَّةُ، بِالضَّمِّ: بَابُ الدَّارِ، ج: سُدَدٌ. (القاموس: ٢٨٧) وَالْمُرْتَجَّةُ: الْمُغْلَقَةُ، قَالَ فِي اللِّسَانِ (٢/ ٢٧٩): الرَّيْحُ وَالرَّتَاجُ: الْبَابُ الْعَظِيمُ؛ وَقِيلَ: هُوَ الْبَابُ الْمَغْلُوقُ. وَقَدْ أُرْتِجَ الْبَابُ إِذَا أُغْلِقَ إِغْلَاقًا وَثِيقًا، تَمَّتْ.

(٢) الْعَوِيصُ: الصَّعْبُ أَوِ الْمُتْلُوتِي، قَالَ فِي الْمَصْبَاحِ الْمُنِيرِ (٢/ ٤٣٨): عَوِيصَ الشَّيْءِ عَوِيصًا مِنْ بَابِ تَعَبٍ وَاعْتِصَاصٍ صَعْبٌ، فَهُوَ عَوِيصٌ، وَكَلَامٌ عَوِيصٌ يَعْسُرُ فَهْمُ مَعْنَاهُ، أ.هـ.

(٣) الرُّيَّةُ: النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ.

وكذلك لَمَّا كُنَّا إِذَا مَنَعْنَاهَا أَهْلَهَا الْمُسْتَحْقِينَ لَهَا لِقَبُولِهِمْ لِلْوِزَامِهَا، وَتَسْلِيمِهِمْ لِأَحْكَامِهَا، وَانْتِفَاعِهِمْ بِهَا، وَنَفْعِهِمْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَرَشِدِينَ بِغَرَائِبِ فَوَائِدِهَا؛ كُنَّا قَدْ أَنْزَلْنَا بِهِمْ ضَرَرًا عَظِيمًا - بِفَقْدِهَا وَحِجَابِ وَجْهِهَا - لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَلَا هُمْ فِيهِ نَفْعٌ مُوَفٍّ، وَلَا دَفْعٌ ضَرَرٍ زَائِدٍ؛ كُنَّا قَدْ ظَلَمْنَا لَهُمْ لِذَلِكَ ظُلْمًا عَظِيمًا، وَارْتَكَبْنَا فِي أَمْرِهِمْ حُوبًا جَسِيمًا، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُمْ وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وفي ذلك ما رويناه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((سَيَأْتِيَكُمُ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَافْتَوْهُمْ))، قُلْتُ لِلْحَكَمِ: وَمَا أَفْتَوْهُمْ؟ قَالَ: عَلَّمُوهُمْ.

[العلم وما ورد فيه]

ووصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُمُ الطَّالِبُونَ لِلْعِلْمِ، الرَّاعِبُونَ فِيهِ، الْعَامِلُونَ بِهِ، فَأَمَّا مَنْ خَالَفَ هَذِهِ الصِّفَةَ فَلَا أَثَارَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوْجِبُ مَنَعِهِمُ وَالْإِبْعَادَ لَهُمْ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)) وَوَضَعَ الْعِلْمَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَدِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ، وَلَا شَكَّ فِي قَبِيحِ مَا هَذَا حَالُهُ، فَتَبَّهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَبِيحٍ وَضَعَ الْحِكْمَةَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا.

وقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لَكُمْ بِنُ زِيَادٍ: (يَا كَمِيلُ بِنُ زِيَادٍ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ وَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، أَحْفَظُ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، لَمْ يَسْتَضِئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، يَا كَمِيلُ بِنُ زِيَادٍ؛ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَالْمَالُ يَحْرُسُكَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ التَّفَقُّةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ [وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ، يَا كَمِيلُ بِنُ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينَ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلُ الْأَخْدُوتَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ] وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ، مَاتَ خِزَانُ الْمَالِ [وَهُمْ أَحْيَاءُ] وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَا إِنَّ هَاهُنَا عِلْمًا جَمًّا - وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً؛ بَلَى أَصَبْتُ لِقِنًا غَيْرَ

مَأْمُونٌ، مُسْتَعْمِلًا آلَهُ الدِّينَ لِلدُّنْيَا يَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَيَنْعِمُهُ عَلَى عِبَادِهِ، أَوْ مُنْقَادًا لِلشَّكِّ يَنْقُدُ الشَّكَّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا ذَا وَلَا ذَاكَ أَقْمَنَ، أَوْ مِنْهُوَمَا بِاللَّذَّةِ سِلْسِ الْقِيَادِ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ [فِي شَيْءٍ] أَقْرَبُ شَبَهًا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ الْعِلْمُ يَمُوتُ بِمَوْتِ صَاحِبِهِ، اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ [إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا] كَيْ لَا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ، أُولَئِكَ [وَاللَّهُ] الْأَقْلُونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْ حُجَجِهِ [وَبَيِّنَاتِهِ] حَتَّى يُؤْذُوهَا إِلَى نُظُرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فَاسْتَلَاوْا مَا اسْتَوَعَرَهُ الْمُتَرْفُونَ، وَأَنْسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالِدَعَاةُ إِلَى دِينِهِ، هَآؤُهَا شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكَ، إِذَا شِئْتَ فَقُمْ).

وهذا كما ترى مطابق لتأويلنا المتقدم، بل تأويلنا المتقدم يُمْتُّ إليه.

[أهل الحكمة]

وأهل الحكمة هم آل محمد عليه وعليهم أفضل السلام، وأشياعهم الصادقون رضي الله عنهم؛ لأنهم منهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ في أهل بيته عليهم السلام حاكياً عن الله سبحانه: ((وَخَلَقْتُ شِيعَتَكُمْ مِنْكُمْ)) وقد صرح بهذا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: أولئك خلفاء الله في بلاده وأمناءه على عبادته، ولا يكون هذا بالشرع القويم إِلَّا لهم أو لأشياعهم، وغير ذلك لا يصح، ثم أظهر عَلَيْهِ السَّلَامُ أمارَةَ الْوَجْدِ لشوقه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رؤيتهم، وكان ذلك الظاهر من حاله عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبوينَا الطَاهِرِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما سلام الله ورضوانه، فإنه كان يكرمهما ويعظمهما ويميزهما على سائر إخوتها تقرباً إلى الله وإلى رسوله بصلتهما، فإذا كان هذا حال عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ معهما في عصرهما ومع ذريتهما - كما ترى - من بعدهما؛ فما عذر من عاصر قوماً اشتاق عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رؤيتهم، ولم يأخذ من خَلَّتْهُمُ ^(١) بنصيب، ويضرب في علمهم بسهم مصيب، فالحمد لله الذي جعلنا من ذرية يتقرب إلى عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله تعالى بصلتها ويشتاق إلى رؤيتها.

(١) الْحَلَّةُ: الْحُصْلَةُ تُكُونُ فِي الرَّجُلِ... (لسان العرب ١١ / ٢١٦) ولفظة: نصيب سقطت من الأصل.

قوله عليه السلام: وَلَا تُعَاقِبُوا ظَالِمًا فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ، وَلَا تُرَءَوْا النَّاسَ فَيَحْبِطَ عَمَلُكُمْ.

المعاقبة مفاعلة من العقاب، والعقاب في أصل اللغة إتباع الشيء بالشيء من جنسه إذا كان شاقاً، وهو هاهنا مُقَرَّرٌ على أصله. **والظالم**: فاعلُ الظلم لغة وشرعاً، وقد تقدّم الكلام في حده. **والبطلان**: هو الذهاب والهلاك عند أهل اللسان. **والفضل**: هو الشرف والثواب. **والرياء**: أصله إيهام ما لا حقيقة له تُعْلَمُ، أُخِذَ من التخيّل لرؤية الأبصار، وقد صار في الشريعة المكرومة مفيداً لما يُعْمَلُ من جنس الأعمال الصالحة ولا يُقَصَّدُ به وجه الله تعالى، وإنّما يُرَادُ به وجه الناس، قال الشاعر:

ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشْفُ^(١) عَمَّا تَحْتَهُ فَإِذَا اكْتَسَيْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِي

وهو عندنا من أكبر المعاصي، بل عند جميع أهل الشرع؛ لأنه يلتبس بالنفاق حتى لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر. **والحَبْطُ**: هو الهلاك، وأصله من البعير يأكل في الربيع فوق ما يحتمله فيموت حَبْطاً، فيقال حَبِطَ البعيرُ بمعنى هَلَكَ، وقد تقدم الكلام في معنى العمل.

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نهى عن معاقبة الظالم، وأخبر أن ذلك يبطل الفضل، وتأويله من وجهين:

أحدهما: لا تُعَاقِبُوا ظالماً بظلمٍ مثل ظلمه فيبطل فضلكم، وذلك ظاهر؛ لأنه لا يحل للمسلم ظُلمٌ أحدٍ من الناس ظالماً كان أو عادلاً؛ لأنَّ الظلم يَنْبُجُ لوقوعه على وجهه، ولا يعتبر في ذلك فاعله^(٢)، ولا مواضعه، وبطلان الفضل هاهنا هو الثواب.

وثانيهما: أن العفو عن الظالم فيه أجر كبير، وثواب خطير، وأن في مقابلة ذلك العفو من الفضل ما لا يعلم تفاصيله إلا الله تعالى، فإذا استنصف المظلوم من الظالم بطلَ ذلك الفضل الذي كان يقع في المعلوم في مقابلة العفو، وصفته بالبطلان قبل وجوده جائز، يقول قائلهم لمن كان يريد به خيراً، فجرى منه ما يقضي بترك وقوعه: ضيعتَ حظَّكَ عندي وأبطلتَ فضلكَ، فتأمل ذلك مُوَفَّقاً.

(١) الشَّفُّ (وَيُكْسَرُ): الثوبُ الرقيقُ ج: شُفُوفٌ. وَشَفَّ الثوبُ يَشْفُ شُفُوفاً وَشَفِيْفاً: رَقَّ فَحَكَى مَا تَحْتَهُ، تمت قاموس، هامش (أ). (انظر القاموس المحيط: ٨٢٥).

(٢) لعله يريد: سواء كان الخالق أو المخلوق؛ فإنَّ القبيح قبيح من أين كان، خلافاً لمن يقول: لا يقبح من الله شيء، والله أعلم. هامش (أ).

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك آثَاراً كثيرة لا يتسع كتابنا هذا لذكرها، وإنما نذكر طرفاً منها كافياً، من ذلك ما روينا عن أبي سلمة عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((ثَلَاثٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ قَطُّ مِنْ صَدَقَةٍ؛ فَتَصَدَّقُوا، وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ ظَلَمَهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا، فَاعْفُوا بِرِزْدِكُمْ اللهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ؛ لِأَنَّ الْعِفَّةَ خَيْرٌ)).

فالنهي عن ترك العفو نهي كراهة، والنهي عن ظلم الظالم نهي حظر.

[الرياء]

وأما الرياء فهو محظورٌ من كل وجه، وقد ورد الوعيد من الله تعالى في كتابه الكريم للمرائين في مواضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿١﴾ [الماعون] الويل: هو الخطبُ العظيم الذي يقع عنده الصباح والصراخ، وقد يتبع بالليل ومعناه: الأين، وذلك لا يكون إلا فيما لا بعده في العظم، وقد قال راجز^(١) الخوارج في بعض حروبهم، وهو رجل من مراد، وسقط رحمه بين الخيلين، فقام عليه بالسيف، وهو يقاتل هو وأصحابه عنه إلى أن دَهَمَ الطائفتين الليل فقال:

الَّيْلُ لَيْلٌ فِيهِ وَيْلٌ وَيْلٌ وَسَالَ بِالْقَوْمِ الشُّرَاةُ^(٢) السَّيْلُ
إِنْ جَاَزَ لِلْأَعْدَاءِ فِينَا قَوْلُ

وقيل هو وادٍ من أودية جهنم نعوذ بالله تعالى منها، والمصلون هاهنا هم المراءون لأنهم يسهون عنها بمعنى يتركونها جملة؛ إذا لم يقع أحد يراؤونه، فأما السهو فيها فليس من هذا في شيء، وقد سهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في صلاته، والمراءون قد قدمنا الكلامَ فيهم، وهم فرقة تلحق بالمنافقين، ومنع الماعون من أخلاقهم لأنهم لو رغبوا في الخير لقصدوا بأعمالهم وجه الله

(١) في الأصل: وقد قال بعض الخوارج... الخ.

(٢) الشُّرَاة: هو اسم للخوارج كانوا يسمون أنفسهم به.

تعالى، والماعونُ: الزكاة والحقوق الواجبة، وقد قيل أساور الدار وما لا يستغني عنه الجار من الفأس والحبل والشريم والقدر والرحا.

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد سأله رجل فقال: يا رسول الله؛ ما الجهاد في سبيل الله؟ فإنَّ الرجل يجاهد ليغنم، ويجاهد ليُذَكَّرَ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ جَاهَدَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ جِهَادٌ)).

قوله عليه السلام: وَلَا تَمْنَعُوا الْمَوْجُودَ فَيَقِلَّ خَيْرُكُمْ.

المنع: نقيض الإعطاء. والموجودُ نقيض المعدوم، والمراد به هاهنا الممكن. وقلةُ الخير محتمل وجهين، أحدهما: أن يكون أراد بالموجود من الحق الواجب كالزكوات والأعشار، فَمَنْعُ ما هذا حاله محظورٌ لا يحل، وقلة الخير هاهنا عدم الثواب وذهابه، وثانيهما: أن يكون المراد بالموجود ما يتعلق بباب المروءة من صدقات النفل، والإحسان المتعلق بباب التفضل من إعطاء السائل، وبسط النائل، وجبر العائل، والخير: ما يقع في مقابلة ذلك من الثواب، وقلة الخير في ذلك عدمه، أعني عدم الثواب الجزيل، والثناء الجميل، والذكر النبيل.

المعنى في ذلك على الوجه الأول: أنه لا يحلُّ للمسلم أن يمنع الموجود من الحق الواجب؛ إذ هو يُفَوِّتُ على نفسه بذلك ثواباً عظيماً، وَيَجُرُّ عليها عذاباً أليماً، وَمَنْ هذه حاله لم يدع لنفسه إلى الخير طريقاً، وفي ذلك ما روينا عن ابن عباس، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: ((إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ لِلْفَقِيرِ فِي مَالِ الْغَنِيِّ فِي كُلِّ مِائَتَيْنِ خَمْسَةً، فَمَنْ مَنَعَهُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) ولا أقل خيراً ممن هذه حاله.

وأما على الوجه الثاني: فإنَّ اكتساب الخير، ومتاجرة الرب، والإحسان إلى المؤمنين خاصة، وسائر الخلق عامة من أخلاق الأنبياء وسيرة الأوصياء، ومتاجر الثواب الريحة، وطرق الحق الفسيحة، فلا ينبغي لمسلم أن يُضَيِّع نصيبه من هذا الخير لغيره، فمهما ترك الإنسان من ذلك فهو غير متروك، فلا تكن أعجز الرجلين وأقلهما للخير اغتناماً، وإلى المغفرة سباقاً.

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ مِنْ أَوْجِبِ الْمَغْفِرَةِ إِذْ خَالَكَ السُّرُورَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ)) وروينا عن أبي عبد الله جعفر^(١) بن محمد عليهما السلام عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَا مِنْ مُؤْمِنٍ أَتَاهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَسَأَلَهُ حَاجَةً هُوَ يَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهَا وَيَرُدُّهُ عَنْهَا؛ إِلَّا قَالَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَتَاكَ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ فِي دَارِ الدُّنْيَا يَسْأَلُكَ حَاجَةً قَدْ مَلَكَتْكَ قَضَاءُهَا فَارْدَدْتَهُ عَنْهَا، لَا قَضَيْتُ لَكَ الْيَوْمَ حَاجَةً، مَغْفُورًا كَانَ أَوْ مُعَذِّبًا)) وهذا خبرٌ كما ترى يُؤلم القلبَ الحي، ويمنع من الرَّدِّ واليِّ، ولا يفرغ له إلا من نور الله قلبه بنور الهدى، ونزع عنه حب الدنيا، ومعنى لا يقضي الله له حاجة معناه: أن لا يزيد له على المستحق شيئاً مما يزيده لسائر المؤمنين؛ وإن كان مغفوراً له، فأما المُعَذِّبُ فالأمر فيه ظاهرٌ، وإنما ذكر ذلك في المغفور له؛ لأنَّ منع الموجود ليس من أخلاق المتبتلين^(٢)، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر] وهذا في غير الواجب، ولأنَّ المعلوم من حال الأبرار الاهتمامُ بأمر المسلمين، وقضاء حوائجهم، ومتاجرة الرَّبِّ سبحانه بالإحسان إليهم، ونعم المُتَاجِرُ سبحانه، ما أكثر إحسانه، وأعمَّ غفرانه، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((ارْحَمُوا

(١) الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، أحد الأئمة الأعلام، أشهر من نار على علم، مناقبه وفضائله كثيرة، فهو إمام علم مشهور بين الخاص والعام، حاول المنصور الدوانيقي قتله مراراً فحماه الله، واستمر بنشر علم آل الرسول وتنوير العقول، وتنسب إليه الجعفرية، وما أبعداها عن ذلك، فإنَّ من نظر في مروياتهم وأحاديثهم عنه عرف بديهة أنها مكذوبة عليه، وأنه منزَّه عن نسبتها إليه سلام الله عليه، والرواية عنه كثيرة، وقد تجنب البخاري الرواية عنه وعن سادات آل محمد كما ذكره الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في اللوامع (١/ ٣٤٣)، توفي سنة ١٤٨ هـ وعمره ثمان وستون سنة، ودفن في البقيع جوار أبيه وجده.

(٢) التَّبَتُّلُ: الْإِنْقِطَاعُ عَنِ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ... وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا﴾ (مختار الصحاح: ٢٩) قال في النهاية: وَسُمِّيَتْ فَاطِمَةُ الْبُتُّولُ لِإِنْقِطَاعِهَا عَنْ نِسَاءِ زَمَانِهَا فَضْلاً وَدِيناً وَحَسَباً. وَقِيلَ لِإِنْقِطَاعِهَا عَنِ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٩٤).

حَاجَةُ الْغَنِيِّ))، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَا حَاجَةُ الْغَنِيِّ؟ قَالَ: ((الرَّجُلُ الْمُوسِرُ يَحْتَاجُ، فَصَدَقَهُ الدَّرْهَمَ عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا)) ولا شكَّ أنَّ من ضيَّع ما هذه حاله فقد قَوَّتْ على نفسه خيراً جسيماً، وثوباً عظيماً.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الْأَشْيَاءَ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ اسْتَبَانَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ، وَأَمْرٌ اسْتَبَانَ غِيَّهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَأَمْرٌ اخْتَلَفَ عَلَيْكُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ.

الأشياء هاهنا هي المعهودة المُقَدَّمة الذِّكْرُ التي قَسَمَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ثلاثة أقسام. والأمر عند بعض أهل التحصيل من العلماء: لفظٌ مشتركٌ بين أمورٍ كثيرة. والاستبانة هو الوضوح والظهور. والرُّشْدُ نقيضُ الغيِّ، وهو الإصابة والإعلام في الأصل. والاتباع هو اللِّحَاقُ، والغِيُّ هو مُجَاوِزَةُ الحَدِّ، وأصله من الفصيل يرضع فوق حده فيهلك أو يشارف الهلاك، يقال غوي الفصيل من ذلك، ثم نُقِلَ إلى مَنْ تَجَاوَزَ الحَدَّ في الحَقِّ.

والمعنى في ذلك: أَنَّ النَبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ دَلَّ عَلَى سُلُوكِ مِنْهَا الحَقِّ، وطريقه العلمُ، وهو أَنَّ الأَمْرَ لَا يَعدو عِنْدَ الْإِنْسَانِ ثَلَاثَةٌ أُمُورٍ: إِمَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ صَوَابٌ وَرَشْدٌ، فَيَعْمَلُهُ عَنِ مَعْرِفَةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ خَطَأٌ وَضَلَالَةٌ فَيَتْرَكُهُ عَنِ بَصِيرَةٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ حَالُهُ فَيَمْسِكَ عَنْهُ وَيُرْدهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ ذَلِكَ رُسُوخٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَفِي ذَلِكَ مَا رَوَيْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِرَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، فَإِذَا قَبِضَ الْعُلَمَاءُ انْخَذَ النَّاسُ رُوسَاءَ جُهَالًا سُبُلُوا؛ فَاسْتَحْيُوا أَنْ يَقُولُوا لَا نَعْلَمُ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا كَثِيرًا)).

ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ) يَحْتَمِلُ أَحَدَ وَجْهَيْنِ: إِمَّا الْإِمْسَاكَ عَنِ التَّقَحُّمِ فِي أَمْرِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ عَسْرِ يَسْرًا، أَوْ يَحْدُثُ سَبْحَانَهُ بَعْدَ أَمْرٍ أَمْرًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ: فَرُدُّوهُ إِلَى وِلَاةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَتَرَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَعْدَنُ هَذَا الْعِلْمِ وَنَصَابُهُ، وَتَرَاجُمَتُهُ وَأَرْبَابُهُ، وَبِهِمْ يَحُلُ اللَّهُ تَعَالَى مُشْكِلَهُ وَيَفْتَحُ مُقْفَلَهُ، وَيَكُونُ هَذَا عَلَى حَذْفِ

المضاف^(١) وإقامة المضاف إليه مقامه، وذلك شائع في اللسان، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعلم أهله بوجوهه، وقد سوغت الحكمة له ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٢] فسرّه علماء آل محمد عليه وعليهم أفضل السلام بأنهم المرجوع إليهم في هذه الآية، وأنهم المستنبطون في هذه الآية، والراسخون في العلم في آية الراسخين.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَلَا أُتِيْتُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَيْنِ مُؤْتَتْهُمَا، عَظِيمٍ أَجْرُهُمَا، لَمْ يَلْقَ اللَّهُ بِمِثْلِهِمَا: الصَّمْتُ وَحَسَنُ الْخُلُقِ.

[الصمت وحسن الخلق]

الإنباء والإخبار والإعلام ألفاظٌ مختلفةٌ ومعناها واحدٌ، وهو تعريف الغير بحقيقة الأمر، والأمران هما ما ذكر آخرًا عَلَيْهِ السَّلَامُ. والخفيفتين: نقيض الثقيلتين، وأنث بعد التذكير، وذلك جازئ فيما ليس بحقيقي، ولأنها يؤوّلان في التحقيق إلى حالتي الصمت وتحسين الخلق. والصمت هو الإمساك عن الكلام جملة، والمراد به هاهنا الإمساك عن الكلام فيما لا يعني، إذ لا يُحَمَّدُ الصمتُ إلّا على هذه الحال. وحسن الخلق: لينُ الأعطاف وبذلُ الإنصاف، وهو من المقرّبات إلى الله تعالى، وهو من الألطاف في باب الدين، وقد قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم] وقد يكون الخلق في لسان العرب الحسب في غير هذا الموضع.

المعنى في ذلك: أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ نبّهنا - إذ هو مُعلِّمُ الخير ومُرشدُ الضَّلال - على أمرٍ خفيفٍ المؤنة عظيمٍ الأجر، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ الصادق المَقَال، مأمون العيب فيما قال، فلا يُصَيِّعُ العملَ بمقتضى قوله إلّا كلُّ محروم؛ إذ المعلوم عند أهل العقول أنّ ما عَظُمَ فيه الأجرُ حَسَنٌ فِعْلُهُ وإن ثَقُلَ محمله وصَعُبَ عمله، وقد تقدّم في تفصيل الصمت صدرُّ من الكلام، وكيفيك في معرفة

(١) في الأصل: مضاف، بدون (ال) التعريف.

الصمت أنه أصل الحكمة، وقاعدة الروية، وأصل النظر المؤدي إلى كل عِلْم دقيق.

وأما حسن الخلق فالأمر فيه أظهر، والنفع فيه أعم وأكثر، وقد روينا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا، وَإِنْ أَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَنَزِلًا الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَمَّا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُمْ، فَمَنِ الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَمِنَ الْكِبَرِ الدَّابَّةُ تَرْكِبُهَا، وَالْحُلَّةُ نَلْبُسُهَا، وَالطَّعَامُ نَصْنَعُهُ لِلْإِخْوَانِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ، وَغَمَصَ النَّاسَ^(١)) وهذا كما ترى نهي عن الثرثرة، وهي كثرة الكلام على غير نظام، والتشدد هو: التصرف في أنواع الكلام بالفصاحة، والتعكير^(٢) الذي لا يتوجه لإصابة الصواب.

(١) قال الزمخشري في كتابه: الفائق في غريب الحديث (١٨٢/٢): السَّفَهُ: الخفة والطيش، تقول: سَفِهَ فلانٌ عليًّا؛ إذا اسْتَخَفَّ بك وَجْهَلْ عليك،... وَفِي (سَفِهَ الْحَقَّ) وَجْهَان: أحدهما: أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل كأنَّ الْأَصْلَ سَفِهَ عَلَى الْحَقِّ. وَالثَّانِي: أَنْ يُضْمَنَ مَعْنَى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ كَجْهَلَ وَكَبَّرَ، وَالْمَعْنَى الْاسْتِخْفَافُ بِالْحَقِّ، وَالْأَيُّ يَرَاهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّجْحَانِ وَالرَّزَانَةِ. الْعَمَزُ وَالْغَمَضُ وَالْعَمَطُ: أَخَوَاتٌ فِي مَعْنَى الْعَيْبِ وَالْإِزْدِرَاءِ. وَفِي غَمَصَ وَغَمَطَ لُغَتَانِ: فَعَلَ يَفْعُلُ وَفَعِلَ يَفْعِلُ. انتهى. وورد في رواية أخرى: وَغَمَطَ النَّاسَ.

(٢) قَعَرَ فِي كَلَامِهِ تَفْعِيرًا وَتَقَعَّرَ: تَشَدَّقَ، وَتَكَلَّمَ بِأَفْصَى فَمِهِ. (القاموس المحيط: ٤٦٤).

الحديث الخامس عشر

عَنِ ^(١) ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ^(٢)، فَكَانَ مِمَّا صَبَطْتُ مِنْهَا: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ، وَزَهَدَ عَنْ غُنْيَةٍ، وَأَنْصَفَ عَنْ قُوَّةٍ، وَحَلَمَ عَنْ قُدْرَةٍ، أَلَا وَإِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عَبْدٌ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْكَفَافَ، وَصَاحَبَ فِيهَا الْعُقَافَ، وَتَزَوَّدَ لِلرَّحِيلِ، وَتَاهَبَ لِلْمَسِيرِ، أَلَا وَإِنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ فَأَطَاعَهُ، وَعَرَفَ عَدُوَّهُ فَعَصَاهُ، وَعَرَفَ دَارَ إِقَامَتِهِ فَأَصْلَحَهَا، وَعَلِمَ سُرْعَةَ رِحْلَتِهِ فَتَزَوَّدَ لَهَا، أَلَا وَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ مَا صَحِبَهُ التَّقْوَى، وَخَيْرَ الْعَمَلِ مَا تَقَدَّمَ تَتِيَّهُ، وَأَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَخَوْفُهُمْ مِنْهُ)).

قد تقدم الكلام في ابن عمر، وهو غير منازع في شرفه، ولا متنازع في ورعه وعِفِّته وفضله على سبيل الجملة، وطبقته الثامنة من طبقات قريش؛ لأنهم رُتّبوا على بني هاشم، وبني المطلب داخلون في بني هاشم، فلم يُفصلوا منهم، فأولُّهم بنو هاشم، ثم يتلوهم عبد شمس بن عبد مناف، ثم بنو توفل بن عبد مناف، ثم بنو أسد بن عبد العزى بن قُصي، ثم بنو عبد الدار بن قُصي، ثم بنو زهرة بن كلاب، ثم بنو تيم بن مُرة، ثم بنو مخزوم بن يقظة بن مرة، ثم بنو عدي بن كعب.

والخطبة قد تقدم الكلام في معناها، وأنها أخذت من الخطب لِِعِظَمِ الحال فيها، وقد قال قائلهم

لغيره يخاطبه:

أَبُوكَ مُعَمٌّ فِي الْكَلَامِ وَمُخَوَّلٌ وَجَدُّكَ سَبَّاقُ الْجَرَائِمِ فِي الْخُطْبِ ^(٣)

(١) قال السيد الشريف: وحدثني شيخي قال حدثني أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد بن درهم قاضي مدينة السلام قال حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر... الحديث.

(٢) تكرّرت الرواية في وصف الخطبة وبهذا اللفظ، ولم تذكر الروايات مضمونها.

(٣) رَجُلٌ مُعَمٌّ مُخَوَّلٌ، كَمُحْسِنٍ وَمُكْرَمٍ، وَمُخَالٌ مُعَمٌّ، بضمها: كَرِيمُ الْأَعْيَامِ وَالْأَخْوَالِ، (القاموس ٩٩٦).

فكانت الخطبة عندهم من أفضل ما يتشرفون به. وذَرَفَانُ العيون سيلانها بالدموع. وَجَلُّ القلوب خوفها ورعبها، قال شاعرهم:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُّ عَلَى أَيَّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ
وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ حُطْبَتَهُ^(١) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ كانت تبلغ الغاية القُصْوَى في تزيين القلوب وتليينها، وامْتِلَاءُ الشُّؤْنِ^(٢) وتعيينها، لِأَنَّ وَعْظَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ خَاشِعٍ إِلَى آذَانٍ وَاعِيَةٍ، وَقُلُوبٍ حَيَّةٍ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَكَانَ مِمَّا صَبَطْتُ مِنْهَا، يريد الخطبة.

الضَبْطُ هو الحفظ والذكر، وهو عندهم معروف، وأصله الإمساك.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ، وَزَهَدَ عَنْ غُنْيَةٍ. الأَفْضَلُ هو الأشرف والأعلى. والتواضعُ نقيض الترفع. والرفعة هو العلوّ والشرف. والزهد في الدنيا نقيض الرغبة فيها، وهو ترك حلالها تعبدًا لله تعالى وَعَزْفًا للنفس عن لذاتها. والغُنْيَةُ: هي الغنى، وهي تَنَاقُضُ الحاجة في اللفظ كما أَنَّ الغنى يناقض الفقر، فَأَمَّا المعنى فهو واحدٌ في الجميع من الاثنين المتناقضين.

[التواضع، ونبذة من سيرة سيد الخلق في التواضع]

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ التَّوَاضَعَ عَنْ الرِّفْعَةِ يَنَالُ بِتَوَاضَعِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَ ثَوَابِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّ مَا يُعَدُّ مِنَ الرِّفْعِ تَوَاضَعًا قَدْ يُعَدُّ مِنْ غَيْرِهِ مِثْلُهُ مَلَقًا وَذِلَّةً، فَلَا تَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَزِيَّةُ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَرَّبَ نَفْسَهُ إِلَى صَعَقَةِ عِبَادِ اللَّهِ، وَسَهَّلَ جَانِبَهُ بِتَوَاضَعِهِ لَطَلَابِ الْحَاجَاتِ مِمَّنْ لَا جَاةَ لَهُ، وَقَدْ كَانَتْ رِفْعَتُهُ صَرَبَتْ عَلَيْهِ سُرَادِقُ^(٣) الْهَيْبَةِ، فَفَرَجَ ذَلِكَ السُّرَادِقُ بِتَوَاضَعِهِ، وَقَرَّبَ

(١) فِي النِّسْخَةِ (أ) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى: حُطْبَتُهُ.

(٢) الشُّؤُونُ: مَجَارِي الدَّمْعِ مِنَ الرُّأْسِ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، تَمَّتْ حَاشِيَةٌ فِي الْأَصْلِ، (انظر القاموس المحيط ١٢٠٨) وتعيينها هنا هو بمعنى تسهيلها واستمرار سيلانها، وهو مأخوذ من عيون الماء المعروفة، تمت.

(٣) السُّرَادِقُ: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ مِنْ حَائِطٍ أَوْ مَضْرَبٍ أَوْ خِيَابٍ، (لسان العرب ١٠ / ١٥٧).

البعيد بلين جانبه، وهذه شيمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، وسيرة الصالحين من أهله عليهم السلام، وسيرة أهل البصائر من المسلمين رضي الله عنهم عامة.

وقد روينا أن ابن عباس كان يحدث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ إِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ الْمَلَكُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِيرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ إِلَى جَبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ لَهُ، فَأشارَ جَبْرِيلُ أَنْ تَوَاضِعَ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((لَا؛ بَلْ أَكُونُ عَبْدًا نَبِيًّا))، قَالَ: فَمَا أَكَلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بَعْدَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ طَعَامًا مَتَكْنًا حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) فَانْظُرْ إِلَى التَّوَاضِعِ مَا أَجَلَّهُ، حَيْثُ أَشارَ بِهِ أَمِينُ اللَّهِ وَرُوحُهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَصَفِيٍّ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ، وَفِي الرِّوَايَةِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ^(١)، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((هُوَ عَلَىكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَلَسْتُ بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ كَانَا يَأْكُلَانِ الْقَدِيدَ^(٢))).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يُجِيبُ مِنْ دَعَا، وَيَخْفُفُ فِي حَاجَةِ مَنْ سَأَلَهُ مِنَ الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ وَالْأَمَةِ الْمَمْلُوكَةِ فَمَنْ فَوْقَهَا، وَقَدْ كَانَتْ تَدْعُوهُ الْعَجُوزُ الْفَقِيرَةُ إِلَى مَنَازِلِهَا فَيَخْفُفُ لَذَلِكَ وَيُجِيبُهَا وَيَدْعُو لَهَا بِالْبَرَكَةِ، وَيُصَلِّيُ فِي مَنَازِلِهَا، وَكَانَ يَعُودُ الْمَسَاكِينَ وَيَحْضُرُ جَنَائِزَهُمْ، وَمَرْضَتُ مَسْكِينَةٍ فِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعُودُهَا، وَقَالَ: ((إِذَا مَاتَتْ فَأَذْنُونِي)) وَأَخْبَارُهُ فِي هَذَا الْبَابِ لَا تَنْقُضِي، وَلَا أَرْفَعُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَشَرِ وَلَا أَعْلَى، فَفِي ذِكْرِهِ مَا يَكْفِيكَ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

أَلَا خَيْرٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) الْفَرَائِصُ جَمْعُ فَرِيصَةٍ، وَالْفَرِيصَةُ: الْمَضْعَةُ الَّتِي يَبْنِي الثَّوْدِيُّ وَمَرْجِعُ الْكَتِفِ مِنَ الرَّجُلِ وَالِدَّابَّةِ، (انظر لسان العرب ٦٤/٧).

(٢) هُوَ اللَّحْمُ الْيَابِسُ يُقَطَّعُ ثُمَّ يَشْرَقُ فِي الشَّمْسِ حَتَّى يَبْيَسَ وَيُدْخَرُ لِرُوقَةِ الْحَاجَةِ، حَاشِيَةٌ فِي الْأَصْلِ.

[الزهد]

وأما الزُّهد فهو الغِنَى الأكبر، والكثرة الأوفر، وهو شرعٌ؛ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ إمامه، وبيده زِمَامُهُ، فأقربُ النَّاسِ منه أَقْرَبُهُمْ شَبَهًا بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه، وهو الذي فَسَّرْنَا بِهِ قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٥] فجعلنا الريش ما يرتاش به الإنسان من أنواع الكِسْوَةِ، وأصله مأخوذٌ من ريش الطائر، وجعلنا ﴿لِبَاسَ التَّقْوَى﴾ الزُّهْدَ في الدنيا، وقد فَسَّرَهُ غيرنا بغير ذلك، وما اخترناه عندنا هو الأوَّلُ؛ إذ لا يشارك أهلَ التقوى فيه مشاركٌ، وقد يشاركونهم غيرهم في جميع أنواع الرياش.

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ من طريق علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: أَفْطَرَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ بَقْبَاءَ يوم الجمعة، فَاتَاهُ أَوْسُ الْأَنْصَارِيِّ بِقَعْبٍ فِيهِ لَبَنٌ مَخِيضٌ بَعْسَلٌ، فَلَمَّا وَضَعَهُ عَلَى فِيهِ نَحَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: ((شَرَابَانِ يُجْزِي أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ، لَا أَشْرَبُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ، وَلَكِنِّي أَتَوَاضَعُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ قَصَمَهُ اللهُ...، وَمَنْ: وَمَنْ اقْتَصَرَ فِي مَعِيشَتِهِ؛ -وفي رواية أخرى: اقْتَصَدَ- رَزَقَهُ اللهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللهُ أَحَبَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)).

ورويانا عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في مثل ذلك قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ؟ هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللهُ هُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ؟ هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ اللهُ عَنْهُ الْعَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيرًا؟ أَلَا إِنَّهُ مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا وَقَصَرَ فِيهَا أَمَلُهُ أَعْطَاهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ، وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ رَغَبَ فِي الدُّنْيَا وَطَالَ فِيهَا أَمَلُهُ أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدَرِ رَغْبَتِهِ فِيهَا، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَكُونُ أَقْوَامٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمُ الْمُلْكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجْرِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُمُ الْغِنَى إِلَّا بِالْبُخْلِ وَالْفُجُورِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ لَهُمُ الْمَحَبَّةُ فِي النَّاسِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، أَلَا فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ فَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ، وَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى، وَصَبَرَ عَلَى الْبُغْضَةِ فِي النَّاسِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى وَالِدَارَ الْآخِرَةَ أَثَابَهُ اللهُ ثَوَابَ خَسِينٍ صَدِيقًا)).

وهذا كما ترى فضلُ مبین، وربُّعُ مستبین، لا ينكره إلا ظنين^(١)، ولا يرغب عنه إلا أمهين، ولا يتحقق الزهد إلا مع القدرة على الغنى، فرجَمَ الله امرأً قرض الدنيا قرضاً، ولم يدخر فيها عیناً ولا عَرَضاً^(٢).

قوله عليه السلام: وَأَنْصَفَ عَنِ قُوَّةٍ، وَحَلَمَ عَنِ قُدْرَةٍ.

الإنصاف: هو الانقياد للحقوق طوعاً، والتسليم لأمر الله: هو تمليكُ أمر الله تعالى الزمامَ مع القدرة على الامتناع. **والقوة:** هي الآلة والقدرة، وقد تُستعمل في الآلة. **والقدرة** هي المعنى الذي إذا حلَّ الحيُّ أوجب كونه قادراً، هذا عند أهل الكلام، فأما أهل اللغة فيُعبرون بأحدهما عن الآخر لتقاربهما، وقد يجعلون القدرة الاستظهار والغلبة. **والحلم** نقيض السفه والخفة، وهو صبرٌ مخصوصٌ يقع في مقابلة سفه السفهاء وبغي البطراء، هذا إذا وضعت الحرب أوزارها وأخذت نارها، فأما عند كشفها عن ساقها، وإرعادها وإبراقها، وتصميمها وإطراقها، فالحلم في تلك الحال مذمومٌ، وفاعله موصومٌ^(٣)، وقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْلَمِ الأولين والآخرين، والماضين والغابرين، فكان إذا شهر السيف لم يغمده وللكنفر رَسْمٌ يُعْلَم، ولا نابٌ يَضَعُ^(٤).

[الإنصاف]

المعنى في ذلك: أن الإنصاف حسنٌ من كُلِّ أحد، كبيراً كان أو صغيراً، ولا يختلف العقلاء في ذلك، وإنما تقع له المزية العظيمة إذا كان من قَوِيٍّ يَتِمَكَّنُ من الامتناع، وفي ذلك ما روينا: أن يهودياً كان له على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ دينٌ، فجاء إليه يطالبه قبل حلول أجله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((يَا يَهُودِي؛ لَنَا بَقِيَّةٌ يَوْمَنَا)) فقال اليهودي: إنكم يا بني هاشم قومٌ مُطْلٌ،

(١) الظَّيْنُ الْمُتَّهَمُ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنٍّ﴾ [التكوير: ٢٤] هامش (أ).

وبها يتعلق بالقراءات هنا: من قرأ بالطاء: ﴿بِظَنٍّ﴾ أي مُتَّهَمٌ، وهم: أبو عمرو، والكسائي، وابن كثير، وقرأ الباقون وهم: نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، بالضاد: ﴿بِضَنٍّ﴾ أي بخيل.

(٢) الْعَيْنُ: أي الدِّينَارُ والدَّرْهَمُ (النَّقْدُ)، والعَرَضُ: كُلُّ مَا عَدَا النَّقْدَيْنِ، (انظر لسان العرب ٧/ ١٧٠).

(٣) مَوْصُومٌ: مَعِيبٌ، مِنْ الْوَصْمِ، وهو الْعَيْبُ أو الصَّدْعُ فِي الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ يَنْتَوْنَهُ، (انظر اللسان ١٢/ ٦٣٩).

(٤) أي يَعْضُ، قال في القاموس: الضَّيْعَةُ الَّذِي يَعْضُ، وهو مِنْ أَسْأَاءِ الْأَسَدِ، (القاموس المحيط ١١٣٢).

فقام إليه عمر فأغلظ له وتهدّده، فنهاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ وقال: ((نَحْنُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْكَ أَحْوَجُ)) قال: إلى ماذا يا رسول الله؟ قال: ((إِلَى أَنْ تَأْمُرَنَا بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الْأَقْتِضَاءِ، اذْهَبْ مَعَهُ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَأَقْضِهِ دَيْنَهُ، وَزِدْهُ كَذَا وَكَذَا؛ لِمَكَانٍ مَا قُلْتَ لَهُ)) فسار اليهودي غير بعيد، ثم رجع فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، والله ما لي إلى ديني من حاجة، ولكنّا وجدنا صفتك في كتابنا، فما غادر من أمرك شيئاً، وكان في ذلك أنّه لا يزيدك جهلُ الجاهل عليك إلا حِلماً، فأردتُ أن أعلم ذلك، فكان كذلك.

وإن شئت فانظر إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصّته مع رجل نصراني وجد معه درعاً فعرّفها، فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: الدَّرْعُ درعي، لم أبع ولم أهب، فقال النصراني: الدرع درعي، وما أنت عندي يا أمير المؤمنين بكاذب، فترافعا إلى شُريح قاضي أمير المؤمنين، فطلع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى شُريح وقال: يا شريح لو كان خصمي إسلامياً جلستُ معه، ولكني سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يقول: ((صَغُرُوهُمْ كَمَا صَغُرَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَإِذَا كُتِّمَ مَعَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَأَلْحِثُوهُمْ إِلَى مَضَائِقِهِ)) وخصمي نصراني، ثم ادّعى عَلَيْهِ السَّلَامُ الدرع، وأنكر النصراني، فقال شُريح: هل من بينة يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، قال: فالدَّرْعُ درعه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أحسنت، فأخذها النصراني وانصرف، فمشى غير بعيد، ثم رجع فقال: أمير المؤمنين يمشي إلى قاضيه! وقاضيه يقضي بالحق عليه! هذا والله أحكام الأنبياء، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، هي والله درعك يا أمير المؤمنين، تبعثُ الجيش وأنت صادرٌ إلى صفين^(١) فجرزتها من حقبة جملك الأورق^(٢)، قال: أمّا إذا أسلمت فهي لك، ثم حمّله على فرس من أفراسه، فرزق الشهادة يوم النهروان^(٣).

(١) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس [وهي الآن جزء من الأراضي السورية غرب الرقة]، وفيها الوقعة المشهورة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، وكانت في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين بعد وقعة الجمل بسنة، (انظر معجم البلدان: ٣/ ٤١٤).

(٢) في (أ): فجرزتها من بعيرك الأورق.. الخ، قال في هامش (أ): الأورق الذي فيه سوادٌ وعبرة، تمت ضياء.

(٣) النَّهْرَوَانُ: بلدة على مقربة من الكوفة في طرف صحراء حُرُوراء، ويوم النهروان هي الوقعة المشهورة لأمير المؤمنين علي عليه السلام على الخوارج المارقين، الذين خطّأوه في التحكيم، وجهروا بعداوتهم، وصاروا

فهذا كما ترى متهمى الإنصاف، وغاية الحلم، ولو تقصينا شرح هذا المعنى وإيراد ما بلغنا من الآثار لطال الكلام، وانتقض الغرض في الاختصار.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عَبْدٌ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْكَفَافَ، وَصَاحَبَ فِيهَا الْعَفَافَ.

الكفاف: هو القدر المساوي للحاجة وسد الفاقة من غير زيادة. **والمصاحبة:** الملازمة. **والعفاف:** هو التحفظ عن الأمر الذي يُخَافُ بمواقعة مواقعة القبيح، يقال: عَفَّ يَعِفُّ إِذَا مَلَكَ نفسه، وأكثر ما يستعملون ذلك في الإزار.

المعنى في ذلك: أن من نظر الدنيا بعين الاحتقار، ولم تطمح نفسه إلى زيتنها، ولم يغتر بزخرفها، واكتفى منها باليسير، وجعل زاده منها كزاد الراكب المُسْتَنَفِر، والوافد المُبَشِّر، وحمى نفسه عن مرعاها الويل^(١)، وتحفّف عن عبثها الثقيل، وجعل العفاف صاحبه مدة أيامها، ولم يتلبس بشيء من آثامها، وزهد في حلالها، وعفّ عن حرامها، ولم يفتن بحطامها، وجعل الآخرة أكبر همّ، ونفر عن جمع الحطام ولَمَمَهُ، فإنّه الناجي من هول الحساب وعَمَمَهُ.

وفي ذلك ما روينا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((مَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ وَالْدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَسِمَ لَهُ)).

قوله عليه السلام: وَتَزَوَّدَ لِلرَّحِيلِ، وَتَاهَبَ لِلْمَسِيرِ.

التزوّد: رَمَ^(٢) الزّاد للسفر، وسُمِّيَ الْمَزْوُودُ مَزْوُودًا، لأنّ زاد المسافر يكون فيه. **والرّحيل:** نقيض الخُلُول، وأصل الرّحيل الرّحل، وأصل الحلول الحُلُّ، وكثُرَ حتى جُعِلَ ذلك لمن لم يعقد رحلاً، ولا يَحُلَّ حبلًا، وقد استُعْمِلَ منه فعُله، قال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿﴾ [قريش: الإلف: العادة، وقريش: القبيلة، ولا يطلق هذا الاسم إلا على مَنْ

له حرباً، واجتمعوا عند ذلك الموضع، ويلقبون بالحرورية؛ نسبة إلى تلك الأرض (حروراء) وسموا مارقة لمروقهم من الدين لثبوت الخبر الصحيح: ((يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))، ا.هـ.

(١) الْمَرْعَى الْوَيْلُ: الْوَحِيم، ا.هـ. قاموس.

(٢) الرَّمُّ: إِصْلَاحُ مَا فَسَدَ وَلَمْ يَتَفَرَّقْ، (لسان العرب ١٢ / ٢٥٢).

وَلَدَهُ النَّصْرُ بْنُ كِنَانَةَ دُونَ بَنِي مَالِكٍ وَغَيْرِهِمْ، وَالرَّحْلَةُ: مَا قَدَمْنَا مَعْنَاهُ مِنَ الْإِرْتِحَالِ، وَهُوَ شَدُّ الرَّحْلِ عَلَى الْجِمَالِ، وَالشَّتَاءُ فَصْلُ الْبَرْدِ، وَالصَّيْفُ فَصْلُ الْحَرِّ، وَكَانُوا يَرْحَلُونَ فِي الشَّتَاءِ إِلَى تِهَامَةٍ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ. **وَالتَّاهُبُ**: جَمْعُ الْأُهْبَةِ وَهِيَ: الزَّائِئَةُ وَالْعُدَّةُ، وَأَحْسَبُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنَ الْإِهَابِ الَّذِي يَتْرُكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ آلَةِ السَّفَرِ.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ فَطَاعَهُ، وَعَرَفَ عَدُوَّهُ فَعَصَاهُ.

أعقل الناس أزيدهم وأوفاهم عقلاً. **والعبد** هو المملوك المذل، أخذ من قولهم طريق مُعَبَّد أي مذل، وأخذ العقل من عَقَلَ الناقة لأنه الذي يمنعها مما يُكره وقوعه من قِبَلِهَا، فلما كان العقل يمنع من استعمله من مُوَاقِعَةِ مَكْرُوهَاتِ الْقَبَائِحِ سُمِّيَ عَقْلاً، وَأَصْلُ الْعَقْلِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِيهِ جَمِيعُ الْمَكْلُفِينَ عَشْرَةَ عُلُومٍ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَمَوْجُودَةٌ فِي كُتُبِهِمْ، وَتَلَحُّقُ بِهَا زِيَادَاتٌ مَكْتَسِبَةٌ وَاخْتِصَاصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْهَا الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ التَّائِسِ مَفْصَلاً، وَكَيْفِيَّةِ التَّنْفِيرِ، وَمَا يَزِرُ لِلْإِنْسَانِ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَمَا يَزِرُ الْمَحَبَّةَ، وَمَا يَزِرُ الْعِدَاوَةَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالتَّرُوكِ، وَمِنْهَا الْعِلْمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِمَّا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِشَاهِدِ الْحَالِ، وَبِمَجْرَى الْعَادَاتِ، وَمِنْهَا الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الزِّيَادَةِ دُونَ النِّقْصَانِ، وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ.

والمعرفة بالله تعالى هي العلم بالله، وهي أصلٌ لكل خير، وهي نقيض إنكاره تعالى والجهل به، والطاعة نقيض المعصية، وللإنسان عَدُوَّان أحدهما النفس، والثاني الشيطان، وسائر ما يَتَوَهَّمُ عَدُوًّا فِي حُكْمِ الْجَنْدِ لَهَا، وَالْمَبْنَى عَلَيْهِمَا.

والمعنى في ذلك: أَنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ مَنْ اسْتَعْمَلَ عَقْلَهُ فِي نَجَاةِ نَفْسِهِ وَفَكَكَ رَقَبَتَهُ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ، وَعِبَادَةِ خَالِقِهِ، إِذِ الْعَقْلُ لَا يَنْفَعُ إِلَّا بِالْإِسْتِعْمَالِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((قَسَمَ اللَّهُ الْعَقْلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ كَمَلَ عَقْلُهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَلَا عَقْلَ لَهُ: حُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الطَّاعَةِ لَهُ، وَحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِ جَلَّ وَعَزَّ)) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْفَقْهُ، وَأَفْضَلُ الدِّينِ الْوَرَعُ)).

وعَقَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ معرفةَ الله تعالى بالطاعة له لإدخاله حرف التعقيب الذي هو الفاء^(١)، لأن معرفة الله تعالى أصلٌ في طاعته، إذ تستحيل طاعته تعالى من دون معرفته حق معرفته، بِلا بُدٍّ ولا مَثِيلٍ، مختصاً بصفات الكمال الواجبة له لنفسه، ولا بُدٌّ في طاعته تعالى من الإجلال والتعظيم الذي يَتَّبِعُ وقوعه لغير مُسْتَحَقِّهِ، فإذا عرف ربَّه الذي خلقه وربَّاه، وأغناه وأقناه، وأرشده وهده، فأطاعه وتحرَّى رضاه؛ كان أعقل الناس، لأنه أثر هُده على هَواه، وعَمِلَ لِأُخْرَاه، وأعرض عن دنياه. وكذلك من عرف عدُوَّه الذي هو نفسه الأمانة بالسوء، والشيطان الذي هو لنا بنص القرآن الكريم عدُوٌّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فعاداه وعصاه ولم يَمِلْ أبداً إلى رضاه؛ فاز بالنجاة وظَفِرَ بالحياة، ومن أطاع عدُوَّه رمى به في المهالك، وأسلكه صُنُكَ المسالك، فأوبقه وردَّاه.

وإنما قلنا ذلك لأنَّ من لم يعرف عدُوَّه لم يتمكن من الاحتراز منه، والنفس أشدُّ العدُوِّين لِزَاماً، وأنفذهما سِهَاماً، وأبعدُهما مَرَاماً، فمن أعطاهما هَواها، فقد أعطاهما تَوَاهَا^(٢)، فالمفلح من زكَّاهَا؛ طَهَّرَها وأنماها، والخائب من دَسَّاهَا؛ دنسها وعَيَّاهَا، وفي الجحيم ألقاهَا، باثرة حائرة، خائفة طائرة، مُروَّعة نافرة، تظنُّ أن يُفْعَلَ بها فاقرة، الظنُّ هاهنا بمعنى العلم، والفاقرة ما تَكْثُرُ فَقَارَ ظهره إذا حُمِّلَ ثَقِيلَ وِزْرِهِ.

قوله عليه السلام: وَعَرَفَ دَارَ إِقَامَتِهِ فَأَصْلَحَهَا، وَعَلِمَ سُرْعَةَ رِحْلَتِهِ فَتَزَوَّدَ لَهَا.

المعرفة نقيض الإنكار. والدار هي التي يسكنها الدَّوَار. والإقامة نقيض الرِّحْلَة. والإصلاح تنقيتها من المفسدات، وتنزيهاها من المؤذيات. والعلم هو العرفان. والسرعة نقيض الرِّثِّ والبطء والأناة. والرَّحْلَة نقيض الإقامة. والتزود جمع الزاد. **المعنى في ذلك:** أن من عرف دار إقامته التي هي دار الآخرة؛ لأنَّ دارنا هذه طريقٌ على الحقيقة، وليست بدار نزول على الحقيقة، وقد قال بعض حكماء العرب:

فَلَيْسَ لِعَيْشِنَا هَذَا مَهَاءُ^(٣) وَلَيْسَتْ دَارُنَا الدُّنْيَا بِدَارٍ

(١) في قوله: ((عَرَفَ رَبَّهُ فَأَطَاعَهُ)) من أصل الحديث.

(٢) التَّوَى: الهلاك، يُمَدُّ وَيُقَصَّرُ، وفي الحديث: ((لَا تَوَى عَلَى مَالِ الْمُسْلِمِ))، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) المَهَاءُ: الطَّرَاوَةُ والحُسْنُ، (لسان العرب ١٣ / ٥٤١).

وإنما يطلق عليها اسم الدار بقرينة، فيقال: دار الزوال، ودار الضلال، ودار الهلاك، ودار الغرور، ... إلى غير ذلك من ألقابها الشرعية، وأسائها اللغوية.

[موعظة شافية كافية]

فأما الآخرة فهي دار القرار، ودار المقامة، ودار الحيوان للمؤمنين، ودار البوار، ودار النكال، ودار العذاب للعاصين، وكلا الدارين دائمة، وأهلها فيها دائمون، فأهل النعيم في نعيمهم لا يسأمون، وأهل العذاب في عذابهم لا يُرحمون، فإذا كانت دار الإقامة إحدى هاتين الدارين، وكانت الرحلة إليها سريعة، وكان الزاد ليس إلا العمل الصالح، وكان مَنْ أُمِرَ أَنْ يُصْلِحَ دار إقامته قد أَتَى مِنْ قَبْلِ نفسه، وَأُسْكِنَ فِي العذاب الأليم، مِهَادُهُ الجحيم، وشرابه الحميم، وطعمه الزقوم، وفاكهته السَّموم، وكان من لم يتزود لرحلته أُرْعِجَ بغير زاد، ولم يمهَلْ لِمَعَاد، فأَيُّ عذر لمن اغتر بما هذا حاله، وبأَيِّ شَيْءٍ يُأَسِّي نفسه، ألم ينظر الداخلين إلى الدنيا يدخلونها بغير شيء، والخارجين منها يخرجون منها بغير شيء، والمتمتعين بين هاتين الحالتين من الملوك فَمَنْ دونهم كأَنَّهُمْ في أضغاث أحلام، وزيادتهم إلى نقصان، وربحهم إلى خسران، آخر صحتهم سَقَم، ونهاية شببتهم هَرَم، وغاية ملكهم عَدَم، ومنتهى حياتهم الموت، ووجدانهم الفوت، أكثر لذة ملكهم زوال عقله بالخمَر، أو استخفاف حلمه بالصيد، فإذا عاد إليه عقله أَشْتَغَلَ بِهِمْ لا تنحَلُّ عُقْدُهُ، ولا يتقوَّم أَوْدُهُ، فهذه حاله حتى يُدعى إلى الحَكَم العدل الذي لا يجور، فوقف بين يديه كئيباً حسيراً، لا يملك فتيلاً ولا نقيراً^(١)، ولا يعرف قبلاً ولا دبيراً^(٢)، قد جمع كثيراً، وخرج فقيراً، فصارت الجلالة واللذة عليه حسرة، والأملاك تبعه، والمملك حجة و﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾^{آلَا}

(١) الْفَتِيلُ: مَا يَكُونُ فِي سَقِّ النَّوَةِ، وَالنَّقِيرُ: الثُّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَةِ، وَالْقَطْمِيرُ: الْقُسَيْرَةُ الَّتِي عَلَى النَّوَةِ، تَمَتْ ضِيَاءُ، هَامِش (أ).

(٢) مَثَلٌ لِلْعَرَبِ: فَلَانٌ مَا يَدْرِي قَبِيلاً مِنْ دَبِيرٍ؛ الْمَعْنَى مَا يَدْرِي شَيْئاً. ولها الكثير من التفسير والمعاني شرحوها في كتب الأمثال والمعاجم: فَقَالُوا: الْقَبِيلُ قَتْلُ الْقُطْنِ، وَالِدَبِيرُ: قَتْلُ الْكَتَّانِ وَالصُّوفِ. وَيُقَالُ: الْقَبِيلُ مَا وَلَيْكَ وَالِدَبِيرُ مَا خَالَكَ.

لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٣٧﴾ [الأنعام] فقليل له: هذه دار إقامتك لم تصلحها، وسرعة نقلتك لم تزود لها، فما عذرک، فُسْجَرٍ فِي الْجَحِيمِ، وَصُبَّ فَوْقَ رَأْسِهِ الْحَمِيمِ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان] وَأُخْبِرَ بَأَنَّ لَا مَوْتَ وَلَا فَوْتَ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مرم: ٣٨] قَالَ: يَقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: خَلُودٌ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قَالَ: قُضِيَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الْخُلُودُ فِيهَا، وَقُضِيَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْخُلُودُ فِيهَا.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ مَا صَحِبَهُ التَّقْوَى، وَخَيْرَ الْعَمَلِ مَا تَقَدَّمَهُ النَّيَّةُ، وَأَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَخَوْفُهُمْ مِنْهُ.

خيرُ الزاد أفضله. والزاد ما يأخذه المسافر من المتاع في طريقه. وصحبه بمعنى قارنه ولازمه. والتقوى هو الخوف لله تعالى، وليس خيرٌ هاهنا يفيد أنَّ دونه من الزاد ما هو نافع؛ ولكن ما صحبه التقوى، فمعنى ذلك أنَّ الخير كله مجموع فيما صحبه التقوى، وما لم يصحبه التقوى فلا خير فيه، وكذلك الكلام في العمل؛ لأنَّ ما لم تتقدمه النية من الأعمال الصالحة فلا نفع فيه ولا بركة، والكلام فيه على نحو ما تقدم. وأعلى الناس معناه أرفعهم منزلة عنده تعالى. والمنزلة هي الحالة والمَرَّة.

وأراد بقوله عند الله المقام الذي لا حكم فيه إلا الله وهي دار الآخرة، وأنه سبحانه ملك الدنيا والآخرة، ولكنه قد خلَّى في الدنيا، وَمَكَّنَ وَخَيْرَ وَيَبِّنَ؛ تعريضاً للشواب وتمكيناً من الفعل والترك ليصح معنى التكليف.

والوجه الثاني في قوله: عند الله تعالى، يريد في علمه تعالى، كما يقول الحاكم: عندي أنَّ الأمر كذا وكذا، معناه في علمي ومقتضى أمري.

وأخوفهم منه معناه أخشاهم له، لأنَّ الخوف والخشية معناهما واحدٌ، والمؤمن لا يزال خائفاً حتى يلقي الله سبحانه، وقد حكى الحكيم سبحانه ذلك عنهم في كتابه الكريم بقوله:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ معناه خائفين ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَيْتَنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور] نوع من أنواع العذاب نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله الفوز بجزيل ثوابه.

وإن أردت العَجَبَ الذي يشغل القلوب والأفكار فانظر إلى الصفوة المكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، وقد غُفِرَ له ما تأخر من ذنبه وما تقدم، فإنه خاف الله تعالى خوفاً عزفه عن الدنيا جملة، فما أَدْخَرَ منها كُرَاعَ نملة، وقد كان مَلِكَ جزيرة العرب من عُمان إلى جُدَّة، ومن عدن إلى طرار الشام^(١)، وَجَبِيَ إِلَيْهِ خراجها، فما خَلَّفَ ديناراً ولا درهماً، ولا ذهباً ولا فضة، وخَلَّفَ درعه مرهونةً عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، وعَرَّضَ نفسه للناس في جناياتٍ إن كانت منه إلى أحدٍ منهم في قصصٍ طويلة خوفاً من الله تعالى، وقد قال لبعض أصحابه في حديث طويل: وقد قال له: يا رسول الله؛ لَسْتُ كأحدنا؛ قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد غضب: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَعَرَفُكُم بِمَا أَتَّقِي)) وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ خَمِيصَ البطن، مُنْخَرَقَ القميص، يُمَسِّي سَاهِرَ العين، يَبْكِي ويتململ ويصلي حتى تورمت قدماه، فكيف بنا وقد خوطبنا بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٦١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٦٢﴾﴾ [الزلزلة].

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ الواجب على العاقل الاستعداد والتأهب للمعاد، واتخاذ التقوى صاحباً في جميع الأعمال لينجو غداً من الأهوال، وأن يُقَدِّمَ النية على عمله ليقع خالصاً لربه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والإخلاص لا يكون إلا بالنية؛ لأنه لا يجوز إثبات أحدهما ونفي الآخر، لا تقول: أخلصتُ العمل لله وما نويتُهُ، ولا نويتُهُ وما

(١) في جميع النسخ: طرار، ولعله: أطرار، بمعنى أطراف، وقال في هامش الأصل: يعني دومة الجندل، ا.هـ. ودومة الجندل: أهل اللغة يضمون الدال، وأهل الحديث يفتحونها، وهي حصن منيع ومقل حصين، والآن تتبع منطقة الجوف السعودية في أقصى الشمال واقعة على بعد ثمان مراحل من تبوك في الشمال الشرقي منها، (انظر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ص ٣٥٢).

أخلصته، بل يُعَدُّ من قال ذلك مناقضاً جارياً مجرى من يقول: نويت وما نويت، وقد روينا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى)) فأخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الأعمال لا تكون أفعالاً نافعة عند الله تعالى إلا بالنيات، وأن العبد لا يكافأ بالثواب إلا على ما نوى من الأعمال به وجه الله تعالى، وأخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أعلى الناس منزلةً عند الله تعالى أخوفهم منه، لأنَّ الخائف له لا بد أن يكون عارفاً به حقيقة المعرفة، وعند ذلك يُكَبَّرُ جلاله وَيُعْظَمُ سُلْطَانُهُ، ويتوقع نزول وعيده، ويذكر إيقاعه عزَّ وعلا بالأمم الماضية، والقرون الخالية، وَيُجَوِّزُ أن ينطبق جفناه في الدنيا فلا يفتحان إلا بين يدي ربه سبحانه في الآخرة في ذلك المقام الهائل عند الملك العادل، صادق الوعد والوعيد، الفعَّال لما يريد، وقد توعَّد من أتاه على غير عهده بسطورة شديدة، موبقة عتيدة، لا يُجِيرُ منها ولا ناصر، ولا غاية لها ولا آخر، هذا مع ما يُخْشَى قبله من هجوم الصاخة والطامة والواقعة والقارعة، الصاخة تصخ لها الأسباع من فرط الاستباع حتى تَسْتَكَّ أو تكاد، فلا يلتفت من روعها إلى الأموال والأولاد، والطامة تَطُمُّ على العباد، وتغمر البلاد، أخذت من الطَّمِّ وهو البحر الرَّجَّاف متباعد الأطراف، والواقعة التي تقع بكلِّكها^(١) على البرية، فلا تُبْقِي منهم بقية، والقارعة تقرع الأسباع والقلوب فتبعث الأحران والكروب، فكيف يسلو مَنْ تفكر في هذه الأحوال، أو يشتغل بالأهلين والأموال، وَمَنْ لك بالخازم المشمَّر، والغادي المبكر، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الخائفين، ويصلي على محمد وآله الطيبين.

(١) أي بَصْدَرِهَا، وَالْكَلْكُلُ: الصَّدْرُ، تمت قاموس.

الحديث السادس عشر

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ حَالِهِ وَنَسَبِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا مِنْ شُبْهَةٍ فِي الدِّينِ ارْتَكَبُوهَا، أَوْ شَهْوَةٍ لِلذَّاتِ آثَرُوهَا، أَوْ غَضَبَةٍ لِحِمِيَّةٍ أَعْمَلُوهَا، فَإِذَا لَاحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ فَاجْلُوهَا بِالْيَقِينِ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَكُمْ شَهْوَةٌ فَاقْمَعُوهَا بِالزَّهْدِ، وَإِذَا عَنَّتْ لَكُمْ غَضَبَةٌ فَادْرُؤُوهَا بِالْعَفْوِ، إِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَيَقُومُ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، أَلَمْ تَرَأِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢)).

معنى يُؤْتَى الناس يؤخذون ويهلكون، كما يقول صاحب الثَّغَرِ: أخشى أن يأتيانا العدو من هاهنا، وقد قال تعالى: ﴿قَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ [النحل: ٢٦] ويقول قائل أهل اللغة: أُتِينَا من كذا وكذا، إذا نزل بهم المحذور من هنالك، فأكثر ما يستعمل أُتِينَا في المكروه، وإن كان الأصل في الإتيان يقع في المحبوب والمكروه؛ فقد صار المكروه به أخص.

ويوم القيامة هو يوم القيام إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين] معناه: إلى رب العالمين، والله أعلم، ويحتمل أن يكون قيامهم له وحده لا لأحد سواه لثلاثتهم أن لصاحب الصُّورِ في ذلك صُنْعًا، بل قيامهم لله تعالى وحده، وأُحِقَّتْ الهاء فيها للمبالغة، ومثله كثير، والمراد بإحدى ثلاث أي بواحدة من ثلاث، ثم يَبَيَّنْهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال:

إِمَّا مِنْ شُبْهَةٍ فِي الدِّينِ ارْتَكَبُوهَا.

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو موسى جعفر بن إبراهيم بن الهادي قال حدثنا عبد الكريم بن الهيثم قال حدثنا أبو البيان عن شعيب عن أبي الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) الجزء الأخير من الحديث: ((إِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... الخ)) رواه بألفاظ متقاربة: البيهقي في شعب الإبان: (٥٢٤/٩) تحت رقم (٧٠٥٠) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٧/٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (٦٨/٧) رقم (٣١٣٨) وابن عساکر في تاريخ دمشق (٨٧/١٨) وابن كثير في البداية والنهاية (٣١٩/١٠) وابن أبي الدنيا، وذكره في تخریج أحادیث الکشاف.

والشبهة: هي التي تُشَبِّهُ الحَقَّ وتلبس به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٦٩] أي يلبس بعضها ببعض لاشتراكها في اللون والصورة، وهذا يحتمل أن يُراد بها المتدينون من كلِّ فرقة من فرق الكفر والإسلام؛ لأنهم ما أُتُوا إِلَّا من الشبهة، ويحتمل أن يخص بها فرق الإسلام الضَّالة، وأن يكون الدين المعهود هو دين الإسلام. **والارتكاب:** هو اِفْتِعَالٌ من الركوب، فكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: رَكِبُوهَا، وَرُكُوبُهُمْ لها اعتقادهم لها وعملهم عليها، وكان أكثر ما يُتَصَرَّفُ به في الأمور وتقضى به الحاجات الركوب، فحُمِلَ الاعتقاد عليه استعارةً وتشبيهاً، وهي من غرائب الاستعارات وعجائب العبارات، وَلَمْ لا يكون كذلك صلى الله عليه وهو من قريش البطاح، وَرُبِّي في بني سعد، وهم فَصْحَاءُ العرب، وكان روح القدس يؤيده ويعينه.

والشهوة: هي المعنى الذي يُوجِبُ كون جُمْلَةِ الحي مشتهياً بشرط الاختصاص.

واللذة: هي ما يحصل عقيب إدراك المشتهى، وقد يكون المشتهى مباشراً، وقد يكون منفصلاً، فتقع اللذة عقيب المشاهدة والذكر والتصور، والإنسان يجدها من نفسه. **وإيثار الشهوة** تقديمها على غيرها، هذا أصل الإيثار أن يُقَدِّم فعلاً على غيره مع الحاجة إلى ذلك، وقد يكون محموداً، وقد يكون مذموماً باختلاف القصود والوجوه.

والغضب: هي واحدة الغَضَب، وهو الغيظ والحَقُّ، وقد يكون محموداً إذا كان الغضب لله، فإن كان للحمية والأنفة كان مذموماً. **والحمية:** هي الكِبَرُ والأنفة، وهو سَفَهُ الحق واستصغار الناس، وإعمال الحمية يراد به فعلها، ولا يجوز فعل الحمية، ولا العمل لأجلها.

المعنى في ذلك: أن الناس لا يُؤْتَوْنَ يوم القيامة في نفوسهم إتياناً يوجب هلاك النفوس وخلودها في العذاب الدائم إِلَّا من إحدى الثلاث التي ذكر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ.

[الشبهة]

أَوَّلُهَا الشبهة في الدين؛ لأنها أصل لكل ضلالة، وفتنتها أعم، وأمرها أهم، فكم من عالم قد طرحت به الشبهة في بحار الضلال، وكم من متعلم أوردته أودية الوبال، وكم من جاهل قد دَحَتْ^(١) به في مِيدَانِ النكال، ولا يعتصم من فتنتها إِلَّا من جعل خوف الله تعالى عُذَّتَهُ، والفرع

(١) الدَحُّ: الدَّفْعُ وَإِلْصَاقُ الشَّيْءِ بِالْأَرْضِ، وَهُوَ مِنْ قَرِيبِ الدَّسِّ. (لسان العرب ٢/ ٤٣٣)

إِلَيْهِ عُمِدَّتْهُ، وَالنِّصْفَةَ شَعَارَهُ، وَسُؤَالَ الصَّالِحِينَ دُثَارَهُ، لَأَنَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ)).

واعلم أيها الأخ أيَّدك الله أَنَّ المعرفة بالدليل تُنْهَجُ لك السبيل، وأكثر ما أُنِيَ الناس من جهلهم بالدليل، وهو مأخوذ من دليل الطريق، قال قائل أهل اللغة^(١):

إِذَا الدَّلِيلُ اسْتَأْفَ أَخْلَافَ الطَّرِيقِ [.....]

فُسِّمِي دليلاً لَأَنَّهُ يرشد ويوصل إلى الغرض المطلوب، فلما كان إذا نظر العاقل فيه على الوجه الصحيح أوصله إلى العلم؛ فهو دليل، وهو اليقين الذي تسكن إليه النفس، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتِيَنَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] يعني علمتها وسكنت إليها، ولا يصح لها علم في ما يجوز ورود الشبهة عليه إلا بالدليل، إذ حصول العلم بغير دليل فيما هذا حاله مستحيل، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ برواية النعمان بن بشير^(٢) أَنَّهُ قَالَ: ((الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْرِفُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَرَكَهُنَّ اسْتَبْرَأَ مِنَ الدِّنْيَةِ، وَمَنْ وَاقَعَهُنَّ وَاقَعَ الْحَرَامَ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ رَجُلٍ يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى فَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَحِمَى اللَّهِ حِمَارُهُ)) وفي هذا تنبيه على أَنَّ الصواب عند وقوع الشبهة في بعض

(١) القائل هو رُؤْيَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ، تقدمت ترجمته، واستأف معناه: شَمَّ، وعجز البيت: (كَأَنَّهَا حَفْبَاءُ بَلْقَاءِ الرَّقْوَ) من ديوان رُؤْيَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ، وفي الديوان: أخلاق بدلا من أخلاف، وأخلاق الطرق: قديمها وداثرها. ا.هـ.

(٢) النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي، كان من حزب معاوية بصفين، وغزا بعض نواحي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام، وولي حمص لمعاوية ثم ليزيد، ثم قُتِلَ بَحْمَصِ سنة أربع وستين. قال الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام: وقد ظهر سرّ التسمية النبوية له بـ(عُدْر) فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سمّاه بذلك في الصغر، في قصة ذكرها ابن عبد البر، فهو من رؤوس الغادرين، وتحت لوائهم يحشر.

قال في الاستيعاب: كان أميراً على الكوفة لمعاوية سبعة أشهر، ثم كان أميراً على حمص لمعاوية، ثم ليزيد؛ فلما مات صار زُيْرِيّاً، فخالفه أهل حمص، فأخرجوه منها، واتبعوه وقتلوه.

وفيه: أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَهْرَبَ، فَطَلَبَهُ أَهْلُ حِمَصَ، فَقَتَلُوهُ، وَاحْتَرَوْا رَأْسَهُ... إلخ (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام ط ٣ - ج ٣/ ٢٥٨) (وانظر الاستيعاب ٤/ ١٤٩٨)، والقول في الرواية عنه كالقول في الرواية عن غيره في حال ستره قبل انكشاف أمره، ولأن الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها من كلّ من وجدها معه، كما ذكره الإمام خلال شرح الحديث الثاني والثلاثين... ا.هـ.

الأمر الإمساك عن التقشُّم، وتعرَّف الصواب بالدليل، بحيث لا يبقى في قلب الإنسان ريب ولا شك، لأنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ قضى بأنَّ مَنْ واقع الأمور المشتبهات واقع الحرام.

[الشهوة]

فأمَّا الشهوة فهي تتعلق^(١) بوجهين، البطن والفرج، والبطن أعمُّ، وهما الأجوفان اللذان ذكرهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتِهِمْ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء] فأَيُّ لَذَّةٍ تَتِمُّ في مأكول لمن عَلم أن عاقبة أكله تعود ناراً وعاراً، وخزياً وشناراً، وقد قال الشاعر^(٢):

[تَبَقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَعْبَتَيْهَا] لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

وقد جعل الله تعالى عاقبة المأكولات والمشروبات في الدنيا إلى الأمور المستقذرات التي تنفُر عنها النفوس، وهذا لعمر الله مُزْهَدٌ لكل عاقل، هذا مع التبعة العظيمة في الآخرة.

[قصة أمير المؤمنين مع أبي نيزر]

وفي الرواية أنَّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام دخل على أبي نيزر، وكان أبو نيزر هذا من أولاد ملوك الحبشة، فتاب إلى الله تعالى، وأتى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ، فخدمه في منازل حتى قبضه الله تعالى إليه، صلى الله وملائكته عليه وآله، فانتقل إلى علي عَلَيْهِ السَّلَام، فأنزله العين التي تُعرف اليوم بعين أبي نيزر تنسب إليه، وكان إنزاله إياها قبل خروج نهرها الأعظم، وفيها ربيع^(٣) صغير، فدخل إليه عَلَيْهِ السَّلَام فقال: يا أبا نيزر هل عندك طعام؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس إلَّا

(١) كذا في الأصل، وفي بقية النسخ: تعلق، بناء واحدة.

(٢) شطر البيت الأول زيادة من كتاب شرح نهج البلاغة، ولم ينسب إلى قائل، وكان الإمام الحجة مجد الدين يتمثل بهذين البيتين:

تَقْنَى اللَّذَازَةُ مِّنْ نَّالٍ بُغْيَةٍ مِنْ الْحَرَامِ وَيَنْتَقِي الْإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبَقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَعْبَتَيْهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

(٣) الربيع: هو النهر الصغير أو الجدول الصغير.

قَرَعَ مِنْ قِرْعِ الضَّيْعَةِ، وَمَا بِهِ آيَةٌ إِلَّا آيَةٌ لَا أَرْضَاهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَلَيَّ بِهِ، فَإِنَّ أَكْفَنًا أَنْظَفَ الْآيَةِ، فَجَاءَ بِهِ فَأَكَلَ حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الرَّبِيعِ فغَسَلَ يَدَيْهِ، وَمُضْمَضٌ فَاهٍ، وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى لَحْيَتِهِ وَصَدْرِهِ وَبَطْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَسَّ مَنْ أَذْخَلَهُ بَطْنُهُ النَّارَ، ثُمَّ قَالَ: عَلَيَّ بِالْمَعُولِ، فَجِيءَ بِهِ، فَتَزَلَ فَجَعَلَ يَضْرِبُ فَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا، ثُمَّ طَلَعَ وَجْبَيْنَهُ يَقْطُرُ عَرَقًا، ثُمَّ نَزَلَ فَجَعَلَ يَضْرِبُ، وَهُوَ يَهْمُهُمْ، فَاَنْدَهَقَتْ عَلَيْهِ كَأَنَّهُا عَنْقُ جَزُورٍ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَامِدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَالَ: عَلَيَّ بِدَوَاةٍ وَقِرطَاسٍ، فَوَقَفَهَا عَلَى فَقَرَاءِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَأُطْلِقَ لِأَبَوَيْنَا الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَيْدِيَهُمَا فِيهَا، وَلَنَا مِنْ بَعْدِهِمَا دُونَ سَائِرِ أَوْلَادِهِ وَأَوْلَادِهِمْ صَلَوةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ تَعَلَّقَتْ بِهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ.

وكذلك رويْنَا عَنْ سَلَمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ اسْتَلْقَى عَلَى الْمَأْثُورِ، وَلَبَسَ الْمَشْهُورَ، وَرَكِبَ الْمَنْظُورَ، لَمْ يَرِخْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)) ونحن نحمل هذا عَلَى الْمُحَرَّمَ وَالْمُتَنَبِّسِ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ غَيْرُ ذَلِكَ، فَيَا لَهَا مِنْ شَهْوَةٍ مَا أَوْخَمَ عَاقِبَتَهَا، وَأَمَرَ تَبَعَتَهَا، وَأَعْظَمَ نَغَصَتَهَا، وَأَسْرَعَ نَكَالَهَا، وَأَدْهَى وَبَالَهَا.

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَرْجِ مِنَ الشَّهَوَاتِ فَلَا مُرَّ فِيهِ أَظْهَرُ، وَرُكُوبُهُ أَدْهَى وَأَكْبَرُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإِسْرَاءُ] وقد تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَفَاكَ ظَاهِرُهَا فِي الزَّجْرِ عَنْهَا، وَالْفِرَارِ مِنْهَا، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الْهَائِلَةُ، وَهِيَ الْفَحْشَى الَّتِي هُوَ الْقُبْحُ الْمُنْتَاهِي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ بِمَعْنَى كُرْهٍ وَقَبْحٍ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ غَضَبُ الرَّبِّ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا الْعِبَادُ، وَلَا يَقُومُ لِعُزْبَةِ تَعَالَى الْحَيَوَانَ وَلَا الْجِمَادِ، وَقَدْ تَجَلَّى سَبْحَانَهُ لِلْجِبَلِ غَاضِبًا، بِمَعْنَى أَظْهَرَ لَهُ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ، فَجَعَلَهُ دَكَّا، وَلَا أَطُولُ وَلَا أَقْوَى مِنْهُ، فَكَيْفَ بَابَنِ آدَمَ الضَّعِيفِ الْمُسْكِينِ، وَمِنْهَا اخْتِلَاطُ النَّسْلِ، وَمِنْهَا أَنَّ فَاعِلَهُ يُسْتَصَغَّرُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُسْتَخَفُّ بِهِ الْجَمِيعُ، وَيُعَدُّ خَائِنًا عِنْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ النَّصْفَةِ؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ لِلنَّاسِ مَا لَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ.

وقد رويْنَا عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((فِي الزَّانِي سِتُّ خِصَالٍ: ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ وَيُعْجِلُ الْفَنَاءَ، وَيَقْطَعُ الرِّزْقَ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ فَسَوْءُ الْحِسَابِ، وَسَخَطُ الرَّحْمَنِ، وَالْخُلُودُ فِي النَّارِ)).

[الغضب]

وأما الغضبُ فقد قدمنا فيه الكلامَ، وهو شرُّه في النَّفْسِ، وَحرارةٌ في القلبِ، وهو جمرَةٌ تتوقَّدُ في جوف ابن آدم، فإذا توقدتْ أضرَمها الشيطان، وألقى عليها حطب الجهل، وأمَدَّها بجمر العصبية، فأحرقت الحسنات عن كُثْب، وتناهت في الأَجِيج واللهب، فكم من قَصْرِ هَدَم، وإلٍّ (١) صَرَم، وأنف صَلَم، ورأسٍ صدم، فنعوذ بالله من شرِّه، وَقَلَّ ما يطفئ ناره من المياه إلا ماءُ ذِكْرِ الله تعالى، وتلجُّ برِد معرفته؛ لأنَّ بذكر الله تطمئن القلوب، وبمعرفة تندفع الكروب.

وهو كما ذكرنا على وجهين: مذموم ومحمود، فما كان لغير الله تعالى فهو مذموم؛ كالغضب في أمور الدنيا ومضارها ومنافعها وحقوق النفس، وفي ذلك ما روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((مَنْ رَدَّ غَضَبَهُ دَفَعَ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَيْبَهُ، وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى اللهِ قَبْلَ اللهِ عَذْرَهُ)).

فأما الغضب لله تعالى وفيه؛ فذلك من كِبَارِ الحسنات، ومُوجِبِ العالي من الدرجات، وقد روينا عن علي عليه السَّلام قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلَّهِ تَعَالَى: يَا رَبِّ؛ مَنْ أَهْلَكَ الَّذِينَ تُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِكَ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّكَ؟ قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: الطَّاهِرَةُ قُلُوبُهُمْ، الْبَرِيَّةُ أَيْدِيهِمْ، الَّذِينَ يَكْتُمُونَ بِطَاعَتِي كَمَا يَكْتُمِي الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ بِاللَّبَنِ، الَّذِينَ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِي كَمَا تَأْوِي الطُّيُورُ إِلَى أَوْكَارِهَا، الَّذِينَ يَغْضَبُونَ لِمَحَارِمِي إِذَا اسْتُحِلَّتْ كَالنَّمْرِ إِذَا طُرِدَ)) فقد رأيت كيف أتى هذا الخبرُ الشريفُ على جميع ما تقدم.

أما طهارة القلوب فمن فاسد الاعتقادات، ودنس الشبهات، وأما براءة الأيدي فمن رجسِ الفاحشات، ومَسِّ المحظورات، وخَصَّ الأيدي بذلك لأنها المؤدِّية إلى الفروج والبطون، وأما الأُوْيُ (٢) إلى المساجد: فهو للقيام بواجبات الصلوات، المغارب والعَمَات، وأما الغضب لله: فقد

(١) الإِلُّ بِالْكَسْرِ: هُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْعَهْدِ أَوِ النَّسَبِ وَالْقَرَابَةِ. وَلَهُ مَعَانٍ أُخْرَى. (انظر النهاية ١/ ٦١).

(٢) هي المصدر من أوى، يأوي أوياً. قال في القاموس المحيط: أُوِيْتُ مَتَرِي، وَإِلَيْهِ أُوِيَّا، بِالضَّمِّ وَيُكْسَرُ.

جعل في مقابلته ظلَّ العرش المجيد في المقام الشديد، وشبهَ غضبَ الغاضبين لله تعالى بغضبِ النمر، وقد علمت أنَّ النمر أقوى السباع غضباً، وأقلُّها احتيلاً للغيط، ومن ذلك قولهم: تَنَمَّرَ فلانٌ، إذا اشتد غضبه، وقولهم: فلانٌ لا بُسَّ جلد النمر.

قوله عليه السلام: فَإِذَا لَاحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ فَاجْلُوهَا بِالْيَقِينِ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَكُمْ شَهْوَةٌ فَاقْمَعُوهَا بِالزُّهْدِ، وَإِذَا عَنَّتْ لَكُمْ غَضَبَةٌ فَادْرُؤُوهَا بِالْعَفْوِ.

لا يُقَالُ لاح إلا للشيء إذا كان يبدو في الحين بعد الحين، كما يلوح البرق والشيء الصقيل، وكذلك حال الشبهة؛ لأنها لا تستقر في أذهان أهل النظر والتحصيل، وقد قدمنا الكلام في تسميتها شبهة، وأنَّ ذلك لاشتباهاها بالحق. والجلاء: هو كشف الصدى عن الشيء الصقيل، فشبهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الشُّبْهَةَ بالطبع يكون في السيف وشبهه، فلا يجلوه إلا اليقين كما تجلو المداوُسُ السيف. واليقين: هو العلم المحض الذي يَقْرُبُ من الضروري، فيبعد عن الشك والشبهة. والعارض: هو الطارئ الذي لا استقامة له، وقد يضرُّ وينفع، والشهوة قد تقدم معناها. والقمع: هو ضرب رأس الشيء حتى يَنَقِمِعَ، بمعنى ينكمش وينغمر، كما يفعل القنفذ، ومنه سُمِّيَتِ الْمُقْمَعَةُ مُقْمَعَةً؛ لأنها تَقْمَعُ ما واجهت، بمعنى أنها تصدمه فينجحر، قال سويد بن أبي كاهل^(١):

رُبَّ مَنْ أَنْصَجَتْ غَيْظًا قَلْبُهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ
مُزِيدًا^(٢) يَخْطُرُ^(٣) مَا لَمْ يَرِنِي فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعَ

(١) سويد بن أبي كاهل (غطيف) ابن حارثة بن حسل، الذبياني الكناني الشكري، (ت نحو ٦٠هـ) أبو سعد: شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. أشهر شعره عينية كانت تسمى في الجاهلية (اليتيمة) وهي من أطول القصائد، ذكرها في المفضليات وذكر أن مطلعها:

أَرَقَّ الْعَيْنَ خَيْالٌ لَمْ يَدْعُ مِنْ سُلَيْمَى فُقُودِي مُتَنَزِعُ

والبيتين من هذه القصيدة، وبعدهما:

وَيَحْيِيْنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَجْلُو لَهُ حَمِي رَعُ

(انظر أخبار سويد في كتاب الأغاني: ١٣ / ١١٤).

(٢) تَزَيَّدَ الْإِنْسَانُ إِذَا غَضِبَ وَظَهَرَ عَلَى صِغَاغِيهِ زَبَدَتَان. (لسان العرب ٣ / ١٩٢).

(٣) خَطَرَ الرَّجُلُ فِي مَشْيِهِ خَطَرَاتًا إِذَا اهْتَزَّ وَتَبَخَّرَتْ، تمت ضياء، هامش (أ).

معناه انغمس وخضع، فكأن قمع الشهوة قرعها بالوعظ وغمرها بالزهد، والزهد: هو استصغار الدنيا واحتقارها، وترك أكثر حلالها خوفاً من وبالها.

ومعنى **عَنْتَ**: اعترضت، واعتراضها أن تحول بينك وبين قصدك، ومنه سُمِّيَ العِنَانُ عِنَاناً لأنه يعرض للفرس دون مراده، ويحول بينه وبين غرضه. **وَالْغَضْبَةُ**: فَعْلَةٌ من الغضب. **وَالْعَفْو**: ترك المناقشة والمعاقبة على الفعل السابق، أخذ من المكان الذي لم يُتَّبَعْ بالرَّعْيِ والاختلاء حتى يَقَرَّ فيه الخلل، وَيَقَرَّ^(١) الكلاً، يقال: عفا يعفو، ويقال: فلان يرفع العفو، إذا كان منيعاً يصل حيث لا يصل الناس، فإذا لم يناقش على الخطيئة، ولا يعاقب في الجنيّة؛ قيل: عفا، وأصله ما قدمنا.

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عَرَفْنَا مَا يَدْفَعُ عَنَّا ضَرَرَ هَذِهِ الْخِلَالِ الثَّلَاثِ، الَّتِي هِيَ أَصْلُ النِّكَالِ، وَنَسْنُخُ الْوَبَالِ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا التَّفْهِيمُ وَالْقَبُولُ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ طَبِيبُ أَدْوَاءِ الدِّينِ، وَمُعَلِّمُ خِصَالِ الْخَيْرِ، وَالنَّاصِحُ الْعَارِفُ، وَالْبَصِيرُ الْكَاشِفُ، فَأَمَرَنَا عِنْدَ لِيَاكِ الشَّبْهَةِ بِالْفَزَعِ إِلَى الْيَقِينِ؛ لِأَنَّ بِهِ جَلَاءَهَا، وَذَلِكَ لَا يَقَعُ إِلَّا بِالنَّظَرِ فِي الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَسَبْرِهَا فِي قَالِبِ الْحَقَائِقِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي إِضَاحِهَا وَإِفْصَاحِهَا بِالْعِبَارَاتِ الْمُسْتَعْدَبَةِ، وَالْأَنْوَارِ الْمُلْتَهَبَةِ، وَفِي ذَلِكَ مَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ)) وَإِنَّمَا كَانَ أَشَدَّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ لِلْمُسْتَرَشِدِينَ عَنْ وَجْهِهِ الْأَدَلَّةَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ السَّبَبَ وَالْعِلَّةَ، وَالْعَابِدُ رَبِّهَا فَتَنَهُ الشَّيْطَانُ فِي عِبَادَتِهِ فَتَنَةً تُوْدِي إِلَى هَلَاكِهِ وَارْتِبَاكِهِ، فَلَا يَطْمَعُ طَامِعٌ فِي فَكَاكِهِ، نَحْوُ تَأْوِيلِنَا هَذَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْخَبَرِ: لِأَنَّ الْعَالَمَ يَسْتَنْقِذُ عِبَادَ اللَّهِ مِنْ خَيْرَةِ الْجَهْلِ بِعِلْمِهِ، وَالْعَابِدِ يَوْشِكُ أَنْ تَرَدَّ عَلَيْهِ شَبْهَةٌ؛ فَإِذَا هُوَ فِي بَحَارٍ مِنَ الْهَلَكَةِ.

وَأَمَرْنَا أَنْ نَقْمَعَ الشَّهْوَةَ بِالزَّهْدِ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الزَّهْدِ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي قَمْعِهَا وَدَفْعِهَا، وَأَصْلُ الزَّهْدِ التَّفَكُّرُ فِي الْآخِرَةِ وَالْمَعَادِ وَالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ، وَتَصَوُّرُ الْمَوْتِ وَالْأَحْوَالِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ تَغْيِيرِ الْبَنِيَّةِ،

(١) الْحَلَّى: الْحَشِيشُ الرَّطْبُ، فَإِذَا يَبَسَ فَهُوَ حَشِيشٌ، أ.هـ. قاموس.

وَفَرَّ الشَّيْءُ: كَثُرَ وَاتَّسَعَ، يَقَرُّ وَفَرَّ وَوُفُورًا، مِنْ بَابٍ وَعَدَّ يَعُدُّ. (انظر لسان العرب ٥ / ٢٨٧).

وفساد الآلة، وتنكر الجوارح الحسنة عن عاداتها المعتادة حتى يصير المسكون إليه منفوراً عنه، والمحبوب مكروهاً، وأفضل كرامة له مواراة جيفته، وردم التراب عليه، وقد روينا عن علي بن الحسين عليهما السلام في مثل ذلك أنَّ جارية قالت له: ما أحسن عينيك...! قال: هما أسرع شيء إلى البلى مني، فلو رأيتهما بعد ثلاثٍ وقد سالتا على خدي... في حديث طويل، وإشعار القلب خوف الله تعالى، فعند ذلك يكون العبد على وَجَلٍ شديد، فيقوم بالفرائض، ويكفُّ عن المحارم لتوقُّعه هجوم الموعود، وحلول الملعود، وقد نفذت اللذات، وبقيت التبعات، وذهبت الشهوات، فرحم الله امرأً نظر الدنيا بعين الاحتقار، وبسط إليها كف الاضطرار، وأخذ منها أخذ العليل النبيه من الدواء الكريه، ولم يسطر إلى محرّماتها يداً، ولا يملأ من حطامها فماً، وجعل لنفسه على نفسه رقيباً، ومنها عليها حسيباً.

وأمرنا أن نذراً بمعنى نذفع عان الغضبة - وهو عارضها كما قدمنا - بالعمو ما لم يكن الغضب في حق الله تعالى؛ لأنَّ ذلك أولى بالمتقين، وهو المعروف من شيم المرسلين عليهم سلام رب العالمين، وحسن العفو متقرر في العقول لا ينكره منكر، ولا يدفعه دافع، ولذلك اشترك في المعرفة بحسنه من النفس واستحسانه من الغير المسلمون والكفار، واختصت العرب من ذلك بما ملئت به الدفاتر، وشُحنت به الأوراق في الجاهلية والإسلام، في الحديث: أن وفد هوازن وصلوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالجعرانة، فقالوا: يا رسول الله؛ لو أخذنا أحد هذين المملكين - يعنون النعمان بن المنذر، والحارث الجفني - لرجونا منه العفو، وإن أكثر من في الحضائر خالاتك، فاستطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نفوس المسلمين عن النساء والذرية، وقيل أنه ضمن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمن شحَّت نفسه بمن كان معه بسبب فرائض من أول ما يفى الله عليه وردّها عليهم... في حديث طويل.

وروينا في حديث سبايا طيء أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: وقعت في نفسي منهن جارية حماء، حواء، لعساء، لمياء، عيطاء، شماء الأنف، معتدلة القامة، درماء الكعبين، خدجثة الساقين، لفاء الفخذين، خميسة الخصرين، ضامرة الكشحين^(١) قال: فلما رأيتهما أعجبتُ بها، وقلتُ

(١) قوله: حماء: أي سمراء، وحواء ومنه قيل لامرأة آدم حواء، والعساء واللمياء سوادٌ يُستحسن في الشَّعْ، واللَّعْسُ هي الحوة، وكرر ذلك لاختلاف اللفظين، والدرماء هي التي قد خفي العظم في ساقها لحماً وسمناً،

لأُطْلِبَنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يجعلها في فيثي، فلَمَّا تَكَلَّمْتُ نَسِيتُ جِهَاها لِمَا رَأَيْتُ مِنْ فصاحتها، فقالت: يا مُحَمَّد؛ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَيِّ عَنِّي وَلَا تُشْمِتَ بِي الْعَرَبَ، فَإِنِّي ابْنَةُ سُرَّةٍ قَوْمِي، كانَ أَبِي يُفَكُّ الْعَانِي، وَيُفْرِجِي الضَّيْفَ، وَيُشَبِّعُ الْجَائِعَ، وَيُفَرِّجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَيُفَشِّي السَّلامَ، وما رَدَّ طالِبَ حاجَةٍ قطَّ عنها، أنا بِنْتُ حاتمِ الطَّائِي، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ، لَوْ كانَ أَبُوكَ إِسْلَامِيًّا تَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ، فَخَلُّوا عَنْها فَإِنَّ أَبائِها كانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخلاقِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخلاقِ)) فقامَ أَبُو بُرْدَةَ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، اللَّهُ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخلاقِ؟ فقال: ((نَعَمْ يا أبا بُرْدَةَ، لَا يَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِحُسْنِ الْخُلُقِ)) والعفو كما علمَ الكافة من أشرفِ مَكَارِمِ الْأَخلاقِ، وأعلى طبقاتها، وهو أَوْفَى حَسَنِ الْخُلُقِ، وفيه آثارٌ كثيرة.

قوله عليه السلام: إِنَّهُ ينادي مُنادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ، مَنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَيَقُومَ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

المنادي: هو الصائح برفيع صوته، وأكثر ما يُستعمل في الأمور المهمة، قال الحارث بن حِزْزَةَ^(١):

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضاءُ
مِنْ مُنادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ تَصْـ هَالٍ خَيْلٍ خِلالَ ذَاكَ الرُّغاءِ

واللفاء من اللف وهو اجتماع اللحم على الفخذ يلتف بعضه ببعض، والعيطاء طويلة العنق، والشماء من الشِّمَمِ في الأنف وهو تطامن القصب، وقيل أن تكون الأنف مرتفعة، وقوله ضامرة الكشحين: الكشح والخصر واحد، وهو مما يلي الخصرة [إلى الضلع]، والحدجَّة: امرأةٌ حَدَجَتْ مُتَمَلِّئَةُ الدَّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ تمت، هامش (أ).

(١) الحارث بن حِلْزَةَ بن مكردة بن يزيد الشكري الوائلي (... نحو ٥٠ ق هـ / ... نحو ٥٧٠ م) شاعر جاهلي من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات، كان أبرصاً فخوراً، ارتحل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالخير ومطلعها: «أذنتنا بيننا أسماء» جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم، وفي الأمثال: أفخر من الحارث بن حِلْزَةَ، إشارة إلى إكثاره من الفخر في معلقته هذه «له ديوان شعر طبع»، انظر: الاعلام (٢/١٥٤)، الأغاني (١١/٤٢)، سمط اللآلي (٦٣٨)، الأمدى (٩٠)، ابن سلام (٣٥)، الشعر والشعراء (٥٣)، خزائن الأدب للبغدادى (١/١٥٨)، صحيح الأخبار (١/١١، ٢٢٦)..

ويوم القيامة: هو يوم البعث، وقيام الناس من أجداثهم إلى ربهم كأثم جرأ منتشر، ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ يريد: من يجب له على الله أجر، وكلُّ مطيعٍ لله فأجره على الله، وإنما خَصَّ العفو بذلك لأنه أفضل الأعمال، وكان كذلك؛ لأنه يتضمن الصبر والكرم وحسن الخلق ومخالفة الهوى، وقسم قرون العصية، وجَدَعَ أنف الحمية، وكلُّ واحدٍ من هذا له في الإسلام موقع، كما أنا نعلم أن الكلَّ من الخلق عبادٌ لله، فَخَصَّ سبحانه الصالحين بنسبتهم في العبودية إليه تشريفاً، فقال عز قائلًا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان] الهونُ في المشي نقيض المَرَحِ، وهو الضرب بالرجل للخيلاء، والسَّلَمُ: هو المسالمة، وهو ترك المشاحنة والمحاربة، والأجرُ هو الجزاء، والعافون: هم الذين يَهْبُونَ حقوقهم لله تعالى صبراً واحتساباً، وصرَّحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أخذ الخبر عن الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٣٧] وقد تقدم الكلام في معناه، إلا أن العفو يتعلق بالغير، والإصلاح يتناول جميع الأعمال مما يتعدَّى ومما لا يتعدَّى.

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ كشف لنا بهذه الألفاظ الصحيحة، والمعاني الصريحة عن عِظَمِ منزلة العفو وجلالة خطره عند الله تعالى، وذلك واضح لكل متأملٍ؛ ألا ترى أنه قال: ((مَنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيُقِّمِ)) فقام العافون عن الناس من غير إشعارٍ بلفظٍ يبيِّن أنهم المرادون، وما ذلك إلا لسبق البشارات إليهم عند فراق الدنيا بأن من عفا عن غيره لم يكن بينه وبين الملائكة عليهم السلام معاملةً في حساب ولا عرض ولا شهادة تقريرٍ وتشغيب، وأنَّ أجْرهم قد وجب على الله تعالى، واختصُّوا بتخفيف مُؤَبَّة الحساب، ورُفِعَتْ عنهم مشقَّة السؤال والجواب، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من العافين لوجهه، الغاضبين لدينه، وكافة المسلمين، والصلاة على محمد وآله.

الحديث السابع عشر

عَنْ^(١) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! تَوَقَّى كُلَّ يَوْمٍ بِرِزْقِكَ وَأَنْتَ تَحْزَنُ، وَتُنْقَضُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ عُمْرِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ، أَنْتَ فِيمَا يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ، لَا بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ، وَلَا مِنْ كَثِيرٍ تَشْبَعُ))^(٢).

عبد الله هذا هو المُبَرِّزُ في العلم، المعروف بالحق، المشهور بنفاذ البصيرة، وفيه آثار كثيرة، وهو أحد العلماء الأربعة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، ولم يختلف أحدٌ من أهل العلم أنه ثاني علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن اختلفَ في الثالث والرابع بين سلمان وعمر ومعاذ وأبي الدرداء وزيد، وهو الذي كان على بيت مال العراق في ولاية عمر، وعمر من قد عَلِمَ الكافَّةَ أَمْرَهُ في التحفُّظِ^(٣)، فَذَلَّ ذلك على ارتفاع الشك في أمره، والقطع على عدله وأمانته، وهو أول من فَقَّهَ أهل العراق، فَحَقَّقُوا وَدَقَّقُوا، وهو من هَدَّيْل حليفُ لبني زهرة بن كلاب، وَعُدَّ في رجالهم، وكان بدرِّيًّا، وهو الذي رُوي عنه القول المشهور يوم أُحُدٍ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ فِينَا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مِنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ: ﴿مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فما ظَنُّكَ بمن كانت هذه حاله، والكلام فيه كثير، وهو أشهر من أن يخفى، هو عبد الله بن مسعود بن الحَارِث بن شَمَخ بن مَحْزُوم بن صاهلة بن كَاهِل بن الحَارِث بن تميم بن سعد بن هُدَيل.

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي قال حدثنا وكيع بن الجراح عن الأعمش عن أبي الضُّحَى قال قال عبد الله بن مسعود... الحديث.

(٢) الحديث روي بالفاظه وبتقديم وتأخير وزيادة، رواه ابن عدي في الكامل (٢٣١/٥) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧١/١٢) برقم (٦٤٧٣) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١٣/١٦) والطبراني في الأوسط (٣٦١/٨) برقم (٨٨٧٥) وأبو نعيم في الحلية (٩٨/٦) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٦١/١) برقم (٦١٨) والبيهقي في الشعب (٨/١٣) برقم (٩٨٧٦) ومعظمها بزيادة: ابْنُ آدَمَ؛ إِذَا أَصْبَحْتَ مُعَاتٍ فِي جَسَدِكَ، آمِنًا فِي سِرِّكَ، عِنْدَكَ قُوَّةٌ يَوْمَكَ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ) ١.هـ.

(٣) في الأصل و(أ): الكافَّةُ في التحفُّظِ أَمْرُهُ.

قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى.

يَقُولُ من القول. (الله) الذي تَأَلَّهْ إليه القلوب، أي تميل وتصغي إلى محبته لاستحقاقه لذلك. و(تعالى) يُقِيدُ أَنَّهُ الْأَجَلُ الْأَكْبَرُ، فلا أعلى منه ولا أكبر، بل هو أعلى من كُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَشَأْنًا، إذ التَّعَالَى مستحيلٌ في حَقِّهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ حَالَةٌ نَقَصٍ ارْتَفَعَ عَنْهَا حَالًا بَعْدَ حَالٍ، تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ ذُو الْجَلَالِ.

و(ابنُ آدَمَ) يُطْلَقُ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَآدَمُ هُوَ أَبُو الْبَشَرِ، فَلَا بَشَرَ قَبْلَهُ، وَنَطَقَ الْكِتَابُ بِتَسْمِيَةِ آدَمَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَرَوَيْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُمِّيَ آدَمَ لِأَنَّهُ خَلِقَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ أَيَّ وَجْهَهَا، وَذَهَبَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ أَوَّلُ دَاعٍ فِي عَالَمِ السَّيْرِ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْبَشَرِ بِالْوِلَادَةِ الرُّوحَانِيَّةِ لَا الْجَسْمَانِيَّةِ، وَلَسْنَا نَشْحَنُ بِذِكْرِ خَرَافَاتِهِمُ الْأُورَاقِ، فَقَدْ نَبَأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَهَتَكَ بِمَعْرِفَتِنَا الْحَصِيفِ^(١) مِنْ أَسْتَارِهِمْ، وَيَكْفِيكَ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُمْ رَدُّ لِمُحْكَمِ الْكِتَابِ، وَمَعْلُومِ السَّنَةِ، وَإِجْمَاعِ الْعِتْرَةِ وَالْأُمَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا هَذَا حَالَهُ انْسِلَاخٌ عَنِ الدِّينِ، وَخُرُوجٌ عَنِ الْمِلَّةِ.

وَمَعْنَى تُؤْتِي كُلَّ يَوْمٍ بَرَزَقَكَ: مَعْنَاهُ يُوَصِّلُ إِلَيْكَ رِزْقَكَ لَا مُحَالَةً، وَإِنْ شَكَّكَ فِي ذَلِكَ فَارْحَضْ^(٢) قَلْبَكَ مِنْ عَارِضِ هَذَا الشَّكِّ بِالْفِكْرِ فِي الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَا تَدْخِرُ أَقْوَاتًا، وَلَا تَمْلِكُ بَنَاتًا^(٣)، لَا تَخَافُ مَعَ مَالِكِهَا عِيْلَةً، وَلَا تَدْخِرُ بَيْتَ لَيْلَةٍ^(٤)، وَأَرْزَاقُهَا دَارَةٌ، وَعَيُونُهَا قَارَةٌ. لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِكَ أَتَانِي، وَبَيْنَ قَوْلِكَ وَصَلَنِي، وَالْمَوْقِي وَالْمَوْصَلُ هُوَ اللهُ تَعَالَى. وَكُلُّ يَوْمٍ: عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَيَّامِ الَّتِي هِيَ مَدَّةُ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ.

وَالرِّزْقُ مَا مَلَكَ اللهُ تَعَالَى عَبْدَهُ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْمَنَافِعِ؛ كَافِرًا كَانَ أَوْ مُؤْمِنًا، أَوْ مِنَ الْمَذْبُذِينَ الْمَنَافِقِينَ وَأَشْبَاهِهِمُ الْفَاسِقِينَ، فَالْكُلُّ قَدْ رَزَقَهُ الْحَكِيمُ سَبْحَانَهُ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ

(١) الْحَصِيفُ: الْمُحْكَمُ. وَإِحْصَافُ الْأَمْرِ: إِحْكَامُهُ، (النهاية ١/ ٣٩٦) والقصد: هو أقوى ما يتسترون به.

(٢) الرَّحَضُ: الْغَسْلُ. تَمَّتْ، نَهَايَةٌ.

(٣) الْبَنَاتُ زَادُ الْمَسَافِرِ، قَالَ طَرَفَةُ:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَنْبَاءِ مَنْ لَمْ تَهَبْ لَهُ بَنَاتًا وَلَمْ تُضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

تَمَّتْ، هَامِشٌ (أ). وَالْبَيْتُ فِي الدِّيَوَانِ وَفِي قَوَامِيسِ اللُّغَةِ: بِإِبْدَالِ كَلِمَةٍ: لَمْ تَهَبْ بِ: لَمْ تَبِعْ.

(٤) يُقَالُ: مَا لَهُ بَيْتٌ لَيْلَةً، أَيُّ قُوْتُ لَيْلَةٍ، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِشٌ (أ).

تعالى الحجة البالغة، فيقول: أَكَلْتُ رِزْقِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي، بل ظاهر هذه الحكاية عن الله سبحانه تقضي بأنَّ المراد بها مَنْ ذَكَرْنَا دون المؤمنين، لأنَّ صفة المؤمنين مخالفة لمن وَصَفَ سبحانه في هذا الحديث على لسان نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ.

والحزن نقيض السرور. والنقص نقيض الزيادة. والعمر مدة أيام الحياة. والفرح نقيض الغم، والغم انقباض في القلب وتشنج في عروقه؛ فتضيق لذلك النفس، ويتقطَّب الوجه. والسرور انبساط في القلب، وتَفْتُحُ في عروقه؛ فتتوسع له النفس وينشرح الصدر، وينطلق الوجه. **المعنى في ذلك:** أن ابن آدم يُؤْتَى لا محالة برزقه كلَّ يوم من لدن خالقه، لا ينقطع من قِبَلِهِ رزقه حتى ينقطع بأمره أجله، بل ما تَهْتَزَّزَ في الدنيا رأسه سنَّ (١) له رزقه، ومنحه فضله، وابتلاه بذلك إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً، ثم أخبر سبحانه لسوء تدبيره، وضعف نظره أنَّه يحزن مع ذلك لفوات ما لم يُكْتَبْ له في الذكر حصوله، ولم يُقَدَّر وصوله، وهذا بلوغ الغاية القصوى في جشعه وهلعِهِ، وقلة يقينه وطَبْعِهِ (٢)، ولا ينجو من ذلك إلا من رَحِمَ الكريم، وعَصَمَ الرحيم، وكيف يحزن العاقل لذلك وهو بالنظر الثاقب يعلم أنَّ حزنه لا يزيد في شيء من رزقه، بل يشغل جوارحه عن عبادة ربه، وهذا جهلٌ من راكمه، وهلاكٌ لصاحبه، وقد حكى سبحانه أنه أضاف إلى هذا الجهل الأول جهلاً ثانياً وهو فرح ابن آدم بِتَقْضِي الأيَّامِ الْمُقَرَّبِ إِلَى الجِہَامِ، ونسي أنها تطوي عمره طَيَّ الصحيفة، وأنَّ له في الذكر الحكيم أنفاساً معدودة في أيام محدودة، هل يبقى عمر تُنْقِصُهُ طَرَفَةُ العين، وتَصْرِمُهُ (٣) شَفْرَةُ الْحَيْنِ؟ وقد كان الأولى بالعاقل أنَّ يحزن لتدارك الأيام، إذ تداركها ينقص عمره، ويقرن الرضى بالفرح على ما وَهَبَ له من كفاف الأرزاق، إذ فيه بلاغ، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ حِسَابٌ)).

(١) سَنَى لَهُ: سَهَّلَ لَهُ وَفَتَحَ لَهُ، يُقَالُ: سَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا فَتَحْتُهُ وَسَهَّلْتُهُ. وَتَسَنَّى لِي كَذَا أَيَّ تَيَسَّرَ وَتَأَنَّى. (لسان العرب ١٤/٤٠٤).

(٢) الطَّبْعُ بالتحريك: الْوَسْخُ الشَّدِيدُ مِنَ الصَّدَأِ، وَالشَّيْنُ وَالْعَيْبُ. (القاموس المحيط: ٧٤٣)

(٣) تَصْرِمُهُ: أَيَّ تَقْطَعُهُ، وَالْحَيْنُ، بِالْفَتْحِ: الْهَلَاكُ.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنْتَ فِيمَا يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْفِئُكَ.

الكفاية: هي مساواة المنفعة لقدر الحاجة، وأصل الكف الدفع، فكأن الكافي يدفع مضرة الحاجة. **والطلب:** هو البحث عن الشيء بتعب وعناية، إذ الإنسان لا يطلب الممكن الموجود الذي لا مشقة في تناوله، ألا ترى أنه لا يقول إذا تناول شيئاً من بين يديه: طلبته، ولا يعرف ذلك في كلامهم. **والطغيان:** مجاوزة الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة] الجارية: السفينة، وسميت جارية لجريانها على الماء، وسمي الماء في تلك الحالة طاغياً لأنه تجاوز الأمور المعتادة، وقد اختلف أهل العلم في مقدار تجاوزه، فقال بعضهم: زاد على أرفع مكان خمسة عشر ذراعاً، وروي عن بعض آبائنا عليهم السلام أنها كادت تناطح الكواكب، وهو الأصح عندنا؛ لأن الأخبار والآثار تؤيد هذا القول، وهذا متهم الطغيان، وغاية النكال لأهل العصيان.

والمعنى في ذلك: أن ابن آدم في الكفاية إن قنع وشبع وأبصر بعين الفكرة وسمع بأذن النصف، والقليل أروح من هم الحفظ، وأخف مؤنة وأقل تبع، ولم لا وفيه سد الفاقة، وبه بلاغ الآخرة، سيما والعبد في سير مجد إلى هول عظيم، وبين يديه قائد خفيف، وخلفه سائق عنيف، ولا يدري كيف يكون مصرعه، وأين يقع مضجعه، فأى وجه لا تحاذه الألوان، وتأثقه في المشارب والأدهان، وكأنه بما هو كائن قد بان، وبما يكون قد كان، فاعجب من العامر ما لا يسكن، والجامع ما لا يأكل، وإنما أيام العبد ثلاثة: فيوم مُتَظَرٍّ هو على غير يقين من حصوله، وفيوم فائت قد مضى لحال سبيله، فليس معه على الحقيقة إلا يومه الذي هو فيه، فأقل الأشياء فيه يكفيه، وفوق الكفاية يطغيه.

وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافٍ فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا)) الأمان نقيض الخوف، والسرب بفتح السين النفس، والسرب بكسر السين الوجه. والقوت: ما يقتات به الإنسان بمعنى يستمتع به. وكأنما: معناها التشبيه، وحيزت له: جمعت له، وحذائرها: سُقَاطَاتُهَا^(١) وأطرافها، وهو

(١) السُّقَاطَاتُ مِنَ الْأَشْيَاءِ: مَا يَتَهَاوَنُ بِهِ مِنْ رُذَالَةِ الطَّعَامِ وَالثِّيَابِ وَنَحْوِهَا. (لسان العرب ٧ / ٣١٧).

عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد بكَلِمَتِهَا، فأَيُّ مطلبٍ بعد هذا.

ولا شك أن الطالب لفوق الكفاية - والحال هذه - يتعرض للعصيان، وكيف يسعى لذلك عاقلٌ، أو يكدر فيه عاملٌ، والله عزَّ من قائلٍ يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٥] معنى ذلك: لو أعطاهم فوق ما تقتضيه المصلحة لبغوا وتعدَّوا، ومعنى بَغْيُهُمْ طَلَبُهُمْ ما ليس لهم، وكان البغي في الأصل لكلِّ طلبٍ، فصار في العرف لطلبٍ مخصوصٍ، والتنزيل: تفعيلٌ من الإنزال، والقَدَرُ: هو الكتابة والعلم، والمشية: هي الإرادة لا فرق في ذلك، فهو ينزل مقدَّراً معلوماً لوقتٍ مفهوم، على حسب ما تقضي به الحكمة ويطابق المصلحة، والمؤيد لهذا كثيرٌ من آي الكتاب الكريم، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَلِيُوتِيَهُمْ آبُوبَاءَ وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَيَّمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف] الأُمَّة هاهنا هي الفرقة التي يجمعها أمرٌ من الأمور فتصير به واحدة بعد أن كانت متبددة متفرقة، والجعل هاهنا هو الخلق والفعل، وقد يكون بمعنى الحُكْم، وليس هاهنا موضع استيفائه، والكفر: تغطية النعم بالجحْدان، والتغطية هي الكفر، والمُعْطَى هو الكافر، والرحمن: اسم الله سبحانه، وهو مشتقٌّ من الرحمة، وفيه مبالغة، وهو مما لا يجوز إطلاقه على غيره، بخلاف رحيم، وبيوتهم: منازلهم وقصورهم، وسُمِّيَتْ بيوتاً لِمَبِيَّتِهِمْ فيها، وهو سكون الليل ومنامه، وعَمَلُ الليل يُسَمَّى تَبَيُّتاً وبياتاً، وهم وإن سكنوا فيها بالنهار ولكن الأغلب والأظهر أن الإنسان ينتشر في النهار، ويأوي إلى بيته بالليل، فسُمِّيَ بيتاً لذلك، والسُقْفُ: جمع سَقْفٍ وهي غطاء البيوت، والفضة معروفة، والزخرف: هو الذهب، وهو في الأصل لِمَا تحبه القلوب، والمعارج: جمع مِعْرَاج وهي الأمور التي يُرْقَى عليها، ومنه قولهم: ذا المعارج، أي ذا المراقي الشريفة والراتب الزليفة، والمراد بالمعارج في الآية الأَسْرَةُ والكراسي، والظهور: هو الارتفاع والطلوع والبيان والوضوح، فاشتملت الآية على فوائد جمة، وإنما نذكر الأهم.

منها: أَنَّ هذا الوَسَاعَ في الرزق في علمه تعالى مفسدة، وأنه لو فعل للكفار ما يقدر عليه لأطبق الخُلُقَ على الكفر؛ لملهم إلى العاجل، وكانوا بالاجتماع على الكفر أُمَّةً واحدة، فذلك هو المانع من التوسيع إلى هذا الحد، وأنه تعالى لا يبخل بالدنيا على الكفار؛ لأنها غير دار الثواب، وهي حقيرة عنده لزواها وانتقالها، فلم يرض بها ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعدائه، وفيه تنبيه للمؤمنين على ترك الافتتان بما يقع في أيدي الكفار من الأموال الجليلة، فلولا المفسدة لزادهم؛ إذ الدنيا لا خطر لها، وقد أوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكٍ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٤] فالواجب على المسلم العاقل أن يحتزم من طلب فوق الكفاية؛ لأنه تعالى قد صرح بأنه في معلومه يؤدي إلى الطغيان - أعني طلب ما فوق الكفاية - وقوله الحق الذي لا مِرَّةَ فيه؛ لأنه قال: أَنْتَ فِيمَا يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ، والطغيان هلاكٌ عاجل، وحتفٌ قاتل، فأَيُّ جهل أعظم من جهل مَنْ سعى في تحصيل أمرٍ قد قام له الدليل بأن فيه هلاكه، وفي تركه فِكاكه.

قوله عليه السلام: قال تعالى: لَا بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ، وَلَا مِنْ كَثِيرٍ تَشْبَعُ.

القناعة نقيض الطماعة، وهي من المصادر بالهاء كالشباعة والشناعة، والقناعة: هي الرِّضَى بالنصيب المقسوم من الرزق المحتوم. **والقليل** نقيض الكثير. **والشبع** نقيض الجوع، والقناعة والشباعة يعودان إلى القلب والنفس لا إلى البطن؛ لأنَّ أَقْلَ الأشياء يسدُّه، وأدناها يملأه.

المعنى في ذلك: أن ابن آدم لا يُقْنَعُ قليل الدنيا^(١)، ولا يُشْبَعُ كثيرها، وإنما الدنيا كما يعلمه الكافة قليل وكثير، فكلُّ واحدٍ منهما صرَّحَ الحكيمُ سبحانه أنَّ ابن آدم المتوسِّعَ لا يَقِفُ عنده؛ إذ القليل لا يُقْنَعُه، والكثير لا يُشْبَعُه، وقد رأينا ذلك جهاراً، وتيقنناه أسفاراً من أهل الجمع والادخار، والتكاثر والاحتكار، الذين وجَّهوا إلى جمع الدنيا هِمَمَهُمْ، وجعلوا لها سعيهم، وصرفوا إليها رغبتهم، ونسوا الأمر الذي خُلِقُوا له، وغفلوا عن الهول الذي وُعِدُوا به، وفي ذلك ما روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِّينَ مِنْ مَالٍ لَا بُتْغَى إِلَيْهِمَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) فالسعيد على ذلك من قَنَعَ نفسه بالكفاف، وألبسها ثوب العفاف، ورضي بها رضي له الكريم، وقَنَعَ بما أعطاه الحكيم.

(١) لفظة: (الدنيا) سقطت من الأصل.

[قصة ثعلبة بن حاطب]

ويكيفيك من الادّخار ومن طلب الإكثار ما روينّا في قصّة ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله؛ ادْعُ الله أن يرزقني مالا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ثعلبة؛ اتَّقِ الله، فجاء إليه مرة أخرى، فقال: يا رسول الله؛ ادْعُ الله أن يرزقني مالا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: اتَّقِ الله، ثم جاء إليه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله؛ ادْعُ الله أن يرزقني مالا، فقال: يا ثعلبة؛ إني لو سألتُ الله أن يُيسِّلَ لي الجبال ذهباً وفضة لفعل، فقال: والله يا رسول الله لئن رزقني الله مالا لأصلنَّ الرحم، ولأواسينَّ المسكين، ولأُعطينَّ السائل، ولأُوتينَّ حقَّ الله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللهم ارزق ثعلبة مالا، اللهم ارزق ثعلبة مالا، اللهم ارزق ثعلبة مالا، فَاتَّخَذَ الْغَنَمَ، فَنَمَتْ كما ينمو الدود حتى ضاقت أزقة المدينة، فتنحَّى بها خارج المدينة، وكان يحضر الصلوات كُلُّهَا مع رسول الله، فَنَمَتْ وَكَثُرَتْ حتى ضاقت بها المراعي والفجاج، فانتجع بها من قُرب المدينة، وكان يحضر الْجُمُعَةَ^(١) في مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، فأجذبت المسارح، وضاقت منها الموارد، فانتزع بها، وكان يتلقَّى الركبان، فيقول: ما صنع رسول الله؟ ما نزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ؟ إلى أن نزلت آية الزكاة، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ مُصَدِّقَيْن، فجاءا إليه، فقال: ما نزل على رسول الله؟ فذكرا له آية الزكاة، وأخبرا بنصابها، وسألاه زكاته، فقال: ابدأ بالناس وارجعاً إليّ، ففعلا ثم عادا إليه، فقال: هذه أخت الجزية، فقالا: ما نأخذ منك شيئاً حتى نأتي رسول الله، فجاءا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فقال: لا يُؤخذُ منه شيء، ونزلت الآيات: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَتَصَدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿[التوبة]

فتلقَّى بعض الركبان، فسألهم عن قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ في أمره، وهل نزل فيه شيء؟ فأخبروه بالقصة، وبتزول الآيات، ففزع وجمع زكاته، وجاء بها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) في الأصل: يحضر يوم الجمعة...، وبقية النسخ: يحضر الجمعة....

وَأَكَلَهُ وَسَلَّمَ بَاكِياً، فلم يأخذها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، وردّها عليه، فلما قُبِضَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ جاء بها إلى أبي بكر، فقال: ما كنتُ لأخذ شيئاً ردّه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، ثم إلى عمر، ففعل كذلك، فمات إلى لعنة الله منافقاً، لم يرفعه منعه، ولا نفعه جمعه. قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ عائذٌ إلى ثعلبة بن حاطب، لأنَّ مِنَ للتبعض وهو بعضُهم، والمعاهدة: هي المواطأة على الأمر الذي يقع في المستقبل، يقول قائلهم: عَهْدَ إِيَّيْ فُلَانٍ فِي كَذَا، وَعَهْدَ إِيَّيْ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، ثم قد صار يفيد اليمين والقسم، وأصله ما قدمنا. والمعاهدة مفاعلةٌ، فلا تكون إلا بين اثنين، فلما أعطى الله تعالى عهده - أي يمينه - قال سبحانه: ﴿عَاهَدَ اللَّهُ﴾ فأجابَ الْقَسَمَ بِ﴿إِنْ﴾، لأنه أوجبَ على نفسه ما عاهد الله تعالى عليه، وأدخل اللام للتأكيد، و﴿آتَانَا﴾ بمعنى أعطانا لا فرق في ذلك، وقال: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لأنَّ فضله تعالى لا ينحصر، وفضله سعة ما عنده. فَضْلُهُ الشَّيْءُ ما يزيد على القدر المحتاج إليه، ومثلُك الله تعالى يستغرق حاجة المحتاجين، ويؤوفي على آمال جميع الآملين، إلى غير نهاية ولا غاية، إذ هو القادر لذاته.

والصدقة: مأخوذةٌ من الصدق، وهو الصلابة والقوة، يقال: رُمِحَ صَدْقُ الكعوب، وكلامٌ صادقٌ، إذا كان متيناً بريئاً من الفساد والكذب، فأعطى الله تعالى العهدَ لِيُخْرِجَنَّ لَوَجْهِهِ خَالِصاً على الوجوه التي تقدّمَ تفصيله لها في قصته المتقدّمة من صلة الأرحام إلى تمام الحديث. والصالحون هم السالمون من فساد المعاصي، أخذ من الصلاح وهو السلامة في الأصل. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ﴾ بمعنى أعطاهم من فضله من سعته وملكه؛ بخلوا به مَنْعُوا، وأصلُ الْبُخْلِ المنع، يقال: شجرة بخيلة للتي لا تُثْمِرُ، والهاء في ﴿بِهِ﴾ عائدة إلى فضله الذي آتاهم، ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ معناه أدبروا عن أمر الله تعالى، وعن الوفاء بعهدهم. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ مائلون عن أمر الله تكبراً وجَهْلًا وَلُؤْمًا وَبُخْلًا. ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ ذلك الفعل بما كانوا عليه من سلامة الظاهر، ودخولهم في زمرة المؤمنين نِفَاقًا، حصل لهم هذا الاسم الذي هو دَمٌ عَقِيب اسم المدح، وتبعية أحكام هائلة، والنفاق: هو استبطان الكفر والتغطّي بالإسلام، أخذ من النافقاء وهو أحد جِحرَةِ اليربوع، لأنها الرَاهِطَاءُ والقاصِصَاءُ والنَافِقَاءُ، وهو جُحْرٌ يستعمله من باطن بيته، ويُبْقِي مما يصلّي ظاهر الأرض سترًا رقيقاً بحيث إذا نطحه برأسه خرّقه بغير طائل عناية، فإذا لَزِمَ عليه الرَاهِطَاءُ والقاصِصَاءُ خرج من النافقاء، فأشبهَ حاله حالَ المنافق؛ لأنّه أظهرَ خلاف ما أبطن.

وإعقابُ الله تعالى لهم النفاق بالإيمان هو حُكْمُهُ عليهم بذلك، إذ خَلَقَهُ للنفاق في قلوبهم لا يجوز لأنّه قبيحٌ، والله تعالى لا يفعل القبيح، ولأنّه ذمُّهم عليه، وهو لا يَذُمُّ على فعله، ويحتمل أن يكون الضميرُ في ﴿أَعْقَبَهُمْ﴾ عائداً إلى طلبهم الغنى ورغبتهم في الدنيا، تزهيداً في طلب مثل ذلك. والقلوبُ: معروفة، وخَصَّ القلوبَ بالنفاق لأنه يَحُلُّهَا، إذ هو اعتقادُ الكفر بالله تعالى، واعتقادُ كذبِ رسوله. واللقاءُ: هو المواجهة في الأصل، والمراد به هاهنا لقاء أمره فيهم، وحُكْمه عليهم، إذ المواجهة تستحيل في حقّه، ويحتمل أن تكون الهاء في ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ تعودُ إلى المعهود بالدليل الذي هو عقاب النفاق؛ لأنَّ في تلك الحال يزول النفاق، ويلجأ المنافق إلى الصدق والوفاق، والخُلْفُ: نقیض الوفاء، وأصل الخُلْفِ الفساد والتغيُّر، يقال: أَخْلَفَ فَمُ الصائم إذا تغيَّرَ، فشَبَّهَ الخُلْفَ الوعد بذلك لقبحه عندهم، وهم وَعَدُوا الله تعالى ما تقدمت حكايته، ونَفَعُهُ عائداً عليهم، إذ هو الغيُّ الذي لا تجوز عليه الحاجة، القادر الذي يستحيل عليه العجز، وقد أراهم الآية فيما أعطاهم من الرزق عقيب سؤال نبيه عليه السَّلام، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ استفهام - ومعناه التقرير - ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي تَضَمَّنَتْهُ قلوبهم، أخذ من سر العود، وهو مجرى الماء في وسطه، فهو أَعْمَضُهُ وأخفاه عن العيون والأيدي، شَبَّهَ به سِرُّ الإنسان، ﴿وَنَجَوَاهُمْ﴾: مشورتهم، وهذان اللذان يَظُنُّ الإنسان أنه قد قَدَرَ على كتابتهما، ويَرَى ذلك بأنّه علامُ الغيوب، وهي الأمور الغائبة، ولا يكون غائباً في حقه تعالى إلا المعدوم، فأما نحن فإلغائبٌ في حَقِّنا ما لم تقع عليه مشاعرنا، فَيَبَيِّنُ أَنَّ إتيان عَدُوِّهِ بركاته وبكائه كان مصنوعاً ولم يكن له حقيقة، لأنَّ الله تعالى قد علم أَنَّ الذي في قلبه والذي يناجي به ثِقَاتَهُ خلافُ ما أظهر لِنَبِيِّهِ وللمسلمين، والزكاة تَطْهِرَةُ للمسلمين، فلم يستحقَّ ذلك، وكان في تبقيته على حاله مصلحة استأثر الله تعالى بعلمها، فانظر حطام الدنيا إلى ما يسوق مَنْ جعله همّه، ونسي عاقبة تبعاته، وسرعة فواته.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا للدنيا رافضين، ولجوارحنا حافظين، والصلاة على النبي وآله الطيبين.

الحديث الثامن عشر

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَسْبِيهِ وَطَرَفٍ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَائِيَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: وَمِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثِيَا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ؛ خُذْ لِي بِمَظْلِمَتِي مِنْ أَخِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: اعْطِ أَخَاكَ مَظْلِمَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي، وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَيَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ بِحَقِّهِ: ارْزُقْ بَصْرَكَ فَانْظُرْ إِلَى الْجِنَانِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَى مَا أَعْجَبَهُ مِنَ الْحَبْرَةِ وَالنَّعْمَةِ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ فَقَالَ: لِمَنْ أَعْطَانِي ثَمَنَهُ، قَالَ: وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ يَا رَبِّ؟ قَالَ: أَنْتَ، قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قَالَ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾^(٢).

أبو هريرة مشهور ونقله ماثور، وقد تقدّم له ذكر فيما سبق.

قوله: بينا، أصله بينما فحذف الميم، والحذف في كلامهم كثير؛ لأن مدار لسانهم على الإيجاز.

رسول الله هو المؤدّي عن ربه ما أرسله به من المصالح إلى العباد، سُمّي رسولاً لِمَا حمل من

الرسالة، وقد تُسمّى الرّسالة رسولا، قال الشاعر:

لقد كَذَبَ الواشون ما جُثَّتْ عندهم بِسِرٍّ ولا أُرْسَلْتهم بِرَسُولٍ

(١) قال السيد الشريف: حدثنا ابن عرفة أيضاً قال حدثنا العباس بن محمد قال حدثنا محمد بن كثير قال

حدثنا حماد بن سلمة قال حدثنا ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) الحديث رواه الحاكم النيسابوري في المستدرک (٤/ ٦٢٠) رقم (٨٧١٨) وابن أبي الدنيا في كتاب حسن

الظن: ٦٦ رقم (١١٨).

وقد كان المخذول خالد بن عبد الله القسري^(١) والياً للوليد بن عبد الملك فتهاذى به الطغيان إلى أن فُضِّلَ الخلافة على النبوة جُرأةً منه على الله تعالى وتمرداً وعدواناً، فكان يقول على منبر المسجد الحرام، وكان من الفصحاء الخطباء، لكنها فصاحة تعود يوم القيامة بكمًّا لأنها جادلت بالباطل لتُدْحِضَ به الحق: أيها الناس أيُّما أفضل؛ خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ فيقولون: بل خليفته، فيقول: والله لو لم تعلموا فضل الخلافة على النبوة إلَّا أنَّ خليل الله إبراهيم عليه السَّلام استسقى الله فسقاه الله مِلْحاً أجاباً، يعني زمزم شرفها الله وعمرها، واستسقاه الخليفة فسقاه عذباً سمهجا^(٢)، وكان قد حفر عن أمر الوليد بن عبد الملك بترأ في الحرم فخرج ماؤها عذباً، فلما قال ذلك أصبحت قد غارت وعفَى الله أثرها، فلا يُعرف مكانها الآن مع شهرتها فيما مضى^(٣).

يقال: ذات يوم؛ لكل يوم لم يُعَيَّن. والجلوسُ معروفٌ، وهو نقيض القيام. والرؤية تكون بالنظر وبالعلم، كما قال تعالى مخاطباً لنبيه عليه السَّلام: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر] وعادٌ قبيلةٌ عظيمةٌ، كانت من أرجح الناس حُلوماً، وأعظمهم جسوماً، فبعث الله هوداً عليه السَّلام فكذَّبوه، وكان واسط البيت فيهم عظيم الخطر لديهم، فارتكبوا الدهماء في أمره، وفتنهم الشيطان عنه، فأهلِكوا بالريح العقيم كما حكى الله تعالى في الكتاب الكريم، ورسوله عليه

(١) خالد بن عبد الله القسري كان والياً لبني أمية وكان رجلاً سوء، وكان ممن يلعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وله أخبار شهيرة وأقوال فظيعة، ذكرها أصحاب التواريخ، وهو الَّذِي قَالَ يوم الأضحى: إني مُضْحٌ بالجعِدِ بنِ ذِهم، زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، ثم نزل فذبحه... قُتِلَ بالكوفة في سجن يوسف بن عمر عام ١٢٥ هـ أو ١٢٦ هـ كما ذكره ابن خلكان، وذكر قصة تفضيله للخليفة على الرسول بشكل يبرئه، وذكر أن أمه كانت نصرانية، وأنه بنى لها كنيسة تتعبد فيها... ثم مدحه وترحم عليه... الخ (انظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨) وانظر ترجمته أيضاً في كتب القوم مثل سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام للذهبي وغيرها تجد المدح والإكثار والتعليل والتبرير في صفحات كثيرة، ثم انظر إلى تراجم أهل بيت النبوة عليهم السلام وأشياهم رضي الله عنهم في تلك الكتب فستجدها مقصورة في أسطر قليلة، فهذا دينهم وعقيدتهم، وهؤلاء عمدتهم وثقاتهم ورواتهم وبطانتهم، ا.هـ.

(٢) السَّمْهَجُ: اللبن إذا كان حلوأ دسماً، ذكره في النظام، تمت، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٢/ ٣٠١).

(٣) قصة الخطبة والبر وغورها ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (١٢/ ٤١٩ - ط هجر)، و (٩٢/ ٩ ط إحياء التراث)، والفاكهى في أخبار مكة (٣/ ٤٦) وابن الأثير في الكامل في التاريخ (٤/ ١٨) والطبري في تاريخ الرسل والملوك: ٦/ ٤٤٠) الذهبي في تاريخ الإسلام (٦/ ٣٥).

السَّلَامُ لَمْ يَرَهُمْ بَعِينِهِ، وَإِنَّمَا عَلِمَ قَصَّتْهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ.

والضحك نقيض البكاء ولا أشهر من لفظه فنحده به، وقد يكون تعجباً وإن لم يقع في القلب مسرّة وهو الأقل، وقد يكون سروراً وهو الأكثر، وهو هاهنا للتعجب من الأمر المهم الذي لا يهتمّ الناس به مع عِظَمِ الحُطْب فيه، وحتى في الحكاية لضحكه عَلَيْهِ السَّلَامُ تكون للغاية، معناه أنّ ضحكه عَلَيْهِ السَّلَامُ انتهى إلى بُدْوِ ثنياه، وهذا دليل على أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان خفيف الضحك على طلاقته وحسن أخلاقه؛ لاشتغاله بأمر ربّه، والثنيا أربع، اثنتان من أعلى واثنتان من أسفل، ويتلوها الرُّبَاعِيَّاتُ وهي أربع كذلك، ثم الأنيابُ وهي أربع كذلك، ثم الضواحكُ وهي أربع كذلك، ثم الأرحاءُ وهي اثنتا عشرة رَحاً ثلاثٌ من كل جانب، ثم النواجذُ وهي أربعة كذلك، وهي آخر ما يَنْبُتُ، والعامّة تُسمّي الناجذَ سِنَّ الحِلْمِ؛ يزعمون أن الإنسان عنده يتكامل عقله الأصلي، ثم لا يستفيد بعده إلاّ علَمُ التجارب وحُنُكَةُ العادات.

قال الراوي: فَقِيلَ لَهُ: مِمَّ تَضَحُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَنِيَا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي.
قيل له بمعنى سئل. **مِمَّ تَضَحُّكَ؟** استفهامٌ من سبب ضحكِهِ، لذلك لم يثبت الألف في مِمَّ، وكانوا لا يدعون به باسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ توقيراً له وتعظيماً، بل يقولون يا رسول الله، يا نبيّ الله، وإنما كان يناديه باسمه جُفَاء الأعراب: يا محمد؛ يا محمد؛ فنعى الله سبحانه ذلك عليهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات] النداء والدعاء معناهما واحدٌ، وهو مدُّ الصوت لإسباع الغير، ووراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قدام، لأن وراء من أسماء الأضداد، قال قائلهم:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ الْعَصَا تُحَقِّقُ عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ^(١)

يريدُ أمامي وقُدَّامي، وهو في الآية بمعنى خلف، و﴿الْحُجُرَاتِ﴾ هي الحيطان والحواجز، وأصله مأخوذ من حجرات بيت الشعر وهي كسوره التي على بَوَائِيهِ^(٢) وَخَوَالِفِهِ، وَسُمِّيَتْ

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري، قال في هامش (أ): وبعده:

أُخْبِرْتُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدَبْتُ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعٌ

(٢) والبُؤَانُ بالضم والكسر: عَمُودٌ لِلْخَبَاءِ ج: أَبْوَتُهُ وَبُؤُنٌ بِالضَّمِّ وَكَصْرِدِ (القاموس المحيط: ١١٨١) وقال في هامش (أ) ما لفظه: البواني جمع بُؤُنٍ وهي من أعمدة الخيمة، وكذلك الخوالف، وقيل: البُؤَانُ عمود مقدمه [أي مقدم البيت] والخالفة عمود المؤخر، وكسر البيت حويله، تمت.

حجرات لأنها تمنع، لأن الحجر في الأصل هو المنع، قال الشاعر:

وَأَحْجَرُ مُبِصِّصُ الصَّقِيعِ ^(١) كَأَنَّهُ عَلَى حُجْرَاتِ الْبَيْتِ قُطْنٌ مُنْدَفٍ

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ نقيض أقلهم، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ يريد لا يعلمون؛ لأنَّ العقل هو العلم، وقد خصَّ المنادي لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ باسمه، والراضي بذلك النداء على ذلك الوجه، فدلَّت الآية على أَنَّ فيهم من لم يَرْضَ النداء على تلك الصفة، ومعنى قوله ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ يريد لا يعلمون آداب النبوة وجلالة الأنبياء عليهم السلام لجفاوتهم وبدائيتهم، والعقل هاهنا هو العلم بذلك، إذ لم يعقلوه بمعنى يعلموه.

ورجلان تنبئية رجل، وهما مُنْكَرَان، وَأُمَّتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ المصدِّقون به عرفاً وشرعاً، فأما في اللغة: فهم الذين بُعِثَ فيهم وهو من جنسهم، وهو يُحْمَلُ هاهنا على حقيقة العرف والشرع؛ لأنَّ ذلك حكم خطاب الله سبحانه وخطاب رسوله على ما هو مُقَرَّر في مواضعه من أصول الفقه.

قوله: جَنِيًّا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي.

الْجُنُودُ فِي الْإِنْسَانِ كَالْبُرُوكِ فِي الْبَعِيرِ قَالَ قَائِلُهُمْ:

أَخَاصِمُهُمْ مَرَّةً قَائِمًا وَأَجْشُوا إِذَا مَا جَشَوْا لِلرُّكْبِ

وكذلك يفعل الخصم.

ويدا الرب هاهنا قدرته، وثَنَّاها للتأكيد، إذ الجارحة تستحيل عليه تعالى، وَالرَّبُّ: هو المالك، وقدرته على سواء في كل مكان، وعلى كل إنسان، وَإِنَّمَا خَصَّ هَٰذِينَ بِأَتَمِّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ لَأَنَّهُمَا انْتَهَيَا إِلَى مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا حُكْمَ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ لِفَقْدِ الْمُتَعَبِّدِينَ فِيهِ، فَكَانَا فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْخَصْمِ بَيْنَ يَدَيْ الْحَاكِمِ. وَالْخَصْمُ: لَفْظُهُ وَاحِدٌ لِلوَاحِدِ وَالْآثِنِ وَالْجَمَاعَةِ، تَقُولُ لِلوَاحِدِ خَصْمٌ، وَلِلْآثِنِ خَصْمٌ، وَلِلْجَمَاعَةِ خَصْمٌ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الاعراف: ٢٠٦] يعني الملائكة عليهم السلام، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ عِنْدَهُ؛ لِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ وَسُلْطَانِهِ فِيهِمْ، فَخَصَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فِي مَكَانٍ لَا حُكْمَ فِيهِ لِغَيْرِهِ، وَخُصُومَتُهُمَا هَٰذِهِ وَاقِعَةٌ، وَالْفَصْلُ بَيْنَهُمَا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ عَنْ وَاقِعٍ، وَلَأَنَّ الْعَفْوَ تَعَلَّقَ بِهِ الْحُكْمُ، وَبِرَاءَةُ الذِّمَّةِ، وَاسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ، وَهَٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ بَقَاءِ التَّكْلِيفِ.

(١) الصَّقِيعُ: الْبَرْدُ الْمُخْرِقُ لِلنَّبَاتِ، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِش (أ).

قوله عليه السلام: قَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ خُذْ لِي بِمَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي.

دَلَّ عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا ظَالِمٌ وَالْآخَرُ مَظْلُومٌ، لتقرير الله سبحانه لمُدَّعي الظُّلَامَةِ عَلَى دَعْوَاهُ، وَحُكْمِهِ لَهُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ. وَقَوْلُهُ: يَا رَبِّ؛ اسْتِغَاثَةٌ وَنِدَاءٌ. وَقَوْلُهُ: خُذْ لِي بِمَعْنَى اسْتَنْصِفْ لِي أَوْ أَنْصِفْنِي. وَالْأَخْذُ نَقِيضُ الْإِعْطَاءِ. وَالْمَظْلَمَةُ وَاحِدَةُ الْمَظَالِمِ، وَأَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ - أَعْنِي الْمَظْلَمَةَ - لِأَنَّهَا وَقَعَتْ بِهِ، كَمَا يَقُولُ الْجَرِيحُ: أَلَمَّتْنِي جِرَاحِي، وَيَقُولُونَ لِلْمَصَابِ: أَرَبْنَا صَائِبَتِكَ. وَقَوْلُهُ: مِنْ أَخِي؛ تَلَطُّفٌ فِي الْخُصُومَةِ وَاسْتِدْعَاءُ النِّصْفَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَخًا فِي الْوِلَادَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَخًا فِي الدِّينِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ الْإِخْذَ مِنَ الْأَخِيَّةِ^(١) الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَأَكْثَرُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْوِلَادَةُ تَجْمَعُ وَكَذَلِكَ الدِّينُ؛ قِيلَ: أَخٌ لِمَنْ شَارَكَ غَيْرَهُ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ كَالرُّضَاعَةِ وَالطَّبَاعِ أَوْ السَّيْرِ، قَالَ الْفَرَزْدَقُ فِي الذَّنْبِ:

وَأَنْتَ أَمْرُؤٌ يَا ذِئْبُ وَالْعَدْرُ كُنْتُمَا أَخِيَّ صَفَاً أَرْضَعْتُمَا يَلْبَانِ

فَأَخِي بَيْنَهُ لَا شَبَابَ الْحَالِ فِيهِمَا، وَالْفَرَزْدَقُ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ.

قوله عليه السلام: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: اعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ.

مَعْنَاهُ سَلِّمْ إِلَيْهِ أَرْشَهَا، وَاعْطِهِ عَوَضَهَا، إِذَا الْمَظْلَمَةُ نَفْسَهَا يَسْتَحِيلُ تَسْلِيمَهَا، وَقَدْ صَرَحَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ الْأَعْيَانِ الْبَاقِيَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ بِقَوْلِهِ: مَا بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ، وَأَقَرَّ الْحُكْمَ الْعَدْلُ سَبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَوْ كَانَتْ بَاقِيَةً لَكَانَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِتَسْلِيمِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَذِكْرِ الْحَسَنَاتِ وَجْهٌ، وَمَعْنَى ذِكْرِ الْحَسَنَاتِ هَاهُنَا هِيَ الْأُمُورُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، سُمِّيَتْ حَسَنَاتٍ لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَسْتَحْسِنُهَا وَتُحِبُّهَا وَتَسْتَحِيلُهَا، إِذْ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِحَسَنَاتِهِ وَمَقْدَارُهَا وَتَفْصِيلُ أَجْزَائِهَا وَمَا بَقِيَ مِنْهَا مُسْتَحِيلٌ مَعَ بَقَاءِ التَّكْلِيفِ، وَقَدْ أَمَرَ سَبْحَانَهُ بِأَنْ نَقُولَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢١٩] فَذَكَرَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْعِلْمِ - وَهُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ - أَنَّ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا هِيَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ، وَذَكَرَ بَعْضُ آبَائِنَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا يُؤَيِّدُ مَا اخْتَرْنَاهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

(١) أَخِيَّةُ الدَّابَّةِ: عَوْدُ تُشَدُّ بِهِ، وَجَمْعُهَا الْأَوَاحِي، وَيُقَالُ أَنَّ الْأَخُوَّةَ مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِشُ (أ).

هَذَا مَا كُنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ قَدْ وَفُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ ﴿٥٥﴾ [التوبة] قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ)) فقيل له: يا رسول الله فما خير الإنسان في دهره؟ قال: ((لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُ أَحَدَكُمَا عَلَى دِينِهِ)) فجعلها من جملة المطالب النفيسة، بل من أجل المكاسب المفيدة، فقد تبين لك أن الحسنه تطلق على مكاسب الدنيا، وقوله: مَا يَبْقَى مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ، معناه من مالي الحسن في عيني الذي أخرج به من عهدته ما لزمني؛ إذ صار إلى مكان لم يتمكن فيه من تناول شيء من ماله.

[تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ... الْآيَةَ﴾]

ولنعد إلى ذكر الآية، الكثر في أصل اللغة: هو الجمع، كثر الشيء إذا جمعه، فلما كان صاحب المال يجمعه سُمِّيَ ذلك المال كنزاً، ثم صار في عرف اللغة يفيد الجمع والدفن له أو التغطية القائمة مقام الدفن، ثم نقل ذلك بالشرع الشريف إلى المال الذي لا تُخْرَجُ زكاته، فكل مال لم يخرج منه حق الله فهو كنز؛ وإن لم يتجاوز العشرين المثقال، والمائتي الدرهم قفلة، والذهب عينٌ معروف، والفضة عينٌ معروفة، وقيل سُمِّيَ الذهب ذهباً من الذهاب، وسُمِّيت الفضة فضة من الانفضاض، وهو الافتراق، والإنفاق معروف وهو نقيض الإمساك، وقال: ﴿يُنْفِقُونَهَا﴾، ولم يقل: ينفقونها؛ لأنَّ الضمير في الهاء عائدٌ إلى الكنوز من مجموعها، وسبيل الله تعالى: طريقه التي أَنهَجَ لعباده، وأفضلها الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ إذ جميع الطاعات مترتبة عليها. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ البشارة في الأصل: هي الإعلام بوصول محبوبٍ أو ارتفاع مكروه، تقول: بَشَّرْتُ الرَّجُلَ بخير، وَبَشَّرْتُهُ أَبَشْرُهُ وَأُبَشْرُهُ وَبَشَّرْتُهُ مُشَدِّدًا أَيْضاً من البشارة، وَسُمِّيتِ بَشَارَةً لأنها تظهر في بَشَرَةِ الوجه، والعذاب: هو الضرر الواصل إلى العبد على جهة الاستخفاف والإهانة، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْشَهَذْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور] وهو من أساء الأصدقاء، وإن لم يكثر استعمال العذاب في جنبه المحبوب، عَذَّبْتُهُ بمعنى حَبَبْتُهُ أي صيرته عَذْباً، وعَذَّبْتُهُ إذا عاقبته، فصار عندك مَبْعُضاً، وأليم: بمعنى مؤلم، كما قيل حكيم في مُحْكَم، وسميع في مُسْمِع، قال عمرو بن معدي كرب^(١) في قصيدته العينية:

(١) عمرو بن معدي كرب الزبيدي: يكنى أبا ثور، قدم على رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في وفد زبيد فأسلم، وذلك في سنة عشر. أقام بالمدينة برهة، ثُمَّ شهد عامة الفتوح بالعراق، وشهد مع أَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ،

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

يريد المُسْمِع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ يريد أن العذاب الأليم ينزل بهم يوم يحمى عليها في نار جهنم، فذلك في الآخرة، وأضيفت النار إلى جهنم إضافة الشيء إلى صفته، كما يقال: مسجداً الجامع، وصلاة الأولى، لأن جهنم صفة النار نعوذ بالله تعالى منها.

قوله تعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ الكي معروف، وهو الوَسْمُ بحديدة محمأة، والجبهة هي موضع السجود، وما يكتنفها من ميمتها وميسرتها جيئ.

قوله تعالى: ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ للإنسان جنبان، جنبٌ أيمن وأيسر، والظهر معروف، وهو ما يسامت القفا من الجسد، وهذه المواضع تكوى بالكنوز.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ هذه إشارة من الله تعالى بالقول أو تعريف بسواه من الله تعالى أو من ملائكته عليهم السلام بأمره، ﴿مَا كَنَزْتُمْ﴾: الذي كنزتم لأنفسكم، تَبَكَيْتَا لهم إذ كنزوه، بمعنى جمعوه ومنعوه من حق الله تعالى لأنفسهم بزعمهم، فكان عليها^(١) بجهلهم وسوء اختيارهم، ﴿فَذُوقُوا﴾ أصل الذوق باللسان، ثم استعير لكل كرهه ومُشتَهئ ومحبوب؛ لكون المذوق أخص الأمور بالذائق؛ لأن العين ربما غرَّت، ولا يغتر صاحب الذوق بوجه من الوجوه.

والمعنى في هذه الآية أن الذين يجمعون الذهب والفضة ثم يمنعون حق الله تعالى في تلك الكنوز بخلاً وجشعاً، ولؤماً وطمعاً؛ ويزعمون أن ذلك نظرٌ لأنفسهم؛ فأعلمهم يا محمد إعلام المُبَشِّر - على وجه الاستهزاء بهم والانتقاص بعقولهم - أن العذاب المؤلم واقعٌ بهم على ذلك في

ثم شهد مع سعد، وقتل يوم القادسية. وقيل: بل مات عطشاً يومئذ، وقيل: بل مات سنة إحدى وعشرين بعد أن شهد وقعة نهاوند مع النعمان بن مقرن، وشهد فتحها، وقاتل يومئذ حتى كان الفتح، وأثبتته الجراحات يومئذ، فحمل فمات بقرية من قرى نهاوند يقال لها روضة... وكان فارس العرب، مشهوراً بالشجاعة. صمد عمرو بن معدي كرب لعل عليه السلام - وكان يظن أن لا يثبت له أحد من شجعان العرب - فثبت له فعلاً عليه، وعاین منه ما لم يكن يحتسبه ففر من بين يديه هارباً ناجياً بحشاشة نفسه بعد أن كاد يقتله.. انظر الاستيعاب (٣/ ١٢٠٢) وشرح النهج (١٢/ ١٢٠).

(١) أي فكان على أنفسهم بدلاً من أن يكون لها.

دار الآخرة، وهو اليوم الذي يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم من بين أيديهم، ثم ظهورهم من خلفهم، وجنوبهم عن أيانهم وشمالهم، فلا يجدون عنها محيصاً، ثم يُعَرَّفُونَ: إِنَّ هذه الكنوز التي ادخرتموها للشدائد ولم تنفقوها في سبيل الله ولا تُسَلِّمُوا منها حق الله إلى ولاته وأربابه قد صارت عليكم شديدةً تَصْغُرُ إلى جنبها الشدائد، وأبدّة^(١) تُحْتَقَرُ في جنبها الأوابد، فيكون ذلك أعظم لحسرتهم وندامتهم وأسفهم وغرامتهم.

وذكر الكنوز بالكي وإن كانوا في النار، والكي خصوص والحريق عموم، لأن الله تعالى يجعل في تلك الكنوز من الحرارة ما يصير بمنزلة الكي للجسد السالم من الحريق لزيادة ما تختص به من الحرارة، وقد قال عبد بنى الحسحاس:

وَرَاهُنَّ رِيَّ مِثْلَ مَا قَدَ وَرَيْنِي وَأَحْمَى عَلَى أَكْبَادِهِنَّ الْمَكَوِيَا

فأضاف إلى عذاب الوري عذاب الكي؛ لأنه عندهم من الأمور الهائلة، فعند ذلك يودُّون أن الذهب كان ذاهباً، وأن الفضة كانت مُنْفَضَّةً، وأنهم لم يُعَرَفُوا بكسب ذهب ولا فضة.

ولا يقال (كنز) لِمَا مُبِعَتْ زكاته من سائر الأموال سوى الذهب والفضة؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَّقَ الكنز بالذهب والفضة فقال: ((كُلُّ مَالٍ بَلَغَ النُّصَابَ، فَأُخْرِجَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ)) في قصة^(٢)، ذهبٍ أو فضةٍ، وعن بعض الملوك التابعة فيما يروى:

وَأُتْبِئْتُ فِي الصَّيْنِ لِي بُغْيَةً ثِيَابَ الْحَرِيرِ وَكَنْزَ الذَّهَبِ

فخصَّ الذهب بالكنز وهذا هو رواية واسعة، وميلنا إلى الاختصار.

والمعنى في ذلك: أن الله تعالى بعدله أمر أن يؤتى المظلوم حقه، وأن يُتَصَفَّ له من الظالم إن لم يتصف الظالم من نفسه، وإذا كان الأمر هكذا؛ وكان ذلك الموقف بين يديه؛ لا يتمكن الظالم فيه من الامتناع بالكُماة المانعين، ولا يُقبل فيه كما حكى الله شفاعته الشافعين، وكانت الدنيا داراً يُتِمَكَّنُ فيها من الاستدراك والخلاص والفكاك، فأى وجه للغفلة عن طلب الخلاص قبل هجوم يوم القصاص، وقول المنادي ولات حين مناص.

(١) الأبدّة: الدَّاهِيَةُ يَتَقَيَّ ذِكْرُهَا أَبَدًا، (القاموس المحيط: ٢٦٤)، وقد مر لها ذكرٌ في حاشية سابقة.

(٢) لفظة: (في قصة) سقطت من نسخة، والمعنى هو: في قصةٍ أو حادثةٍ ذكر الحديث فيها أو بسببها.

قوله عليه السلام: فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ.

(يا رب) نداء خضوع واستعطاف، ودُّل واعتراف. ما بقي: إخبار منه قرَّره الحُكْمُ العدلُ سبحانه عليه؛ لأنَّ (مَا) وَرَدَتْ نافية لما بقي، والباقي هو الموجود الدائم، وهو نقيض الفاني. والحسنات: هاهنا الأملاك المستحسناتُ كما قدمنا، فكأنه قال: ما بقي في يدي شيء مما أملك من المستحسنات أخرجُ به من مظلمة أخي بإعطائه إياه لبُعْدِهما من أماكن الأملاك؛ لِمَا علم الله تعالى في ذلك من الصلاح لهما بمشاهدة الحال، ولنا بالخبر عن قصتهما.

والمعنى في ذلك: أن الحسنات التي هي الأملاك النفيسة لا بد من مفارقتها، وأن التبعات الشديدة لا بد من موافقتها، فهل من مُتَبَقِّظٍ في طلب نجاته، ومُعْطٍ من حسناته قبل فراق حياته، فإنَّ الدنيا دارُ غرور لمن اغترَّ بها، ومُتَجَرِّ سرورٍ وحبورٍ لمن اتَّعَظَ بعظاتها، واحترز من تبعاتها، وقدَّم المحبوب من حسناتها، وجاد بالمطلوب من خيراتها، وقَنِعَ بالقليل من أقواتها، وخاف المحذور من مفاجئ يَبَاتِها، واستصحب الممكن من عجالة بتاتها.

قوله عليه السلام: قَالَ: يَا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي.

هذا خطابٌ منه للحَكَمِ القادر العدل الذي لا يُرَدُّ قضاؤه، ولا يُدْفَعُ حكمه، ولا يُتَعَدَّى رسمه، قوله: فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي، أصل الحَمْلُ على الظهر أو في البطن، وقد يُفْرَقُ بينهما بالفتح فيما يكون في البطن وبالكسر فيما يكون على الظهر، ثُمَّ صار ذلك يفيد كل مؤنة يتولاها الإنسان عن غيره، يقول قائلهم: احمل عني هَمَّ هذا الأمر، وفلانٌ حَمَلَ أعباء الأمور مُشْتَعٍ. والأوزار: في أصل اللغة هي الأثقال، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الحج: ٤] معناه أثقالُ همِّها وسلاحِها، والمراد بالأوزار في هذا الخبر الذنوب لأنها تُثْقِلُ صاحبها في الآخرة تُثْقِلُ الكُلْفَةَ، ولا تثقله تثقيل رجحان الثَّقَلِ والخِفَّةِ، والذنوب لا يصح أن يحملها أحدٌ عن أحدٍ، لأنه تعالى يقول: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٦] [الإسراء: ١٥] [فاطر: ١٨] [الزمر: ٨]. وإنما المعنى في ذلك: إنَّ لهذا الذي ظلمني أعواضاً عندك، وإني قد استحققت منها بقدر ما تَعْلَمُ من مبلغ ظُلْمتي، وهي تُسْقِطُ مقدارها في علمك من ذنوبي، فإذا حملها بذلك كان كَأَنَّهُ حَمَلَ أوزاري؛ إذ كان سقوطها في الحكم من جهته، وقوله: فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي؛ ليس بسؤال، إذ ذلك كائن لا محالة ممن لم يخرج عن عهده ما لزمه لأخيه في

حال حياته في الدنيا، وإنما هو تَهْدُؤٌ له وإعلام بما يصل إليه حيث لم يُوفِّهِ حَقَّهُ في حال القدرة على إيفائه، وإنما علم ذلك لأنه إذا علم عدله وحكمته، وأنه لا يجوز أن يمكنه من ظلمه، وليس في علمه أن له عوضاً يوفي بجنائته؛ لم يُمكنه من ذلك.

قال الراوي: وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

العَيْنَانِ معروفَتان، وهما آلة البصر، وفيهما الحُسن، كما أن البهاء في الجبين، والجمال في الأنف، والمَلاحة في الفم. **وفاضتا** نقيض غاضتا، ومعنى ذلك سفحتا من كل جهة كما يفيض الماء من الإناء.

المعنى في ذلك: أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الأوزار اشتعلت نار الخوف في قلبه، فصعدت الرطوبة إلى رأسه، ففاضت عيناه بدموعه، وهو صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أخوف الخلق لربه، وأخشاهم لذنبه، وأذكرهم لِمَعَادِهِ، فإذا فاضت دموعه من ذكر الأوزار، فكيف يَقْرُ لمن دونه عليها قراراً، أو يسكن له نِفَارٌ^(١)، فيا لها من غفلة نحن فيها سادرون^(٢)، وزلة نحن على التثبت منها قادرون.

قال الراوي: ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيَّ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ.

ذلك: في لغتهم للبعيد، وذاك: لمن دونه في البعد، وذا: للحاضر.

اليوم المشار إليه هو اليوم الذي لا يَمْلِكُ فيه الإنسان ديناراً ولا درهماً، ولا قرصاً ولا عرضاً، وهو هاهنا يوم هذين المتهمين إلى بين يدي الله سبحانه في موقف ليس معهما فيه شيء سوى الحسنات والسيئات؛ لِيُعْدِهما عن الأملاك.

ويومهما هذا يشبه يوم البعث والحساب، فكأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل ذلك اليوم وشبهه باليوم المتأخر الذي هو يوم العرض الأشهر على الكبير الأكبر تعالى. **والحاجة:** هي الدواعي الداعية إلى

(١) النَّفَارُ: هو الْهَرُوبُ وَالشُّرُودُ، وَالْإِسْتِنْفَارُ: الْإِسْتِنْجَادُ وَالْإِسْتِنْصَارُ، وَالنَّفَرُ يَفْتَحَتَيْنِ عِدَّةَ رِجَالٍ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى عَشْرَةٍ، وَهُوَ اسْمٌ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، هـ. (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٩٢).

(٢) السَّادِرُ: الَّذِي لَا يَهْتَمُّ وَلَا يُبَالِي مَا صَنَعَ. هامش (أ) وَهُوَ أَيْضًا الْمُتَحَيِّرُ. (انظر مختار الصحاح: ١٤٥).

جلب نفع أو دفع ضرر. والناس هم المتعبّدون من ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد تقدّم الكلام في تسميتهم ناساً^(١). والهاء في (فيه) عائدة إلى اليوم المقدم ذكره. والحُمْلُ عنهم هو التخفيف من أثقالهم، والتقليل من أحمالهم وأوزارهم التي هي ذنوبهم، وقد تقدم الكلام في معنى الأوزار، ولم سُمِّيَتْ أوزاراً.

المعنى في ذلك: أنّ كل من صار إلى موضع الحكم بين يدي الله سبحانه على حالةٍ هو لأجلها ثقل الظهر، ظاهر الفقر، عديم الوفر، قليل الأجر، وقد نقضت الأثقال مُنْتَهَى^(٢) وخرقت الذنوب جُنَّتَهُ^(٣)، فلم يبق له قوة تكفيه، ولا بقي عليه جُنَّةٌ تقيه، فهو والحال هذه من أشد الناس حاجة إلى أن يُحْمَلَ عنه من ثقل أوزاره ما تيسر، لِيُدْفَرَ^(٤) عنه من ذنوبه ما يدفر، ويكفر عنه من سيئاته ما يكفر، فَمَنْ رُزِقَ ذلك فهو السعيد المظفر.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ بِحَقِّهِ: **ارْفَعْ بَصْرَكَ فَانْظُرْ إِلَى الْجَنَانِ.**
الطالب نقيض المطلوب، وهو هاهنا الذي يسأل غيره حق المظلمة، وأراد أن يتتصف منه كشق الأبلّمة^(٥). والحق نقيض الباطل وهو الثابت اللازم. والرفع نقيض الوضع، ولا يكون إلا لما يكون فوقك. والبصر هو آلة الرؤية، قال قائلهم وأحسبه عدي بن زيد:
أَرَى بَصْرِي قَدْ رَانِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَعِيشَ وَتَسْلَمَا
وقد يكون بصر البصيرة على المجاز، ورفعه استعماله. والجنان جمع جَنَّةٍ وهو البسيتين، والحيطان الكثيرة الأشجار، سُمِّيَتْ جَنَاناً لِجَنَانِ أَشْجَارِهَا لِقَرَارِهَا.

(١) تقدم ذلك خلال شرح الحديث الثامن، عند شرح قوله: ((وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ...)).

(٢) أي قُوَّتُهُ، الْمُنَّةُ: الْقُوَّةُ، يقال: هو قليل الْمُنَّةِ، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) الْجُنَّةُ: بِالضَّمِّ مَا اسْتَتَرَتْ بِهِ مِنْ سِلَاحٍ، وَالْجُنَّةُ أَيْضاً: الشُّرَّةُ. (مختار الصحاح: ٦٢).

(٤) دَفَرَهُ عَنْهُ دَفَرٌ أَيْ دَفَعَهُ، تمت ضياء، هامش (أ) قال القاموس المحيط (٣٩٢) الدَّفَرُ: الدَّفْعُ فِي الصَّدْرِ.

(٥) الْأَبْلَمَةُ بِضَمِّ الْأُحْمَزَةِ وَاللَّامِ وَفَتْحِهَا وَكَسْرِهَا: خُوصَةُ الْمُقْلِ، يَقُولُ: نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ فِي الْحُكْمِ سَوَاءٌ، لَا فَضْلَ لَأَمِيرٍ عَلَى مَأْمُورٍ، كَالْخُوصَةِ إِذَا شُقَّتْ بِإِثْنَيْنِ مُتَسَاوَيْتَيْنِ. وَقَوْلُ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ السَّقِيفَةِ: (الْأَمْرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كَقَدِّ الْأَبْلَمَةِ) (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٧).

المعنى في ذلك: يحتمل وجهين:

إمّا أن يكون القول قولاً حقيقياً ألقاه الله تعالى على لسان ملك، أو سمع صوتاً خلقه الله تعالى فأمره أن يرفع بصره إلى جنانٍ أعلى من مقامهما، وهي جنانٌ حقيقية تشبه جنان الآخرة، أو إلى جنان السماء التي تظاهرت الأخبار بصحتها، فقد جاء في الآثار أن فيها جميع ما وعدنا في الآخرة بحيث لا يغادر مما فيها شيئاً، ولا يفترق إلا في الخلود والدوام، وتصح رؤيته لها - وإن بعدت المسافة - بأن يُقَوِّي تعالى بصره حتى يراها رؤية حقيقية، ولا مانع من ذلك، فنظر فيها مُلكاً عقيماً، وخيراً جسيماً، يهون في جنبه إعطاء الرغائب، وبذل الحبايب.

وإمّا أن يكون أمره أن يرفع بصره بصيرته، ويتفكر في أمر الجنان وما فيها من الخير العظيم، والنعمة العميم، فعند ذلك يَسْتَصْغِرُ كُلَّ كَبِيرٍ في جنبها، وَيُذِلُّ كُلَّ خَطِيرٍ ليفوز بكسبها.

قوله عليه السلام: فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَأَى مَا أَعْجَبَهُ مِنَ الْحَبْرَةِ وَالنِّعْمَةِ.

قد تقدم الكلام في معنى الرفع، والرأس هو العضو المخصوص، وهو أعلى عضو من الإنسان، وفي الحديث: ((أَنْزِلُوا آلَ مُحَمَّدٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَبِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ، فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ جَسَدٌ بِلَا رَأْسٍ، وَلَا رَأْسٌ لَا عَيْنَ فِيهِ)) والرؤية قد تكون مشاهدةً بَصَرٍ، وقد تكون عِلْمَ تَظَرٍّ أو خَيْرٍ، جاء اللسان بذلك كله، قال الشاعر:

رَأَيْتُ اللَّهَ إِذْ سَمَى نِزَاراً وَأُسْكَنْتُكُمْ بِمَكَّةَ قَاطِنِينَ

فأثبت الرؤية في العلم. وأعجبه بمعنى حُسْنٍ في عينه. والحبرة هي السرور والفرح. والنعمة اللذة والتفكُّه والنَّصَارَة، ومنه قولهم: غصن ناعم أي نضير.

المعنى في ذلك: على نحو ما تقدم، إمّا أن يكون رفع رأسه وهو العضو الذي فيه آلة البصر؛ فأبْصَرَ بصر المشاهدة، ورأى الرؤية الحقيقية بالحاسة المعروفة، وإمّا أن يكون رفع رأسه رَفَعَ المتأمل للأدلة السماوية؛ فحصل له العلم بصدق الأخبار الإلهية في الجنان المُرَوِّية، وما فيها من الخيرات المغنية، والنعمة الملهمية.

قوله عليه السلام: قَالَ: لِمَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: لِمَنْ أَعْطَانِي ثَمَنَهُ.

(قال) حكايةً لكلام الرافع بصره، وهو الخصم المظلوم. (لمن) استفهامٌ للحكم العادل الذي هو ربُّه وربُّ كل شيء سواه، بمعنى أنه مالك الجميع وسيِّده.

وقوله: (هذا) إشارةٌ إلى الخير الأوفر، والمُلك الأكبر الذي رآه في الجنان بالعلم أو العيان. قال الربُّ سبحانه - جواباً للمستفهم المظلوم في قوله (لمن هذا) -: **هُوَ لِمَنْ أَعْطَانِي ثَمَنَهُ. والإعطاء** المناولة. **والثمن** هو ما ينعقد عليه البيع، وسُمِّي ثمناً لعظم قدره عندهم، ولهذا يخرجون به عن أملاكهم، وقد كانوا يحبون الثمانية من ذلك، ويكرهون السبع والسبعة، وجاءت الشريعة الشريفة بأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة. **والبيع** هو عقد بين اثنين بلفظين ماضيين عاقلين أو في حكم العاقلين علماً تاماً يقع به التكليف، أو يكون أحدهما العالم لذاته تعالى كما وردت الشريعة بذلك في آي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١٢] والشراء قد يعتبر به البيع والشراء معاً، وكذلك البيع، قال شاعرهم:

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَنْتَمِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلَا هُوَ بِالْأَنْبَاءِ يَشْرِينَا

ويكون على شروط معتبرة لا وجه لذكرها هاهنا، وقد جعل الحكيم سبحانه وتعالى الثمن هاهنا العفو، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**التَّوْحِيدُ ثَمَنُ الْجَنَّةِ**)) فالمبايعة هاهنا وقعت بين العاقل ومن هو أعلى درجة من العاقل، وهو العالم بجميع المعلومات.

المعنى في ذلك: أنه لما رأى القباب المجللة، والأبيرة المكلفة، والقصور المشيدة، والغرف المعمدة، والحدائق الغلب^(١) والأعنان، والعُرب^(٢) القاصرات الأثراب^(٣)، إلى غير ذلك من القُطوف الدانية، والعيون الجارية، والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنهارق^(٤)

(١) الغلب: جمع غلباء أي عزيمة متكاثفة الأشجار ملتفة. (انظر لسان العرب ١/٦٥٢).

(٢) عُرب: جمع عروب، وهي المتحبيبة إلى زوجها عشقاً له، تمت، هامش (أ) (انظر القاموس المحيط: ١١٣).

(٣) الأثراب: جمع ثرب، أي مستويات في السن، هامش (أ) (انظر القاموس المحيط: ٦١).

(٤) الثمرق والتمرقة مثلثة: الوسادة الصغيرة أو الميتر أو الطنفسة فوق الرجل، (القاموس: ٩٢٦).

المصفوفة، والزرايبي^(١) المبتوثة؛ رأى أمراً هائلاً، ومُلكاً طائلاً، تَحَارَ فيه الأفكار، وتَكَلُّ عنه الأبصار، فقال: لِمَنْ هَذَا؟ ومن يتمكن من وصوله؟ وهل في المقدور أن يَتَوَصَّلَ إلى نيل ما هذا سبيله بأجل الأثمان؟ واستفراغ الوُسْع والإمكان، فقربه الله تعالى درجةً أزال بها بعض ما كان ترتَّب في نفسه من أن ذلك الأمر الجليل، والمُلك الجزيل لا يُشْتَرَى بالآثمان، ولا يدخل ثَمَنُهُ تحت قدرة الإنسان؛ بقوله: لِمَنْ أَعْطَانِي ثَمَنَهُ؛ فحينئذٍ فزع إلى السؤال، وطَمِع في المنال.

قوله عليه السلام: قَالَ: وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ يَا رَبِّ؟ قَالَ: أَنْتَ.

(قال) راجعٌ إلى الطالب بحقه، وهو الرافع رأسه الناظر ما عند ربه، و(مَنْ) استفهام. والمالك للشيء هو الذي له التصرف فيه بغير واسطة غيره. و(ذلك) إشارة إلى الثمن المقدم ذكره. (يا رب) استغاثة واستعظام لِمَا رأى أن يكون ثمنه داخلاً تحت مقدور أحد من البشر؛ لأنه عاين مُلكاً جليلاً، قال الله تعالى: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، فعَظُم السرور، وتضاعف الجبور.

المعنى في ذلك: أنه لما رأى المُلك المقرر، والخير الموفر؛ استعظم أن يكون ثمنه داخلاً في ملك أحد كما قدمنا، فأخبر الحكيم سبحانه أنك تملكه أنت، فازداد إلى التعجب منه تعجباً من مَلِكِهِ لثمنه، وإنما قدر على ثمنه لسعة جود ربه وكرمه، وشدة محبته لإسعاد عباده، وتعريضه لهم إلى الخيرات الجسام، والمِنَنِ العظام، بمجرد فعل الطاعات التي أَقْدَرَ على فعلها، ودَلَّ عليها، وَلَطَفَ فيها، فكأنها من جملة نعمه التي يجب شكرها، ثم جعل بعد ذلك في مقابلتها من الثواب ما تَصَغَّرُ في جنبه الأموال الخطيرة والأملak الكثيرة؛ لأنه سبحانه مُعَرِّضٌ لا معترض، ومالك لا مُقْتَرَض.

قوله عليه السلام: قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ.

قوله: (بماذا) استفهام، تقديره: بأي شيء. والعفو هو ترك المناقشة والمطالبة، أخذ العفو عن المكان، العفو الذي لا آثار^(٢) فيه لرعي ولا غيره، ومعنى عفو هاهنا تجاوزه عنه بترك المطالبة له لوجه الله تعالى، وقد بَيَّنَّا أن لفظ الأخوة يحتمل أخوة الدين أو أخوة النسب، أو مجموعهما؛ إذ لم

(١) الزَّرَائِبِيُّ: النَّارِقُ والبُسْطُ أو كُلُّ مَا بُسِطَ وَأُثْكِيَ عَلَيْهِ، الْوَاحِدُ: زَرَبْتُ بِالْكَسْرِ وَبُسَمْتُ. (القاموس: ٩٣).

(٢) في (أ) ونسخة أخرى: إثارة.

يرد دليل على شيء من ذلك. **قَالَ: يَا رَبِّ**، يريد يا مالكي اعترافاً له بواجب حقه، **(فَإِنِّي قَدْ) أَتَبَعَ** حرف التأكيد بحرف الوقوع المتضمن لمعناه. **عَفَوْتُ** وشفحت معناهما واحد، وهو ترك المطالبة له بالمظلمة التي تقدم فيها الاستعداد عنه، يريد تجاوزته فلا أطلبه أبداً، وأبرأه لئلا يتخذ عندك يا ربّ يداً.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أن الله تعالى لما قال له: أنت تملك ثمن هذه الممالك الكبار في الجنان والأنهار، عَيَّ^(١) في نفسه بأي شيء يملكه لعظم ما رأى، واستصغاراً لقدرته، وملك يده، وضيق بسطته، وعلم أن الله تعالى صادق، فأراد تبين ذلك الثمن؛ إذ قد أخبره الصادق سبحانه بأنه يدخل تحت مقدوره، فبين له ذلك بقوله: **بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ**، وفي هذا دليل على أن فاعل المظلمة كان في تلك الحال تائباً، وهي حال وقوفها بين يدي الله سبحانه، لذلك استحق دخول الجنة عقيب العفو؛ لأن المظلمة تتعلق بها حقُّ العبد، وهو الذي يَسْقُطُ بالعفو، وحقُّ الله تعالى في تعدي حده المضروب، وهو لا يَسْقُطُ إلا بالتوبة.

قال: يَا رَبِّ - وهو أربح الرجلين بضاعة، وأكثرهما نفاعاً - **فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ**، مبادراً إلى ذلك لما رأى في مقابلته، فهان عليه العفو وبادر إليه، ولم ينظر في شيء من أمره، ولا تفكر في إنفاذه ولا تركه، ولا شك بعد المشاهدة لتلك الخيرات النفيسة أن تارك العفو خاسر، وأن العباد لو اطلعوا على ما اطلع عليه لآثروا العفو، وتبادروا إليه من غير اختلاف في ذلك، فانظر إلى أمر العفو ما أوضحه؛ وفاعله ما أربحه؛ هذا مع أن الأمر هاهنا من الله سبحانه نَدْبٌ، والثواب الجزيل الذي جعله في مقابلته ثوابٌ على فعل المندوب، فأما إذا وقع من الجاني الاعتذار والتنصل من خطيئته بالجهل والاعتذار؛ فإنه يجب قبول عذره وجوباً حتماً، لا يسدُّ شفاء الغيظ له ثلماً، وذلك لما روينا عن جابر بن عبد الله عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **((مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ، فَلَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى صَاحِبِ الْمَكْسِ))** يعني: العشار^(٢)، وهذا كما ترى حتماً لا رخصة فيه، فعلى العاقل الثبوت في أمره.

(١) أي تحيّر.

(٢) الْمَكْسُ: الضَّرْبَةُ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْمَاكِسُ، وَهُوَ الْعَشَّارُ. (النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٣٤٩).

قوله عليه السلام: قَالَ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ.

قد تقدم الكلام في معاني هذه الألفاظ اللغوية لتكرارها في المحاوراة السابقة، والضمير في (قال) عائد إلى الله، وأخذه بيد أخيه دلالة الرضى وتام العفو، إذ لا تقع المخاصرة^(١) عند العرب إلا مع زوال وَحَرٍ^(٢) القلوب وضيابها، وزوال الحسيكة من لصابها^(٣)، بل ذلك دلالة الوداد عندهم والمحبة، والألفة والصحة، قال الشاعر^(٤):

ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقَبَّةِ الْخَضْرِ — رَاءَ تَمْشِيٍّ فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ^(٥)

وأخوه هاهنا هو الجاني عليه، وقد بينّا فيما تقدم ما يحتمل معنى الأخوة من التأويل، وتعقيب العفو بدخول الجنة لا يمتنع أن يحمل على ظاهره، ويكون الله تعالى أدخلهما الجنة من جنانه التي لا تمنع من خَلْقِهَا حِكْمَتُهُ، ولا تعتاص^(٦) قدرته؛ يأكلان من ثمارها، ويعبدانه تعالى فيها حتى يأتيهما اليقين، فيكون قد عجل لهما المسرة، ودفع عنها المضرة، وآتاها ثواب الدنيا في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة في الآخرة، وهذا لا ينكره إلا من يجهل قدرة الله تعالى وحكمته، وجواز مفاضلته بين عباده في الأرزاق، ومخالفته بينهم في التعبد، ومثل هذا لا يلتفت إلى قوله؛ إذ جهل من الحكمة جلّها، ومنعها محلّها، واستبدل بها جهلاً، واتخذها كلاً، فلم يكن لها أهلاً، ولم يستنشق رَوْحَ نسيمها، ولا باشر برد نعيمها، بل هجرها فهجرته، وزجرها فزجرته، فأصبح منها عائلاً، ولم ينل منها طائلاً، فرزيتّه في نفسه أعظم من رزية أهل الحق في فراقه.

(١) الْمُخَاصَرَةُ: أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ بِيَدِ آخَرٍ وَيَتَسَايَرَا مَعًا، يَدُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِنْدَ خَصَرِ الْآخَرِ، تَمَّتْ مِنْ شَمْسِ الْعُلُومِ، هَامِشٌ (أ) (وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٧)..

(٢) وَحَرُ الْقَلْبِ، بِالتَّحْرِيكِ، غِشٌّ وَوَسَاوِسُهُ. وَقِيلَ: الْحِقْدُ وَالْغَيْظُ. (انظر النهاية ٥ / ١٦٠).

(٣) الضَّبُّ: الْحِقْدُ، وَجَمْعُهُ ضِبَابٌ، وَالْحَسِيكَةُ: الْعَدَاوَةُ وَالضَّغِينَةُ، وَاللَّصَابُ: مَاخُذٌ مِنْ لَصَبٍ يَلْصَبُ لَصَبًا، وَهُوَ اللَّصُوقُ وَاللِّزُوقُ فِي الشَّيْءِ، لَصَبَ الْخَاتَمِ فِي الْأَصْبَعِ أَيْ لَصَقَ وَلَزَقَ وَلَمْ يَفْلِقْ، ا.هـ. قاموس.

(٤) هو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

(٥) الْمَرْمَرُ: الرُّخَامُ، وَالْمَسْنُونُ: الْمُمَلَّسُ [أَي الْمَضْغُولُ]، من هامش الأصل.

(٦) الْعَوَصُ: ضِدُّ الْإِمْكَانِ وَالْيُسْرِ؛ شَيْءٌ أَعْوَصُ وَعَوِيصٌ، (لسان العرب: ٧ / ٥٨).

ويحتمل أن تكون الجنة جنة الخلد لقرب ورودها ودخولها عند الله تعالى لأزليته التي لا تنتهى، وبقائه الذي لا ينحدر، فهو لذلك يستقرب كل بعيد مما في علمه إتيائه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ وَتَرِيَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ [المعارج] فلذلك عقب العفو بدخول الجنة وإن كان متراحياً، ويكون ذلك توسعاً ومجازاً، وذلك غير ممتنع في اللسان، وأبلغ منه قد وُجد في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف] جعل أصحاب الجنة لإقامتهم فيها ونزولهم إياها كما يقول: صاحب الدار، وكذلك الكلام في معنى أصحاب النار أن موضعه نصبٌ بفقدان الخافض، و﴿وَجَدْنَا﴾ من وجدان الضالة أي لقينا ووافينا، والوعد: هو الإخبار بوصول أمر في المستقبل، وقد يختص بالخير في العرف والوعيد بالشر، وقد يستعملان بمعنى واحد لتقاربهما. (ونعم): تكون للتصديق ولإجابة السائل في مناقضة (لا)، وتكون للازدياد من المتكلم، وجعلها في مقابلة: ﴿هَلْ وَجَدْتُمْ﴾. و ﴿حَقًّا﴾: بالتثنية مصدر حقَّ يَحِقُّ، فهو في معنى التأكيد لوجدان الموعود. والمؤذن: هو الصائح برفع صوته ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي ناره وإبعاده ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي واقع على الظالمين، والظالمون هاهنا هم الطالبون ما ليس لهم، المتعدُّون حدود ربهم، فلما أذن المؤذن ازدادوا ياساً إلى ياسهم^(١)، وقنوطاً إلى قنوطهم. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة] فقد رأيت كيف أتى الحكيم سبحانه بلفظ الماضي لَمَّا كان الكائن عنده كأنه قد كان، فلما كان المظلوم المقدم ذكره بعفوه عن أخيه، وتجرد أخيه عند ذلك من الذنوب والتبعات؛ صار كأنه قد دخل الجنة وفاز بالخيرات، جاز لذلك تعقيب العفو بالدخول؛ لأنه في حكم الحاصل عقيبهِ عنده تعالى، فيكون أكثر ما في ذلك أن يكون مجازاً، وجائز من الحكيم سبحانه أن يخاطب به. وإنكار الحشوية لجواز ذلك غير قادح فيه؛ إذ قد قامت الدلالة على جوازه لأنه خاطب بلسان العرب، وذلك شائع^(٢) فيه، لا ينكره من له أدنى مسكة من معرفة كلامهم، ولأنه قد وُجد في

(١) الْيَأْسُ وَالْيَأْسَةُ: الْقُنُوطُ، ضِدُّ الرَّجَاءِ، أَوْ قَطْعُ الْأَمَلِ، يَيْسُ يَيْأَسُ، كَيْمَنَعَ، وَيَضْرِبُ شَاذٌ، (القاموس ٥٨٢)

(٢) في الأصل: سَائِعٌ.

كلامه تعالى في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] والمجيء نقيض الذهاب، وهو من صفات المحدثين الدالة على الحدوث، فحُمل على محذوفٍ مقدَّر، هو: وجاء أمر ربك، وهو في القرآن كثير جداً لا ينكره من يعرف القرآن حق معرفته.

قال الراوي: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ.

اتقوا الله معناه لَقُوهُ سِتْرًا حَاجِبًا وَاقْبًا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، لأن سهامه تعالى النافذة لا يَجِنُّ^(١)

منها إلا ذلك. وإصلاح ذات البين: هو تنقية الظواهر والبواطن من فساد العداوة، وحل الأحقاد المهلكة، لأن الإصلاح في اللغة هو تعهّد الأمر ودفع ما يُفسده بأنواع الأعمال، كما يقال: أصلح فلان ضيعته، إذا نَقَّاهَا مما يُفْسِدُ زرعها وعمَرَهَا، وهو ظاهر موجود.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر بإصلاح ذات البين، وخَوْفَ من تركه وإطراحه بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((اتَّقُوا اللَّهَ)) لأن ذلك لا يُطْلَقُ عَلَى الْمُنْدُوبَاتِ حَقِيقَةً، لا يقول قائلهم: اتق الله، وافعل المندوب، أو صَلِّ نافلة، أو حَجْ نافلة، وإنما يكون ذلك في مقابلة ترك الواجبات وفعل المحظورات، فكان أمر صلاح ذات البين عظيمًا، وخطر العفو جسيمًا، وفي الحديث: ((صَلَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ)).

[تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾]

هذا وقد سمعت الله تعالى يقول قولاً عاماً: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات]

الطائفة: هي الجماعة، والمؤمنون: هم المصدقون بالنبي عليه وعلى آله السلام وبالذي جاء به، والمتبعون له. ﴿إِقْتَتَلُوا﴾ أعاده إلى المؤمنين دون الطائفتين، لولا ذلك لقال: اقتتلا^(٢).

(١) لَا يَجِنُّ: لَا يَبْقِي، وَالْجَنَّةُ: الْوَقَايَةُ وَالسِتْرَةُ، كَمَا مَرَّ.

(٢) صَوَّبَ عَلَيْهَا فِي هَامِشٍ (أ) بلفظه: صوابه اقتتلتا، إلا أن يكون عائداً إلى معنى طائفتين أي رهطين كما في الكشف، تمت.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، لأن هذا هو الواجب في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُبتدأ بالرفق والأمر الأهون، والإصلاح يقع بالوعظ والتذكير والاحتجاج والتخويف. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ عاد إلى الطائفتين، وبغيها: طلبها ما ليس لها شرعاً، وإن كان أصل البغي الطلب. ﴿عَلَى الْأُخْرَى﴾ يريد الثانية التي لم تبغ، ولأن كون إحدى الطائفتين من المؤمنين عادلة والأخرى جائرة؛ لأن الشرع الشريف قد منع من اجتماعهم على الضلالة، ولأنهم أطلق عليهم اسم الإيمان، وأخبر باستقامة إحدى الفرقتين، فإذا فعلت ولم ينجع^(١) فيها الإصلاح وتعدت الحدود المضروبة إلى القتل والقتال على الجهل والضلال؛ وجب قتالها ﴿حَتَّى تَفِئَةَ لِي أَمْرٍ لِلَّهِ﴾ بمعنى ترجع، يقال: فاء إذا رجع. وأمر الله تعالى هو صلاح ذات البين، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ بمعنى رجعت إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ العدل نقيض الجور، وهو إيفاء حق الغير والاستيفاء منه، وإنما يريد أن يحكم بالعدل فيما وقع بينهما من سفك الدماء وأخذ الأموال التي تتعلق أبداً بالقتال. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾: اعدلوا، يقال: قسط إذا جار، وأقسط إذا عدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين. فانظر ما في العدل من الخيرات المرغوبة في فعله، وما في الجور من الأمور المخوفة من ركوبه، وإنما يتنفع بالتذكير الذاكرون، ويعتبر بالعبر الناظرون، فمن جعل همه النظر في واعظات الدين ولوازمه استمسك بحبل متين، وفاز بعلق^(٢) ثمين، ولجأ إلى ركن ركين، واستكن بكن^(٣) كنين^(٣)، ومن كان عند ذكرها لاهياً، وعند النظر فيها ساهياً استوقر^(٤) حُجَّةً، واقتحم لُجَّةً، فنسأل الله التوفيق والنجاة، وحسن الممات والحياة، والصلاة على محمد وآله.

(١) نَجَعَ الْوَعْظُ وَالْخَطَابُ فِيهِ: دَخَلَ فَأَثَّرَ، (القاموس المحيط: ٧٦٥).

(٢) الْعَلَقُ، بالكسر: النَّفْسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ج: أَعْلَاقٌ وَعُلُوقٌ. (القاموس المحيط: ٩١١)

(٣) اسْتَكَنَّ: اسْتَتَرَ، وَالْكِنُّ وَالْكِنَّةُ وَالْكِنَانُ: وِقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ. وَالْكَيْنُ: الْبَيْتُ أَيْضاً، (لسان: ١٣ / ٣٦٠).

(٤) اسْتَوْقَرَ إِذَا حَمَلَ حِمْلًا ثَقِيلًا، وَالْوَقْرُ بِالْكَسْرِ: الثَّقُلُ يُحْمَلُ عَلَى ظَهْرٍ أَوْ عَلَى رَأْسٍ، (لسان: ٥ / ٢٩٠).

الحديث التاسع عشر

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - وقد تقد الكلام فيه نسباً وحالاً^(٢)، وهو خادم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ في الليل والنهار، وملازمه في الحضر والأسفار، وكان به حفيظاً، وله ولياً، يخاطبه بـ (يا بُنَيَّ) كما يخاطب الوالد ولده، وعُمِّرَ إلى زمن عبد الملك بن مروان، ونزل العراق، ففي الحديث أَنَّ الْحَجَّاجَ لعنه الله أساء عشرته، وآذاه بالكلام، وكان شديد العداوة لأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ خاصةً، ولسائر المسلمين عامةً، فكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه في كتاب أطل فيه أنس، وذكر الحجَّاجَ وقُبِّحَ معاشرته له، وقال في كتابه: والله لو أن اليهود والنصارى وجدوا رجلاً خَدَمَ موسى بن عمران، وعيسى بن مريم عليهما السلام يوماً واحداً لفعلوا في أمره كذا وكذا، وأنا خَدَمْتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عشر سنين، فما رِعَيْتُمْ^(٣) لي ذلك، فأمر عبد الملك البريد على الفور بكتاب غليظ إلى الحجَّاجَ يلعنه ويتهدده، ويُقَسِّمُ لئن لم تُحَكِّمْ أَنَساً في نفسك وترفع من شأنه ليفعلنَّ فيه كذا وكذا من أنواع العذاب، وكتب إلى أنس جواب كتابه كتاباً لِيناً يسترضيه ويستعطفه، فلما وصل كتاب عبد الملك إلى الحجَّاجَ ألقاه وأرعبه، وأرضى أنساً وأعتبه وتشفع إلى أنس أن يكتب إلى عبد الملك بالرضى عنه، ففعل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ؟ قَالَ: ((الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاهْتَمُّوا بِأَجْلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكُهُمْ، فَمَا عَرَضَ لَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا عَارِضٌ إِلَّا رَفَضُوهُ، وَلَا خَادَعَهُمْ مِنْ رَفَعَتِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ،

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو الفضل العباس بن محمد بن أبي حكيم قال وحدثنا أبو عبد الله محمد بن زكريا الغلابي قال حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا مالك بن أنس قال حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك... الحديث.

(٢) سبق ذلك في الحديث الأول.

(٣) كذا في الأصل، وفي باقي النسخ: (رأيتم).

خَلَقَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ فَمَا يُجَدِّدُونَهَا، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَهَا، وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَمَا يُحْيُونَهَا، بَلْ يَهْدُمُونَهَا فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَى لَهُمْ، وَنَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صَرَخَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَثَلَاتُ، فَمَا يَرُونَ أَمَانًا دُونَ مَا يَرْجُونَ وَلَا خَوْفًا دُونَ مَا يُحَذِّرُونَ^(١).

قِيلَ فِعْلٌ مَا لَمْ يَسْمَعْ فاعله، وهذه بِنْيَتُهُ، وفيه لغتان: بالواو والإشباع^(٢)، وهذه أظهر لغاته وأكثر دوراناً في كلامهم، وكذلك الحُكْمُ في كَيْلٍ وَبَيْعٍ.

ورسول الله: هو المتحمل للرسالة عنه إلى عباده، ونحن شاهدون له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بتبليغ الرسالة وتأدية الأمانة. والصلاة عليه منا الدعاء والترحم، ومن الله تعالى إجابة دعائنا فيه والرحمة له، ولا بد من ذكر آله عليهم السلام معه في الصلاة، وهم ذريته حقيقةً، وقد يدخل معهم غيرهم توسعاً، فيفتقر إلى قرينة؛ لأنه لا يسبق إلى أفهام أهل الشرع واللغة عند إطلاق القول بأن هذا من عترة رسول الله صلى الله عليه وعليهم إِلَّا مَنْ اخْتَصَّ بولادة الحسن والحسين عليهم السلام.

وإنما قلنا لا بد من ذكرهم لِمَا رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا تُصَلُّوا عَلَى الصَّلَاةِ الْبُتْرَاءِ)) قالوا: يا رسول الله، وما الصلاة البتراء؟ قال: ((أَنْ تُصَلُّوا عَلَيَّ وَلَا تُصَلُّوا عَلَيَّ أَلِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ الصَّلَاةَ عَلَيَّ حَتَّى تُصَلُّوا عَلَيَّ أَلِي مَعِيَ)).
مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ؟

استفهامٌ يستغرق المتصفين بصفة الولاية، فأولياء الله معناه أهل ولايته الذين ترعاهم عين رعايته، وتكألهم كَفٌّ كِلَاءَتِهِ، وأولياؤه خلاف أعدائه، والسؤال تعين عن الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فكانه عَلَيْهِ السَّلَامُ سئل عن خلاصة الخلاصة، وخاصة الخاصة.

(١) الحديث رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٠) وابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء (ص ١٥ برقم ١٨) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٦٦) وكلها تروي أن السائل هم الحواريون والمسؤول هو عيسى عليه السلام، وهو مروي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام باختلاف يسير.
(٢) منهم من يقول: قِيلَ وَبِيعَ بالإشباع، ومنهم من يقول: قول وبوع بالواو، تمت، هامش (أ).

[في وصف يوم الهول الأكبر]

والخوف نقيض الأمن. **والحزن** نقيض السرور، فسؤال السائل له عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع عن الذين لا يخافون وإن خاف الناس، ولا يحزنون وإن حزنوا، وهذا إنما يتحقق ويكون يوم الخوف الأكبر والحزن الأعظم، وتكون الشمس مكورة، والسماء مغطاة، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الخمر، ولكن عذاب الله شديد الذي أعد لأعدائه وأي شديد أشد منه؟ وصفته دون عيانه، وكل ذي لسان لا يتمكن من بيانه، إنما هو وبال ولبال، ونكأل وأنكأل^(١)، وحميم وأغلال، وسعير وإشعال، ووعيد وزلزال، إلى غير نهاية ولا غاية، فهذا ما يمكن من صفته على وجه الإجمال، فأما في هذه الدنيا فأى خوف أعظم من خوف أوليائه؛ أو حزن أشد من حزن أصفياه؛ وهم خائفون له في واجبات حقوقه وملتبسات محظوراته، فكأن صرير النار في مسامعهم، وكأن حميم الجحيم قد أجمهم وضب من فوق رؤوسهم، وكأن الزبانية يزجرونهم من خلفهم، فأى خوف أعظم من خوفهم، هذا مع إخافة أعدائه سبحانه لهم فيه، وفرط تعصبهم عليهم بالعداوة والبغضاء؛ لانقطاعهم إلى خالقهم، وهم يخافون احترام أعدائهم لهم ولم يخلصوا من عهدة ما لزمهم لربهم، فلا ينزع عنهم هذا الخوف والحزن إلا لقاءه عز وجل. فحينئذ يحصدون ثمرة الخوف أمناً كافياً، وثمره الحزن سروراً صافياً، فكأنهم ما خافوا وما حزنوا، كذلك يجزي الشاكرون الصابرون.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيباً للسائل الذي سأل عن أولياء الله: **الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا.**

النظر: له معانٍ كثيرة، والمراد به هاهنا نظر الفكر بعين البصيرة، لا نظر المشاهدة بتقليب الحدقة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته، لأن ذلك يستحيل أن يتعلق به ثواب والحال هذه^(٢).

وباطن الدنيا: هو معناها ومآلها، ومعناها العناء، ومآلها الفناء، والباطن نقيض الظاهر، وُسْمِي

(١) النَّكَالُ: مَا نَكَلَتْ بِهِ غَيْرَكَ، أَيْ صَنَعَتْ بِهِ صَنِيعاً تُحَذِّرُ غَيْرَهُ، وَالْأَنْكَالُ: هِيَ الْقِيُودُ الشَّدِيدَةُ، وَمُفْرَدُهَا:

نِكْلٌ، بِكَسْرِ النُّونِ، (انظر القاموس المحيط ص: ١٠٦٥).

(٢) في هامش (أ): قال قائلهم: انْظُرْ بِفِكَرِكَ تَسْتَبِينَ الْمَنْهَجَا واعْلَمْ بِأَنَّ الْفِكَرَ هُوَ سَبَبُ النَّجَا

الباطن باطناً من الغموض والخفاء، وسمي الظاهر ظاهراً من الظهور والجلال، وقيل للظَّهر ظهر وللبطن بطن من ذلك.

المعنى في ذلك: أن من نظر الدنيا بعين التحقير؛ وتأمل باطنها بغامض التفكير؛ لم ينخدع لغرور ظاهرها الفتان، لأنه لا دوام له ولا بقاء، ولا استقرار ولا غنى، بينما ترى الغنى فيها غنياً مُخْلِداً^(١) إذ صار فقيراً ملحداً، وبينما تراه فقيراً وقيراً^(٢) إذ صار غنياً أميراً، خُصِبها ينقلب جدياً، وسلمها يؤول حرباً، وحبها بُغضاً، وبُغضها حُباً، كم من عارٍ فيها أمسى كاسياً، وكم من كاسٍ أمسى عارياً، ومكثور أصبح وحيداً، وفردٍ قاد في يوم واحد جنوداً ومُلُكاً عتيداً، هذا مع أن كل زيادة فيها إلى نقصان، وريح فيها إلى خسران، وسرور إلى أحزان، فليس لها حال تستقر، ولا صفة تنحصر، فأما من نظر إلى ظاهرها فقد ذُبح بغير سكين، ورجع بِسَهْمٍ غيبين؛ لأنه نظر لحلاوة ظاهرة من تحتها مرارة قاهرة، ولذة عاجلة من تحتها تبعئة هائلة، ومضرة قاتلة، لأنه نظر إلى الخضرة والأزهار، ولم يفكر في القحول^(٣) والاصفرار، والتنكر والدمار، فتعلّق بأغصان تعود عمّا قليل هشيماً، واشتَمَ نسيماً ينقلب عن غير طائل مُهَلِّة سَمُوماً وجحياً^(٤)، فخرج من الدنيا كلياً، وورد الآخرة مَضِيماً^(٥).

قوله عليه السلام: وَاهْتَمُّوا بِأَجْلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا.

والاهتمام: افتعال من اهتمّ، واهتمّ يتعلق بما يكون ولا يتعلق بما كان.

الأجل: نقيض العاجل، والأجل المستظر، والعاجل الواقع.

(١) المُخْلِذُ مِنَ الرَّجَالِ: الَّذِي أَسَنَّ وَلَمْ يَشِبْ، (لسان العرب: ٣/ ١٦٤).

(٢) فقيرٌ وقيرٌ، أي أَوْفَرَه الدين، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) الْقُحُولُ: الْيُبُوسَةُ، قال في القاموس: قَحَلَ، كَمَنَعَ، قُحُولاً، وَكَعَلِمَ، قَحَلًا، أَوْ يُجْرِكُ، وَكُعْيِي، قُحُولًا: يَبْسَ جِلْدُهُ عَلَى عَظْمِهِ، (القاموس: ١٠٤٧).

(٤) السَّمُومُ: الرِّيحُ الْحَارَّةُ، (القاموس: ١١٢٤). وَالْجَحِيمُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ. وَأَصْلُهُ مَا اشْتَدَّ هَبُهُ مِنْ النَّبَرَانِ، (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٤١).

(٥) ضَامَةٌ حَقَّةٌ يَضِيغُهُ وَاسْتِضَامَةٌ: انْتَقَصَهُ، فَهُوَ مَضِيغٌ وَمُسْتَضَامٌ، وَالضَّيْمُ: الظُّلُمُ، (القاموس: ١١٣٢).

والمعنى في ذلك: أن من صفة أولياء الله الذين تقدم ذكرهم بأنهم لا يخافون ولا يحزنون: أنهم يهثون آجل الدنيا، وهو الموت والزوال، والتغير والانتقال، وتقلب الأحوال، وتصعب الآمال، فلا تزال همومهم إليه طالعة، وأفكارهم لعقاب شدائده فازعة، فأسهروا ليلهم ذكراً وفكراً، وقطعوا يومهم كذاً وصبراً؛ لعلمهم أن رُبَّ مستقبلٍ يوماً لم يستتمه، ونائمٍ ليلاً لم يستكملْهُ، ومتنظِّرٍ غداً لم يصلْهُ، وباذِرٍ لم يَحْصُدْ، وحاصِدٍ لم يأكل، وآبِرٍ^(١) لم يجد، وجابي لم يعدْ، ومُلْقِح شَوْلاً^(٢) مَلَكَ الْفَصِيلِ سواه، وغَنِيٍّ أَهْلَكَه غِنَاهُ وكان فيه فَنَاقُهُ، فهل للاهتمام بالعاجل وجهٌ إذا كانت هذه صفة الآجل.

فأمَّا الذين اهتموا بالعاجل من الناس، وهم الذين اعتمدوا على الشبهات، وأكْبُوا على الشهوات، ومالوا إلى اللذات، فاغرتوا بزهرة غرورها، ولم ينظروا في عاقبة أمورها، فطعموا حلاوتها، ولم يطعموا مرارتها، وافتتنوا بزهرتها الفانية ونَصْرَتِهَا الْبَالِيَةَ، فهوت بهم الهاوية، فرمت بهم في النار الحامية، فندموا على التقدم بغير برهان، وعلى الانقياد للركون إلى دار الهوان، فكم من نادم ونادمة، ونفس سادمة^(٣)، لم ينفعها ندمها، ولم يغن عنها سدمها، لإذهاب تلك النفوس طيباتها أيام حياتها، فلو أنها قدّمت نصيبها بين يديها، ولم تُخْلِدْ^(٤) أبداً إليها، وتناولت منها قوتها وقوامها، وذكرت قوتها وحمامها، ودول أيامها، ووَشَكَ فِطَامُهَا، ونقص تمامها، وأنَّ ناجيها إلى العطب نَجَاؤُهَا، وباقيها إلى الحِمام بَقَاؤُهَا، وغنيها إلى الفقر مَحِيرُهُ^(٥)، وعامر قصورها إلى القبر مصيره، غِنَاهُ نَصَبٌ، ومُلْكُهُ تَعَبٌ، وجِدُّهُ لَعِبٌ، جِدَّتْهُ الْبَالِيَةُ، وعزته فانية، فيا له من اهتمامٍ لم يُغْنِ عن صاحبه، ومَطْلَبٍ كان فيه هلاك طالبه.

(١) الْأَبْرُ: الذي يَقُومُ بِتَلْقِيحِ النَّخْلِ وإِصْلَاحِهِ، قال في القاموس: أَبْرَ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ، يَأْبُرُهُ وَيَأْبُرُهُ، أَبْرَأَ وَإِبَارَأَ وَإِبَارَةً: أَصْلَحَهُ، (القاموس: ٣٤١).

(٢) شَالَتْ النّاقَةُ بَدَنَهَا إِذَا رَفَعَتْهُ عِنْدَ اللَّقَاحِ، الْوَاحِدَةُ شَائِلٌ، وَالْجَمْعُ شَوْلٌ، تَمَتْ ضِيَاءُ هَامِشٍ (أ) (انظر القاموس المحيط ١٠٢١). وَالْفَصِيلُ: وَلَدُ النَّاقَةِ إِذَا فُصِّلَ عَنْ أُمِّهِ، ا.هـ. قاموس.

(٣) السَّدَمُ، مُحَرَّكَةٌ: الْحِرْصُ، وَاللَّهْجُ بِالشَّيْءِ، سَدِمَ، كَفَرِحَ، فَهُوَ سَادِمٌ وَسَدْمَانٌ، (القاموس: ١١٢٠).

(٤) تُخْلِدُ إِلَيْهَا: تَرْكُنُ وَتَقِيلُ إِلَيْهَا وَتَرْضَى بِهَا، (انظر لسان العرب ٣ / ١٦٤).

(٥) حَارَ حَوْرًا إِذَا رَجَعَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْضَرَ﴾ أي لن يرجع حيًّا بعد المَوْتِ، تَمَتْ ضِيَاءُ هَامِشٍ (أ).

قوله عليه السلام: فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَبْرُكُهُمْ.

الإماتة: نقيض الإحياء، يقال أرض مواتٌ، وإنسان ميّت، فإذا عُمرت الأرض قيل: مُحيَاة، فإذا بُعث الإنسان قيل: مُحيَا، فكان بإماتتها تَرَكَ إثارتها، وإغفال عمارتها. والخشية والخافة معناهما واحد، تقول: خشيت كذا وكذا أو خفته، لا فرق في ذلك، قال النابغة^(١):

قَد عَيَّرْتَنِي بِنُودُبَيَانَ خَشِيَّتُهُ وَهَلْ عَلَيَّ بِأَنْ أَخْشَاهُ مِنْ عَارٍ

أراد الملك النعمان، وكانت بينهما وحشة شرحها يطول^(٢).

وإماتتهم نقيض إحيائهم. والترك نقيض الأخذ، تَرَكَه إذا لم يلتفت إليه ولم يأخذه. قال زهير بن أبي سلمى المزني^(٣) في قصيدته الكافية - وقيل إنها أجود كافية قيلت على^(٤) الأرض:

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا^(٥) لِمَنْ تَرَكَوا وَرَوَدُوكَ اشْتِيَاقًا أَيْةً سَلَكُوا؟

(١) النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي (٥٠٠ - نحو ١٨ ق هـ) زياد بن معاوية بن ضباب الذبباني الغطفاني المضر، أبو أمانة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها.... عاش عمرا طويلا.. (الأعلام للزركلي ٥٤ / ٣).

(٢) خلاصتها أَنَّ النابغة حظيًا عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجرده (زوجة النعمان) فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمنا. ثم رضي عنه النعمان، فعاد إليه.

(٣) زهير بن أبي سلمى (٥٠٠ - ١٣ ق هـ) زهير بن أبي سلمى ربعة بن رباح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضل على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعرا، وخاله شاعرا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة.... قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى (الحواليات) أشهر شعره معلته التي مطلعها: (أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكَلِّمْ)، (الأعلام للزركلي ٥٢ / ٣).

(٤) فِي بَقِيَّةِ النَّسْخ: أجود كافية في الأرض.

(٥) يقال: أَوْفَى لِفُلَانٍ مَأْوِيَةً أَيْ رَثِيْتُ لَهُ، قال: وَلَوْ أَنِّي اسْتَأْوَيْتُهُ مَا أَوْى لِيَا.

يقال أيضاً: أَوْى أَيْةً، وأصلها أَوْيَةً، فَأُدْغِمَتْ، قال:

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ أَيْةً لِنَفْسِي لَقَدْ طَالَبْتُ غَيْرَ مُبِيلٍ

أَيْةً لِنَفْسِي: أي رَحْمَةً، تمت ضياء، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٥٣ / ١٤) وأَيْةً التي في عجز البيت: بمعنى: أَيْ وَجْهَةً سَلَكُوا، فَأَنْشَأَ حِينَ لَمْ يُصَفِّهَا، (انظر لسان العرب ٥٧ / ١٤).

والهاء في (أما تواتر منها) عائدة إلى الدنيا، والعلم والمعرفة معناهما واحد، وقد بينّا فيما تقدم مما أخذ، وهو نقيض الجهل والغباء.

قوله: (أَنْ سَيَّرْتُمْهُمْ) عائد إلى الضمير في متروكهم الذي تركوه؛ لأنه لا بد أن يترك مَنْ طلبه، وإن ظاهره فيه تَعَبَهُ، وضاعف نَصَبَهُ.

المعنى في ذلك: أن أولياء الله الذين تقدم ذكرهم أما تواتر الدنيا فلم يعمرها منها خراباً، ولم ينصبوا فيها قباباً، قطعوها ركضاً ونصّاً^(١)، وحصّوا مرافقها من أكفهم حصّاً^(٢)، فلم يعلّقوا^(٣) بشيء من أسبابها؛ لعلمهم أنها تمت من أخلد إليها، وارتنك عليها، كم من حدين لها قد صرعته لليدين والفم، ومفتون بحلاوتها قد جرّعته كأس العلقم، ومتخذ لها أمّاً غادرته أمياً^(٤)، ومكلم لها حبّاً فارقتة كلياً، فلم تعرف للمأموم حُرْمَةَ الأمومة، ولم تداو للمكلم كُلوْمَهُ.

فلما نظر أولياء الله تعالى إلى ذلك في غيرهم اعتبروا به منها، واكتفوا به فيها، فلم يُحيوا فيها مواتاً، ولم يجمعوا لها شتاتاً، وبدأوا فيها بما خشوا منها، فعملوا بالوثيقة، وجزموا على الحقيقة، وسلكوا أوسط طريقة، وعلموا أنها تترك صاحبها أحوج ما يكون إليها فتركوها زهداً فيها، ورغبة عنها؛ أنفة على شرفهم؛ وحمية على أنفسهم أن يُحيوا مُمَيَّتَهُمْ؛ ويحفظوا تاركهم؛ وهل رأيت أجهل من رجل يُرِيّ قاتله مع علمه أنه قاتله؟! ويُقبِل على من يعلم من حاله الإعراض عنه والاستخفاف به، وقلة المواساة عند الشدائد، والمدافعة عند نزول الأوباد؟! لا يغتر بها هذه حاله إلا مغرور، ولا يُقبِل عليه إلا مثبور.

(١) النَّصُّ والنَّصِيصُ: السَّيْرُ الشَّدِيدُ والْحُثُّ، وَهَذَا قِيلَ: نَصَصْتُ الشَّيْءَ رَفَعْتُهُ، وَمِنْهُ مَنَصَّةُ الْعُرُوسِ. وَأَصْلُ النَّصِّ أَقْصَى الشَّيْءِ وَغَايَتُهُ، ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ سَرِيعٌ. (لسان العرب ٧/ ٩٨).

(٢) الْحَصُّ: إِذْهَابُ الشَّعْرِ عَنِ الرَّأْسِ بِحُلْقٍ أَوْ مَرَضٍ. (لسان العرب ٧/ ١٣) وَالْمَرَافِقُ: هِيَ التَّوَابِعُ، كَمَا يَقَالُ: مَرَافِقُ الدَّارِ، أ.هـ.

(٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ، وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى: يَتَلَقَّوْا، وَفِي أُخْرَى: يَتَعَلَّقُوْا.

(٤) الْأَمِيمُ: الْمَشْجُوجُ فِي أَمِّ رَأْسِهِ، هَامِشُ الْأَصْلِ.

قوله عليه السلام: **فَمَا عَرَضَ لَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا عَارِضٌ إِلَّا رَفُضُوهُ، وَلَا خَادِعُهُمْ مِنْ رَفَعِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ.**

عرض إذا لاح واعتنّ ولقي، ولا يكون ذلك إلا فيما لا دوام له، هذا حكم العارض عندهم. ونائلها عطاؤها. عارض هو الأمر الذي يعرض بمعنى يُستقبل، قال قائلهم^(١) يصف عسكرياً لقوة:

فَجَاءُوا عَارِضاً بَرِداً^(٢) وَجِئْنَا كِمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وَارِعِينَا

والرفض: هو أطراح الأمر والقائه بتبذ وشدة كراهية، وأحسب أنه من رفض البعير برجله إذا أحس فيها شيئاً يريد سقوطه كالقراذ وشبهه.

قوله: **وَلَا خَادِعُهُمْ مِنْ رَفَعِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ.**

المخادعة: مفاعلة من الخدع، وأصل الخدع والخديعة الفساد، من ذلك قولهم: خَدَعَ الرِيْقُ إذا فسد، ثم استعير ذلك لكل فاسد، وكان المكر عندهم والغيلة من أقوى أنواع الفساد، فسموها خديعة وخداعاً، وسمي المَخْدَعُ^(٣) في البيت مخدعاً من ذلك؛ لأن الغيلة لا تؤمن منه.

ورَفَعَتْهَا: شَرَفَهَا ومُلْكُهَا وعُلُوُّهَا، والخادع هو فاعل الخدع، كما أن الضارب فاعل الضرب، والوضع نقيض الرفع.

المعنى في ذلك: أن أولياء الله الذين تقدمت صفتهم ما عرض لهم من الدنيا عارض إلا رفضوه؛ لعلمهم بقلّة بقاءه، وسرعة فَنائه، وأنه لا يستقر ولا يدوم، وإنما هو حال إقباله في حكم المدبر، ووقت بقاءه في حكم الفاني؛ لأن الإدبار عادته، والفناء نهايته، وذو العادة المستمرة لا يتركها، وطالب الغاية المستقرة لا يقف دونها، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ)) فجعلها في حال حضورها عرضاً لأنها لا بقاء لها في وقت حضورها. ونائلها هي خيراتها وزهرتها وزخاريفها. ورفضهم له تركهم إياه؛

(١) تُسَبَّ البيت في ديوان الحماسة إلى عَبْدِ الشَّارِقِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ الْجَهَنِّيِّ، ولم نحصل له على ترجمة، وقال شارح ديوان الحماسة: وازعينا، بفتح العين.

(٢) الْعَارِضُ: السَّحَابُ الْمُعَرِّضُ فِي الْأَفْقِ، وَالْبَرْدُ الَّذِي فِيهِ الْبَرْدُ (بِفَتْحَتَيْنِ) والوازع: الَّذِي يَرْتَبِ الْجَيْشُ وَيُصْلِحُهُ وَيُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ، (شرح ديوان الحماسة للتبريزي: ١٧٠).

(٣) الْمَخْدَعُ، الْبَيْتُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَكُونُ دَاخِلَ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ، وَتُضَمُّ مِثْمُهُ وَتُفْتَحُ، (لسان العرب ٨/ ٦٥).

لأنهم خافوا أن يُعْشِي زخْرُفُهُ أَبْصَارَهُمْ فلا يهتدون سبيلاً، وَتَنْفَقِرَ لِثِقَلِ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورُهُمْ، فلا يستطيعون تحويلاً، هذا مع أن المرتقى كؤود، والسفر بعيد، وظاهر نائل الدنيا سرور، وباطنه غرور، رَفَعَتْهَا تَخَادُعُ ذَوِي الْإِرْبَةِ عَنْ نَفْسِهِمْ وَعَقُولِهِمْ، فربما أعطوها القياد، فطَوَّحَتْ بِهِمْ فِي الْبِلَادِ، وَأَهْلَكْتَهُمْ فِي الْمَعَادِ، وَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ خَادِعِ رَفَعَتْهَا وَإِنْ نَجَا مِنْ عَارِضِ نَائِلِهَا إِلَّا مَنْ رُزِقَ التَّحْقِيقَ، وَمُنِجَ التَّوْفِيقِ، فَاهْتَدَى لِمَعْرِفَةِ غَامِضِ عِيوبِهَا، وَسُرْعَةِ انْتِقَالِهَا، وَوَشَكَّ زَوَالِهَا، وَأَنْ عَزَّهَا ذُلٌّ، وَكَثُرَها قُلٌّ^(١)، وَحَدَّهَا قُلٌّ^(٢)، ظَلَمَها زَائِلٌ، وَكَوَسَ سَعْدُهَا آفِلٌ، وَمَنْ لَكَ بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ؟ ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّذِي كَفَّأَهَا لَوَجْهِهَا، وَأَعْرَضَ عَنْ زِينَتِهَا، فَلَمْ يُرْعَهَا طَرَفًا، وَلَمْ يَسْطُرْ إِلَيْهَا كَفًّا، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا يُرَوَّى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ:

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنْ
حَظَرَ الْإِلَهَ حَرَامُهَا
بَسَطْتُ إِلَيَّ يَمِينَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُحْتَاجَةً
نِي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَلَالَهَا
فَرَدَدْتُهَا وَشَمَالَهَا
فَوَهَبْتُ جُمْلَتَهَا لَهَا

فمن عرف معاني هذه الأبيات، فقد عرف جملة كافية، وموعظة وافية.

[حب الرفعة وخطره على النفس]

فأما حب الرفعة فقد هلك فيه كثير، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ بَعْضِ الْأَنْصَارِ فِي مَعْنَى الْاِفْتِتَانِ بِرَفْعَةِ الدُّنْيَا وَالْحُبِّ لَشَرَفِهَا، وَذَلِكَ لِمَا قَتَلَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ^(٣) بِسَهْمَيْنِ رُمِيَ بِهِمَا فِي

(١) الْقُلُّ بِالضَّمِّ: الْقِلَّةُ، كَالذَّلِّ وَالذَّلَّةِ، (النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ١٠٤).

(٢) الْقُلُّ: الثَّلَمُ فِي السَّيْفِ، أَوْ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، فَلَهُ يَقْلُّ فَلًا، جَ قُلُولٌ، (انظر لسان العرب ١١ / ٥٣٠).

(٣) سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ ذُلَيْمٍ الْخَزْرَجِيُّ، سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، صَاحِبُ رَايَةِ الْأَنْصَارِ فِي الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا، شَهِدَ بَدْرًا، وَقِيلَ لَا، وَهُوَ مِنْ نَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَاتِ وَالْجُودِ، وَتَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَنْ بَيْعَةِ عُمَرَ؛ وَرَوَى الْجَوْهَرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ النُّوفَلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أُبَيًّا يَقُولُ: ذَكَرَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَوْمًا عَلِيًّا بَعْدَ يَوْمِ السَّقِيفَةِ، فَذَكَرَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِهِ يَوْجِبُ وَلَا يَتِيهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ: أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ تَطَلَّبَ الْخِلَافَةَ، وَيَقُولُ أَصْحَابُكَ: مَنْ أَمِيرٌ وَمَنْكُمْ أَمِيرٌ؟ لَا كَلِمَتُكَ وَاللَّهِ مِنْ رَأْسِي بَعْدَ هَذَا كَلِمَةً أَبَدًا.

الليل، وقد خرج لقضاء حاجته ليلاً، وزعم بعض من زعم أنه سُمِعَ من الجن قائلاً يقول:

قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزَرِ ج سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِ فُؤَادَهُ

فقال في ذلك بعض الأنصار، وكان سعد قبل مغاضباً لأبي بكر ممتعاً من بيعته، وروي عنه أنه قال:

لما رأينا قريشاً عدلت بالأمر عن أهل طمعنا فيه، في قصص طوال، فقال بعض الأنصار في ذلك:

يَقُولُونَ سَعْدًا شَقَّتِ الْجِنَّ بَطْنَهُ أَلَا رَبُّمَا حَقَّقَتْ فِعْلَكَ بِالْعُذْرِ
وَمَا ذَنْبُ سَعْدٍ أَنَّهُ بَالٌ قَائِمًا وَلَكِنَّ سَعْدًا لَمْ يُبَايِعْ أَبَا بَكْرٍ
لِئِنْ صَبَرْتَ عَنْ فِتْنَةِ الْمَالِ أَنْفُسُ لَمَا صَبَرْتَ عَنْ فِتْنَةِ التَّهْيِ وَالْأَمْرِ

يُعرِّضُ بأبي بكر في ذلك، وأنه لم يصبر عن رفعة النهي والأمر وشرف الرئاسة.

وأعلم أن أعلى طبقات الرفعة في هذه الدنيا الإمارة، فقد روينا فيها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما يوجب أن لا يدخلها إلا من اضطره أمرُ الله إليها، وحمله خوف الوعيد عليها، كما روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن إمارته: (فَلَمْ أَرِ إِلَّا الْقِيَامَ أَوْ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ) وكذلك حال الأخيار من ذريته سلام الله عليهم إلى يومنا. وروايتنا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هذا الشأن كثيرة، وإنما نذكر طرفاً على قدر احتمال المكان.

من ذلك ما روينا عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ إِيْمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَغَزْوٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وَحَجٌّ مَبْرُورٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَهِيدٌ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ لَمْ يَعْدِلْ، وَذُو ثَرْوَةٍ مِنَ الْمَالِ لَمْ يُعْطِ مِنَ الْمَالِ حَقَّهُ، وَفَقِيرٌ كَفُورٌ)) فما خير رفعة قدمت صاحبها مدة حقيرة في أيام يسيرة وأدخلته النار في أول الداخلين، ثم لم تخرجه منها أبد الأبدين، ودهر الدهرين، فيا لها صفقة ما أخسرها وأدبرها،

وقال الإمام عبد الله بن حمزة في شرح الرسالة الناصحة: رُوي من قوله أنه قال: (لما رأيناهم عدلوا بالأمر عن أهل طمعنا فيه)، قُتل بحوران، من أعمال دمشق، سنة خمس عشرة تقريباً. أخرج له: أبو طالب، والجرجاني، ومحمد، والأربعة. (انظر لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ٣ / ١٣٠، وشرح الرسالة الناصحة: ٢١٣) وروى السيد حميدان أن قائل الأبيات: (يَقُولُونَ سَعْدًا...) هو حسان بن ثابت.

وأبخس متجرها، وأقبح مخبرها.

وأعلم أيدك الله أن الفكر في المال هو رأس الحكمة وقائد العصمة، وكانت العرب تمدح مَنْ فعل في أعمال الدنيا^(١)، وقد علّمت هُون مضارها، قال قائلهم:

وَلِذَاكَ كَانُوا لَا يَحْشُونَ الْوَعْيَ إِلَّا وَقَدْ عَرَفُوا طَرِيقَ الْمَهْرَبِ

يريد أنهم قد^(٢) عرفوا وجه المهرب قبل إيقاد نار الحرب الذي هو حَشُّها^(٣)؛ لأن صاحبها يفتقر إلى النظر في مجالها، ومآلها قبل وصالها وقتالها، فمن نظر موضع قدمه قبل الإقدام فقد استبصر، وعمل بالوثيقة لنفسه، واستبرأ من الدّنية لدينه، ولم يُؤْتَ من غرّة، ولم يُقَصَّر في وِرْد ولا صَدْر^(٤)، ومن تقحم على غير بصيرة فقد رمى بنفسه في المعاطب، وأوردها شر العواقب، وكان في أمر نفسه قد أتى من قبل نفسه فقلّ راحمه، وفُقد عاصمه.

قوله عليه السلام: خَلَقَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ فَمَا يُجَدِّدُونَهَا، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَهَا.

الإخلاق والإنهاج والإسحاق والإسهال معناها واحد، وهو أن ينال البلى من الثوب فلا يبقى فيه طائل نفع، وتجديده تبطينه بغيره مما يَشُدُّه، يقول قائلهم: جَدَّدْتُ الثوب إذا فعل به ذلك، أخذ من الجِدَّة، وهي نقیض البلى. قال ابن خَدَّاق^(٥):

وَرَجَّلُونِي^(٦) وَمَا رَجَّلْتُ مِنْ شَعَثٍ وَالْبَسَوْنِي ثِيَاباً غَيْرَ أَخْلَاقٍ

(١) هكذا العبارة في جميع النسخ.

(٢) لفظة (قد) زيادة في الأصل وفي نسخة.

(٣) حَشَّ الحرب إذا أسعرها وهيَّجها، تشبيهاً بأسعار النار. وَمِنْهُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ الشُّجَاع: نَعَمْ مَحَشَّ الكَتِيبَةَ، تمت، (النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ٣٨٩).

(٤) الصَّدْر: نَقِیض الْوِرْد، صَدَرَ عَنْهُ يَصْدُرُ، وَيَصْدِرُ، صَدْرًا وَمَصْدَرًا، (لسان العرب ٤/ ٤٤٨).

(٥) يزيد بن خذاق الشَّيْ العبدی، من بني عبد القيس: شاعر جاهلي، وله أخ يسمى سويد بن خذاق، وهما شاعران، قال الزركلي: وربما ينسب لأحدهما ما هو للآخر. والبيت ورد في كتاب المفضليات ضمن أبيات نسبها للممزق العبدی، وهو خطأ، فقد نسبها الكثير لابن خذاق وأنه أول شعر قيل في ذم الدنيا، وندب نفسه فيها، وشرح ما سيصنع أهله به بعد موته، (المفضليات: ٣٠٠) وانظر جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٢/ ٣٥٩.

(٦) التَّرْجِيلُ: تَسْرِیْحُ الشَّعَرِ وَتَنْظِيفُهُ وَتَحْسِينُهُ، (النهاية: ٢/ ٢٠٣) والشَّعْتُ: تفرق شعر الرأس وانتشاره.

في قصيدة له مُقَصَّدة، يريد بقوله: غير أخلاق، غير بالية، وهو يريد الأكفان لأنها تتخذ في الأغلب جُددًا، وقد قيل إن قصيدته هذه أول قصيدة قيلت في ذم الدنيا، وأنها قبل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بخمسمائة عام.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ. الخراب لا يكون إلا في البناء والبنیان، وهو نقبض التركيب والعمارة، والتخريب نقبض البناء. يقال: خَرَبَهُ يُخْرِبُهُ تَخْرِيبًا إِذَا نَقَضَهُ، وَعَمَرَهُ إِذَا أَصْلَحَهُ وَرَدَّهُ إِلَى حَالِ الْإِسْتَوَاءِ.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ الدُّنْيَا خَلِقَتْ لَطَوِيلِ تَكْوُرِ الْأَعْصَارِ عَلَيْهَا، وَتَقْلِبِ الْأَدْهَارِ فِيهَا، وَقَضَى الرَّبُّ لَهَا بِذَلِكَ ^(١)، فَلَمْ يَرِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجِدُّوْا مَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِإِخْلَاقِهِ، وَلَا يَعْمُرُوا مَا أَرَادَ خَرَابَهُ؛ إِذْ تَجْدِيدُهُ يَكُونُ فِي حَكْمِ الْمَخَالَفَةِ لِأَمْرِهِ، وَعُمُرَانُهُ يَكُونُ فِي حَكْمِ الرَّدِّ لِقَضَائِهِ، وَهِيَ إِلَّا سَبِيلٌ عَبَّرَهَا النَّاجُونَ فَجَوَّاءَ، وَسَكَنَهَا الْهَالِكُونَ فَأُزْجَوَّاءَ، وَالزَّادُ قَلِيلٌ، وَالرَّحْلُ ثَقِيلٌ.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَمَا يُخَيِّنُهَا، بَلْ يَهْدُمُونَهَا فَيَتُونُ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَى لَهُمْ.

مَاتَتْ نَقِضُ حَيِّثٍ. وَصُدُورُهُمْ مَسَاكِنُ قُلُوبِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ مَحَالُّ عُلُومِهِمْ، وَإِحْيَاؤُهَا يَنَاقِضُ إِمَاتَتَهَا. وَالْهَدْمُ نَقِضُ الْبِنَاءِ، قَالَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الشُّعْرَاءِ:

أَرَى أَلْفَ بَانَ لَا تَقُومُ لَهُادِمٍ فَكَيْفَ بَانَ خَلْفُهُ أَلْفُ هَادِمٍ

وأصل البناء رفع الشيء على الشيء، قال الشاعر:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

وآخرتهم هي دار الآخرة، وأضافها إليهم لمصيرهم إليها، وسميت آخرة لتأخر نزولها عن نزول الدنيا.

قوله: وَيَبِيعُونَهَا، يريد أنهم عقدوا بينهم عقد البيع في المعاملة الآخرة، والسوابق المرضية، والبيع هو ما يحصل فيه العقد ممن يجوز تصرفه على وجه التراضي بلفظين ماضيين، والشراء هو اللفظ الذي يقع في مقابلة لفظ البيع. وقد باع المؤمنون أنفسهم وأموالهم من الله تعالى بيعاً ربيحاً، واشترى سبحانه منهم شراءً مفيداً. والهاء في قوله: (يَشْتَرُونَ بِهَا) عائدٌ إلى الدنيا. والباقي نقبض

(١) في نسخة أخرى: (وَقَضَاءِ الرَّبِّ لَهَا بِذَلِكَ) بالعطف على الجملة السابقة.

الفاني، وهو ثواب الآخرة فإنه لا يزول.

المعنى في ذلك: أن أولياء الله تعالى أमतوا ذكر الدنيا في ألسنتهم، وفكرها في صدورهم، وهمها من قلوبهم، فلم يحيوها بذكر، ولم ينسروها بفكر، بل صارت عندهم بمنزلة الميت الذي لا يذكر، والفاني الذي لا ينشر؛ لمعرفتهم بحقيقتها الغرارة، وطريقاتها الغدارة، فهدموا بنائها، وقوضوا^(١) أركانها، وقدموا نقضها^(٢) بين أيديهم، فعمروا به منازل الإقامة في دار المقامة، وبيوت الكرامة، في مقعد السلامة، فقدموا إلى منازل عامرة، ومراتب فاخرة، وفارقوا الدنيا خراباً يباباً، فلم يحبوا إليها انقلاباً ولا مآباً، وباعوا متاعها الفاني اليسير، واشتروا به الباقي الخطير، من جنة وحرير، وقصر وسرير، وحوراء كالبدر المنير، وهيفاء^(٣) كالظبي الغرير، وكثبان المسك الأذفر، ومكنون العنبر، ونضرة وسروراء، ومُلْكاً كبيراً، فأُتي شراء أريح من هذا؟ هذا بيع لا يقيه العالمون، وكيف وأهله الغانمون، بقي لهم مشتراهم، وهلك أثمانه، ودثر الذي خربوه ودُمرت أوطانه، وارتفع بيتهم الذي عمروه وكُرِّمت جيرانه، وتواترت إليهم الهدايا بجزيل العطايا، ووردت بشارة الخلود، وتُرِعَتْ من صدورهم ضباب^(٤) الحقود، فهم في قباب المُلْك خالدون، وفي جنات الخلد ناعمون، لا يمسهم فيها نصب، وما هم منها بمخرجين.

قوله عليه السلام: وَنَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صَرَعى قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَثَلَاتُ، فَمَا يَرُونَ أَمَانًا دُونَ مَا يَرَجُونَ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَا يَحْذَرُونَ.

النظر هاهنا هو نظر العين، وهو تقليب الحدة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته. والهاء في أهلها عائدة إلى الدنيا. وأهلها على الحقيقة هم الذين قاموا بها حق القيام، وجعلوها دار المقيم. **صرعى:** جمع صريع، وأكثر ما يستعمل ذلك في القتل، والصرعى هاهنا هم الذين قتلتهم الزلازل، وطحتهم النوازل. **وحلت:** من الحلول، وهو الوقوع. **والمثلاث:** جمع مُثْلَة، والرؤية: هو إدراك المرئي بآلة الرؤية وهي العين السليمة. **والأمان:** نقيض الخوف، والرجاء: نقيض

(١) أي نَقَضُوا أَرْكَانَهَا مِنْ غَيْرِ هَدْمٍ، قال في القاموس: قَوَّضَ الْبِنَاءَ تَقْوِيضًا تَقْضُهُ مِنْ غَيْرِ هَدْمٍ. اهـ.

(٢) النَّقْضُ: اسْمُ الْبِنَاءِ الْمَنْقُوضِ إِذَا هُدِمَ. (لسان العرب ٧ / ٢٤٢).

(٣) هيفاء: ضَامِرَةُ الْحَصْرِ، هامش الأصل، (انظر لسان العرب ٩ / ٣٥٢).

(٤) ضِبَابٌ جَمْعُ ضَبٍّ: وَهُوَ الْغَضَبُ وَالْحِقْدُ، وقد مرَّ في حاشية سابقة (انظر النهاية ٣ / ٧٠).

اليأس. قال قائلهم يذم قوماً:

حُرْمَتُمُ الْمَجْدَ فَمَا تَرْجُونَهُ وَحَالَ أَقْوَامٌ كِرَامَ دُونَهُ
وَجَدْتُمُ الْقَوْمَ ذَوِي رُبُونَةٍ^(١) [وَجِئْتُمُوا بِاللُّؤْمِ تَنْقُلُونَهُ]

والخوف: نقيض الأمان، وهو فزعٌ يعتري الإنسان من الأمر المنتظر المجهول وقت الوقوع، قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٠] معنى الخوف ما قدمنا، والترقب: هو التَنَظُّرُ، والمحذور: هو الكرية المتوقعة، والحاذر: هو الحازم الخائف. قال الشاعر يصف القنا:

نُصِرَّفُهُ لِلظَّعْنِ فَوْقَ حَوَازِرٍ قَدْ انْقَصَفَتْ فِيهِنَّ مِنْهُ كُغُوبٌ^(٢)

المعنى في ذلك: أن أولياء الله تعالى نظروا إلى أهل الدنيا الذين أثاروها حق الإثارة، وعمروها بجهد العمارة، فعقدوا أبوابها، وعمدوا قبابها، ورفعوا قصورها على الأساس الوثيقة، ونحتوا خراطيمها بالآلات الدقيقة، فقوموا أنوفها، وحددوا حروفها، من مَرَمَرٍ^(٣) ورُخَامٍ، وطوبٍ وسلام^(٤)؛ مُصَرَّعين في أثنائها، ومطرحين في أرجائها، قد صاروا رمماً بالية، وصارت منازلهم خالية، وآثارهم عافية^(٥)، فهل ترى لهم من باقية؟ ولا تسمع لهم واعية، فاعتبروا بذلك الأمر الهاجم، والخطب الناجم، الذي فرق بين الأكفِّ والمعاصم، والرواجب والبراجم^(٦)، وجمع بين عظام الملوك الأعظم ورمم صَعْفَةِ الممالك الأعاجم.

(١) الزَّيْنُ: الدفع، أي يمنعونكم، تمت، هامش (أ) (انظر القاموس: ١٢٠٢).

(٢) الحَوَازِرُ هاهنا: الخيل، تمت، هامش (أ)، وانقصفت بمعنى تَكَسَّرَتْ، والبيت لأبي الطيب المتنبي، وفي ديوانه بدلا من (كُغُوبٌ): كِعَابٌ، وبعده:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيِ سَرَجُ سَابِجٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

(٣) الْمُرْمَرُ وَرَازَنُ جَعْفَرٍ: نَوْعٌ مِنَ الرُّخَامِ إِلَّا أَنَّهُ أَصْلَبُ وَأَشَدُّ صَفَاءً، (المصباح المنير ٢ / ٥٦٨).

(٤) السَّلَام: جَمْعُ سَلَمَةٍ، وهي الحجارة، (انظر لسان العرب: ١٢ / ٢٩٧).

(٥) عَافِيَةٌ بِمَعْنَى دَارِسَةٍ، مَطْمُوسَةٍ، مأخوذٌ من العَفْوِ وَهُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وترك العقاب عليه، وأصله المَحْوُ وَالطَّمْسُ، (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ٢٦٥).

(٦) الرُّوَاجِبُ: رُؤُوسُ السَّلَامِيَّاتِ مِنْ ظَهْرِ الْكَفِّ إِذَا قَبِضَ الْقَابِضُ كَفَّهُ نَشَزَتْ وَارْتَفَعَتْ، واحدها رَاجِبَةٌ. والبرَاجِم: هي العُقَدُ الَّتِي تَكُونُ فِي ظُهُورِ الْأَصَابِعِ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْوَسْخُ، الْوَاحِدَةُ بُرْجَمَةٌ (بِالضَّمِّ). (انظر لسان العرب: ١٢ / ٤٦).

وفي الحديث: أن ذا القرنين الملك السيار رحمه الله مرَّ بمدينة عظيمة قد مَلِكَهَا تسعةُ ملوك وماتوا عنها، فأعجبته فسأل: هل بقي من نسلهم أحد؟ فقليل: ليس إلا غلام قد لزم المقابر، وانفرد من الناس، فأمر من جاء به، فجيء به، فسلم عليه، فقال: ما ذلك على لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز بين عظام ملوكهم وعبيدهم، فإذا هم سواء. قال: فهل لك همة؟ قال: إن همتي لعظيمة، قال: فإني أرد عليك مُلكَ آبائك وأوْلِيكَ في هذه المدينة، قال: إني أريد ملكاً لا يزول، فهل عندك؟ قال: لا؛ ذلك لا يقدر عليه إلا الله. قال: فإني أطلبه ممن يقدر عليه، وهو الله. ثم خلَّاه وانطلق، فقال ذو القرنين لخاصته: ما رأيت أحكم من هذا.

والمثلات: جمع مُثَلَّة، والمثلة هي الوقعة الشنيعة، والبطشة الرائعة الفظيعة، ومنه الحديث رواه بعض أصحابه، قال: ما قام فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ مقاماً إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المُثَلَّة.

فلا يرون أماناً دون الثواب في الجنة، وهو الذي كانوا يرجونه في دار الدنيا، إذ الأمان دونه غير دائم، والسرور غير ملازم، ولا خوفاً دون ما يحذرون من عذاب الله تعالى، إذ كُلُّ خوف دون العقاب يسير، وكل هول حقير، فلما نظروا بأبصار البصائر، رأوا الأمانَ دون المرجو خوفاً؛ لأنهم لا يأمنون مفاجأة دائم الضرر الذي هو العقاب عنده، والخوف^(١) دون المحذور الذي هو العقاب أمناً؛ بزوال شره وسرعة انقطاعه، مع أن مرجوهم الذي رجوه أهون المرجوَيْنِ عند أهل الدنيا، ومخوفهم الذي خافوه أصغر المخوفَيْنِ عند عبيد الأهواء، فأعقبهم أمائهم في الدنيا خوفاً في الآخرة لا تنقضي روعته، وسرورهم فيها حزناً لا تنفد لوعته، وتبدل أولياء الله الخائفون له الراجون لما عنده أمناً لا خوف معه، وسروراً لا حزن فيه، فمن سلك منهاجهم فاز، ومن اغتر أنزل دار المغترين، وتجرع كأس الندامة مع المُسَوِّفِينَ.

(١) معطوف على (الأمن) في الجملة: رأوا الأمانَ دون المرجو خوفاً.

الحديث العشرون

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّمَا أَنْتُمْ خَلْفٌ مَاضِينَ، وَبَقِيَّةُ مُتَقَدِّمِينَ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ بَسْطَةً، وَأَعْظَمَ سَطْوَةً، أَرْعَجُوا عَنْهَا^(٢) أَسْكَنَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَغَدَرَتْ بِهِمْ أَوْثَقُ مَا كَانُوا بِهَا، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةَ عَشِيرَةٍ، وَلَا قُبْلَ مِنْهُمْ بَذْلَ فِدْيَةٍ، فَأَرْجِلُوا نُفُوسَكُمْ بِزَادٍ مُبْلَغٍ، قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُوا عَلَى فُجَاءَةٍ، وَقَدْ عَقَلْتُمْ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ)).

أبو هريرة قد تقد الكلام في ذكره، وتبين طرف من حاله وأمره.

ولفظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ قد يهمز فيكون من الإنباء وهو الإخبار والإعلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَتْبَاكَ هَذَا﴾ [التحریم: ٣] أي من أخبرك وأعلمك بما أفضيت من سرِّك وبشئت من حديثك، وقد لا يهمز فيكون من الرِّفعة وهي النبوة، وهي بغير همز كما ترى، وقد جاء القرآن الكريم بغير همز وبهمز في ألفاظ النبي^(٣) عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأما هذا الخبر فسماعنا إياه بغير همز.

قوله عليه السلام: إِنَّمَا أَنْتُمْ.....

هذا خطابٌ لجماعة الحاضر المُذَكَّر. والخلف نقیض السلف، بتحريك اللام، وهو يفيد مَنْ خَلَفَ الأوَّلَ في مكانه، وسَكَنَ في أوطانه، وقام مقامه في شأنه ووراثته سلطانه، ومن ذلك أخذت الخلافة، فإن كان هذا الخليفة حاله دون حال الموروث السابق قيل خلفٌ، بسكون اللام،

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار قال حدثنا عبد الله بن روح المدائني قال حدثنا شبابة بن سوار قال حدثنا أبو زيد (يعني عبدالله بن العلاء) قال حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال سمعت أبا هريرة يقول... الحديث.

(٢) في الأصل وفي النسخة (أ): عَنْ الدُّنْيَا، وما أثبتناه من نسخة أخرى، ويدل عليه كلام الإمام في الشرح.

(٣) كلمة (النبي، النبيين، النبيون، الأنبياء، النبوة) مهموزة في قراءة قالون عن نافع إلا في آيتين في سورة الأحزاب ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ [٥٠] ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [٥٣] في حالة الوصل لالتقاء الهمزتين المكسورتين.

فإن قيل: فقد قال راجزهم:

إِنَّا وَجَدْنَا خَلْفًا بِئْسَ الْخَلْفُ^(١)
أَغْلَقَ عَنَّا بَابَهُ ثُمَّ حَلَفَ لَا يُدْخِلُ الْبَوَابَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ

قلنا: هذا شاذ لا يلتفت إليه، ولا يُعَوَّل عليه؛ إذ لا يعلم أن أحداً من أهل اللسان اعتمده. والماضين: هم السابقون الأولون، وأصل المِضَاء القطع، يقال: مضى السيف: أي قَطَعَهُ، ومنه سُميت السيوف مواضي، وسُمي الماضي من السلف ماضياً لأنه كالمقطوع من الباقي. والبقية: هي فضالة الشيء وحُثَالته، وهو مأخوذ من البقاء، وقد تقع البقية للاستبقاء والادخار، قال الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٥] معناه والله أعلم: استبقاؤكم الله تعالى ذخيرةً وجعلكم له فِئَةً خَيْرٌ لكم من قطع ما بينكم وبينه بالمعاصي الكبيرة. والمتقدمون: أخذوا من التقدم إذ هم في الحكم خلفنا، ونحن بين أيديهم، وقد يحتمل التقدم من القدام على معنى أنهم تقدّموا إلى ربنا، ونحن خلفهم لاحقون.

المعنى في ذلك: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أراد تنبيهنا؛ إذ الأكثر من الناس لا يفكر في ماضٍ قبله فيتعظ به، ولا في باقٍ بعده، فيعلم أن الفائز بركته ربنا سعد بما شقي به، أو تلذذ به في دنياه، وكانت على الْمُخْلَف تبعته، هذا وهو لا يخرج من الدنيا إلا بكفنه؛ إن كانت مَبِيتُهُ على تُوْدَةٍ وأناةٍ بين أهله وأحبته، فأكثر كرامته كفنه مع نزعهم خاتمه من خنصره، ونعله من رجله، ويسلُّونه في حفرته، فيسَلِّمونه إلى عمله؛ فإن كان صالحاً استراح من تعبته، وإن كان طالحاً أُتِيَ من سببه، وقد رأينا ذلك عياناً فلم نحتج له برهاناً، وقد تقرّر في عقل كل عاقلٍ متأملٍ أنا نخرج من الدنيا مُكْرَهِينَ، كما خرج الماضي منها مكرهاً؛ إلا أن نخرب الدنيا، ونعمر الآخرة، فإننا نحاسب حساباً يسيراً، ونزداد بفراقها سروراً؛ لأن العاقل يجب الانتقال من الخراب إلى العمران.

فأما من كانت وفاته في ميدان العجاج وسوق الهياج^(٢)، وتَفَاقُ الأَسِنَّةِ، وكساد الزّجاج^(٣)، أو ببغية بعض البغاة في أفواه الفجاج، فإنه يُعوّض بالأكفان أجنحة الغربان مع تمزيق السباع

(١) الشطر الثاني: (عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْجُمْلِ خَصَفَ) ومعنى خَصَفَ: ضَرَطَ.

(٢) العجاج، كَسَحَابِ: الغُبَارُ، والدُّخَانُ، وَرَعَاغُ النَّاسِ، وَالْأَحْقُ. (القاموس: ١٩٧)، والهياج: القتال.

(٣) الزّجاج: جمع زُجْجٍ، وهي الحديدية أسفل الرمح، (انظر القاموس المحيط: ١٩١).

أديمه، وَتَعَرَّقَهَا صَمِيمُهُ^(١)، وإقحاح الشمس بَصَّه^(٢)، وإيناعها غَضَّه، فكم من نسر منحط، وعُقاب كاسر، فتجاذبوه بالمخالب والمناسر^(٣) أَخَذَ الشديد المكاسر لمن عَدِمَ المعين والناصر، فإذا كانت هذه القضية في غير ذات الله تعالى؛ وكان مصير مَنْ هذه حاله بعد هذه الصفة إلى نار الله تعالى فآية خسارة أعظم منها خسارة؟! أو تجارة أبور منها تجارة؟! ولا يَجْبُرُ هذا الرُّزءُ المهم إلا أن تكون هذه العظيمة نازلةً في حق الله تعالى؛ إذ فيه الحَلْفُ عن كل ماضٍ، والعَوِضُ من كل فائت، وكلُّ عسير في جنبه يسير، وكل عظيم في حقه حقير، ومن لنا بأن نُقتل في حقه مراراً، ويُمثل بنا في ذاته أسفاراً، إذ الأجر في ذلك لا تساويه الرغائب، ولا تنتهي إليه أمنية الطالب^(٤)، وقد كان الصالحون يتمنون ذلك، وَيَغْبُطُونَ به.

وفي الحديث: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ لما قام على رأس عمِّه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكانت هند وصواحبها قد مثلن به، فجذعن أنفه وأذنيه، وبقرن بطنه، قال: ((وَالله لَوْلَا أَنْ تَجَزَعَ صَفِيَّةٌ - يعني أخته - لَادَعَنَهُ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَوَجَارِ^(٥) السَّبَاعِ)) وهذا حالٌ ظاهرٌ في أهل هذا الشأن الراغبين فيما أعدَّ الرحمن، ألم تسمع إلى قول الطِّرِمَاحِ بن حكيم الطائي^(٦) في قصيدته الفائية يقول:

-
- (١) تَعَرَّقُهَا: أَكَلَهَا لما بَقِيَ مِنَ اللَّحْمِ عَلَى الْعِظَامِ، قال في النهاية (٣/ ٢٢٠): الْعَرَقُ بِالسُّكُونِ: الْعَظْمُ إِذَا أَخَذَ عَنْهُ مُعْظَمُ اللَّحْمِ... يُقَالُ: عَرَقْتُ الْعَظْمَ، وَاعْتَرَقْتُهُ، وَتَعَرَّقْتُهُ إِذَا أَخَذْتَ عَنْهُ اللَّحْمَ بِأَسْنَانِكَ. هـ.ا. وقد مرَّ.
- وَالصَّمِيمُ: الْعَظْمُ الَّذِي بِهِ قِوَامُ الْعُضْوِ، وَهُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَالِصُهُ وَأَشَدُّهُ، (انظر القاموس المحيط: ١١٣٠)
- (٢) رَجُلٌ بَصٌّ بِالضَّادِ المعجمة أي رقيق الجلد ممتلئ، تمت، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٧/ ١١٩).
- وَأَفْحَلَتْهُ الشَّمْسُ: أَيْبَسَتْهُ وَأَمْتَصَّتْ طَرَاوَتَهُ، قال في القاموس: فَحَلَّ، كَمَنَعَ، قُحُولاً، وَكَعْلِمَ، فَحَلّاً، وَقَحَلّاً: يَبَسَ جِلْدُهُ عَلَى عَظْمِهِ، وقد تقدمت في حاشية سابقة في الحديث الذي قبل هذا.
- (٣) الْمِسْرُ، بِكَسْرِ الْمِيمِ، لِسَبَاعِ الطَّيْرِ بِمَنْزِلَةِ الْمِنْقَارِ لِغَيْرِهَا، (الصحاح للجوهري ٢/ ٨٢٧).
- (٤) في الأصل: ولا ينتهي إلى أمنيته الطالب، وفي (أ): ولا تنتهي إلى أمنيته الطالب، والمثبت من نسخة أخرى.
- (٥) الْوَجَارُ: غَارِ الضَّبُعِ ونحوها من السباع، تمت ضياء، هامش (أ) بفتح الواو وكسرها (انظر القاموس ٤٩١).
- (٦) الأبيات ذكرها الإمام عليه السلام في كتاب الشافي حيث ذكر أنها مما كان الإمام عبدالله بن موسى عليه السلام يكثر إنشاده، وأفاد الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في حواشي الشافي أن البيت الثاني فيه إقواء وهو سائغ كثير عند العرب، هـ.ا. (انظر الشافي ط ٢: ج ١ / ٦٨٩).

وَأَنِّي لَمُرْتَادٌ جَوَادًا فَقَاذِفٌ بِهِ وَبِنَفْسِي الْعَامِ إِحْدَى الْمَقَاذِفِ
مَخَافَةٌ دُنْيَا رَثَّةٍ أَن تُمِيلَنِي كَمَا مَالَ فِيهَا الْهَالِكُ الْمُتَجَانِفِ
فَيَارِبَّ إِن حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرْجَعٍ^(١) يُعَلَى مُخْضِرِ الْمَطَارِفِ
وَلَكِنْ أَحْنِ يَوْمِي شَهِيدًا بِعُصْبَةٍ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وَصَارُوا إِلَى مَوْعُودٍ مَا فِي الْمَصَاحِفِ
قوله عليه السلام: كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ بَسْطَةً وَأَعْظَمَ سَطْوَةً.

الأكثر: نقيض الأقل. **والبسطة:** هي الفضل والسعة، وهي مأخوذة من البسط الذي هو نقيض القبض، ومنه سمي البساط بساطاً لانبساطه على وجه الأرض، وسميت الأرض بساطاً لأجل الانبساط الذي يتمكن لأجله من التصرف. والخطاب للحاضر في قوله: مِنْكُمْ، وهم المعاصرون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ، وقد نقص حالنا من حالهم نقصاناً كثيراً. **والعظم:** نقيض القلة والصغر. **والسطوة** هي الوقعة والبسطة، ولا تكون إلا بالمكروه، يقول قائلهم: سطا عليه إذا وقع به.

المعنى في ذلك: أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ نَبَّهَنَا عَلَى الْإِعْتِبَارِ بِحَالِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَنَا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ بَسْطَةً فِي الْأَمْوَالِ وَالْجَسُومِ، وَالْمَالِكِ وَالْحُلُومِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ سَطَوَتُهُمْ، فَإِنَّمَا كَانَتْ عَظِيمَةً هَائِلَةً، شَدِيدَةً طَائِلَةً، فَإِن لَمْ تَعْرِفْ ذَلِكَ بِتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ؛ فَانْظُرْ إِلَى الْمَشَاهِدِ مِنْ عَجِيبِ الْأَثَارِ، وَهَذَا مَعَ أَنَّ الْأَثَارَ مُتَوَاتِرَةً، وَالْمَأْثَرَ ظَاهِرَةً، كَعَمْدَانِ وَسُلْحَيْنِ وَظَفَارِ، وَمَدَائِنِ الْجُوفِ الْكِبَارِ، وَهَرَمِي مِصْرَ وَتَدْمَرَ، وَكَمْ نَعْدُ وَنَذَكِرْ، كِإِيْوَانِ كَسْرَى، وَبَجْدَلِ نَمْرُودِ بْنِ هَاشٍ [بَنِ كَوْشٍ] بَنِ كَنْعَانَ، فَإِنَّكَ إِذَا شَاهَدْتَ مَا ذَكَرْنَا أَوْ عَلِمْتَ صِفَتَهُ بِالنَّقْلِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْعِلْمِ؛ وَقَعْتَ عَلَى عِبَرَةِ الْمَعْتَبَرِ، وَزَاجِرَةِ الْمَزْدَجِرِ، وَكَذَلِكَ فِي سَطَوَاتِهِمْ الْهَائِلَةِ، وَأَيَامِهِمِ الطَّائِلَةِ، كِيَوْمِ حَلِيمَةَ^(٢)، وَمَا جَانَسَهُ

(١) الشَّرْجَعُ: النَّعْشُ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْمَيِّتُ، تَمَتْ، هَامِشُ (أ) (انظر القاموس المحيط ٧٣٢).

وَالْمَطَارِفُ: جَمْعُ مُطَرَفٍ كَمُكْرَمٍ: رِدَاءٌ مِنْ خَزٍّ مُرَبَّعٍ ذُو أَعْلَامٍ. (القاموس المحيط: ٨٣٢).

(٢) هي وقعة مشهورة كانت بين المنذر بن ماء السماء والحارث الغساني، وإنما سمي ذلك اليوم بيوم حليلة لأن حليلة - وهي بنت الحارث الغساني - خرجت بمراكن الطيب وجعلت تلتطخ به المقاتلة من العسكر حتى صعد العجاج إلى السماء وغطى الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار، وقد ذكر ذلك اليوم النابغة الذبياني حيث قال:

من الأيام القديمة، والسطوات العميمة، فكيف ترجو أن تنال من الدنيا ما نالوا؟! وتؤول إلى حيث آلوا؟! هذا وإن لنا مثل ذلك على بعده فهل ننجو من حاهم الذي حالوا عليه، ومنقلبهم الذي صاروا إليه، ولنذكر بعض صفة هذه الآثار البديعة، ففي ذكرها عَجَبٌ لِمُدَّكِرٍ، وعِبْرَةٌ لِمُعْتَبِرٍ.

أما غمدان فهو قصر قصبة اليمن صنعاء، وكان من متقدّمات الأبنية، ومفزعات المصنوعات، وقيل فيه أقوال كثيرة مشهورة، وقد كانت بَقِيَتْ منه بقيةٌ إلى أيام عثمان، فأمر بهدمها وعمارة مسجد الجامع، وروي عن بعض العلماء أنه قال: لم يكن في الأرض بناء مثل غمدان.

وأما ظفار وبينون فهما مدينتان من بلاد عنس عظيمتان جاهليتان، فيهما آثار هائلة، وكانت التبابعة تسكنهما، قال أسعد التبع:

قَدْ دَعَتْنِي نَفْسِي لِأَنْ أَنْطَحَ الصَّيْبَ — مِنْ يَحْيَلٍ أَقْوَدُهَا مِنْ ظَفَارِ

وهي التي فيها المثل: (لا يدخل ظفار إلا من حمر) أي نطق بلغة حمير، وذلك أن ملكاً من ملوك حمير قال لوافد إليه من العرب: ثب، وثب بلغة حمير أقعد، فجمع الوافد ثيابه وقال: ليعلم الملك أني لا أعصيه، ورمى بنفسه من رأس القصر فهلك، فعجب الملك من ذلك، فقال له وزراؤه: إن معنى ثب بلغة هذا الرجل ما ترى. فقال الملك: لا يدخل ظفار إلا من حمر، أي نطق بالحميرية.

وأما سلحين فهو قصر بلقيس ابنة الهذهاد صاحبة سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكان مُتَّخِذاً على الأساطين والأعمدة، وكان عجباً رائعاً، فقال فيه علقمة بن ذي جَدَن:

سَائِلُ بِسَلْحِينَ وَأَيَّامَهَا — أَيَّانَ كَانَ الْمُلْكُ فِي حَمِيرِ
وَأَسْأَلُ بِلِقَيْسٍ وَبُنْيَانَهَا — وَعَرَّشَهَا مِنْ ذَهَبٍ أَحْمَرِ
وَأَسْأَلُ بِقَوْمِي حَمِيرٍ وَأَبْكَهِمْ — مِنْ مَعْشَرٍ حَسْبُكَ مِنْ مَعْشَرِ-

وقال أسعد التبع يفتخر بولادة بلقيس إياه لأنها كانت من جداته فيما يقال، وذلك قوله:

وَلَدَتْنِي مِنَ الْمُلُوكِ مُلُوكٌ — كُلُّ قَيْلٍ مُتَوَجِّحٍ صَنْدِيدِ
وَنِسَاءً مُتَوَجَّاتٌ كِبَلْقِي — سَسَ وَشَمْسٍ وَمِنْ لَمِيسَ جُدُودِي

يَهْنُ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ
إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرْبَنَ كُلُّ التَّجَارِبِ

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
تُورِثُنْ مِنْ أَزْمَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةِ

وهي قصيدة طويلة مشهورة. تمت، هامش الأصل.

إلى أن قال:

عَرَّشُهَا شَرَجَعٌ ثَمَانُونَ بَاعاً كَلَّتْهُ بِجَوْهَرٍ وَفَرِيدٍ

فأما مدائن الجوف وأبنيته فقد شاهدناها عياناً، وقتلناها عرفاناً، وقد حارت فيها أفكارنا، فمنها ما يقطع العاقل اللبيب على أنه خارج عن صنعة البشر ومقدورهم؛ لما فيه من الآثار الرائعة الهائلة من الأساطين^(١) المثمنة، والعمد المكونة، والصور الممثلة، والأركان المكلَّلة، وهي سبع مدائن على شاطئ نهر الجوف الأعظم، المسافة بينها متساوية، كأنها قيست بالمقوس، وقد ذكرها علقة في شعره حيث قال:

وَبَرِاقِشُ الْمُلْكِ الرَّفِيعِ عِمَادُهَا هَجَرَ الْمُلُوكُ كَأَنَّهَا لَمْ تُهَجَرَ
وَمَعِينٌ فَرَّقَ بَيْنَ سَاكِنِ جَمْعِهَا أَرْضُ الْأَعْنَةِ وَالْجِيَادِ الضَّمَرِ

وأما مجْدَلُ نمرود فقيل إنه كان بكوثاء من أرض بابل، والذي بناه نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، وهو أول ملك فيما روي عمُّ مُلْكُهُ الدنيا، وكان أمراً هائلاً، قيل كان ارتفاعه في الهواء خمسة آلاف ذراع وطوله في الأرض ألف وخمسمائة ذراع، وكان نمرود هذا معاصراً لإبراهيم عليه السلام، وهو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، فلما غير الله تعالى ما به، وفارقه إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه أتى الله تعالى بنيانهم هذا العظيم من القواعد في يوم غيم ومطر ذي برد ورياح، جمعهم بذلك من كل ناحية تديرُ الله تعالى إلى ملجئهم هذا الذي اتخذوه من دونه سبحانه عتاداً^(٢)، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم، وفائدة ذكر خريز السقف من فوقهم التأكيد لكونهم تحته، إذ قد يسقط بنيان القوم فلا يكونون تحته، فيقال: انهدم عليهم بنيانهم، ولا يقال من فوقهم حتى يكونوا تحته، فتأمل ذلك.

وأما تدمر فهي بناحية الشام وهي مما عمرت الجن لسليمان بن داود عليهما السلام، وقد ذكرت العرب ذلك في أشعارها، قال النابغة^(٣):

(١) الأساطين: جمع أسطوانة، وهي أعمدة البناء.

(٢) الْعَتَادُ: الشَّيْءُ الَّذِي تُعَدُّ لَأَمْرٍ مَا وَتُهَيَّئُ لَهُ..

(٣) شطر البيت الأول زيادة من معلقته التي منها هذه الأبيات، ومطلعها:

يَا دَارَ مَيَّةَ الْعَلْيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَيْدِ

[وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ] وَمَا أُحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا سُلَيْمَانُ إِذْ قَالَ الْإِلَٰهُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَحَيِّسِ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَدْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرُ بِالْصَّفَاحِ وَالْعُمْدِ

وحكي أن فيها من التماثيل والتصاوير والأنواع البديعة ما يستغرق الأفكار.

وأما هرما مصر: فهما في الجانب الغربي من فسطاط مصر^(١)، وهما من عجائب بنيان العالم طول كل واحد منهما أربعمئة ذراع في سمك مثلها مسموكان بالصخور العظيمة.

وأما إيوان كسرى: فهو قصر المدائن وهو قرارة ملك الأكاسرة، وهو دار ملكهم، وهو مما كان له في الأبنية شأن، وكان ذاهباً في السماء، هدمه المسلمون، ولما رجع ابن الأشعث من سجستان خالعا لعبد الملك داعياً إلى نفسه تقدم بين يديه أعشى همدان وهو يقول:

شَطَّتْ نَوَى عَنْ دَارِهَا بِالْإِيْوَانِ إِيْوَانِ كِسْرَى ذِي الْقِرَى وَالرَّيْحَانِ

والكلام في هذا القبيل يطول، وإننا نذكر طرفاً مما يتعلق به الاعتبار لأهل القلوب السليمة، سبحانه مَنْ كُلِّ مُلْكٍ غَيْرِ مُلْكِهِ زَائِلٌ، وكل سلطان ما خلا سلطانه باطل، فأی بسطة ترى أوسع من بسطتهم، أو سطوة أعظم من سطوتهم، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم.

قوله عليه السلام: أَزْعَجُوا مِنْهَا أَسْكَنَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَغَدَرَتْ بِهِمْ أَوْثَقُ مَا كَانُوا بِهَا.

الإزعاج: هو الإخراج بعنف وشدة، والهاء في منها عائدة إلى الدنيا والمساكن على الحقيقة، وجائز أن يعود الضمير إلى السطوة والبسطة، وإن حُمِلَ على الجميع فلا مانع؛ لأنهم قد أخرجوا عن جميع ذلك. **والسكون** والطمأنينة معنهما واحد، ومن كان في راحة سكن إليها، ومن كان في محنة تحرك منها، فهذا أصله. **والغدر:** هو فعل المكروه ممن لا يخشى منه ذلك. وقيل: إن الغدير أخذ من ذلك؛ لأنه مرة يكون فيه الماء، ومرة لا يكون فيه، فربما ترك الاستعداد بأخذ الماء ركنة

(١) فُسطاطُ مِصْرَ: هي المدينة التي بناها عمرو بن العاص عقب فتح مصر عام ٢٠ هـ - ٦٤١ م تقع على ضفة نهر النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل القاهرة بحوالي ميلين، والفُسطاط: بَيْتٌ مِنْ شَعَرٍ، وَفُسطاطُ الْمِصْرِ: مُجْتَمَعُ أَهْلِهِ حَوْلَ جَامِعِهِ، وَهُوَ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ فُسطاطٌ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِمَدِينَةِ مِصْرَ الَّتِي بَنَاهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: الْفُسطاط، (انظر لسان العرب: ٧ / ٣٧١).

عليه، فأتاه منه ما لم يظن فيه. **أوثق ما كانوا مأخوذ من الوثاق، وأصله العَقْد الشديد، يقول:**
 كأنهم وثقوا بدينهاهم ومساكنهم وبسطتهم وسطوتهم فغدرت بهم، فكان الأمر بخلاف ما ظنوا.
المعنى في ذلك: أن مَنْ تقدم ذكرهم من الذين كانوا قبلنا أزعجوا من الدنيا المونقة في أعينهم،
 الشهية إلى قلوبهم، والمساكن العجيبة في أفكارهم، والأبنية العظيمة والبسطة الواسعة أسكن ما
 كانوا إليها، معناه أنهم أخذوا بغتة، وهم سكون إلى ما هم فيه كما أُخذ المغترون بالله تعالى،
 وغدرت بهم فعلت معهم فعل الغادر، وإن لم يكن ثم حقيقة غدر، أوثق ما كانوا بها؛ لأنهم أخذوا
 بغتة، ولكن لما غفلوا عنها غفلة مَنْ كان على عهد وميثاق؛ ووقعت بهم وقعة الغادر المتمكن
 القوي الممعن، سمي ذلك غدرًا مجازًا، وإلا فأَيُّ وعظٍ أعظم من وعظها، أو تذكير أنفع من
 تذكيرها، أو تحذير أنجع من تحذيرها.

قوله عليه السلام: فَلَمْ تَغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةَ عَشِيرَةٍ، وَلَا قِيلَ مِنْهُمْ بَذْلَ فِدْيَةٍ.

الإغناء: هو الكفاية، يقول قائلهم: أغناني هذا الأمر، أي كفاني. **والقوة:** هي الآلة والقدرة،
 هذا في الأصل، ويقال في الله تعالى قوي على معنى أنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء. **والعشيرة:**
 هم الأقارب من قبيلة الإنسان، وسموا عشيرةً لأن العِشْرَة وهي الألفة والمنفعة والمعاونة
 والمعاملة تقع بينهم في الأغلب، ومنهم الأقارب والأباعد، قال الله تعالى لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ:
 ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء] والأقارب هم الأعمام وبنوهم، ف قيل أنه صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ دعا بني هاشم فقرب لهم صاعاً من طعام وجنبَ شاة، وهم ثمانية وأربعون
 رجلاً، فأكلوا من الطعام حتى شبعوا ومن اللحم حتى اكتفوا، وبقي كل شيء من ذلك بحاله، ثم
 ذهب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ ليتكلم معهم فبدره أبو هب لعنه الله فقال: يا بني هاشم؛ لو
 لم تعرفوا سحر ابن أخيكم إلا بما عايتم من أمر الطعام لكان لكم كافياً، فأمسك النبي صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عن الكلام في تلك الحال وتفرقوا.

وقيل: إن سعد العشيرة سمي سعد العشيرة لأنه كان يركب في ثلاثمائة من أولاده وأولاد
 أولاده، فإذا قيل له: من هؤلاء معك؟ قال: هم عشيرتي.

والقبول: نقيض الرد، والبذل نقيض المنع، والفدية هي ما يتخلص به الإنسان نفسه مما يقوم مقام نفسه من المال في بعض الوجوه، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات] يقال: أفدى، وفدى، وفادى، فأما فادى: فأعطى رجلاً واحداً وأخذ رجلاً، وأما فدى: فأعطى مالاً وأخذ رجلاً، وأما أفدى: فأخذ مالاً وأعطى رجلاً.

المعنى في ذلك: أن قوة العشيرة لا تغني عن المرتكبين الآثام، ولا تدفع عن المنهمكين في عظام الإجرام، ولا تصرف عنهم سطوة ذي الجلال والإكرام، وكيف تغني عن عذابه قوة العشيرة، وكل قوي في جنبه ضعيف، وكل عزيز ذليل، وكل قادر عاجز، قد قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ لَقَدْ أَحْصَيْتُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم] السماوات السبع التي ورد السمع بصحتها، وعائناً التي تلينا منها بأبصارنا، والأرض هي هذه المدحوة، الآتي هو الواصل، والرحمن هو الرب سبحانه المتناهي في الرحمة لعباده وخلقه، ولا يجوز إطلاق الرحمن على سواه. والعبد: هو الذليل، أخذ من التعبد وهو التذليل. والإحصاء: هو الاستيعاب والإحاطة. والعُدُّ هو إضافة الشيء إلى الشيء، وتضعيفه به حتى يكون عقوداً إلى مبلغ إرادة العادِّ وهو معروف، وعدّاً تأكيداً للعدِّ بلفظه. ويوم القيامة: هو يوم البعث، سمي قيامةً لقيام الناس فيه من الأجداث. والفرد الذي لا ثاني معه.

والمعنى في هذه الآيات: أن الله تعالى عمَّ أهل السماوات وهم الملائكة الكرام عليهم أفضل السلام وأهل الأرض وهم الجن والإنس، وهذا دليل على أن محل الجن الأرض لدلالة النص على منعهم من وصول السماء كما قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَيَّتٌ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن] فمُنَعُوا عن الاستيعاب من مقاعدها فضلاً عن الإقامة فيها، وقد ذكر أن كل المتعبدين يأتون إلى الله تعالى يوم القيامة، ولم يذكر إلا أهل السماء والأرض، ولا خلاف بين أهل التصديق أنهم يأتون - أعني الجن - يوم القيامة مع الآتين، ثم وصفهم بأنهم يأتون يوم القيامة في حال الخضوع والاعتراف بالعبودية والرق لما يرون من عظيم القدرة ووضوح الحال في معرفة الخالق تعالى، الذي لا تتناهى له جلالة، فخص القيامة لأنهم يأتونه تعالى

فيها عبيداً، هذا وإن كانوا عبيداً له في الدنيا والآخرة فإنما خص الآخرة لأنَّ منهم من خرج في الدنيا تمرداً من حال العبودية وأدعى الربوبية، وذلك اليوم يوم يُطَبَّقُ الجميع فيه على الاعتراف فيه بالملكة، وقد أحصاهم سبحانه عدداً فلم يغادر منهم أحداً، بل أحصى أجزاءهم وأنفاسهم وأوقاتهم، ﴿وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿١٥٦﴾ يأتونه يوم القيامة عند دعاء الداعي لهم، وهو إسرئيل عليه السَّلام، وهو يدعوهم بالصور ينفخ فيه نفخاً مفظعاً، يقول فيه: أيتها الشعوب المتفرقة، والأجسام المتمزقة، والعظام النخرة قوموا إلى محاسبة الديان، والعرض على الكبير الأكبر، فيخرجون من الأجداث سراعاً، ولا يستطيعون امتناعاً، ويأتونه فرادى لا يلوي منهم أحد على أحد، ولا يلتفت والد إلى ولد، وكذلك لا تقبل الفدية ذلك اليوم، ولا تنفع المَعْدرة؛ لأنَّ التكليف مرتفع والأملاك زائلة، والحال غير الحال، فالفدية مردودة، والأموال مفقودة، وإن وجدت فهي غير معدودة، فأين العشيرة الدافعة، والفدية النافعة، وهم يأتون على هذه الصفة الرائعة عند وقوع الواقعة وارتفاع الهائعة.

قوله عليه السَّلام: فَارْجُلُوا نَفُوسَكُمْ بِزَادٍ مُبْلَغٍ، قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُوا عَلَى فُجَاءَةٍ، وَقَدْ غَفَلْتُمْ عَنْ

الاستعداد.

أرحل نفسه: نقيض أحلها. والزاد: هو ما يستصحبه الراحل مما لا غنى له عنه. وقبل نقيض بعد. والأخذ: نقيض الترك. والفجأة: الغفلة، ومنه قولهم في قطري بن الفُجَاءة؛ لأنَّ أباه جاء به من اليمن فجأة، وقد صار رجلاً، ولا علم لهم بأنَّ له في اليمن ولداً، فسموه الفجاءة لذلك. والغفلة: نقيض اليقظة. والاستعداد: جمع الآلة والعدة.

المعنى في ذلك: أنه عليه السَّلام أمر بإرحال النفوس بالزاد المبلغ، ولا زاد يبلغ صاحبه إلا التقوى، وأصل التقوى أطراح الأهواء، والتمسك بالسبب الأقوى. فالرحيل حتم لا بد منه لمن أراد ذلك أو كرهه، والزاد موقوف على اختيار الراحل؛ فإن شاء تزود وإن شاء ترك، والمتزود ناج سالم، والتارك هالك نادم، ومن اختار الهلاك والندامة على النجاة والسلامة فقد اختار غير الخير، ولم يأخذ لنفسه بالوثيقة قبل أن يؤخذوا على فجأة، لأنَّ رحيلهم قد يقع بغير اختيارهم كما يقع رحيل الأسير على فجأة بغير مشاورة، ولا مؤامرة.

والغفلة أصلها أن يَسِمَ الرجل إبله وينسى منها واحداً بلا نار، فيقال بعير عُفْل، ثم صار ذلك يفيد النسيان لكل شيء. وَعَفَلْتَهُم عن الاستعداد هو نسيان العُدَّة الحصينة، والجُنَّة الرصينة، وهي الأعمال الواقية الصالحة الباقية، فما استجَنَّ المستجِنُّون من عذاب الله تعالى بمثلها، ولا استتر الصالحون بشكلها، وكيف لا تكون كذلك وهي لا تحيك فيها سيوف الانتقام، ولا تنفذ موارد السهام، ولا تحرقها الرماح، ومن لك بِجُنَّةٍ دفعت مضرة العقاب، وأورثت طوبى وحسن مآب، فلموفق من استجَنَّ بها، والمخذول من حَسَرَ عنها^(١)، وبالصبر يُنال الخير كله، وباتباع الهوى ينفاد هُون العذاب وذُله.

وهذا حين أتينا على الفراغ من شرح الجزء الأول من جزءين من حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية مع تراكم أشغالٍ أخذت بالأنفاس، وكادت تؤدي إلى الوسواس، ولولا رجاء ثواب يعود علينا، وأجرٍ يساق إلينا في هداية من يطلب الهداية من المؤمنين، وإرشاد من يتعرض للإرشاد من الصالحين؛ لَمَا تصدينا لهذا الشأن في مثل هذا الأوان، إذ التصنيف يفتقر إلى تفرغ الأذهان، والسهو والغفلة الغالبان على الإنسان، ومن الله سبحانه نستمد الهداية في البداية والنهاية، وأن يبلغنا إلى ما نروم من تمامه، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه لنكون من الذين أخلصوا له الدين، وعبدوه حتى أتاهم اليقين، والحمد لله رب العالمين، وسلامه على المرسلين، وصلواته على سيدنا محمد الأمين، وآله الأكرمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل^(٢).

(١) حسر عنها: أي كشفها وخرج منها ولم يستجِن بها، والحاسر: الذي بغير درع، والضمير يعود على الأعمال الصالحة، وتأتي حَسَرَ بمعنى تعب وأعيا.

(٢) قال في الأصل: يتلوه الجزء الثاني من حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية، تأليف مولانا ومالکنا الإمام الأجل المنصور بالله عز وجل أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين أبي محمد عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين. وقال في النسخة (أ): كان ذلك في يوم السبت المبارك سلخ شهر محرم الحرام من شهور سنة ١٠٨٢ من هجرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

حَدِيقَةُ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ

فِي

تَفْسِيرِ الْأَرْبَعِينَ السَّلَاقِيَّةِ

تأليف

الإمام المنصور بالله رب العالمين أبي محمد

عبدالله بن حمزة بن سليمان (ع)

(ت ٦١٤هـ)

الجزء الثاني

حَلَقَةُ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ

فِي

تَفْسِيرِ الْأَرْبَعِينَ السَّبْقِيَّةِ

تَأليف

الإمام المصطفى العجلاني والمجدد الثاني محمد

عبد الله بن حمزة بن سليمان (ع)

(ت ٦١٤ هـ)

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ^(١) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ وَطَرَفٍ مِنْ شَرْحِ حَالِهِ - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتِ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ نَفْسُكَ فَلَا تُحَدِّثْهَا بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أُمَسْتَ فَلَا تُحَدِّثْهَا بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صَحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، وَمِنْ شَبَابِكَ لِهَرَمِكَ، وَمِنْ فَرَاغِكَ لَشُغْلِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لَوَفَاتِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا اسْمُكَ غَدًا))^(٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ.

قد تقدم الكلام في معنى لفظ الدنيا. والغريب نقيض الأهل، وأصل الغريب البعيد الدار والأهل، ومنه سهم غارب أي بعيد المرام، عنقاء مغرب^(٣) أي بعيدة لا توجد، والمعنى الغريب من ذلك أي البعيد الفهم، قال الشاعر:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(٤)

- (١) قال السيد الشريف: وحدثني شيخي أبو سعيد السيرافي قال حدثنا محمد بن إسحاق قال حدثنا يحيى بن صالح قال حدثنا إسحاق بن يحيى الكلبي عن الزهري عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر... الحديث.
- (٢) الحديث رواه ابن أبي شيبة (٧٥/٧) رقم (٣٤٣٠٤) والبخاري (٨٩/٨) رقم (٦٤١٦) والترمذي (١٤٥/٤) رقم (٢٣٣٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٠١) بلفظ: ((وَعَدْتُ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ)) وبقية الحديث: ((وَإِذَا أَصْبَحْتَ نَفْسُكَ فَلَا تُحَدِّثْهَا بِالْمَسَاءِ... الخ)) يتسبونه لابن عمر، وقد رواه عن رسول الله في حديث منفصل: أبو نعيم في الحلية (١/٣١٢) أما الجزء الأول من الحديث فقد رواه أحمد في مسنده (٣٨٣/٨) رقم (٤٧٦٤) وابن ماجه (٢/١٣٧٨) رقم (٤١١٤) والبيهقي في شعب الإبان (١٢/٤٧٤) رقم (٩٧٦٥) وابن حبان في صحيحه، والقضاعي في مسند الشهاب، وبتامه: رواه ابن عساكر (٣٤/٣٩٨) والرويان في مسنده (٢/٤١٣) رقم (١٤١٨) وعبد الجبار الخولاني في تاريخه (ص ٩٧) ١.هـ.
- (٣) العنقاء المغرب: هُوَ طَائِرٌ عَظِيمٌ مَعْرُوفٌ الْأَسْمُ بِجَهْلٍ الْجِسْمِ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ. والعنقاء: الدَّاهِيَةُ. ١.هـ. (النهاية: ٣/٣١٢).

(٤) هكذا في الأصل: فَمَنْ يَكُ أَمْسَى، وباقي النسخ بلفظ: وَمَنْ يَكُ أَضْحَى.

والبيت لصابي بن الحارث البرجمي، وَقَيَّارٌ: اسْمٌ لِفَرَسِهِ أَوْ لِحِمَلِهِ، وَهُوَ ضَائِبٌ بِنُ الْحَارِثِ بْنِ أَرْطَاةِ التَّمِيمِيِّ الْبُرْجُمِيِّ (ت نحو ٣٠ هـ) شاعر، خبيث اللسان، كثير الشر، عرف في الجاهلية، وأدرك الإسلام، فعاش بالمدينة إلى أيام عثمان، وكان مولعا بالصيد،... سجنه عثمان بن عفان لقتله صبياً بدايته.. ولما انطلق هجا قوماً

عطف قيَّاراً على موضع الجملة في (فَإِنِّي) وهو الابتداء.

والعابر هو: السائر، والأصل في العابر الباحث المتفقد للأمر، وهو اسم فاعل، ومنه أُخذ الاعتبار، وصار الغالب عليه في العرف قطع جسور الأنهار، يقال: عبر فلان الجسر، وقد قَلَّ استعماله في غيره إلا بقرينة، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **عَابِرُ سَبِيلٍ**، فلما كان القاطع للمفاوز والجسور كأنه يفتقدها ويتقصصها قيل عابر، وهو السائر، والعين غير معجمة، فإذا كانت معجمة كان الغابر الباقي الواقف، قال سبحانه: ﴿إِلَّا عَاجِزاً فِيهِ لُغَيْرِينَ﴾ [الشعراء] يريد الباقي الواقفين، وقد يكون الغابر الداخل، يقال: غبر من الزمان يومٌ أو يومان بمعنى دخل، وهذا الحرف قد يكون من الأضداد، فيجعل للماضي والمستقبل كما قال الراجز^(١):

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ وَقَدْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى - وَمَا غَبَرَ

يريد بقي.

والسبيل الطريق، وسُميت سبيلاً لاستمرارها وكونها على سَنَنِ مستقيم.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ ابْنَ عَمْرِ خَاصَةً، وَالنَّاسَ عَامَةً أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَأَنَّهُ غَرِيبٌ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْكُنُ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ، بَلْ يَكُونُ كَالْغَرِيبِ الَّذِي طَوَّحَتْ بِهِ طَوَائِفُ الْأُمَمِ إِلَى مَسَارِحِ الْأَهْوَالِ، فَهُوَ مُسْتَوْفٍ^(٢) غَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، خَائِفٌ غَيْرُ آمِنٍ. وَقَدْ رَوَى عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ جُلَسَ مُجَرَّمًا^(٣) مُجْتَمِعِ الْأَطْرَافِ، فَيَقَالُ لَهُ: لِمَ لَا تَطْمَئِنُّ فِي الْأَرْضِ؟ فَيَقُولُ: تِلْكَ جَلْسَةُ الْأَمْنَيْنِ، وَأَنَا غَيْرُ آمِنٍ؛ هَذَا الْغَرِيبُ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ الرَّجُوعُ إِلَى وَطَنِهِ، وَالْبُرُوكُ فِي عَطَنِهِ^(٤)، وَهِيَ دَارُ الْإِسْتِقَامَةِ لِلْفَائِزِينَ، فِيهَا لَهُ مَالٌ لَا تَجْتَاخُهُ حَوَادِثُ الْأَيَّامِ، وَأَهْلٌ لَا تَتَّبَاهِمُ بَوَادِرُ الْحِمَامِ، فَأَمَّا مَنْ عَدَّ أَنْ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَهْلًا وَمَالًا فَكَيْفَ يَسْمَحُ بِفِرَاقِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ، أَوْ تَتَوَقَّعُ نَفْسُهُ إِلَى الْإِنْتِقَالِ، هَذَا مَا لَمْ تَجْرِ بِهِ الْعَادَةُ عَلَى مَرُورِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ.

من بني نهشل، فأعيد إلى السجن، وعرض السجناء يوماً فإذا هو قد أعدَّ سكيناً في نعله يريد أن يغتال بها عثمان، فلم يزل في السجن إلى أن مات. ١. هـ. (انظر الأعلام للزركلي ٣/ ٢١٢).

(١) هوروية بن العجاج، وقد تقدمت ترجمته خلال شرح الحديث الثاني.

(٢) استوفى في جلسته: إذا جلس جُلُوساً غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ، تمت ضياء، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٥/ ٤٣٠).

(٣) أي مُنْقَبِضاً مُجْتَمِعاً بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، ذكره في القاموس، هامش (أ) (انظر لسان العرب ٥/ ٣١٨).

(٤) الْعَطَنُ، مُحَرَّكَةٌ: وَطَنُ الْإِبِلِ، وَمَبَرِّكُهَا حَوْلَ الْحَوْضِ، وَمَرْبُصُ الْغَنَمِ حَوْلَ الْمَاءِ. (القاموس: ١٢١٦).

ثم أردف عَلَيْهِ السَّلَامُ التشبيه بتشبيهه يقاربه، وهو قوله: **أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**، فَإِنَّ عَابِرَ السَّبِيلِ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ قَطَعَ الْمَغَازَةَ وَالْمَوَمَةَ^(١)، ووصول الأهل ليفوز بالسلامة والنجاة، فما ظَنُّكَ بمن جعل السبيل دار إقامة؟! مَنْ أَعْظَمَ مِنْهُ عِنْدَ الْإِزْعَاجِ لِلْمَسِيرِ نَدَامَةً؟! وَأَيُّنَ مِنْهُ خَسَارَةٌ وَغَرَامَةٌ؟! فَيَا أَيُّهَا الْغَرِيبُ شَمِّرْ وَاسْتَعِدْ لِلْوَصُولِ إِلَى أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَيَا أَيُّهَا الْعَابِرُ السَّبِيلِ؛ لَا تُحَيِّرْ فِي الْمَسَالِكِ فَتُرْهَقَ الْمَهَالِكِ، وَبَادِرْ إِلَى الْمَرَاتِبِ وَالْمَالِكِ وَالنَّمَارِقِ وَالْأَرَائِكِ وَالْعُرُبِ الْعَوَاتِكِ^(٢)، فَبَيْنَ يَدَيْكَ كُلِّ ذَلِكَ، وَلَا تُخْلِدْ إِلَى أَهْلِ هُمْ أَهْلُكَ حَتَّى تَمُوتَ، وَمَالٍ هُوَ مَالُكَ حَتَّى تَفُوتَ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ أَسْلَمُوكَ، وَإِلَى عَمَلِكَ سَلَمُوكَ فَتَدْمَتَ؛ وَمَا يَغْنِيكَ، وَقَدْ شَغَلُوكَ بِهَا لَا يَغْنِيكَ.

قوله عليه السلام: وَأَعِزُّذْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى.

الْعِزُّ هو ترتيب جمل الحساب. **والنفس** هاهنا جملة الإنسان، وقد تقدم معناها مفصلاً. **والموتى** جمع ميت، والميت نقيض الحي.

الْمُجْعَى: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الْإِنْسَانَ أَنْ يَعِزُّذَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتَى الَّذِينَ قَدْ انْقَطَعَ عَنْهُمْ التَّكْلِيفُ، فَسُئِلُوا عَنِ الْجَرَائِمِ وَالْجَرَائِرِ، وَتَوَقَّشُوا عَلَى الصِّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ، وَكُشِفَتْ لَهُمُ الْبَوَاطِنُ وَالظُّوَاهِرُ، فَمَا كَانَ عَلَيْهِ لَوْ أَقْبَلَ -وَالْحَالُ هَذِهِ- لَعَمَلَهُ فَلْيَعْمَلْهُ، فَهُوَ الْيَوْمَ فِي مَوْضِعِ الْإِقَالَةِ، وَأُمْنِيَّةُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَاكِياً عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْحَالِ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ فَهَذَا نَحْنُ نَجْرِي فِي مَوْضِعِ أُمْنِيَّتِهِ؛ فَمَا نَحْنُ عَامِلُونَ؟! إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، لَقَدْ طَبَعَتِ الْغَفْلَةُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَكَثُرَتْ أَعْوَانُ سُلْطَانِ الذُّنُوبِ.

قوله عليه السلام: وَإِذَا أَصْبَحَتْ نَفْسُكَ فَلَا تُحَدِّثْهَا بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَتْ فَلَا تُحَدِّثْهَا بِالصَّبَاحِ.

الإصباح نقيض الإساءة، وهو مأخوذ من الصبح الذي هو الفجر، يقال: **وضح الصبح** لذى عَيْنَيْنِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات] وقد تقدم معنى لفظ النفس هاهنا،

(١) الْمَوَمَاءُ وَالْمَوَمَةُ: الْفَلَاةُ، وَالْجَمْعُ: الْمَوَامِي. (القاموس المحيط: ١٣٣٦).

(٢) فِي الْأَصْلِ: الْفَوَاتِكُ، وَمَا أُثْبِتَنَاهُ مِنَ النُّسْخَةِ (أ) وَنُسْخَةُ أُخْرَى.

وَالْعُرُبُ: جَمْعُ عُرُوبٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحُسْنَاءُ الْمُتَعَبِّئَةُ إِلَى زَوْجِهَا، (لسان العرب ١ / ٥٩١).

وَالْعَوَاتِكُ: جَمْعُ عَاتِكَةٍ، وَأَصْلُ الْعَاتِكَةِ الْمُتَضَمُّخَةُ بِالطَّبِيبِ، (لسان العرب ١٠ / ٤٦٤).

والكاف في نفسك عائد إلى المخاطب، والمساء عندهم أول الليل، قال النابغة:

وَقَفْنَا بِصَحْرَاءِ الْغَوِيرِ تَلْفُنَا شَمَالٌ نَكَادُ مِنْ ضَلَالَتِهَا نُمْسِي

يعني رياحاً أظلم لها الأفق فكادوا يدخلون في المساء، وهو أول الليل.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أمر أن يكون المرء متوقفاً للموت مترقباً للفوت صباحاً ومساءً، فلا يخلد إلى الدنيا، ولا يسكن إلى لذتها التي تفنى، إذا أصبح قال: أموت في نهاري هذا، ولكن ما أعددت للموت من الأعمال، وما يخلصني من عهدة السؤال بين يدي ذي الجلال، ذنوبٌ محصاة حاضرة، وتركاتٌ مقصاة نافرة، لا يدخلون معي صنك المدخل، ولا يُعدُّون لي في صالح العمل، فليتنى أقدم الأهل والمال أمامي لينفعني عند حصول حامي.

هذا وكم قد رأينا من مصبحٍ لم يُمسِ، ومُمسٍ لم يصبح، وهل حصاد الناس إلا في هذين الوقتين، وفيما بينهما؟! وهل بالمستبصرين غرّة؟! وهل أهلك الناس رحمك الله إلا طول الأمل والتسويق، وقلة استشعار الخوف والحزم من التحريف، حتى قست القلوب فهي كالحجارة صلبة، فغفلوا عن التوبة والإنابة.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّهُ مَنْ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ غَدًا فَإِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا، وَمَنْ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ أَبَدًا يَقْسُو قَلْبُهُ)) وصدق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله عليه السلام: وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقِيمِكَ.

الصحة هاهنا نقيض السقم، وأصل الصحة البراءة من الآفات، والسلامة من العاهات، يقال: صحَّ الحديث، وإسنادٌ صحيحٌ، وصحَّحْ وصحَّحان بالزيادة تضعيف: للمستوي من الأرض البريء من الحَبَار^(١) والشقوق والأخاديد، وهي ألفاظ متقاربة معناها واحد. **والسقيم** يناقض الصحيح في لفظه ومعناه، وهو الذي أصابته الآفات والعوارض، فإذا أضيف السقم إلى الحديث أفاد الكذب والاختلال، وإذا أضيف إلى الجسد فمعناه الضعف والاعتلال، قال تعالى: ﴿فَنَنْظُرْ نَظْرَةً فِيهِ لِلْجُثُمِ﴾ فَقَالَ إِنَّي سَقِيمٌ ﴿٨٧﴾ [الصفات] معناه ذو آفة عارضة، فانفروا عني

(١) قال في هامش (أ): الحَبَار: هو الشَّجَرُ الصَّغَارُ وَالْحَفَرُ الْغَامِضَةُ، تمت من خط المنصور بالله المصنف عليه السلام... قال في لسان العرب (٤/ ٢٢٨): الحَبَارُ مِنَ الْأَرْضِ: مَا لَانَ وَاسْتَرَحَى وَكَانَتْ فِيهِ جِحْرَةٌ. وَالْحَبَارُ: الْجَرَائِمُ وَجِحْرَةُ الْجُرْذَانِ، وَاحِدَتُهُ حَبَارَةٌ. وَفِي الْمَثَلِ: مَنْ تَجَنَّبَ الْحَبَارَ أَمِنَ الْعِثَارَ،... وَالْمُخَابَرَةُ: الْمُرَارَعَةُ بِبَعْضِ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْخَبَرُ أَيْضاً، بِالْكَسْرِ. اهـ.

لئلا يصيبكم ما أصابني، مكيدةً منه عَلَيْهِ السَّلَامُ ليدرك في أصنامهم ما رام من التقطيع والاخترام، وكانوا ينفرون من أهل الآفات خيفة العدو، فأوهمهم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه عليل الجسد، وهو مضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: عليل القلب غيظاً عليكم، واستعظماً لجهالتكم^(١)، فأدرك ما أراد.

المُعْجِزُ: أنه أمر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ الإنسان من الصحة للسقم، يقال: أخذ له منه إذا وُقِّيَ حَقُّهُ، وحقُّ الصحة الاستعمال للجوارح في طاعة الله سبحانه، وجعل الحق للسقم لأنه ثاني حالتي الإنسان التي إحداهما الصحة، ولا بد من تعقب السقم لها، ولا بد من تعقب السام لها إما بمبادرة من الحمام وال ألم، وإما بالإنهاء إلى ضعف الهرم الذي هو أَسْقَمُ السَّقَمِ، وآلم أنواع الألم، قال الشاعر^(٢):

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَعِيشَ وَتَسْقَمَا

وفي رواية أخرى: وتسلما.

وقال الحكيم: كفى بالسلامة داء. فحق السقم عليك أن يأتي وقد رمت من العمل ما يجبر نقصه، ويسد خُصَّه^(٣)، ويشعر خَصَّه^(٤)، فينقلب الخويل حالاً، والمويل مالا^(٥)، والغلة بلا^(٦)، والصُّحُ^(٧) ظلالاً، وأما من استفرغ صحته في تناول اللذات، ولم يحترز من هجوم الصباح والبيات حتى يُلْمَ به السقم المُقْعِدُ عن الحركات فإنه قد أوبق نفسه من الخيرات، فيا أيها الصحيح ما يؤمنك من السقم الذي يمنعك من صالح الأعمال، ويوردك شرائع

(١) كذا في الأصل و (أ) بضمير المخاطب، وفي بقية النسخ: غيظا عليهم، واستعظاما لجهالتهم.

(٢) هو مُحمَّد بن ثور، وقد تقدمت ترجمته في الحديث الثامن عشر، لنفس البيت.

(٣) الخُصُّ: بَيْتٌ يُعْمَلُ مِنَ الخُسْبِ والقَصَبِ، وَجَمْعُهُ خِصَاصٌ، وأَخْصَاصٌ، سُمِّيَ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الخِصَاصِ وَهِيَ الفَرْجُ والأَنْقَابُ، (النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٧).

(٤) الخُصُّ: إِذْهَابُ الشَّعْرِ عَنِ الرَّأْسِ بِحَلْقٍ أَوْ مَرَضٍ، (النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٣٩٦).

(٥) الخويل: الشيء الذي تحاول إيجاده وتريده وتؤمله، قال في الصحاح (٤ / ١٦٨١): حاولْتُ الشيءَ، أي أردته. والاسم الخويل، ا.هـ. والمويل: هو تصغير المال، (انظر الصحاح ٥ / ١٨٢١).

(٦) الغلة: شِدَّةُ الْعَطَشِ وَحَرَارَتُهُ، ا.هـ. (لسان: ١١ / ٤٩٩) والبلال: جَمْعُ بَلَلٍ، وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ مَا بَلَّ الخَلْقَ مِنْ مَاءٍ أَوْ لَبَنٍ أَوْ غَيْرِهِ. (لسان: ١١ / ٦٤).

(٧) الصُّحُ: الشَّمْسُ، وَقِيلَ: هُوَ ضَوْؤُهَا، (لسان: ٢ / ٥٢٤).

الوبال^(١)، النجاء النجاء^(٢) قبل انقطاع الرجاء، وإياك أن تظلم لصحتك سقمك فتزل من حالق^(٣) قدمك.

قوله عليه السلام: وَمِنْ شَبَابِكَ لَهْرُكَ.

الشباب هو حال الزيادة، والتنقل في أحوال الغضارة، ورُيعان^(٤) النضارة، وأصله الزيادة، وهي حالة يطمع الشيطان فيها بغرّة الإنسان، قال الشاعر^(٥):

إِنَّ شَرَّ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا

والهَرَمُ نهاية العمر، وغاية الشيء، وتناهي النقصان، وهو داءٌ لا دواء له، كما في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ إِلَّا السَّامَ وَالْهَرَمَ)). السام: الموت، والهَرَمُ أحسب أن أصله مأخوذٌ من الهَرَم، وهو شجر ضعيف إذا خبطته الإبل بأخفافها انحطم بلا طائل اعتماد، واحدته هَرَمَةٌ، ومنه سمي الرجل هَرَمَةً كما يقال طلحة، وسلمة.

المعنى في ذلك: على نحو ما تقدم أنه يجب على العاقل أن يأخذ من شببته حقها لهرمه، وذلك أنه في حال الشبيبة متمكن من أعمال البر والتصرف في الطاعات، وثوابه يضاعف؛ لأن الشباب مَظِنَّةٌ للمعصية^(٦) والخطيئة، قال الشاعر:

[فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا] فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ^(٧)

(١) الشَّرَائِعُ: الْمَوَاضِعُ الَّتِي تُورَدُ، الْوَاحِدَةُ شَرِيعَةٌ، وَكَذَلِكَ الْمَشْرَبَةُ. ا.هـ. والوبال: فِي الْأَصْلِ: الثَّقُلُ وَالْمَكْرُوه. وَيُرِيدُ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، (النهاية ١٤٦/٥)

(٢) نَجَتْ النَّافَةُ نَجًا وَنَجَاءً، بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَيِ اسْرَعَتْ، تَمَّتْ ضِيَاءً، هَامِشٌ (أ).

(٣) الْحَالِقُ: الْجَبَلُ الْمُرْتَفِعُ، تَمَّتْ، هَامِشٌ (أ) (انظر القاموس المحيط: ٨٧٦).

(٤) الرَّيْعَانُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوَّلُهُ وَأَفْضَلُهُ. (القاموس المحيط: ٧٢٤)

(٥) البيت لحسان بن ثابت، وهو حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، من فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام.. روى عنه: عمر، وأبو هريرة، وعائشة.. مات قبل الأربعين في خلافة علي عليه السلام، وقيل: سنة خمس وأربعين وله مائة وعشرون سنة؛ وكان عثمانياً. (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣ / ١١٨).

(٦) فِي الْأَصْلِ: مَظِنَّةُ الْمَعْصِيَةِ.

(٧) البيت للنابغة، والشطر الأول للبيت من صحاح الجوهري (٦/ ٢١٦٠).

وفي الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِالشَّابِّ التَّقِيِّ)) فإذا عمل الإنسان في حال الشبيبة جاء الهرم وقد استحقب من أعمال البر ما يكفيه في دار الآخرة، ولم يضره هرمه، وإذا فرط في أيام الشبيبة جاء وقت الهرم وهو فقير وقير^(١)، ما له فتيل ولا نقير^(٢)، فيندم على التفريط، فلا يغنيه ندمه، ويروم التثبت وقد زلت به قدمه، فيكون الشباب حجة، والهرم عقوبة، والمنقلب حسرة، والمرجع ندامة، قال الشاعر:

يَوَدُّ الْفَقِي طُولَ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَصِيرُ الْفَقِي مِنْ بَعْدِ عَزْمٍ وَقُوَّةٍ يَنْوُو إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ

وهذا من الله سبحانه تزهيد لعباده في هذه الدنيا أن يصير الصحيح فيها إلى السقم، والشاب إلى الهرم، وليرغبوا في دار لا يسقم صحيحها، ولا يهرم شابها، يزيده تكرر العصور جِلَّةً ونضارة، وحسنًا وغضارة.

وقيل للمعاوية لما بلغ الستين أو جاوزها: كيف أصبحت؟ قال:

أَرَى اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي - طَوِينُ بَعْضِي - وَنَشَرْنَ بَعْضِي -

أَقْعَدَنِي مِنْ بَعْدِ طُولِ نَهْضِي

فلو لم يكن إلا هذا لكان أكبر زاجر؛ فكيف ومن بعده هول المطَّلَع، وروعات الفزع، والوقوف بين يدي الحكم العدل.

قوله عليه السلام: وَمِنْ فَرَاغِكَ لِسُغْلِكَ.

أصل الفراغ التعطل والخلو، يقال: إناء فارغ إذا كان خالياً، وقد قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ٩] قيل في معناه: خالياً من كل شيء إلا من ذكره، والذي عندي فيه أنه خالٍ من الصَّبْرِ على كتمان أمره من شدة الوجد عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كَذَّبَتْ لُتَيْدٌ بِهِ﴾ [القصص: ٩] والله أعلم.

(١) فقير وقير، إتياع له. ويقال: معناه أنه أوقره الدين، أي أثقله، (الصحيح ٢ / ٨٤٩).

(٢) القَطْمِير: القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَّوَاةِ، والْفَتِيل: مَا كَانَ فِي شِقِّ النَّوَاةِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ فَتِيلَةً، ... وَالنَّقِير: النُّكْتَةُ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، ... وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ تُضْرَبُ كُلُّهَا أَمْثَالاً لِلشَّيْءِ التَّافِهِ الْحَقِيرِ الْقَلِيلِ، هـ، (اللسان: ١١ / ٥١٤) وقد مر تفسيرها خلال الحديث الخامس عشر.

والشغل هو الامتلاء، يقال: إناء فارغ، وإناء مشغول، ثم نقل بعد ذلك إلى الناس، فمن خلا وجهه من الأشغال فهو فارغ، ومن تعلق بالتصرفات والأعمال فهو مشغول.

والمعنى في ذلك: أن دار الدنيا دار فراغ لمن شمر لأعمال الآخرة، ودار شغل لمن اشتغل بأعمالها البائرة، ودار الآخرة دار شغل لأهل الخير والشر، فأهل الجنة شغلهم اللذات، والتنقل في أنواع المسرات، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ [يس] وأهل النار مشغولون بأنواع النكال، وضروب الوبال، في سموم؛ ريح حارة، وحميم؛ ماء حار، وظل من محموم؛ دخان أسود، فأى فراغ فيه هؤلاء أو هؤلاء، وشتان بين الشغلين.

وهذه الدار دار الفراغ لطلاب الآخرة، فليغتنمها العاملون، وليس للمسلم فيها شغل عن عمل الآخرة؛ لأنه إن اشتغل بطلب شيء يعود على أولاده، ويسد فاقته، فهو من أعمال الآخرة، وله فيه أجر، وإن اشتغل بدفع ضرر عن نفسه، ونوى به الله كُتِبَ له أجره، وإن ترك الدنيا، وتجرد لأعمال الآخرة فلا تدري نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، فالبدار البدار، والحذار الحذار، قبل انقطاع الآجال، وهجوم الأشغال.

قوله عليه السلام: وَمِنْ حَيَاتِكَ لَوْ فَاتَكَ.

الحياة نقيض الموت، وقد تقدم معناها. **والوفاة** هي الموت، وهي مأخوذة من الوفاء الذي هو تسلم الحق بكماله. يقال أوفى فلان ما عليه إذا لم ينقص منه، فلما كان الموت يستوعب حُشَاشَةً^(١) النفس، فلا يُبْقِي منها شيئاً سُمِّيَ ذلك وفاةً.

والمعنى في ذلك: أن الحياة في هذه الدنيا هي مدة التكليف، ولا تكليف بعد الوفاة في الدنيا، فالواجب على العاقل أن يغتنم أيامها، ويكثر من العمل الصالح فيها، ولا يُفَرِّطَ في طلب الخير ما دام يجد إليه سبيلاً، فهذا يوم الاكتساب، وغداً يوم الحساب، وغداً كائن لا محالة، واليوم بائن لا محالة، فرحم الله امرأً بادر نفاذ الحياة، واستكثر من الأعمال الصالحات، وشمر ذيله للرحيل قبل أن يزعه الدليل إلى شرّ طويل.

(١) الحُشَاشَةُ بالشين معجمة: بَقِيَّةُ النَّفْسِ، تمت ضياء، هامش (أ).

قوله عليه السلام: فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا اسْمُكَ غَدًا.

الدِّرية والعلم والمعرفة معناها واحد. والاسم هو ما يتميز به المسمى عن غيره في الأغلب. وغداً هو يوم الحساب الذي يُفَرَّقُ فيه بين العباد، وجعله غداً ليومنا لأن الدنيا لانقضائها كأنها يوم واحد في التمثيل.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ نبه بالطف استعارة وأحسن عبارة على الاستعداد لليوم المشهود الذي يقوم فيه الأشهاد، ويُفَصَّلُ بين العباد، فلا تنقلب فيه الأسماء، ولا تنجلي فيه عن الظالمين الظلماء، من سُمي سعيداً فهو السعيد أبداً الأبدية، ومن سُمي شقيماً، فهو الشقي دهر الدهرين، لا يحول حاله، ولا يتغير مثاله، خيرٌ خالصٌ من كل شرٍّ للفائزين، وشرٌّ مُتَعَرِّجٌ من كل خيرٍ للعاجزين، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن عمل لغده، ولم يقطع بالخذلان عن أمده، والصلاة على محمد وآله.

الحديث الثاني والعشرون

عَنْ (١) ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسْبِهِ وَطَرَفٍ مِنْ شَرْحِ حَالِهِ، وَهُوَ نَسِيحٌ وَحْدَهُ، وَشَحَاكٌ (٢) ضَدَّهُ، كَمْ لَهُ مِنْ مَقَامٍ أَفْحَمَ فِيهِ الْقَائِلِينَ، وَمَوْقِفٍ شَفَى فِيهِ السَّائِلِينَ، وَبَعْدَ فَهْوِ ابْنِ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَنَاشِرِ عِلْمِهِ، وَالَّذِي اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى اخْتِلَافِهَا عَلَى حَبِهِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ أَوْ مَوَاعِظِهِ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا تَشْغَلَنَّكُمْ دُنْيَاكُمْ عَنْ آخِرَتِكُمْ، وَلَا تُؤْثِرُوا أَهْوَاءَكُمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَلَا تَجْعَلُوا إِيْمَانَكُمْ ذَرِيعَةً إِلَى مَعَاصِيكُمْ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَمَهِّدُوا لَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذِّبُوا، وَتَزَوَّدُوا لِلرَّحِيلِ قَبْلَ أَنْ تُزَعَّجُوا، فَإِنَّمَا هُوَ مَوْقِفٌ عَدْلٍ، وَاقْتِضَاءٌ حَقٌّ، وَسُؤَالٌ عَنْ وَاجِبٍ، وَلَقَدْ أَبْلَغَ فِي الْإِعْذَارِ مَنْ تَقَدَّمَ بِالْإِنْذَارِ)).

قد تقدم الكلام في معنى الخطبة والموعظة، والخطبة أعظم حالاً من الموعظة؛ لأنها في المقامات الكبار، والحفول العظام، وصاحبها ناصبٌ نفسه للسامعين على شيء عالٍ في أغلب الأحوال من منبر أو سرير، أو ناقة أو بعير.

والموعظة تكون للواحد والجماعة من أي مكان كان.

أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا تَشْغَلَنَّكُمْ دُنْيَاكُمْ عَنْ آخِرَتِكُمْ.

قد تقدم الكلام في معنى هذه الألفاظ لُغَةً، أعني الشغل والدنيا والآخرة.

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاطَبَ خُطَاباً عَامّاً نَافِعاً تَامّاً، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا تَشْغَلَنَّكُمْ

دُنْيَاكُمْ -وهي الدار التي أنتم فيها عابرون- عن آخِرَتِكُمْ التي أنتم إليها صائرون، وأضاف الدنيا

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو الحسن محمد بن علي الصلحي بواسط قال حدثنا محمد بن زكريا قال حدثنا العباس بن بكار قال حدثنا عيسى بن يزيد حدثنا صالح بن كيسان وموسى بن عقبة جميعاً عن كريب عن ابن عباس... الحديث.

(٢) شَحَاكُ الْجُدِّي، كَمَتَعٌ: جَعَلَ فِي فَمِهِ الشُّحَاكَ، ككِتَابٍ، وَهُوَ عُودٌ يُعْرَضُ فِي فَمِهِ يَمْنَعُهُ مِنَ الرِّضَاعِ، قَامُوسٌ، هَامِشٌ (أ). (انظر القاموس المحيط: ٩٤٤).

إلينا والآخرة وإن كان له الدنيا والآخرة؛ لكوننا في هذه ومصيرنا إلى تلك، وهذا أمرٌ ممن يجب اتباعه، والدنيا شغلها عتيد، وشرها شديد، فمن أخدمها نفسه استخدمته بغير أجر، ومن كفأها لوجهها، فقد أحكم أمره، إنها هو فَجْرٌ أو بَجْرٌ^(١)، ما يكون عذرنا اليوم لأنفسنا، وغداً بين يدي ربنا إذا نوقشنا في السؤال عن واجب الأعمال؛ فقلنا: شغلنا دنيانا، فقل لنا: أشغلكم ما يدوم لكم، وتدومون له؟ أم ما تنتقلون عنه ويتنقل عنكم؟ هلاً جعلتم اهتمامكم بدار آخرتكم التي هي دار قراركم، ومحط أوزاركم، فوافيتموها مستعدين، وبما قدمتم من أفعال الخير مستمدين.

قوله عليه السلام: وَلَا تُؤْثِرُوا أَهْوَاءَكُمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّكُمْ.

الإيثار: هو التقديم والاختصاص. **والأهواء** جمع هوى، والهوى هو الغرض الموافق للمحسوب، وسُمي هوى لخصته على القلوب، أخذ من الهواء الذي بين السماء والأرض لخصته، واستمداد الأرواح من صفوته، وفرقَ بينهما للتمييز بقصر هوى النفس، ومدَّ هواء الجو. **والطاعة** نقيض المعصية، وهو الانقياد للأمر. **والربُّ** هو المالك للتصرف.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام نهانا نهياً عاماً أن نؤثر هوانا على طاعة ربنا؛ لأن طاعة ربنا سبب نجاتنا وحياتنا في دار السلامة، والنعمة والخلود والرحمة؛ واتباع هوى أنفسنا الأثرة بالسوء هو سبب الخسار والدمار والخلود في النار، قال سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٢) **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**^(٣) [النازعات] فعقَّب نهي النفس عن هواها بوصول الجنة وسكنائها، فإيا حبذا ثراها، والكون في ذراها، بين قصور وحور، وكثبان من كافور، وعيون تفور، وحنائق تمور، ونور في نور، لا يتقلب الهمُّ في قلوب أربابها، ولا يحلُّ البؤس نفوس أصحابها.

(١) وفي الحديث: ((إِنَّمَا هُوَ الْفَجْرُ أَوِ الْبَجْرُ)) الْبَجْرُ، بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ: الدَّاهِيَةُ، أَيِ إِنِ انْتَهَرَتْ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ أَبْصَرَتِ الطَّرِيقَ، وَإِنْ خَبِطَتِ الظُّلُمَاءُ أَفْضَتْ بِكَ إِلَى الْمَكْرُوهِ، وَيُرْوَى الْبَجْرُ، بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ، يُرِيدُ غَمَرَاتِ الدُّنْيَا شَبَّهَتْ بِالْبَحْرِ، انْتَهَى، مِنْ بَعْضِ كُتُبِ لُغَةِ الْحَدِيثِ، وَنَحْوَهُ فِي نَهَايَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ، هَامِشٌ (أ).
(انظر النهاية: ٩٧/١).

قوله عليه السلام: وَلَا تَجْعَلُوا إِيْمَانَكُمْ ذَرِيْعَةً إِلَى مَعَاصِيكُمْ.

الإيمان في أصل اللغة هو التصديق، وهو مأخوذ من الأمن الذي هو نقيض الخوف، فالمصدّق قد سكنت نفسه من اختلال الكلام. **والذريعة** ما يُتوصّل به إلى نيل المراد، وأحسبها مأخوذة من الذراع الذي يتناول به الإنسان غَرَضَهُ. **والمعصية** نقيض الطاعة.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ نهى عن المهلكات، وأمر بالمنجيات، فجزاه الله خير الجزاء، وَخَصَّهُ وأهل بيته بالصلاة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَجْعَلُوا إِيْمَانَكُمْ ذَرِيْعَةً إِلَى مَعَاصِيكُمْ، يقول: لا تَوَصَّلُوا بالدين الذي هو الإيمان إلى معصية الملك المنان كما يفعله كثير من أهل زماننا هذا، فإنهم جعلوا دينهم سبباً لنيل دنياهم، ولم يجعلوا دنياهم طريقاً لآخرتهم، وفي مثلهم ما روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ: ((يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ، وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ الدِّينِ، أَلَسْتَهُمْ أَخْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذُّنَابِ)). وأقول صدق صلوات الله عليه وسلامه، فلقد رأينا هذه الصفة فيهم عياناً، وقتلناها عرفاناً^(١)، هذا على كسر الألف، وأحسب أنه السماع.

فأما مَنْ فتح الأيمان رجع بذلك إلى جَمْعِ يَمِينٍ، وهي الأليَّة والقَسَم، ولما كان الحالف في الغالب ييسط يمينه سميت الأليَّة يميناً باسم الجارحة، فمعناه على هذا: لا تحلفوا لتصلوا إلى معاصيكم بالفجور بربكم، فإنَّ ذلك من أقوى أسباب الهلاك، وأعظم مواقع^(٢) الارتباك.

قوله عليه السلام: وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا.

المحاسبة المفاعلة من الحساب، وهو المناقشة، والمقاصصة: إسقاط شيء بشيء، أو تعديل شيء بشيء، وأصله من الحُسْبِ والاحساب، وهو الكفاية والاكتفاء، حسبك أي كفاك، فلما كان مَنْ قاصص اكتفى في طلب حقه سُمِّي حساباً.

(١) قَتَلَ الشَّيْءُ خُبْرًا وَعِلْمًا: عَلِمَهُ عِلْمًا تَامًّا، (انظر تهذيب اللغة ٩ / ٦٣).

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: مواضع.

المعنى في ذلك: أن من حاسب نفسه قبل محاسبة ربه نجاة مع الناجين، وفاز مع الفائزين؛ لأنه إذا حاسب نفسه زاد في الحسنات، ونقص من السيئات، وأشعر نفسه خوف العدل، فأعدَّ جلاباب الإنصاف، فأوفى ما عليه لربه، وخلّص من عهدة ما لزمه لخالقه، فجاءه المحاسبون من عند باريه، وقد أتقن أمره، وشرح اليقين صدره، فنطق جرياً، فكان بالنجاة حرياً، وإن غفل عن محاسبة نفسه قبل يوم الحساب تقطعت به الأسباب، وعوجل بالعذاب، لأنه قام مقام العدل والفصل بغير أهبة، فنشبت فيه مخالب الحق لا محالة.

قوله عليه السلام: وَمَهَّدُوا لَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذَّبُوا.

التمهيد: أصله التوطئة، ومنه أخذ مهد المولود، والمهاد ما يفرش للنائم، ولا يُنام في الأغلب إلا على ما لآن وتوطأ، والهاء في (ها) عائدة على الأنفس. **والعذاب** هو الألم والاستخفاف، احترازاً من الامتحان والتأديب، وهو مأخوذ من العذبة وهي الحد، وكان أكثر ما يوصلون الألم به بضرب السيف، والسنان، والسوط، وما شاكل ذلك سُمي الفعل بآلته عذاباً.

المعنى: في هذا أنه عليه السلام أمر أن نمهد لأنفسنا قبل الاضطجاع لنكون قد عملنا فيها بالحزم والاصطناع، فلم نضع جنوبنا إلا على وثير، واحترزنا من كل صغير وكبير، فإن القليل على المهاد يؤذيك، واليسير يقذيك.

في الرواية أن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام وكان قدوة، روي أن مالك بن أنس سئل عن السدل^(١)، قال: فقال قد رأينا من يُعتمد على فعله يفعل؛ يعني عبد الله بن الحسن، وقيل: إنه عليه السلام جمع خصال الكمال، فكان إذا قيل: مَنْ أصبح الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. مَنْ أكرم الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. مَنْ أعبد الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. مَنْ أفضل الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. وكان كبار الناس وجُلَّتْهم لا يعدلون به من أهل بيته أحداً، وفقهاء الناس وعبادهم لا يعدلون بزيد بن علي من أهل بيت النبي أحداً...

(١) السَّدْلُ: التِّحَافُ الثَّوبِ وَإِرْخَاؤُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، تَمَتْ، هَامِش (أ).

قال: دخلت ذات يوم مع المخاطبين، وهو في سجن أبي جعفر قال الراوي: فدخلنا عليه، وعند رأسه بِدَادٌ، وعند رجله بِدَادٌ، وهو على مِسْحٍ^(١)، فقال: والله لقد كنتُ أنام في بيت هند بنت أبي عبيدة^(٢) - يعني امرأته - على حشِيَّةِ الريش، فتكون عليها القذاة فلا تنام عيني، فلأنا على هذه الحال أكثر نوماً، فإذا كانت القذاة على المهادر تُسَهِّرُ مَنْ هذه صفته في الصلاح، فكيف تنام عينٌ على كبائر الذنوب التي تكون جبراً كباراً، وشرراً وناراً، وكلايب حديد معكفة، وشفاراً مسمَّمة مصففة، تُمَشِّقُ بها أجسادهم مشقاً، وتُعْرِقُ بها لحومهم من عظامهم عرقاً^(٣)، فويل مَنْ وقع عليها جنبه، وسبق إليها سربه^(٤).

قوله عليه السلام: وَتَزَوَّدُوا لِلرَّحِيلِ قَبْلَ أَنْ تُزْعَجُوا.

قد تقدم تفسير الزاد، وهو ما يأخذه المسافر في طريقه. الرحيل هو المسير، وكان في الأصل لا يسافر الإنسان حتى يُرِحِلَ متاعه ونفسه في الأغلب على الراحلة، فلما كثر استعماله أفاد الانتقال من مكان إلى مكان، وإن عَدِمَ الزاد والراحلة، قال الشاعر:

وَقَدْ يُرَزِّقُ الرِّزْقَ الْمُقِيمُ بِأَهْلِهِ وَلَمْ يَرْتَحِلْ رَحِلاً وَلَا شَدَّ أُنْسَعَا
وَيُحَرِّمُهُ مَنْ لَا تَزَالُ رِكَابُهُ عَلَى عَجَلٍ يَهْوِينَ فِي الْيَدِ ضُلْعَا
وقال الشَّمرْدَلُ بْنُ شَرِيكِ الثَّعْلَبِيِّ^(٥):

- (١) البِدَادَان: لِيَدَانِ يُشَدَّانِ عَلَى الدَّائِيَةِ يَقِيَانِ مِنَ الْقَتَبِ وَالسَّرَجِ، تمت ضياء، هامش (أ). قال في لسان العرب (٣/٣٨٦): الْبِدَادُ هُوَ كُلُّ شَعْرٍ أَوْ صُوفٍ مُتَبَدِّ بِغُضِّهِ عَلَى بَعْضٍ، هـ.
- وَالْمِسْحُ: الْكِسَاءُ مِنَ الشَّعْرِ، (انظر لسان العرب ٢/٥٩٦).
- (٢) هي: هِنْدُ بِنْتُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وهي أُمُّ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الإمام محمد بن عبدالله وَأُمُّ إِخْوَتِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَزَيْنَبَ وَقَاطِمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، (ذكر نسبها الإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام في شرح الحديث الأربعين).
- (٣) عَرَفْتُ الْعَظْمَ وَتَعَرَّفْتُهُ إِذَا أَخَذْتَ اللَّحْمَ عَنْهُ بِأَسْنَانِكَ مَهْشَأً، (لسان العرب ١٠/٢٤٤) وقد مر.
- (٤) السَّرَبُ: هُنَا بِمَعْنَى النَّفْسِ، وقد مرت في شرح الإمام للحديث السابع عشر.
- (٥) الثعالبى اليربوعى (٠٠٠ - نحو ٨٠ هـ) الشمردل بن شريك بن عبد الملك، من بني ثعلبة بن يربوع، من تميم، ويقال له: (ابن الخريطة): شاعر هجاء، يجيد القصيد والرجز، وهو صاحب الأبيات التي أولها:
يا أيها المبتغي شتمي، لأشتمه
إن كنت أعمى فلاني عنك غير عم
والشعراء المعروفون باسم (الشمردل) خمسة، هذا أشهرهم، (انظر الأعلام للزركلي ٣/١٧٦).

رَحَلَ الْخَلِيطُ فَأَذْجُوا بِسَوَادٍ وَأَجَدَّ يَبْنَهُمْ عَلَى مِيعَادٍ

والإزعاج هو الإخراج بكره وشدة، لا يكون إلا كذلك، وأصل الزَّعْجَ الجذب الشديد.
المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرنا أن نتزود للرحيل قبل أن نخرج من الدنيا كَرْهًا، ولا بد من الخروج، ونعوذ بالله من أن نخرج كارهين، وأن نسكن إلى الدنيا سكون الفارحين، وإنما الزاد لسفر الآخرة هو التقوى الخالصة من الشوائب، المقصود بها الله سبحانه من كل جانب، فإنَّ كُلَّ زَادٍ سِوَاهَا لَا يَسُدُّ حَلَّةَ^(١)، وَلَا يَشْفِي غُلَّةَ^(٢)، وقد قال الحكيم سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٦] فأمر بالتزود ودَلَّ على الزاد ما هو، فإذا كان وقت الانزعاج، وقد ملأنا مزادنا زادًا؛ وجمعنا لسفرنا عتادًا؛ لم نكثرث بالإنزعاج، وقلنا وجهك أيها المزعج وما شئت من الفجاج، وقد تأهبنا للتأويب والإدلاج^(٣)، فخرجنا محبورين، وانقلبنا إلى أهلنا في الآخرة مسرورين، فيا لها مِنَّةً ما أجَّلَهَا، ونعمة ما أظْلَمَهَا.

وإن غفلنا عن التزوُّد للرحيل؛ وأتانا المزعج والدليل؛ ضاقت علينا الأرض برحبها، وبَعَدَ المجتاز من قربها، وسألنا الإمهال فلا إمهال، فنعوذ بالله أن نكون من أولئك، فنخرج بغير عُدَّة، فينهكنا القَوَاءُ والشدة، والخواء والوقْدة^(٤)، وما بعد ذلك أدهى وأمر.

قوله عليه السلام: فَإِنَّمَا هُوَ مَوْقِفٌ عَدْلٍ، وَاقْتِصَاءٌ حَقٍّ، وَسُؤَالٌ عَنِ وَاجِبٍ.

الموقف: هو الذي يقف فيه الناس، والوقوف هو السكون، فلما كان مَنْ وَصَلَهُ سَكَنٌ من حركة السير سُمي موقفًا. **والعدل:** هو إيفاء الحق واستيفاءه. **والسؤال** نقيض الجواب. **والواجب** الواقع اللازم.

(١) الْحَلَّةُ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ وَالْخِصَاصَةُ.. وَالْحَلَّةُ أَيْضًا: الْخِصْلَةُ، وَالْجَمْعُ: خِلَالٌ. (القاموس: ٩٤٤).

(٢) الْغُلَّةُ: هِيَ شِدَّةُ الْعَطَشِ. (القاموس المحيط: ١٠٣٩).

(٣) التَّأْوِيبُ: السَّيْرُ جَمِيعَ النَّهَارِ، أَذْلَجَ: إِذَا سَارَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَأَذْلَجَ إِذَا سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَفِي الْحَدِيثِ: ((مَنْ خَافَ النَّبِيَّاتِ أَذْلَجَ)) تمت، ضياء، هامش (أ). انظر كلام الإمام عليه السلام في شرح الحديث السابع عن الإدلاج. (وانظر القاموس المحيط: ٦٠).

(٤) الْقَوَاءُ: هِيَ الْأَرْضُ الْفَقْرُ الْخَالِيَةُ. وَالْخَوَاءُ: خَلَاءُ الْبَطْنِ، أَيِ الْجُوعِ. وَالْوَقْدَةُ: أَشَدُّ الْحَرِّ، قَامُوسٌ.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يبين أن الموقف الذي يُنتهى إليه موقف عدل، لا جور فيه ولا ظلم، فلنحفظ نفوسنا عن تبعات الحياة، وأعمال البغاة، واستحقاق الذنوب، واستظهار الخوب، وليكن الحق الذي علينا لرَبنا ناجزًا؛ إن سئَلنا عنه أبرزناه، وإن طُوبنا به أنجزناه، فلا يجد إلينا العدل سبحانه - والحال هذه - طريقًا، ونقضي ما علينا له من الحق على أوفاه؛ لنفوز برضاه، ونردَّ الجواب عن السؤال عن الواجب بأننا قد أوفينا، فننجز مع النِّجاة.

وقوله عليه السلام: وَلَقَدْ أَبْلَغَ فِي الإِعْذَارِ مَنْ تَقَدَّمَ بِالْإِنْذَارِ.

أبلغ وبأبلغ إذا انتهى إلى الغاية، وأصل البلاغ الانتهاء والوصول. **والإعذار** ما يصير به الإنسان معذورًا، وهو استفراغ الجهد والنصيحة، يقال: أعذر إليه إذا نصحه، وعذر إذا أوهم النصيحة من غير حقيقة. **والتقدم** هو السبق. **والإنذار** الإشعار بهجوم الخوف والمخوف، فلا يقف له إلا من نبذ الإنذار، ووطَّن نفسه على ترك الفرار.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يبين أن الحجة قد انتهت وجوبها بإيصال الإنذار إلينا، والفريضة قد سقطت منه ووجبت علينا، وأنه قد أعذر إلينا بتبيين الدلالة، ونفى بتقديم الإنذار ظن الجهالة، فصار المأخوذ منا غير مغرور، والمعاقب غير معذور، وقد أمرنا النصيح العارف المشفق بتحصيل الزاد فما ائتمرنا، وزجرنا عن الاعتراض والغفلة فما ازدجرنا، وحذرننا موقعة المخوف فما حذرنا، وتقدم بالإنذار فما نذرنا، فهل بقيت عليه لنا حجة تُدلي بها، أو علة نعتمد عليها، هَلْكَ الهالكون عن نيَّته، وأوقظ النائمون عن النوم والسَّنة، فنسأل الله تعالى توفيقًا يأخذ قلوبنا بأزماتها إلى ما يريد، ويُقرَّب لنا من طاعته كل بعيد، ويُهَوِّن كل شديد، والصلاة على محمد وآله.

الحديث الثالث والعشرون

عَنْ^(١) أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ وَشَرَحَ طَرَفٍ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ أُحُدٍ وَالنَّاسُ مُحْدِقُونَ بِهِ، وَقَدْ أُسْنِدَ إِلَيَّ طَلْحَةَ، وَهُوَ: طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ مَرْثَةَ بْنِ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبٍ. أُحُدٌ: أَشْهُرُ لَقَبَةٍ كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَفِيهِ وَقَعَ التَّمَحِيصُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، وَقُتِلَ فِيهِ الْأَخْيَارُ وَالْأَفَاضِلُ، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَا نَقِفُ مَعَهُمْ مَوْقِفًا أُغِيزَ لَنَا مِنْ هَذَا)) فَكَانَ كَمَا قَالَ.

وفيه قُتِلَتْ بنو عبد الدار على لواء قريش، وهم حَمَلَتُهُ في الجاهلية، ولم يكن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منهم إِلَّا مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي اللِّوَاءَ مُصْعَبًا فِي كُلِّ مَوْقِفٍ إِلَى أَنْ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ صَاحِبَهُ فِي كُلِّ زَحْفٍ، وَهُوَ حَامِلُهُ فِي الْآخِرَةِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

والإحداق به هو الإحاطة، وهو مأخوذٌ من حَدَقَ العَيْنَ لِإِحَاطَتِهَا، وَإِنَّمَا طَلْحَةُ هَاهُنَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَبْلَى يَوْمَ أُحُدٍ بِلَاءً عَظِيمًا، وَقَطَعَتْ أُصْبَعُهُ، فَفِي الْحَدِيثِ سَبْقَتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: ((لَوْلَا أَنْ طَلْحَةَ قَالَ: حَسَّ؛ لَرُفِعَ كَمَا رُفِعَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ)) وَفِي أُخْرَى: ((لَطَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ))، وَعَلِيٍّ وَسِمَاكَ فِي آخِرِينَ^(٢)، وَكَانَ الشَّجَاعُ مِنْ وَقَفَ إِزَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حَبِيشٍ النَّاقِدُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ قَالَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ مَرْدَانِيَةَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي نَعِيمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ... الْحَدِيثُ.

(٢) أَيُّ مَنْ ثَبَتَ وَأَبْلَى يَوْمَ أُحُدٍ.. أَبُو دُجَانَةَ وَاسْمُهُ: سِمَاكَ بْنُ خَرَّشَةَ الْأَنْصَارِيُّ السَّاعِدِيُّ، وَيُقَالُ: سِمَاكَ بْنُ أَوْسٍ بْنِ خَرَّشَةَ، شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَبْطَالِ، دَافِعٌ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ فَكَثُرَتْ فِيهِ الْجَرَاحَةُ، وَشَارَكَ فِي قَتْلِ مَسِيلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَقُتِلَ يَوْمَ الْبَيْمَةِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ عَاشَ حَتَّى شَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِفِّينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، (انْظُرِ الْإِسْتِيعَابَ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ٢/ ٦٥٢).

اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ السَّابِقُ فِي كُلِّ مَقَامٍ، وَالصَّابِرُ فِي كُلِّ زَحَامٍ، وَأَصِيبُ يَوْمٍ أُحُدٍ بَسْتُ عَشْرَةَ ضَرْبَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَوْصِلُهُ الْأَرْضَ، وَمَا حَالٌ وَلَا تَحْلُلُ حَتَّى عَجِبَ لَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ فَوْقَ مَا عَجِبَ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَسُمِعَ الْهَاتِفُ:

لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَا رٍ وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ

وقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((يَا مُحَمَّدُ؛ هَذِهِ وَاللهِ الْمَوَاسَاةُ)) فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((وَمَنْ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُ! وَلَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي، وَدَمُهُ مِنْ دَمِي، فَهُوَ أَخِي، وَابْنُ عَمِّي)) وليس كشف الأخبار من غرضنا، وإنما تُعْرَضُ الْكَلِمَةُ فنذكر ما نرجو إن شاء الله أن تتعلق به الفائدة، وكان عِدَّةُ الْمُسْلِمِينَ يومئذ سبعمائة، وعدة المشركين ثلاثة آلاف، فيهم مائتا فرس، ولولا مخالفة المسلمين لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ في إخراجهم بموضعهم الذي تركهم فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ طلباً للغنائم والدنيا، كما قال الله تعالى حاكياً عنهم: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] لكانت اليدُ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ عليهم والدَّبْرَةُ على المشركين:

((أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَقْبِلُوا عَلَى مَا كُفِّتُمُوهُ مِنْ إِصْلَاحِ آخِرَتِكُمْ، وَأَعْرِضُوا عَمَّا ضَمِنَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ، وَلَا تَسْتَعْمِلُوا جَوَارِحَ غُدَّتِ بِنِعْمَتِهِ فِي التَّعَرُّضِ لِسَخَطِهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَاجْعَلُوا شُغْلَكُمْ بِالْتَّمَاسِ مَغْفِرَتِهِ، وَاصْرِفُوا هِمَمَكُمْ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، إِنَّهُ مَنْ بَدَأَ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الدُّنْيَا فَاتَهُ نَصِيْبُهُ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَدْرِكْ مِنْهَا مَا يُرِيدُ، وَمَنْ بَدَأَ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الْآخِرَةِ وَصَلَ إِلَيْهِ نَصِيْبُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَدْرَكَ مِنَ الْآخِرَةِ مَا يُرِيدُ)).

الإقبال نقيض الإدبار والإعراض. **والتكليف**: هو تعريف العاقل وجوب بعض الأفعال عليه، وقبح بعضها منه، مع مشقَّةٍ تلحقه في الفعل والترك. **والإصلاح** نقيض الإفساد. **والآخرة** قد تقدم تفسير لفظها. **والضمان** والكفالة والزعامة معناها واحد، وهي إلزام النفس للغير أمراً من الأمور.

ويروى أن الذين ثبتوا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ يوم أُحُدٍ هم: علي وطلحة والزبير وأبو دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت، وروي أنه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، (انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢١/١٥).

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام لَمَّا انصرف من ذلك المقام الهائل؛ يَبَيِّنُ للمسلمين أنَّ الواجب الاهتمام بأمر الآخرة دون أمر الدنيا، وأنَّ أمر الدنيا حقير، خيرها وشرها، ونفعها وضرها، أعظم مشقة فيها الموت، فهو ألم ساعة، والفقر فهو حاجة مخصوصة إلى أمر دون أمر؛ لأن الفقر العام نعوذ بالله منه هو فقر الآخرة، إذ هو فقرٌ إلى كل شيء، فأما فقر الدنيا فمعه الجوارح التي قيمتها أجلُّ من الدنيا وما فيها، والعافية التي لا يساويها شيء، والماء الذي هو أعذب مشروب، جعل الله الخلق فيه شرعاً واحداً، والهواء الذي هو مادة الأرواح لا يمنع من أحد، والظل البارد والنوم، وفي خلال ذلك لا ينقطع من رحمة الله، فالواجب - والحال هذه - الإقبال، والاشتغال بما كُلفنا أن نفعله أو نتركه من أمر الآخرة الذي بالإقبال عليه يفوز الفائزون فوزاً عظيماً، ويصلي المعرضون عنه عذاباً أليماً.

فأما أمر الدنيا فقد ضَمِنَ لنا بما علم الله سبحانه أن مصلحتنا متعلقة به، إذ هو سبحانه العالم لذاته، فمن علم أن مصلحته في الغنى أغناه، ومن علمها في الفقر أفقره، ومن علمها في الصحة أصحَّه، ومن علمها في السقم أسقمه، فأمرُ دنيانا إذا ضمن لنا به؛ ما مُوجِبُ الاشتغال به؟! وأمرُ آخرانا إذا كُلفناه؛ ما وجه الإعراض عنه؟! فإن أعرضنا عما كُلفناه من أمر الآخرة، وأقبلنا على ما ضمن لنا من أمر الدنيا كُنَّا قد عملنا بعكس الواجب علينا، وإن أقبلنا على ما كُلفناه من أمر الآخرة وأعرضنا عما ضمن لنا من أمر الدنيا كنا قد أدينا ما لله سبحانه من الفرض عندنا.

قوله عليه السلام: وَلَا تَسْتَعْمِلُوا جَوَارِحَ غُدِّيَّتْ بِنِعْمَتِهِ فِي التَّعَرُّضِ لِسَخَطِهِ بِمَعْصِيَتِهِ.

الاستعمال نقيض الإهمال. والجوارح هي الأدوات، وأصل الجرح الكسب، فلما كانت هذه الأطراف تكسب لنا الخير والشر سُميت جوارح، ومنه جوارح الطير أي كواسبه. والغذاء هو المادة والمتاع. **والنعمة** هي المنفعة الحسنة التي قَصَدَ بها صاحبها وجهه^(١) الإحسان إلى الغير. **والتعرض** هو التسبُّب للأمر بوجهٍ من الوجوه، وهو دون الاعتراض، كأن هذا في جنب، وكأن ذلك في وجه الأمر. **والسخط** نقيض الرضى، وأصله الغضب. **والمعصية** نقيض الطاعة.

(١) لفظة: (وجه) زيادة من نسخة.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام نهانا عن استعمال هذه الآلات التي هي الأيدي، والأرجل، والأساع، والأبصار، والقلوب، والجلود في شيء مما يُسَخِّطُ ربنا، أي يُغضب خالقنا، فإنها من خلقه، غُذِّيت بنعمته، معناه أُمِدَّتْ وأُثْمِيَتْ بنعمته، برزقه وإحسانه، وهل يكون -رحمك الله- أقلَّ حياءً من رجل أعطاه بعضُ الناس آلة يُصلح بها زرعها، ويعود بنفعها على نفسه وولده، فعَمَدَ ذلك الرجل إلى تلك الآلة، فنقب بها دار المعطي ليسرق متاعه، أو يهلك شيئاً من بهائمها؛ فإنَّ هذا يتناهى في القبح عند العقلاء، فإنَّ الآلة لو كانت من غيره وكان الفعل قبيحاً فهو أهون، فتفكر أيها العاقل في أمرك، وانظر إلى هذه الجوارح التي هي من ربك، وغذيت بنعمة خالقك، ما عذرَكَ إن استعملتها في معصيته عند لقائه؟! وبأي وجه تلقاه؟! ما أجراك على ما يجرّ عليك الوبال! وأضرَّك^(١) بما يضرُّك عند السؤال!

قوله عليه السلام: واجعلوا شغلكم بالتماس مغفرته.

جعل، وطَفَّقَ، وصار معناها متقارب، وهي تصوير الفعل على وجهٍ مرادٍ، وقد تقدم معنى الشغل. **والالتماس طلب الشيء، وأصله اللّمس،** لَمَّا كان الإنسان يطلب الشيء بيده لمساً عند الاستقصاء. **والمغفرة: مَفْعَلَةٌ من الغُفْرِ والتغفير، وهو التغطية،** وَلَمَّا كان رضاه يُعْطِي ذنوب العبد سُمِّي غُفْراناً وَغُفْراً وَمَغْفِرَةً، ومنه أخذ المَغْفَرُ لتغطيته الرأس.

المعنى: أنه عليه السلام أمرنا أن نجعل شغلنا مدة بقائنا في دار الدنيا بالتماس مغفرته، ولا يكبر ذلك في أمرها؛ إذ بها النجاة التامة، والسلامة الكاملة، والفوز الأكبر، فحقَّ لنا أن نلتمسها بذهاب أموالنا جملة، وأولادنا كافة، وجوارحنا الثمينة، ونفوسنا المكيّنة^(٢)، وأن نركب حد السيوف، ونخوض بحار الختوف، ونظمي الهواجر^(٣)، ونصل العشايا بالبواكر، نموت في حقه لنحيا، ونظماً لنروى، ونجوع لنشبع، ونألم لنسلم، ونخسر لنغنم، وهل خسارة منقطعة يُعْتَدُّ بها في جنب حصول ربح دائم، ومثلِك سالم؟! وأيُّ مشقة في ألم ساعة يوجب نعيم الأبد؟!

(١) مِنَ الصَّرَاوَةِ، صَرِي بِهِ صَرَاوَةٌ وَصَرِيّاً وَصَرَاءَةً: هَجَعَ، (انظر القاموس المحيط: ١٣٠٥).

(٢) الْمَكِينَةُ: أي التي لها مكانةٌ وَقَدْرٌ وَمَنْزِلَةٌ، ا.هـ.

(٣) الْهُوَاجِرُ جَمْعُ هَاجِرَةٍ، وهي نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ مع الظُّهْرِ، ا.هـ، قاموس. وَنُظْمِي الْهُوَاجِرَ: أي تُعَرِّضُهَا لِلظَّمَا، وهو كناية عن الصوم.

قوله عليه السلام: **وَاصْرِفُوا هِمَمَكُمْ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ.**

الصرف: هو تحريف الشيء عن سَنَنِهِ الذي كان متوجهاً إليه، هذا أصله. **والهمم** جمع هَمَّةٍ، والهَمَّةُ هي العزيمة على فعل أمر يصعب فعله، ولا تُثَبِّتُ حقيقة عاقبته. **والتقرب** هو طلب القُرب بأنواع ما يُجَبِّبُ عند المُتَقَرَّبِ إليه، وقد تقدم الكلام في معنى الطاعة.

المعنى: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مُعَلِّمُ الخير، وطبيب الدين أمرنا بصرف هممنا إلى التقرب إلى الله سبحانه، وهو التحبُّبُ إليه بطاعته؛ لأنَّ العبد ما تحبَّبَ إلى مولاه بمثل امتثال مراده في فعل ما أمره به، وترك ما نهاه عنه.

قوله عليه السلام: إِنَّهُ مَنْ بَدَأَ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الدُّنْيَا فَاتَهُ نَصِيْبُهُ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَذْرِكْ مِنْهَا مَا يُرِيدُ، وَمَنْ بَدَأَ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الْآخِرَةِ وَصَلَ إِلَيْهِ نَصِيْبُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَذْرَكَ مِنَ الْآخِرَةِ مَا يُرِيدُ.

بدأ نقيض أعاد، وهو أصل ثنَّى. **والنصيب**، والحظ، والحق، والحِصَّةُ، والسُّهُمَةُ معناها واحد، وهو ما يحصل للإنسان عن قِسْمَةٍ أو ما يجري مجراها. ومعنى لفظ الدنيا قد تقدم.

فاتته: سَبَقَهُ وضاع عليه، أصلُ القَوْتِ السَّبْقُ. **والإدراك** هو اللَّحَاقُ هاهنا. **ويريد** نقيض يكره.

المعنى ذلِكَ: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبرنا وهو الصادق في خبره أن المشتغل بطلب نصيبه من الدنيا مُقَوِّتٌ على نفسه نصيبه في الآخرة؛ لأنَّ ما به عبدٌ إلَّا وله في الدنيا نصيب مضمون، وفي الآخرة نصيبٌ مشروط، فمن اشتغل بتحصيل المضمون كان عابثاً عند العقلاء؛ لأنه اشتغل بتحصيل ما هو في حكم الحاصل، وأوصل ما هو بغير عناية وأصل، فلم يشتغل -والحال هذه- بباطل.

ولأنَّ مَنْ بَدَأَ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الدُّنْيَا لم يصل إليه إن كان من الموحدين ولا في الآخرة إن كان من الملحدين؛ لأنَّ العاقل إن كان من المصدقين بالآخرة فإنه يريد المغفرة، ودخول الجنة مع المعاصي، وذلك لا يصح، وإن كان ملحداً فعند انكشاف الغطاء يريد المصير إلى الخير الدائم، وينفر عن الشر الملازم، فلا يدرك -والحال هذه- مراده.

ومن بدأ بنصيبه من الآخرة -معناه: بطلب نصيبه في الآخرة، وطلبه لا يكون إلا بفعل الواجبات، وترك المقبحات- وصل إليه نصيبه من الدنيا؛ إذ هو مضمونٌ له عند الحكيم سبحانه لإبلاغ الحجة على العباد، وإزاحة علل أهل العناد، وأدرك من الآخرة ما يريد من الثواب المؤبد، والنعيم المردّد، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن بدأ بنصيبه من الآخرة ففاز بقُدْحِ القامرين، وبقي له لسانٌ صدق في الآخرين، والصلاة على محمد وآله.

الحديث الرابع والعشرون

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ، وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ، فَإِنَّهَا تَسِمُ الْقَلْبَ بِالْقَسْوَةِ، وَتُبْطِئُ بِالْجَوَارِحِ عَنِ الطَّاعَةِ، وَتُصِمُّ الْهِمَمَ عَنْ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَفُضُولَ النَّظَرِ فَإِنَّهُ يَبْذُرُ الْهَوَى، وَيُولِدُ الْعَقْلَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَاسْتِشْعَارَ الطَّمَعِ فَإِنَّهُ يُشْرِبُ الْقَلْبَ شِدَّةَ الْحِرْصِ، وَيَخْتِمُ عَلَى الْقُلُوبِ بِطَايِعِ حُبِّ الدُّنْيَا، وَهُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ سَيِّئَةٍ، وَسَبَبُ إِحْبَاطِ كُلِّ حَسَنَةٍ)).

الْفُضُولُ: هي الزوائد، وُسِّمَتْ دَرْعُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ ذاتَ الْفُضُولِ لأنها كانت واسعةً جُهِدَهَا. **المطعم:** ما يتطعمه الإنسان، وهو المأكول والمشروب. **والوسم:** أصله علامةٌ بالْمِيسَمِ، تُجْعَلُ فِي الْأَنْعَامِ تُمَيِّزُ بِهَا الْأَمْلاكِ. **والقلب** معروف، وهو محلُّ الْعَقْلِ وَمَنْبِعُ الرُّوحِ. **والقسوة:** هي الصلابة والشدة. **والإبطاء** نقيض الإسراع. **والجوارح** هي الآلات، وقد تقدم الكلام في معناها^(٢). **والطاعة** نقيض المعصية. **والصَّمَمُ:** آفة تمنع آلة السمع من الإدراك، وأصله الختم والصلابة، يقال حجر أصم، أي صليب. **والهَمَمُ:** جمع هَمَّةٍ، وهذا اللفظ استعارة؛ إذ أهمم بما لا يَسْمَعُ فيقال صَمٌّ. **والسماع** إدراك المسموع، وقد يُجعل المسموعُ نفسه للمبالغة، قال الشاعر:

وَسَمَاعٌ يَأْذُنُ الشَّيْخَ لَهُ هَزَجٌ يَكْسِرُ غُضْرُوفَ الْأَذُنِ^(٣)

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري قال حدثنا نصر بن عبد الملك قال حدثني زيد بن يحيى الهروي قال حدثنا عمرو بن جرير البجلي قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) تقدمت خلال شرح الحديث الثالث والعشرين عند شرح قوله: ((وَلَا تَسْعَمُوا جَوَارِحَ غُذِيَّتِ.. الخ)).

(٣) قال في هامش الأصل: السَّمَاعُ: الْغِنَاءُ، وَمَعْنَى يَأْذُنُ: يُضْغِي لَهُ أُذُنَيْهِ، وَذَكَرَ الشَّيْخُ لِأَنَّ الشَّيْخَ قَلِيلُ الرَّغْبَةِ لِسَمَاعِ الْغِنَاءِ، وَاهْتَزَجَ شَدِيدُ الصَّوْتِ، وَيُقَالُ: أُذُنٌ، وَأُذُنٌ، تَمَتْ.

والبيت لعدي بن زيد العبادي، ورد في الصحاح واللسان وفي مقاييس اللغة وغيرها، بلفظ:

وَسَمَاعٌ يَأْذُنُ الشَّيْخَ لَهُ وَحَدِيثٌ مِثْلُ مَاذِي مُسَارٍ

وَالْمَاذِي: الْعَسَلُ الْأَيْضُ، وَالْمُسَارُ: مَنْ أَشْرَتْ الْعَسَلُ إِذَا جَنَّتْهُ. (انظر لسان العرب ٤/ ٤٣٤).

والموعظة قد تقدم الكلام فيها.

المعنى في ذلك: أنه عليه السَّلامُ نهى بلفظ الإغراء عن فُضُولِ الطعام وهو كثرة المأكَل والمشرب، وأخبر -وهو لا يُتَّهم في خبره- أنها تَسِمُ القلبَ بالقسوة، وذلك معروف بالمشاهدة، وأكثرُ الناس أكلًا أكثرهم نومًا وغفلة، وما خير من قَسَا قَلْبُهُ في دنياه وآخرته، ألا ترى أنه ينسى المعاد وهَوْلَهُ، والقبر وضيقه، والسؤال وشدته، والحساب ودقائقه، والعذاب ووحشته، فلا يُعِدُّ لشيء من ذلك أُهْبَتَهُ، فيفجأه الأمر منتشر الحال، فيؤول شرَّ مآل، وأما بَطْوَها بالجوارح عن الطاعة؛ فمما لا شك فيه، وعلى كل حالِ البِطْنَةُ مذمومة عند العقلاء من الجاهلية، ولقد كانوا يمدحون بالجوع، ويذمون بالشبع، قال الخطيبُ في الزُّبْرَقَانِ بنِ بَدْرٍ^(١):

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَنْهَضُ لِغَيْتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وقال أعشى باهلة يمدح المنتشر القيسي^(٢)، وقتل فقال:
مُهْفَهْفٌ^(٣) أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ عَنْهُ الْقَمِيصُ، لَسِيرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرٌ
لَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا يَعَضُّ عَلَى شُرُوفِهِ الصَّفَرُ^(٤)
يقول ضامر البطن لا ينام من الجوع، وقال بعضهم يفتخر بصبره:

(١) الزُّبْرَقَانُ بن بدر بن امرئ القيس التميمي، اسمه الحُصَيْن، والزبرقان لقب له، وقد على رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في قومه وأسلم سنة تسع، فولاه رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم صدقات قومه، توفي نحو سنة ٤٥ هـ.

(٢) قال في هامش الأصل: سمي المنتشر لأنه قال في آخر القصيدة:

فَإِنْ سَلَكَتَ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا فَادْهَبْ، فَلَا يُبْعِدُكَ اللَّهُ مُشِيرُ

أي: يا منتشر، تمت من الجوهره، انتهى. قلنا: وأعشى باهلة مرَّ ذكره في شرح الحديث التاسع، والبيتان هما من مرثيته في المنتشر التي سبق ذكر مطلعها هناك. والمنتشر بن وهب الباهلي، من همدان: فارس ياني، من الرؤساء في الجاهلية. كَانَ يَسْبِقُ الْفَرَسَ شَدًّا. وكان بنو الحارث يسمونه (مُجْدَعًا) وهو أخو أعشى باهلة لأمه... وأورد البغدادي خبر مقتله مع شرح هذه القصيدة (انظر الأعلام للزركلي ٧/ ٢٩٠) (خزانة الأدب للبغدادي ١/ ١٨٨).

(٣) الْمُهْفَهْفَةُ: المرأة الحَمِيصَةُ البَطْنِ، والكَشْحُ: الحُصْرُ، والخصر وَسَطُ الإنسان، تمت ضياء، هامش (أ).

(٤) الْأَيْنُ: الإعياء، الشَّرَاسِفُ: أطرافُ الضُّلُوعِ، والصَّفَرُ: قيل دَوِيَّةٌ في البطن تثور عند الجوع، وبعض هذا قول العرب، تمت منقولة مما نقل من خطه عليه السلام، (هامش نسخة وهامش الأصل) وَالْوَصَبُ: المَرَضُ، وعجز البيت الشعري الثاني هو عجز بيت آخر في نفس القصيدة، ذكر ذلك في هامش الأصل.

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَارَ الْمَاءِ، وَالْمَاءُ بَارِدٌ
فَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَلَا كَلَامَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾
[الحشر: ٩] معناه جوع وضيق حال، وقال: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ
مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان] نزلت في علي عليه السلام وأهل بيته،
ولولا جوعهم ما كان الطعام عندهم محبوباً، وفي الحديث أن علياً عليه السلام كان يفطر في شهر
رمضان - زاده الله شرفاً - الذي استشهد فيه ليلة عند الحسن بن علي، وليلة عند الحسين بن علي
عليهما السلام، وليلة عند عبد الله بن جعفر، وليلة عند عبد الله بن عباس، فلا يزيد على ثلاث
لقم، فقيل له في ذلك، فقال عليه السلام: (أَحَبُّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ حَمِيصاً).
وعن بعض الصالحين: والله إني لأكل الأكلة، فأود أنها في بطني آجزة، ولو شرحنا الأشهر من
ذلك لطال الشرح، وخرجنا إلى الإسهاب.

فَأَمَّا صَمَمُ الْهَمَمِ عَنْ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ فَأَيُّ بَلِيَّةٍ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلِهَذَا حَكَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنِ
الْمُسْتَكْبِرِينَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء] وهل يَرُدُّ الْعِبَادَ
إِلَى طَرِيقِ الرِّشَادِ إِلَّا الْمَوَاعِظُ النَّافِعَةُ، وَالذِّكْرُ الْوَاقِعَةُ! فكم لها من نعيشٍ بعد كمال العثرة، ومُعَاثٍ
عند انقطاع النُّصْرَةِ، وَلَا أَحْسَنَ وَلَا أَشْفَى مِنْ مَوَاعِظِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتأملها ترى العجيب.

[الفضيل بن عياض وقصة توبته]

فِي الرِّوَايَةِ أَنَّ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خَارِباً^(١) قَاطِعاً لِلْسَّبِيلِ، فَبَيْنَا هُوَ عَلَى
تِلْكَ الْحَالِ فِي مَفَازَةِ مُرْصِدٍ لِمَارَّةِ الطَّرِيقِ؛ إِذْ هُوَ بِقَوْمٍ مُجْتَازِينَ يَحْضُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى النِّجَا،
وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَفْجَأُكُمْ الْفُضَيْلُ، فَوُفِّقَ لِرَشْدِهِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَنَا مَخْلُوقٌ؛ وَيَخَافُنِي الْخَلْقُ هَذَا
الْخَوْفُ الْعَظِيمُ، وَلَا أَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى! فَبَدَأَ لَهُمْ^(٢)، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: عَلَى
رِسْلِكُمْ^(٣) هَوْنُوا. قَالُوا: فَإِنَّا نَخَافُ الْفُضَيْلَ! قَالَ: أَنَا جَارٌّ لَكُمْ مِنْهُ. قَالُوا: أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ؟! قَالَ:

(١) الْخَارِبُ: سَارِقُ الْإِبِلِ خَاصَّةً، لِسَانَ الْعَرَبِ (١/٣٤٨).

(٢) فِي الْأَصْلِ: فَبَدَأَ لَهُمْ.

(٣) الرَّسْلُ بِالْكَسْرِ: الْهَيْئَةُ وَالْتَأَنِي. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا عَلَى رِسْلِكَ بِالْكَسْرِ: أَيِ اتَّئَدَ فِيهِ،
(النهاية ٢/٢٢٢).

نعم. فأقاموا واستراحوا وخدمهم بنفسه، فلما رجع من بعض خَدَمِهِمْ إِذْ بَقِيَ مِنْهُمْ يَقْرَأُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد] فقال: بلى والله قد آن، بلى والله قد آن، ثم أعلن بالبكاء، وعرفهم نفسه، وأظهر التوبة، فكان من أمره ما كان.

قوله عليه السلام: وَإِيَّاكُمْ وَفُضُولَ النَّظَرِ فَإِنَّهُ يَبْذُرُ الْهَوَى، وَيُولِّدُ الْغَفْلَةَ.

النظر هاهنا هو تقلبُ الحديقة السليمة نحو المرئي التماساً لرؤيته. **والبذر** طرح الحب في الطين لينبت ويثمر، وأصل البذر الطرح، ولهذا ذمَّ الله المبدِّرين، كأنهم ألقوا ما هم في غير موضعه. **والتوليد**: حصول الشيء من الشيء بواسطة. **والغفلة** من أنواع السهو، وأصله النسيان، ومنه قولهم: بعيرٌ غَفْلٌ للذي لا آثار فيه، كأنه نُسي فلم يوسم^(١)، وجمعها أغفال.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام نهى عن فضول النظر، والمراد بذلك: النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه من النساء المحرمات، والأصل في ذلك أن كلَّ نَظَرٍ لشهوة فهو حرامٌ، سواء كان إلى المحارم أو إلى غيرهن، ما خلا الزوجات والمملوكات، وإنما كان ذلك لأنَّ ما قَرَّبَ إلى القبيح فهو قبيح، والنظر سهام مسمومة، يُقتل بها من^(٢) استعملها ديناً ودنياً، أمَّا الدنيا فيُسْقَطُ المروءة، ويُقِلُّ الهيبة، وأمَّا الآخرة فهي أسباب التهور في هوى الهلاك، وأقوى حبائل الشيطان، وشباك الضلال، قال الشاعر:

فَرِيعَ قَلْبِي وَكَأَنَّتْ نَظْرَةً عَرَضَتْ حِيناً وَتَوَفِيقَ أَقْدَارٍ لِأَقْدَارِ^(٣)

وقال آخر:

أَلَيْسَ قَلِيلًا نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِيَّاكَ وَكَلَّا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلٌ

فجعل النظر من أنواع الاستمتاع، ولذلك استكثر قليله.

(١) أي لم يوسم بِسِمَةٍ يُعْرَفُ بها، مثل الكَيِّ ونحوه، قال في تهذيب اللغة (١٣ / ٧٧): بَعِيرٌ مَوْسُومٌ: أَي قَدْ وُسِمَ بِسِمَةٍ يُعْرَفُ بها، إمَّا كَيْهٌ أَوْ قَطْعٌ فِي أُذُنِهِ، أَوْ قَرْمَةٌ تَكُونُ عَلَامَةً لَهُ، أ.هـ.

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: تَقْتُلُ مِنَ اسْتَعْمَلَهَا.

(٣) البيت من معلقة النابغة الذبياني التي مطلعها:

عُوجُوا فَحَيَّوْا لِنُعْمِ دِمْنَةِ الدَّارِ مَاذَا تُحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارٍ؟

وقال آخر:

جَنِيَّةٌ وَلَهَا جَنٌّ تُعَلِّمُهَا رَمِي الْقُلُوبَ بِقَوَسٍ مَا لَهَا وَتَرُ
لَمَّا رَمَتْ مُقْلَتِي قَالَتْ لِحَارَتِهَا إِنِّي قَتَلْتُ قَتِيلًا مَا لَهُ خَطَرُ
قَتَلْتُ شَاعِرَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ مُضَرٍّ وَاللَّهِ لَا رَضِيَتْ مِنِّي بِذَا مُضَرُّ

فقد رأيت كيف جعل النظر سهاماً، وجعله قاتلاً لولا بلوغه في هذا الأمر، فإذا علمت نزوله في هذه المنزلة لزمك الاحتراز منه لكونه مؤدياً إلى التلف العاجل والآجل، ولولا أننا في معرض الاختصار كسرَدْنَا لك في هذا الشأن طرفاً من الأخبار والآثار التي تعرفك أن أصل كثير من الفتنة ما كان إلا النظر، فأَيُّ بَذَرٍ للهوى أعظم منه؟! إنها هو بذر لا يُخْلَفُ في مجرى العادة، بل يهيج وَيَكْثُرُ شَطْوُهُ، ويقوم على سوقه، ويخرج سُنبُلُ الشهوة يانعاً متراكباً، فلا يمكن كتمانها، ولا يندحر شيطانها إلا بذكر المعاد، والوقوف بين يدي الملك الأكبر، وَبَهْتَةِ السؤال، وأقرب من ذلك مثلاً وأوضح مثلاً أنه إذا علم أن الله سبحانه يراه وينظر إليه في جميع حالاته فلا تَسْتُرُهُ منه الْحُجُبُ، ولا تمنعه من رؤيته الظلمات والأستار، في ليل ولا نهار، فأَيُّ قلب يتعمد به مجاهرته بالعصيان والحال هذه؟! فَيَا أَقَلَّ الخلق حياءً وحشمةً، وأقصرهم في الخير همّةً، ما قولك لو أن عبدك الذي اشتريت بمالك، وصَرَفْتَهُ في أضعف أشغالك، قام على رأسك أنت تجترئ على مشافهته بشيء من القبايح، أو تجاهه بشيء من الفواحش؟! فما ظنك بملك الملوک، وجَبَّار الجبابرة، الذي كُلُّ كبير إلى جنبه صغير، وهو مع ذلك الذي خلقتك وخلق لك، وخوَّلَكَ وموَّلَكَ، وأغناكَ وأقناكَ، وعافاك وأحياكَ، وحاجتك إليه في كل وقت متجددة، وقد علمت أن فِعْلَكَ يُغْضِبُهُ، فخذ في هذا الشأن، أو دَعْ؛ عصمنا الله بأوثق العِصَمِ، ووفَّقنا لحفظ النفوس من مورثات الندم.

وأما توليده الغفلة؛ فأَيُّ غفلة أعظم من هذا! ينسى الإنسان نفسه، وينسى ربه، وينسى رحمته، وينسى قدرته عليه، وينسى عقوبته، وينسى نعمته لمن أطاعه، وهذه أمور كبار، وخطوب عظام، لا ينساها إلا أغفل الغافلين، وأجهل الجاهلين.

قوله عليه السلام: وَإِيَّاكُمْ وَاسْتِشْعَارَ الطَّمَعِ فَإِنَّهُ يُشْرِبُ الْقَلْبَ شِدَّةَ الْحِرْصِ، وَيَخْتِمُ عَلَى الْقُلُوبِ بِطَايِعِ حُبِّ الدُّنْيَا.

الاستشعار: هو أن تجعل ثوباً يلي جسدك يُسمونه الشُّعَارَ، والدُّثَارُ فوقه، وفي الرواية أن مروان قال لمعاوية: جعلت عمرو ابن العاص الشُّعَارَ دون الدُّثَارِ! قال له معاوية: فأنت نفسي دون الشُّعَارِ، وُسْمِي شعاراً لأنه يُصَالِي شعر الجسد. **والطمع:** هو حرص متجاوز، وطماعة في النفس، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ لَهُ طَمَعٌ يُضِلُّهُ)) وقال الشاعر:

طَمِعْتُ بِلَيْلٍ أَنْ تَرِبَعَ وَإِنَّمَا تَقَطَّعَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمَطَامِيعُ

والإشراب: هو السقي، وشدة الحرص زيادته وفورانه. **الحرص:** المبالغة في الطلب، وهو من الأدلة على الطمع. **والختم:** معروف، وأصله الخاتم، وذلك أن المال إذا تُرِكَ في الكيس؛ أو الكتاب تُرِكَ عليه الشمع؛ وطَبَعَ الْمَلِكُ أو غيره بخاتمه على ذلك علامة لحفظه، ومنعاً من فُضِّهِ، وكان لحب الدنيا خاتماً مخصوصاً يَعْرِفُهُ الجبار سبحانه، ومن عَرَفَهُ من ملائكته، فإذا وضحت تلك العلامة للملائكة علموا أن ذلك المطبوع على قلبه قد صار من أحباب الدنيا الهالكين. **والطايِع:** هو الشيء الذي يؤثر في غيره أثراً بائناً، ومنه سمي طايِع الدرهم والدينار لما كان يؤثر فيهما.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَى عن أن يُجْعَلَ الطمع شعاراً، وَيَبَيَّنَ أن الشُّعَارَ يؤدي إلى ما ذكره النبي المختار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْأَخْيَارِ، وأنه يُشْرِبُ الْقَلْبَ شِدَّةَ الْحِرْصِ، وشِدَّةَ الْحِرْصِ إذا أُشْرِبَهَا قَلْبُ الْعَبْدِ كانت أكبر شَاغِلٍ له عن عمل الآخرة، لأنه لا يَتَهَيَّأ إلى مطلب في الدنيا إلَّا ولاح لعينه آخر حتى يوافيه الموت، فيخسر الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

والختم على القلوب بطايِع حب الدنيا يكون علامة في قلوب أهل الطمع لائحة، وفتنة سارحة ورائحة، ويكون العبد في حكم من وُسِمَ بِمَيْسَمِ الشَّقَاوَةِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، فكانت نصيبه وحظه، وأوبق نفسه من رحمة خالقه، فما أَثَّرَهُ من مستشعر، وأخْبَثَهُ من متجرا! وإنما الشُّعَارُ المحمود استشعار خوف الله سبحانه الذي يبعث على أعمال الخير، فيبلغ العبدُ به مبالغ الرحمة، وينزل منازل الكرامة، فَيُكْتَبُ في زمرة أهل النجاة والحياة.

قوله عليه السلام: وَهُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ سَيِّئَةٍ، وَسَبَبُ إِحْبَاطِ كُلِّ حَسَنَةٍ.

المفتاح: هو الآلة التي تُفْتَحُ بها الأغلاق، وهو معروف، وهو الإقليد وجمعه أقاليد، وجمع مفتاح مفاتيح ومفتاح. والسيئة ما يسوء الإنسان مشاهدته أو ذكره، مأخوذ من السَّوء وأصله البرص، وكان مِنْ أَكْرَهٍ عَلَيَّ عندهم، فسموا به القبائح جملة، وهي نقیض الحسنة، والسيئة ما يستقبح نظرها، ويسوء ذكرها، قال الشاعر:

وَلَقَدْ نَظَرْتُكَ فِي النَّسَاءِ فَسُوتَنِي وَأَبَا بَنِيكَ فَسَاءَنِي فِي الْمَجْلِسِ (١)

والحسنة: ما يُسْتَحْسَنُ نظرها، ويسر ذكرها، وقد قيل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ١٩٩] أن حسنة الدنيا الزوجة الصالحة، وما ذلك عندي ببعيد. المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أخبر الخابرين، وأنصح الماضين والغابرين، أخبر أن الطمع مفتاح كل خطيئة يهْمُ بها ابن آدم، ويكون بابها مغلقاً حتى يأتي بمفتاح الطمع؛ ثم يعالجها به، فيلج لا محالة على السيئة بيتها، فيواقعها فيكون من المسيئين، فإذا واقعها وكان من أهلها؛ حَبِطَتْ كل حسنة يعملها؛ لارتكابها الحُوب الكبير، والخطأ الشهير، فما أنت أيها المسكين واستشعار أمر هذه صفته، ويؤدي مع ذلك إلى إحباط حسناتك التي هي عتادك في الشدائد، وعونك على الأوابد، فانظر إلى هذا الشأن، واحزم منه أشد الحزم إن كنت تتنفع بالفهم، جعلنا الله وإياكم من الناظرين بعين المعرفة، والسالمين من الاتصاف بهذه الصفة.

(١) قال في حاشية الأصل: الخطيئة واسمُهُ جَزُول، هَجَا هَذَا الْبَيْتِ أَبَاهُ وَأُمُّهُ، وَقَصَّتهُ أَنَّهُ هَجَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ أَمَنَهُ بَعْدَ هَجْوِهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ أَوْهَمَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُرِيدُ عُقُوبَتَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَمْرٌ بِذِيءِ اللِّسَانِ، قَدْ هَجَوْتُ أَبِي وَأُمِّي وَزَوْجَتِي وَنَفْسِي، وَأَنْشَدَهُ هَذَا الْبَيْتَ، قَالَ: فَكَيْفَ هَجَوْتُ نَفْسَكَ؟ فَقَالَ: نَظَرْتُ وَجْهِي فِي إِنْاءٍ فِيهِ مَاءٌ، فَاسْتَقْبَحْتُهُ، فَقُلْتُ:

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمًا بَشْرٌ فَلَا أَذْرِي بِمَا أَنَا قَائِلُهُ
أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ

انتهى، من حاشية في الأصل، مات نحو سنة ٤٥هـ.

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ (١) عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِ ابْنِ عُمَرَ وَطَرِيقَتِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ يُرْجَى أَوْ شَرٌّ يَتَّقَى، وَبَاطِلٌ عُرِفَ فَاجْتَنِبْ، وَحَقٌّ تُيَقِّنْ فُطِّلِبْ، وَآخِرَةٌ أَظَلَّ إِقْبَالَهَا فَسُعِيَ لَهَا، وَدُنْيَا أَرَفَ نَفَادُهَا فَأَعْرِضْ عَنْهَا، وَكَيْفَ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ مَنْ لَا تَنْقَطِعُ عَنِ الدُّنْيَا رَغْبَتُهُ، وَلَا تَنْقُضِي فِيهَا شَهْوَتُهُ، إِنَّ الْعَجَبَ كُلَّ الْعَجَبِ لِمَنْ صَدَّقَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْفَنَاءِ، وَعَلِمَ أَنَّ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى فِي طَاعَتِهِ وَهُوَ يَسْعَى فِي مَخَالَفَتِهِ)).

الخير نقيض الشر، وهو الصلاح والسلامة. **والرجاء**: هو توقع وصول الخير إلى الراجي. **والشر**: هو ما تنفر عنه النفس، وسواء كان حسناً أو قبيحاً. **والاتقاء**: هو الاحتراز من مواجهة الشر بساتر أو حاجز.

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ أَنَّ الذي ينبغي أن يشتغل به العباد رجاء خير بتهيئة أسبابه وهي الأعمال الصالحة، أو اتقاء شرٍّ بما يُدْفَعُ به مثله من الحسنات الواقعة، فأما رجاء العبد للخير وهو يعمل ما يوجب الشر فذلك رجاءٌ فاسد، وأملٌ مديد، وضلالٌ بعيد، وكذلك إذا اتقى الشر، وهو يسعى في تقوية أسبابه فقد أساء الاختيار لنفسه، وطلب الشيء في غير مَظْتَبِهِ (٢)، فمن أولى - والحال هذه - منه بالانتزاع من الخير، ومواجهة الشر.

قوله عليه السلام: وَبَاطِلٌ عُرِفَ فَاجْتَنِبْ، وَحَقٌّ تُيَقِّنْ فُطِّلِبْ.

الباطل هو الأمر الذاهب الذي لا حقيقة له في الأصل، فلما كان الباطل يتلاشى ويذهب ويزول أهله سُمِّيَ باطلاً. **والمعرفة** نقيض الإنكار. **والاجتناب** الاعتزال، وهو مأخوذ من

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا جعفر بن إبراهيم بن الهادي قال حدثني أنس بن مالك الأنصاري من ولد أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد قال حدثنا أبو عوانة عن سمالك بن حرب عن مصعب بن سعد عن عبد الله بن عمر... الحديث.

(٢) مَظْتَبَةُ الشَّيْءِ، بكسر الظاء: موضع يُظَنُّ فيه وجوده. (القاموس المحيط: ١٢١٤).

الْمَيْلُ، ومنه جنب الإنسان شِقُّهُ. والحق هو الثابت الدائم الصحيح، يقول قائلهم: أحقاً ما تقول؟ يريد: أصحيح ما تقول. واليقين نقيض الشك. والطلب هو البحث عن الشيء، والارتياح له.

[العلم هو باب النجاة وباب معرفة الحق من الباطل]

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَبَيِّنُ أن مبني الأمر كله على هذه الوجوه التي يذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ من اجتناب الباطل، وطلب الحق، ولا شك في ذلك؛ لأنَّ من اجتناب الباطل فاز بفضيلة الاحتراز من وُرُطِ الهلاك، ونجا من واقعة الشُّبَّاك، ولكن قد رأيت أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أمر أن يكون ذلك عن معرفة في الوجهين كليهما؛ لأنه قال: **بَاطِلٌ عُرِفَ فَاجْتَنِبْ، وَحَقٌّ تَبَيَّنَ فَطَلِبْ**، فأمر بالمعرفة واليقين في اجتناب الباطل وطلب الحق، وذلك لا يكون إلا بالعلم، لأن المعرفة العلم، واليقين نهايته، فلا تقع النجاة - والحال هذه - ما لم يكن الإنسان عالماً أو متعلماً، فإن كان عالماً تَبَيَّنَ وعرف بعلمه، وإن كان متعلماً فهو يأخذ العلم عمن تسكن إلى معرفته نفسه، فكأنه عرف وتيقن بواسطة، وإذا كان بغير هذه الصفة لم يتمتع أن يتجنب الحق بجهله، ويظن أنه باطل، ويطلب الباطل بجهله ويظنه حقاً، فيتقي ما تجب مواقفته، ويواقع ما يجب الاحتراز منه، فنعوذ بالله من الجهل.

ومثال هذا فعل قوم من جهال الشيعة نزهاوا الباري بزعمهم عن فعله، وأضافوا إليه فعل عبيده.

قوله عليه السلام: وَأَخْرَجَهُ أَظْلًا إِقْبَالَهَا فَسَعِيَ لَهَا، وَدُنْيَا أَرْفَ نَفَادُهَا فَأَعْرَضَ عَنْهَا.

قد تقدم الكلام في معنى الآخرة. والإِطْلَالُ أخص من الإِظْلَالِ، أَظْلٌ إذا أشرف، وأظْلٌ إذا سامت الرأس من جهة العُلُوِّ. والسعي معروف وله نظائر، وقد تقدم الكلام أيضاً في معنى الدنيا. **أَرْفَ** بمعنى قُرب، وكذلك **أَفْدَ** و**رَلَفَ** و**دَنَى**. والنفاذ هو النجاح والذهاب. والإِعْرَاضُ نقيض الإقبال.

[التفكير والتدبر فيما يبعث فينا إشار الآخرة على الدنيا الفانية]

المعنى في ذلك: أن الآخرة لِقُرْبِهَا مِنَّا وقربنا منها في حكم الشيء المظَّل علينا المحيط بنا، فنسأل الله تعالى الاستعداد المخلَّص، وحقَّ لمثل الآخرة أن يُسَعَى لها؛ إنما هو سعيٌّ إلى نعيم لا يبيد ولا ينفد، وسعي من شرٍّ لا ينقضي له أمد، ولا ينقطع له مدد، وهذان أمران يجب أن نشمر للسعي لأحدهما ومن أحدهما الأزرر، ونجتهد في الحُضُر^(١)، فقد نصحت النذُر، ونطقت الزُّبُر أن لا نجاة من هذا الشر، ولا وصول إلى هذا الخير إلا بجِدٍّ واجتهادٍ وعزمٍ.

وقد علمنا شدة سعينا لتحصيل نفع الدنيا الفاني، وسعينا من شرها الزائل الماضي، وإذا علمنا أن هذه الدنيا قد أزف نفاذها، وحان حصادها، لَزِمْنَا بضرورة العقل الإعراض عنها، إذ الإقبال على أمر زائل متقصٍّ ذاهبٍ نافذٍ باطلٍ تأباه العقول الأبية، وتنفر عنه الهمم السنية، ولا شك أن نفاذ الدنيا قد أزف، ومكرها قد عُرف، ولم لا يكون ذلك والله عزَّ من قائل يقول: ﴿فَقَدْ جَا أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٩] وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَنَا وَالسَّاعَةُ كَفَرَسَيْنِ رِهَانَيْنِ)) وقد علمتم بُثُّ اللاحق خلف السابق كم هو، وقد نَصَبَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لنا أماراتٍ رأيناها عياناً، وشاهدناها بياناً، فما الأمر -وإلى الله المفرج- إلا صعبٌ جدًّا، هذا مع أنها لا تأتينا إلا بغتة، فالواجب الاستعداد على كل حال، ومع ذلك فإن من مات وانقطع تكليفه، فقد صار في حكم أهل الآخرة، ومهما أبطأ عنَّا فلن يُبطئ الموت الذي هو نهاية كل حي، ولا يقبل الردَّ واليَّ.

قوله عليه السلام: وَكَيْفَ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ مَنْ لَا تَنْقَطِعُ عَنِ الدُّنْيَا رَغْبَتُهُ، وَلَا تَنْقَضِي فِيهَا شَهْوَتُهُ.

الانقطاع والانفصال معناهما واحد، والرَّغْبَةُ والرَّغْبُ هو حرصٌ مُتَّانٍ، وهو سعة المطالب، ومنه قوله: إِنْ أَرِيتَ رَغِيبًا إِذَا كَانَ وَاسِعًا. **والانقضاء** هو النجاح والفراغ. **والشهوة** ضد النفرة.

(١) الحُضُر، بضم الحاء: شِدَّةُ عَدُوِّ الْفَرَسِ (انظر القاموس المحيط: ٣٧٦).

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يئن أن من البعيد أن يعمل للأخرة من لا تنقطع عن الدنيا رغبته؛ لأنه بشدة رغبته شغل نفسه عن العمل للأخرة، فبَاءَ بصفقة خاسرة؛ لأنه رَغِبَ فيما يجب أن يُرَغَبَ عنه، وزهد فيما يجب أن يُرَغَبَ فيه، وكذلك إذا أُتْبِعَ نفسه شهواتها، وساق إليها لذاتها، فإنه لا ينتهي في ذلك إلى غاية تردعه، ولا مادة تنفعه^(١)، بل يكون مثاله مثال من يطفئ النار بالخطب، وذلك في تقويتها أقوى سبب، فلا تَغْفُلُ أرشدك الله عن التشمير، واركض ركض المُنْغِير، وكن من الرغبة والشهوة على حذر، ولا تنفذ لحكم الغرر.

قوله عليه السلام: إِنَّ الْعَجَبَ كُلَّ الْعَجَبِ لِمَنْ صَدَّقَ بَدَارَ الْبَقَاءِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْفَنَاءِ.

التصديق نقيض التكذيب. **والدار** هو المسكن الذي يأويه الناس، وكان أصله لدورانهم عليها وإليها، قال الشاعر:

يَا دَارَ عِبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عِبْلَةَ وَأَسْلَمِي
فساها داراً، وإن كانت قد خلت من مدة.

العجب: هو ظهور أمرٍ يخالف المعتاد، فيُحْدِثُ في القلب استطراب واستغراب، فيسمى عجباً، ولا يكون المعتاد عجباً، ولا معجباً. **والدار** ما قد قدمنا. **والبقاء** هو الدوام والثبوت. **والفناء** هو الذهاب والزوال.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ عجب كل العجب لمن صَدَّقَ بدار الآخرة، وما فيها من النعيم واللذة للمطيعين، والعقاب والنقمة والكرّة الخاسرة على العاصين، ثم هو مع ذلك يسعى لدار الفناء، وقد نسي الأمر العظيم من الخير والشر، فلا أعجب من هذا، ولو شاهدنا رجلاً وَعَدَهُ صادقٌ أنه يعطيه على عمل مخصوص ديناراً، ثم أعطاه على ذلك العمل رجلٌ كاذبٌ درهماً، فعمل لصاحب الدرهم ولم يعمل لصاحب الدينار لقطعنا أو قاربنا بالتعجب من اختلاله، وسوء اختياره، وقد وعدنا الصادق سبحانه على عمل الآخرة هَيْئَنَ مُلْكاً كبيراً، ووعدتنا مخايل الدنيا

(١) في الأصل: تتعقبه.

الكاذبة على الكدح شيئاً يسيراً، فأعرضنا عن عمل الآخرة، وسعينا لعمل الدنيا، فَمِنَّا فليعجب العاجبون، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

قوله عليه السلام: وَعَلِمَ أَنَّ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى فِي طَاعَتِهِ وَهُوَ يَسْعَى فِي مُخَالَفَتِهِ.

معنى المعرفة والعلم واحد. والرضى نقيض الغضب. والطاعة نقيض المعصية. والسعي معروف. والمخالفة نقيض الموافقة.

والمعنى في ذلك: أن هذا أيضاً مما عجب منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ كل العجب، ومنه فليعجب العاجبون، فإننا قد علمنا من جميع العقلاء أن أحداً منهم لا يعلم أن رضا الملك القادر عليه في فعل شيء، وغضبه في مخالفته؛ فيتعمد مجاهرته بمواقعة غضبه، وهو سليم العقل أصلاً، وكل أفعالنا مع الباري سبحانه مجاهرة؛ لأن السِّرَّ عنده علانية، والغيب شهادة، فإذا كان العقلاء يتقربون إلى ملك الدنيا بموافقته وإيثار رضاه - هذا مع عجزه وضعفه - فكيف لا يُتَقَرَّبُ إلى ملك الملوك، وجبار الجبابرة، ومبيد الملوك القاهرة، والأمم الكافرة، بطاعته الهيئته في جنب ثوابه الجزيل، والاحتراز من عقابه الوبيل، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم في طاعته ساعين، ولعهده راعين، والصلاة على محمد وآله.

الحديث السادس والعشرون

عَنْ^(١) أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ^(٢)، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ، وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ^(٣)، وَهُوَ نَزِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي أَثَرُهُ بِأَعْلَى مَنْزِلِهِ، وَنَزَلَ أَسْفَلُهُ، وَشَاطَرُهُ مَالَهُ فِي قِصَصٍ يَطُولُ شَرْحُهَا، وَلَمَّا نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَقَاتَلَ الْأَنْصَارُ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَلَقَّاهُ يُحَلِّي لَهُ نَفْسَهُ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَمْ إِلَى الْعَدَدِ، وَذَاكَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَمْ إِلَى الْوَفَاءِ، هَلَمْ إِلَى الْمَوَاسَاةِ، وَكُلٌّ يَجْذِبُ بِزِمَامِ رَاحِلَتِهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((دَعُوها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ))، وَرَوَى لَنَا أَنَّ الْأَنْصَارَ تَبَادَرُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ لَطِيَّاتِ الْحِشَائِشِ يَلْقَوْنَهَا عَلَى أَبْوَابِهِمْ، وَأَفْنَيْتَهُمْ تَعْرِضاً لِرَاحِلَتِهِ، وَهِيَ سَالِكَةٌ لِحَالِ سَبِيلِهَا، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ بَنِي غَنَمٍ، فَبَرَكْتَ تَجَاهَ مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، فَهَنَأَهُ النَّاسُ، وَهُوَ أَهْلٌ لَذَلِكَ، وَعَلَى مَبْرَكِهَا بَنَى الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ^(٤) عَلَيْهِ

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا علي بن عيسى الجرجاني البصري قال حدثنا سليمان بن أيوب الهاشمي قال حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي قال حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي أيوب الأنصاري... الحديث.

(٢) في هامش الأصل وهامش (أ) ما لفظه: هُوَ خَالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ كُثَيْبِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ غَنَمٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ تَيْمِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَزْرَجِ، وَمَاتَ فِي صَائِفَةِ الرُّومِ غَازِيًا فِي جَنْدِ مَعَاوِيَةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ، انْتَهَى. قلنا: الأصح أنه توفي سنة اثنتين وخمسين (٥٥٢ هـ) كما ذكره الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في اللوامع، وهو الموثب في كتب التراجم، والصائفة هي الغزوة في الصيف، واشتهرت بها غزوات الروم لأنهم كانوا يغزون صيفاً.

(٣) تقدم في بداية الحديث الرابع في سياق ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) قال الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار: هو أبو محمد الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ليس لزيد بن الحسن عقب إلا منه؛ ترجم له السيد الإمام رضي الله عنه، وحكى ما ذكره الإمام أبو طالب عليه السلام وغيره من توليه للجبار المنصور العباسي، وهذه الواقعة زلة قبيحة من الحسن، لم يتقدمه ولا تعقبه فيها أحد من آل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في العصر الأقدم، بل خرج بها عن منهاج أهل بيته في ذلك الصدر الأعظم، ولم يستقم التأويل لظهور المظاهرة منه، والموازرة، كما لا يخفى على ذوي الاطلاع؛ والله سبحانه يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد سلك به أبو الدوانيق بعد ذلك سبيل أهله وصادره، وحبسه، ولم يخرج من السجن إلا في زمن ولده المهدي بن

السَّلامُ داره التي في بني غنم^(١).

والناقة: هي القِصْواء، وقد ذكرنا أن ثوقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ التي كان يعتمد ركوبها، الجِداء والعُضباء والقِصْواء، فقال الشاعر في ذلك:

على مَبْرَكِ الْقِصْوَائِ تَبَوَّاتُ مَنْزِلًا يَثْرِبُ يَهْنِيكَ الثَّنَاءُ^(٢) الْمُحَبَّرُ
قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((حَلُّوا أَنْفُسَكُمْ^(٣) بِالطَّاعَةِ،
وَالْبُسُوهَا قِنَاعَ الْمَخَافَةِ، وَاجْعَلُوا حَزَنَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، وَسَعْيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ،
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَنْ قَلِيلٍ رَاحِلُونَ، وَإِلَى اللَّهِ صَائِرُونَ، فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ هُنَاكَ إِلَّا
عَمَلٌ صَالِحٌ قَدَّمْتُمُوهُ، أَوْ حُسْنُ ثَوَابٍ حُزْتُمُوهُ، إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَقْدَمُونَ عَلَى مَا قَدَّمْتُمْ،
وَتُجَارُونَ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ، فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دِينِي عَنْ مَرَاتِبِ جَنَاتٍ
عَلَيْيَةٍ، فَكَأَنَّ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ فَارْتَفَعَ الْأَرْيَابُ، وَلَا تَقِ كُلَّ امْرِئٍ مُسْتَقَرَّةً، وَعَرَفَ
مَثْوَاهُ وَمَقِيلَهُ)).

(حَلُّوا) إن كان من الحِلْيَةِ، فالحِلْيَةُ معروفة، قال سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ
فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف] ولا شك أن الحِلْيَةَ تُزِينُ المرأةَ فتنشأ فيها، وتبجح وتزداد
حسناً، ولا تُبَيِّنُ الخِصَامَ؛ لأنهم محلُّ العِيِّ^(٤) إلا القليل. والطاعة معروفة. والإلباس نقيض

المنصور؛ فعسى أن يكون ذلك مكفراً، داعياً للإلابة، ومأخياً بالتوبة، انتهى. (لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ١ / ٧٣٢).

(١) بَنُو غَنَمٍ بَنُ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، وَاسْمُ النَّجَّارِ: تَيْمُ اللَّهِ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَزْرَجِ، فَأَبُو أَيُّوبِ
الْأَنْصَارِيُّ خَزْرَجِيٌّ مِنْ بَنِي غَنَمٍ، ١هـ. وذكر هذه الدار السهمودي (المتوفى: ٩١١هـ) في كتابه (وفاء الوفاء
بأخبار دار المصطفى) ج ٢ / ٧٣٣، وذكر أنها مقابلة لمنزل جعفر الصادق عليه السلام التي بجوار دار
أبي أيوب الأنصاري، ١هـ.

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: البناء.

(٣) في الأصل: نُفُوسَكُمْ.

(٤) مصداقاً للحديث النبوي: ((النِّسَاءُ عِيٌّ وَعَوْرَاتٌ، فَاسْتُرُوا عِيَّهُنَّ بِالسُّكُوتِ، وَعَوْرَاتِهِنَّ بِالْبَيُوتِ))
الذي رواه الإمام الهادي عليه السلام في الأحكام، وأورده في الدرر، والإمام محمد بن القاسم الرسي عليه
السلام في كتابه الهجرة والوصية، والإمام المرشد بالله عليه السلام في الأمالي الخميسية، والإمام المؤيد بالله

الكشف والسلب. والقناع ما يُتَقَنَّعُ به، أي يُتَغَطَّى به. والمخافة والخوف واحد، والكل منه عَلَيْهِ السَّلَامُ استعارة حسنة.

وإن كانت التحلية من الحلاوة والتعذيب؛ فمعناه حُبُّوا أنفسهم، والمحجوب من الرجال حُلُوًّا، والمبغوض مُرٌّ، قال ابن أخت تَابَطْ شَرًّا:

وَلَهْ طَعْمَانِ حُلُوٌّ وَمُرٌّ وَكَلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ ذَاقَ كُلُّ

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَنَا أَنْ نَزِينْ نَفُوسَنَا أَوْ نُحِبِّبَهَا عِنْدَ رَبِّنَا بِالطَّاعَةِ، فَإِنْ ذَلِكَ أَنْجَا لَهَا فِي مَوْقِفِ الْهَوْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ تُلَبِّسَهَا قِنَاعَ الْمَخَافَةِ لِنَأْمَنَ مِنْ رَوْعِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّا إِذَا خَفْنَاهُ سَبَحَانَهُ أَطْعَمَنَاهُ، وَآثَرْنَا رِضَاهُ؛ فَفَزْنَا بِكَرَامَةِ الْمُطِيعِينَ عِنْدَهُ، وَسَلِّمْنَا مِنْ تَبِيعَةِ الْعَاصِينَ لَدَيْهِ، فَأَحْبَبَ بِحُلِيَّةٍ أَوْ تَحَلٍّ يُتَّفَقُ بِضَاعَتِنَا الْكَاسِدَةِ، وَخَوْفٍ يُؤَمِّنُ رَوْعَتَنَا الْوَاقِدَةَ^(١).

إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْعِظَائِمِ أَنْ لَا تَتَحَلَّى بِطَاعَتِهِ، وَلَا نَقْدِرَ أَنْ نَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِنَا عِقُوبَةَ مَعْصِيَتِهِ، وَلَا نَلْبَسَ قِنَاعَ مَخَافَتِهِ مَعَ عِلْمِنَا بِهَجُومِ هَائِلِ سَطْوَتِهِ. أَفَمَا عَقُولٌ مُسْتَعْمِلَةٌ تُوجِّهُ بِهَا الْأَفْعَالُ إِلَى جِهَاتِهَا، وَتُؤَسِّمُ بِهَا الْأَعْمَالُ بِسِمَاتِهَا.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاجْعَلُوا حَزَنَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، وَسَعْيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ.

قد تقدم الكلام في معنى الجعل. والحزُّ أصله التحريك والبحث على وجه مخصوص، يقال حَرَّثَ النَّارَ إِذَا بَحَثَهَا، وَحَرَّكَهَا لِيَسْتَثِيرَ كَامِنُهَا، وَيَحْرُكُ سَاكِنُهَا، وَاسْمِي الْعُودِ الَّذِي يُصْنَعُ بِهِ ذَلِكَ مُحَرَّاثًا، قَالَ الشَّاعِرُ^(٢):

ضَاحِي الْمَحْيَا لِلْهَجِيرِ وَلِلْقَنَّا بَيْنَ الرَّمَاكِ تَحَالُهُ مُحَرَّاثَا

وَحَرَّثَ الطَّيْنَ إِثَارَتُهُ، وَقَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ فِي دَاوُودَ وَسَلِيمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِذْ يَحْكُمُنِ فِيهِ

عليه السلام في شرح التجريد، والإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في أصول الأحكام وحقائق المعرفة، ورواه الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام في الانتصار، والأمير الناصر للحق حافظ العترة الحسين بن بدر الدين محمد عليه السلام في الشفاء.

(١) الواقعة: أي المحركة.

(٢) البيت لأبي تمام يمدح مالك بن طوق، وفي الديوان: (تحت العجاج) بدلا من (بين الرماح).

الْحَرْثُ [الأنبياء: ٧٧] ولما كان أكثر ما يطلب منه النفع في متاع هذه الدنيا إنما هو بالحرث؛ استُعْمِلَ في كل شيء، فحرثُ الآخرة العمل بطاعة الله في فعل ما أراد، وترك ما كره، وُسْمِيَ النكاحُ حرثاً من ذلك. وقد تقدم معنى السعي. والمستقر الذي ينتهي إليه الإنسان، فيستقر عنده، وهو الوطن والعطن.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرنا أن يكون حرثنا لأنفسنا، وسعيُنا لمستقرنا، وهل مثل هذه النصيحة يرُدُّها عاقل؟! وهل أحمدُ من عَمِلَ الإنسان لنفسه، وتمهيداً لمحطَّ جنبه؛ إذ العظائم إذا تناهت في العِظَمِ تُسَيِّ المال والأهل والولد، ونفر بنفسه وانجرد^(١)، وعد ذلك من المغانم، وقد قال قائلهم يصف قوماً فاجأتهم الداهية:

هُنَالِكَ لَا تَلْوِي عَجُوزٌ عَلَى أَيْنِهَا وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِي الْقَوْلِ: نَفْسِي لَكَ الْفِدَا
فاحرثُ أيها الحارث لنفسك، وإنما ذلك الحرث حرث الآخرة المحمود الغلة والأثر، وهو العمل الصالح، والترك للعمل الفاضح، وكذلك إذا سعيُنا لمستقرنا الذي هو دار الكرامة، ومنزل السلامة في الآخرة؛ كنا قد فزنا بما نصير إليه من الخير الدائم، لأن الدنيا ليست لنا بمستقرٍّ على الحقيقة، إنما نحن كركب السفينة، النائم فيها سائر، والقائم ساعٍ، وحرثنا فيها لغيرنا؛ إذ يشاركنا فيه عبيدنا وإماؤنا، وأولادنا وأزواجنا، ومن يتأبنا^(٢)، وأكثر الناس يحرثون للوارث، فما هو لأنفسنا على الحقيقة، فتصفح ما ذكرت لك، واحرث لنفسك، واسع مسيرك، وأطع أمر معلم الخير وقائد الرشد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وقوله عليه السلام: وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ عَنْ قَلِيلٍ رَاحِلُونَ، وَإِلَى اللَّهِ صَائِرُونَ.

الرحيل نقيض الحلول. والمصير الانتهاء.

المعنى في ذلك: أنا إذا علمنا سرعة رحلتنا عن قليلٍ بحثنا عن الزاد والدليل، وما يُحتاج إليه في السبيل، فكنا على أهبة، من أعدّها فاز بالسلامة، وإذا علمنا مصيرنا إلى الله وشيكاً أعددنا الجواب إذا سُئِلنا عن حَقِّه الواجب له، العائد علينا نفعه، فلم نوقف موقف خزي نعوذ بالله منه، ولا رمينا

(١) انْجَرَدَ الرَّجُلُ: أَي جَدَّ فِي سَيْرِهِ فَمَضَى، يُقَالُ: انْجَرَدَ فَذَهَبَ، وَإِذَا أَجَدَّ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرٍ قِيلَ: تَجَرَّدَ لِأَمْرٍ كَذَا، وَتَجَرَّدَ لِلْعِبَادَةِ... (انظر لسان العرب ٣/ ١١٧).

(٢) ائْتَابَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ ائْتِيَاباً إِذَا قَصَدَهُمْ، وَأَتَاهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَهُوَ يَتَابُهُمْ، (لسان العرب ١/ ٧٧٥).

بنفوسنا في هُوَّة هلاك.

قوله عليه السلام: فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ هُنَاكَ إِلَّا عَمَلٌ صَالِحٌ قَدَّمَ ثَمُوهُ، أَوْ حَسَنُ ثَوَابٍ حُزِّمُوهُ.

العمل الصالح قد تقدم الكلام فيه. والتقديم نقيض التأخير. وحسن الثواب جيده. والْحُزْمُ والإحراز واحد.

[استعد للقاء ما قدمته]

المعنى في ذلك: أن الراحل إلى ربه، الصائر إلى جوار خالقه؛ لا ينفعه إلا ما قَدَّمَ بين يديه من صالح العمل، إذ الدينار والدرهم في تلك الدار لا تُقضى بهما الحاجات، فمن قَدَّمَ صالحاً لقيه فوزاً وغنيمة، ومن استجاد ثواباً وحازه فقد حاز سبب الخير كله، فالواجب الاجتهاد في العمل الصالح لينحاز له الثواب النافع.

قوله عليه السلام: إِنَّا نَكُنْكُمْ إِنَّمَا تَقْدُمُونَ عَلَيَّ مَا قَدَّمْتُمْ، وَتُجَازُونَ عَلَيَّ مَا أَسْلَفْتُمْ.

يقال: قَدِمَ يَقْدُمُ إذا ورد ووصل، قال الراجز:

أَقْدِمُ فَقَدْ قَدِمْتُ خَيْرَ مَقْدَمٍ قَدِمْتُ أَيَّامَ سُعُودِ الْأَنْجُمِ

والتقديم: هو تسبيق الإنسان لما يحتاجه بين يديه. والمجازاة مفاعلة من الجزاء، وهو المكافأة على الفعل. والإسلاف والإسلام معناهما واحد في الأصل، ومعناه أن تعطي الإنسان شيئاً ليعيضك عليه^(١) في المستقبل، ولا يجوز في الشرع إلا بشروط مخصوصة.

المعنى في ذلك: أن الإنسان لا يَقْدُمُ إلا على ما قَدَّمَ، فإن قَدَّمَ خيراً لقي خيراً، وإن قَدَّمَ شراً لقي شراً، ولا يُجَازَى إلا بما أسلف، إن أسلف طاعة لقي مغفرة، وإن أسلف معصية لقي عقاباً وتباً، فإذا كانت الحال هذه كان الواجب على العاقل تقديم الخير ليلقاه في وقت حاجته إليه، وهو وقت لا ينفع المكثور عدده، ولا الوالد ولده، ولا ذا المال ماله، وأن يُسَلِّفَ ما ينفعه رجوعه إليه، وهو العمل الخالص^(٢) من شوائب الرياء والسمعة، والقصود الفاسدة؛ إذ هو سبحانه لا يقبل من عبده إلا الخالص لوجهه.

(١) في نسخة أخرى: لِيُعْطِيكَ عِوَضَهُ.

(٢) في الأصل: الصالح.

قوله عليه السلام: فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دَنِيَّةٍ عَنْ مَرَاتِبِ جَنَاتٍ عَلِيَّةٍ.

الخديعة أصلها الفساد، ومنه قوهم: خَدَعَ الرَّيْقُ إذا فسد، فلما كان من الناس المُوهِمُ مُفْسِداً قيل خادع، وسُمي فعله خديعةً. والزخرف أصله الذهب، والزخارفُ التَّصَاوِيرُ به والنقوش، يقال بيتٌ مزخرفٌ أي مُرَوَّقٌ^(١) مُنْقَشٌ بالذهب. وقد تقدم الكلام في الدنيا. والدنية والحقيرة والرذيلة في نظائر لها معناها واحد. والمراتب هي الدَّرَجُ والمنازل. والجَنَاتُ الحدائق والحضائر. والعَلِيَّةُ الرفيعة.

[مواظ جليلة في التحذير من الدنيا والترغيب في الآخرة]

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَرْنَا أَنْ تَخْدَعَنَا زَخَارِفُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ، وَهِيَ نَضَارَتُهَا الْبَالِيَّةِ، فَتَسْكُنَ إِلَيْهَا اغْتِرَاراً بِهَا، فَتَكُونُ مَخْدُوعِينَ عَنِ الْخَيْرِ التَّامِ، وَالنَّعِيمِ الْكَامِلِ، وَالرُّوحِ^(٢) الْبَاقِي، وَيَبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الدُّنْيَا دَنِيَّةٌ، وَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا لَا تَدُومُ لَنَا، وَلَا نَدُومُ لَهَا، وَمَتَاعٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِصَاحِبِهِ قَلِيلٌ، وَكَمْ عَسَى أَنْ يُنْعَمَ فِيهَا النَّاعِمُونَ، أَوْ يُسَلَّمَ السَّالِمُونَ، أَفَلَيْسَ فَجَائِعُهَا مُؤْتَرَةً الْقِسِيِّ، مَفْقُودَةُ السَّهَامِ، تُفَرِّقُ الْجَمَاعَاتِ، وَتَجْمَعُ التَّبَاعَاتِ، فَبَيْنَا تَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا نَاعِماً مَسْرُوراً إِذْ حَالَ بَائِساً مَضْروراً، وَبَيْنَا تَرَاهُ قَاهِراً إِذْ انْقَلَبَ مَقْهُوراً، وَكَمْ مِنْ صَرِيعٍ لَهَا لَمْ تُؤْذِنْهُ^(٣) بِالْصَّرْعَةِ، وَمَائِلٍ إِلَيْهَا مَالَتَ عَنْهُ، وَصَادِقٍ لَهَا كَذَبَتْ بِهِ، فَكَيْفَ يَسْكُنُ إِلَى هَذِهِ لَيْبٍ؟! أَوْ يُضْرَبُ فِي وُدِّهَا بِنَصِيبٍ!.

وإذا كانت مراتب الجنات العلية معروضة في مقابلة حقوق مفروضة؛ فكيف يحسن لنا الاشتغال عنها، أو الترك لشيء منها، إنما هو ثوابٌ جزيلٌ في مقابلة عملٍ قليل، دون طاقتنا بكثير؛ صيامنا نصف سدس زماننا، ولعل صلاتنا تُنجز في مثل ذلك من يومنا وليلتنا.

(١) الرَّأُووقُ: الزَّبَقُ. وَالتَّرَوِيقُ: التَّزْيِينُ وَالتَّحْسِينُ، لِأَنَّهُ يُجْعَلُ مَعَ الذَّهَبِ، فَيُطْلَى بِهِ، فَيَدْخُلُ فِي النَّارِ، فَيَطِيرُ الرَّأُووقُ، وَيَبْقَى الذَّهَبُ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ مُنْقَشٍ وَمُزَيَّنٍ: مُرَوَّقٌ. (انظر القاموس المحيط: ٨٩٢).

(٢) الرُّوحُ: بَفَتْحِ الرَّاءِ، هُوَ مَا يَرْتَاحُ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالنَّظَرُ، حَاشِيَةٌ فِي الْأَصْلِ.

(٣) تُؤْذِنْهُ: أَيِ تُعْلِمُهُ، حَاشِيَةٌ فِي الْأَصْلِ.

والاعتقاد هو علم يسكن إليه القلب، لو لم يقع شرع لوجب؛ لدفع ضرر الشك، وباقي ذلك مُوسَّعٌ لنا؛ نتناول ما أمكننا مما حَلَّ لنا من الطيبات والمشتهيات، ولم يُحرِّم علينا شيئاً إلا وقد أحلَّ لنا ما يَرْجَحُ به ويزيد عليه في الطيب واللذة، ومع ذلك نَعْمُهُ العاجلة واصلة إلينا بما لو عملنا أضعاف عملنا لتحصيله؛ لكان ذلك في جنبه، وإذا كان العمال المشهورون بالانقطاع في الخدم قد تجرَّدوا ليلهم ونهارهم في الأعمال الشاقة لتحصيل قوت أيام قليلة، وحسَّن ذلك عندهم، ولم ينههم عنه العقل، فلم لا نجتهدُ بعض يومنا وليتنا لتحصيل متاع مدَّة طويلة في نِعَمٍ جليلة، وخيرات جزيلة، نعم المراتب التي يهون فيها المطالب.

في الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَتْرَلَةٌ مَنْ لَهُ مِثْلُ مُلْكِ الدُّنْيَا عَشْرُ مَرَّاتٍ)) انظر كم لِمَنْ رُفِعَ عنه مرتبة أو مرتبتين، فلا إله إلا الله؛ لقد عَمَّت الغفلة وغلبت الشُّقُوَّة؛ إلا على الرحومين المعصومين، جعلنا الله منهم، وإنَّ من أهل الجنة مَنْ يُرى كالكوكب الدُّرِّي في جوِّ السماء شرفاً وعُلُوًّا، أجل؛ إنَّ هذه المراتبَ عَلَيْهِ.

قوله عليه السلام: فَكَأَنَّ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ فَارْتَفَعَ الْإِرْتِيَابُ.

الكشف نقیض التغطية. **والقناع** ما يُتَقَنَّع به أي يتغطى. **والارتفاع** زوال الشك. **والارتياب** هو الشك.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَام جعل مدة التكليف كأن الأمور عليها قناع لكون مقادير الثواب والعقاب ومستحقي الثواب والعقاب غير مَثَابِينَ، ولا معاقبين، ولا معرِّفين ما يستحقون مُفَصَّلًا، وكأنك بالموت قد وصل، والحساب قد حصل، فكُشِفَ القناع عند ذلك، فارتفع بمعنى زال وذهب الارتياب، الشك الذي كان في قلوب الشاكِّين والمسوِّفين من التأوُّلين معناه، فاحزم أيها الغافل من انكشاف القناع، وزوال الشك، وأنت على حالةٍ تؤدِّيك إلى الندامة في ذلك المقام الذي فاز فيه فائزٌ، وخسر خاسرٌ، وكلُّ فوز وخسارة دونه مُحَالٌ.

قوله عليه السلام: وَلَا قَى كُلِّ امْرِئٍ مُسْتَقَرُّهُ، وَعَرَفَ مَثْوَاهُ وَمَقِيلُهُ.

الملاقاة: المواجهة والموافاة. والمستقر: هو وطن الإنسان ومحلّه. والمثوى هو المنزل والمقام،

قال الشاعر:

طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ [بين اللّكّيك وبَيْنَ ذَاتِ الْحَرْمَلِ^(١)]

ومقيله: محط القائلة، تحت شجرة، أو خباء.

المعنى في ذلك: أن القناع إذا رُفِعَ وزال الشك عَرَفَ ابْنُ آدَمَ مُسْتَقَرَّهُ؛ أفي جنة أم في نار، ومثواه؛ أفي دار السلامة، أم دار الندامة، ومقيله؛ أفي ظل العرش المجيد، والسدر المخضود، أم تحت شجرة الزقوم، وظل اليعموم؛ فإذا كان من لم ينل أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ، وقع في الْآخِرِ لَا مُحَالَةَ؛ وجب على العاقل الاحتراز والحزم والاجتهاد، والحريص مُعَانٌ، والرَبُّ كَرِيمٌ، والمطلبُ يَسِيرٌ، وللخير أسبابٌ، وللشرِّ أبوابٌ، جعلنا الله وإياكم من المتمسكين بأسباب السلامة، النازلين دار المُقَامَةِ ومحَلَّ الكرامة، والصلاة على محمد وآله.

(١) الثَّوَاءُ: طَوَّلُ الْمُقَامِ، ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً، (لسان العرب ١٤ / ١٢٥).

الحديث السابع والعشرون

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حُطْبَةٍ خَطَبَهَا: ((لَا تَكُونُوا مِمَّنْ اخْتَدَعَتْهُ الْعَاجِلَةُ وَغَرَّتْهُ الْأُمْنِيَّةُ، وَاسْتَهْوَتْهُ الْخُدْعَةُ، فَرَكَنَ إِلَى دَارِ سَرِيعَةِ الزَّوَالِ، وَشَيْكَةِ الْإِنْتِقَالِ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ فِي جَنْبِ مَا مَضَى إِلَّا كَانَاخَةٍ رَاكِبٍ، أَوْ صَرَّ حَالِبٍ، فَعَلَامَ تُعَرِّجُونَ؟! وَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟! فَكَأَنَّكُمْ وَاللَّهِ بِمَا قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَمَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْآخِرَةِ كَأَنْ لَمْ يَزَلْ، فَخُذُوا الْأُهْبَةَ لِأَرْوَفِ الثَّقَلَةِ، وَأَعِدُّوا الزَّادَ لِقُرْبِ الرَّحَلَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ امْرِئٍ عَلَى مَا قَدَّمَ قَادِمٌ، وَعَلَى مَا خَلَفَ نَادِمٌ)).

أبو هريرة قد تقدم الكلام في صفته ونسبه. وقد تقدم تفسير الخطبة والخدعة، والاختداع افتعال منها. والعاجلة الدنيا، لقربها منّا، وتعجلها إلينا. والاغترار^(٢) قريب من الاختداع في المعنى، ومنه يَبُغِ الغَرَرُ، ومعناه أن يُظْهِرَ الإنسان أمراً يُرَكَنُ إليه، والأمر في الباطن بخلافه، وهو مأخوذ من الغرّ، وهو الحرف، كأن صاحبه منه على غير ثبات. الأمنية واحدة الأمانى، لبعض أهل العصر:

وكم أُمْنِيَّةٌ جَلِبْتُ مَنِيَّةً^(٣)

واستهوته: استخففته فصيرته هواء لا ثبات له. الخدعة الحيلة والنصب.

(١) قال السيد الشريف: حدثنا شيخني أبو سعيد السيرافي قال حدثنا إبراهيم بن شريك قال حدثنا أحمد بن

عبد الله بن يونس اليربوعي قال حدثنا بن أبي ذيب عن المنقري عن أبيه عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) قال في الصحاح: يُقَالُ رَجُلٌ غَرٌّ، بِالْكَسْرِ، وَغَرِيرٌ أَيْ غَيْرُ مُجَرَّبٍ، هَامِش (أ).

(٣) نسبها الجرجاني عليه السلام في كتاب الاعتبار وسلوة العارفين إلى الإمام علي عليه السلام في أبيات:

أَلَا يَا نَفْسُ إِنَّ تَرْضَايَ بِقُوتٍ	فَأَنْتِ عَزِيزَةٌ أَبَدًا غَنِيَّةٌ
دَعِي عَنْكَ الْمَطَامِعَ وَالْمَلَاهِي	فَكَمْ أُمْنِيَّةٌ جَلِبْتُ مَنِيَّةٌ

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ نهى أن نكون ممن اختدعته العاجلة - وهي الدنيا - عن دينه، ومصالح نفسه، ومنجيات عمله، اشتغل بأمور العاجلة، ونسي الآجلة، ففاته العاجلة، وشقي بالعاقبة، فلا العاجلة له باقية، ولا له من شر الآجلة واقية.

هذا وقد غرَّ نفسه بالأمنية، فبادرته المنية، واستهوته الخدعة، فلم يُمكن من الرجعة، فانظر أيها العبد لنفسك نظراً مُحلّصاً، ولا تكن بها متربّصاً، وبادر زوالها، وَوَشَكْ (١) انتقلها، ولا تنخدع لها، ولا تغتر بغرورها، ولك منها فيمن غرَّته قبلك أكبر واعظة، وفيمن اختدعته واستهوته أوضح زاجر، أفلم تُصَيِّرِ الملوك بأمانيتها أمثالاً سائرة، وتُنْزِلَ بهم الفاقة الواقعة (٢)، أفلم تخدع المترهبين في رهبانيتهم، والمتعبدين في عبادتهم، والعلماء في علمهم، والمذكِّرين في تذكيرهم، وبسطت حبال آملها، ولَوْنَتْ تصاوير خدائعها، فقَصَّرَ مُقَصِّرٌ فاقْطَعَتْهُ في تقصيره، وسار سائرٌ فعاقتَه عن مسيره، وَرَكْنَ (٣) ثالث فاستنزله عن سريرته، فرمتهم في الساهرة (٤)، وردتهم في الحافرة (٥)، فباءوا بصفقة خاسرة، ووجوه باسرة (٦)، فإياك أن تكون واحداً منهم، فذلك جُمعُ كَثْرَتِهِ وَحَشَّةٌ، وَحَشْدُهُ قُلٌّ وَقُلٌّ (٧)، وصَغَارٌ وَذُلٌّ.

(١) وَشَكْ انْتَقَلَا: سُرْعَةً انْتَقَلَا، وَذُنُوهُ وَقُرْبُهُ، قال في القاموس المحيط (ص: ٩٥٧) وَشَكْ الْفِرَاقِ وَوَشَكَاؤُهُ، وَيُضَمَّنَانِ: سُرْعَتُهُ.

(٢) الْفَاقِرَةُ: الدَّاهِيَةُ الَّتِي تَكْثُرُ فَقَارَ الظَّهْرِ، (قد فسرهما الإمام عليه السلام في الحديث الخامس عشر) والواقرة: لعلها مأخوذة من الوقر بالكسر وهو الحمل الثقيل.

(٣) رَكْنَ إِلَيْهِ، كَنَصَرَ وَعَلِمَ وَمَنَعَ، رُكُونًا: مَالٌ، وَسَكَنَ، (القاموس المحيط: ١٢٠١).

(٤) السَّاهِرَةُ: الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ الْمُسْتَوِيَّةُ، تَمَّتْ كَشَافٌ، هَامِشٌ (أ) (انظر لسان العرب: ٤/ ٣٨٣).

(٥) الْحَافِرَةُ: الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ، هَامِشٌ (أ)، قال في القاموس المحيط: الْحَافِرَةُ: الْخَلْقَةُ الْأُولَى، وَالْعَوْدُ فِي الشَّيْءِ حَتَّى يُرَدَّ آخِرُهُ عَلَى أَوَّلِهِ، (القاموس المحيط: ٣٧٨).

(٦) الْبَاسِرُ: الشَّدِيدُ الْعَبُوسُ، هَامِشٌ (أ).

(٧) الْقُلُّ، بِالضَّمِّ: الْقَلِيلُ، وَالْقُلُّ، بِالْفَتْحِ: الْمُنْهَزِمُونَ، قَوْمٌ قُلٌّ: أَيُّ مُنْهَزِمُونَ، (القاموس المحيط).

قوله عليه السلام: فَرَكَنَ إِلَى دَارِ سَرِيعَةِ الزَّوَالِ، وَشَيْكَةِ الْإِنْتِقَالِ.

الركون والسكون والاطمئنان معناه واحد. والسريع والحديث معناهما واحد. والزوال هو الذهاب والمضي. والوشك هو العاجل. والانتقال هو التحول.

المعنى في ذلك: أن من اختدعته العاجلة؛ وغرته الأمنية؛ واستهوته الخدعة؛ فإنه يركن إلى دار الدنيا، وهي كما علمنا سريعة الزوال، إذ لا حقيقة لشيء منها، غناؤها يؤول إلى العدم، وصحتها إلى السقم، وفراغها إلى الشغل، وكثرها إلى القل، وإنما هي فيء مائل، وظل حائل، وليس في متاعها طائل، ولا نائلها بنائل، بل هو سم قاتل، وحتف عاجل، ومن ركن إلى ما هذه حاله وصفتة؛ فهو المغرور المخدوع المستهوى لا محالة.

قوله عليه السلام: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ فِي جَنَبِ مَا مَضَى إِلَّا كَانَاخَةِ رَاكِبٍ، أَوْ صَرٍّ حَالِبٍ.

الإناخة سريعة، وهي بالمشاهدة معروفة، يقرع الراكب ركة راحلته أو عنقها، وقد أناخ في أسرع من رجع الكلام.

وصرّ الحالب: وشيك أيضاً، إنما هو عصب الصرار على الضرع خيفة على الفصيل من اللبن في زمن الخير، وعلى اللبن من الفصيل في زمن الشر، وقد رأيناه يسبق إشارة المتكلم وردّ المسلم.

المعنى في ذلك: أنه إذا كان الأكثر قد ذهب، والأجل قد اقترب، وقد علمنا أن آخر هذا الكثير زواله، ونهاية هذا الطويل انقطاعه، وكان الباقي بعض الماضي؛ فانظر ما يكون آخره، وإنما لك من الدنيا - طالت أم قصرت - عمرك، فارم بفكرك إلى أبعد غاية منه تظنها ويظنها الظائون، فاعرف ما نهايته، ولا تغفل عن الاستعداد، وقدم الزاد، واهجر الرقاد، وليس الواعظ لك بمفازة من الغفلة، وإنما عنك بالكلام ونفسه.

قوله عليه السلام: فَعَلَامٌ تُعَرِّجُونَ؟ وَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟!

التعريض: هو أن يُيَسِّلَ الإنسان راحلته إلى بعض أغراضه لقضاء حاجة، أو عيادة وطن، وتَذَكُّرُ رِسْمٍ، وهو ظاهر في لسانهم جداً، ومنه سُمِّيَ الأعرج لميلان سيره، فكأنَّ الصادر لحاجته عَرَّجَ عن سَنَنِ أصحابه، قال شاعرهم:

عَرَّجَ عَلَى الدَّارِ بِالْمُلْحَاءِ وَالِدَّامِنِ بَادَتْ وَأَخْنَى ^(١) بِهَا خَالَ مِنَ الزَّمَنِ

والانتظار والتربص والتأمل متقاربة، وكان الذي ينتظر غيره يشخص ببصره إلى جهته، فلما كثر سُمي نظراً وانتظاراً، وإن لم يُرِعْ طرفه إذا كان في تَرْجِيهِ.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ، وَقَدْ ذَهَبَ أَجْزَلُهَا، وَهُوَ مَاضِيهَا، فَمَا حَالُ أَقْلَهَا وَهُوَ بَاقِيهَا؟! فَعَلَامٌ تُعَرِّجُ إِلَى مَا هَذِهِ حَالُهُ، وَهُوَ ذَاهِبٌ مَاضٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا بَقَاءَ وَلَا خُلُوصَ مِنَ الْمَكْدَرَاتِ وَالْأَذَى، وَمَاذَا نَنْتَظِرُ بَعْدَ الْمَاضِيْنَ الْأَوَّلِينَ؛ وَنَحْنُ عَمَّا قَلِيلٍ بِهِمْ لَا حَقُّونَ، وَإِلَى حَالِهِمْ صَائِرُونَ.

قوله عليه السلام: فَكَأَنَّا كُنَّا نَمُنُّ بِاللَّهِ بِمَا قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا كَأَن لَمْ يَكُنْ، وَمَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْآخِرَةِ كَأَن لَمْ يَزَلْ.

الأزل هو الدهر، وفي بعض دعاء الأوائل: يَا أَزَلَ الْأَزَلِ، لَمَّا كَانَ مُؤَزَّلَ الْأَزَلِ سِوَاهُ أَزْلاً، فَمَعْنَى لَمْ يَزَلْ مَعْنَاهُ الدَّهْرُ مَا بَرَحَ، جَعَلَ لَفْظَ الدَّهْرِ جُمْلَةً الْمَعْنَى، وَبَاقِي الْفَرْقِ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

المعنى: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْسَمَ - وَهُوَ صَادِقُ الْقَسَمِ - أَنَّ مَا أَصْبَحْنَا فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا يَعُودُ عَمَّا قَلِيلٍ كَأَن لَمْ يَكُنْ؛ لِزَوَالِهِ وَذَهَابِهِ وَانْتِقَالِهِ، وَتَحَوُّلِ حَالِهِ، وَقَدْ رَأَيْنَا ذَلِكَ عَيَاناً فِيمَا مَضَى مِنْ أَيَّامِنَا هَلْ بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ؟! وَهَلْ دَامَ لَنَا شَيْءٌ مِنْ سُرُورِهِ؛ أَوْ دَامَ عَلَيْنَا شَيْءٌ مِنْ غَمِّهِ؟! بَلْ غَدَا كُلُّ شَيْءٍ لَوْ قَتَهُ، وَزَالَ لَحِينُهُ، وَمَضَى لِحَالِ سَبِيلِهِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا تَبَعْتُهُ؛ إِنَّ خَيْراً فَخِيراً، وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً، وَكَذَلِكَ مَا نَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْآخِرَةِ يَصِيرُ كَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ، لَكُونُنَا عَلَيْهِ وَفِيهِ، وَشَاهِدُ هَذَا مَعْلُومٌ لَنَا مِنْ

(١) وَأَخْنَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ أَيْ عَلَيْهِ وَأَهْلَكَهُ. (مختار الصحاح) ص ٩٨.

أنفسنا، وقد قال من يُعْتَدُّ بقوله من أهل اللسان^(١):

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لَا ابْنَ أَمْسِهِ

وذلك حق؛ لأنَّ الإنسان إن لقي في يومه خيراً فكأنه ما لقي الشرَّ أبداً، وإن لقي شراً فكأنه ما لقي الخير أصلاً، فإذا صرنا إلى الآخرة - ونحن لا محالة إليها صائرون - فكأننا ما زلنا فيها لا بشين، وكأننا لم نعرف غيرها، إن كُنَّا في خيرها - وهو رجاؤنا من الله سبحانه - فكأننا ما رأينا شراً، وإن كُنَّا في شَرِّها - والعياذ بالله - فكأننا ما رأينا خيراً. فإذا كان الأمر هكذا كان الأولى بنا تقديم أعمال الخير، واستحقاق^(٢) أسباب الرشد، والافتداء بالصالحين الذين رفضوها، وقَلَّلوها في أعيانهم فكانت نغماتها طنين الذباب، ولذاتها رقرق السراب^(٣)، فصرفوا عنها أسماعهم، وأعدُّوا ماءهم ومتاعهم، وصمدوا صمَدَ دار المقامة، ومنزل الإقامة، فكافحوا كل صائد لهم عن محطِّ رحالهم، وممدود ظلالهم، فنسوا التعب، وأفضوا إلى النعيم المقيم، والخير الجسيم.

قوله عليه السلام: فَخَذُّوا الْأَهْبَةَ لِأَزُوفِ الثَّقَلَةِ، وَأَعَدُّوا الزَّادَ لِقُرْبِ الرِّحْلَةِ.

قد تقدم الكلام في الأهبة. والأزوف معناه الدنو. والثقله والانتقال واحد. والإعداد جمع العُدَّة، والعدَّة ما يحتاجه الإنسان. والقربُ ظاهرٌ. الرحلة هي الانتقال، وقد تقدم معناها اللغوي مستوفى.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرنا أن نأخذَ الأهبة وهو التهيؤ بما يحتاج إليه المستقل، فإنَّ الثقله قد أزفت، وذلك ما لا شك فيه، ولا مِرْيَةَ تعتريه، لأنَّ كُلَّ آتٍ قريب، والانتقال آتٍ لا

(١) قال في هامش الأصل: هو الحريري، وبعده:

وما الفخرُ بالعظمِ الرِّميمِ وإنَّما فحارُ الذي يبغي الفخارَ بنفسه

(٢) الاستحقاق: التزوُّد، والادِّخار، قال في لسان العرب (١/٣٢٥): الحَقَبُ: حَبْلٌ تُشَدُّ بِهِ الْحَقِيَّةُ. وَالْحَقِيَّةُ: الرَّفَادَةُ فِي مُؤَخَّرِ الْقَتَبِ... قال الأزهري: الاحتقَابُ شَدُّ الْحَقِيَّةِ مِنْ خَلْفٍ، وَكَذَلِكَ مَا حُمِلَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْفٍ، يُقَالُ: احْتَقَبَ وَاسْتَحَقَبَ، أ.هـ..

(٣) رَقْرَاقُ السَّرَابِ: مَا تَرَقَّرَقَ مِنْهُ. أي: جاء وذَهَبَ، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ تَلَأْلُؤٌ، فَهُوَ رَقْرَاقٌ (الصحيح: ٤/١٤٨٤).

محالة، واجتمعوا زادكم وزنادكم ومزادكم^(١)، فإن رحلتكم قد قربت، وداركم التي تصيرون إليها قد بانت وعزبت^(٢)، وبينكم وبينها مسافة؛ بعيدة على المسترسلين، قريبة على المعدّين المستظهرين، فلا تكونوا من العاجزين، فقد أودتكم بالرحيل، ويئس لكم السبيل، وأعلمتكم أن الطريق مظلمة^(٣) مخوفة، تنتهي إلى عقبة كؤود، لا يقطعها إلا من خفف ظهره من الأوزار، وهجر الإصرار، فواصل التوبة، ورخص^(٤) الحوبة، وأعدّ العدة لسفره، ورمى إلى منزله من الجنة ببصره، فاستصغر كل خطر دونه، واستقرّب كل بعيد بينه وبينه، فلم يعقه هول، ولا ردّعه فعل ولا قول.

قوله عليه السلام: واعلموا أن كل امرئ على ما قدم قادم، وعلى ما خلف نادم.

قد تقدم الكلام في التقديم، والتخليف نقيضه. والندم هو نوع من الغم إلا أنه لا يكون إلا على فائت، وهو نقيض العزم.

المعنى: أن كل امرئ يقدر على ما قدم، ويندم على ما خلف، فإذا كان هذا الخبر من قامت البراهين بصدقه، فلم لا يقدم أعمال الخير، وأنواع البر؟ ولأي شيء يُخلف ما يندم عليه بشهادة الصادق في خبره؟! ما هذا عمل المستبصرين في أمرهم، المجتهدين في نجات أنفسهم، إنما حق أنفسنا علينا أن نتحرى لها الصلاح بجهدنا، وأن لا تؤتينا فيما يصل إليها من المكروه من قبلنا، وقد جعل الميدان مفرغاً للساعين منا، وعرفنا أحكام أفعالنا، ولم نجعل لنا رخصة في الغفلة عن حسن الاختيار، فما قولك لو كلّفنا ترك الاختيار لأنفسنا؛ هل كان في التكليف اشق من تكليفنا؟! وهل

(١) الزند: مؤصل طرف الذراع في الكف، وهما زندان، والعود الذي يُفدح به النار، والسفل: زندة، ولا يقال: زندتان، الجمع: زند وأزند وأزند. وتقول لمن أجدك وأعانك: ورت بك زنادي، (القاموس: ٢٨٥). والمزاد: جمع مرادة، والمزادة التي يُحمل فيها الماء، وهي ما فتم [وسع] يجلد ثالث بين الجلدتين ليتسع، سُميت بذلك لمكان الزيادة، (لسان العرب: ٣/١٩٩).

(٢) بانّت بمعنى: بعدت وفارقت، ومعنى عزبت: غابت وذهبت، قاموس.

(٣) قال في هامش الأصل: قليلة الماء، أ.هـ. وقال في اللسان (١/١١٦): المظلم: موضع الظلم من الأرض.

(٤) رخصه، كمنعه: غسله.. والمرحاض، بالكسر: خشبة يضرب بها الثوب، والمغسل، وقد يُكنى به عن مطرح العذرة، وكمنسة: شيء يتوضأ فيه مثل الكنيف. (القاموس المحيط: ٦٤٣). والحوية: الإثم، ويضم.

أطاع إلا ناقصي العقول؟ فهل أجهل ممن عصى في أمرٍ يعود على نفسه نفع طاعته في عاجلٍ غير آجل، دائمٍ واصلٍ؟! وما ظنُّك بمن يخلف ما يندم عليه؛ أيَعْتَدُ بتخليفه؟! أم هو بعد تخليفه راجع إليه؟! إنما هي جهالةٌ تضحك منها العقول والأفكار، فأما من ترك صدقةً مسبَّلةً، أو صلةً محررةً، أو وقفاً مستمرّاً، فليس هذا من المندوم عليه في شيء.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من المُقَدِّمين على ما نُغْبِطُ بالقدوم إليه، المخلفين لما لا نندم عليه، والصلاة على محمد وآله.

الحديث الثامن والعشرون

عَنِ ^(١) ابْنِ عَبَّاسٍ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ، وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ بَسِيطِ الْأَمَلَ مُتَقَدِّمَ حُلُولِ الْأَجَلِ، وَالْمَعَادُ مِضْمَارُ الْعَمَلِ، فَمُعْتَبِطٌ بِمَا احْتَقَبَ غَانِمٌ، وَمُسْتَيْئِسٌ بِمَا فَاتَهُ مِنَ الْعَمَلِ نَادِمٌ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الظَّمْعَ فَقْرٌ، وَالْيَأْسَ غِنًى، وَالْفَنَاعَةَ رَاحَةً، وَالْعُزْلَةَ عِبَادَةً، وَالْعَمَلَ كَنْزٌ، وَالْدُّنْيَا مَعْدِنٌ، وَاللَّهُ مَا يَسِّرُنِي مَا مَضَى مِنْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ بِأَهْدَابِ بُرْدِي هَذَا، وَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ، وَكُلٌّ إِلَى نَفَادٍ وَشَيْكِ، وَزَوَالٍ قَرِيبٍ، فَبَادِرُوا وَأَنْتُمْ فِي مَهَلِ الْأَنْفَاسِ، وَجِدَّةِ الْأَحْلَاسِ، قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُوا بِالْكَظَمِ، فَلَا يُغْنِي النَّدَمُ)).

البسيط فعيل من البسط، وهو الممدُّ، وسمي البساط من ذلك، والأمل يسط لصاحبه بساطاً طويلاً، وهو متقدم على الحلول. **والحلول** نقيض الرحيل. **والحال** الواقع الواجب. **والمعاد** ما يرجع إليه الإنسان. **والمضمار** كان في الأصل تقسيط العلف على الخيل وصنعتها وتسييرها إذا أرادوا السباق بها، ثم كثر ذلك حتى جعلوا الميدان مضماراً، قال شاعرهم:

مَنْ شَكَّ فِي جَرِّي الْكُمَيْتِ فَبَيَّنْهُ فِيهِ وَبَيَّنْ يَقِينَهُ الْمِضْمَارُ

المعنى في ذلك: أن بسيط الأمل لتقدمه لحلول الأجل رُبَّمَا اغْتَرَّ فِيهِ الْمَغْتَرُّونَ فَهَلَكُوا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَأْمُلُونَ أَمَلًا بَعِيدًا ثُمَّ يَحُلُّ الْأَجَلُ، وَلَمْ يُؤَدُّوا مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَخْرُجُوا مِنْ عَهْدَةٍ مَا يُلْزِمُهُمْ، فَتَقَعُ عَثْرَةٌ لَا تُقَالُ، وَإِذَا رَجَعَ الْعِبَادُ إِلَى الْمَعَادِ كَانَ ثُمَّ مِضْمَارُ الْعَمَلِ، فَمِنْ سَابِقِ نَجَا، وَمِنْ مُقَصِّرٍ هَوَى فِيمَنْ هَوَى، وَجَثَا فِيمَنْ جَثَا، فَغَرِقَ فِي بَحْرِ الضَّلَالِ، وَكَبَا ^(٢) فِي مِيدَانِ السُّؤَالِ.

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا محمد بن زكريا قال حدثنا العباس بن محمد عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس... الحديث.

(٢) كَبَا كَبُوءًا وَكُبُوءًا: اُنْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ، الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ (ص: ١٣٢٧).

قوله عليه السلام: فَمَغْبِطٌ بِمَا اخْتَبَ غَانِمٌ، وَمُسْتَيْشٍ بِمَا فَاتَهُ مِنَ الْعَمَلِ نَادِمٌ.

الاغبتاب نهاية السرور، وأصله الطراوة، ومنه سمي الغبيط^(١) إذ فيه ما يُغْبِطُ به، قال

امرؤ القيس^(٢):

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعًا عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَاَنْزِلِ
والاحتقَاب أن يدع الإنسان ما يَضُنُّ به ويحتاج إليه في حقبة رَحْلِهِ ليقْرُبَ تناوله،

قال الشاعر^(٣):

فَعَا جُوا فَاتَنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقال آخر^(٤):

إِنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ^(٥) يُعْطَى الْحَقُّ سَائِلُهُ وَالذَّرْعُ مُحَقَّبَةً وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ

(١) الْغَبِيطُ الرَّحْلُ، وهو للنساء يُشَدُّ عَلَيْهِ الْهُودُجُ، وَالْجُمُعُ غُبْطٌ. (لسان العرب: ٧/ ٣٥٨).

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني أكل المزار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يباني الأصل. مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن. اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، ... ويعرف امرؤ القيس بالملك الضليل (لاضطراب أمره طول حياته) وذو القروح (لما أصابه في مرض موته) ... وكتب الأدب مشحونة بأخباره. (انظر الأعلام للزركلي ١١/ ٢).

(٣) هو نُصَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ، أَبُو مُحَجَّجٍ، مَوْلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مِرْوَانَ، وكان شاعراً فحلاً فصيحاً مُقَدِّماً في النسيب والمديح، ولم يكن له حظ في الهجاء، وكان عفيفاً، تَسَّكَ فِي أَوَاخِرِ عَمْرِهِ، توفي سنة ١٢٠هـ، انظر أخباره في كتاب الأغاني.

(٤) البيت لعبد الله بن عَمَّةِ الضَّبِّيِّ، وبعده:

وَإِنْ أَيْسَرْتُمْ فَإِنَّا مَعْسَرٌ أُنْفٌ لَا نَطْعُمُ الذَّلَّ إِنَّ السَّمَّ مَشْرُوبٌ

وعبد الله بن عَمَّةٍ هو من المخضرمين، وهو من شعراء المفضليات. له فيها قصيدة ومقطوعة من عالي الشعر. عاش في الجاهلية ورثى فيها بسطام بن قيس، ثم شهد القادسية (سنة ١٥) في الإسلام، (الأعلام للزركلي ٤/ ١١١).

(٥) في الأصل والنسخة (أ): الْخَيْرُ، وما أثبتناه من نسخة أخرى، ومن كتاب المفضليات وكتاب الأصمعيات.

المعنى في ذلك: أن الناس عند إرسال الأعمال في المضمار كإرسال الخيل في الميدان بين رجلين: مغتبط ومستئيس، والمغتبط هو مُستحب عمل الخير الذي أدّخره، وجعله في حقيقة رحله كما يستحب الرجل درعه لحالة فزعه، ونفيس ثيابه لوقت تحمله. والمستئيس هو الذي فوّت على نفسه فعل الخيرات، واقتناء الصالحات، فندم حين لم تُغنِه ندامة ولات حين مندم.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وَالْيَأْسَ غِنًى.

الفقر هو الحاجة، وأصله من فقار الظهر، وهو عقوده، لما كان الفقير كأنَّ الحاجة قطعت عقود ظهره سمي فقيراً. **والياس** نقيض الطمع، والطمع رغبة شديدة، والياس إعراض عن محبوب. والغنى نقيض الفقر.

المعنى: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبرنا -وهو الصادق في خبره- أن الطمع فقر، وذلك أن الراغب في الدنيا الشديد الرغبة لا يزال محتاجاً، لأنه لا يطلب سد الفاقة فيكفيه القليل؛ وإنما يطلب الاحتكار، وليس للمحتكر غاية يقف عندها، فصاحب الطمع فقيرٌ الدهر؛ لأنه ما حصل له أمر نزعَتْ نفسه إلى أمر آخر، والياس هو الإعراض وقطع الرجاء عن الأمر، جعله عَلَيْهِ السَّلَامُ غِنًى، لأن الإنسان إذا يئس من الشيء لم يطلبه، فصار بالإعراض عنه في صفة الغِنَى منه.

قوله عليه السلام: وَالْقَنَاعَةُ رَاحَةٌ، وَالْعَزَلَةُ عِبَادَةٌ.

القناعة مصدر القُنُوْع بالهاء. والراحة نقيض التعب. والعزلة مأخوذة من الاعتزال، وهو الانفراد. **عِبَادَةٌ** هو التذلل مأخوذة من التعبد، وهو التذلل.

المعنى في ذلك: أن القناعة تَحْمِلُ صاحبها على ترك الحرص والطلب؛ فيستريح لهذا السبب، سميت القناعة راحة؛ لأنها وَدَّتْ إلى الراحة، وتسمية الشيء بما يؤدي إليه شائع في كلامهم. وكذلك فإن المعتزل وهو المنفرد من أذية الناس ولجاجهم لا بد أن يفكر في أمره ومعاده، وعمله ومصيره، ومذهبه ودينه، فيكون -والحال هذه- قد عبد ربه بمعنى ذلَّ له، وتواضع؛ وَضَعَ نفسه، ولا تكون العزلة عبادةً إلا على هذا المعنى؛ لأنَّ حال المعتزل يخالف حال المنغمس في الناس، لأن الاشتغال بهم وبأموارهم يمنعه مما ذكرنا، فلا تتأتَّى له العبادة؛ اللهم إلا أن يكون مداوياً لجرحهم، حاسماً لكلوهم، مرشداً لضلالتهم، وازعاً لعفارياتهم عن مراداتهم في تمردهم، فإنه في

العبادة الكاملة، والواجب عليه ترك الاعتزال، ولهذا فإن السلف الصالح من آبائنا عليهم السلام كان من تمكن منهم من القيام بأمور الناس وتقويم أودهم عاشرهم وكاشرهم، وتأثني بهم وصابرهم، حتى يقيم حجة الله على خلقه، ومن تعذر عليه ذلك اعتزل بنفسه وولده لعبادة ربه، فافهم ما ذكرتُ لك، فإن أكثر أهل عصرنا جُهِال بمواقع الحكمة، وإشارات أهل المعرفة، يخبطون الدين خبط السَّكَمَةِ^(١) شوكة وورقة، لم يَرُدُّوا الأمر إلى أهله فيسلكوا فجاجة الرحبية، ويوردوهم مناهله العذبة القريية.

قوله عليه السلام: وَالْعَمَلُ كَثْرٌ، وَالْدُّنْيَا مَعْدِنٌ.

الكنز هو الجمع كما قدمنا، هذا أصله، ثم نُقِلَ إلى كل مالٍ مجموع؛ هذا لغته، ثم نُقِلَ إلى كل مالٍ مجموع من الذهب والفضة والجواهر، هذا عرفه، ثم نقل إلى كل مالٍ لم يُخْرَجْ حقُّ الله تعالى منه، هذا شرعه^(٢)، واللفظ هاهنا محمول على المعنى العرفي. والمعدن هو الموضع الذي يُستخرج منه الجواهر والذهب والفضة واللؤلؤ والدر والياقوت والمرجان وغير ذلك، وسمي معدناً لعدونه وإقامته، أصل العدون الإقامة، قال الشاعر^(٣):

فَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إِلَى حِلْمِهِ يُضَافُوا إِلَى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنَ^(٤)

(١) السَّكَمَةُ: هي شجرة ورقها القَرظ، وَيَعْسُرُ خَرطَ وَرَقَهَا فَتُعْصَبُ أَغْصَانُهَا، بِأَنْ تُجْمَعَ وَيُسَدَّ بِعُضْهَا إِلَى بَعْضٍ بِحَبْلٍ، ثُمَّ تُخْبَطُ بِعَصَا فَيَتَنَاثَرُ وَرَقُهَا، (النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٤٤).

(٢) ذكره الإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام بزيادة تفصيل في شرح الحديث الثامن عشر عند تفسير الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ...﴾.

(٣) هو الأعشى (ت ٧ هـ) ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقة. ... عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره، ... أخباره كثيرة، ... جمع بعض شعره في ديوان سمي (الصبيح المنير في شعر أبي بصير- ط) (انظر الأعلام للزركلي ٧/ ٣٤١).

(٤) عَدَنَ فُلَانٌ بِالْمَكَانِ يَعْدُنُ وَيَعْدُنُ عَدْنًا وَعُدُونًا: أَقام، وَعَدَنَتُ الْبَلَدَ: تَوَطَّئْتُه. ومركزُ كُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنُهُ، وَجَنَاتُ عَدْنٍ مِنْهُ: أَي جَنَاتُ إِقامَةٍ؛ لِمَكَانِ الْخُلْد. (لسان العرب: ١٣/ ٢٧٩).

المعنى: أنَّ هاتين الكلمتين وما قبلهما فرائد^(١) من الحكمة، إذا وُسِّطَتْ بها قلائد الموعظة أشرفت لها المجالس نوراً، وتأرجحت^(٢) مسكاً وكافوراً، فإنها بالغةُ جُهدَها في الإبلاغ، ولم لا وهي من نبي خير الأمم، وكاشف دياجير الظلم، وسيد العرب والعجم، الناطق عن الوحي المحكم.

المعنى في ذلك: أن العمل لَمَّا كان به غنى صاحبه من كل فقر، وراحته من كل نصب، وظفره بكل عدوٍّ، ونيله لكل مراد؛ صار بمنزلة الكنز، بل هو أنفع منه. وتمثيلة للعالم بالمعدن لأنَّ الكنز يُستخرج من المعدن، وهي دار العمل، لأن فيها التكليف، فصارت بمثابة المعدن يُستخرج منه كلُّ إنسان بقدر آتته وقوته، وتوفيق الله له، ورزقه إيَّاه، فهي على هذا أفضل المعادن، وأرجح المطالب، إذ الذي يحصل منها لا تساويه الكنوز جلاله وعظماء، ورفعة ونفاسة.

قوله عليه السلام: وَاللَّهِ مَا يَسْتُرُنِي مَا مَضَى مِنْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ بِأَهْدَابٍ بُرْدِي هَذَا.

يسرني نقيض يغمي. والماضي نقيض الآتي. والأهداب هي أطراف خيط سدئ الثوب في نسج اليمين، وهي معروفة. والبرد هو الرداء.

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أقسم وهو الصادق القسم أن الماضي من الدنيا، وهو صَفْوُها وخيرها وروحها وأولها لا يساوي عنده أهداب بُرده، وهي لا قيمة لها، لزواله ونقصه وانتقاله.

قوله عليه السلام: وَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ.

المشابهة والمشاكلة والمساكلة معناها واحد.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أقسم أن الماضي عنده لا يساوي أهداب بُرده، وأن الباقي أشبه شيء بالماضي كالماء بالماء، ولا نعلم تشبيهاً مثل هذا، فإن المياه وإن اختلفت منابعها وتباينت أوطانها فإنَّ تشابهه أكثر من تشابه سائر الأجناس، فإذا كان الماضي كالباقى والماضي لا يساوي

(١) الفَرِيدُ: الدُّرُّ الْمُنَظَّمُ الْمُفَصَّلُ بِغَيْرِهِ، وقيل: الفَرِيدُ: الشَّدْرُ مِنَ الذَّهَبِ، الواحدة: فَرِيدَةٌ، تمت ضياء، هامش (أ). (انظر القاموس المحيط: ٣٠٥).

(٢) الْأَرْجُ، مُحَرَّكَةً، وَالْأَرْيَجُ وَالْأَرِيحَةُ: تَوَهُّجُ رِيحِ الطَّيِّبِ. (القاموس المحيط: ١٧٩).

أهداب برده؛ فكَذَلِكَ الباقي، وإن لم يذكر قيمته، وكل ذلك تزهيد فيها.

وقد زَهَدْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ بِفَعْلِهِ قَبْلَ تَزْهِيدِنَا بِقَوْلِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَرَضَهَا قَرْضاً^(١)، وَلَمْ يَرْفَعْ لشيءٍ مِنْهَا رَأْساً، وَلَمْ يَكْشِفْ لَهَا نِقَاباً، وَلَمْ يَمْسَحْ خَضَاباً، بَلْ كَفَّأَهَا لَوَجْهِهَا، وَجَعَلَهَا مَعْبَرَةً إِلَى غَيْرِهَا، فَمَلِكُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَيْنَ أَقْطَارِهَا وَأَخَذَ مِنْهَا خَرَاஜَهَا، فَمَا خَلَّفَ مِنْهَا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا ذَهَباً وَلَا فِضَّةً، وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً! وَخَلَّفَ ثَلَاثَةَ أَثْوَابٍ؛ سَخَقَيْنِ^(٢) وَثَوْبًا كَانَ يَتَجَمَّلُ بِهِ، فَكُنْفٌ فِيهَا! وَدَرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَقَدْ صَدَّقَ فِي فَعْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّم.

قوله عليه السلام: وَكُلُّ إِلَى نَفَادٍ وَشِيكٍ، وَزَوَالٍ قَرِيبٍ.

النفاذ هو الذهاب والفراغ والنجاح. والوشيك هو السريع. والزوال نقيض الثبات. قريب أي عاجل.

المعنى في ذلك: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبَيِّنُ أَنَّ الْكُلَّ مِنَ الْمَاضِي وَالْبَاقِي مَتْنُهُ إِلَى نَفَادٍ وَشِيكٍ، وَزَوَالٍ قَرِيبٍ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ؛ فَكَيْفَ يَجْعَلُ الْعَاقِلُ شُغْلَهُ بِهِ، أَوْ هَلْ يَحْسُنُ لَهُ الْإِخْلَادُ إِلَيْهِ، أَوْ الْاعْتِمَادُ عَلَيْهِ؟!

قوله عليه السلام: فَبَادِرُوا وَأَنْتُمْ فِي مَهَلِ الْأَنْفَاسِ، وَجِدَّةِ الْأَحْلَاسِ.

المَهَلُ والرَّيْثُ، والبُطُوُّ متقاربة، إِلَّا أَنَّ الْمَهْلَ هُوَ التَّرَاخِي، وَمِنْهُ الْمُهْلَةُ. وَالْأَنْفَاسُ مَا يَخْرُجُ مِنْ رُوحِ الْإِنْسَانِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ مُوسِعًا خَرَجَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ بِهَوْنٍ، وَإِذَا ضَيِّقَ عَلَيْهِ تَدَارَكَ وَتَتَابَعَ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الشَّدَةِ مِنَ الْأَمْرِ، وَضَيْقِ الْمَجَالِ.

(١) الْقَرْضُ: الْقَطْعُ. قَرَضَهُ يَقْرِضُهُ، بِالْكَسْرِ، قَرْضًا وَقَرَضَهُ: قَطَعَهُ. وَالْمُقْرَضَانِ: الْجَلْمَانِ لَا يُفْرَدُ هَهُمَا وَاحِدٌ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ اللَّغَةِ، وَحَكَى سَيِّوْنِيهِ مُقْرَضٌ فَأَفْرَدَ. وَالْقَرَاضَةُ: مَا سَقَطَ بِالْقَرْضِ، وَمِنْهُ قَرَاضَةُ الذَّهَبِ، (لسان ٧/٢١٦).

(٢) السَّحَقُ: الثَّوبُ الْخَلْقُ الَّذِي انْسَحَقَ وَبَلَى، كَأَنَّهُ بَعْدَ مِنَ الْإِثْتِفَاعِ بِهِ. وَانْسَحَقَ الثَّوبُ أَيُّ خَلَقَ، (لسان العرب ١٠/١٥٣).

والأحلاسُ جمع حِلْسٍ وهو ما تُوقى به الدابة والراحلة من الألباد، وقد صار بالخیل أخص، والأصل في الجميع، قال الشاعر:

بِه تَنْقُضُ الْأَحْلَاسُ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَتُعَقِّدُ أَطْرَافُ الْحِبَالِ وَتُطْلِقُ

المَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَيَّنَّ لَنَا حَال الدُّنْيَا أَمَرَنَا بِالمُبَادَرَةِ مَا دَمْنَا فِي مَهَلِ الْأَنْفَاسِ، أَيِ مَتْرَاحِي الْعِنَانِ، وَحَجَرِي الْأَرْسَانِ^(١)، مَوْسَعًا عَلَيْنَا المِيدَانَ، وَأَحْلَاسَنَا الَّتِي هِيَ آلَةُ دَوَابِنَا جَدِيدَةٌ لَمْ تَرْتَّ، فَيَكُونُ عَذْرًا لَنَا فِي تَرْكِ^(٢) الرُّكُوبِ إِلَى طَاعَةِ الرَّبِّ، وَهَذِهِ مَشُورَةٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ يَجِبُ قَبُولُهَا؛ فَالْبِدَارُ الْبِدَارُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ.

قوله عليه السلام: قَبْلَ أَنْ تُوْخَذُوا بِالْكُظْمِ، فَلَا يَغْنِي التَّادِمُ.

الْكُظْمُ هُوَ الْحَلْقُ وَمَجَارِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالتَّنَفُّسِ، فَإِذَا لُزِمَ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ دَمٍ مَاتَ الْإِنْسَانُ، وَإِذَا نَشِبَتْ جِرَّةُ^(٣) الْبَعِيرِ فِي حَلْقِهِ قِيلَ: بَعِيرٌ مَكْظُومٌ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر] لَأَنَّهَا لَزِمَتْ الْكُظْمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْإِغْنَاءُ هُوَ النِّفْعُ وَالدَّفْعُ.

الْمُجْعَى: أَنْ مَنْ لَمْ يَقْدَمْ الْعَمَلُ، وَهُوَ فِي الْمَهَلِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ بِكُظْمِهِ لَمْ يَنْفَعَهُ نَدَمُهُ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ أَيُّهَا السَّامِعُ فَمَا الشَّاعِلُ لَكَ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ وَالْمَانَعِ، شَمَّرِ الذِّلَّ، وَبَادِرِ السَّيْلَ مَا دَامَ النَّدَمُ نَافِعًا، وَالْعَمَلُ وَاقِعًا، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِلْقَاءِ مُسْتَعِدِّينَ، وَلِلْأَهْبَةِ مَعِدِّينَ، وَلِلْفَرَاثِصِ مَوْدِّينَ، وَلِلْخَيْرَاتِ مَوْدِّينَ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

(١) الرَّسَنُ: الْحَبْلُ، وَجَمْعُهُ: أَرْسَانٌ، وَالْمَرْسَنُ: مَوْضِعُ الرَّسَنِ مِنَ الْأَنْفِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى سُمِّيَ أَنْفُ الْإِنْسَانِ مَرْسَنًا، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِشٌ (أ).

(٢) فِي الْأَصْلِ وَفِي النُّسخَةِ (أ): فَتَكُونُ عَذْرًا لَنَا فِي الرُّكُونِ إِلَى طَاعَةِ... الخ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ نُسْخَةٍ أُخْرَى.

(٣) الْجِرَّةُ، بِالْكَسْرِ: هَيْئَةُ الْجَرِّ، وَمَا يَفِيضُ بِهِ الْبَعِيرُ فَيَأْكُلُهُ ثَانِيَةً. (الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ: ٣٦٣)

الحديث التاسع والعشرون

عَنْ^(١) عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو؛ هُوَ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ وَالرَّوَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَمَّا اسْتَغْطَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالِدِينَ كَوْنَهُ مَعَ مَعَاوِيَةَ - مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالِدِينَ - عَظُمَ مَنْقُودُهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ عَمْدَتُهُ إِلَّا أَنْ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِطَاعَةِ عَمْرٍو، وَكَانَتْ أُمُورُهُ إِلَى الصَّلَاحِ أَكْثَرَ، وَقَدْ جَرَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْمَهْفُوءَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا خَتَمَ الْعَمَلَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الثَّبَاتَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((تَكُونُ أُمَّتِي فِي الدُّنْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَطْبَاقٍ: أَمَّا الطَّبَقُ الْأَوَّلُ: فَلَا يَرْعُبُونَ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَادِّخَارِهِ، وَلَا يَسْعَوْنَ فِي اقْتِنَائِهِ وَاحْتِكَارِهِ، إِنَّمَا رِضَاهُمْ مِنَ الدُّنْيَا سُدٌّ جَوْعَةٍ، وَسِتْرُ عَوْرَةٍ، وَغِنَاهُمْ فِيهَا مَا بَلَغَ بِهِمُ الْآخِرَةَ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَأَمَّا الطَّبَقُ الثَّانِي: فَيَحِبُّونَ جَمْعَ الْمَالِ مِنْ أَطْيَبِ سُبُلِهِ، وَصَرَفَهُ فِي أَحْسَنِ وُجُوهِهِ، يَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَهُمْ، وَيَبْرُونَ بِهِ إِخْوَانَهُمْ، وَيُوَاسُونَ بِهِ فَقَرَاءَهُمْ، وَلَعَضُ أَحَدِهِمْ عَلَى الرَّصْفِ أَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكْتَسِبَ دِرْهَمًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، أَوْ أَنْ يَضَعَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، أَوْ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ حَازِنًا لَهُ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ إِنْ نُوقِشُوا عَذَّبُوا، وَإِنْ غُفِيَ عَنْهُمْ سَلِمُوا، وَأَمَّا الطَّبَقُ الثَّالثُ: فَيَحِبُّونَ جَمْعَ الْمَالِ مِمَّا حَلَّ وَحَرَّمَ، وَمَنْعَهُ مِمَّا افْتَرَضَ وَوَجَبَ^(٢)، إِنْ أَنْفَقُوهُ أَنْفَقُوهُ إِسْرَافًا وَبِدَارًا، وَإِنْ أَمْسَكُوهُ أَمْسَكُوهُ بُخْلًا وَاحْتِكَارًا، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَتِ الدُّنْيَا زِمَامَ قُلُوبِهِمْ، حَتَّى أَوْرَدَتْهُمْ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ)).

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا جبر بن عبد الله الزاهد على فوات الكوفة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان للناس منه في كل سنة يومان يحدثهم فيها عند اجتياز الحجيج بالجسر ذاهبين وقافلين قال حدثنا أبي قال حدثنا موسى بن إسماعيل المنقري قال حدثنا حماد بن سلمة قال حدثنا عمرو بن دينار عن صهيب الحذاء عن عبد الله بن عمرو... الحديث.

(٢) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: أَوْ وَجَبَ.

الْأُمَّةُ فِي الْأَصْلِ هُمُ الْخَلْقُ الَّذِينَ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٢] أَيِ جَمَاعَةٍ جَمَعَهُمْ طَلَبُ السَّقْيِ، وَفِي الْعَرَفِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ فَصَدَّقُوهُ. وَالْأَطْبَاقُ وَالْأَصْنَافُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَالْأَصْلُ فِي الْأَطْبَاقِ الْحَالَاتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الإنشاق: ١٩] حَالَةٌ عَنِ حَالَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْأُمَّةَ سَتَنْقَسِمُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَطْبَاقٍ، وَقَدْ وَصَفَ لَكَ كُلَّ طَبَقٍ بِصِفَتِهِ، وَأَنْتَ مُتَمَكِّنٌ مِنَ الْكُونِ فِي أَيِّ طَبَقَةٍ اخْتَرْتَ، فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ الْاخْتِيَارَ فَأَنْتَ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهَا، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي الطَّبَقِ الْأَوَّلِ كُنْتَ مِنَ الطَّبَقِ الْأَوْسَطِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوْسَطِ كُنْتَ مِنَ الْأَسْفَلِ، فَلَا تَظْنِ الْهَزَلَ، بَلْ هُوَ حَقٌّ كَمَا أَنْكَ تَنْتَقِ.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا الطَّبَقُ الْأَوَّلُ: فَلَا يَرْغَبُونَ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَادِّخَارِهِ، وَلَا يَسْعَوْنَ فِي اقْتِنَائِهِ وَاحْتِكَارِهِ، إِنَّمَا رِضَاهُمْ مِنَ الدُّنْيَا سُدُّ جَوْعَةٍ، وَسِتْرُ عَوْرَةٍ، وَغِنَاهُمْ فِيهَا مَا بَلَغَ بِهِمُ الْآخِرَةَ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

الرَّغْبَةُ هِيَ الْحِرْصُ. وَالْجَمْعُ مَعْرُوفٌ. وَالْمَالُ مَا يُتَمَوَّلُ مِنَ الْأَمْلاكِ، وَسُمِّيَ مَالًا، لِأَنَّهُ يَمِيلُ بِصَاحِبِهِ إِلَى حُبِّهِ. وَالْادِّخَارُ هُوَ الْحِفْظُ وَالْمَنْعُ. وَالسَّعْيُ مَعْرُوفٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ. وَالْاِقْتِنَاءُ التَّمَلُّكُ. وَالْاِحْتِكَارُ حِفْظٌ شَدِيدٌ فِي الْأَصْلِ، وَصَارَ فِي الشَّرْعِ مَنَعُ الْمَبِيعِ عَنِ الْمَبِيعِ عِنْدَ مَسَاسِ الْحَاجَةِ الْعَامَّةِ إِلَيْهِ. وَالرِّضَى نَقِيزُ الْغَضَبِ. وَالسُّدُّ رَقْعُ الْخُلَلِ. وَالْجَوْعَةُ إِحْدَى حَالَاتِ الْجُوعِ. وَالسِّتْرُ التَّغْطِيَةُ، وَهُوَ مَصْدَرٌ. وَالْعَوْرَةُ مَعْرُوفَةٌ، وَفِي تَحْدِيدِهَا اخْتِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَعِنْدَنَا أَنَّهَا مَنْ تَحْتَ السِّرَّةِ إِلَى تَحْتَ الرِّكْبَةِ فِي الرَّجُلِ وَالْمَمْلُوكَةِ، وَالْحِزَّةُ عَوْرَةٌ كُلُّهَا عَلَى الْأَجَانِبِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((النِّسَاءُ عِيٌّ وَعَوْرَاتٌ)) فَعِمٌّ، وَعَلَى مُحَارِمِهَا رَأْسُهَا وَصَدْرُهَا وَيَدَاهَا إِلَى عِضْدَيْهَا، وَرَجُلَاهَا إِلَى نِصْفِ سَاقِيهَا لَيْسَ بِعَوْرَةٍ، وَلَيْسَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ عَوْرَةٌ جَمَلَةٌ. وَالْغِنَى نَقِيزُ الْفَقْرِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ. وَالْبَلَاحُ الْوَصُولُ. وَالْآخِرَةُ دَارُ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ وَالثَّوَابِ. وَالْخَوْفُ تَوَقُّعُ شَرٍّ مَجْهُولٍ وَقَتُّ الْمَجْهُولِ. وَالْحَزَنُ شِدَّةُ الْغَمِّ.

[موعظة بليغة في حقيقة الزهاد ونظرتهم إلى الدنيا]

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام قدّم الطبق الذي يجب أن يُقدّم؛ لكونه أشرف وأعظم، أمّا أنهم لم يرغبوا في جمع المال وادّخاره، ولا سعوا في اقتنائه واحتكاره؛ فليعلمهم أنّ كلّ مجموع يؤول حساباً، وكلّ محتكر ينقلب عقاباً، وقد عرفوا مآل جمع الجامعين، وحكمة المحتكرين أنه انتهى إلى التبديد والتفريق، والتشتيت والتمزيق، فلم يستقر له أربابُه، ولا بقي لجامعيه نصيبُه، بل بقي عليهم حسابُه، فرفضوه رفض المحايض^(١) القذرة، وعافوه عيفة الجيفة المذرة^(٢)، صَغُرَ في أعينهم كبيره، وحَقُرَ عظيمه، ورغبوا عنه ولم يرغبوا فيه، وسعوا منه ولم يسعوا له، وحكروا العمل الصالح، وادخروا السعي المفيد، فكان نهاية رضاهم عن الدنيا سدّ جوعة لتستقيم لهم آلة العبادة، وسَتَرَ العورة ليؤدّوا الفروض كاملة، وأرادوا هذا السبب اليسير منها لغيرها، ففازوا مع الفائزين، ونجح سعيهم، وصلّحت أمورهم، وبلغوا مبالغ الصالحين السابقين الذين نبذوا الدنيا وراء ظهورهم، وجعلوا الآخرة نصب عيونهم، فأماوا الفاني، وأحيوا الباقي، وطلبوا الأمر من وجهه، وطبّقوا مَفْصِلَ^(٣) الصواب لحينه، فوصلوا الآخرة آمنين لا خوف عليهم؛ لأنّ الخوف أَمَنَهُم، ولا هم يحزنون؛ لأنّ الحزن شعار غيرهم، كُتِبَتْ لهم براءة من ذلك كله، فجاءوا بها مخومة ففُضَّتْ، ففعل لهم: جوزوا، فقد أنجزتم العمل، وأنجز ربكم لكم الوعد، فأنتم الفائزون حقّاً.

قوله عليه السلام: وَأَمَّا الطَّبَقُ الثَّانِي: فَيَحْتَوِي جَمْعَ الْمَالِ مِنْ أَطْيَبِ سُبُلِهِ، وَصَرْفَهُ فِي أَحْسَنِ وُجُوهِهِ، يَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَهُمْ، وَيَبْتَغُونَ بِهِ إِخْوَانَهُمْ، وَيُؤَاسُونَ بِهِ فَقَرَاءَهُمْ، وَلَعَضُّ أَحَدَهُمْ عَلَى الرَّصْفِ أَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكْتَسِبَ دِرْهَمًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، أَوْ أَنْ يَضْعَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ،

(١) المَحَايِضُ: جَمْعُ مَحِيضَةٍ، وَهِيَ الْحِرْقَةُ الَّتِي تَسْتَفِيرُ بِهَا الْمَرْأَةُ، وَيُقَالُ أَيْضًا: حِيصَةٌ، (انظر صحاح الجوهري ٣/ ١٠٧٣).

(٢) الْمَذِرَةُ: الْفَاسِدَةُ، وَالْمَذَرُ: الْفَسَادُ؛ وَقَدْ مَذَرَتْ تَمَذَّرُ، فَهِيَ مَذِرَةٌ؛ وَمِنْهُ: مَذَرَتِ الْبَيْضَةُ أَيِ فَسَدَتْ، (انظر لسان العرب ٥/ ١٦٤).

(٣) يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَصَابَ الْحُجَّةَ: إِنَّهُ يُطَبِّقُ الْمَفْصِلَ، وَالْمَفْصِلُ: هُوَ مُلْتَقَى الْعَظْمَيْنِ، قَالَ فِي هَامِشٍ (أ): طَبَّقَ عُنُقَهُ بِالسَّيْفِ: إِذَا أَبَانَهَا، وَطَبَّقَ السَّيْفُ: إِذَا أَصَابَ الْمَفْصِلَ وَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ يَمِينًا أَوْ شِئَالًا، تَمَّتْ ضِيَاءُ.

أَوْ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ خَازِنًا لَهُ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ إِنْ نُوقِشُوا غَدَبُوا، وَإِنْ عَفِيَ عَنْهُمْ سَلِمُوا.

المحبة نقيض الكراهة. والطيب نقيض الخبيث، وأصل الطيب ما تشتهي النفس، والخبيث ما تنفر عنه، ثم صار الطيب الحلال وإن كان كريهاً؛ لأنه يؤدي إلى المشتهى، والخبيث الحرام وإن كان مشتهى لأنه يؤدي إلى ما تنفر عنه النفس. والسُّبُل هي الطرق. والصرف توجيه الأمر إلى جهة. والأحسن نقيض الأفح، وهي طرق الخير لأنها تؤدي إلى الحسن المحبوب. والوجه هي المذاهب. والصلة نقيض القطع. والأرحام الأقارب، لكون الأرحام جامعة لهم في الأصل. والبرُّ نقيض العقوق. الإخوان هم المشاركون في النسب أو الدين. والمواساة هي المشاركة للغير والمساواة له بالنفس والأهل، وأصلها المساواة، وهي لغة فيها بالتقديم كما بالتأخير، كما يقال: جَبَذَ وجَذَبَ، والمعنى واحد. وفقيره من يعنيه أمره من الأقارب والجيران، أضافهم إليهم في الدار والنسب. والعَضُ معروف. والرَّصْف حجارة حارّة تكون آخر من الجمر يُرصف بها اللَّبْن وغيره، أي ينضج ويشوى. والكسب والخزن والجمع معناها واحد. والدرهم وزنٌ معروف. والحِلُّ نقيض الحرام. والوضع نقيض الرفع. والوجه هو المذهب. والمنع نقيض الإعطاء. والحق ما يحقُّ أي يجب إخراجه فيه. والخَزْن هو الحَبُّ والحفظ، قال الشاعر^(١):

ثُمَّ لَا يَخْزَنُ فِينَا حَمُّهَا إِنَّمَا يَخْزَنُ لَحْمُ الْمُدْخِرِ

لما كانوا إذا خَبَأُوا اللحم قالوا خَزَنَ، لأنَّ تَغْيِيرَهُ كان من خَزَنِهِ^(٢) فسمّوه باسم سببه، ومثله كثير في كلامهم. والحِين الوقت. والمناقشة شدة البحث، مأخوذ من النَّقَش، وهو البحث والتسبع. والعذاب هو الألم والاستخفاف. والعفو والصفح هو الترك والمسامحة، أخذ من عفو المرعى الذي لم يُعْرَضْ له. والسلامة نقيض الهلاك ومواقعة المكروه.

(١) هو طرفة بن العبد، وقد تقدمت ترجمته خلال شرح الحديث السادس.

(٢) خَزَنَ الرَّجُلُ اللَّحْمَ يَخْزِنُ: إِذَا حَفِظَهُ وَأَدَّخَرَهُ، مِثْلَ قَتَلَ يَقْتُلُ، وَخَزَنَ اللَّحْمُ يَخْزَنُ: إِذَا تَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُ، مِثْلَ شَرِبَ يَشْرِبُ، تَمَّتْ، هَامِش (أ) (انظر لسان العرب: ١٣/ ١٣٩).

المعنى في ذلك: ثم أتبعهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الطبق الثاني، وأين هم اليوم؟! فالله المستعان، وهم الذين يجوبون جمع المال من أطيب سبله أي طريقه، ولا يرغبون في جمع الحرام، ولا لَفَّ الخطام، وإنما يريدون كسب الحلال؛ لما بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ من كريم الخلال، ويصرفون ذلك في أحسن الوجوه والمسالك، من صلة الأرحام، وبرِّ الإخوان، ومواساة الفقراء.

ثم بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ شدة ورعهم، وقلة طمعهم، وأن أحدهم يَسْتَهْوِئُ العض على الرصف - وهي الحجارة المحماة التي لا تَنَقِرُ - أسهل على أحدهم من أن يكتسب درهماً من غير حِلِّه، أو أن يضعه في غير وجهه، أو أن يكون خازناً له إلى حين موته أي خائياً له وحافظاً، لِيُخَلِّفَهُ ميراثاً لو ارثه، لا يريد بذلك وجه ربه.

ثم بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أولئك هم الذين إن نوقشوا عُدُّبوا بالمناقشة لا غير، بمعنى أُثِجِبُوا وسجنوا، وإن عفي عنهم من المناقشة - بأن يحاسبوا حساباً يسيراً - سَلِمُوا من عذاب المناقشة، ومشقة المطالبة، فانظر أرشدك الله إلى هذه الطبقة ما أعلاها وأغلاها في وقتنا هذا، وأَجَلٌ^(١) على خاطرك: من بقي منهم؟! وهل هي في وقتنا هذا إلا غُرَّةٌ في وجه الزمان، أو درة في عِقْدِ الإيوان! ومن لنا بأولئك لتتعلق بأهدابهم، ونتمسح بأثوابهم.

وأما - رحمك الله - المدعون لهذه الحالة وما فوقها فكثير، ولكن شاهدُ الحال يفضحهم؛ ترى أحدهم يتشكك في القطرة من ماء السماء تصيب ثوبه، ولعله لو أُعْطِيَ صُرَّةً فيها ألف دينار لقال: صَمِّي صَمام^(٢)، لا خَلْفَ ولا أمام، لا يصل منها فقيراً، ولا يَبْلُ^(٣) منها رَجُماً، ولا يَبْرُ أخاً، فنسأل الله التوفيق.

(١) هُوَ فِعْلُ الْأَمْرِ مِنْ أَجَالٍ، قال في المصباح المنير (١/ ١١٥) أَجَالَ سَيْفُهُ إِذَا لَعِبَ بِهِ وَأَدَارَهُ عَلَى جَوَانِبِهِ.

(٢) صَمِّي صَمام، أي: زيدي يا داهية، (القاموس المحيط ١١٣٠).

(٣) بَلَّ رَحِمَهُ يَبْلُهَا بَلًّا وَبِلَالًا: وَصَلَهَا. وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((بَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ)) أي نَدُّوْهَا بِالصَّلَةِ. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: وَهُمْ يُطْلِقُونَ النَّدَاوَةَ عَلَى الصَّلَةِ كَمَا يُطْلِقُونَ الْيُسَّ عَلَى الْقَطِيعَةِ، (النهاية ١/ ١٥٣).

فإن استطعت رحمك الله أن تجعل نفسك من الطبقة الأولى فهو الفضل الكامل، وأهله قليل،
ولأفياك أن تدحض قدمك من الكون مع هذا الطبقة الثاني، فليس في الطبقة الثالث شيء مما
تريد، ولا إليه مبلغ، وما قولك لو جيء بك إلى حلق ليُرَمَى بك من شرفة؛ ألم تكن تتشبث بيديك
ورجلتك، وتعمل كل حيلة في الاستقرار؟! وإنما ضرره إلى فوت الروح، وهو ساعة، فلا يغرنك
بالله الغرور، فليس هذا من المُحال في شيء، فانظر لنفسك وأنت في مهل، وعلى صير دعة^(١)،
تكليف هيّن، وحقّ يّئن، فما عذر إن كنت غداً من الهالكين، وقد تنكبت الصراط المستبين.

قوله عليه السلام: وَأَمَّا الطَّبَقُ الثَّالِثُ: فَيَجِبُونَ جَمْعَ الْمَالِ مِمَّا حَلَّ وَحَرَّمَ، وَمَنْعَهُ مِمَّا
افْتَرَضَ وَوَجَبَ، إِنْ أَنْفَقُوهُ أَنْفَقُوهُ إِسْرَافاً وَبِدَاراً، وَإِنْ أَمْسَكُوهُ أَمْسَكُوهُ بُخْلاً وَاحْتِكَاراً،
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَتِ الدُّنْيَا زَمَامَ قُلُوبِهِمْ، حَتَّى أَوْرَدَتْهُمْ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ.

الحب نقيض البغض. والجمع نقيض التفريق. وحلّ نقيض حرّم. والمنع نقيض الإعطاء.
والفرض هو القطع لوجوب الحق. والواجب الواقع اللازم. والإنفاق نقيض الإمساك.
والإسراف إنفاق أكثر مما يحتاج إليه. والبدار من المبادرة، وهو المسابقة بفعل المحذور،
والإمساك هو المنع. والبخل والشح معناهما واحد وقد تقدم، والمَلِك هو التولي على الأمر.
والزّمام أصله في الراحلة تُودَعُ في أنفها بَرَّةٌ أو خَشَاشٌ^(٢)، ثم يجعل فيه سير ثم يُلقَى فيه الخِطَام،
فيُقَاد بلا امتناع. والإيراد والإقحام معناهما واحد، وأصله الإيراد في الإبل تُورَدُ الماء، ثم نقل إلى
غيره، قال الشاعر:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ يَا سَعْدُ لَا تُرَوِّ عَلَى هَذَا الْإِبِلِ^(٣)

(١) صير الأمر، بالكسر: مصيره وعاقبته. يقال: فلان على صير أمر، إذا كان على إشراف من قضاائه،
(الصحيح ٧١٨/٢) والدعة: الخفض، والسعة في العيش. (القاموس المحيط: ٧٦٩).

(٢) البرّة: الحلقة تُجْعَل في أنف البعير، والخشاش: الحلقة تُدْخَل في عظم أنف البعير، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) يضرب مثلاً للرجل يقصر في الأمر إشاراً للراحة على المشقة... والمثل لمالك بن زيد مناة بن تميم ورأى
أخاه سعداً أورد إليه ولم يحسن القيام عليها فقال ذلك..، وخرج قوم في خلافة علي عليه السلام سفراً فقتلوا
بعضهم فلما رجعوا طالبهم علي رضي الله عنه وأمر شريحاً بالنظر في أمرهم فحكم بإقامة البيّنة فقال علي عليه
=

والذنب هو الفعل القبيح، أو ترك الواجب.

المعنى في ذلك: أن هذا الطبق أرذل طبقات العباد، وأقربهم من الضلال والعناد، وإنما كان ذلك لأنهم أحبوا جمع المال جُمْلَةً، من حلٍّ وحرام، ومنعوه من فرض وواجب، ومعناها واحد إلا أن الذي يتجه عندنا في الفرق، ويحمل عليه الكلام النبوي المفيد أن الفرض هو المحدد من الزكوات والمعينات، والأخماس المحددات. والواجب ما يوجبه سبب متجدد، كالإنفاق في سبيل الله، ونفقة الأقارب عند الافتقار، وقضاء الحاجة، وإباحة الماعون إلى غير ذلك. ثم أخبر عليه السلام بأنهم إن أنفقوه أنفقوه إسرافاً وبداراً، وإن أمسكوه أمسكوه بخلاً واحتكاراً، فإنفاقهم عصيان، ومنعهم عدوان، فبينَ عليه السلام أنهم الذين ملكت الدنيا زمام قلوبهم، فلم ينصرفوا عن مرادها، ولا سلكوا غير سبيلها، ولم يزل ذلك دأبهم حتى وردوا النار، وبئس الورد المورد بذنوبهم؛ لا بأمرٍ آخر غير ذلك، فانظر رحمك الله لنفسك هل في سبيل هؤلاء مصلحة لك تسلكها؟! أم هي مهواةٌ مهلكةٌ فتترُكها؟! ولا تُملك الدنيا الدنية زمامك، فإن الخير الدائم أمامك، فبادر جِمامك ولا تُفجر أمامك، وأتَعظ فقد كثرت المواعظ والعبر، وكن من الدنيا على حذر، جعلنا والله وإياكم من الرافضين لها تخرجاً، الطالبين منها مخرجاً، والصلاة على النبي وآله.

السلام: (أوردَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمَلٌ مَا هَكَذَا تَوْرِدُ يَا سَعْدُ الْإِبِلِ)، أَرَادَ أَنَّهُ قَصَرَ وَلَمْ يَسْتَقْصِ كَتَقْصِيرِ صَاحِبِ الْإِبِلِ فِي تَرْكِهَا وَاشْتِمَالِهِ وَلَوْمِهِ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَسَأَلَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ حَتَّى أَقْرَأُوا فَقَتَلْتَهُمْ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا فَرَّقَ بَيْنَ الْخُصُومِ، انْتَهَى مِنْ جَهْرَةِ الْأَمْثَالِ (١/٩٣).

الحديث الثلاثون

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَدْمَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهَةُ كَارِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ بِحُكْمِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْجَ فِي الرَّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ، إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً اتَّقَاءَ لِلَّهِ إِلَّا آتَاكَ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ، وَلَنْ تَأْتِيَ شَيْئاً تَقَرُّباً إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا أَجَزَلَ لَكَ الثَّوَابَ عَنْهُ، فَاجْعَلْ هَمَّكَ وَسَعْيَكَ لآخِرَةٍ لَا يَنْقُذُ فِيهَا ثَوَابُ الْمَرَضِيِّ عَنْهُ، وَلَا يَنْقَطِعُ فِيهَا عِقَابُ الْمَسْخُوطِ عَلَيْهِ)).

((إِنَّ) حرف تأكيد تنصب الاسم وترفع الخبر. والضعف نقيض القوة. واليقين نقيض الشك. والرّضى نقيض الغضب. والسّخط نقيض الرّضى. والحمد نقيض الذم. والرزق ما لك تناوؤُهُ وليس لأحدٍ منعك منه على بعض الوجوه، وأصله العطاء، لا فرق عندهم في الأصل بين أعطاه ورزقه، ثم صار في العرف العطاء عام والرزق خاص. والذم نقيض المدح. وآتاك وأعطاك واحدٌ. والله الذي تأله إليه القلوب، أي تصغي إلى محبته.

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ أَخْبَرَ -وهو الصادق في خبره- أَنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ المخلوق بسخط الخالق، والمملوك بسخط المالك، ولا شك أن هذا وإن كان من ضعف اليقين، فهو من سوء التدبير، لأن الأولى أَنْ تُرْضِيَ المالك، لأنه الذي ينبغي أَنْ يصطنع، وهو الذي إليه النفع والضرر، إذ المملوك لا حكم له مع المالك، فإذا فعلنا هذا الحال، وأرضينا المخلوق بسخط الخالق كنا في حكم الشاكين في المالك الخالق، والشك فيه كفر، وكيف تُرْضِيَ من لا يُضَرُّ

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو محمد عبد الله بن درستويه قال حدثنا محمد بن الحسن العبدى عن أبيه قال حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل المنقري قال حدثنا حماد بن سلمة قال حدثنا حميد وثابت جميعاً عن أنس ابن مالك... الحديث.

ولا ينفع ضرراً يدوم ولا نفعاً يدوم بسخط مَنْ بيده الضرر والنفع، وَمَنْ عنده العطاء والمنع، الدائم الذي لا يزول أبداً، وهو الذي يقع به الاعتداد.

وكذلك إذا أعطوك شيئاً بالغت في حمدهم إلى حدّ تنسى معه مَنْ الشيءُ مِنْ عنده لك ولهم، وَمَنْ الواصل إليك منهم في الحكم كأنه من جهته، ولأنه أمرهم بإيصاله إليك، وعرفهم حسن اصطناع المعروف، ووعدهم الأجر عليه، فهو من جهته على هذا. وإنما حمّدك لهم حمد اعتراف، بل يقع على هذا أن لا تحمدهم، وإنما تشكرهم وتثني عليهم إلى حدّ مخصوص، لا تتجاوز فيه القدر الواجب. وكذلك إن منعوك لم تبلغ في ذمهم إذ منعوك ما لم يجب عليهم إعطاؤك إياه، فأما فيما فرض الله عليهم فلا بأس بزمهم؛ لأن الله قد آتاك ذلك حكماً، وجعل لك معهم قِسْماً، وإِنما هذا فيما يتعلق بمطالب الفضل التي لا تجب في الأصل، فلا يجوز لك أن تذمهم على منع شيء من ذلك؛ إذ هم -والحال هذه- لم يُخلّوا بواجب.

قوله عليه السلام: إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْزُهُ حَرْصٌ حَرِيصٍ وَلَا تَزُدُّهُ كَرَاهَةٌ كَارِهِ.

قد تقدم الكلام في الرزق. والجُرُّ والجذب معناهما واحد. والحرص مبالغة في الطلب، ومنه أخذ الحرص، وهو الكشط في الجلد من شدة المباشرة، ومنه الحارصة الضعيفة من الشَّجَاج^(١). والرَّدُّ نقيض الإرسال. والكرَاهة نقيض الإرادة.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَام أشار إلى أن لكل إنسان في الذكر الحكيم رزقاً محدوداً وأجلاً مضروباً، لا يزيد في هذا حرصه، ولا يؤخر هذا محيضه^(٢)، فإذا اجتهد المجتهد لم يزد على ما قُدِّر له في الذكر الحكيم، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(٣)، أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ^(٤) [الواقعة: ٦٦-٦٧] وإنما مِنَّا تهيئة الأسباب، وَمَنْ عنده العطاء إذا شاء وَعِلِمَ المصلحة.

(١) الشَّجَاجُ: جَمْعُ شَجَةٍ، وَهِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الشَّجِّ، وَالشَّجُّ فِي الرَّأْسِ خَاصَّةٌ فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ أَنْ يَضْرِبَهُ شَيْءٌ فَيَجْرَحَهُ فِيهِ وَيَشْقَهُ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ، يُقَالُ: شَجَّهْتُ شَجّاً، أ.هـ. (النهاية ٢/ ٤٤٥).

(٢) الْمَحِيضُ: الْمَحِيدُ وَالْمَهْرُبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا هُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨].

كلام في الرزق

والرزق من قِبَلِهِ تعالى نوعان: مشروط، وغير مشروط. فالمشروط ذوات الأسباب الاعتيادية كالزرائع والصنائع والتجارات والإثارات^(١) وما شاكل ذلك من أنواع الاكتساب. وغير المشروط هو الحاصل من الصدقات والهدايا والمنح والعطايا، والجميع من ذلك لا ينال العبد فيه - حَرِصَ أو لم يَحْرُصْ - إِلَّا ما قَدَّرَ لَهُ الحكيم سبحانه؛ لأنَّ الأسباب قد تستوي، وتختلف الأرزاق، رأينا ذلك عياناً، وعرفته العقلاء، وقام به الدليل، ولا تأثير لكرهه الكارهين في ذلك؛ إذ فعل الغير لا يتنفي بحسب كراهتنا وصارفنا، ولا يحصل بحسب قصدنا ودواعينا^(٢)، ولذلك فَرَّقْنَا بين فعلنا وبين فعل غيرنا^(٣)، فتأمل ذلك تجده.

وأقلل الحرص، وأجل في الطلب، واجعل شغلك لطلب ما عند الله سبحانه من النعيم الدائم، والخير الباقي الجزيل.

قوله عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ بِحُكْمِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْجَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسَّخَطِ.

معنى تبارك: دام وبقي. والاسم هو الْمُئَيَّنُّ عن مسأه. والحُكْم والحكمة معناه واحد، وهو الانتهاء في العلم والمعرفة، وهو الذي يمنع من الاقتحام في المهالك، ومنه حَكَمَةُ الدابة. والروح السعة والدعة. والفَرْجُ نقبض الشدة، وهو مأخوذ من الفَرْجِ في الباب والْفُتْحُ فكأنَّ صاحب الشدة مغلق عليه بالأقفال، فتفتح له الأبواب، فتتضح^(٤) الفُجَاج. والفَرْجُ هو الطريق والسييل. والرضى قد تقدم. واليقين والهم والحزن والشك والسخط كذلك.

(١) المَعَادِنُ والرِّكَازُ، وهي الكنوز العادية، تمت منقولة مما نقل من خطه عليه السلام، هامش (أ).

(٢) في الأصل وفي نسخة أخرى: وداعينا.

(٣) في (أ) وفي نسخة أخرى: بين فعلنا وفعل غيرنا.

(٤) في الأصل: وتتضح، بالواو.

الرَّحْمَنُ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ بِحُكْمِهِ وَعِلْمِهِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَاسْتَوْضَحَ دَخِيلَةَ كُلِّ حَيٍّ جَعَلَ الرُّوحَ الدَّعَى وَالسَّعَى وَالْفَرَجَ الْخُلَاصَ مِنَ الشَّدَةِ وَوُجُودَ النُّهْجِ الْوَاسِعَةِ الْمَسَالِكِ فِي الرِّضَى عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَا قَسَمَ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، وَدَقِيقٍ وَجَلِيلٍ، وَأَنَّ لَا نَتَهَمُهُ فِي قَسَمِهِ، وَلَا نُفَنِّدُهُ فِي حُكْمِهِ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِنَا مَنَّا. وَكَمْ مِنْ مَحْبُوبٍ سَأَلْنَاهُ لَوْ أُعْطِينَا فِيهِ سَوْئَلُنَا لَكَانَ وَيَالُنَا، وَسَاءَتْ حَالُنَا، وَكَيْفَ نَتَّهَمُ^(١) مِنْ يَقُولُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد] وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٥] وَيَقُولُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٥] وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... الْآيَاتِ﴾ [الزخرف: ٣٢] وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٧] وَيَقُولُ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ^(٢) فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ^(٣) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ^(٤) فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ^(٥)﴾ [الفجر] فَجَعَلَ الْجَمِيعَ بِلَوَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي مَعَانِيهَا تَشْهَدُ لَهَا أَدْلَةُ الْعُقُولِ، وَتَسْبِقُ إِلَى الْإِفْهَامِ.

فَإِنْ جَعَلْنَا -وَالْحَالُ هَذِهِ- مِنْ أَهْلِ الْبَسْطِ وَالتَّوَسُّعِ لِرِزْمِنَا^(٦) طَرِيقَةَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ وَالْإِنْصَافِ مِنَ النَّفْسِ، وَتَأْدِيَةِ الْحَقِّ، وَتَرْكُنَا سُنَّةَ الْجَمْعِ وَالْمَنْعِ، وَالْإِحْتِكَارِ وَالْإِسْتِبْدَادِ، وَالْغَمَصِ وَالْأَشْرَ وَالْبَطَرِ وَالرِّيَاءَ وَالْمُبَاهَاةَ وَالْمُكَاثَرَةَ، فَإِنَّ هَذِهِ آفَاتُ الْغِنَى، وَلَهَا تَوَابِعُ.

وَإِنْ ابْتَلَانَا، وَقَدَّرَ عَلَيْنَا رِزْقَنَا وَطَنَّا نَفُوسَنَا عَلَى الصَّبْرِ، وَاحْتِمَالِ مَوْئِنَةِ الضَّرَرِ وَالْفَقْرِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ قَدْ حُلِينَا بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأُلْبِسْنَا شِعَارَ النَّبِيِّينَ، وَفُرِّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُتَرَفِّينَ، وَأُرِيحَ عَلَيْنَا مِنْ مَوْئِنَةِ شُكْرِ الْمُكْثَرِينَ، وَمِنْ التَّعَرُّضِ لَزَوَالِ نِعْمَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، فَكُنَّا فِي شِدَّةٍ نَنْتَظِرُ الرِّخَاءَ، وَضَيْقٍ نَنْتَظِرُ الْفَرَجَ، فَكُنَّا بِالْحِسَابِ مُوقِنِينَ، وَعَنِ اللَّهِ رَاضِينَ، وَلِحُكْمِهِ قَابِلِينَ، وَيَقُولُهُ قَائِلِينَ، وَلَمْ تَسْتَخَفْنَا

(١) فِي الْأَصْلِ: يُنَّهَمُ، بِالْبَاءِ لِلْمَجْهُولِ.

(٢) لَعَلَّهَا بِسُكُونِ الْمِيمِ، وَإِذَا فُتِحَتْ لَزِمَ رَفْعُ (طَرِيقَةِ).

أقاويل المعطلين، ولا تحاريف المبطلين، الذين جعلوا دنياهم دار مقامتهم، وزعموا^(١) أن الله تعالى جعلها ثواباً للمطيعين، وزواها عن العاصين؛ ردّاً للكتاب، ومكابرة للعيان، وجهلاً بمواضع الحكمة، ومواقع التدبير! قال العليم القدير: ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) [المؤمنون].

وإذا شككنا في هذا الأمر، ولم نكن فيه على يقين لم نزل مهمومين محزونين، عن الخير محزونين، لا نحن عن الله - والعياذ بالله - راضون، ولا سخطنا يوجب تغيير موجبات الحكمة، ومواضع تدبير العلم بمصالح الدين..، ولا يجب أن يصلحوا لا محالة، وإنما عليه سبحانه تقريهم بما يكون في علمه المخزون وغيبه المكنون حالهم معه أقرب إلى الخير، وإن تهادوا في النّفار، وتغارّوا في الفرار^(٣)، فالجزم لهم، والله الحجة البالغة عليهم.

قوله عليه السلام: إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً اتَّقَاءَ لِلَّهِ إِلَّا آتَاكَ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ، وَلَنْ تَأْتِيَ شَيْئاً تَقَرُّباً إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا أَجْزَلَ لَكَ الثَّوَابُ عَنْهُ.

تدع يستعمل منه مستقبله دون ماضيه^(٣). والشيء ما يصح العلم به، والخبر عنه مفرداً. والاتقاء هو تلقي الأمر بما يدفعه من ستر أو جنة. وخيراً منه المراد شيئاً فاضلاً، لأن المتروك قد لا يكون فيه خير جملة على الحقيقة. وإتيان الشيء نقيض تركه. والتقريب^(٤) والتحبُّب هو فعل ما يريد المتقرب إليه والمتحبَّب به فعله أو تركه. والإجزال الإكثار. والثواب هو ما يرجع على الإنسان من جزاء عمله، أخذ من ثاب إذا رجع.

(١) لَعَلَّهُمُ الْمُطَرَفِيَّةُ، قال الإمام [القاسم بن محمد] عليه السلام في الأساس: (الْمُطَرَفِيَّةُ: لَا مِلْكَ لِعَاصِي) فِيمَا حَازَهُ وَقَبِضَهُ، فَهُوَ مُعْتَصِبٌ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِي تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ رِزْقِهِ، تَمَّتْ أَسَاسٌ وَشَرْحُهُ، تَمَّتْ، هَامِش (أ).

(٢) لَعَلُّهَا بِمَعْنَى: بَلَّغُوا الْغُورَ فِي الْفِرَارِ، وَغُورُ كُلِّ شَيْءٍ: عُمُقُهُ وَبُعْدُهُ.

(٣) قال الجوهرى في الصحاح (٣/ ١٢٩٦): وَدَعَ يَدَعُ، وَقَدْ أُمِيتَ مَاضِيَهُ، لَا يَقَالُ وَدَعَهُ وَإِنَّمَا يَقَالُ تَرَكَهُ، وَلَا وَادَعُ وَلَكِنْ تَارَكُ، أ.هـ.

(٤) في نسخة أخرى: التَّقَرُّبُ والتَّحَبُّبُ، ولعله الأصوب.

المعنى في ذلك: أن العبد لا يترك شيئاً خيفةً عذاب الله سبحانه إلا أتى الله العبد خيراً من ذلك المودوع؛ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، فلا يكتر ذلك من عوارفه ومنه، ولا يجب أن يكون في الدنيا لا محالة، لأن الحكمة قد تمنع من تعجيله، بأن يكون تعجيله مفسدةً في الدين فلا نعلم، ولا يجوز من الحكيم سبحانه إيصاله إلينا في الدنيا.

فأما الآخرة فلا بد من وصوله إلينا فيها على كل حال؛ معاقباً كان العبد أو مثاباً، إن كان مثاباً زيداً لأجل ذلك في أنواع كرامته، وإن كان مُعاقباً أُسْقِطَ عنه من العقاب بقسطه، وذلك بلا شك أصلح له، وخير من واقعة ما تزول لذته، وتبقى تبعته، فإذا ترك أصلح وأولى.

وإذا أتيت شيئاً تقريباً إلى الله (معناه: وأنت لا تقصد إلا وجه الله) أجزل الله (بمعنى أكثر ووسّع) الجزيل (هو الكثير الواسع) لك الثواب عنه (معناه عن ذلك الفعل) لأنك قصدت به وجه الله، وجرّدته عن الأغراض إلا التقرب إليه، فكيف - وهو أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء - يبعدك والحال هذه! ما أسوء ظنك، وأقبح نظرك إن خُيِّلَ إليك أنه لا يُجْزِلُ ثوابك، ولا يحسن مآبك، وهو أبرُّ بك من أخيك وولدك، وأحنا عليك من والدتك ووالدك، غذاك في ظلم الأرحام، وليّن لك المهادر، وأمدك بما لم تكن تقدر على الوصول إليه بحولك، فأين يُثابك.

ثم هيّا لك الغذاء في صدر والدتك سائغاً عذباً مريئاً، يلائم طباغك، ويسهل عليك تناوله، وتقبل إليك الوالدة، ويحنو عليك الوالد حتى يصلحوا من شأنك، ويرثوا حالك.

ولما كانت الحيوانات لا تُحَسِّنُ ما يُحَسِّنُ الناسُ جعل أولادها شِدَاداً عند خروجهم، يعرفون الأُمَّ وتعرفهم، ويعينونها على نفع أنفسهم وتناول أغذيتهم، فلا إله إلا هو؛ تَعَسَّ الظائنون به سوءاً، عليهم دائرة السوء، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً.

وتعسّأ لأهل الطبع ونكسأ، هذه مشاهدة تفضحهم، وما هو الطبع؟! إن طولبوا لم يرجعوا إلا إلى علّة عند أهل التحصيل منهم لا تُؤثّر في أكثر من معلول، وهذه أمور مختلفة، وأحوال متنقلة، تدلُّ على صانع حكيم، مدبر عليم، يجب في كل حال شكره، ويلزم في كل أوانٍ ذكره.

قوله عليه السلام: فَاجْعَلْ هَمَّكَ وَسَعْيَكَ لِآخِرَةٍ لَا يَنْقُذُ فِيهَا ثَوَابُ الْمَرْضِيِّ عَنْهُ، وَلَا يَنْقَطِعُ فِيهَا عِقَابُ الْمَسْخُوطِ عَلَيْهِ.

قد تقدم الكلام في معاني الهَمِّ، والسعي، والآخرة، والنفاد، والثواب، والرضى. والانتقطاع نقيض الاتصال. والعقاب الجزاء والنكال، لأنه يُعاقِبُ الفعل، بمعنى أنه يُسْتَحَقُّ في ثانيه، وأصل العقاب الشدة، ومنه عقاب المرتقى.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرنا أن يكون سعينا وهمنا لدار الآخرة، التي هي دار القرار والبقاء والدوام، فلا ينقطع -ينفد- فيها ثواب المَرْضِيِّ عنه، وهو العبد الواصل إلى ربه، خارجاً عن عهدة ما لزمه له من الحق، بتأدية أو عذرٍ صحيحٍ بندامةٍ حقيقية، فإنه -والحال هذه- يرضى عنه؛ لكرمه وعطفه، وجوده ولطفه.

[بعض أدلة عدم الخروج من النار]

وهذا الخبر دليل على صدق ما ندَّعيه من التخليد لأهل الوعد والوعيد، وقد قال سبحانه، وكُنِيَ عن أهل النار: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار] وقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رُسُلِهِ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن] والخلود هو الدوام، والتأيد تأكيد له. وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَوْ قِيلَ لِأَهْلِ النَّارِ: إِنَّكُمْ مَآكُثُونَ فِي النَّارِ بِعَدَدِ كُلِّ حَصَاةٍ فِي الدُّنْيَا لَفَرَحُوا، وَلَوْ قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّكُمْ مَآكُثُونَ فِي الْجَنَّةِ بِعَدَدِ كُلِّ حَصَاةٍ فِي الدُّنْيَا لَحَزَنُوا، وَإِنَّمَا يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ)) فهناك يُبْلِسُ المبلسون^(١)، ويفرح المؤمنون، وينجو من عقابٍ لا ينقطع مع رضا الرب الكريم، وما يقع له من الجلال العظيم، فإننا قد علمنا أن العقلاء يؤثرون رضا الملوك؛ ليحصل لهم من رضاهم ما يُكسِبُهُمْ جَلَالَةً عند الناس، ويستهُوْنُونَ في ذلك إتلاف النفائس والنفوس.

جعلنا الله وإياكم من الفائزين برضوانه الخائزين لرفيع جنانه، والصلاة على محمد النبي وآله.

(١) الإِبْلَاسُ: الْإِيَّاسُ. ومنه سُمِّيَ إِبْلِيسُ لذلك، تمت، هامش (أ).

الحديث الحادي والثلاثون

عَنِ ^(١) ابْنِ عُمَرَ، وَقَدْ قَدِمْنَا الْكَلَامَ فِي نَسَبِهِ وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((لَيْسَ شَيْءٌ يُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ ذَكَرْتُمْ لَكُمْ، وَلَا شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ، إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوا شَيْئًا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُنَالَ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ رِزْقًا هُوَ يَأْتِيهِ لَا مُحَالَةً، فَمَنْ رَضِيَ بِهِ بُورَكَ لَهُ فِيهِ فَوْسَعُهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِهِ لَمْ يَبَارِكْ لَهُ فِيهِ فَلَمْ يَسَعُهُ، وَإِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الرَّجُلُ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ)) ^(٢).

النار معروفة نعوذ بالله منها. **والتقريب** نقيض التباعد. **وذكرت** نقيض نسيئت وأهملت. **والجنة** الحديقة التي أجنثت قراها أشجارها، وأصل الجنة الإجنان. **والدلالة والتعريف** معناهما واحد.

- (١) قال السيد الشريف: وحدثنا ابن الهادي قال حدثنا أبو سليمان محمد بن منصور قال حدثنا موسى بن إسماعيل المنقري قال حدثنا حماد بن سلمة عن أيوب عن نافع عن ابن عمر... الحديث.
- (٢) الجزء الأول من الحديث: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوِيَ رِزْقُهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالَ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ)) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٧٩) رقم (٣٤٣٣٢) وفي مسند الشافعي (٤/٦٤) رقم (١٧٩٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/١٩) البغوي في شرح السنة (١٤/٣٠٣) الخ... والجزء من الحديث: ((لِكُلِّ بَشَرٍ رِزْقُهُ مِنَ الدُّنْيَا هُوَ يَأْتِيهِ لَا مُحَالَةً فَمَنْ رَضِيَ بِهِ بُورَكَ لَهُ فِيهِ وَوَسَعَهُ وَمَنْ لَمْ يَرْضَهُ لَمْ يَبَارِكْ لَهُ فِيهِ وَلَمْ يَسَعَهُ)) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١/١١٤) رقم (٥٣٦)، والسيوطي في الفتح الكبير (٣/٢٢) برقم (٩٨٢٢) كلاهما عن أبي شجاع الديلمي في (الفردوس) وقوله: ((إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدُ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ)) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/١١٧) رقم (٢٦٤) والبزار في البحر الزخار (١٠/٣٧) رقم (٤٠٩٩) وابن حبان في صحيحه (٨/٣١) رقم (٣٢٣٨) القضاعي في مسنده رقم (٢٤١) وأبو نعيم في الحلية (٦/٨٦) الخ... ووصفه في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: القوي.

المعنى في ذلك: أنه عليه السَّلام أخبرنا - وهو الصادق الخبر محمود الأثر - أنَّ ما به شيءٌ يباعدا من النار إلا وقد ذكره لنا وعَلَّمنا إياه بما عَلَّمه به ربه علام الغيوب، ولا شيء يقربنا من الجنة إلا وقد دَلَّنَا عليه، وأوضح لنا وجهه. فهذا لم يُثَبِّتْ لنا حجة على ربنا، بل الله وله الحجة البالغة علينا، فإنَّ نجونا فبتعريفه لنا ودلالته إيانا، فجراه الله عنَّا خيراً، وإن هلكنا فبسوء اختيارنا رُميْنَا، ومن أنفسنا أُنْبِئْنَا، إذ نحن لا نترك ما يباعدا عن النار، ونطرح ما يقربنا من الجنة إلا لأحد أمرين: إما لشكٍّ في أمر المخيرِ وتبصير المُبْصِر، فذلك كفَّرْ نَعُوذُ بالله منه؛ إذ قامت الدلائل على صدقه، وإما تعمُّداً للمعصية وإلقاء النفس عن معرفة في الهلكة، فذلك ما لا يرحمنا فيه راحم، ولا يعصمنا منه عاصم.

فالواجب أن ننظر لأنفسنا في طرق النجاة، وأسباب الحياة، والتباعد عن النار، والتقرب إلى دار القرار، ومع ذلك فإنها جنة لا تشبه الجنان! فيها قصور مشيدة، وقباب معمَّدة، وعقود مكلَّلة، وخيام مجلَّلة، وأنهار مُطَرَّدة، وحنائق منسردة^(١)، مشيدة بالذهب والفضة، معمدة بالياقوت الأحمر، والزَّيْرُجَد الأخضر، واللؤلؤ والجوهر، طينها من المسك والعنبر. وكيف يصف الواصف أمراً قال له الجبار القادر: كن فكان؟! هل يزهديها زاهد؟! أو يرقدها راقد؟!

فأما النار: فالنار غضب في غضب، ولهب يعلوه لهب، وأدراك متناهية في الهبوط، ونقم دائمة السقوط، لا يُرحم باكيها، ولا يُشكى شاكيها، كلما نضجت جلودهم بدلمهم الباري جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب، فلم ينام هاربها، ويرد نصيحة المخوَّف منها!.

قوله عليه السَّلام: **إِنَّ رُوحَ الْقُدُّسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَكْمَلَ رِزْقَهُ، فَاجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ.**

الروح: هو أصل الحياة، وللناس فيه اختلاف كثير، قد ذكرناه في شرح الرسالة الناصحة. وهو هاهنا جبريل عليه السَّلام لما كانت به حياة العباد في دينهم سُمِّيَ رُوحاً لذلك. **والقُدُّس** الله الطاهر من كل قبيح. أصل التقديس الطهارة، فأضيف إليه إضافة تَكْرُمة، فهو روح الله، كما نقول في عيسى بن مريم عليه السَّلام من الآدميين. **والنفثُ** الإلقاء من الفم، وأخذ من الحيَّة تنفث

(١) أي مُتَّبِعَةٌ وَمُتَّصِلَةٌ وَمُتَّسِقَةٌ، قال في اللسان (٣/ ٢١١): السَّرْدُ فِي اللَّغَةِ: تَقْدِمةُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مَتَّسِقاً بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مُتَّبَاعاً.

بالسم، والعالم ينفث بالحكمة. والرُّوع بضم الراء هو النفس، والرُّوع بفتح الفزع. والعبد الدليل المذل، وهو يريد هاهنا الإنسان. والاستكمال هو الاستيفاء. والرزق ما فرض الله سبحانه لعبده في مدة حياته، لأنه فُرِغ منه موسَّعاً، أو مضيقاً. والإجمال نقض الإلحاح والإحاف، وهو مأخوذ من الجمال، وهو الحُسن. والجمال مأخوذ من الجميل وهو الودك والدهن. والطلب هو البحث والكسب والحركة.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أخبر أن جبريل عليه السلام أخبره عن الله سبحانه أنه لن يموت عبدٌ حتى يستكمل رزقه، فأجملوا في الطلب، معناه: اطلبوا طلباً رقيقاً هيناً، فإنَّ أحدكم لا يموت حتى يستكمل رزقه في هذه الدنيا. فإن قيل: فما فائدة الطلب؟ قلنا: إنها هذا في الرزق المشروط بشروط الاعتياد كما قدمنا في الزراعات والصناعات، وإنَّما لا يجعلها هجيراً^(١) وطِيئَةً، ويشغل بها عن عبادة ربه، والعمل لمعاده، لينال بزعمه ما لم يكتب له، أو لا ينقص بتوهمه ما قُدِّر له، فإن ذلك لا يؤثر في واحد من الأمرين، فتفهّم ما ذكرت لك موفّقاً.

قوله عليه السلام: وَلَا يَحْمِلُكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوا شَيْئاً مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِمَغْصِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُنَالَ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ.

الحمل: هو إيصال الشيء إلى الشيء، وأصله الإقلال على الظهر، وأخذ من حمل السيل للغناء يسمى حملاً، قال الكمي^(٢) لقضاعة لَمَّا تَقَحَّطَنْتِ فِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ، وَهِيَ مَنْسُوبَةٌ فِي مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَنِ:

(١) هجيراً: عاداته المُستَمَرَّة، والطِيَّة: مثله تأكيداً، تمت، هامش (أ).

(٢) الكميُّ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ، أَبُو الْمُسْتَهْلِ المولود سنة ٦٠ هـ، والمتوفى سنة ١٢٦ هـ شاعراً أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَشْعَرُ شُعْرَاءِ أَهْلِ الْكُوفَةِ الْمُقَدِّمِينَ فِي الْقُرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ، عَالِمٌ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ وَأَنْسَابِهِمْ وَأَيَّامِهِمْ، مَشْهُورٌ بِذَلِكَ، كَانَ خَطِيبَ بَيْتِ أَسَدٍ، حَافِظاً لِلْقُرْآنِ، رَامِياً، فَارِساً، شُجَاعاً، رَأَى الْإِمَامَ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ، وَابْنَهُ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَدَحَ بَيْتَ هَاشِمٍ، وَهَجَا بَيْتَ أُمَيَّةٍ، فَأُخِذَ وَحُسِبَ، وَأُخْرِجَ مِنَ الْحُسَيْنِ بِحِيلَةٍ... أشهر شعره (الهاشميات - طبع) تُرْجِمَتْ إِلَى الْأَلْمَانِيَةِ. وَيُقَالُ: إِنَّ شِعْرَهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ بَيْتٍ.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِبَنِي أَسَدٍ مَنَقِبَةٌ غَيْرَ الْكُمَيْتِ لَكَفَّاهُمْ، حَبِيبُهُمْ إِلَى النَّاسِ، وَأَبْقَى هُمْ ذِكْراً. وَقَالَ أَبُو عِكْرَمَةَ الضَّبِّيُّ: لَوْ لَا شِعْرُ الْكُمَيْتِ لَمْ يَكُنْ لِلْغَةِ ثَرْجَانٌ. وَكَانَ الْكُمَيْتُ شَيْعِياً، مَدَحَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، فَأَعْطَاهُ مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ بَيْتِ هَاشِمٍ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ، وَقَالَ: خُذْ هَذِهِ يَا أَبَا الْمُسْتَهْلِ. فَقَالَ: لَوْ وَصَلْتَنِي بِدَانِقٍ، لَكَانَ شَرَفًا، وَلَكِنْ أَحْسِنَ إِلَيَّ بِثَوْبٍ يَلِي جَسَدَكَ أَتَبَرَّكَ بِهِ، فَتَرَعَ ثِيَابَهُ كُلَّهَا، فَدَفَعَهَا =

عَلَامَ نَزَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ وَلَا ضَرَاءَ مَنَزَلَةَ الْحَمِيلِ^(١)

وإنما يقال لِمَا كان على الظهر حملاً، وَلِمَا كان في البطن حملاً بالفتح للفرق لا غير، وإلا فاصله الإقلال كما ذكرت لك. والاستبطاء والاستراثة معناه واحد، وهو كثرة انتظار ما يراد وصوله. والرزق قد قدمنا معناه. وفضل الله عطاؤه ومَنَّهُ. والمعصية قد تقدم الكلام فيها. النِيل هو الوصول، وإدراك ما عند الله هاهنا ثوابه في الآخرة.

المعنى في ذلك: أن كثيراً من العاصين قد شافهونا مراراً، وحاورونا أسفاراً أنه لا يحملهم على المعصية إلا الفقر واستبطاء الرزق، وأنهم لو عَجَّلَ الرزق لما عصوا بزعمهم، وهذا منهم تَوَهُّمٌ جهلٍ مضاف إلى عصيانهم، وهبتان من أنواع طغيانهم؛ لأن الله لو علم مصلحتهم في الغنى لأغناهم، فالواجب على العبد أن يكون في حال انتظار الرزق مستشعراً لخوف الرب سبحانه، فإن عَجَلَ رزقه شكر، وإن أخر صبر، ولا يبادر بالمعصية، فإن الصائر إليه ليس برزق له والحال هذه، فإن الثواب الذي عند الله سبحانه - وهو أجل مطلوب - لا ينال إلا بطاعته، فكيف ينبغي للعاقل أن يُفَوِّتَ على نفسه الخلود في جنات النعيم بناقةً يَشْتُلُّها، أو شاةً يَسْتُلُّها^(٢)؛ وإن جعلها إبلاً وشاءَ فما عسى أن يكون نفعها، أو ذهباً وفضة، وكنوزاً مُكَنَّزةً! فكم يكون بقاؤها ومبلغ غنائها؟! لا خير إلا غنى الآخرة، ففيه فليرغب الراغبون، وله فليتجرد الطالبون.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ رِزْقاً هُوَ يَأْتِيهِ لَا مَحَالَةَ، فَمَنْ رَضِيَ بِهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ فَوْسَعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِهِ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ فَلَمْ يَسْعَهُ، وَإِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الرَّجُلَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ. السَّعَةُ نقيض الضيق. والبركة الدوام. والأجل هو الوقت المضروب لمفارقة الروح للجسد. فلو صُدِّدْنَا عنه لَحَقْنَا؛ كذلك الرِّزْق.

إِلَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَكَانَ الْكُمَيْتُ يَقُولُ: مَا زِلْتُ أَعْرِفُ بَرَكَةَ دُعَائِهِ، انتهى المنقول من كلام الذهبي. (انظر سير أعلام النبلاء ج ٥/ ٣٨٨) ذكر ذلك الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في كتاب عيون المختار، وذكر قصته مع علي بن الحسين وعبد الله الكامل عليهما السلام.

(١) الحَمِيلُ: الذي يُؤْتَى به من بَلَدِهِ غريباً، والحَمِيلُ: الدَّعِي، تمت ضياء، هامش (أ). قال الجَوْهَرِيُّ: الحَمِيلُ: الذي يُحْمَلُ من بَلَدِهِ صغيراً ولم يوكَلْ في الإسلام. والحَمِيلُ: ما حَمَلَهُ السَّيْلُ من الغُثَاءِ. والحَمِيلُ: الكفيل. والحَمِيلُ: الدَّعِي، انتهى (الصحيح: ٤/ ١٦٧٨).

(٢) الشَّلُّ: الطَّرْدُ، والسَّلُّ: السَّرَقَةُ، تمت، هامش (أ).

المَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَنَا وَهُوَ الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ أَنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ رِزْقًا يَأْتِيهِ لَا مُحَالَةَ، أَيْ لَا شَكَّ وَلَا مِرْيَةَ، فَمَنْ رَضِيَ بِذَلِكَ الرِّزْقِ - قَلَّ أَمْ كَثُرَ - بُورِكَ لَهُ فِيهِ، مَعْنَاهُ دَامَ وَبَقِيَ، وَصُرِفَتْ عَنْهُ الْآفَاتُ، فَوَسَّعَهُ، كَفَاهُ وَأَغْنَاهُ، وَعِلْمُ أَنَّهُ إِنْ قَلَّ فَهُوَ مُصْلِحَةٌ لَهُ، يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ، فَرَضِي بِقِلَّتِهِ، وَإِنْ كَثُرَ فَهُوَ لِمُصْلِحَةٍ أُرِيدَ بِهَا، فَصَرَفَهُ فِي مُصْلِحَتِهِ، وَقَامَ بِشُكْرِهِ. وَإِنْ لَمْ يَرْضَ بِرِزْقِهِ كَانَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ قَدْ قَلَّلَ فِي عَيْنِهِ كَثِيرَ مَا عِنْدَهُ، وَكَثَّرَ فِي عَيْنِهِ قَلِيلَ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَوَجَدَهُ لَا يَنْقُطِعُ، وَصَدْرُهُ لَا يَتَسَّعُ، وَالْأَرْضُ عَلَيْهِ كِفَّةٌ حَابِلٌ^(١)، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ، لَا سِيَمَا وَقَدْ عَقِبَ ذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ. مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَجَلَ أَكْرَهَ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، كَارِهٌ لِمَوَافَاتِهِ، وَهُوَ يَأْتِيهِ لَا مُحَالَةَ، فَكَذَلِكَ رِزْقُهُ، وَلَوْ كَرِهَ وَصُولَهُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَطَلْبِهِ، وَيَتَعَنَّى فِي سَبَبِهِ؛ لَوَصَّلَهُ لَا مُحَالَةَ!

[دَعَاءُ جَلِيل]

فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُمِسِّكِينَ تَقْتِيرًا، وَلَا مِنَ الْمُنْفِقِينَ تَبْذِيرًا، وَلَا مِنَ الطَّالِبِينَ إِلْحَاحًا، وَلَا مِنَ السَّائِلِينَ إِلْحَافًا، وَلَا مِنَ الْمَعْرِضِينَ عَنِ الْإِرْتِيَادِ لِأَعْمَالِ دَارِ الْبَقَاءِ، وَلَا مِنَ السَّاخِطِينَ عَلَيْهِ فِي حُكْمِ الْقَضَاءِ، وَأَنْ يُرَضِّينَا بِقَسَمِهِ، وَيُمِدَّنَا بِأَنْوَارِ عِلْمِهِ، وَيُرَخِّصَ دَرَنَ ذُنُوبِنَا بِتَجْدِيدِ الْإِنَابَةِ، وَيُوفِّقَنَا لِلْإِصَابَةِ، وَأَنْ يُكَثِّرَ فِي أَعْيَانِنَا قَلِيلَ مَا أَعْطَانَا فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَيُبَارِكْ لَنَا فِيهِ إِلَى نِهَايَةِ حَاجَتِنَا الْقَصْوَى، وَلَا يُخْرِجْ عَمَلَنَا عَنْ قَصْدٍ وَجْهٍ بِسَبَبِ التَّوْفِيقِ، وَيُثْمِّنْ عَلَيْنَا بِالْصَّدَقِ وَالتَّصَدِيقِ، وَلَا يَجْعَلَنَا مِنَ الْجُهَالِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا حِكْمَتَهُ فِي الْمَفَاضِلَةِ فِي الرِّزْقِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَدُّوا قَضَاءَهُ تَعَرُّضًا لِلْإِلْحَادِ فِي أَسَائِهِ، فَأَوْجِبُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَوْجِبْ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا لَمْ تَقْضِ الْحِكْمَةُ بِإِجَابِهِ، وَغَمِصُوا^(٢) وَجْهَ الصَّوَابِ عَلَى بَصَائِرِهِمْ، وَلَمْ يَرُدُّوا الْعِلْمَ إِلَى وَرَثَةِ الْكِتَابِ مِنْ عَتَرَةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، الَّذِينَ هُمْ سَفَنُ نَجَاتِهِمْ فِي بَحَارِ الْهَلَكَاتِ، وَبِغَوَامِضِ عُلُومِهِمْ مُخَلُّ

(١) هِيَ شِبَاكُ الصَّائِدِ وَجِبَالَتُهُ كَمَا مَرَّ، وَقَالَ فِي هَامِشِ الْأَصْلِ: كِفَّةٌ: لِلْمُسْتَدِيرِ، وَكِفَّةٌ: لِلْمُسْتَطِيلِ، أ.هـ.
وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ (٤/ ١٩١): كِفَّةٌ كُلُّ شَيْءٍ بِالْضَّمِّ: طَرْتُهُ وَحَاشِيَتُهُ. وَكُلُّ مُسْتَطِيلٍ: كِفَّةٌ، كَكِفَّةِ الثَّوْبِ. وَكُلُّ مُسْتَدِيرٍ: كِفَّةٌ، بِالْكَسْرِ، كَكِفَّةِ الْمِيزَانِ، أ.هـ.

(٢) غَمَصَهُ، كَضَرَبَ وَسَمِعَ وَفَرَحَ: اخْتَفَرَهُ، كَاغْتَمَصَهُ، وَعَابَهُ، وَتَهَاوَنَ بِحَقِّهِ، وَالنِّعْمَةُ: لَمْ يَشْكُرْهَا.
(القَامُوسُ: ٦٢٥).

المشكلات، فكم من ناجٍ بهم، وهالكٌ فيهم؟!
يا هذا أنصف نفسك من نفسك، أنت أعلم أم ربك؟! أهم هدايتك أم أنت هاديهم؟! أهم
أُمتك أم أنت إمامهم؟! ما عذرُك عند ربك في ترك الفزع إليهم، والاستغناء بطُفَاحَةٍ^(١) الزبد عن
خُلاصة علمهم!.

فإن قلت: أتُبِعُ المتقدمين؛ فلا قَدِمْتُ ولا سَلِمْتُ، هل الحكم إلا واحد؟! ولو خَلَصْتُ عذرُك
لخَلَصَ مَنْ كان قبلك من آبائهم الذين قطعَتْ على وجوب اتباعهم، وهو حقٌّ، وإنما عليك في
المتأخر أن تجايبه^(٢)، فإن أوضح لك السبيل، ونَصَبَ الدليل الذي لا تستطيع دفعه؛ وإلا
انصرفْتَ بعذر واضح، وأمَّا أن تنجح من مكان نائي^(٣)، وترمي من وراء حجاب؛ فذلك مما
يضرُك ولا ينفعُك.

وإنما نفشنا بهذه النفثة - أرشدك الله - لأنَّنا تَبَيَّنَّا في أثناء هذا الخبر الشريف ما بهر العقول،
وأوضح الدليل، وقد كنا لقينا قوماً من جهال الشيعة^(٤) يدَّعون العلم وهو نازحون عنه، والفهم
وهو شاسعون عنه في الأرزاق أنها لا تكون إلا بالاحتياال والتصرف والحركة والتقلُّب؛ دون
اختيار الحكيم سبحانه، فحرَّكَ ذلك ساكناً، واستخرج كامناً.
جعلنا الله وإياكم من الغاضبين له وفيه، القائمين لموجب العقل بما يعنيه، والصلاة على
محمد وآله.

(١) الطُّفَاحَةُ: زَبَدُ الْقَدْرِ. وَكُلُّ مَا عَلَا: طُفَاحَةٌ، كَزَبَدِ الْقَدْرِ وَمَا عَلَا مِنْهَا. (لسان العرب ٢ / ٥٣٠).

(٢) قال في هاش الأصيل: يُقَالُ تَجَاوَى الْخُصْمَانِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكَمِ إِذَا بَرَّكََا عَلَى الرَّكْبِ لِلْمُنَازَعَةِ، ا.هـ. (انظر
لسان العرب ١٤ / ١٣١).

(٣) النَّائِي: الْبَعِيدُ، قال الفراهيدي: النَّائِي: الْبُعْدُ... تَأَيَّ يَنَئِي نَائِيًا، ا.هـ. (كتاب العين ٨ / ٣٩٢).

(٤) هم المطرفية، وهناك الكثير من الكتب والمؤلفات للأئمة عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم التي
تطرَّقت للرد عليهم ونفي شبههم، ودحض عقائدهم الفاسدة، وأفكارهم الإلحادية، فمن ذلك: مؤلفات
الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام: كتاب (الهاشمة لأنف الضلال عن مذاهب المطرفية الجهال) وكتاب
(العمدة في كفر المطرفية المرتدة) وكتاب (الواضحة في ارتداد المطرفية الزنادقة). والإمام أبو الفتح الديلمي
عليه السلام له (الرسالة المبهجة في الرد على الفرقة الضالة المتلجلجة) في الرد على المطرفية، وللإمام المنصور
بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام الكثير من الرسائل والجوابات في الرد عليهم،.... الخ.

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ^(١) مُعَاوِيَةَ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، وَقَدْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْنَتُ بِلَعْنِهِ، وَهُوَ الَّذِي أُجْرِيَ سَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَأَقْسَمَ لِيَجْعَلَنَّهُ سُنَّةً، وَقَتْلَ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ الْكِنْدِيِّ، وَكَانَ قَتْلُهُ مِنْ أَكْبَرِ حَدِيثٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ فِي الشَّامِ، وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ عَنَاءَةً فِي فَتْحِهَا: وَاللَّهُ لَشَنْ قَتَلْتُمُونِي فِيهَا إِنِّي لِأَوَّلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَلَكَ فِي أَوْدِيَّتِهَا، وَأَوَّلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَبَحَتْهُ كَلَابِهَا، وَلَمَّا اسْتَرَّ أَهْلُ الشَّامِ بِقَتْلِهِ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أَنْفَرَحُونَ بِقَتْلِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ! وَاللَّهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَ أَذْرَبِيحَانَ^(٢) وَقَدْ قَتَلَ تِسْعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ يَتَأَمَّرَ جِيُوشُ الْمُسْلِمِينَ. وَنَاهَيْكَ بِمَنَاصِبَتِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحَرْبِهِ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْبَدْرِيِّينَ وَالْعَقَبِيِّينَ وَالْأَحْزَابِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا نَجُومًا فِي الْإِسْلَامِ يَقْتَدِي بِهِمْ^(٣)، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنُ بَشَّارِ الْأَنْبَارِيِّ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ عَنْ عَيْسَى بْنِ عَمْرٍو عَنْ مُعَاوِيَةَ... الْحَدِيثُ.

(٢) أَذْرَبِيحَانَ: (قَالَ يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ (١/١٢٨): يَتَّصِلُ حَدُّهَا مِنْ جِهَةِ الشَّامِ بِلَادِ الْجَلِيلِ وَالْدَيْلِمِ، وَهُوَ إِقْلِيمٌ وَاسِعٌ. وَمِنْ مَشْهُورِ مَدَائِنِهَا: تَبْرِيزٌ، وَهِيَ أَكْبَرُ مَدِينَةٍ... وَخَوْيٌّ، وَسَلْمَاسٌ، وَأَرْمِيَّةٌ، وَأَرْدَبِيلٌ، وَمَرَنْدٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.. قُلْنَا: الْجَزَاءُ الشَّامِلِي مِنْ إِيرَانَ كَانَ تَابِعًا لِأَذْرَبِيحَانَ قَدِيمًا، لِأَنَّ الْمَدْنَ الَّتِي ذَكَرَهَا يَاقُوتُ الْحَمُوي هِيَ مَعْظَمُهَا الْآنَ مِنْ مَدَنِ إِيرَانَ، أَمَّا الدَّوْلَةُ الَّتِي تَسْمَى الْآنَ أَذْرَبِيحَانَ فَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ سِتِّ دُولٍ تَرْكِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ فِي مَنَاطِقِ الْقَوَاقِزِ فِي أَوْرَاسِيَا، تَقَعُ فِي مَفْتَرَقِ الطَّرِيقِ بَيْنَ أَوْرُوبَا الشَّرْقِيَّةِ وَأَسِيَا الْغَرْبِيَّةِ، وَيَحْدُهَا بَحْرُ قَرْوِينَ إِلَى الشَّرْقِ، وَرُوسِيَا مِنَ الشَّامِ، وَجُورْجِيَا إِلَى الشَّامِ الْغَرْبِيِّ، وَأَرْمِينِيَا إِلَى الْغَرْبِ، وَإِيرَانَ فِي الْجَنُوبِ، اسْتَقَلَّتْ عَنِ الْإِتِّحَادِ السُّوفِيَّتِيِّ عَامَ ١٩٩١ م، لَغْتَهُمُ الرِّسْمِيَّةُ هِيَ الْأَذْرَبِيَّةُ نَسَبَةً إِلَى أَذْرَبِيحَانَ وَهِيَ مِنْ عَائِلَاتِ اللُّغَاتِ التَّرْكِيَّةِ، نَسَبَةً الْمُسْلِمِينَ فِيهَا تَقْرِيبًا ٩٣٪، وَلَكِنْ بِنِظَامٍ عِلْمَانِيٍّ، لَيْسَ لِلدِّينِ أَيُّ أَثَرٍ أَوْ مَهَارِسَاتٍ أَوْ مَنَاسِبَاتٍ تَذَكَّرُ.

(٣) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ: يَقْتَدِي بِهِمْ، وَفِي بَقِيَّةِ النُّسخِ: يَقْتَدِي بِهَا.

وكم عسى أن نَعُدَّ من أحداثه؟! وإنما قَبِلْنَا الرواية عنه لأنها في حال ستره قبل انكشاف أمره، ولأنَّ الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها من كل من وجدها معه، ولأنَّ الحديث مما يتعلق بالوعظ والتخويف. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ فِي خُطْبَةٍ أَحَدِ الْعِيدَيْنِ: ((الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ وَمَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَعَنَاءٍ، قَدْ نُرِعتْ عَنْهَا نُفُوسُ السَّعْدَاءِ، وَانْتُرِعتْ بِالْكَرْهِ مِنْ أَيْدِي الْأَشْقِيَاءِ، فَاسْعُدِ النَّاسَ بِهَا أَرْغَبُهُمْ عَنْهَا، وَأَشْقَاهُمْ بِهَا أَرْغَبُهُمْ فِيهَا، هِيَ الْعَاشَةُ لِمَنْ اسْتَنْصَحَهَا، وَالْمُغْوِيَّةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا، وَالْحَاتِرَةُ لِمَنْ انْقَادَ لَهَا، فَالْفَائِزُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَالْهَالِكُ مَنْ هَوَى فِيهَا، طُوبَى لِعَبْدٍ اتَّقَى فِيهَا رَبَّهُ، وَنَاصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَأَخَّرَ شَهْوَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفِظَهُ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَيُصْبِحَ فِي بَطْنٍ مُوحِشَةٍ غَبْرَاءَ، مُذْلَهَمَةً ظُلْمَاءَ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنَةٍ، وَلَا يَنْقُصَ مِنْ سَيِّئَةٍ، ثُمَّ يُنْشَرُ فَيُحْشَرُ؛ إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ يَدُومُ نَعِيمُهَا، أَوْ إِلَى نَارٍ لَا يَنْقُذُ عَذَابُهَا)).

قد تقدم الكلام في الخطبة. أحد العيدين يريد الأضحى أو الفطر. وقد تقدم الكلام في أمر الدنيا والدار، والبلاء هو ما يُبتلى به الإنسان، أي يُختبر. قال الراجز:

الْيَوْمَ أَبْلُوكَ وَتَبْتَلِيَنِي وَالْيَوْمَ تَبْلُو غِلْظِي وَلِيَنِي

والمَنْزِل هو ما ينزله الإنسان أي يسكنه. والقُلْعَةُ هو الانتقال بكرة، لا يكون قُلْعَةً إِلَّا كَذَلِكَ، فمن خرج باختياره فليس بمقلوع، وأصله من قلع الشجرة. والعناء هو التعب والشدة. والتَّرْع هو الإخراج بهون، كما تُنزع الشعرة من العجين، والانتزاع لا يكون إِلَّا بِشِدَّةٍ وعناء. الكره والإكراه واحد، وهو ما تنفر عنه النفس، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤] أي شاق عليكم. والأيدي جمع يد. والأشقياء جمع شقي.

[مواظ على جليلة في حقيقة الدنيا]

المَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبَيِّنُ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَمَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَعَنَاءٍ، وَكَذَلِكَ عَرَفْنَاهَا وَعَيْنَاهَا، مَنْ بَلَوَاهَا أَنْ سُرُورُهَا لَا يَدُومُ، وَخَيْرُهَا لَا يَبْقَى، وَصَلَاحُهَا لَا يَسْتَمِرُّ، كَمَنْ مِنْ مَصْبُوحٍ

حيّاً، وأمسى ميتاً؛ وغنياً وأمسى فقيراً؛ وآمراً فأمسى مأموراً، وقاهراً فانقلب مقهوراً، رَمَتْهُ سَهَامُهَا فَأَصْمَمَتْهُ، ورشَقَتْهُ نَبَاهُهَا فَمَا أُنْمَتْهُ^(١)، فأَيُّ بلاءٍ أعظم من هذا؟! وهي لعمر الله منزل القلعة والعناء، ومحطُّ النُّجعة والفناء، وما أحقُّ منها بهذا الاسم! فكم من ذي قصرٍ مَشِيدٍ قد عَطَلَتْ قصره؛ وذي جُنْدٍ مَحْشُودٍ قد هزمت جنده؛ وصاحبٍ عديدٍ قد قَلَلَتْ عدده؛ انظُرْ إلى ملوك بني ساسان، وأقيال غسان، وإن شئت فانظر إلى مُلْكِ بني مروان على قرب الزمان، الذين ملكوا المشارق والمغرب، وذَلَّ لهم الأعاجم والأعارب، وكان يُحْطَبُ للواحد منهم في يومٍ على ثمانين ألف منبر، فهل ترى لهم من باقية؟! فأَيُّ قُلعةٍ وعناءٍ أعظم من هذا؟! قد نَزَعَتْ عنها نفوس السُّعداء إلى دار الكرامة، ومنزل السلامة، وانتزَعَتْ بالكُرْه من أيدي الأشقياء.

المنتزعةُ هي الدنيا بالكُره من أيدي الأشقياء: إما بأن يُجَذَّبوا منها، أو تُجَذَّبَ منهم، فذلك انتزاعٌ من أيديهم. والأشقياء هم الذين شَقُّوا، بمعنى خَسِرُوا وخابُوا بتنكبُّهم منهاجِ رشدِهم، وسعيهم فيما يوبقهم، فإذا كانت هذه حالها، فما وجه الرُّكون إليها، والاعتماد عليها، واتخاذها دار قرار، ومركز عزٍّ وفخار؟!.

قوله عليه السلام: فَاسْعُدُ النَّاسَ بِهَا أَرْغَبُهُمْ عَنْهَا، وَأَشْقَاهُمْ بِهَا أَرْغَبُهُمْ فِيهَا.

رغب عنه إذا كرهه، ورغب فيه إذا أحبه.

المُجْعَى: أَنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا مَنْ رَغِبَ عَنْهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَرِهَهَا اتَّخَذَهَا مَعْبَرًا إِلَى غَيْرِهَا، وَمَجَازًا إِلَى سِوَاهَا، وَقَدَّمَ مِنْهَا خَيْرًا رَاجِحًا، وَعَمِلَ فِيهَا عَمَلًا صَالِحًا، وَجَعَلَهَا لِنَفْسِهِ مَتَجَرًّا رَاحِيًا، فَكَانَتْ رَغْبَتُهُ عَنْهَا سَبَبًا لِسَعَادَتِهِ بِهَا. وَأَشْقَاهُمْ بِهَا - أَلْهَاءَ عَائِدَةٍ عَلَى الدُّنْيَا - أَرْغَبَهُمْ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَغِبَ فِيهَا - بِمَعْنَى أَحْبَبَهَا وَحَرَّصَ عَلَيْهَا - اتَّخَذَهَا مَنَازِلَ إِقَامَتِهِ، وَدَارَ مُقَامَتِهِ، فَجَعَلَ لَهَا كَدْحَهُ، وَاسْتَفْرَغَ فِي جَمْعِهَا جُهْدَهُ، وَجَعَلَ لَهَا سَعْيَهُ، فَشَقِيَ بِهَا شَقَاءً لَا سَعْدَ بَعْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُنْتَزِعُ مِنْهَا، وَلَمْ يَسْتَعِدَّ لِلنُّجْعَةِ، وَلَا يَتَأَهَّبَ لِلثَّقَلَةِ، فَيَخْرُجُ مِنْ دَارٍ عَامِرَةٍ، وَحَالَةٍ سَاتِرَةٍ، إِلَى دَارٍ شُرُورِهَا

(١) أَصْمَمَتْهُ: أَيِ قَتَلَتْهُ مَكَائِهِ، وَأَنْمَتْهُ إِذَا لَمْ تَقْتُلْهُ مَكَائِهِ؛ بَلْ تَحَامَلَ بِالرَّمِيَةِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: ((كُلُّ مَا أَصْمَمَتْ، وَدَغَّ مَا أُنْمِتَ)) أَيِ كُلِّ مَا رَمَيْتُهُ وَقَتَلْتُهُ مَكَائِهِ، وَدَغَّ مَا بَاتَ غَائِبًا مِنْكَ، تَمَتْ، هَامِشُ الْأَصْلِ. (انظر القاموس المحيط: ١٣٠٤).

للأشقياء عاهرة^(١)، وتغورها بالمخاوف والدواهي عليهم فاعرة^(٢)، وكان السبب في مصيره إلى ما هذا حاله رغبته في الدنيا وزهده في الآخرة، فيشقى بها شقاوة ظاهرة.

قوله عليه السلام: هِيَ الْغَاشَّةُ لِمَنْ اسْتَنَصَحَهَا، وَالْمُغْوِيَةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا، وَالْخَائِرَةُ لِمَنْ انْقَادَ لَهَا، فَالْفَائِزُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَالْهَالِكُ مَنْ هَوَى فِيهَا.

الغش: نقيض النصيح، وهو أن تظهر خيراً، وتُضمر شراً، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ نظر حنطة فأعجبته، فغمس يده في الطعام، ثم قبض منه قبضةً، وأخرج يده فنظره دون الظاهر في الطيب، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)) والإغواء هو التعمية، وقد تقدم. والختر هو الخيانة والمكر والخديعة. والانقياد هو المساعدة. والفائز كان في الأصل مَنْ يَكْتُمُ حَظَّهُ سهمه في الميسر، ثم صار من نجا وغنم في عرف العرب، وفي الشريعة شرفها الله تعالى: مَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُذِلَّ الْجَنَّةُ. والهاالك عندهم هو المايت والمُذْنَف^(٣). والموت هو الهلاك، قال شاعرهم:

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا^(٤)

(١) ... وَمِنْهُ سُمِّيَ الزَّانِي عَاهِرًا، إِذَا اشْتَهَرَ فِعْلُهُ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: ((الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ)) تمت، هامش الأصل.

(٢) الثُّغُورُ جَمْعُ ثَغْرٍ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْمَخَافَةِ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَفَاعِرَةٌ: مُفْتَحَةٌ شَاحِيَّةٌ، قَامُوسٌ.

(٣) المذنف: بفتح النون وكسرهما، قال في مختار الصحاح ص ١٠٧: (الدَّنْفُ) يَفْتَحَتَيْنِ الْمَرَضُ الْمَلَازِمُ وَرَجُلٌ (دَنَفٌ) أَيْضًا وَامْرَأَةٌ دَنَفٌ وَقَوْمٌ دَنَفٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذَكَّرُ وَالْمَوْثُ وَالنَّثِيَّةُ وَالْجَمْعُ. فَإِنْ قُلْتَ: رَجُلٌ دَنَفٌ بِكسر النون قُلْتَ: امْرَأَةٌ دَنَفَةٌ فَأَنْثَتْ وَنَثِيَتْ وَجَمَعْتَ. وَقَدْ (دَنَفَ) الْمَرِيضُ مِنْ بَابِ طَرَبٍ أَيْ ثَقُلَ وَ (أَدَنَفَ) مِثْلُهُ وَ (أَدَنَفَهُ) الْمَرَضُ يَتَعَدَّى وَيَلْزَمُ فَهُوَ (مُدْنَفٌ) وَ (مُدْنَفٌ) ١. هـ.

(٤) قيس المذكور في البيت: هو قيس بن عاصم، والبيت هو لعبدة بن الطيب يرثي قيس، والبيت هو من الشواهد النحوية في جواز النسب والرفع لكلمة هُلْكُ الثانية، إما بجعلها خبر كان، فتكون هلك الأولى بدلاً من قيس، أو خبر المبتدأ هلك الأولى، والجملة الإسمية من المبتدأ وخبره في محل نصب خبر كان، وإن نصبها فهي خبر كان.

وهو عبدة بن يزيد (الطيب) بن عمرو بن علي (ت نحو ٢٥ هـ) من تميم: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. كان أسود، شجاعاً. شهد الفتوح، وقتال الفرس مع المشي بن حارثة، والنعمان بن مقرن، بالمدائن وغيرها. وكانت له في ذلك آثار مشهودة، وله فيها شعر. وهو صاحب المراثية التي منها هذا البيت، يقال: إنه أرثى بيت قالته العرب، ١. هـ (انظر الأعلام للزركلي ٤ / ١٧٢).

المعنى في ذلك: أن الدنيا تغش من استنصحتها، وهذه معاشره قبيحة، أن تكون مستنصحا لمن يغشك، فإن هذا من أقبح الاعتراض، فإذا أخبرك مخبرٌ ظاهره العدالة بأنه غاش لك لزمك في ظاهر الحال وعند أهل العقول الاحتراز منه، والحزم عنه، وقد أخبرنا عنها أنصح الناصحين، وأصدق الصادقين؛ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ الطاهرين، الذي قامت المعجزات بصدقه، وظهرت الأعلام على صحة نبوته، فليُنزِلْها العاقل منزلة الغاشين في الاستخفاف بها، والإعراض عنها، وقد جمعت مع هذه الخلَّة القبيحة خلافاً آخر، كلُّها كافية في وجوب بغضها، والإعراض عنها، والزهد فيها، والاستخفاف بها، وأنها تُغوي من أطاعها حتى تورده موارد الهلكة، حيث لا ينفعه نديم، ولا يدفع عنه حميم، وكيف وقد صدفته^(١) عن الصراط المستقيم! وأوردته مَشْرَعَةً^(٢) الجحيم، والعذاب الأليم! فلو أنها أغوته إلى برية بريئة من الخير، خلية من الماء والطعام، تيهاء مطموسة الأعلام؛ لكانت أكبر جناية، وأقبح نهاية؛ فكيف إذا أوردته ناراً حامية الوقود، بعيدة الخمود، ثقيلة القيود، فلا رُحْمَ من أطاعها، وظاهر سطاوعها^(٣).

ومن خلالها الذميمة خَترُها^(٤) لمن انقاد لها، فيا لها الويل والأليل^(٥)! هل تراها أهلكت إلا من فعل معها ما يوجب رَعْيَ الحُرْمَةِ؛ وحِفْظَ الدِّمَّةِ؛ فلا ي معنى ينقاد لها العاقل، وقد حذَّره مِنْ خَترِها الرسول، وقام بصحة قوله الدليل، ثم أخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّ الفائز من أعرض عنها، وصرف وجهه إلى غيرها، وهي دار الآخرة التي إليها معاده، ومقرُّ وساده، والهالك من هوى فيها، يريد الفائت عن الخير الميت الذكر في الصالحين، فلو كان من أكبر الملوك المتجبرين؛ لكان من أهلك الهالكين، وأضعف المستضعفين، وأيُّ هلاكٍ أعظم من الهويِّ فيها بالكلية، والهبوط عن منازل الرحمة السوية، والدَّرَجِ العلية.

(١) صَدَقَتْهُ عَنِ الصَّرَاطِ: أَي صَرَفَتْهُ عَنْهُ وَصَدَّتْهُ، قاموس.

(٢) الْمَشْرَعَةُ: الْمَوَاضِعُ الَّتِي يُنْخَدِرُ إِلَى الْمَاءِ مِنْهَا، (لسان العرب ٨ / ١٧٥).

(٣) السَّطَاعُ: خَشَبَةٌ تُنْصَبُ وَسَطَ الْخَبَاءِ وَالرُّوَاقِ، وَقِيلَ: هُوَ عَمُودُ الْبَيْتِ، (لسان العرب ٨ / ١٥٥).

(٤) الْخَترُ: شَبِيهُ بِالْغَدْرِ وَالْخَدِيعَةِ... وَقِيلَ: هُوَ أَسْوَأُ الْغَدْرِ وَأَقْبَحُهُ، (لسان العرب ٤ / ٢٢٩).

(٥) الْأَلِيلُ: هُوَ الْأَيْنُ، كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الرَّابِعِ عَشَرَ، وَهُوَ مَثَلٌ، يَقَالُ: لَهُ الْوَيْلُ وَالْأَلِيلُ.

قوله عليه السلام: طُوبَى لِعَبْدٍ اتَّقَى فِيهَا رَبَّهُ، وَنَاصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَأَخَّرَ شَهْوَتَهُ.

طوبى شجرة في الجنة يستظل تحتها الفائزون، في الحديث: ((إِنَّ الرَّاكِبَ يَسِيرُ تَحْتَهَا خَمْسَ سَاعَةٍ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا)) والعبد قد تقدم معناه. والاتقاء هو دفع الشرِّ بسترٍ أو حجابٍ^(١). والرب هو المالك. والنصيحة هو رفع الخلل، ومنه سميت الإبرة منصحة؛ لأن بها تُحاط شقوق الثوب، قال الراجز:

وَرَبَّ كُلِّ شَوْذَبِيٍّ مُنْسَرِحٍ مِّنَ اللَّبَاسِ غَيْرَ جَرْدٍ مَا نُصِحَ^(٢)

يريد القَسَمَ بالمُحَرَّم، فإنه لا يلبس المخيط. والتقديم نقيض التأخير. والتوبة الندم على الذنب والعزم على أن لا يعود إليه لأجل قبحه. والتأخير نقيض التقديم. والشهوة معروفة، وهي معنى يَقْوِي الدواعي إلى نيل المشتهى.

المُجَنَّبُ: أخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن طوبى مناخ الفائزين لمن اتقى في هذه الدنيا عذابَ ربه فيها وفي الأخرى بالأعمال الصالحة، إذ كل تقاءٍ دونها لا يُتَقَى صاحبه، ولا يُمنَع جانبه، وناصح نفسه بأن لا يتخذها قراراً، ولا يجعلها داراً، بل يتخذها ممرّاً سائراً، وسبيل عابراً، ومنهج متجرد للسلوك، لا يلوي على شيء فيها، ولا تسكن نفسه إلى رونقها، إنما هم قوائم صلبة، وبلال حلقة، حتى ينتهي إلى غرضه من الدار التي أعدت للمتقين عذابَ ربهم، الناصحين لأنفسهم، فحينئذ حط رَحْلُهُ، وثنى رجله، وقال كما قال الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى^(٣) كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

وقدم توبته على عمله ليني عمله على أصلٍ صحيح، وقرارٍ مكين، لأن التوبة تَرَحُّصُ الأوزار جملة، فلا تغادر منها شيئاً، ولا نعلم في الطاعات -بالغة ما بلغت- كبيرةً غيرها، وذلك لعِظَمِ حق

(١) حجابٌ يَكْسِرُ الحَاءَ وَفَتْحُهَا: وهو السُّرُّ والغِطَاءُ، (انظر النهاية: ١/ ٣٤٨).

(٢) الشَّوْذَبِيُّ: الطَّوِيلُ النَّحِيفُ، تمت، هامش الأصل. قال في تهذيب اللغة (٤/ ١٧٤): وَالْمُنْسَرِحُ: الخارجُ من ثِيَابِهِ. والجُرْدُ: الحَلَقُ مِنَ الثِّيَابِ. وَمَا نُصِحَ: أَي مَا خِيطَ. أ.هـ.

(٣) النَّوَى: التَّحَوُّلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ. قاموس.

الرب سبحانه، فكل ما عملنا واجتهدنا فهو صغير في حقه إلا التوبة؛ فإنه سبحانه أخبرنا بكبرها؛ لسعة جوده، ترغيباً لنا في فعلها والمبادرة بها، فعلى هذا تُقدّم بين يدي كل فعل، ويُتَوَجَّعُ بها كل عمل، وتؤخر الشهوة إلى أن نقضيها في دار الآخرة، فأما في دار الدنيا فشهواتها منغصة، ولذاتها مكذّرة، فلا وجه للتأخير للشهوة إلا أرجاؤها إلى دار الآخرة، والإضراب عن سلوك أوديتها الوبية القاتلة، والتوقّي لأفاعيها الخاتلة^(١).

قوله عليه السلام: مَنْ قَبِلَ أَنْ تَلْفِظَهُ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَيَصْبِحَ فِي بَطْنٍ مُوحِشَةٍ غَبْرَاءَ، مُدْلِهَمَةً ظَلَمَاءَ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنَةٍ، وَلَا يَنْقُصَ مِنْ سَيِّئَةٍ.

اللفظ هو ما يُلقيه الإنسان من فيه، ومنه لفظ الكلام لخروجه من الفم. **والموحشة** الغبراء حفرة القبر. **وبطنها** وسطها. **والمُدْلِهَمُ** الأسود. **والظلماء** تأكيدٌ لسوادها.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يبيّن أن الواجب أن يتقي الإنسان ربه، وينصح نفسه، ويقدم توبته، ويؤخر شهوته، وهو ما تقدم شرحه؛ قبل أن تلفظه الدنيا إلى الآخرة، فشبه ابن آدم مع الدنيا باللفظ من الفم، كأنها مَضَعَتُهُ ثم لَفَظَتْه، وهذه من غرائب الاستعارة، والملفوظ بمجرى العادة لا خير فيه، ولا يُلفَظ إلا ما لا يُتَنَفَعُ به، فلما أخذ إليها مَضَّتْ^(٢) حلاوته، واشتَفَّتْ طلاوته^(٣)، ثم لفظته لوجهه إلى بطن موحشة غبراء، ولا شك في ذلك. وأيّ منزل وحشة أوحش من القبر، ومنزل غربة أغرب منه؟! فسأل الله تعالى بحقه العظيم أن يؤنسنا فيه بالأعمال الصالحة، ويصلي على النبي وآله.

قوله: مُدْلِهَمَةً ظَلَمَاءَ، عائد على الحفرة، لا يستطيع أن يزيد في حسنة؛ لا نقطاع التكليف، ولا ينقص من سيئة لأجل ذلك، وإنما هذا له في هذه الدار التي جعلها الله سبحانه ميداناً للسباق إلى

(١) حَتَاهُ يَحْتَلُّهُ وَيَحْتَلُّهُ حَتْلًا وَخَتْلَانًا وَخَاتَلَهُ: خَدَعَهُ عَنْ غَفْلَةٍ، (لسان ١١/ ١٩٩).

(٢) في نسخة أخرى: مَصَّتْ، بالصاد. **والمَضُّ:** الحُرْقَةُ. **مَضَّنِي** الهمُّ والحُرْنُ وَالْقَوْلُ يَمُضُّنِي مَضًّا وَمَضِيضًا وَأَمُضْنِي: أَحْرَقَنِي وَشَقَّ عَلَيَّ. **وَالْهُمُّ يَمُضُّ الْقَلْبَ** أَي يُحْرِقُهُ. ا.هـ. (لسان العرب ٧/ ٢٣٣).

(٣) يقال اشْتَفَّتِ الرِّيحُ الشَّجَرَ: إِذَا أَيْبَسَتْ وَرَقَهُ، تمت من هامش الأصل. وقال الأزهري في تهذيب اللغة (١١/ ١٩٥): اشْتَفَّ أَي شَرَبَ جَمِيعَ مَا فِي الْإِنَاءِ، وَالشُّفَافَةُ: آخِرُ مَا يَبْقَى فِيهِ. ا.هـ. **وَالطَّلَاوَةُ:** مُثَلَّةٌ: الْحُسْنُ، وَالبَهْجَةُ، والقَبُولُ. ا.هـ. (لسان العرب ١٥/ ١٤).

جنته الواسعة، التي عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وسُوقاً لَتَفَاقِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وبوار الأَعْمَالِ المردودة الفاضحة، وليت أنها إذا رُذِّتْ جُعِلَتْ سُدًى؛ وَإِنَّمَا هِيَ تُجْعَلُ عَلَى صَاحِبِهَا وبالاً، وتسوق إليه نكالاً.

وجعل الحفرة من الآخرة لأنها في حكمها من حيث أنها منزل لا يَنفَعُ فيه العمل، ولا يغني الندم.

قوله عليه السلام: ثُمَّ يُنْشَرُ فِيْحَشْرٍ، إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ يَدْخُلُ مِنْهَا، أَوْ إِلَى نَارٍ لَا يَنْقُذُ عَذَابُهَا.

النشر نقيض الطي، وهو هاهنا استعارة، كأن الميت كان مطوياً بالتفريق فنُشِرَ بالتلفيق.

والحشر الجمع مع غيره. وقد تقدم الكلام في الجنة، ونعيمها خيرها. وكذلك الكلام في النار. وأضاف العذاب إليها لكونه فيها.

أخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ وهو الصادق الخبر أن العبد يُنْشَرُ من قبره بعد طيه بالموت والبلن، فيحشر عقيب ذلك، أي يساق إلى المحشر، وهو مجمع الخلق للحساب، فيصير بعد حشره إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها. وإنما قال ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنَّ الخلود لازم لأهل الدارين، أهل الجنة والنار، وبذلك يبطل قول المرجئة.

وقد علمنا أن الحياة من أشهى ما يكون إلى النفوس، ولهذا فإنك تجد الملوك الكبار ينهزمون من الممالك الجليلة الأخطار إذا خافوا الموت وهم غانمون في أنفسهم، ولا يَعْتَدُّونَ بِمَا فَاتَ، فما ظنك بحياة لا يؤس فيها ولا ضراء، ولا ظمأ ولا ضحاء^(١)، ولا شقاء ولا عناء، ظل بارد، ونعيم راكد.

وكذلك قد علمنا أن الواحد من الناس إذا حبسه بعض الملوك في محبس مظلم، وضيق عليه في الطعام والشراب خرج إليه من جميع ما يملك، وعدَّ ذلك غنيمة! فكيف بمحبسٍ مهاده نار، وحيطانه نار، وسقفه نار، وماؤه نار، وعيشه نار؟! هذا العام، ويتخلل ذلك من أنواع العذاب وصنوفه ما نسأله تعالى صرفه عنَّا، ودفعه مِنَّا، بحقه العظيم، ويجعلنا وإياكم من المحشورين إلى دار النعيم، الفائزين بالنجاة من العذاب الأليم، والصلاة على محمد وآله والسلام.

(١) الضَّحَاءُ، بِالْمَدِّ: إِذَا قَرَّبَ انْتِصَافُ النَّهَارِ، وبالضم والقصر: الشَّمْسُ. (القاموس المحيط: ١٣٠٤).

الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَسَبِهِ، وَطَرَفٍ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ شَمِّرُوا فَإِنَّ الْأَمْرَ جِدٌّ، وَتَاهَبُوا فَإِنَّ الرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ، وَخَفَّفُوا أَثْقَالَكُمْ فَإِنَّ وِرَاءَكُمْ عَقَبَةً كَوْوَدًا، لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا الْمُخَفَّفُونَ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أُمُورًا شِدَادًا، وَأَهْوَالًا عِظَامًا، وَزَمَانًا صَعْبًا، يَتَمَلَّكَ فِيهِ الظُّلْمَةُ، وَيَتَصَدَّرُ فِيهِ الْفَسَقَةُ، فَيُضْطَهُدُ فِيهِ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُضَامُّ التَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَعِدُّوا لِدَلِكِ الْإِيمَانَ، وَعَظُّوا عَلَيْهِ التَّوَاجِدَ، وَالْجَأُوا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَكْرِهُوا عَلَيْهِ الثُّفُوسَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الصَّرَاءِ، تَفَضُّوا إِلَى التَّعِيمِ الدَّائِمِ)).

المعشر هو الجماعة الذين يجمعهم أمرٌ من الأمور التي توجب العشرة، والعشرة هي المعاملة. والمسلمون هم الذين أسلموا لله سبحانه، وسلَّموا أمورهم إليه، سُموا مسلمين بذلك، والإسلام والإيمان في الشريعة واحد، وهو في أصل اللغة مختلف المعنى. والتشمير رفع الأطراف، ولا يكون ذلك إلا عند الشدة، قال الشاعر يصف هولاً:

إذا ما البيض أبدين الخدما

يريد الخلاخيل لَمَّا شَمَّرْنَ للهرب. والجد نقيض الهزل. والتأهب حمل الأهب، وهي آلة السفر، وأصلها الإهاب الذي يُجْمَعُ فِيهِ المتاع، كما أن التسلُّح حمل السلاح. الرحيل نقيض الحلول. والقريب نقيض البعيد. والتزوُّد جمع الزاد وإعداده وحمله. والسفر هو مدة السير. والتخفيف هو إلقاء الأثقال. والأثقال معروفة، ومثله الأوزار. ووراء هاهنا بمعنى أمام. قال قيس بن الخطيم:

(١) قال السيد الشريف: وحدَّثنا أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأتباري قال حدثنا أبو منصور محمد بن حاتم المؤدب قال حدثنا محمد بن سلام الجمحي قال حدثنا حجاج بن سلمة قال حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك... الحديث.

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَ لَهَا نَفْدٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاءَهَا
مَلَكَتْ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يَرَى قَائِمًا مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا
يريد أمامها، وهو ظاهر كما ترى. وقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف] يريد أمامهم والله أعلم.

والعقبة هي المرقاة في الجبل العالي، ومنها أخذ العُقاب. والكُؤود الصعبة. وقطعُها طلوعُها ومجاورتها. المُخِفُون نقيض المثقلين، وهم الذين ألقوا باهظ الأثقال، ولم يأخذوا إلا ما يعينهم على الطريق.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أمر المسلمين عموماً أن يشمروا، ولا يستهنوا الأمر فإنه جد، وأني جد أعظم منه؟! قولٌ عدلٌ، ووعيدٌ^(١) صادق، فلا أرجى من التشمير والاهتمام بالأمر، والاجتهاد في الخروج عن لوازم الحق، والتأهب بالجمع لما يحتاج إليه الراحل، فإنه قريب، فلا يُعلم أقرب منه، وما بُعْدُ أمرٍ نتوقعه صباح مساء، إن أُمسينا انتظرناه في الصباح، وإن أصبحنا انتظرناه في المساء، وهل للغفلة عما هذا حاله وجهٌ مُحَسِّنُ العقول السليمة؟! ولكن التشمير لا يُجدي والتأهب لا ينفع ما لم نستكثر من الزاد؛ لاسيما وقد أخبرنا الصادق في مقاله أن السفر بعيد، وهو مدة قطعنا للمسافة بيننا وبين موعود ربنا، ولا أبعد من مدة يومٍ فيها مقدار خمسين ألف سنة، وذلك الزاد ما هو بتات الدنيا وصنوف معاشها؛ إنما هو التقوى فيما بيننا لنا الملك الأعلى بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٦].

فالواجب علينا -والحال هذه- أن نستكثر منه؛ إذ المقطوع به من الزاد لا يجد مُبَلِّغاً ولا مُتَصَرِّفاً، ولا إجارة ولا قرضاً إلا ما يكون معه، ولا يُمكنُ من الرجعة للاستعداد، فإذا كانت هذه الصورة لزم العاقل أن يُكثر من الزاد إلى حالٍ لا تختلجه فيه الظنون أنه زائد على الكفاية، وأن يصرف همته إلى ذلك، لأنه لا يدري متى يصبح به صائح الرحيل، فإن رحل وإلا أُرِجل بالشدة، من غير مرضاة ولا مؤامرة، ولم يبق له عذر؛ إذ قد بعث الله إليه من لا يُشَكُّ في صدقه، وأخبر بقرب الرحيل، وبُعْدِ الطريق، وطول السفر، وأن هذا جدٌ لا هزل، فليتأهب وليشمّر ويتزود، فما بقي له من عذر.

(١) في نسخة أخرى: وَوَعْدٌ.

ثم أعلمنا هذا الدليل الناصح - جزاه الله عنّا خيراً، وصلى عليه وعلى آله مصاييح الهدى - أن وراءنا - بمعنى أمامنا - عقبةً كؤوداً صعبة المرتقى، فلنخفف الأحمال ونطرح الأثقال، فمن وصلها بحمل، ورام طرقه في تلك الحال لم يُمكن من ذلك، بل يسوقه خدام الملك وهو على ظهره في تلك العقبة الصعبة، فقال لا يقطعها - معناه بهون وسرعة - إلا المخفون، وإلا فلا بد من قطعها، ولكن بتعبٍ ونصبٍ، وعذابٍ ذي شُعَبٍ.

ومعنى التخفف - والحال هذه - من ثقل الأوزار والمعاصي بالأوبة والتنصل والإقبال إلى الله سبحانه بالطاعة، والاعتذار من فرط^(١) السيئة، وأن لا يستقل شيئاً يليقه من غاربه^(٢)، أو يعول على صاحبه ما دام له صاحب يعينه، وحميم يدفع عنه وينفعه، ومألٌ تُقبل منه به الفدية، وأهل يعينه على أمره منهم المواساة والمشايعة، فأما إن غفل عن أموره، ونسي نفسه، وراكم ذنوبه، ولم يستعد لسفره، ولا يخفف من وزره، وتبدّ نصيحة الناصح، وردّ صدق الصادق؛ فإنه أصاب نفسه بنفسه، وجنى جنائياً احتش بها حُشاشته، واستأصل شأفته^(٣)، ولم يضر إلا مهجته، فمن أحق منه بالحسرة والندامة، والخزي والملامة؟ ترك الأمر رخيصاً يُعرض، وطلبه غالياً لا يوجد.

قوله عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أُمُوراً شِدَاداً، وَأَهْوالاً عِظَاماً، وَزَمَاناً صَعْباً، يَتَمَلَّكَ فِيهِ الظُّلْمَةُ، وَيَتَصَدَّرُ فِيهِ الْفَسَقَةُ، فَيُضْطَهَدُ فِيهِ الْأَمْزُونُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُضَامُّ التَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

الساعة: هي القيامة، ولها أسماء كثيرة، وسميت ساعة لأنها تنجم في ساعة واحدة بغتة على غفلة. **والأمور:** هي الحوادث الكبار. **والشداد:** الصعبة. **والأهوال** هي الروائع. **والعظام:** صفة لها بالجلالة. **والزمان** هو مدة مجهولة القدر. **وصعبٌ** هو العسرُ أيُّ القياد، أخذ من صعب الإبل. **والتملك** هاهنا من التملك بضم الميم، لا من التملك بكسرها. **الظلمة** جمع ظلم. **والتصدر** أن يصير الإنسان في صدر المجلس، أي مُقَدِّمه، قال الشاعر يصف رجلاً بعظم الحال:

(١) الْفَرَطُ: الْأَسْمُ مِنَ الْإِفْرَاطِ، وَالْفَرَطُ: الْأَسْمُ مِنْ قَوْلِكَ: فَرَطَ مِنْهُ قَوْلٌ، أَيْ سَبَقَ، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِشُ (أ).

(٢) الْغَارِبُ: هُوَ مَجْمَعُ الْكَفَيْنِ وَمَعْرُزُ الْعُنُقِ. قَالَه الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ السَّادِسِ وَالثَّلَاثِينَ.

(٣) الْحُشَّاشَةُ، بِالضَّمِّ: بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ وَالْجَرِيحِ، (القاموس المحيط: ٥٩٠).

وَالشَّافَةُ: بِمَعْنَى الْأَصْلِ، وَهِيَ قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ، فَتَكُونُ فَتَذْهَبُ، أَوْ إِذَا قُطِعَتْ مَاتَ صَاحِبُهَا. وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ شَأْفَتَهُ: أَذْهَبَهُ كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرْحَةُ، (القاموس المحيط: ٨٢٢).

وَإِذَا جَالَسْتَهُ صَدَّرَتْهُ وَتَنَكَّبَتْ لَهُ فِي الْحَاشِيَةِ
وَإِذَا سَأَلَتْهُ قَدَّمَتْهُ وَتَأَخَّرَتْ مَعَ الْمُسْتَانِيَةِ
وَإِذَا عَاشَرَتْهُ وَافَقَتْهُ سَلِسَ الْخُلُقِ سَلِيمَ التَّاحِيَةِ

والفسقة الخارجون عن أمر الله، لأنَّ الفسق هو الخروج، ومنه قولهم: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ غُلْفِهَا. والاضطهاد هو القهر والشدة. والأمر بالمعروف المعروف معروفون، وهم آل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم رضي الله عنهم. والضيم هو العَبْنُ والغَيْظُ، قال الشاعر:
أَوْ تَظْلِمُونَا فَإِنَّا مَعَشَرٌ - أَنْفٌ لَا نَطْعُمُ الضَّيْمَ إِنَّ الصَّابَ مَشْرُوبٌ
يقول قد يشرب الإنسان الصَّابَ^(١) لغرضٍ ما، ولا يطعم الضيم لإبائه وكرم نفسه.
وهم أيضاً الناهون عن المنكر - أعني أهل البيت عليهم السلام - لا نعلم لهم شريكاً إلا من اتبعهم واقتدى بهم.

[علامات الساعة وذكر بني أمية وبني العباس]

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أخبرنا بهذه الأمور، لِنُوطِنَ نفوسنا على الصبر، فتؤتى أجر الصابرين، وهي لا شك أمورٌ صعبة، نسأل الله تعالى العون عليها، والساعة هي القيامة، وقد جاءت أشرطها، وعائناً دلائلها، فما بقي إلا القليل، وفي الحديث أنها تقوم يوم الجمعة، والناس غارون لاهون في أمر دنياهم، قد نشر الرجالان الثوب بينهما فلا يدریان من يطويه، وقد رفع الرجل اللقمة فلا تصل إلى فيه، وقد لا ط^(٢) الرجل الخوض لإبله وملأه، فلا يدرى من يسقيه! وعندها ينقطع التكليف عند ظهور آياته سبحانه الباهرة قبل الساعة، وميلنا إلى الاختصار، وإنما أشار أن بين يدي الساعة أموراً شداداً، وقد كانت والحمد لله في فورة بني أمية وعنفوان^(٣) بني العباس؛ فإنهم اتخذوا مآل الله دُولاً وعباد الله خولاً، ورفعوا حِشْمَةَ الإسلام، وارتكبوا الأمور العظام.

(١) الصَّابُ: سَجَرٌ مُرٌّ. (القاموس المحيط: ١٠٦)

(٢) لَا طَ الْخَوْضُ بِالطَّيْنِ لَوْطاً: طَيَّنَهُ. (لسان العرب: ٧/ ٣٩٤).

(٣) فَوْرَةُ بَنِي أُمِيَّةٍ: أَي شِدَّتُهَا وَاجْتِمَاعُهَا، وَعُنْفُوَانُ الشَّيْءُ: أَوَّلُهُ، يُقَالُ: هُوَ فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِهِ، وَمَا أَبْلَغَ الْإِمَامَ فِي اخْتِيَارِ اللَّفْظَيْنِ لِلْمُتَيْنِ، حَيْثُ كَانَتْ نِهَايَةُ الْأُمُورِ وَهَمَّ فِي أَقْوَى قُوَّتِهِمْ فِي آخِرِ دَوْلَتِهِمْ، لَكِنِ الْعَبَّاسِيِّينَ كَانَتْ قُوَّتُهُمْ وَهِيْمَتُهُمْ فِي مَدَّةِ عَصْرِ الْخُلَفَاءِ التَّسْعَةِ الْأَوَّلِينَ - قَرْنٌ كَامِلٌ مِنْ عَامِ ١٣٢ هـ وَحَتَّى ٢٣٢ هـ - وَهُوَ الْعَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ الْأَوَّلُ، ثُمَّ بَعْدَ الْوَأَثِقِ ابْنِ الْمُعْتَصِمِ بَدَأَ الضَّعْفُ يَنَالُ دَوْلَتَهُمْ.

والأهوال العظام: هي خروج الدابة، ويأجوج ومأجوج، ففي الحديث: ((إِنَّ النَّاسَ يَغْرُسُونَ بَعْدَهُمْ، وَيَزْرَعُونَ، وَيَأْكُلُونَ، وَيَنْسُونَ مَا يُوعَدُونَ)) والزمان الصعب هو زمان هاتين الفتنين، وهم الظلمة عندنا، لأنَّ مَنْ سواهم لا يُعتد به، ولأنَّه قد ذكرهم بالملك، وهم الذين جعلوا الخلافة مُلكاً، وذلك خلاف سيرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ وأصحابه من بعده؛ لقد كانوا يطلبون لها الأفضل، وإن اخطأوا في الاختيار عندنا، فلم يخطئوا في الطلب، ولقد قيل لعمر: لو أوصيت إلى ولدك عبد الله بالخلافة - وعبدُ الله من قد عرفه الناس - فقال: لا أستجيز ذلك فيما بيني وبين ربي، إنَّ عبد الله لم يُحْسِن طلاق امرأته؛ فكيف يلي أمر هذه الأمة؟! وجعلها شورى في ستة نفر، ولقد تملكوا أشد التملك، وتجبروا أشد التجبر، وجعلها الوالد لولده تركةً من غير عقد ولا دعوة، وأعانهم على ذلك الفسقة المتصدرون في صدور المجالس بالقهر والغلبة من غير استحقاق لذلك، واضطهدوا الأمرون بالمعروف من أهل بيت محمد عليه وعليهم أفضل السلام حتى ذُلُّوا، وضيِّمَ الناهون منهم عن المنكر حتى قُلُّوا، وصاروا بين طريد وشريد، وأسير وقتيل.

[صنيع بني أمية وبني العباس بأهل البيت وذكر محبس الهاشمية]

هذا الحسين بن علي وأهل بيته عليهم السلام، وزيد بن علي وولده يحيى بن زيد فرائس بني أمية، وهذا محمد بن عبد الله وأخواه إبراهيم ويحيى، والحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن العباس، ومحمد بن إبراهيم في طوائف من أهل بيت محمد عليهم السلام حصائد سيوف بني العباس، ولم نذكر إلا الأئمة السابقين، والعيون المتجيين، الذين يشهد لهم بالفضل مَنْ قَتَلَهُمْ^(١)، فأما أرباب السجون والسموم والغيلة فكثير جداً.

هذا أولاد الحسن بن الحسن عليهم السلام على اشتهاار فضلهم، وقرب عهدهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، عبد الله، والحسن، وإبراهيم، وداوود أولاد الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وأم الثلاثة غير داوود فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب - وبنوهم محمد ويعقوب وإسحاق أولاد إبراهيم بن الحسن، وعلي وعبد الله والعباس أولاد الحسن بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم، ماتوا في سجن أبي جعفر المنصور، إلا محمد بن إبراهيم فإنه دفن حيّاً، وما نعلم تحت أديم السماء أفضل منهم ولا أكمل، ولقد كان إذا قيل: من أكرم الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. فإذا قيل: من أعلم الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. فإذا قيل: من أصبح الناس؟ قيل:

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: مَنْ قَبْلَهُمْ.

عبد الله بن الحسن، جمع خصال الكمال. فإذا قيل: من أفضل الناس؟ قيل: عبد الله بن الحسن. وكان إبراهيم بن الحسن إذا أتى المدينة احتشر عليه الناس لما كان فيه من شبه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وقد ذكرهم أبو فراس^(١) في قصيدته الميمية، وهي مشهورة، التي رد فيها على ابن سُكْرَةَ هَجُوهُ لأهل البيت، وذكر مساوئ بني العباس، قال فيها:

بِئْسَ الْجَزَاءُ جَزَيْتُمْ فِي بَنِي حَسَنِ أَبَاهُمْ الْعَلَمَ الْهَادِي وَأَمَّهُمْ!
هَلَّا كَفَفْتُمْ عَنِ الدِّيْبَاجِ أَلْسُنَكُمْ وَعَنْ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ شَتَمَكُمْ؟
هَلَّا صَفَحْتُمْ عَنِ الْأَسْرِ بَلَا سَبَبٍ لِلصَّافِحِينَ بَبْدَرٍ عَنْ أَسِيرِكُمْ؟
وهي طويلة مشهورة^(٢).

ولما خُرجَ بهم من المدينة على الجمال مشدودين بالوثاق، وقد عُذِلَ كُلُّ^(٣) رجل منهم بجندي؛ قال ابن الزناد السعدي فيهم:

(١) أَبُو فِرَاسٍ الْحُمْدَانِي (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ) الأمير الهمام المتفق على جلالته، خاتمة الملوك الشعراء، ولي آل محمد أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان رحمه الله... عدّه في الزيدية وعدّه أهل بيته الإمام المنصور بالله في كتابه الشافي، وغير الإمام أيضاً من علماء العراق. قال الثعالبي في حقه: كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ونبلاً، ومجداً وبلاغة وبراعة، وفروسيّة وشجاعة، وشعره سائر مشهور بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعدوية والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزّة الملك... وكان الصاحب يقول: بُدِئَ الشعر بملك يعني امرأ القيس، وختم بملك يعني أبا فراس. وكان المتنبي يشهد له بالتقدم، ويتحامن جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجاراته، وإنما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيئاً له وإجلالاً، لا إغفالاً وإخلالاً.... جُرح في معركة مع الروم، فأُسروه سنة ٣٥١ هـ فامتاز شعره في الأسر بروميّاته. وبقي في القسطنطينية أعواماً، ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. وقال ابن خلكان: مات قتيلاً في صدد (على مقربة من حمص) قتله أحد أتباع سعد الدولة ابن سيف الدولة.... (انظر مطلع البدور ١/ ٥٣١، وكتاب الأعلام للزركلي ٢/ ١٥٥).

(٢) أرودها الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام في الشافي ط ٢ (ج ١/ ٧٦٨) وابن أبي الرجال في مطلع البدور (١/ ٥٣٤)، وفيها الدلالة على وده الصادق لآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَام، قالوا: إن أبا فراس خالف قصيدة ابن سكرة في الروي استحقاراً له، ومطلع قصيدة أبي فراس:

الدينُ مُخْتَرَمٌ وَالْحَقُّ مُهْتَضَمٌ وَفِيءُ آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

(٣) في نسخة أخرى: عُدَّ لِكُلِّ رجلٍ.. الخ.

مَنْ لِنَفْسٍ كَثِيرَةِ الْإِشْفَاقِ وَلَعَيْنٍ كَثِيرَةِ الْإِطْرَاقِ
 جَمَدَتْ لِذِي دَهَاها زَمَاناً ثُمَّ جَادَتْ بِدَمْعِها الْهَيْهَرِاقِ
 لِفِرَاقِ الَّذِينَ رَاحُوا إِلَى الْمَوْتِ تِ عَيَاناً وَالْمَوْتُ مُرُّ الْمَذَاقِ
 ثُمَّ رَاحُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْنَا بِأَكْفٍ مَشْدُودَةٍ بِالْوَثَاقِ
 مَا رَأَيْنَا مِنَ الْبَرِيَّةِ طُرّاً مِثْلَهُمْ لَوْ وَقَاهُمْ^(١) الْمَوْتُ وَاقِي
 كَرَمًا عِنْدَمَا أَلَمَّ وَصَبْرًا لَيْسَتْ الْمُقْرِفَاتُ^(٢) مِثْلَ الْعِتَاقِ
 فِيهِمْ سَيِّدُ الْبَرِيَّةِ يَشْكُو طُولَ حَبْسٍ وَعَظْ كَبْلٍ مُضَاقِ
 مَسَحَتْ وَجْهَهُ قُرَيْشٌ وَعَادَتْ بِمُقَدِّى مُبَارَكٍ سَبَاقِ

يعني عبد الله بن الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن كان يمتري في شرفه؟!

ولقد قال له أبو جعفر في الربذة، لأنهم وصلوا بهم إليه إلى هنالك، فقام عبد الله في طرف البساط لمكان القيد، فقال له أبو جعفر: اذن إلى هاهنا يا ابن اللخناء - اللخناء الأمة الممتنة الريح - فرفع رأسه إليه غير مكترث، وقال: أيُّ الفواطم تعني؟ فحجل وقُطع به، أراد وضعه فكأنما رفع بيده إلى السماء.

وقال إبراهيم بن عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حبس أبيه وأهل بيته وقيدِه قصيدة طويلة، نذكر منها قوله:

نَفْسِي فَدَتْ شَيْبَةً هُنَاكَ وَظَنَ بُوبًا بِهِ مِنْ قُيُودِهَا نَدَبُ^(٣)
 يَا حَلَقَ الْقَيْدِ مَا تَصَمَّنَتْ مِنْ حِلْمٍ وَعِلْمٍ يَزِينُهُ أَدَبُ
 وَأُمَمَاتٌ مِنَ الْفَوَاطِمِ أَنْ جَبَنَكَ بِيضَ عَقَائِلٍ عُزْبُ

(١) العبارة في نسخة أخرى بلفظ: لَوْ وَقَى مِنَ الْمَوْتِ وَاقِي.

(٢) أَقْرَفَ لَهُ: أي دَانَاهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الْفَرْسُ الْمُقْرِفُ، وهو الذي دَانَى الْهَجْنَةَ. يقال: إِنَّ الْإِقْرَافَ مِنْ قِبَلِ الْأَبِ، وَالْهَجْنَةُ مِنْ قِبَلِ الْأُمِّ، فإذا كَانَ الْأَبُ عَتِيقًا وَلَيْسَتْ الْأُمُّ كَذَلِكَ فَالْوَلَدُ هَجِينٌ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُمُّ عَتِيقَةً وَلَيْسَ الْأَبُ كَذَلِكَ فَالْوَلَدُ مُقْرِفٌ. قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ النُّعْمَانِ بْنِ بَيْشِيرٍ:

فَإِنْ نَجَتْ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى وَإِنْ يَكُ إِقْرَافٌ فَمَا أَتَجَبَ الْفَحْلُ

تمت ضياء، من هامش (أ).

(٣) الظَّنُّوبُ: عَظَمُ السَّاقِ، تَمَتْ، هَامِش (أ). قُلْنَا: وَالنَّدْبَةُ: أَثَرُ الْجُرْحِ الْبَاقِي عَلَى الْجِلْدِ، ج: نَدَبٌ وَأَنْدَابٌ وَنُدُوبٌ (القاموس المحيط: ١٣٧).

وقال في آخرها:

كَيْفَ اعْتِذَارِي إِلَى إِلَهِ وَلَمْ يُشْهَرَ فِيكَ الْمَأْثُورَةُ الْقُضْبُ
وَلَمْ أَقْدِ غَارَةً مُلْمَلَمَةً فِيهَا بَنَاتُ الصَّرِيحِ^(١) تَنْتَحِبُ

فقدادها ومضى لحينه صلوات الله عليه ورضوانه في باخمرا بعد وفور وانتظام حال، وهزيمه للبعوث مرة بعد أخرى في قصص طوال، واستشهد في وقعة باخمرا، بعد بلاء شديد، فقال الحمداني في قصيدة يذكره:

وَقَتِيلٌ بَاخْمَرًا الَّذِي نَادَى فَأَسْمَعَ كُلَّ شَاهِدٍ
قَادَ الْجُنُودَ إِلَى الْجُنُودِ كَانَتْهَا الْأُسْدُ الْحَوَارِدُ
فَهَوَى صَرِيحاً لِلْجَبِيـ
وَنَفَرَقَتْ أَجْنَادُهُ وَثَوَى بِأَكْرَمِ دَارٍ وَاحِدٍ

وقال في أخرى:

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ وَقْعَةِ بَاخْمَ رَا تَوَفَّيْتُ عِدَّتِي مِنْ شُهُورِي
كَيْفَ بَعْدَ الْمَهْدِيِّ أَوْ بَعْدَ إِبْرَا هِيمَ نَوْمِي عَلَى الْفَرَاشِ الْوَثِيرِ؟

وكم عسى أن نذكر من أخبارهم وقصصهم؛ فإن ذلك يطول.

فأي اضطهاد ترى هذا؟! وأي ضيم أعظم من هذا؟! ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾... وما نقم قوم لوط عليه السلام عليه وعلى أهل بيته في قولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٨] فما الأمر والحمد لله إلا واحد فتأمل.

قوله عليه السلام: فَاعْبُدُوا لِلذِّكِّ الْإِيمَانَ، وَعَضُّوا عَلَيْهِ التَّوَّاجِدَ، وَالْجَأُوا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَآكْرَهُوا عَلَيْهِ النَّفْسَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الضَّرَاءِ، ثَفُّضُوا إِلَى التَّعِيمِ الدَّائِمِ.

الإعداد جمع العدة، وهو ما يحتاجه الإنسان للأمور المخوفة الكبار. الإيـان هو التصديق بما عند الله مما وعد به الصابرين المستقيمين. والعَضُّ إلصاق الأضراس بالأضراس بشدة واعتماد،

(١) الصَّرِيحُ: الخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَفَرَسٌ صَرِيحٌ مِنْ خَيْلِ صَرَائِحَ؛ وَالصَّرِيحُ: فَحْلٌ مِنْ خَيْلِ الْعَرَبِ مَعْرُوفٌ، أ.هـ.

ولا يكون إلا عند أصعب الأمور. وقال علي عليه السلام: في بعض وصاياه في الحرب: (عُضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ مِنَ الْأَصْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَتْبَأُ^(١) لِسَيْفٍ عَنِ الْهَتَامِ) هو التحرز والمظاهرة لما تُرجى معه السلامة. والعمل الصالح طاعة الله. وإكراه النفوس غصبها. والصبر نقيض الجزع، وأصله الحبس، مَضْبُورٌ بمعنى محبوس، والضراء ما يتضرر به الإنسان من المكاره، وقيل أنه المرض. والإفضاء هو الانتهاء إلى الشيء بلا حاجز ولا واسطة، وخلطه به، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] أي اختلط بعضكم ببعض، وتلاصقت أجسادكم بغير حاجز. والنعيم: هو الغضارة والدعة، ومنه الغَضْرُ الناعم اللين الريان. والدائم الذي لا زوال يخشى عليه.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أمرنا أن نُعِدَّ لهذا الزمان الذي يتملك فيه الفسقة، ويتصدر الظلمة، ويضطهد الأمرون بالمعروف، ويضام الناهون عن المنكر؛ الإيَّان، فإنه أنفع عدة فيه، لأننا إذا صدقنا بما وُعدنا على الصبر صبرنا وهان علينا، وإذا صدقنا أتباعنا بذلك هان عليهم أتباعنا وإن قَلُّوا وغلبوا؛ ويؤيد هذا ما روي عن حاضر صاحب عيسى بن زيد عليه السلام أنه لَمَّا جِيءَ به إلى المهدي^(٢) بن أبي جعفر قال له: أين عيسى؟ قال: وما يدريني؟! أخذتني فحبستني، وطرده فأخفته، فكيف أعلم مكان طريد منك وأنا محبوس؟! قال: ليس هكذا؛ متى فارقت؟ وعند مَنْ آخِرُ عهدك به؟ وما عندك من علمه؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا علمتُ له خبراً. قال: والله لتدلَّنِي عليه أو لأقتلنك؟ قال: أَذُلُّكَ عليه تقتله! وألقى جَدَّهُ وقد شَرِكْتُ في دمه!! والله لو كان

(١) النبؤ: الارتفاع، وتبَّ السَّيْفُ عن الضَّرْبَةِ نبؤة إذا لم يَقْطَعْ، تمت ضياء، هامش (أ).

(٢) المهدي: هو الخليفة الثالث من خلفاء بني العباس، وهو محمد بن أبي جعفر المنصور، وهو والد الهادي والرشيد، يبيع له يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ، وتوفي بإسندان سنة ١٦٩ هـ، وصلى عليه ولده المسمى بالرشيد، وكان منهمكاً في المعاصي واللذات والملاهي، وكان كثير التولية والعزل لغير سبب، وكانت له عناية في طلب فضلاء أهل البيت عليهم السلام لقتلهم واستئصال شأقتهم، فسَلِمَ بعض، وأدرك مراده في بعض، وكان من طلباته عيسى بن زيد بن علي عليهم السلام المكنى: مؤتم الأشبال، (انظر الشافي ط ٢ - ج ١/ ٥٤٥).

بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه، فاقض ما أنت قاض. فُضِرَتْ عنقه^(١).

فلولا تصديقُه - وهو إيمانه ببقاء جده، وما أُعِدَّ له - ما ألقى بنفسه إلى التهلكة، وعَرَضَهَا للتلف.

وأما عَضُّ النواجذ عليه فأشارة إلى الصبر والتشدد فيه.

والجأوا إلى العمل الصالح فاجعلوه لكم فَيِنَّةً تأوون إليه ونعم الفيئة، ما ظنَّك بفيئة لا تنهزم

أبدًا! أليست خيرَ ملجأ؟! ذلك العمل الصالح. (وَأَكْرَهُوا عَلَيْهِ النَّفُوسَ) عائدٌ إلى العمل الصالح؛

(١) ومما يتعلق بذلك وبماثله ما رواه الإمام المنصور بالله عليه السلام في الشافي قال: حكى أبو الفرج في كتابه الصغير، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد، قال: حدثني محمد بن سالم بن عبد الرحمن، قال: قال علي بن الأحمر: حدثني أبي، قال: كنتُ أجتمع أنا وعيسى بن زيد، والحسن وعلي ابنا صالح بن حي، وإسرائيل بن يونس بن إسحاق، وجناب بن بسطاس، في جماعة من الزيدية في دار بالكوفة، فسعى ساج بأمرنا إلى المهدي ودلّه على الدار، وكتب إلى عامله بالكوفة يضع الأرصاء علينا، فمتى اجتمعنا كبسنا وأخذنا ووجه بنا إليه. فاجتمعنا ليلة في تلك الدار وبلغه خبرنا، فهجم علينا، ونذّر القوم وكانوا في علو الدار فتفرقوا ونجوا جميعاً غيري، فأخذني وحملني إلى المهدي، فدخلت عليه، فلما رأي شتمني بالزاني، وقال لي: يا ابن الفاعلة أنت الذي تجمع مع عيسى بن زيد وتحته على الخروج عليّ وتدعو إليه الناس؟ فقلت له: يا هذا أما تستحي ولا تتقي الله ولا تحافه، تشتم المحصنات وتقذفهنّ بالفاحشة وقد كان ينبغي لك ويلزمك في دينك وما وليته أن لو سمعت سفيهاً يقول مثل ذلك أن تقيم عليه الحد. فأعاد شتمني، ثم وثب إليّ وجعل يضربني بيده ويخبطني برجليه ويشتمني؛ فقلت: إنك لشجاع حين قويت على شيخ مثلي تضربه لا يقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها. فأمر بجبسي والضيق عليّ، فقيدتُ بقيد ثقيل وحُبست سنتين؛ فلما بلغه وفاة عيسى بن زيد بعث إليّ فدعاني فقال: من أي الناس أنت؟ قلت من المسلمين. قال: أعربي أنت؟ قلت: لا. قال: فمن أي الناس؟ قلت: كان أبي عبداً لبعض أهل الكوفة فأعتقه فهو أبي. قال لي: إن عيسى بن زيد قد مات، فقلت: أعظم بها مصيبة - رحمه الله تعالى - فلقد كان عابداً ورعاً مجتهداً في طاعة الله غير خائف لومة لائم، ثم قال: أفما علمت بوفاته؟ قلت: بلى، قال: فلم لا تبشّرني بوفاته؟ قلت: لم أحب أن أُشْرِكَ بأمر لو عاش رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم فعرّفه لَسَاءَهُ؛ فأطرق طويلاً، ثم قال: ما أرى في جسمك فضلاً للعقوبة، وأخاف أن أستعمل شيئاً منها فتموت، وقد كُفيتُ عدوّي، فانصرف في غير حفظ الله، ووالله لئن عدتْ لمثل ما فعلتْ لأضربن عنقك. قال: فانصرفت إلى الكوفة، فقال المهدي للربيع: أما ترى قلّة خوفه وشدة قلبه، هكذا والله تكون البصائر. (انظر الشافي ط ٢ - ج ١/ ٥٤٨-٥٤٩).

لأن الطاعة مكاره، والمعصية أهواء وشهوات، (وَاصْبِرُوا عَلَى الضَّرَاءِ) مع ذلك إمّا على ما يضرّكم عموماً، وإمّا على المرض خصوصاً، فهو مما يُبتلى به الصالحون ويمتحن به المؤمنون، فإنكم مع ذلك تُقْضُونَ بمعنى تتصلون وتختلطون بالنعيم الدائم، نعيم الجنة، لأنه لا يزول ولا يتحول، ولا يتغير ولا يتنقل، باقٍ بقاء واجب البقاء، وهو الله تعالى، فأبلى دوام أبلغ من هذا، وأي كرامة أجل من نعيم دائم لا ينقضي؟! وَحَقَّ لِمَن صَدَّقَ بِهَا أَن يَصْبِرَ عَلَى قَرْضِ الْمُقَارِضِ، ونشر المناشير، وَيُسْتَهْزَئَ ذَلِكَ، لِيُقْضَى إِلَى هَذَا، جعلنا الله وإياكم ممن جعل الصبرَ شِعَارَهُ، والحقّ دِثَارَهُ، وصلى الله على النبي وآله وسلم.

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ^(١) أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ وَذَكَرَ طَرَفٍ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِرَجُلٍ يَعْظُهُ: ((ارْغَبْ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ، إِنَّ الزَّاهِدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ قَلْبَهُ وَبَدَنَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالرَّاعِبَ فِيهَا يُتْعَبُ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ حَسَنَاتٌ كَأَمْثَالِ الْحَبَالِ، فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَقِيلَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْمُصُّوهُمْ كَانُوا؟ قَالَ: كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ، وَيَأْخُذُونَ وَهَذَا مِنَ الدَّلِيلِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَاحَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُّوا عَلَيْهِ)).

الحب نقیض البغض. وأصل الزُّهْد القِلَّةُ، زهيد بمعنى قليل، وأزهد لي بمعنى أقل لي. ازهد فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ اسْتَقْلَهُ وَلَا تَطْلُبْهُ. والراحة نقیض التعب. والقلب بَضْعَةٌ في الجسد معروفة، والقلب في أصل اللغة هو الوسط، فلما حَلَّتْهُ^(٢) سُمِّيَتْ قَلْبًا، وهي محل العقل، ومنبع الروح. والبدن جسد الإنسان، وهي الدرع أيضاً، وأحسبها سميت به لكونها عليه، قال فروة بن مُسَيْك^(٣) في بعض أراجيزه يذكر غارة شهدها:

لَمَّا تَلَا حَقْنَ حَوَالَا نَوْفَانٍ يَحْمِلُنَنَا وَيَبْضُنَا وَالْأَبْدَانِ

(١) قال السيد الشريف: حدثنا شيخني أبو سعيد يعني السيرافي قال حدثنا هبة الله بن عاصم الفارقي بميفارقين قال حدثنا محمد بن عبد الله الخزاعي قال حدثنا حماد بن سلمة عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدري... الحديث.

(٢) أي اتخذت تلك المضغَةَ وَسَطَ الْجَسَدِ مَحَلًّا.

(٣) فَرَوْةُ بْنُ مُسَيْكٍ الْمُرَادِي: أصله من اليمن، قدم على رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في سنة تسع فأسلم، فبعثه عَلَى مراد وزُيِّد ومُدْحَج، وهو الذي بنى الجبانة الواقعة شمال شرق سور صنعاء، بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، توفي حوالي عام ٣٠ هـ.

يريد الدروع، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ يَبَدِّنُكَ﴾ [يونس: ٩٢] أي نلقيك على نجوة بدرعك، والله أعلم.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أخبر أن الإنسان إذا رغب فيما عند ربه كان أقرب إلى فعل طاعته، وترك معصيته؛ إذ المعلوم أنك لا تسأل إنساناً حاجة، وترغب إليه في مسألة إلا وتحري رضا، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَعْتَ قَانِصَبَ﴾ ٥ - في الدعاء - **وَالِإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** ٨ في الإجابة؛ والله أعلم، فإذا فعلت ذلك أطعت الله تعالى فأحبيته فأحبك، وما أجله من مطلب أن يحبك ملك الملوك، وجبار الجبابرة، ورب الأرباب، وملك الرقاب، ومن بيده العطاء والمنع، والرفع والوضع، والتولية والخلع.

وَأَرْهَدُ فِيمَا فِي مَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ، وهذا خبرٌ يجب قبوله، وقد شاهدناه عياناً، وإنما كانت القضية في الناس بالعكس من القضية في الله سبحانه؛ لأن الناس فقراء والله غني، وبخلاء وهو كريم، وعاجزون وهو قادر، فلا يُرْمِهُ إلحاح الملحين، ولا يستوعب ما عنده الطالبون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس] فأحبُّ العباد إليه أكثرهم مسألة له، وطلباً من سعة فضله، فما ترى هل يساجل ذا الكرم مساجل؟! أو يماثل من يُحِبُّ السائلين الملحين مماثل؟! ما أغفلنا عن طلب الخير ممن يبدله ويقدر عليه! وأكثر شغلنا بما لا يغني عنا شيئاً.

فَأَمَّا أَنْ الزاهد في الدنيا يريح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة؛ فلأن الدنيا إذا قلت في عينه واستحقرها زهد فيها، فلم يطلبها بجوارحه، فاستراح بدنه، ولم يهَمَّ جمعها بقلبه، فاستراح قلبه، هذا في الدنيا. فأما في الآخرة فيستريح بدنه من عذاب الله، وقلبه من أحزان المعدِّين وغمومهم.

وَأَمَّا إِتْعَابُ الرَّاغِبِ فِيهَا لِقَلْبِهِ وَبَدْنِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلأنه يَكْدُ جَوَارِحَهُ، ويستفرغ طاقته في تحصيلها وجمعها؛ فيكون نهاره لَمَّاً، وليله همّاً، والفترات بين ذلك حسرة وغمّاً على ما فات، وعلى ما لم يقع، هذا في دنياه. فأَيُّ تَعَبٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟! وأما في الآخرة فيتعب بدنه في العذاب والسَّموْم، وقلبه في الأَحْزَانِ وَالْغُموْم، فأَيُّ تَعَبٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟

قوله عليه السلام: لَيَجِيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ حَسَنَاتٌ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَقِيلَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْمُصُّوهُمْ كَانُوا؟ قَالَ: كَانُوا يُمْصُّونَ وَيَصُومُونَ، وَيَأْخُذُونَ وَهَنًا مِنَ اللَّيْلِ، لِكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَاحَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُّوا عَلَيْهِ.

المجيء: نقيض الذهاب. أقوام: جماعات. يوم القيامة: هو يوم الحساب، سمي قيامة لقيام الناس فيه إلى الله، والهاء للمبالغة. الحسنات: نقيض السيئات. وأمثال: أشباه. الجبال معروفة. والأمر هاهنا التوجيه بالشيء. يا نبي الله، يا رسول الله خطاب أصحابه له كما أدبهم الله، كانوا يقولون: يا نبي الله، أي يرفع الله، أضافوه إلى الله تعظيماً. والنبي أخذ من النبوة، وجفاة الأعراب يخاطبونه باسمه. والصلاة: هي أفعال وأذكارٌ مخصوصة بأحكام وشروط مخصوصة، وفي أصل اللغة: الدعاء. الصوم: الإمساك عن الطعام والشراب من الليل إلى الليل مع قصد القربة، وفي أصل اللغة: الإمساك، قال الشاعر:

حَيْلٌ صِيَامٌ وَحَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَحَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجْمَا

والوهنُ والموهنُ من الليل هو قطعة منه. ولاحَ ظَهَرَ وبدأ، وأكثر ما يستعمل في الشيء الصقيل، والأصل ما قدمنا. والثوبُ معروف، وهو أكثر ما يدخل تحت مقدور الإنسان في العجل والسرعة لأخذ الخير، والفرار من الشر إنما هو السير ثم السعي ثم الثوب.

المعنى في ذلك: أن هذا عائد إلى نهيه عليه السلام من الرغبة في الدنيا، ويَن لنا ما لم نكن نعلم مما أعلمه به ربه أنه يحيي يوم القيامة أقوامٌ قد اجتهدوا في طاعة الله سبحانه في هذه الدنيا، وانقطعوا إليه، وبذلوا النفائس في رضاه، وصبروا على العظائم في حقه، حتى صارت لهم حسنات كبار كأمثال الجبال، ولا نعلم فيما نشاهده أكبر من الجبل ولا أعظم، فمثَّل لنا بما نعلم، فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فتَوَهَّم السامع أنهم لا يُصَلُّونَ، وهذا أيضاً تنبيه على عظم الصلاة، وأن أصحابه قد كانوا علموا منه أن الأعمال لا تُقْبَلُ إلا بالصلاة، فأضاف لهم إلى الصلاة الصيام، وأَخَذَ وَهْنٌ مِنَ اللَّيْلِ نافلةً وَذَكَرَ أَخْبَرَ عَنْ حَقٍّ، ومبالغة في وَصْفٍ، ولم يكن ليدع الأمر ملتبساً، وكيف وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بُعِثَ مَبِينًا وَهَادِيًا وَمُرْشِدًا، فأوضح لهم من حيث أُتِيَ القوم، ليحترز منه

المحترزون، ويحترس المحترسون، وهو أنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه، ولم يتالكوا عنه رغبةً فيه، وهَلَعًا عليه، فكان ذلك سبب هلاكهم.

فعليكم أيها الإخوان بالاحتراز من مثل حاهم، والخزم عن المال إلى حال مآهم، فللعاقل بغيره عظة، وأمور المعاملات والمقاومات أكثرها تجربة.

وهذا أمرٌ خارج من الناصح المجرب على أبلغ الوجوه وأوفاهها، إذ هو خبر الصادق في خبره، الناصح في دلالته وإرشاده، فما خيرٌ وثبةً انقلبت عشرةً وكبةً^(١)؟! وما قدرُ ذلك اللائح الذي ضيَّع أمثال الجبال حسنات عند من لا تضيع ودائعه، ولا تنقطع عن العباد صنائعه؟! فانظروها رحمكم الله بعين القلب، واضربوها بسوط الذلَّة، وما لاح منها فسَمُوهُ الخُلْب^(٢)، وما هبَّ من نسيمها فادعوه القلب^(٣)، وذلُّوها استصغاراً، وارفضوها احتقاراً.

جعلنا الله وإياكم ممن يُسرَّع الوَثب عنها، ويُعطى بالسير إليها، فأما السعي والوثب إليها فنعوذ بالله من الحَيْن^(٤) القاتل، والحتف العاجل، والصلاة على محمد وآله.

(١) الكَبَّةُ، وَيُضَمُّ: الدَّفْعَةُ فِي الْقِتَالِ وَالْجُرْيِ، وَالْحُمْلَةُ فِي الْحَرْبِ، وَالزَّحَامُ، وَإِفْلَاتُ الْخَيْلِ، وَالصَّدْمَةُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَمِنَ الشَّتَاءِ: شِدَّتُهُ وَدَفْعَتُهُ، وَالرَّمْيُ فِي الْهَوَّةِ. (القاموس: ١٢٨).

(٢) الخُلْبُ: السَّحَابُ لَا مَطَرَ فِيهِ. وَالْبَرْقُ الخُلْبُ، وَبَرْقُ الخُلْبِ، وَبَرْقُ خُلْبٍ: المَطْمِعُ المُخْلِفُ، (القاموس: ٨١).

(٣) القلبُ: كَثِيرُ التَّقَلُّبِ، هَامِشُ الْأَصْلِ، قَالَ فِي مَجْمَلِ اللُّغَةِ (ص ٧٣٠): الخَوْلُ القلبُ: الَّذِي يُقَلِّبُ الْأُمُورَ وَيَحْتَالُ هُنَا، أ.هـ.

(٤) الحَيْنُ (بِالْفَتْحِ): الْهَلَاكُ، وَالْمِحْنَةُ. (القاموس: ١١٩٢).

الحديث الخامس والثلاثون

عَنِ ^(١) ابْنِ عُمَرَ - قد تقدم الكلام في نسبه وشرح طرف من حاله، وجملة الأمر أنه كان قدوةً لصلاحه، أتاه رجل يسأله عن دم البعوض؛ قال: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق. قال: تسألني عن دم البعوض وقد قتلتم الحسين بن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ؟! وكان يكثر البكاء على وقوفه عن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ مع أنه استأذن في التخلف - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ هَذِهِ الدَّارُ الدَّارُ التَّوَاءِ لَا دَارَ اسْتِوَاءٍ، وَمَنْزِلُ تَرْحٍ لَا مَنْزِلُ فَرْحٍ، فَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَفْرَحْ لِرَحَاءٍ، وَلَمْ يَحْزَنْ لَشِقَاءٍ، أَلَا وَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدُّنْيَا دَارَ بَلْوَى، وَالْآخِرَةَ دَارَ عُقْبَى، فَجَعَلَ بَلْوَى الدُّنْيَا لِثَوَابِ الْآخِرَةِ سَبَبًا، وَثَوَابِ الْآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدُّنْيَا عِوَضًا، فَيَأْخُذُ لِيُعْطَى، وَيَبْتَغِي لِيَجْزَى، إِنَّهَا لَسَرِيعَةُ الذَّهَابِ، وَشَيْكَةِ الْأَنْقِلَابِ، فَاحْذَرُوا حَلَاوَةَ رِضَاعِهَا لِمَرَارَةِ فِطَامِهَا، وَاهْجُرُوا لَذِيذَ عَاجِلِهَا لِكُرْبِهِ آجِلِهَا، وَلَا تَسْعَوْا فِي عُمْرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى اللهُ خَرَابَهَا، وَلَا تَوَاصِلُوهَا وَقَدْ أَرَادَ مِنْكُمْ اجْتِنَابَهَا، فَتَكُونُوا لِسَخَطِهِ مُتَعَرِّضِينَ وَلِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحَقِّينَ)).

الالتواء: الاعوجاج. والاستواء الثبات. والترُّحُّ نقيض الفرح، وهو مما يتبع به القُبْحُ نعوذ بالله منه، يقال: قُبْحًا وَتَرَحًّا.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أشعر الناس جميعاً بأن هذه الدار - يعني دار الدنيا - دار التواء، أي اعوجاج وميلان وقلة ثبات، وليست بدار استواء، أي ثبات وقيام واستمرار، ومنزل تَرْحٍ غَمٍّ وَوَجْدٍ، وَحُزْنٍ وَكَمَدٍ ^(٢)، فإذا كانت هذه حالها وعِلْمٌ ذلك منها؛ كان مَنْ عَرَفَهَا لم يفرح برخائها،

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا عبيد الله بن جرير ابن جبلة العتكي قال حدثنا معاذ بن أسد عن عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن عياش عن يحيى الطويل عن نافع عن ابن عمر... الحديث.

(٢) الكَمَدُ: تَغَيُّرُ اللَّوْنِ، وَذَهَابُ صَفَائِهِ، وَالْحُزْنُ الشَّدِيدُ، وَمَرَضٌ فِي الْقَلْبِ. قاموس. هامش (أ). (القاموس: ٣١٥).

لأنه لا دوام له، ولم يحزن لشقائها لأنه ذاهب ماضٍ، فالواجب على العاقل أن يعرفها، إذ لمعرفتها هذه المزية العظيمة، وهو مصير الإنسان؛ لا يفرح لسرورها ولا يحزن لسرورها، وهذه منزلة الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم على طبقاتهم، فإن سرورها كان لا يملأ أعيانهم، وغمها لا يكبرُ في نفوسهم، وإنما ملاحظتهم رخاء الآخرة الدائم، وهُمُّ شقائها^(١) - نعوذ بالله منه - الملازم.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدُّنْيَا دَارَ بَلْوَى، وَالْآخِرَةَ دَارَ عَقْبَى، فَجَعَلَ بَلْوَى الدُّنْيَا لِقَوَابِ الْآخِرَةِ سَبَبًا، وَثَوَابِ الْآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدُّنْيَا عَوَضًا، فَيَأْخُذُ لِيُعْطَى وَيَسْتَلِي لِيَجْزَى.

الخلق: هو التقدير والتصوير. **والبلوى:** هو الامتحان والاختبار بالمكاره في النفوس والأموال والأولاد والأعمال بالعلل الطارئة، والآفات النازلة، والمحن الواقعة، كالمرض والجذام والبرص والعمى والصمم والزَّمانة والهرَم والفقر، وما يتخلل ذلك من الآفات والمساوى. **والعقبى:** هو نهاية الأمر وموجبه، وهو مأخوذ من العقب لتأخره. **والسبب:** كلُّ أمرٍ يُتَوَصَّلُ به إلى أمرٍ، أو أمرٍ يوصل إليه، وأصله الخبل. **والعطاء:** نقيض المنع. **والجزاء:** المكافأة.

[البلوى والابتلاء وأنواع الابتلاءات]

والمعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أن الدنيا دارٌ بلوى، معنى هذا الكلام مرابط للأول لِيَهْوُونَ عَلَى الْمُسْلِمِ أُمُرُهَا، وَيَسْتَصْغِرَ خَطْبُهَا؛ إذ كانت دارَ البلوى، وكان عقبى الآخرة يَجْبُرُ نقصها، بل إذا علم الإنسان أن بلوى هذه الدنيا هو السَّبَبُ الموصل إلى ثواب الآخرة، وهو ما يرجع على العبد في مقابلة ما يلحقه، وهو هاهنا لُغْوِي - أعني الثواب الكلامي - إلا أن يكون في مقابلة الصبر فإنه يتفق فيه الأمر، إذ الصبر عليه الثواب.

فأما الآلام والمحن فليس عليها ثواب، وإنما عليها عَوَضٌ؛ لأنها بمنزلة أروش الجنائيات، وقيم المتلفات، فليست بثوابٍ إلا على أصل اللغة دون عُرف الكلام، وإذا علمنا ثواب الآخرة وعِظْمَهُ وسعته وطول مدته؛ علمنا أن كل أمر يؤدي إليه خيرٌ وإن كان شرًّا محضاً؛ لأنَّ ما أدَّى إلى الخير فهو خير، فيأخذ ليعطي، ويستلي ليجزي، إذا أخذ منَّا القليل، وأعطانا الجزيل فهو منعم في الأخذ غاية الإنعام.

(١) في النسخة (أ): وشقاؤها... بدون لفظة: وَهَمُّ.

وكذلك إذا ابتلانا ببلوى هيئةً بالانقطاع وإن كانت شديدة في الحال ليجزينا بها لو خَيْرْنَا ومعنا جميع العقلاء لاخترنا تلك البلوى لمكان ذلك الجزاء، فإنَّ هذه البلية نعمة لا مِرَّة في ذلك. وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك شعراً وهو:

عَطِيَّتُهُ إِذَا أُعْطِيَ سُرُورٌ^(١) وَإِنْ سَلَبَ الَّذِي أُعْطِيَ أَثَابَا
فَأَيُّ النَّعْمَتَيْنِ أَجَلٌ قَدْرًا وَأَعْظَمُ فِي مَوَاقِعِهِنَّ إِيَابَا
أَنْعَمْتُهُ الَّتِي أَهْدَتْ سُرُورًا أَمْ الْأُخْرَى الَّتِي ذَخَرْتُ ثَوَابَا

وروي فيها بيت رابع وهو:

بَلِ الْأُخْرَى وَإِنْ نَزَلَتْ بِكُرٍّ أَعَمَّ لِصَابِرٍ فِيهَا اخْتِسَابَا
فقد علمت أن معنى كلامنا مأخوذ من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو حق لا شك فيه؛ لأنه معصوم، فإنَّ سَلَبَ سبحانه منّا عافيةً أو حياةً أو ولدًا أو مالاً؛ وأتانا بما يوفي عليه فهو محسنٌ والحال هذه، ألا ترى أنا نستحسن من ولي اليتيم أن يأخذ له ما يساوي ديناراً ويُعَيِّضَهُ دينارين، وإن أخذه بغير مراعاة منه، ونحن معه سبحانه كاليتيم مع وليه، لأنه سيدنا ومولانا، فإنَّ أعطى عن الدينار عشرة فلا كلام في تناهي الإنعام، ومع ذلك فإنه لا يبتلينا ببلية لمجرد العوض، ولكن لا بد أن يكون في ذلك اعتبارٌ لنا أو لغيرنا، وتقريبٌ إلى دار الآخرة، وتزهيدٌ في الدنيا.

وقد رأينا الناس إذا أصابتهم الآفات والبلايا فرعوا إلى الله تعالى وتابوا، وإن تهادوا تاب غيرهم، بخلاف ما لو دامت عليهم النعمة وتمت العافية، ولا^(٢) يدفع ذلك الأمر إلا من كابر عقله. وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الْجَسَدَ إِذَا عُوِيَ أَشْرَ وَبَطَرَ، وَإِذَا اغْتَلَّ ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ)) وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((يُودُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَجْسَادُهُمْ كَانَتْ تُقَرَّضُ بِالْمَقَارِضِ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَوْنَ مِنَ الثَّوَابِ لِأَهْلِ الْكُفَّارَاتِ وَالْبَلَايَا)) وفي الحديث أن الحمى أصابته؛ فدخل عليه بعض أصحابه يعوده - أظنه أبا أيوب رحمه الله - قال فلمسته وإنَّ

(١) في النسخ: سروراً، لكن الألف مشطوب عليه في الأصل وفي بعضها، وقد تقدمت في الحديث السادس.

(٢) في الأصل وفي نسخة أخرى: فلا.

الحمى لتحرق يدي من فوق الثوب، فقلت: يا رسول الله، إنها عليك شديدة، فقال: ((إِنَّا كَذَلِكَ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ)). إلى غير ذلك من الآثار.

وإن جُعِلَتِ البلوى بالأعمال فهي تكاليف العقل والشرع الشاقة كالصلاة والصيام والحج والجهاد فلا يستمر هذا التأويل في قوله: وَيَبْتَلِي لِيَجْزِيَ.

فأما في ^(١) قوله: فَيَأْخُذُ لِيُعْطِيَ، فلا يأتي عليه لأنه أخذ لشيء حاصل معنا وليس إلا ما ذكرنا من النعم كالعافية والحياة والأموال والأولاد، فتفهم ما ذكرت لك، واجعل بصرك رائد عقلك، وعقلك قائد بصرك، فإن من جعل عقله قائدَ بصره اهتدى، ومن جعل بصره قائدَ عقله ضلَّ، وإذا لم تفهم لم تعب.

قوله عليه السلام: إِنَّهَا لَسَرِيعَةُ الذَّهَابِ، وَشَيْكَةُ الْأَنْقِلَابِ، فَاخْذَرُوا حَلَاوَةَ رَضَاعِهَا لِمَرَارَةِ فِطَامِهَا، وَاهْجُزُوا لَدَيْدِ عَاجِلِهَا لِكَرِيهِ آجِلِهَا.

الذهاب: الصدور. **والانقلاب:** الرجوع. **والحذر:** نقيض الاطمئنان والسكون. **والرضاع:** نقيض الفطام، وأصله في الصبي يرضيه الرضاع ويسرُّه، ويغضبه الفطام ويغمه. **والحلاوة:** ضد المرارة. **والمهجران:** نقيض الوصل. **واللذيذ:** نقيض الكرية. **والآجل:** نقيض العاجل.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر وخبره الحق وقد علمنا صدق خبره ضرورة بالمشاهدة. **إنَّهَا -** اهاء عائدة إلى الدنيا - **لسريعة الزهاب:** المضي والبطلان والتلاشي، **وشيكه الانقلاب:** لِيَتَحَوَّلَ أَحْوَالُهَا وَكَثْرَةُ مُحَالِهَا، مَسَّهَا لَيْتٌ، وَلَسَعُهَا غَيْرُ هَيِّنٍ، فهي تنقلب انقلاب الحية، وتلدغ لدغ الكية، فأئني انقلاب أوخم من انقلابها عاقبةً، وأعظم نائبةً، تضرب بجران ^(٢) الذَّلُولِ ثم تصول صَوْلَانِ الفحول.

(١) لفظة (في) زيادة من نسخة.

(٢) الجِرَانُ: بَاطِنُ الْعُنُقِ، وَقِيلَ: مُقَدَّمُ الْعُنُقِ مِنْ مَذْبَحِ الْبَعِيرِ إِلَى مَنْحَرِهِ، (لسان العرب ١٣ / ٨٦).

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَاحْذَرُوا حَلَاوَةَ الرَّضَاعِ لِمَرَارَةِ الْفِطَامِ؛ لِأَنَّ رِضَاعَهَا مُنْقَطِعٌ وَحَلَاوَتُهُ ذَاهِبَةٌ، وَفِطَامُهَا دَائِمٌ وَمَرَارَتُهُ دَائِمَةٌ، فَإِذَا لَا يَقُومُ نَفْعُ الرِّضَاعِ بِضُرْرِ الْفِطَامِ.

واهجروا بمعنى فارقوا الذيذ عاجلها لكرهه آجلها، لِأَنَّ لَذَّةَ عَاجِلِهَا فَانِيَةٌ، وَكَرَاهَةُ آجِلِهَا بَاقِيَةٌ، وَمَعَ مَا فِيهَا عَظِيمَةٌ وَمَعَ عَظَمَتِهَا مَقْرُونٌ بِهِ الْإِسْتِخْفَافُ وَالنِّكَالُ وَالْخِزْيُ وَالْوَبَالُ، فَمَا أَنْصَفَ نَفْسَهُ مِنْ شِفَاهَا بِلَذَّةٍ حَقِيرَةٍ، وَفَوَّتَ عَلَيْهَا دَرَكَ دَارٍ خَطِيرَةٍ.

قوله عليه السلام: وَلَا تَسْعُوا فِي عُمُرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى اللَّهُ خَرَابَهَا، وَلَا تُوَصِّلُوهَا وَقَدْ أَرَادَ مِنْكُمْ اجْتِنَابَهَا، فَتَكُونُوا لِسَخَطِهِ مُتَعَرِّضِينَ وَلِلْعُقُوبَةِ مُسْتَحْقِّينَ.

العمارة نقيض التخریب. قضی الله: عَلِمَ وَحَتَمَ وَحَكَمَ وَأَعْلَمَ بِخَرَابِهَا. والمواصله نقيض المقاطعة. وأرادَ نقيض كَرِهَ. والاجتناب الاعتزال. والسَّخَطُ نقيض الرِّضَى. والتعرض التلقّي. والعقوبة فعولة من العقاب وقد تقدّم تفسيره. والاستحقاق والاستيجاب معناها أن تصير على حالةٍ يحق ويحب لصاحب الأمر أن يعاقبك.

المعنى في ذلك: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَى الْعِبَادَ أَنْ يَسْعُوا فِي عُمُرَانِ دَارِ الزَّوَالِ وَالِاتِّقَالِ، وَمَنْزِلِ النُّقْلَةِ وَالِارْتِحَالِ، وَهَلْ أَجْهَلُ فِي الشَّاهِدِ مَنْ أَنَاخَ فِي طَرِيقِهِ ثُمَّ جَمَعَ الْعُمَالَ لِبِنَاءِ دَارٍ تَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى مَالٍ كَثِيرٍ، وَهُوَ مُوَطَّنٌ نَفْسَهُ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ مَنَاحِهِ ذَلِكَ غَدًا أَوْ بَعْدَهُ، وَلَا غِنَى لَهُ عَنْ دَارٍ فِي نَهَايَةِ سَفَرِهِ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَى مَوْضِعٍ قَدْ عَلِمَ طُولَ إِقَامَتِهِ فِيهِ بَلْ دَوَامِهَا، فَإِذَا قَضَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ - بِمَعْنَى عِلْمٍ وَأَعْلَمَ وَأَمْضَى وَحَكَمَ - أَنْ خَرَابَهَا وَاقِعٌ لَا مُحَالَةَ، فَلَمْ تُتْعَبْ فِي عِمَارَتِهَا نَفُوسُنَا، وَنَنْفَقَ نَفَائِسُنَا، وَكَيْفَ نَعْمَرُ مَا خَرَّبَ وَنَرْقِعُ مَا أَوْهَى، فَلِذَلِكَ نَهَانَا أَنْ تُوَصِّلُوهَا بِمَعْنَى نَخَالِطُهَا، وَنَشَايِعُهَا وَليست بأهل ذلك مِنَّا؛ لِغَدَرِهَا وَخَتْلِهَا، وَذَمِيمِ فِعْلِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْحَكِيمَ الْمُنْعَمَ عَلَيْنَا قَدْ أَرَادَ مِنَّا اجْتِنَابَهَا، فَلَوْ لَمْ نَجْتَنِبْهَا إِلَّا لِإِرَادَتِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى كُنْهٍ قَدْ قَصَدْنَا أَحْمَدَ الْأَفْعَالِ عَاقِبَةً وَأَنْفَعَهَا مَعَادًا، وَإِذَا خَالَفْنَا مَرَادَهُ أَسْخَطْنَاهُ، وَإِذَا أَسْخَطْنَاهُ - وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - اسْتَحَقَّقْنَا عِقُوبَتَهُ، وَإِذَا حَقَّتْ عَظُمَتُهُ، وَإِذَا عَظُمَتْ لَزِمَتْ، وَإِذَا لَزِمَتْ دَامَتْ، وَإِذَا دَامَتْ قَطَعَ ذِكْرُهَا الْأَبَاهِرُ فَضْلًا عَنْ مَوَاقِعَتِهَا، فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عَمْرِ آخِرَتِهِ بِخَرَابِ دُنْيَاهُ وَعَمَلٍ فِي دُنْيَاهُ لِأُخْرَاهُ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

الحديث السادس والثلاثون

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ نَسْباً وَحَالاً، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَاسْعَوْا فِي مَرْضَاتِهِ، وَأَيِّقِنُوا مِنَ الدُّنْيَا بِالْفَنَاءِ، وَمِنَ الْآخِرَةِ بِالْبَقَاءِ، وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَأَنَّكُمْ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ، وَبِالْآخِرَةِ لَمْ تَزَلْ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ وَمَا فِي يَدِهِ عَارِيَّةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ وَالْعَارِيَّةُ مَرْدُودَةٌ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، فَارْحَمَ اللَّهُ أَمْرًا نَظَرَ لِنَفْسِهِ، وَمَهَّدَ لِرِمْسِهِ، مَا دَامَ رَسْنُهُ مُرَخًى، وَحَبْلُهُ عَلَى غَارِبِهِ مُلْقًى، قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ أَجَلُهُ، فَيَنْقَطِعَ عَمَلُهُ)).

الاتقاء: هو تلقي سخطه بحواجز منيعة. وحقُّ تَقَاتِهِ واجب تقاته، لأنَّ تَقَاتَهُ غَيْرُهُ مِنْ جِهَةٍ دُونَ جِهَةٍ، لأنَّ غَيْرَهُ يَكُونُ فِي جِهَةٍ دُونَ جِهَةٍ، وَفِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْبَاطِنَ، وَهُوَ يُتَّقَى مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمِنْ الْبَاطِنِ كَمَا يُتَّقَى مِنَ الظَّاهِرِ لِأَنَّ عِلْمَهُ بِالْجَمِيعِ وَاحِدٌ. وَبَاقِي الْأَفْظَادِ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ لُغَةً.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَنَا أَنْ نَتَّقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَأَنْ نَسْعَى فِي مَرْضَاتِهِ، وَحَقَّ تَقَاتِهِ: أَنْ نَدْعَ مُرَادَ نَفُوسِنَا لِمُرَادِهِ وَتُعَادِي وَلِيِّنَا فِي حَقِّهِ، وَنُوَالِي عَدُونَنَا لَوُجْهِهِ، وَنَخَافَهُ فِي جَمِيعِ حَالَاتِنَا حَتَّى يَكُونَ خَوْفُنَا مِنْهُ وَحْيَاؤُنَا عِنْدَ انْفِرَادِنَا وَفِي حَالِ خُلُوتِنَا كَمَا نَسْتَحْيِي مِنْهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي عِبَادِهِ، حَتَّى أَنْ الْغِطَاءَ لَوْ انْكَشَفَ مَا قَلْنَا لَيْتَ أَنَا كُنَّا عَمَلْنَا كَذَا وَكَذَا، وَهَذَا مَا نَرَى فِي حَقِّ تَقَاتِهِ، وَهُوَ قَلِيلٌ.

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ شُعَيْبٍ الْبَزَارُ بِالرَّقَّةِ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ الْمَنْقَرِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا حِمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ جَدِّهِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ... الْحَدِيثُ.

والسعي في مرضاته مُؤذَنٌ بوجوب المبادرة إلى ما يُرضيه من الأفعال والأقوال والاعتقادات، فنقول الحقَّ ونعتقد الحقَّ ونعمل بالحق ونؤمن من الدنيا كما أمرنا الصادق المصدَّق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بالفناء إذ هو نهايتها لا محالة، فلا نجمع لها شتاتاً ولا نرم لها بتاتاً، ولا ننافس في عمران قصورها وتشيد دورها ونحن نعلم أنَّ إلى القبور مصيرنا، وإلى التراب مرجعنا.

وفناء الدنيا: ذهابها وخرابها، والفناء في أصل اللغة الخراب والتفريق، يقال شيخ فانٍ أي: بَلَيتْ جَدَّتُهُ وَخَرِبَتْ بَنِيَّتُهُ، فهذا اليقين إذا حصل لنا في الدنيا زهدنا في استيطانها، وإذا أيقنَّا ببقاء الآخرة دعانا ذلك إلى الرغبة فيها والطلب لها، وإذا طلبناها حقَّ الطلب فليس إلا بأن نسعى لها سعيها، ونعمل عملها، وهو القيام بموجبات ما كُلِّفْنَا فعلاً وتركاً، والتحفظ مما يُقَوِّت ثواب ذلك علينا من الكبائر والموبقات لئلا تبطل أعمالنا ويضل سعيها.

قوله عليه السلام: وَعَمَلُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَأَنَّكُمْ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ وَبِالْآخِرَةِ لَمْ تَزَلْ، أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ وَمَا فِي يَدِهِ عَارِيَّةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ وَالْعَارِيَّةُ مَرْدُودَةٌ.

الضيف: هو الوافد وهو مأخوذ في الأصل من الإضافة، وهي ^(١) تقريب الشيء إلى الشيء، فلما وصل سُمي ضيفاً، وهو من أشهر ما نطق به العرب فلم يفسر إلا معناه في الأصل. **والعاريَّة:** هي إباحة المنافع، وأصلها العطاء، لا فرق بين أعاره وأعطاه.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرنا بأن لا نركن إلى الدنيا، وأن نعمل لما بعد الموت، والذي بعد الموت هو الهول الأعظم والفرع الأكبر؛ لأنه الحساب والعقاب، والجنة والنار، فمن عمل لما بعد الموت نجا من المهلكات وفاز بأسباب النجاة، ثم أكَّد ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: كَأَنَّكُمْ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ، لأن ما زال فكأنه لم يكن، وبِالْآخِرَةِ لَمْ تَزَلْ، لأن ما بقي واستقر فكأنه لم يزل. ثم مثَّل ذلك بأحسن مثِّل، وكشف عن وصف الحال بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ، فهل علمت للضيف إقامةً أو دواماً؟! أفليس هو كفيء الغمام، أكثر الضيافة ثلاثاً، ثم لا يعاق عن الانبعاث، ومثَّل ما في يديه بالعاريَّة التي يسرع ارتجاعها ويجب ردها عند المطالبة بها، وصرَّح بما ذكرنا من المعنى بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ وَالْعَارِيَّةُ مَرْدُودَةٌ.

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: هو.

قوله عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ.

العَرَضُ: ما يَعْرِضُ في الوجود ولا يجب لبثه. والحاضر: نقيض الغائب. والبرُّ: المسلم، وأصله من السلامة سُمِّي البرَّ بَرًّا. والفاجر: المجرم، والفجور: الخروج من طريق الخير، وسَمَوْا حرب قيس وكنانة حَرَبَ الفجار؛ لأنهم هتكوا فيه حُرمة الأشهر الحُرْم فخرجوا عن الحدود. والوعد: هو الخبر عن إيصال نفعٍ إلى الغير في المستقبل، هذا عند أهل الكلام، وفي الأصل: الخبر بوصول أمرٍ ما في المستقبل، خير أم شر.

[مسألة الرزق والتفضل، وتعلقهما بالصلاح والفجور في الدنيا والآخرة]

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أن الدنيا قليلة اللَّبَث والإقامة، حاضرة يأكل منها البر والفاجر، لا يُؤَثِّرُ بها البرُّ لأجل برِّه، ولا يمنع منها الفاجر لأجل فجوره، وهذا مطابق لقوله سبحانه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء] فلم يرض بها الحكيم سبحانه ثواباً لمن أطاعه ولا عقاباً لمن عصاه، بل جعلها دار تكليف، أسبغ على الجميع فيها رزقه، وضاعف عليهم نِعَمَهُ لإكمال الحجة عليهم في دار الآخرة، لأنه تعالى لو لم يقصد وصول النعم إلى الكفار والفساق لما كان منعماً عليهم، ألا ترى أنا إذا صنعنا طعاماً لعمرو وحظرناه على زيد، فجاء زيد فغصبه وأكله فإن العقلاء لا يوجبون عليه شكراً والحال هذه. وإنما يوجب أهل الشرع عليه الغرامة^(١)، ولا نكون منعمين عليه ولا لنا عليه مِنَّةٌ، فكل من آذاه علمه إلى أن الله لا نعمة له على من عصاه ولا يجب عليه شكره ردَّ قوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٣] فكيف يأمر بشكر ما ليس منه، وكذلك قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة] ويكون ردّاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٣٠] جحدوها وغمصوها، ومن فعل ذلك فقد كفر وتعدَّى، وهلك وتردَّى، وانقلب علمه جهلاً، وحلمه طيشاً وسفهاً، وتمرَّد على خالقه، وأنكر فضل بارئه، فنعوذ بالله من الزيغ المؤدِّي إلى الضلال، والتعلق بأسباب الجهال.

(١) في الأصل: وإنما يوجب عليه أهل الشرع الغرامة.

والآخرة مخالفة لها وهي وعد صادق بثواب المطيعين، ثوابٌ حرَّمه على الفاجرين، كما قال تعالى حاكياً عن أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف] فانظر إلى حكم الدنيا كيف خالف حكم الآخرة، قال تعالى في الدنيا: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء] ونحن نشاهد ذلك ونعلمه ونحكم به، حتى لو مات يهوديٌّ له ولدان أحدهما مسلم والآخر يهودي لحكمنا بالمال لليهودي دون المسلم، فلو قيل لنا: لم فعلتم؟ قلنا: أعطاه الله إياه، قالوا: مع كفره؟! قلنا: لأجل كفره، وذلك أبلغ.

فأما الآخرة فهي وعدٌ صادق يحكم فيها الله الملك القادر، وقد أخبرنا بحكمه أن لا رحمة للكافرين الفاجرين، ولا نعمة تصل إلى أحد من الفاسقين المارقين، وأنه قادر على الوفاء بما وعد لأنه قادر لذاته، فلا يجوز عليه العجز، فتفهَّم رحمك الله تعالى معاني كتاب الله من أربابه، وأطلب هذا العلم من ورثته ونصابه، ولا تحبط العلم خبط السلَمة^(١) شوكة وورقه، أعط القوس باريها، وأنزل الدار بانيها، واسأل فقد كُفيت، واحمد إذ سُفيت.

قوله عليه السلام: فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَظَرَ لِنَفْسِهِ وَمَهَّدَ لِرَمْسِهِ، مَا دَامَ رَسْنُهُ مُرَخًى، وَحَبْلُهُ عَلَى غَارِبِهِ مُلْقًى، قَبْلَ أَنْ يَنْفَذَ أَجَلُهُ، فَيَنْقَطِعَ عَمَلُهُ.

التمهيد: التوطئة^(٢). والرمس: هو القبر، سمي رمساً لأن الميت يُرمس فيه. والرَّسن يختص بذوات الحافر في العرف، وهو في الأصل الخطام. والإرخاء: نقيض الشد. والحبل في البعير كالرسن في الفرس. والغارب: مجمع الكتفين ومغرز العُنُق. والإلقاء: هو الطرح.

المعنى في ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ دعا بالرحمة -وهو مستجاب الدعوة- لمن نظر لنفسه، وهذا غاية الشفقة علينا والنصيحة لنا أن يدعوا بالرحمة لنا إذا نظرنا لأنفسنا، وقد تقرر في عقل كل عاقل وجوب النظر لنفسه ليدفع عنها المضار ويجلب إليها المنافع، وإنما إذا كان نظره

(١) سبقت في الحديث (٢٨).

(٢) في الأصل ونسخة أخرى: التوطيد، وهما بمعنى التهيئة والتشيت والتمهيد.

لنفسه ليدفع عنها المضار ويجلب إليها المنافع وإنما إذا كان نظره لنفسه على وجه صحيح آذاه نظره إلى أعمال الآخرة، وإيثار رضا الرب، وتحمل المشاق الفانية لتحصيل النعم الباقية.

ومَهَّدَ لرمسه بأن يُوطِّئَ بالحسنات محط جنبه، فلا يوقع جنبه إلا على طاعة الله سبحانه، قد طَحَرَتْ^(١) عنه قذى العقوبة، وبسط له أوراق الرحمة، وذلك لا يصح له إلا ما دام رسنه مرخى، شبهه عَلَيْهِ السَّلَامُ بالفَرَسِ التي يُطَوَّلُ لها رسنها معناه يُرَخَّى فتردد يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً وتتمكن من التصرف، وكذلك حالنا مع بقاء التكليف.

ثم انتقل من هذا المثال والاستعارة العجيبة إلى أوسع وأجل فقال: وَحَبَلُهُ عَلَى غَارِبِهِ مُلْقَى، وهكذا في البعير إذا طابت نفس مولاه من نِفاره، أو كان قادراً على رده فإنه يطرح حبله - أي خطامه - على غاربه، ثم يَدْعُهُ يَرعى أينما أراد، فإذا دعت إليه الحاجة أتى إليه فتناول خطامه وقاده إلى أين ما أحب ويمنعه مما يكره، وهذا في التكليف أعم، وبه أشبه، لأنَّ المكلف مع بقاء التكليف موكَّولٌ إلى اختياره في الخير والشر، غير ممنوع بالجبر والقهر من واحد من الأمرين: إن أتى فغير مقهور، وإن اجتنب فغير مجبور، إنما هو أَمْرٌ ومُهْيٌ، وترغيب وترهيب، وتكره وتحبيب، فمن اختار الهلاك على النجاة، والعذاب على المغفرة؛ فما أصبره على النار.

فأما إذا نفذ الأجل انقطع العمل؛ لأنه يخرج بالموت عن حِيْزِ التكليف، فَيُنْشَطُ^(٢) الرَسَنُ ويُقبض الحبل، ويُقاد إلى الخير إن كان صالحاً قَوْداً رقيقاً شقيقاً، وَيُعْتَلُ^(٣) إلى الشر - الذي هو العذاب والخزي - عَتَلًا عَنِيفًا شديداً. جعلنا الله وإياكم من فِكْرِهِ فَهْمٌ وسعيه حَزْمٌ، والصلاة على محمد وآله.

(١) طَحَرَتْهُ: دَفَعَتْهُ، وأكثر ما يستعمل في دَفْعِ العينِ للقدى، من حاشية نقلت مما نقل من خطه عليه السلام، تمت، هامش (أ) (انظر القاموس ٤٣٠).

(٢) أَيِ يُعْقَدُ، والأَنْشُوطَةُ: عَقْدَةٌ يَسْهُلُ انْحِلَالُهَا مِثْلُ عَقْدَةِ التَّكَةِ... وَقَدْ نَشَطَ الْأَنْشُوطَةُ يَنْشَطُهَا نَشْطًا وَنَشَطُهَا: عَقْدَهَا وَشَدَّهَا، وَأَنْشَطَهَا حَلَّهَا. (لسان العرب: ٧/ ٤١٤).

(٣) الْعَتَلُ: الْجَذْبُ الشَّدِيدُ مَعَ الْاسْتِخْفَافِ، قاله عليه السلام، تمت، هامش (أ). وقال في القاموس: عَتَلَهُ يَغْتَلُهُ وَيَعْتَلُهُ فَانْتَعَلَ: جَرَّةٌ عَنِيفًا فَحَمَلَهُ. (القاموس المحيط: ١٠٢٩).

الحديث السابع والثلاثون

عَنْ^(١) أَبِي ذَرٍّ، وَهُوَ جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ حِرَامِ بْنِ غِفَارِ بْنِ مُكَلِّيلِ بْنِ ضَمْرَةَ^(٢) [بَنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ] بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ، فَضَّلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ بِصَدَقِ اللّٰهَجَةِ، فَكَانَ مَعْصُومًا فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ، وَلَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا لَا يَحْصِرُهُ ذِكْرُنَا فِي مِثْلِ هَذَا، وَكَانَ عَثْمَانُ أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الرَّبَذَةِ^(٣) لَوْحِشَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُمَا، فَجَاءَ وَعَبْدٌ حَبَشِيٌّ يَصْلِي بِهِمْ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ أَنْ يَطِيعَ وَلَوْ كَانَ الْأَمِيرُ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَأَمَرُوهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِهِمْ لِلصَّلَاةِ؛ فَكَرِهَ وَذَكَرَ وَصَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَمُوتُ وَحْدَهُ وَيَقْبُرُ وَحْدَهُ وَيَبْعَثُ وَحْدَهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُوَارِنِي وَيَصْلِي عَلَيَّ؟ قَالَ: جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِي مِنْ نَعْتِهِمْ كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَتْ بَنَتُهُ: يَا أَبُهِ مَنْ يَتَوَلَّى شَأْنَكَ؟ وَيَغْسِلُكَ وَيَقْبُرُكَ؟ قَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَلْقِنِي عَلَى قَارَعَةِ الطَّرِيقِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ، وَأَقْبَلَ الرِّكْبُ مِنَ الْعِرَاقِ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ^(٤)، فَمَا شَعَرُوا حَتَّى كَادَتْ الرِّكَابُ تَطَّاهُ، فَقَالُوا: مِنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ بَنَتُهُ: أَبُو ذَرٍّ

(١) قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ: وَحَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ دُرَيْسٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ سَلِيمَانَ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ... الْحَدِيثُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ وَالنَّسْخَةِ (أ): ضَمْرَةُ، وَمَا أُثْبِتَ مِنْ نَسْخَةٍ أُخْرَى وَمِنْ كُتُبِ التَّرَاجِمِ وَالْأَنْسَابِ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ سَقَطَ مِنَ الْأَصْلِ وَالنَّسْخَةِ (أ).

(٣) الرَّبَذَةُ: قَرْيَةٌ عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثِ مَرَاكِلَ شَرْقَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، (٢٠٠ كِيلُومِترَ تَقْرِيبًا)، فِيهَا قَبْرُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ تُوُفِيَ سَنَةَ ٣٢ هـ.

(٤) مِنْهُمْ: حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ الْكِنْدِيُّ، وَمَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْجَرِيُّ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْإِسْتِيعَابِ (٢٥٣/١) وَأَبُو نَعِيمٍ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ، حَيْثُ قَالَ: مِنْهُمْ حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ، وَمَالِكُ الْأَشْجَرِيُّ، وَنَقَرَهُ، كُلُّهُمْ يَمَانِيَّةٌ... الْخ. وَقَدْ صُحِّفَ إِلَى: كُلُّهُمْ ثَمَانِيَّةٌ، (انْظُرْ مَعْرِفَةَ الصَّحَابَةِ: ٢/ ٥٦٥) وَفِي الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى (١٧٧/٤) قَالَ: مِنْهُمْ حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ وَمَالِكُ الْأَشْجَرِيِّ نَقَرَهُ كُلُّهُمْ يَمَانٍ، هـ، وَيُسَمَّى حُجْرُ الْخَيْرِ، وَهُوَ الصَّحَابِيُّ الَّذِي قَتَلَهُ مَعَاوِيَةُ صَبْرًا بِمَرْجِ عَذْرَاءَ سَنَةَ ٥١ هـ لَتَمْسُكَهُ بَوْلَانَهُ لَعْلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هـ.

صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، فتواثبوا وبكوا عليه وجهزوه وصلوا عليه وقبروه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يُوصِيهِ: ((أَقْلِلْ مِنَ الشَّهَوَاتِ يَسْهُلْ عَلَيْكَ الْفَقْرُ، وَأَقْلِلْ مِنَ الذُّنُوبِ يَسْهُلْ عَلَيْكَ الْمَوْتُ، وَقَدِّمْ مَالَكَ أَمَامَكَ يَسْرُكَ اللَّحَاقُ بِهِ، وَاقْنَعْ بِمَا أُوتِيَتْهُ يَخَفْ عَلَيْكَ الْحِسَابُ، وَلَا تَتَشَاغَلْ عَمَّا فُرِضَ عَلَيْكَ بِمَا قَدْ ضَمِنَ لَكَ، إِنَّهُ لَيْسَ بِفَائِتِكَ مَا قُسِمَ لَكَ، وَلَسْتَ بِلَاحِقٍ مَا زُوِيَ عَنْكَ، فَلَا تَكُنْ^(١) جَاهِدًا فِيمَا يُصْبِحُ نَافِدًا، وَاسْعَ لِمُلْكٍ لَا زَوَالَ لَهُ، فِي مَنْزِلٍ لَا انْتِقَالَ عَنْهُ)).

الإقلال نقيض الإكثار. **والشهوات** معروفة، وهي المعاني التي توفر الدواعي إلى تناول الشيء، والمراد هاهنا المشتبهات دون الشهوات، إذ الشهوات لا تدخل تحت مقدور العبد فيتعلق النهي بها. **والسهولة** نقيض الصعوبة. **والفقر** هو وجود الحاجة وعدم المحتاج إليه. **والذنوب** هي المعاصي. **والموت** عَرَضٌ يضاد الحياة. **ومال الإنسان** معروف. **وأمام** نقيض خلف. **والسرور** نقيض الغم. **واللحاق** والإدراك معناهما واحد. **والقنوع** هو الرضى في الباطن والظاهر. **والحساب** قد تقدم^(٢).

المعنى في ذلك: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ معلم الخير والهادي إلى الرشد أمر الإنسان عموماً بأن يقلل من الشهوات، يريد عَلَيْهِ السَّلَامُ من المشتبهات؛ إذ الشهوات لا تدخل تحت مقدور العبد لأن ذلك لو أمكننا لخلقنا لنفوسنا الشهوة لما نريد تناوله، وقد علمنا خلافه، وأنا نريد تناول الدواء الكريه ونحن لا نشتهي، ولا يمكننا إيجاد شهوته، فإذا المراد هاهنا: أقلل من المشتبهات وتناولها بالأثمان يسهل عليك الفقر، وأقلل من الذنوب وهو يريد نفي الجملة، وإنما أتبع اللفظ اللفظ، ومثله كثير في كلامهم، والذنوب هي المعاصي نعوذ بالله منها، وسهولة الموت هوئله، وليس المراد أن يُهَوَّنَ على المؤمن خروج نفسه، فإننا نشاهد أن كثيراً منهم يشدد عليه خروج نفسه جداً، وقد روينا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَتَكُونُ لَهُ دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا

(١) في نسخة أخرى: تك، بحذف النون في تكن.

(٢) تقدم في الحديث الثاني والعشرين عند قوله: ((وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا)).

يَنَاهَا إِلَّا بِشَيْءٍ مِنَ الْبَلَايَا تُصِيبُهُ، فَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ وَمَا بَلَغَ تِلْكَ الدَّرَجَةَ، فَيَشْدُدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَيْلُغَهَا^(١)) فإذا معنى الحديث أن يسهل عليك ما بعد الموت وهو لقاء منكر ونكير، ومساءلتها في القبر، وما يُشاهد هنالك من الأمور الكبار، وكذلك البعث وهوله وروعته وزلازله ومواقعه، هذا هو الذي يراد أن يسهل على العباد، وأمر عليه السَّلام بتقديم الإنسان لماله لِيَسَّرَهُ اللِّحَاقَ بِهِ، وذلك ظاهر؛ لأن الإنسان يحب ماله حباً شديداً، ولهذا قد نبّه الله سبحانه في إيجاب الجهاد به في قوله: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] فإذا قدّمه الإنسان أمامه على معنى أن يُنفقه في سبيل الله سبحانه وفي وجوه البر ومصالح الإسلام ونفع المسلمين صار أمامه عند الله تعالى، لا فوات على شيء منه، وسرّ الإنسان اللِّحَاقَ بِهِ؛ لأنك إذا أمرت بمالك - فيما نشاهده - إلى بلد صعب عليك التخلُّف بعده، وسرّك اللِّحَاقُ بِهِ لا محالة، وإذا سرّك إليه كنت مسروراً لأنك تَقْدِمُ على محبوبك وهو مالك، فما أنفعها من موعظة إن وَجَدْتَ قابلاً، وأصلحها مِنْ تَذَكُّرٍ إن وافقت عاملاً.

وأمر عليه السَّلام بالقنوع^(٢) بما أُوتِيَ الإنسان من فضل الله سبحانه لِيَخِفَّ عليه الحساب؛ لأنه إذا لم يقنع بما آتاه الله طلب سواه، وإذا طلب سواه وقع في المحذور، وإذا وقع في المحذور شد عليه الحساب، وصعب الخطب، وعظم الأمر، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وما بعد الحلال إلا الحرام، فمن قَنَعَ بما قسم الله له ولم يتجاوز به إلى غيره وأدّى حقَّ الله منه وحقَّ الله فيه خَفَّ عليه الحساب. قوله عليه السَّلام: وَلَا تَتَشَاغَلْ عَمَّا فُرِضَ عَلَيْكَ بِمَا قَدْ ضَمِنَ لَكَ، إِنَّهُ لَيْسَ بِفَاتِكِ مَا قُسِمَ لَكَ، وَلَسْتَ بِلَاحِقٍ مَا رُويَ عَنْكَ.

التشاغل هو التعلل بالأشغال من غير حقيقة لذلك. والفرض والإيجاب واحد. والضمانة التزام الأمر. والفوات نقيض الإدراك. واللاحق المدرك. ورُوي مُنْعَ وَصُرِفَ.

(١) هو في مسند الإمام زيد وأما لي أحمد بن عيسى، باختلاف لفظة: (فَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ) إلى: (حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ).

(٢) قَنَعَ يَقْنَعُ قُنوعاً فهو قانع: إذا سأل، وقَنَعَ بكسر النون بما أعطاه الله قناعة: أي رضي فهو قانع، وعن بعضهم القناعة والقنوع يستعملان في الرضى والسؤال معاً وهما من الأضداد، تمت ضياء، هامش (أ).

والمعنى في ذلك: أنه عليه السلام نهى أن يتشاغل الإنسان عن المفروض عليه - وهو الواجبات - في نفسه وماله بالمضمون له وهو رزقه، فإن الله سبحانه قد ضمن - وهو الوافي الضمانة - لعباده بأرزاقهم وما تمسهم الحاجة إليه من أرفاقهم^(١)، بل هو سبحانه لسعة جوده أعطاهم من الرزق فوق حاجتهم، وكلفهم برحمته من العبادة دون طاقتهم، فأئى كرم أوسع من هذا مجالاً، وأقرب منالاً لمن رغب في خلاص نفسه، ولم يتعرض لهلاك مهجته، ثم زاد عليه السلام ذلك بياناً بأن قال وأكد أنه ليس بفائتلك ما قسم لك من الرزق في هذه الدنيا، وسواء حرصك وإهمالك، فلا يكثر بطلبه اشتغالك، ولست مع ذلك بلاحق ما زوي عنك على وجه يحل لك تناوله، ويخف عليك الحساب بأخذه، فلا تغتر بالاجتهاد والاشتغال عما أوجب الحكيم سبحانه عليك من الأعمال التي تؤدبك إلى دار القرار، ومنزل الرحمة، ومناخ الكرامة والنعمة.

قوله عليه السلام: **فَلَا تَكُنْ جَاهِداً فِيمَا يُصْبِحُ نَافِداً، وَاسْعَ لِمُلْكٍ لَا زَوَالَ لَهُ، فِي مَنْزِلٍ لَا انْتِقَالَ عَنْهُ.**

الجاهد هو المتعب نفسه في الأمر، أخذ من الجهد وهو الشدة، ومن ذلك أخذ الجهاد. **والنافد** الزائل الماضي. **والسعي** معروف. **والمُلْك** كذلك. **والزوال** نقيض الثبات. **والمَنْزِل** ما يتزله الناس أي يحطون فيه. **والانتقال** نقيض الحلول.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام نهى أن يكون العبد جاهداً في طلب حطام الدنيا ونفعها النافد الزائل الفاني، ولا يتيقن حصوله؛ وإن حصل فإنه يُصبح نافداً ماضياً زائلاً، لا بقاء له ولا دوام، ولا نماء ولا تمام، وإنما هو رَجْعٌ^(٢) كلام، وأضغاث أحلام، ولو بقي لأحد لبقى لمن كان قبلنا، وقد رأينا مصيرهم ومنقلبهم.

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: أرزاقهم.

(٢) الرَّجْعَان: الرَّجُوع، وجاءني رُجْعَانُ كتابي: أي جوابُهُ، وَرَجْعُ الْجَوَابِ رَدُّهُ، قال الله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١] تمت ضياء، هامش (أ).

فأمر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسعى العبد لما ينبغي أن يسعى له وهو المُلْكُ الذي لا زوال له، وهو ملك الآخرة وخيرها، وقد دلت الآثار وحجج العقول مطابقةً للكتاب الكريم بخلود ملك الآخرة، والمنزل الذي لا انتقال عنه هو دار المُقامة، ومنزل السلامة، وهو الجنة التي وعد الله سبحانه أوليائه بسكونها والخلود فيها، وأنهم لا يتقلون عنها أبداً، ولا يخرجون منها أصلاً، وإنما تَنَقُّلُهُمْ في أنواع لذاتهم، وأصناف شهواتهم، والمزاروة فيما بينهم، إنما هو شغل بفكاهة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ﴾ [يس] فَشُغْلُهُمْ لَذَاتُهُمْ، وفكاهتهم سُروُرُهُمْ، وقد علمنا أن الإنسان يركب الأخطار الكبار ويخوض الغمرات العظام طَلَباً لِنَفْعٍ لا يدوم، وذكرٍ لا يبقى، وثناءٍ لا يستمر، فكيف لا يصبر على طاعة الجبار سبحانه ومرضاته، وإيثار محبوبه لتحصيل مُلْكٍ لا زوال له، والتزول في منزلٍ لا انتقال عنه، فنسأل الله تعالى أن يحمد لنا وإياكم العواقب، وأن يبلغنا من طاعته المآرب، ويصلي على النبي وآله.

الحديث الثامن والثلاثون

عَنْ^(١) ابْنِ عَبَّاسٍ، قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسَبِهِ وَذَكَرَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، وَهُوَ أَشْهُرُ مِنْ أَنْ يَنْصَبَ عَلَى أَمْرِهِ بَرَهَانٌ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّهُ مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ إِلَّا التَّاطُّ مِنْهَا بِثَلَاثٍ: شُغْلٌ لَا يَنْفِكُ عَنَّاوُهُ، وَفَقْرٌ لَا يُدْرِكُ غِنَاهُ، وَأَمَلٌ لَا يُنَالُ^(٢) مُنْتَهَاهُ، إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ طَالِبَتَانِ وَمَطْلُوبَتَانِ، فَطَالِبُ الْآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا تَطْلُبُهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَأْخُذَ الْمَوْتُ بِعُنُقِهِ، أَلَا وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ اخْتَارَ بَاقِيَةً يَدُومُ نَعِيمُهَا عَلَى فَانِيَةٍ لَا يَنْفَدُ عَذَابُهَا، وَقَدَّمَ لِمَا يَفْقَدُ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ الْآنَ فِي يَدَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُخْلَفَهُ لِمَنْ يَسْعَدُ بِإِنْفَاقِهِ وَقَدْ شَقِيَ بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ)).

السكون هو الحلول والقطون. **والحب** نقيض البغض. وقد تقدم الكلام في القلب والعبد. **والالتياط** الالتصاق. **والشغل** معروف وأصله المِلءُ للإناء، فكأنَّ الشغل يملأ الإنسان فلا يبقى منه فضلة لغيره، فُسِّمِي شغلاً. **والانفكاك** الانفصال. **والعناء** هو التعب والنَّصَب. **والأمل** هو انتظار وقوع أمرٍ محبوبٍ في المستقبل يُغْلَبُ حصوله على فواته، وبذلك يخالف الرجاء، وإلا فهما متقاربان في لسانهم جداً. **والفقر** نقيض الغنى وهما معروفان.

والمعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر -وهو الصادق في خبره- أن حب الدنيا لا يسكن قلب عبد إلا والتاط منها بثلاث خلالٍ لو لم تكن إلا واحدة لكانت كافية في التنفير عن التعلق بحب الدنيا. الأولى منها: الشغل المتصل الذي لا ينفك تعبه ولا نصبه، وهذه مشقة عظيمة دفعها عن النفس واجب.

(١) قال السيد الشريف: حدثنا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني قال حدثنا أبو زرعة الدمشقي قال حدثنا محمد بن بكار بن بلال قال حدثنا سعيد بن بشر عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس... الحديث.

(٢) في الأصل والنسخة (أ): لَا يُدْرِكُ، وما أثبت من نسخة أخرى ومن كتاب الأنوار المضيئة شرح الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام.

الثانية: فقرر لا يدرك غناه، وصدق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ؛ إن محب الدنيا فقيرٌ طول عمره، وغايةَ دهره؛ لأنه كلما حاز منها جانباً دعاه حبها إلى طلب جانب، وليس لطالبها غايةٌ يقف عندها، وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أنه قال: ((لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مَالٍ لَا يَبْتَغِي إِلَيْهِمَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتَوَبُّ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) فإذا كان الأمر هكذا كان فقره غير منقطع؛ إذ الإحاطة بجميع ما في الدنيا متعذر، وبعضها يدعو إلى بعض، فالطالب لها لإطفاء سَوْرَةِ^(١) حبها كالذي يطفئ النار بالخطب، كلما كثر ازدادت جحيماً وهباً، وأجيجاً وسَحَباً^(٢)، فلا خير في حبها أصلاً.

والثالثة: أمل لا ينال منتهاه، ولا شك في ذلك، والأمل معروف والتعلق به من أسباب العناء؛ لأن العبد إذا أحب الدنيا امتد أمله فيها إلى ما لا غاية له، فكان منه في عناء، إذ هو مُتَّبِعٌ له رجاءه، فلا يذهب شغل ذلك من قلبه.

ولا دواء لجميع هذه الخلال إلا رفض حب الدنيا الزائلة الفانية، والإقبال على طلب الآخرة الدائمة الباقية.

قوله عليه السلام: إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ طَالِبَتَانِ وَمَطْلُوبَتَانِ، فَطَالِبُ الْآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا تَطْلُبُهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَأْخُذَ الْمَوْتُ بِعُنُقِهِ، أَلَا وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ اخْتَارَ بَاقِيَةَ يَدُومَ نَعِيمِهَا عَلَى فَائِيَةٍ لَا يَنْقُذُ عَذَابُهَا.

الطالب والمطلوب معروفان. والاستكمال الاستيلاء على الأمر بكماله. والعنق معروفة. والسعيد نقيض الشقي. والاختيار نقيض الإجبار.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان، إلا أن طالبهما مختلف، فالدنيا تطلب من كرهها، والآخرة تطلب طالبها وكارهها، فأما طالبها فليوفى أجره فيها،

(١) سَوْرَةُ الشَّرَابِ: حَدَّثَهُ وَثُورَتُهُ، وَكَذَلِكَ سَوْرَةُ الْحُمَةِ، وَسَوْرَةُ الْغَضَبِ أَيْضاً، وَسَوْرَةُ السُّلْطَانِ: سَطْوَتُهُ، تَمَّتْ ضِيَاءُ، هَامِش (أ).

(٢) السَّحَبُ وَالصَّحَبُ بِمَعْنَى الصِّيَاحِ، وَالصَّادُ وَالسَّيْنُ يُجَوُزُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ فِيهَا حَاءٌ. (اللسان: ١/ ٤٦٢).

وأما كارهها فليَتَأَخَذْ منه لهجرانه لها، وقد أوضح ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: طَالِبُ الْآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، وذلك لأن رزقه ليس بمشروط بطاعته، لأن الله سبحانه يرزق في هذه الدنيا من أطاعه ومن عصاه، وفي الآخرة لا يرزق إلا من أطاعه دون من عصاه، لأن هذه دار التكليف فلا بد من الإنعام والتمكين ليجب الحق على أبلغ الوجوه، وتلك الدار دار الجزاء على الأعمال، فتفهم الفرق بين الأمرين.

وطالب الدنيا تطلبه الآخرة طلب ناقم الثأر حتى يأخذ الموت بكظمه، فينقم لنفسه من نفسه، وأي خسارة أعظم من هذا، وجعل الأخذ بالعنق لأنه أبلغ المآخذ، ولن يتصر من أخذ بعنقه، وأصل ذلك في الشاة إذا أريد ذبحها أخذت بعنقها، ويَبَيِّنُ أن السعيد من اختار باقيةً يدوم نعيمها وهي الجنة، جعلنا الله وإياكم من أربابها، ووفقنا للتمسك بأسبابها، والفانية التي لا ينفد عذابها هي الدنيا، ولا شك في فنائها وفناء من فيها، وأضاف العذاب الذي لا ينفد إليها لوقوعه من أجلها، وإلا فهو عذاب الآخرة دون عذاب الدنيا؛ لأن عذاب الدنيا ينفد وينحصر وينعد، فلما كان عذاب الآخرة موقوفاً على أعمال الدنيا أضافه إليها لحصوله من أجلها وهو لا ينفد لاستمرار الاستحقاق أبد الأبد، ودهر الداهرين.

قوله عليه السلام: وَقَدَّمَ لِمَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ الْآنَ فِي يَدَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُخْلِفَهُ لِمَنْ يَسْعُدُ بِإِنْفَاقِهِ وَقَدْ شَقِيَ بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ.

التقديم والتسبيق والتفريط واحد، وقدمه عليه وصوله. **والآن**: هو الوقت الذي نحن فيه وهو معرفة لازمة. **ويداه** معروفتان، وذكرهما تأكيداً لا أن ماله مشدودٌ بهما. **والتخليف** أخذ من الخلف وهو ما وراء الإنسان مما يناقض قُدَّامه، فكأن الميت ترك المال خلف ظهره. **والسعادة** نقيض الشقاوة. **والإنفاق** نقيض الإمساك. **والشقاء** هو التعب والمشقة. **والجمع** نقيض التفريق. **والاحتكار** ترك الانتفاع بالمال بيع أو غيره.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر بأن يُقَدَّمَ الإنسان من ماله لما يُقَدَّم عليه من روعة الحشر وأهواله، ويَبَيِّنُ من أي شيء يُقَدَّم؛ فقال: (مِمَّا هُوَ الْآنَ فِي يَدَيْهِ) تأكيداً للأمر بذكر اليدين، لأن أكثر

تصرف الإنسان وقبضه وبسطه وعطائه ومنعه باليدين، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ [الحج: ١٠] وإن كان يجوز أن تكون المعصية وقعت بغير اليدين، والمال الآن في أيدينا إذ أيدينا مطلقة، وزاد عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأمر تزهيداً، وفي الحجة تأكيداً بقوله: قَبْلَ أَنْ يُخْلَفَهُ لِمَنْ يَسْعُدُ بِإِنْفَاقِهِ، إما لغة وإما شرعاً، فمن أنفق في الدنيا وأغراضها فهو سعيد عند أهلها، ومن أنفق في وجوه البر لله سبحانه فهو السعيد به حقاً.

وشقاؤه بجمعه واحتكاره هو تعب ونصبه في تحصيله وضم فضوله، هذه الشقاوة الأولى، وهي أهون الشقاوتين مشقة، وأقربها شقة، والشقاوة الأخرى وهي الداهية الكبرى أن يمنعه من حقوق الله سبحانه، ويجمعه محتكراً له جاهلاً بانتقاله أو الانتقال عنه، قد أعمى حبه قلبه، وأعشى وُدّه بصره، فصار لا يسمع هدايته، ولا يبصر رشدَه، حتى جاء الموت وهذه حاله فأخذ بعنقه، فرام الإنفاق فمنعه، وطلب التلكي^(١) في طريقه فدفعه، وأضجعه فضغطة ضغطة، وكشطه كشطة، ففرق بين جسده وروحه، وأورده دار البوار فقيراً عقيراً، لا يجد مُعيناً ولا نصيراً.

هذا وقد ترك مجموعه خلف طهره، فأخذه وارثه غير شاكر ولا ذاكِر، فإن شكر وذكر فغير دافع ولا مانع، فأنفقه بداراً، ولم يدخر منه درهماً ولا ديناراً، وذلك لِهُوْنِهِ عليه وصغره لديه، فإن قصد به منافع دنياه سعد به عند أهل الدنيا مدة حياته، وإن قصد به أخراه وتحري رضا مولاه فاز بِقُدْحِ القامرين، وَوُفِّيَ أجر الشاكِرين.

جعلنا الله وإياكم ممن رغب في دار الآخرة وسعى لها سعيها فطلبها، وزهد في الدنيا فكفأها وقلبها، وردّها على عقبها، والصلاة على محمد وآله.

(١) هكذا في النسخ، وقال في هامش الأصل: أَحْسِبُهُ الْبُطْوَ فِي السَّيْرِ، أ.هـ.

الحديث التاسع والثلاثون

عَنْ^(١) أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي نَسْبِهِ وَطَرَفٍ مِنْ ذِكْرِ حَالِهِ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ هُوَ أَحَدُ الرِّوَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَهُ رَوَايَةٌ وَاسِعَةٌ عَلَى غَفْلَةٍ كَانَتْ فِيهِ، وَلَهُ أَشْبَاهُ فِيهَا، مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَوَابِصَةُ بْنُ مَعْبُدٍ^(٢)، وَمَعْقِلُ بْنُ سِنَانٍ^(٣) فِي آخِرِينَ، وَهُوَ يَمَانِي نَسَبًا وَلِسَانًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُبَدِّلُ لَامَ الْمَعْرِفَةِ مِيمًا، فَقَالَ وَقَدْ دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ: (الْآنَ طَابَ امْفَضْرُبُ) وَهَذِهِ لُغَةٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ سَمِعْنَاهَا مِنْهُمْ، وَهُوَ أَحَدُ الْمُدَافِعِينَ عَنْ عِثْمَانَ، وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُ فِي أَيَّامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى إِظْهَارِهِ فَضْلَهُ وَاعْتِقَادِ إِمَامَتِهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَعْرِفْ بِتَشَدُّدٍ فِي أَمْرِهِ، وَهَذَا فَصْلٌ عَرَضَ، وَفِيهِ بَعْضُ غَرَضٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةُ قَدْ تَحَمَّلَتْ مُقْبِلَةً، أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمٍ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ، وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونُوا فِي يَوْمٍ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنَّ لِلدُّنْيَا أَبْنَاءَ، وَلِلْآخِرَةِ أَبْنَاءَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، إِنَّ شَرَّ مَا اتَّخَوْفَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَاتَّبَاعُ الْهَوَى يَصْدِفُ بِقُلُوبِكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يَصْرِفُ هِمَمَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَا بَعْدَهُمَا لِأَحَدٍ مِنْ خَيْرٍ فِي دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ)).

(١) قال السيد الشريف: وحدثنا الحسين بن محمد السكوني قال حدثنا نصر بن عبد الملك قال حدثنا زيد بن يحيى

الهروي قال حدثنا عمرو بن جرير البجلي قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... الحديث.

(٢) وابصة - بكسر الموحدة - ابن معبد الأسدي، أبو شداد، وفد سنة تسع. أخرج له حديثه فيمن صلى خلف الصفوف وحده محمد بن منصور، وأبو داود، والترمذي. أخرج له: محمد، والمرشد بالله، والأربعة إلا النسائي. عنه: سالم بن أبي الجعد، وهلال بن يساف، وولده عمرو بن وابصة، والشعبي حديث المصلي خلف الصفوف. (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ٣ ط - ج ٣ / ٢٦١).

(٣) معقل بن سنان بن مظهر.. الأشجعي. شهد فتح مكة، ولم يقبل روايته أمير المؤمنين علي عليه السلام في مهر المثل للمتوفى عنها زوجها قبل الدخول ولم يسم لها مهراً.. قُتِلَ يَوْمَ الْحَرَّةِ، قَتَلَهُ مُسْلِمُ بْنُ عَقْبَةَ قَائِدُ جَيْشِ يَزِيدَ صَبْرًا.

الارتحال نقيض الحلول. **والإدبار** نقيض الإقبال، وأصل ذلك من تَوَلِيَةِ الدبر. **والتحمل** هو الإقبال للشئ والاستقلال به. **والإقبال** نقيض الإدبار.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر - وهو صادق الخبر فما عذرنا في التمسك بحبل الغرر- أن الدنيا قد ارتحلت مدبرة فكيف يُعمل لها مع إدبارها عمل المستقبلين، أم كيف يركن إليها الحاذر الفطين^(١)؟! وقد خلت لنا فيها المُمَثَّلَات بأبنائها الفارطين^(٢)، ولقد عايناً من إدبارها عن المقبلين عليها رؤية عين اليقين، فكم لها من ضريب وطعين، وطريح ودفين، أبدت له محاسنها الفتانة، وتدثرت بالعفة والأمانة، حتى إذا تمكنت مخالب حبها في شغاف قلبه، وآلَبَ^(٣) ودُّهَا بِلَبِّهِ؛ قلبت له ظهر المِجَن، وجرعته كؤوس المحن، فأضمرت عليه نيران الفتن، وقلبته لوجهه حيران، وأهبطه العشاء منها على سِرْحَان^(٤)، فَحَانَ فيمن حَانَ^(٥)، وَدِينَ بِهَا دان، وقيل كان وما كان، فلم تغنه الأحزان، ولا تدفع عنه الأشجان.

وأما الآخرة وتحملها مقبلة فهل نَجَزَ لها العامل عمله؟ أم هو على يقين من المهلة؟ ما قوله إن أُرهِقته العجلة وكل أعمال الصلاح مهملة، فحار من فَرَط السؤال والولة، صار عليه حسرة ما كان له، فرحم الله عبداً استقبلها بما يُستقبل به الوافدون من البشاشة، وهاش إليها مسرعاً من الهشاشة^(٦)، واتقى بحسن ما قَدَّمَ لها وإليها، قد حَمَلَتْ عنه ما حَمَلَ عليها.

(١) فَطِينٌ وَفَطِنٌ وَفَطْنٌ وَفَاطِنٌ وَفَاطُونٌ، والجمع: فُطْنٌ، وَفِطْنَةٌ، بالكسر: الحِذْقُ، فُطِنَ به، و.. إليه، و.. له (كفَرِحَ وَنَصَرَ وَكُرِمَ)، فُطِنًا، مثَلثةً وبالتحريك، وبضمين، وَفُطُونَةٌ وَفُطَانَةٌ وَفُطَانِيَّةٌ، (القاموس: ١٢٢٢).

(٢) الْفَارِطُ: الْمُتَقَدِّمُ السَّابِقُ، (لسان العرب ٧/ ٣٦٦).

(٣) الشَّغَافُ: غِلَافُ الْقَلْبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، أَي أَوْصَلَ الْحُبَّ إِلَى شَغَافِ قَلْبِهَا، تمت (بجمل اللغة لابن فارس: ٥٠٦).

آلَبَ: أَقَامَ، ومنه: كَبَيْكَ، أي: أنا مُقِيمٌ عَلَى طَاعَتِكَ لِإِبَابٍ بَعْدَ إِبَابٍ، وَاجَابَةٍ، أَوْ مَعْنَاهُ: اتَّجَاهِي وَقَصْدِي لَكَ، وَاللُّبُّ: هُوَ الْعَقْلُ، وَالْقَلْبُ وَالْخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. (انظر القاموس المحيط: ١٣٣).

(٤) السَّرْحَانُ: الذُّبُّ، وهو مثل يضرب لِلْحَاجَةِ تُؤَدِّي صَاحِبَهَا إِلَى التَّلَفِ، وَأَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا خَرَجَ يَتَلَمَسُ الْعُشَاءَ فَوَقَعَ عَلَى ذَنْبٍ فَأَكَلَهُ، انظر جمهرة الأمثال (١/ ٥١٤).

(٥) حَانَ حَيْنًا، بفتح الحاء: أي وقع في الهلاك، تمت ضياء، هامش (أ).

(٦) الْهَشَاشَةُ: الْإِزْيَاحُ وَالْخِفَّةُ لِلْمَعْرُوفِ. (لسان العرب ٦/ ٣٦٤).

قوله عليه السلام: أَلَا وَاتَّكُم فِي يَوْمٍ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ، وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونُوا فِي يَوْمٍ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ.

العمل معروف. والحساب مناقشة المتصرفين والبحث عن الأصول والقوانين. ويوشك من المواشكة وهي الإسراع، قال بعضهم في المَهْلَبِ بن أبي صُفْرَةَ^(١) وقد انهزم يوم دُولَاب، وهو يوم معروف بينه وبين الخوارج، وثبت ولده المغيرة في أهل الحِفاظ، واعتذر بعضهم للمهلب بأنه إنما خَفَّ لرد المنهزم:

بِدُولَابٍ أَضَعْتُ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرْتُ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دُرُورٍ

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبَيِّنُ أَنَّا الْيَوْمَ فِي يَوْمِ الْعَمَلِ وَالْمَهْلِ عَنْ الْحِسَابِ فِي التَّفْصِيلِ والجمال، وغداً في يوم حساب ليس فيه عمل، وعجل ليس بعده مهل، وما أسرع ما يكون؛ كما يَبَيِّنُهُ الْأَمِينُ، وَتَبَّهَ عَلَيْهِ طَيْبُ الدِّينِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ، فَإِذَا تَحَمَّلْنَا ذَلِكَ شَمَرْنَا تَشْمِيرَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَعَمَلْنَا عَمَلَ الْجَادِينَ الْمُنْجِدِينَ، وَلَمْ نَضُنَّ^(٢) بِالْثَمِينِ، وَلَا نَرُكْنَ إِلَى الظَّنِّ فَنَتَقَلَّبَ بِحِظْ غَيْبٍ^(٣)، فَالْيَوْمَ يَوْمُ التَّحْصِيلِ، وَغَدَاً يَوْمُ التَّفْصِيلِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَمَلِينَ حِفْظَةٌ -أَعْنِي عَمَلَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ- تُوَدِّي مَا حَفِظْتُهُ إِلَى نَقَادٍ بَصِيرٍ، فَمَا شِئْتُ فَقَدِمْتُ؛ فَأَنْتَ لَا مَحَالَةَ عَلَيْهِ قَادِمٌ، إِنْ كَانَ رَدِيًّا قَرَعْتَ سَنَ النَّادِمِ، وَإِنْ كَانَ جَيِّدًا فَرَزْتَ بِسَهْمِ الْغَانِمِ، فَأَصْلَحْ حِسَابَكَ قَبْلَ أَنْ تُدْعَى لِلْمَحَاسِبَةِ، وَأَعِدْ خُطَابَكَ قَبْلَ مَجَآئَةِ الْمُخَاطَبَةِ، وَكُنْ كَأَنَّكَ قَدْ قُلْتَ وَقَدْ قِيلَ لَكَ، فَأَصْلَحْ عَمَلَكَ وَبَادِرْ أَجَلَكَ.

(١) المَهْلَبُ بن أبي صُفْرَةَ (٧ - ٨٣ هـ) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد: أمير، بطاش، جواد، .. نشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقت عينه بسمرقند. وانتدب لقتال الأزارقة [فرقة من الخوارج] وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجليهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً لقي فيها منهم الأهوال. وأخيراً تم له الظفر بهم فقتل كثيرين وشرد بقيتهم في البلاد. ثم ولّاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩ هـ ومات فيها... وأخباره كثيرة، تجدها في شرح النهج وغيره.

(٢) نَضُنُّ: نَبْخَلُ.

(٣) الظَّنُّ: الْمُتَهَمُ، وَالْغَيْبُ: هُوَ الْمُعْبُونُ الْمُنْقُوصُ الضَّعِيفُ، وَيَوْمُ التَّعَابُيْنِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَغْنُبُونَ أَهْلَ النَّارِ، (انظر مختار الصحاح: ٢٢٤).

قوله عليه السلام: وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيَنْقُضُ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ.
الحب نقض البغض.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يبين صغر هذه الدنيا عند الله وضعف حالها لديه، فلم يرض بخيرها ثواباً لأوليائه، ولا بشرها عقاباً لأعدائه، بل أعطاها من يحب ويبغض، وذلك معلوم لنا مشاهدةً، ونطق به القرآن الكريم في غير موضع، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتُرُونَ﴾ [الحل] وقال في المشركين أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] فصرح برزقه للمشركين في الآيتين جميعاً وفي غيرهما، وميلنا إلى الاختصار، وإنما خالف في ذلك قوم من جهال الشيعة^(١)؛ وليس لهم في ذلك عمدة، تفتقر إلى إقامة برهان، وكيف يكون القرآن الكريم مشحون بآيات الامتنان على العاصين، ولولا رزقه إياهم لما منَّ عليهم.

وهذا تبين منه عليه السلام للفرق بين الدارين؛ لثلا يغتر المغترون، أو يظن الجاهلون أنه يمتنُّ على العاصين في تلك الدار كما امتن في هذه الدار كما ذهبت إليه المرجئة والحشوية^(٢) جهلاً بمواقع الحكمة، ولو فعل ذلك لكان مغرياً بالمعاصي تعالى عن ذلك، والإغراء بالمعاصي قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح، وتقرير هذه الدلالة مستوفى في كتب علم الكلام^(٣).

(١) هم المطرفية كما مر سابقاً خلال شرح الحديث الحادي والثلاثين...

(٢) المُرْجِئَةُ: فرقة من المسلمين ارجأوا الحكم على العصاة، وجعلوه تحت مشيئة الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا ينفع مع الكفر طاعة. والحشوية سبق تعريفها خلال شرح الحديث الثاني.

(٣) العقائد الفاسدة التي تؤدي إلى الإغراء بالمعاصي، أهمها مسألة الإرجاء، ومسألة الشفاعة لأهل الكبائر، ومسألة الخروج من النار... الخ، وكلها حول امتنان الله على العاصين في الآخرة، وستجد أدلة دحضها في كتب أصول الدين ككتاب الرد على المجبرة للإمام زيد عليه السلام ومجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي عليه السلام التي منها الرد على المجبرة وكتاب العدل والتوحيد... ومجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام التي منها: الرد على المجبرة والقدرية والرد على ابن الحنفية... الخ، أما مسألة الرزق فخلاف المطرفية فيها عن امتنان الله للمشركين والعصاة في الدنيا، حيث أنكروا أنه رزق من الله لهم، وستجد مناقشة هذه المسألة في كتاب الرسالة الناصحة للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، وكتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام.

فإذا كان لا يعطي الآخرة إلا من يحب وهي دار القرار ومحل الخلود، وإليها المنقلب والمصير؛ فالواجب على العبد أن يعمل ما يصير به محبوباً عند الله سبحانه ليعطيه الآخرة الباقية التي إليها المعاد وعليها المعول، وشرها هو الشر المخوف، وخيرها هو الخير المرجو، كل خير دون خيرها باطل، وكل شر غير شرها زائل، فإن شئت أن تكون محبوباً عند الله سبحانه فتحب، وإن شئت أن تكون قريباً منه فتقرب، فإنه يحب المتحبين إليه بفعل طاعته، ويقرب المتقربين إليه بترك معصيته.

قوله عليه السلام: وَإِنَّ لِلدُّنْيَا أَتْنَاءً، وَلِلْآخِرَةِ أَتْنَاءً، فَكُونُوا مِنْ أَتْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَتْنَاءِ الدُّنْيَا.

[كلام في مسألة التبني]

الأبناء أولاد الآباء وذلك ظاهر، والأصل فيه الولادة، وقد كان التبني في الجاهلية أن يأخذ الرجل الرجل من عَرَضِ القبيلة ثم يدعوه أباً ويدعوه الآخر ابناً، ويتوارثون بذلك ويتناصرون، وكانوا يقولون فلان بن فلان للذي ادعاه، فقال سبحانه: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أقسط معناه أعدل، وكانوا يدعون زيد بن حارثة رحمه الله زيد بن محمد حتى نزلت الآية: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد طلبت النواصب في ذلك فرجاً، وأعظمت^(١) العباسية والأموية من قبلها على ذلك العطايا الجزيلة، وقد أجمعت الصحابة ومن بعدهم من العلماء ما خلا النواصب على أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ، في الحديث المرفوع إلى زينب ابنة أبي رافع قالت: جاءت فاطمة عليها السلام إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ في شكوه^(٢) الذي توفي فيه فقالت: يا رسول الله؛ هذان ابناك تورثهما شيئاً، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((أَمَّا الْحَسَنُ فَلَهُ هَيْبَتِي وَسُودُ دِي، وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّ لَهُ

(١) في النسخة (أ) وفي نسخة أخرى: وَأَعْطَتْ.

(٢) في الأصل: (في شكوة مرضه ...) بزيادة لفظة (مرضه)، وفي بقية النسخ كما أثبتناه، ولعلها تفسيرية لشكواه، قال في لسان العرب (١٤ / ٤٣٩): الشَّكْوُ والشَّكْوَى والشَّكَاةُ والشَّكَاءُ كُلُّهُ: الْمَرَضُ.

جُرَأتِي وَجُودِي)) ومثل هذا الحديث روي عن صفوان بن سُليم^(١)، ورواية ابن بريدة^(٢) عن أبيه أن الحسن والحسين أقبلا ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ يخطب على المنبر، وعليهما قميصان وهما يمشيان ويعثران، فنزل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ عن المنبر واحتملها ثم رجع إلى مكانه، ثم قال: ((أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّمَا الْوَلَدُ فِتْنَةٌ، لَقَدْ نَزَلْتُ وَمَا شَعَرْتُ)) ولولا جهالة النواصب لم نحتج إلى ذكر شيء من هذا، وفي رواية أبي بكره قال كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ يصلي بالناس فجاء الحسن بن علي يثبُّ على ظهره إذا سجد، فلما فرغ قال: ((إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيُضِلُّحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) قال الحسن البصري فلما ولي ما أهرق في سببه محجمة دم، وأمثال هذا كثير، ووُلِدَ الحسن عام أُحُدٍ بعد الواقعة، وبين الحسين وبينه طُهرٌ واحد.

الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى أَنَّ لِلدُّنْيَا أَبْنَاءَ يَبْرُونَهَا بِرَّ الْوَالِدِينَ، وَلِلْآخِرَةِ أَبْنَاءَ يَبْرُونَهَا بِرَّ الْوَالِدِينَ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْعُقَلَاءِ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ الَّذِينَ قَامُوا بِهَا وَبَرُّوْهَا وَآثَرُوا رِضَاهَا عَلَى رِضَا نَفْسِهِمْ وَحُبِّهَا عَلَى حُبِّ آبَائِهِمْ وَأُمَمَاتِهِمْ، وَحَقَّ لَهَا ذَلِكَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا أَحَبُّوْهَا حُبَّ الْوَالِدِينَ^(٣) سَعَوْا لَهَا سَعَى الْمَشْفِقِينَ، وَأَحْسَنُوا إِلَيْهَا إِحْسَانَ الْمُتَّقِينَ، فَكَانَ هَمُّهُمْ صَلَاحَ آخِرَتِهِمْ، فَرَبَحُوا الْخُلُودَ فِي دَارِ النِّعَمِ وَالْعَيْشِ الْمَقِيمِ.

وإن كان سعيهم للدنيا وبرُّهم لها فيها لها حسرة ما أطمَّها، ومصيبة ما أهمَّها، أو هَمَّتْهُمْ أَنَّا بَرَّةٌ، فعقت عقوق الهرة، فلما أكلتهم قَعَصاً وَعَبْطاً^(٤) وخبطتهم بمخالبها خبطاً، أوضحت أَعْدَارَهَا،

(١) ترجم له الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام فقال: بضم المهملة، هو أبو عبد الله المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة. قال الإمام المنصور بالله عليه السلام : هو ممن اشتهر بالقول بالعدل، والتوحيد، وذكره الحاكم في ثقات أهل المدينة. خرج له أئمتنا الأربعة عليهم السلام، والجماعة. ا.هـ. (لوامع الأنوار - ط ٣ - ج ١ / ٧١١).

(٢) هو عبد الله بن بريدة بن الحبيب الأسلمي، كان مولده لثلاث سنين مضين من خلافة عمر بن الخطاب، كان هو وسليمان توأمين، ولما يزيد بن المهلب عبد الله القضاء بمرو، ومات بها سنة خمس عشرة ومائة، وقبره بجوارسرة قرية من قرى مرو، ا.هـ. «مشاهير علماء الأمصار للدارمي» (ص ٢٠٢).

(٣) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: الخالدين.

(٤) الْعَبْطُ: الذَّبْحُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، وَالْقَعَصُ: أَنْ يَقْتُلَهُ مَكَائُهُ، تمت، هامش (أ).

وخذعت أَعْمَارَهَا^(١)، وقالت: أنتم ولدي، فلحبي إياكم قربتكم من كبدي، وجعلت مهادكم كرشِي، وضنت بكم من أسمال^(٢) فُرْشِي، فقبِلْ عذرَها مَنْ فتنه سحرها، وأقبل على الإحسان إليها، وركن عليها، فألحقته بصاحبه، وألقت به جانبه.

قوله عليه السلام: إِنَّ شَرَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصْدِفُ بَقُلُوبِكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يَصْرِفُ هِمَمَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَا بَعْدَهُمَا لِأَحَدٍ مِنْ خَيْرٍ فِي دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ.

الشر أصله ما تنفر عنه النفوس، وسواء كان حسناً كالذي يقع من قبل الله سبحانه أو قبيحاً، وقد قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] معنى فتنة أي محنة، وبلوى الشر بالصبر، وبلوى الخير بالشكر، والجميع حسن؛ لأنه تعالى لا يفعل القبيح، وأما الشر هاهنا الذي هو اتباع الهوى فهو قبيح. والاتباع هو الاقتفاء واللاحاق. والهوى مقصورٌ هوى النفوس وهو شهوتها وإرادتها. وطول نقيض القصر. والأمل طمع بحصول مظهرٍ مشتبهٍ، قال الشاعر:

تَوَمَّلْ أَنْ تَعْمَرَ عُمْرَ نَوْجٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَةٍ

والصدف والصرَف معناهما واحد، ومنه صَدَف المودة وصرَفها، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٢]. يريد لוחي الجبل كأن كل واحد منهما صدف عن صاحبه لمفارقة إياه أبداً، فجمع بينهما عليه السلام بردمه.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام يبيِّن أن شر ما يتخوف علينا اتباع الهوى وطول الأمل، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ أَعْرَفُ الْعَارِفِينَ، وَأَنْصَحُ الْوَاصِفِينَ، ثم يبيِّن ذلك بأنَّ اتباع الهوى يصدِفُ بمعنى يُؤَمِّلُ ويُبْعِدُ بقلوبكم عن الحق، وطول الأمل يَصْرِفُ هِمَمَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وهذا أوضح الإيضاح وأبين التبيان، ولا شك في ذلك لكل عاقل، لأن من اتبع الهوى صدف عن الحق

(١) الأعمار: جَمْعُ عُمُرٍ بِالضَّمِّ، وَهُوَ الْجَاهِلُ الْغَرُّ الَّذِي لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمُورَ، أ.هـ (النهاية ٣/ ٣٨٥).

(٢) سُموْلُ الثوب: بلاؤه. تمت، هامش (أ).

لا محالة، فكيف يجتمع الهوى والحق وهما في حكم المتضادين، لأن الحق كرهه مُرِّيٌّ^(١) ثقيل، والباطل شهى خفيف وبيل، وقد قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْأَمَّاوَىٰ﴾ [النازعات] واتباع هوى النفوس يجرّع السم الدُّعَاف^(٢)، فأما طول الأمل فينسي قدوم الأجل فيصرف الإنسان همّه إلى الدنيا وينسى ما وراءها من الدار الأخرى، فيكون كدحه لها وجمعه منها فيها حتى يأتيه الأجل وقد صدف عن الحق باتباع هوى نفسه، وانصرفت همته إلى الدنيا بطول أمله، فلم يلق خيراً بعد هذين الوجهين في دنياه ولا آخرته، أما دنياه ففارقها حسيراً، وأما آخرته فوصلها فقيراً، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرافضين لهوى النفوس، المقصرين الآمال، العاملين للمرجع والمآل، والصلاة على محمد وآله خير آل.

(١) الْمُرِّيُّ: يَوْزَنُ الدَّرِّيُّ .. مُنْسُوبٌ إِلَى الْمَرَارَةِ.

(٢) في بعض النسخ: الزُّعَاف، قلنا: عند أصحاب اللغة: زُعَافٌ وَدُعَافٌ وَذُؤَافٌ وَزُؤَافٌ بمعنى واحد، والدُّعَافُ: السَّمُّ الْقَاتِلُ، أو سَمٌ سَاعِيٌّ، اهـ (انظر لسان العرب ٩ / ١٣٤).

الحديث الأربعون

عَنْ^(١) أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَسَبِهِ وَشَرَحَ طَرَفٌ مِنْ حَالِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: ((مَا مِنْ بَيْتٍ إِلَّا وَمَلَكُ الْمَوْتِ يَقِفُ عَلَى بَابِهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا وَجَدَ الْإِنْسَانَ قَدْ نَفِدَ أَكْلُهُ، وَانْقَطَعَ أَجَلُهُ، أَلْقَى عَلَيْهِ غَمَّ الْمَوْتِ، فَعَشِيَتْهُ كُرْبَاتُهُ، وَغَمَرَتْهُ عِلَازَاتُهُ، فَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّاشِرَةُ شَعْرَهَا، وَالضَّارِبَةُ وَجْهَهَا، وَالْبَاكِیَةُ لِسَجْوِهَا، وَالصَّارِخَةُ بِوَيْلِهَا، فَيَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ: وَيْلَكُمْ؛ مِمَّ الْفَرْعُ؟ وَفِيمَ الْجَزَعُ؟ مَا أَذْهَبَتْ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ رِزْقًا، وَلَا قَرَبْتُ لَهُ أَجَلًا، وَلَا أَتَيْتُهُ حَتَّى أُمِرْتُ، وَلَا قَبَضْتُ رُوحَهُ حَتَّى اسْتَوْمِرْتُ، وَإِنَّ لِي فِيكُمْ عَوْدَةً ثُمَّ عَوْدَةً ثُمَّ عَوْدَةً، حَتَّى لَا أَبْقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ يَرُونَ مَكَانَهُ وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، لَذَهَلُوا عَنْ مَيِّتِهِمْ وَلَبَّكُوا عَلَى نُفُوسِهِمْ، حَتَّى إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَى نَعْشِهِ رَفَرَفَ رُوحُهُ فَوْقَ النَّعْشِ وَهُوَ يُنَادِي: يَا أَهْلِي، وَيَا وَلَدِي؛ لَا تَلْعَبَنَّ بِكُمْ الدُّنْيَا كَمَا لَعَبْتُ بِي، جَمَعْتُ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، ثُمَّ خَلَفْتُهُ لِعِيرِي بِالْمَهْنَةِ لَهُ، وَالتَّبَعَةَ عَلَيَّ، فَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِي)).

الرسول معروف وأصله من الهون، يقال على رسلك أي على هونٍ من أمرك، وشعرُ رسلٍ إذا لم يكن فيه جعودة، كأنها أخذت من الشدة، ولهذا يقال للبخيل: جعد الكف، أي شديدها، ومنه الرُّسل الذي هو اللبن لأنه يخرج بهونٍ، وجاءت الخيل أرسالاً يتلو بعضها بعضاً بغير طرد ولا شل، ومنه الإبل المراسيل التي يسهل سيرها للين أعطافها وهو كثير المساحة، وقد تُسمى الرسالة رسولاً كما قال الشاعر^(٢):

(١) قال السيد الشريف: وحدثننا القاضي أبو جعفر أحمد بن عبد الله قال حدثنا أبي قال حدثنا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال حدثنا يحيى بن أيوب قال حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس بن مالك... الحديث.

(٢) البيت لِكُثْرِ عَزَّة، وهو كُثَيْرُ بن عبد الرحمن الخزاعي، صاحب عَزَّة، أحد الشعراء العشاق في العصر الأموي؛ له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ١٠٥ هـ. في ولاية يزيد بن عبد الملك. قيل أنه كان على مذهب الكيسانية الذين يقولون بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) بعد الحسين بن علي عليه السلام.

لَقَدْ كَذَبَ الْوَأَشُونَ مَا بُحْتُ عَنْدهُمْ بَسِيرٌ - وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

يريد برسالة، والأصل ما ذكرنا، قال أبو ذؤيب الهذلي^(١):

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ لِي أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ

ولما كان الرسول يسهّل الأمر على المرسل سُمي رسولاً.

وإذا أُطْلِقَ الرسولُ في وقتنا هذا لم يسبق إلى الأفهام إلا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد شهدنا له بتبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، فجزاه الله عنّا خيراً، وبعثه مقاماً محموداً، وأعطاه ما وعده، وزاده من سعة جوده، وإنما دعاؤنا له تعبُّدٌ، كما أمرنا بالصلاة عليه وعلى أهل بيته، وإن كان يَفْعَلُ له ذلك وإن لم يسأل، وَذَكَرْنَا هذا لأننا سمعنا من جهال الشيعة من ينكر مثل ذلك، ولفظ النبي في الأصل يخالف لفظ الرسول، إلا أنه إذا هُمَزَ أفاد الإنباء والإخبار، على معنى أن الله أنبأه وأخبره، وعلى معنى أنه أنبأنا وأخبرنا، فيكون فعيل بمعنى مُفْعَلٍ؛ كما يقال: سمع بمعنى مُسْمِعٍ، قال عمرو بن معدي كرب^(٢):

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَوِّفُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ

وقد يكون فعيل بمعنى مُفْعَلٍ كما قال الشاعر^(٣):

وَقَصِيدَةٍ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةٍ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ: مَنْ ذَا قَالَهَا؟

فحكيمة هاهنا بمعنى مُحْكَمَةٍ، وقد ينبئ ويخبر من لم يُرْسَل.

فأما إذا كان بغير همز فهو مأخوذ من الرفعة وهي النبوة في الأصل.

والصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن العباد دعاء بذلك، قال الأعشى:

(١) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور، اسمه خويلد بن خالد بن محرت، ويقال: خالد بن خويلد. كان فصيحاً متمكناً في الشعر، قال عنه حسان بن ثابت، أبو ذؤيب أشعر هذيل، وهذيل أشعر الناس... عاش في الجاهلية دهرًا، وأدرك الإسلام فأسلم. توفي في زمن عثمان سنة ٢٦ وقيل سنة ٢٧ هجرية.

(٢) سبقت ترجمته في شرح الحديث الثامن عشر.

(٣) البيت للأعشى، وقد سبقت ترجمته في شرح الحديث الثامن والعشرين.

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ أَرَمَعْتُ مُرْتَحِلًا يَا رَبَّ جَنَّبَ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا
عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتَ فَاغْتَمِدِي صَبْرًا فَإِنَّ لَجْنِبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا
(وَسَلَّمَ) مأخوذٌ من السلامة والدَّعَا، ومنه أُخِذَ السَّلَامُ، سلامٌ عليكم: معناه أَمْنٌ ودَعَا
عليكم منَّا، والله سبحانه السلام؛ لأن ذلك لا يكون حقيقةً خالصاً إلاَّ منه الأَمْنُ والدعة.
قوله عليه السلام: مَا مِنْ بَيْتٍ.

(ما) هاهنا نافية و(من) حرف جر يُبَيِّنُ به جنسُ المخبر عنه.

والبَيْتُ يكون شِعْراً وَوَبْراً وَحَجْراً وَمَدْراً، قال الشاعر^(١):

وَالْبَيْتُ لَا يَبْتَنِي إِلَّا عَلَى عُمْدٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادُ وَأَعْمَدَةٌ وَسَاكِنٌ بَلَّغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

فهو هاهنا بيت البادية من شعر أو وبر، ولما كان بيت الشعر يقوم بنفسه على ترتيبٍ مخصوص
وتقطيع معلوم سُمي بيتاً، والبيت العتيق بيت الله، وسُمي عتيقاً لِقَدَمِهِ؛ لأنه أول بيت وضع
للناس، وهو قِبْلَةُ الأنبياء عليهم السلام إبراهيم وَمَنْ قبله، وهو مأخوذ من بات بمعنى سكن،
وسكون الليل هو المبيت في الأصل، ثم صار عمل الليل كله وما يقع من التصرف فيه مُفَرَّعاً على
هذا، فيقال: ما عنده بَيْتٌ ليلة، وبَيْتُهُ ليلة أي عشاء ليلة يُسْكِنُهُ، وبات فلانُ بَيْتَهُ سَوْءٌ، أي في مشقة
من جوع أو غيره، ويقال: بَيْتٌ بهذا المكان، أي اتخذته مسكناً في ليلتي وإن لم يكن بيتاً، ويقال:

(١) هو الْأَفْوَةُ الْأَوْدِي: واسمه صَلَاةُ بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه بن أود بن
الصعب بن سعد العشيرة، من مذحج: شاعر يباي جاهلي، يكنى أبا ربيعة. ولقب بالأفوه لأنه كان غليظ
الشفتين، ظاهر الأسنان. وكان من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم،
وكانوا يصدرون عن رأيه، والعرب تعدّه من حكمائها، توفي نحو عام ٥٠ قبل الهجرة، وهذين البيتين من
قصيدته الدالية التي هي من أشهر شعره والتي تُعَدُّ من حكمة العرب وآدابها، ويعد البيتين:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ هُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جَهَّاهُمْ سَادُوا
تَلْفَى الْأُمُورَ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ فَإِنْ تَوَلَّيْتُ فَبِالْأَشْرَارِ تَنَقَّادُ

انظر الأغاني (١٢/ ١٦٩) والأعلام للزركلي (٣/ ٢٠٦).

بَيَّتَ فُلَانٌ أَمْرَهُ، إِذَا فَعَلَهُ لَيْلًا وَأَحْكَمَهُ وَأَبْرَمَهُ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٧] أَيِ أَدَارُوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ لَيْلًا، وَأَنشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ^(١):

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا يَبِيَّتُوا وَكَأَنُوا أَتَوْنِي بِأَمْرِ نُكْرٍ

وَفِي الْحَدِيثِ: ((اَسْتَبَيَّتُوا الرَّأْيَ)) يَقُولُ دَعَا رَأْيَكُمْ تَأْتِي عَلَيْهِ لَيْلَةٌ ثُمَّ تَعْقُبُوهُ بِالنَّظَرِ، وَقَالَ

تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُمْ بَيَّتًا﴾ [يونس: ٥٠] أَيِ لَيْلًا.

وَمَلِكُ الْمَوْتِ رَسُولُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ إِلَى عِبَادِهِ بِالْمَوْتِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ، وَسُمِّيَ مَلَكًا مِنَ الرِّسَالَةِ وَهِيَ الْأُلُوكَةُ وَالْمَأَلُوكَةُ، مِنْهُ قَوْلُهُمْ أَلِكْنِي، مَعْنَاهُ: أَرْسَلْنِي، قَالَ الشَّاعِرُ وَهُوَ مَصْفَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ^(٢)، وَهُوَ مَنْ يُوثَقُ بِلِسَانِهِ:

أَلِكْنِي إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ رِسَالَةً وَخَصَّ بِهَا أَحْيَاءَ بَكْرٍ بْنِ وَائِلٍ
وَعُمَّ بِهَا عَلِيًّا رِبِيعَةً إِنَّنِي تَرَكْتُ عَلِيًّا خَيْرَ حَافٍ وَنَاعِلٍ

وَأَضَافَ الْمَلَكَ إِلَى الْمَوْتِ لِأَنَّهُ عَمَلُهُ، وَالْكَلَامُ فِي الْإِضَافَاتِ يَكْثُرُ وَهُوَ ظَاهِرٌ. وَالْوَقُوفُ

نَقِیْضُ الْمَسِيرِ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

قِفَا نَبَكٍ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْصِلٍ

(١) أَنشَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى فِي كِتَابِهِ مَجَازِ الْقُرْآنِ مِثْلًا لَهُ، وَكَانَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ حَمِزَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْثُرُ النُّقْلُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ هَذَا، وَذَكَرَ أَنَّهُ مُقَدِّمٌ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرُ مَطْعُونٍ عَلَيْهِ فِي مَعْرِفَتِهَا، قَالَ فِي حَاشِيَةِ كِتَابِ الشَّافِيِّ ط ٢ (ج ١/ ٣١٨-٣١٩) مَا لَفْظُهُ: مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى، قَالَ الْجَاهِظُ: لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ خَارِجِي وَلَا جَاهِغِي أَعْلَمُ بِجَمِيعِ الْعُلُومِ مِنْهُ. وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: وَكَانَ مَعَ مَعْرِفَتِهِ رِبَاهًا يَكْسِرُ الْبَيْتَ إِذَا أَنشَدَهُ، وَكَانَ يَخْطِئُ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ نَظْرًا، وَكَانَ يَبْغِضُ الْعَرَبَ، وَأَلَّفَ فِي مِثَالِهَا، وَكَانَ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ، تَوَفَّى سَنَةَ ٢٠٩ هـ، وَوُلِدَ سَنَةَ ١١٠ هـ. انْتَهَى مِنْ حَاشِيَةِ شَمْنِي عَلَى الْمَغْنِيِّ.. وَلَهُ كِتَابُ التَّاجِ فِي عِلْمِ اللَّغَةِ. تَمَّتْ مِنَ الْإِمَامِ الْحُجَّةِ / مَجْدِ الدِّينِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورِ الْمُؤَيَّدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ١ هـ.

(٢) مَصْفَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ شَيْبَلِ الثَّغْلَانِيِّ، مِنْ بَكْرٍ بْنِ وَائِلٍ، أَقَامَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَامِلًا لَهُ عَلَى أَرْدَشِيرِ خُرَّةَ مِنْ كُورِ الْأَهْوَازِ، ثُمَّ هَرَبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ فِي قِصَّةِ ذِكْرِهَا الْمَسْعُودِي فِي مَرْوَجِ الذَّهَبِ (٢/ ٤٠٨) وَابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي شَرْحِ النَّهْجِ (٣/ ١٢٧).

قفا أصله قف، وأراد التنوين فعوض منه الألف وهو كثير في كلامهم. والذكرى معروف. وُسْمِي الحبيب حبيباً لسكونه حبة القلب في توهمهم. والمنزل ما يُنْزَل فيه من الركاب والخيول، وهو الاسم، ومصدره بالفتح. وَسَقَط اللوى منقَطَعُهُ، واللوى لوى الرَّمْل، مقصورٌ وهو ما قد تَنَصَّبَ^(١) والتوى. والدخول وحومل موضعان.

ومنه الوقوف بعرفة زادها الله شرفاً. **والباب** هو ما يُدْخَلُ منه في الأغلب إلى المساكن، وقد يُجْمَع على أبوبة، قال القتال الكلابي^(٢):

هَتَاكَ أُخْيِيَّةٌ وَلَاجُ أَبُوبَةٍ يَخْلِطُ بِالْبِرِّ فِيهِ الْحِدَّ وَاللِّينَا

واليوم: معروف وهو نقيض الليل. **والخُمْسُ:** جملةٌ من العدد معروفة. **والمَرَّاتُ** مأخوذة من مَرَرَ الحُبْل وهي مُنْتَه^(٣) وقَوَاهُ، ومنه أُخِذَت المِرَّةُ أي القُوَّة.

المَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَ - وهو الصادق في خبره - أَنَّ مَا بِهِ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ عَلَى مَرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَعْوَامِ إِلَّا وَمَلَكَ الْمَوْتَ كَرَّمَهُ اللَّهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ بَابٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي يَوْمِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسْتَبْعِدُهُ مِنْ عَرَفَ قُدْرَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا قَوَّاهُ اللَّهُ وَأَقْدَرَهُ هَانَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِنْ اتَّسَعَتِ الْأَفَاقُ وَتَكَاثَرَتِ الْأَعْدَادُ، وَقَدْ قَطَعَتِ السَّفَنُ الثَّقَالَ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا لَا يَقْطَعُهُ الْخَيْلُ وَالْإِبِلُ مِنَ الْمَسَافَاتِ فِي الْأَوْقَاتِ الْقَرِيبَةِ، وَكَذَلِكَ الطَّيْرُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى حَاكِمًا عَنِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ مِنَ الْكِتَابِ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ يريد عرش بلقيس وهو ثلاثون ذراعاً في خمسة عشر، مُرَّصَعٌ بِالذُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤١] وقيل إن الذي عنده علم

(١) في النسخة (أ) ونسخة أخرى: انْتَصَبَ.

(٢) القتال الكلابي: هو عبيد بن مجيب بن المضرحي، من بني كلاب بن ربيعة: شاعر فتاك، بدوي، من الفرسان، يكنى أبا المسيب أدرك أواخر الجاهلية، وعاش في الإسلام إلى أيام عبد الملك بن مروان نحو ٥٧٠هـ. (الأعلام للزركلي: ٤/ ١٩٠).

(٣) مُنْتَه: جمع مَنِئٍ، والمَنِئُ: الحُبْلُ الْقَوِيُّ الَّذِي لَهُ مُنْتَه. والمَنِئُ أيضاً: الضَّعِيفُ. (انظر لسان العرب: ١٣/ ٤١٥).

من الكتاب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، دعا إلى الله ففعل له ذلك، وقيل هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل آصف وزير سليمان وكان من الصالحين، وقد علمت ما حكى الله سبحانه عن عفريت من الجن أنه وعد أن يأتي به قبل أن يقوم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من مجلس الحكم، وكان يقف فيه إلى شربة النهار، يأتي به في هذه المدة من مأرب إلى تدمر في أقصى الشام، وإذا علم العاقل هذا وتيقنه فكيف يطيب عيشه أو يسلو قلبه أو يشتغل خاطره بشيء من أمور الدنيا إذا كان ملك الموت يزوره كل يوم خمس مرات، ولا يؤمن أن يؤمر في بعض تلك المرات بإنفاذ الأمر وهو على غَرَّةٍ وغفلةٍ ليس بمغفول عنه.

قوله عليه السلام: فَإِذَا وَجَدَ الْإِنْسَانَ قَدْ أَكَلَهُ، وَانْقَطَعَ أَجَلُهُ.

الإنسان معروف، وهذا اسم عام للذكر والأنثى، يقال هذه إنسان وهذا إنسان، وقول من يقول إنسانة لا أصل له إلا القياس. والنفاد هو النجاح والفراغ. والأكل بضم الهمزة ما يؤكل، والأكل هو المصدر من قولك أكلت أكلاً وأكلته مرة واحدة، قال الشاعر:

مَا أَكَلْتُ (إِنْ نِلْتُهَا) ^(١) بِغَنِيمَةٍ وَلَا جَوْعَةً إِنْ جُعْتُهَا بِعَرَامٍ

ففتح لأنها مرة، ويدللك عليها جوعة، فأما الإكالة بالكسر فهي حالة الأكل جالساً أو متكئاً، وما كان على هذا البناء فحكمه واحد كالركبة والجلسة والعمّة ^(٢)، وأما أكلته بضم الهمزة فالمراد لقمة واحدة، وقد قال عمر بن سعد لعنه الله يوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كاع الناس وهابوه: ما تنتظرون؟! إنها هي أكلته واحدة، أي لقمة، تمثيلاً لما عاين من قلة أصحاب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وكثرة أصحابه ^(٣)، فأعقبته تلك الأكلة شراً طويلاً، والأكل ما أُكِل، وكذلك الأكل وإن كان

(١) في جميع النسخ بلفظ: (مَا أَكَلْتُ أَكَلْتُهَا بِغَنِيمَةٍ) وما أثبتناه من المصاييح في التفسير عن الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، عند تفسير لفظه: (لمغرمون) أي معذبون، وكذلك في غيره من الكتب، وينسب البيت لحاتم الطائي، ونسبه أبو الفرج إلى حسين بن سعد عم النعمان بن بشير، ويروى عن بعض بني نهد.

(٢) من الاعتبار والتعمم بالعمامة.

(٣) كان على رأس أربعة آلاف مقاتل، والحسين عليه السلام في اثنين وسبعين من أصحابه. وهو عُمَرُ بن سَعْد بن أَبِي وقاص الزهري القرشي المدني، قائد الجيش الذي قتل سيد شباب أهل الجنة.... قتله المختار بن أبي عبيد الثقفي سنة ٦٦ هـ، ومن أعجب العجب أنه هو وأمثاله عند القوم من العدول الثقات المؤتمنين على نقل السنة.

مصدراً، يقول قائلهم:

ما ذقت أكلًا لا ولا عَدُوفًا

- الذال معجمة وغير معجمة^(١) - ولا عضاضاً ولا قضاضاً، كأن العضاض لما لَانَ، والقضاض لما صَلَّبَ، ومعناها سواء، يريد: ما ذقت شيئاً، فأما النوم فيقول: ما ذقت غَمَاضاً، والأكيل الذي يأكل معك ذكراً كان أو أنثى، هذا أكيلي وهذه أكيلي، وتقول: أَكَلْتُ فلاناً، ولا تقول: واكلته، والأَكُلُ بالتخفيف الرزق، يقال: إنه لعظيم الأَكُلُ في الدنيا، يراد الرزق والحظ، والأَكُلُ الطُعْمَةُ، يقال: جعلت لك أَكَلًا، أي طُعْمَةً، والأَكُولَةُ من الغنم شاةٌ للحم، والأَكِيلَةُ الفريسة من الأسد أو من سائر السباع، جمعها أكايِل، وهو فعيلة بمعنى مفعولة، وأَكَلُ البستان ثمره، قال تعالى: ﴿كُلْهَا ذَائِمٌ﴾ [الرعد: ٣٦] فأما قولهم: ثوب ذو أَكُلٍ فليس من هذا، إنما هو ثوب متين جيد الصَّنْعَةِ، ولا يبعد أن يرد إليه بأن يقال إنه يأكل الأيام ولا تأكله، وهذا تأويل كما ترى وقد بَعَدْنَا، ولعل هذا إن شاء الله يفيد، فلنرجع إلى ما كنا بصددده.

والانقطاع انفعالٌ من القطع وهو نقيض الوصل. والأجل هو الميقات الذي يُبْلَغُ إليه ويُوقَفُ عنده، وقد كانت العرب تقول عند رؤية الهلال: لا مرحباً بمُحِلِّ الدِّينِ ومقرَّبِ الأجل.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر بحال الملك الكريم المتيقظ لأمر ربه مع الإنسان الغافل عما أمر به، وأنه إذا وجد الإنسان ووجدائه له على الحال التي ذكر هو بلوغ العلم إليه من عند ربه بأن هذا قد بلغ أجله، واستكمل عمله، وما بقي له في العلم السابق رزقٌ يَهْطُ، ولا عملٌ يَصْعَدُ، وما بعد هذا إلا الموت، وفي الحديث أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ سأل عن عبد الله بن رواحة الأنصاري، فقيل له: يا رسول الله إنه في آخر نفس، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: قوموا بنا إليه، فدخل عليه فوجده مُسَجًّا قد أُغْمِيَ عليه ثلاثة أيام بلياليها، فقال المسلمون: يا رسول الله اعجب لعبد الله وتَعَرُّضِهِ للشهادة في موطن بعد موطن، ثم يكون موته قبضاً على فراشه؟! فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا رِزْقُهُ وَأَجَلُهُ وَأَثَرُهُ فَلِئَلَّ رَحْمَتِكَ،

(١) (عَدُوفًا) و (عَدُوفًا) أي مَا ذُقْتُ شَيْئًا. قال الجوهري في الصحاح: بالذال المعجمة لغة ربيعة، وبالذال

المهملة: لغة مضر.

وإن كان قد بقي في الدنيا رزقه وأجله وأثره فعجل شفاءه وعافيته)) ثم قام من عنده، قال الراوي: فما استكمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلسته في المسجد حتى قيل: يا رسول الله؛ هذا عبد الله قد أقبل، فقام المسلمون، فأتى إلى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ((يا عبد الله حدث بما رأيت، فلقد رأيت عجباً)) قال: يا رسول الله كان كلما صرخت صارخة فقلت واعزاه؛ أهوى إليّ ملك بمقموعة من حديد، من صفتها كذا وكذا، فيقول: متى أنت عزها؟ فأقول: بل الله عزها، ويرفع بعد إهواء، وكلما قالت واجبله؛ أهوى إليّ وقال: متى أنت جبلها؟ فأقول: بل الله جبلها، فيرفع بعد إهواء، قال: فقال عليه السلام: ((انظروا إلى ما يلقي موتاكم من فعل أحيائكم)) فرحم الله عبداً نفذ أكله من الدنيا، وانقطع أجله فيها، وقد رم^(١) الزاد وأحسن الاستعداد.

قوله عليه السلام: ألقى عليه غم الموت، فغشيته كربائته وغمرته علزائه.

الإلقاء هو الطرح. **والغم** نقيض السرور، وهو مأخوذ من التغطية؛ غمه إذا غطاه، وكأنّ الفرس الأغم غطي وجهه عدم الغرة، والأغم من الرجال كثير شعر مقدّم الرأس حتى يتغطى جبينه، قال هذبة بن خشرم العذري يخاطب امرأته في قصة طويلة^(٢):

(١) في (أ): وقدّم الزاد.

(٢) هذبة بن خشرم بن كرز، من بني عامر بن ثعلبة، من سعد هذيم، من قضاة: شاعر، فصيح، مرتجل، راوية، من أهل بادية الحجاز (بين تبوك والمدينة) كنيته أبو عمير.. وخلاصة القصة أنه قتل رجلاً من بني رقاش، من سعد هذيم، اسمه (زيادة بن زيد) وابتعد عن منازل قومه، مخافة أن يقبض عليه والي المدينة (سعيد بن العاص) وأرسل سعيد إلى أهل هذبة فحبسهم بالمدينة. وبلغ هذبة ذلك، فأقبل مستسلماً، وأخذ أهله. وبقي محبوساً ثلاث سنوات، ودفع إليهم، فقتلوه أمام والي المدينة وجهور من أهلها. وأظهر صبراً عجباً حين قتل. يروى أنه حين مضى به من السجن للقتل التفت فرأى امرأته؛ وكانت من أجل النساء فقال:

أَقْلِيَّ عَلَى اللَّوْمِ يَا أُمُّ بَوَزَعَا وَلَا تَحْزَعِي مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
وَلَا تُنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَعَمَّ الْقَفَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَنْزَعَا

ا.هـ. انظر قصته كاملة في كتاب الأغاني (١٠/٢٥٧).

فَلَا تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَعَمَّ الْقَفَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَنْزَعَا

والأنزع هو متعري الناصية من الشعر، والجلح والجله والجلأ والصلع أكثر من ذلك، وكل ذلك قد كثرت فيه العرب، قالت هند بنت أبي عبيدة في موسى بن عبد الله^(١) عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أصغر أولادها وحملت به لستين سنة، وهي هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وقيل لا تحمِلُ لستين إلَّا قرشية، ولا تحمل خمسين إلَّا عربية، وسائر أجناس الأمم لا تحمل الأنثى منهم إلَّا في الأربعين فما دونها وفوقها بقليل، والله أعلم، قالت في موسى - وكان جونا^(٢) أنزع - وهي تُرْقِصُه:

إِنَّكَ أَنْ تَكُونَ جَوْنًا أَنْزَعَا أَوْشَكَ أَنْ تَضُرَّهُمْ وَتَنْفَعَا
وَتَسْلِكَ الْعَيْشَ طَرِيقًا مَهِيَعَا فَرَدًّا مِنَ الْأَصْحَابِ أَوْ مُشِيَعَا

والموت قد تقدم الكلام فيه وأصله السكون. وغشيته بمعنى غمرته، وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل] معناه يُغْطِي وَيَعْمُ البلاد، والعرب تمثل بعموم الليل وغشيانه، وكأنه عندهم أهول من غشيان النهار. والكُرْبَات جمع كُرْبَة وهي الشديدة، وأصلها العقدة. ومعنى غَمَرَتْه غطته، ومنه الرداء الغمر، وأخذت الغمرة من ذلك وهو الماء الكثير، ومن ذلك غمرة القتال أي مُعْظَمُه الذي تَنَغَمَّرُ فيه القلوب والأسماع، قال الشاعر:

وَهَلْ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ إِلَّا نِزَالُكَ الْـ كَمِيَّ عَلَى لَحْمِ الْكَمِيِّ الْمَقْطَرِ^(٣)

والعَلَزُ عدم النوم، وعلزاته جمع عَلَزَة وهي واحدة العلزات، كما يقال سكرة وسكرات وغمرة وغمرات.

(١) الإمام أبو الحسن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط بن علي عليهم الصلاة والسلام، وهذا الإمام رابع الأئمة من أولاد عبد الله الكامل، وكان من دعاة أخيه النفس الزكية. وبعد قيامه أُخِذَ وَحُسِبَ حتى مات في أيام هارون الغوي، وعقبه عليه السلام من ولديه: عبد الله، وإبراهيم. (التحفة شرح الزلف للإمام الحجة/ محمد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام: ط ٥ - ص ١٣٦).

(٢) الجَوْنُ: الأبيض، والجَوْنُ: الأسود، وهو من الأصداد، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) الْكَمِيُّ: الشُّجَاعُ، الْمُتَكَمِّي فِي سِلَاحِهِ أَيِ الْمُتَغَطِّي بِهِ، تمت ضياء، وطَعَنَهُ فَقَطَّرَهُ أَيِ أَلْقَاهُ عَلَى أَحَدٍ قُطْرَيْهِ وَهُمَا جَانِبَاهُ، تمت ضياء، هامش (أ)، قلنا: والبيت نَسَبُهُ شَارِحُ دِيوانِ الْحَمَاسَةِ لِشُرَيْحِ بْنِ قِرْوَاشِ الْعَبْسِيِّ، ولم نحصل له على ترجمة في كتب التراجم.

المعنى في ذلك: أَنَّ الْمَلِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا عَلِمَ بِانْقِطَاعِ أَجْلِ الْعَبْدِ أَلْقَى عَلَيْهِ غَمَّ الْمَوْتِ، وَهَذَا مِنْ بَقِيَةِ أَنْوَاعِ الْبُلُوَى فِي الدُّنْيَا، وَيَكُونُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ مَكَّنَهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْدَرَهُ عَلَى إِيْصَالِهِ إِلَى قَلْبِهِ بِبَعْضِ الْأَسْبَابِ، إِمَّا بِخَاطِرٍ أَوْ كَلَامٍ يَشْبِهُهُ يُلْقَى إِلَى بَاطِنِ السَّمْعِ مِمَّا يَبْعَثُ الْحُزْنَ الْمُؤْدِي إِلَى الْغَمِّ، فَغَشِيَتْ الْعَبْدَ كُرْبَاتُهُ، كُرْبَةً بَعْدَ كُرْبَةٍ، مَعْنَاهُ شِدَّةٌ بَعْدَ شِدَّةٍ، وَغَمْرَتُهُ عِلَازَاتُهُ، عِلَازَةٌ بَعْدَ عِلَازَةٍ، فَلَا يَنَامُ كَمَا يَنَامُ الْمَغْمُومُ، وَلَا يَسْتَرْوِحُ إِلَى الْفِكْرِ كَمَا يَسْتَرْوِحُ الْمَهْمُومُ، بَلْ تُضَيِّقُ عَلَيْهِ مَخَارِجُ الْأَنْفَاسِ، وَتَضَاعَفُ عَلَيْهِ عُقْدُ الْأَمْرَاسِ^(١)، وَيَسَاقُ الرُّوحُ مِنَ الْقَدَمِينَ إِلَى الرَّأْسِ، فَانْقَطَعَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّمَعُ، وَاتَّصَلَ الْيَأْسُ وَالْفَزَعُ.

قوله عليه السلام: فَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّاشِرَةُ شَعْرَهَا، الضَّارِبَةُ وَجْهَهَا، وَالْبَاكِئَةُ لِشَجْوِهَا، وَالضَّارِخَةُ بَوَيْلِهَا.

الهَاءُ فِي (بَيْتِهِ) عَائِدَةٌ إِلَى الْمَيِّتِ. وَالْأَهْلُ وَالْآلُ وَاحِدٌ، وَهُمْ يُدْبِلُونَ الْهَاءَ مِنَ الْهَمْزَةِ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ، هَرَاقَ الْمَاءِ وَأَرَاقَ الْمَاءِ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ وَأَجَازَ عَلَيْهِ، وَالْهَاءُ هِيَ الْأَصْلُ، فَإِذَا صَغُرُوا الْآلَ رَدُّهُ إِلَى أَصْلِهِ فَقَالُوا: أَهْيَلٌ، وَلَمْ يَقُولُوا أَؤَيْلٌ.

الناشرة هِيَ الْنَاقِضَةُ عِصَصَ رَأْسِهَا بِتَفْهَمِهَا لَشَعْرِهَا فَانْتَشَرَ شَعْرُهَا، وَلَئِنْ دَرَى^(٢) الرَّأْسُ وَتَغَفَّيَصَهُ^(٣) زِينَتُهُ، وَنَشَرَ تَشْنِيعَ، كَانُوا يَتَعَمَّدُونَ ذَلِكَ - أَيْ التَّشْنِيعَ - عِنْدَ الْحَوَادِثِ، حَتَّى كُنَّ النِّسَاءُ يَلْبَسْنَ صُدْرَ الشَّعْرِ، وَيَشَقِّقْنَ الثِّيَابَ اللَّيْنَةَ، وَفِي الرِّوَايَةِ أَنَّ خُنْسَاءَ بِنْتَ عَمْرٍو^(٤) دَخَلَتْ

(١) الْأَمْرَاسُ: الْجِبَالُ، (لِسَانُ ٦/ ٢١٦).

(٢) دَرَى الرَّأْسُ: أَيْ تَسْرِيحُ شَعْرِهِ بِالْمِدْرَاةِ، قَالَ النِّهَايَةُ (٢/ ١١٦): أَدْرَتِ الْمَرْأَةُ تَدْرِي إِدْرَاءً إِذَا سَرَّحَتْ شَعْرَهَا بِهِ [أَيْ بِالْمِدْرَى]، وَأَصْلُهَا تَدْرِي؛ تَفْتَعِلُ، مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمِدْرَى، فَأُدْغِمَتِ النَّاءُ فِي الدَّالِ. أ.هـ.

(٣) الْعِصَصُ: أَنْ تَأْخُذَ الْمَرْأَةُ كُلَّ خُصْلَةٍ مِنْ شَعْرِهَا فَتَلْوِيَهَا ثُمَّ تَعْقِدُهَا حَتَّى يَبْقَى فِيهَا التَّوَاءُ ثُمَّ تُرْسِلُهَا، فَكُلُّ خُصْلَةٍ عَقِيصَةٍ، (لِسَانُ الْعَرَبِ ٧/ ٥٦).

(٤) هِيَ ثُمَامُ بِنْتُ عَمْرٍو بِنُ الْحَارِثِ بْنِ الشَّرِيدِ، الرِّبَاحِيَّةُ السُّلَمِيَّةُ، مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، مِنْ قَيْسِ عِيلَانَ، مِنْ مُضَرَ (ت ٢٤ هـ): الْخُنْسَاءُ لَقِبَ غَلَبَ عَلَيْهَا، أَشْهَرُ شَوَاعِرِ الْعَرَبِ، مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، عَاشَتْ أَكْثَرَ عُمْرِهَا فِي الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ، وَأَدْرَكَتِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ. وَوَفَدَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ قَوْمِهَا بَنِي سُلَيْمٍ، أَكْثَرَ شَعْرِهَا وَأَجُودَهُ رِثَاؤَهَا لِأَخْوِيهَا (صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ) وَكَانَا قَدْ قَتَلَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَكَانَ لَهَا أَرْبَعَةُ بَنِينَ شَهِدُوا حَرْبَ الْقَادِسِيَّةِ سَنَةَ ١٦ هـ فَجَعَلَتْ تَحْرُضُهُمْ عَلَى الثِّبَاتِ حَتَّى قُتِلُوا جَمِيعًا، فَقَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي بِقَتْلِهِمْ. (الْأَعْلَامُ لِلزُّرْكَلِيِّ ٢/ ٨٦) (الاسْتِيعَابُ ٤/ ١٨٢٩).

على عائشة وعليها صِدَارٌ من شعر، فقالت لها عائشة: أما علمت أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ نهى عن هذا؟ قالت: ما علمتُ بذلك، وإنَّ لِبَاسِ هذه الصِّدَارِ خبراً، قالت: ما هو؟ قالت: تزوجتُ رجلاً متلافاً، وكنتُ أحبه، فأنفد ماله وتجهز للغزو أو السفر -الشك من قبلي- قالت: فلما رأيت ذلك خشيت عليه وقلت له: قف فإنِّي أصل أخي صخراً فلعله يُعيننا بشيء من ماله يكفيننا مدّة من الدهر، قالت: فجئتُه فأخبرته بقصتي، فشاطرني ماله، فرجعت به إلى زوجي، فما لبث أن أتلّفه، ثم تجهز، فعُقَّتُهُ كما كان أولاً، ثم أتيت أخي فأعلمته، قالت: فشاطرني ماله، فرجعت به، فما لبث أن أتلّفه، ثم تجهز فعقته، وأتيت أخي فأعلمته، قالت: فقالت له امرأته: اعط أخذك شرارها فإنهم يتلفونها، قالت فقال:

وَاللّٰهُ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَلَوْ هَلَكْتُ حَرَقْتُ خِمَارَهَا
وَأَتَّخَذْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا وَهِيَ حِصَانٌ قَدْ أُمِنْتُ عَارَهَا

قالت: فقاسمني ماله نصفين، فرجعت به إلى زوجي، فلذلك لبستُ هذه الصِّدَارَ، ولا أعود إلى ما نهى عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ.

الضاربة وجهها هي اللاطمة بيدها وجهها استعظاماً للمصيبة. الوجه معروف وهو نقبض القفا، قال الشاعر (١):

نُعْرَضُ لِلسَّيْفِ إِذَا التَّقَيْنَا وَجُوهَا لَا تَعْرَضُ لِلطَّامِ

والبكاء معروف، وأصله تَقْطَارُ الماء، والماء البكيُّ الذي يقطر لقلته ولا يسيل. والشجو ما يكون في الحلق من الحزن غُصّة تُعْرَضُ كالشجا، وهو العود المعترض، قال الراجز:

كَنْتُ لَهُ مِثْلَ الشَّجَا فِي مَسْحَطِهِ (٢)

يريد في حلقه، وإنها هي غُصّة تنزو من الصدر فتلزم الحلق.

(١) ورد البيت في ديوان الحماسة ونسبه إلى الحريش بن هلال القرظي.

(٢) في جميع النسخ: مَسْحَطُهُ، وما أثبت هو الأول؛ لأنَّ الْمَسْحَطَ هو الْحُلُقُ، كما في قواميس اللغة، أمّا الْمَسْحَطُ، كَمَنْبَرٍ: فهو عُوْدٌ يُوضَعُ عِنْدَ قَضِيْبِ الْكُرْمِ، يَقِيهِ مِنَ الْأَرْضِ، (انظر القاموس المحيط: ٦٧٣) والرجز أورده الزمخشري في أساس البلاغة، ولم ينسبه لأحد، وصدره: وساخط من غير شيء مَسْحَطُهُ....

والصراخ معروفٌ وهو رفع الصوت عند الحادثة العظيمة بأصواتٍ منظومة وغير منظومة، فلذلك بيَّنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ بقوله: (بَوَيْلَهَا) والويل كلمة يذكرونها عند الشر والحوادث، وهي مما تَحْفُفُ على أفواه النساء، وأحسب أصله القتل والنكال، فلما كثر استعماله جُعِلَ لكل كربة، وقد يُتَّبَعُ بالألليل فيقال: نزل بهم الويل والأليل، أي القتل والصراخ، وقيل ويلٌ وادٍ من أودية النار نعوذ بالله منها في عرف الشريعة شرها الله.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر بحالة أهل الميت عند موته في أغلب الأحوال، وإن كانت هذه أموراً حظرتها الشريعة، في الحديث أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلُهُ وَسَلَّمَ قال: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَقَ وَلَا مَنْ سَلَقَ وَلَا مَنْ خَرَقَ وَلَا مَنْ دَعَا بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ)) حلق يريد شعره، وسلق صاح بشدة، قال تعالى: ﴿سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَنِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي صاحوا عليكم، ولا من خرق ثوبه، ولا من دعا بالويل والثبور، وقال في ذلك لبيد بن ربيعة:

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا	وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ
وَبَاكِتَيَانِ تَبْكِيَانِ لِهَالِكٍ	تَوَلَّى إِذَا لَا عَيْنَ مِنْهُ وَلَا أَثَرَ
فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي تَعْلَمَانِيهِ	وَلَا تَحْدِثَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرَ
وَقُولَا هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا خَلِيلَ لَهُ	أَضَاعَ وَلَا خَانَ الْوِدَادَ وَلَا غَدَرَ

في أبيات له نهاهما عن حلق الشعر وخمش الوجوه وتلك عاداتهم.

وفي الرواية أن الحسن بن الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١) مات لخمس وثلاثين سنة من مولده، فقال لامرأته فاطمة ابنة الحسين^(٢): ما أفارق شيئاً من الدنيا أهمَّ عليّ منك، وكأني عند المرور بجنازتي

(١) هو: الإمام أبو محمد الحسن بن الحسن السبط، قيامه عليه السلام في أيام عبد الملك. سمه الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي كافاه الله تعالى. توفي: وله من العمر ثمانٍ أو سبع وثلاثون سنة، أفاده في المصابيح والحدائق، ودُفِنَ في البقيع. وهو ممن حضر الطف مع عمِّه الحسين بن علي، وزوَّجه ابنته فاطمة، وهي أم أولاده: عبد الله الكامل، وإبراهيم الشَّبه، والحسن المثلث، وله من غيرها: داود، وجعفر عليهم السلام (التحفة شرح الزلف للإمام الحجة / مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام، ط ٥، ص ٧٠).

(٢) فاطمة بنت الحسين، أمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله.

بعبد الله بن عمرو بن عثمان قد رَجَلُ جُمَّتِهِ^(١)، وركب فرسه، ولبس حُلَّتَهُ، وسار في عرض الناس يتعرض لنكاحك؛ وما أحب أن ينكحك، فأثْلَجْتَهُ بالأَيان، فلما مات عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحِلٌّ؛ فَعَلَ عبد الله بن عمرو بن عثمان الصورة التي ذكر، وكان من أَجْمَلِ الناس في عصره، يسمي الْمُطَرَفَ لِحْسَنِهِ، فلما خَرَجَ بالجنَازة رفعت فاطمة يديها إلى وجهها ولحقها ضعف النساء في احتمال الصبر، فأمر إليها عبد الله بن عمرو بن عثمان: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به، فلما جاءها الكلام أرخت يديها وتجلبت بشياها، فلما حَلَّتْ أَمَرَ إليها يخطبها فامتنعت من ذلك أشد الامتناع، فأمر إلى أمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله يتشفع بها إليها، فكلمتها فأبت ذلك، فخرجت أمها إلى الشمس وأقسمت لا فارقت الشمس حتى تأذن لها في زواجه، فخرجت فاطمة من ذلك، وتبادت فيه أمها حتى مضى من النهار ساعتان ثم أذنت، وكانت سكيئة بنت الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تقول: أُبْرِزْنَا لهم يوم الطف، تشير إلى أنه لولا قتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما زُوجْنِ مَنْ زُوجْنِ منه؛ ولكن الضرورات تقضي بذلك وبغيره، ولما ذكرت أياها لعبد الله بن عمرو بن عثمان أعطاها بكل عبد مما نذرت عِتْقَهُ عبيدين، وعن كل شيء مما تصدّقت به شيئين، وهذا عارضُ أصله ذِكْرُ ضَرْبِ الوجه.

المعنى في ذلك: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حكى حال أهل الميت وما يلقون بعده من المشقة عليه من نفث الشعور، وخمش الوجوه، ورفع الأصوات والبكاء بشجو وعبرة، والصراخ بويل وحسرة، وكل ذلك أمر لا يَرُدُّ الفائتَ، ولا يُجَيِّمُ المَيتَ، ولا يصلح أن تُقَابَلَ به الأوامر الإلهية، وإنما تُقَابَلُ بالرضى والتسليم، والاستعداد للقاء الواحد العليم، بما فرض من الطاعات، وألزم من العبادات، فإن الذي أوجب هو أَقْلُ القليل في جنب ما أباح وأحلَّ من التصرف في القول والعمل، فأبي عذر لمن شغل نفسه بفعل المحذور الذي يكون عليه وبالأُنْكَالِ عن الواجب الذي يكون له غوثاً وبِلا^(٢)، وهل نهاية الحي إلا الموت، وهل عاقبته إلا

(١) الْجُمَّةُ، بِالضَّمِّ: جُمُوعُ شَعَرِ الرَّأْسِ، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَفَرَةِ. (الصحيح ٥/ ١٨٩٠).

(٢) تَكَرَّرَ تَفْسِيرُهَا فِي الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ وَالْعَشْرِينَ وَالتَّاسِعَ وَالْعَشْرِينَ، قَالَ: الْبَلالُ: جَمْعُ بَلَلٍ، وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ مَا بَلَّ الْخَلْقَ مِنْ مَاءٍ أَوْ لَبَنٍ أَوْ غَيْرِهِ. (لسان العرب: ١١/ ٦٤).

الفوت، وهل لأمر الله سبحانه بالكرهية ردُّ، وهل لنزوله بالعباد صدُّ.

فيا أيتها الصارخة؛ أعلَى نفسك تصرخين؟ أم على الميت الدفين؟ رفقا فأنت به لاحقة ولو بعد حين، ولو أَضْرَبْتَ عن ضَرْب الوجه وبَدَلْتِ مكان ضربه سجوداً في الساجدين لكنّك من الناجين الماجدين، ولو كان البكاء للشجاء ندماً على الذنوب السابقة كُتِبَتْ في زمرة الفائزين، فيا لها من غفلة عمت الذكور والإناث، وعاقبت الجميع عن الانبعاث.

قوله عليه السلام: فَيَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ: وَيَلَكُمْ، مِمَّ الْفَرْعُ؟ وَفِيمَ الْجَزَعُ؟ مَا أَذْهَبْتُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ رِزْقاً، وَلَا قَرَبْتُ لَهُ أَجْلاً، وَلَا أَتَيْتُهُ حَتَّى أُمِرْتُ، وَلَا قَبَضْتُ رُوحَهُ حَتَّى اسْتَوْمِرْتُ، وَإِنْ لِي فِيكُمْ عَوْدَةٌ ثُمَّ عَوْدَةٌ ثُمَّ عَوْدَةٌ، حَتَّى لَا يُبْقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا.

(وَيَلَكُمْ) كلمةٌ تستفتح بها العرب الكلام، وويحٌ وويسٌ وويبٌ، إلا أن ويلٌ يستعمل في المدعو عليه، وويسٌ وويحٌ وويبٌ في المدعو له، وقد يستعملون هذا في مكان هذا، والأصل ما ذكرنا. (مِمَّ) استفهامٌ، ومعناه التقرير والإنكار. والفزع نقيض الأمن، وأصله الخوف، وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال للأنصار: ((إِنَّكُمْ فِيمَا عَلِمْتُ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرْعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ)) وفزع فلان إذا أغار إلى الصوت والصريخ، والأصل في (مِمَّ): مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فأبدلت الميم من ذلك كله تصرفاً منهم في الكلام وتخفيفاً، وهو أسلوب لسانهم.

وفيم الجزع؟ (فِيمَ) استفهامٌ كما قدمنا، معناه التقرير والإنكار. الجزع نقيض الصبر، والمراد في أَيِّ شَيْءٍ تجزعون؟ في شَيْءٍ يَرُدُّهُ جَزَعُكُمْ، فشأنكم في شَيْءٍ لا يرده جزعكم، فاستشعروا الصبر وهونوا على أنفسكم. أَذْهَبْتُ: أزلت وقطعت وأمضيت، والرزق قد تقدم معناه، وكذلك الأجل. والإتيان نقيض الذهاب. والأمر هو قول القائل لغيره: افعل أو ليفعل؛ على جهة الاستعلاء دون الخضوع؛ بشرط الإرادة، وقد قررناه في كتاب صفوة الاختيار، وهو موجود في كتب أصحابنا الأخيار في أصول الفقه. والقبض أصله من القبضة وهي ضم كف الإنسان وأصابعه على الشيء، وذلك أمكن ما يستولي عليه الإنسان، ثم استُعْمِلَ وكثر حتى لو حَبَسَ

إنسانٌ إنساناً في بيتٍ قيل قبض عليه. والروح قد تقدم الكلام فيها، وهي ما يصير بها الحي حياً، والكلام فيها يطول، وعند أصحابنا أنها النفسُ المتردِّدُ في مخارق الحي، وهذا لا شك معنى تشهد له اللغة أن النفس عندهم تسمى روحاً، قال الشاعر^(١):

فَقُلْتُ لَهُ ارْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا بِرُوحِكَ [وَأَفْتَتَهُ لَهَا قِيَتَةً قَدْرًا]

يريد بِنَفْسِكَ، ومنبع ذلك النفس من القلب، وهو يتنشر في جميع البدن، وأول ما يخرج من القدمين ثم يعلو حتى يصل الصدر، وعند ذلك يشتد النزاع ويعظم الارتياح والالتياح، ويضيق بها الذرع والباع، قال حاتم طيء^(٢):

أَمَاوِيَّ إِن يُضْبِحَ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ لَا مَاءَ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ
تَرِي أَنَّ مَا أَنْفَقْتُ لَمْ يَكُ ضَرِّي وَأَنَّ يَدَيَّ مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صَفْرُ
أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَقْرِ إِذَا حَشَرَجْتَ يَوْماً وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
يريد الروح.

المعنى في ذلك: أنه عليه السلام أخبرنا عن كلام ملك الموت عند مشاهدته منا ما تقدم ذكره من الجزع المردى، والفرح الذي لا يجدي، أنه قال لنا: ويلكم؛ مم الفرع! وفيه الجزع! - إنكاراً لا استفهاماً ولا استخباراً - ما أذهبت لأحد منكم رزقاً؛ ولا قطعته له أجلاً؛ ولا أتيت به حتى أُمرْتُ؛ ولا قبضت

(١) القائل هو ذو الرمة (٧٧ - ١١٧ هـ) غيلان بن عقبة بن نهيـس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فُتِحَ الشَّعْرُ بِأَمْرِ القَيْسِ وَخْتَمَ بِذِي الرِّمَّةِ. وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد... توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية. (انظر الأعلام للزركلي ٥/ ١٢٤).

(٢) حاتم الطائي (ت ٤٦ ق.هـ) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عديّ: فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيء) قال ياقوت: وقبر حاتم عليه، شعره كثير، ضاع معظمه، وبقي منه (ديوان - ط صغير). وأخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ. وأزخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ١٠هـ (الأعلام للزركلي: ٢/ ١٥١).

روحه حتى استؤمّرت - استفعال من الأمر - ومع ذلك فإن لي فيكم عودةً معناه رجعةً، لا فرق بين قولهم عاد ورجع، ومنه سمي العيد عيداً لرجوعه في كل عام، ويقال عادني عيد، أي رجع إليّ راجع، كرّر رجوعه إلينا لقبضه مرة بعد مرة، وكذلك حاله، فنسأل الله تعالى حسن الاستعداد.

وجعل غاية عودته إلينا النجاح وذلك معلومٌ مشاهدة؛ فإنّ الموت لا يزال يُردّد فينا وإلينا حتى يُلحق الآخر الأوّل، فمن مُشَمِّرٍ مسرورٍ بقدومه، ومن مقصّرٍ مغمومٍ بهجومه، قد فرط حتى دهمته فوارطه^(١)، وغفل حتى أيقظته عوابطه^(٢)، فلم يُرحم لتقصيره من اجتياحه، ولا عُصم لنومه وغفلته عن أتراحه، بل أصيب من العذاب بمصائب أنسته المصائب، وأمّ بأمام^(٣) تبتلع العصائب، فأولى له أولى له؛ ما كان أدهى حاله^(٤)

إِبْهًا هُوَ الْمَوْتُ، فَشَمَّرَ شَمَّرَ وَلَا تَكُنْ لِوَارِثٍ تَثْمَرُ
وَأِنْ غَدَوْتَ خَائِفًا فَبَكِّرْ وَأِنْ ذَكَرْتَ رَائِعًا فَذَكِّرْ
وَاهْرُبْ مِنَ الْكُفْرِ وَكَفِّرْ كَفِّرْ وَاسْتَغْفِرِ الرَّبَّ الْكَرِيمَ يَغْفِرْ

قال الشاعر^(٥):

(١) الْفَوَارِطُ: هي السَّوَابِقُ، كما مرَّ في الحديث الثالث عشر، ولعلها هنا تحتل عدة معان، إمّا من التَّفْرِيطِ الذي هو التَّقْصِيرُ والتَّهْلُؤُنْ، وإمّا من الْفَرَطِ الذي بمعنى السَّبْقِ والتَّقَدُّمِ وَتَجَاوِزَةِ الْحَدِّ، ولأمر المؤمنين علي عليه السلام: لَا يَرَى الْجَاهِلُ إِلَّا مُفْرَطًا أَوْ مُفْرَطًا، ا.هـ. (انظر لسان العرب: ٧/٣٦٨).

(٢) عَوَابِطُ: جَمْعُ عَوْبِطٍ وهو الدَّاهِيَةُ، وكذلك عَوْطَبٌ. (انظر لسان العرب: ٧/٣٤٩).

(٣) أُمٌّ: أُصِيبَ فِي أُمِّ رَأْسِهِ، قال في القاموس المحيط (١٠٧٧): أُمَّةٌ أُمَّا، فهو أُمِيمٌ ومَأْمُومٌ: أَصَابَ أُمُّ رَأْسِهِ. وَشَجَّةٌ أُمَّةٌ ومَأْمُومَةٌ: بَلَغَتْ أُمُّ الرَّأْسِ. [وَالْأُمَائِمُ جَمْعُ أُمِيمَةٍ] وَالْأُمِيمَةُ، كَجَهِينَةٍ. الْحِجَارَةُ تُشَدُّ بِهَا الرُّؤُوسُ. ا.هـ. وَالْعَصَائِبُ: الْعِمَائِمُ.

(٤) الْأَبْيَات هي للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام، وردت في ديوانه عليه السلام.

(٥) هو أبو يعقوب الحَرْثِي (ت ٢١٢ هـ) إسحاق بن حسان بن قوهي، شاعر مطبوع، وصفه أبو حاتم السَّجِسْتَانِي بأشعر المولدين. خراساني الأصل من أبناء الصغد. ولد في الجزيرة الفراتية، وسكن بغداد، وعمي قبل وفاته. (الأعلام للزركلي: ١/٢٩٤).

لَمَّا رَأَى وَالْهَوَىٰ غَالِيَا أَجْمَعُ الْمَالَ لِأُخْتَانِي
لِأَمْرَأَةِ ابْنِي وَلِزَوْجِ ابْنَتِي يَا لَكَ مِنْ عَيْنٍ وَخُسْرَانٍ

وداء هذا الشاعر - الذي هو الهوى المؤدي إلى جمع الدنيا للغير - عامٌّ في الناس إلا من رحم الله سبحانه، وهو القليل، فالله المستعان.

قال الراوي: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: **فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ يَرُونَ مَكَانَهُ وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، لَدَهَلُوا عَنْ مِيتِهِمْ وَلَبَكُوا عَلَىٰ نَفْسِهِمْ.**
كانت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ يمينان هذه إحداهما: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ))
والأخرى: ((أَمَّا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ)) ولعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ يمينان إحداهما: ((وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ)) والأخرى: ((وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ)).

والرؤية هي إدراك المرئي، وقد تستعمل في العلم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفرج] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل] يريد سبحانه ألم تعلم؛ لأنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ لم يشاهد ذلك. مكانه هاهنا حاله، وذلك راجع إلى الملك، يقال: مكان فلان رفيع، أي حاله؛ لأن مكانه الذي هو موضعه مشاهد لهم. والسمع هو إدراك ما يسمع أن يدرك بحاسة السمع من الأصوات، فإذا كان كلاماً فهو المرتب المنظوم. والدُّهُولُ عن الشيء نسيانه، وقد قال تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] وأضاف الميت إليهم لأنه منهم. قد تقدم معنى البكاء. وأنفسهم ذواتهم وشخوصهم.

المعنى في ذلك: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أقسم وهو صادق القسم بالذي نفسه بيده أي بقدرته وهو الله سبحانه؛ لأنَّ نفوسنا في قدرته كالمقبوض عليها، يرسل ما شاء ويمسك ما شاء، لو يرون مكانه يريد عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك لو شاهدوا حاله التي هو عليها من عِظَمِ خَلْقِهِ وَهَوْلِ مَظَرِهِ وَعَجِيبِ تَرْكِيبِهِ، ثم سمعوا كلامه الذي تقدم ذكره لدَهَلُوا عَنْ مِيتِهِمْ فزعاً، وبكوا على أنفسهم جزعاً، ولشغلهم عِظَمُ الحال عن البكاء على المال والآل؛ لأنَّ الإنسان في هذه الدنيا يستعظم الحوادث ويتوجع لها، فإذا انتهت الحوادث إلى خاصة نفسه صَغُرَتْ عنده الأمور الكبار، ولم يقرَّ به قرار، ولهذا تنهزم الملوك خوفاً على

النفس من الممالك الكبار، ويجهد الطير في تحصين الوُكُنَات^(١) والأوكار، فإذا كان مَعَنَا عَلَيْهَا هذه الضَّئِنَةُ وقد كَمَلْتُ علينا بالتمكين من نجاتها المِنَّةُ فما المانع من تحصينها من عذاب النار، ومواقع سطوة الجبار، ولنبدأ^(٢) بالذهول عن الميت اشتغالاً بأمر نفوسنا كما فعل الصالحون.

في الرواية أَنَّ علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مات له ولد فلم يُسَمَّع في بيته بكاء، فقليل له: يا ابن رسول الله؛ لم لا تبكون على ميتكم؟! فقال: (أَمُرُّ كُنَّا تَتَوَقَّعُهُ، فَلَمَّا نَزَلَ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ).

ومثل ذلك الرواية عن زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مات له ولد، فكتب إليه صديق له يُعَزِّيه عن ولده، فقلب الورقة وكتب على ظهرها: (أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّا أَمَوَاتُ أَبْنَاءِ أَمَوَاتِ آبَاءِ أَمَوَاتٍ، فَيَا عَجَبًا مِنْ مَيِّتٍ يُعَزِّي مَيِّتًا عَنْ مَيِّتٍ وَالسَّلَام).

أفلمست ترى هؤلاء سلام الله عليهم أجمعين قد صاروا كأنهم شاهدوا مكان المَلَكِ وسمعوا كلامه فذهلوا عن ميتهم، واستشعروا البكاء على أنفسهم، فلم يغتروا كما اغتر غيرهم.

قوله عليه السلام: حَتَّى إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَى نَعْشِهِ رَفَرَفَ رُوحُهُ فَوْقَ النَّعْشِ وَهُوَ يُنَادِي: يَا أَهْلِي، وَيَا وَلَدِي، لَا تَلْعَبَنَّ بِكُمْ الدُّنْيَا كَمَا لَعَبْتَ بِي.

الحمل والرَّحْلُ نقيض الحطِّ والحِلِّ. والنَّعْشُ هو الخُشْبُ التي يُحْمَلُ عليها الميت، وأصل النعش الرَّفْعُ، فلما كان الميت يُرْفَعُ على رقاب الرجال سُميت الآلة نعشاً، والميت نعيشاً ومنعوشاً، كما تقول طعيناً ومطعوناً، وأمثاله كثير، ومنه الانتعاش في العثرة.

ولما حضرت فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الوفاةُ بكت، فقالت لها أسماء بنت عميس^(٣): مالك؟ قالت: أكره أن ينظر الرجال إلى شخصي على النعش، فقالت: إني أعمل

(١) الوُكُنَاتُ بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِهَا وَسُكُونُهَا: جَمْعُ وَكْنَةٍ، بِالسُّكُونِ، وَهِيَ عَشُّ الطَّائِرِ وَوَكْرُهُ، (لسان ١٣/ ٤٥٣).

(٢) يَذُّو الرَّجُلُ، يَذِّي أَيُّ مُحْتَقَرٍ: بَدَأَهُ أَيُّ عَابَهُ، وَبَدَأَتْهُ عَيْنِي إِذَا لَمْ تَقْبَلْهُ، تمت ضياء، هامش (أ).

(٣) أسماء بنت عميس (بضم المهملة الأولى) الحُتَيْمِيَّةُ، أسلمت مع زوجها جعفر عَلَيْهِ السَّلَام، وهاجرت الهجرة، وتزوجها بعد جعفر: أبو بكر، فولدت له محمداً، ثم تزوجها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام بعد موت فاطمة عليها السلام فولدت له يحيى، وهي القابلة للحسين عليهم السلام؛ وكانت من خواص أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام، تُوفيت بعد علي عَلَيْهِ السَّلَام. روى عنها أولادها: عبدالله، وعون، ابنا جعفر بن أبي طالب، =

لك نعشاً كما رأيتُ في بلاد الحبشة لا يُنظرُ إليك، قالت: فأرينيه، فأرتها إياه، فطابت نفسها، فدفنها علي عليه السلام ليلاً بالبقيع في قصة طويلة.

وأصل **رفرف** رفّ، والرفيف هو الحركة اللينة كما يصنع الطائر بجناحيه، وكرفيف أشفار العين، وغدت الراية ترفُّ. قد تقدم الكلام في الروح. **والأهل والولد** معروف وهم نسل الإنسان وذريته. **والنداء** معروف وهو الصياح، أخذ من الإيصال والإبلاغ، ومنه الندى أي العطاء يصل إلى المعطى.

في الحديث في عبد الله بن زيد^(١) لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى الأذان في المنام، فقال: ((علّمه بلالاً فإنه أندى منك صوتاً))^(٢) أي أطول، قال الشاعر:

ومحمد بن أبي بكر. أخرج لها: المؤيد بالله، ومحمد، والأربعة. (لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام - ط ٣ - ج ٣/ ٢٩٣).

(١) هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، من بني جشم بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي الحارثي... شهد العقبة، وشهد بدرًا وسائر المشاهد مع رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... يكنى أبا مُحَمَّدٍ، وكانت معه راية بني الحارث بن الخزرج يَوْمَ الْفَتْحِ. توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ، وهو ابن أربع وستين، وصلى عليه عُثْمَانُ. (انظر الاستيعاب ٣/ ٩١٢).

(٢) مسألة مشروعية الأذان عند أهل البيت جاءت عن طريق الوحي، كما ذكره الإمام الهادي عليه السلام في الأحكام، حيث قال: والأذان فأصله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علّمه ليلة الإسراء، أرسل الله إليه ملكاً فعلمه إياه. فأما ما يقول به الجهال من أنه رؤيا رآها بعض الأنصار، فأخبر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأمره أن يعلمه بلالاً فهذا من القول بحال لا تقبله العقول؛ لأن الأذان من أصول الدين، وأصول الدين فلا يُعلّمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على لسان بشرٍ من العالمين. انتهى من الأحكام.

وهو ما يراه الإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام أيضاً، حيث ذكر ذلك في كتابه المهذب، وكذلك في جوابه على مسائل وردت من الأمير الشريف نور الدين محمد بن يحيى الهادي ضمن المجموع المنصوري الجزء الثاني - القسم الثاني ص ١٩٥ ما لفظه: وسأل أيده الله: عن منام الرجل الأنصاري الذي حكى فيه الأذان وأن الهادي عليه السلام أنكر ذلك كيف الكلام فيه؟

الجواب عن ذلك: أن رؤية الرجل الأنصاري للأذان مروي من رواية صحيحة، وإنكار الهادي عليه السلام مستقيم لأن أصول الدين وقواعد الشريعة لا تكون مناماً، وعندنا أن منام ذلك الأنصاري وافق الوحي، فكان الحكم للوحي دونه، كما في حديث تحريم مكة حرسها الله، أن لا يعصده شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا يختلي خلأها، فلما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحد قال عمه العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه للأحياء وقبورنا وبيوتنا، فقال: ((إلا الإذخر)) فعندنا أن رأي العباس رضي الله عنه وافق الوحي لأن الوحي رجع إليه. انتهى.

فَقُلْتُ ادْعُوا وَأَدْعُوا إِنَّ أُنْدَى لَصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ^(١)

وقال آخر:

وَإِذَا صُرْتُ فِي دِمَشْقٍ فَنَادِي يَا يَزِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ

واللعب معروف وأصله في لعب الصبي يعبث به أنواعاً من العبث، والصبي لاعبٌ بذلك اللعب، فَجُعِلَ لمن يتصرف بشيء لا يفيد، وإنما يفرط ساعته، فَجُعِلَ في السلاح والرماح وغير ذلك، قال قيس بن الخطيم^(٢):

لَقَيْتُكُمْ يَوْمَ الْخَنَادِقِ حَاسِرًا كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مُحْرَقًا لَاعِبٍ

المخراق عود خفيفٌ يُتخذ للصبي مكان السيف يلعب به، وهذا يصف خفة يده بالسيف. **المعنى في ذلك:** أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر عن حال الميت وكلام روحه فوق نعشه مُنْبِهًا للأهل والولد بلسان الحال أو المقال، فالله تعالى قادر على ما يشاء؛ إمَّا بأن يجمع ما يصير به الحي حياً ثم يخلق فيه كلاماً خفياً يُسْمِعُهُ من شاء من خلقه، صورته ما حكاها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ وَسَلَّمَ.

أو يكون ذلك تقديرًا وتمثيلاً، وأن الروح لو تكلمت لكان كلامها هذا.

وخص الأهل والولد لأنه لا يَعْنِيهِ مَنْ خَلَفَ أَحَدٌ مثلهم؛ فحذرهم أن تلعب بهم الدنيا كما لعبت به، معناه أنها تصرفت به وصرفته تصريف اللاعبين بلعبهم وهي آلات اللهو حتى أتاه اليقين، فانقطع الوتين، وبرد الجبين، وَخَفَّتِ الْأَيْنِ، ويُس القرين، وَفُقِدَ المعين، وَرُخِصَ الثمين، فأين الناظرون بعين الفكرة، الْمُتَنَبِّهُونَ قبل حصول العثرة ووقوع الحسرة.

(١) البيت نُسِبَ لأكثر من شاعر، وهو من الشواهد النحوية في كتب اللغة، حيث يستشهدون به في نصب الفعل المضارع (وَأَدْعُوا) بـ (أَنْ) المضرة وجوباً بعد واو المعية الواقعة في جواب الأمر، و لفظه: (فَقُلْتُ ادْعُوا وَأَدْعُوا) هي في كتب النحو بلفظ: (فَقُلْتُ ادْعِي وَأَدْعُو).

(٢) قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ بن عدي الأوسي، أبو يزيد: شاعر الأوس، وأحد صناديدها، في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلها، وقال في ذلك شعرا. وله في وقعة بُعَاث التي كانت بين الأوس والخزرج، قبل الهجرة، أشعار كثيرة. أدرك الإسلام وترث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وفي الأدباء من يفضلُه على شعر حسان. (الأعلام للزركلي ٥ / ٢٠٥).

قوله عليه السلام: حَاقِيَا: جَمَعْتَ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، ثُمَّ خَلَفْتُهُ لِغَيْرِي بِالْمَهْنَةِ لَهُ، وَالتَّبِعَةِ عَلَيَّ، فَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِي.

الجمع نقيض التفريق. والمال معروف وهو أجناس، عينٌ ودينٌ، وجمادٍ وحيوان. والحلُّ مأخوذ من الحلِّ، كأنَّ الله سبحانه حلَّه أي أطلقه لعباده سمي حِلًّا. وغير الحلِّ الحرِّم، كأنه مشدود دونَه الفِدام^(١)، فلا يناله إلا من تعدى. والتخليف هو الترك وهو مأخوذ من خلف نقيض قدام، كأنه تركه خلف ظهره ولم يقدمه أمامه، تقول العرب: هذا خَلَفُ صدق وخَلَفُ سوء، وقيل خَلَفُ سوء بإسكان اللام [في الذم]^(٢)، وفي المدح مفتوحة، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] والخلف بسكون اللام الرديء من كل شيء، يقال صمت ألفاً ونطق خلفاً أي ردياً، وإذا مات والدٌ أو غيره قيل: خَلَفَهُ الله عليك بخير، أي كان الله لك منه خلفاً، وإذا ضاع مال قيل: أَخْلَفَ الله عليك خيراً، وأخلف الله عليك بخير، ومنه سمي الخليفة؛ لأنه بعد الأول قائم مقامه، يقال خليفة يَبُيِّنُ الخلافة والخليفة، كما قال عمر: لولا الخليفة لأدَّنتُ، والخوالف النساء لأنهن يتخلفن عن الرجال في البيوت، قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٨] أي النساء.

و(غير) نكرة، يراد بها الوارث كائناً من كان. والمهنة هي الدعة والإساعة^(٣). والتبعة هو ما يتبع الإنسان من الأحداث بأسباب التصرفات والمعاملات. والحذر والحزم معناهما واحد، وأصله الخوف، احذر معناه خَفْ، فهو يقارب الحزم في أصله، ولَمَّا كان الخائف يشد محزمه قيل: حاذر خائف حازم، معناه خافوا مثل ما حلَّ بي.

المعنى في ذلك: أنه يَبَيِّنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤) كلام الروح على أحد المعنيين الذين قدمنا، وهو قوله: جَمَعْتَ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، وهذا حال أهل الدنيا، لا يفكرون فيما وراء الجمع، وإنما هو همُّهم، فإذا حصل لم يبالوا على أي وجه حصل من حل أو غير حل، من جائز أو غير جائز، ومنه

(١) الفِدام: مَا يُشَدُّ عَلَى قَمِ الْإِبْرِيْقِ وَالْكُوزِ مِنْ خِرْقَةٍ لِتَصْفِيَةِ الشَّرَابِ الَّذِي فِيهِ، (النهاية ٣/ ٤٢١).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من (أ) ومن نسخة أخرى.

(٣) الإساعة بمعنى السهولة، سَاعَ الشَّرَابُ سَهْلَ مَذْخَلُهُ فِي الْخَلْقِ. وبمعنى التجويز، سَاعَ لَهُ مَا فَعَلَ أَيَّ جَزَارَ وَ (سَوَّعَهُ) لَهُ غَيْرُهُ تَسْوِيعًا أَيَّ جَوَّزَهُ، (انظر مختار الصحاح: ١٥٧).

(٤) إلى هنا انتهت المقابلة على الأصل، حيث بتر منه صفحتين مع بقاء الصفحة الأخيرة.

الحِلُّ والحَرَمُ، والحِلُّ مباحٌ صيدهُ والتصرفات فيه بعضُ أشجاره، وصيد قنيصه، وإثارة نار الحرب فيه، والحَرَمُ يناقض ذلك في جميع أسبابه، فإذا فعل ذلك العبد - أعني الجمع على هذا الوجه - فهو لا بد من أن يخلِّفه لغيره من ورثته.

فأمَّا ذكر المهنة له فهي على وجهين: إما تسويغه إياه لعدم مشقة جمعه وتعب لَمِّه، فأخذه هنيئاً على اعتقادهم من غير مشقة عاجلة فيه، وإمَّا أن يكون عمل فيه بطاعة الله سبحانه ولم يكلفه الحكيم معرفة ما لا سبيل له إلى معرفته من وجوه مكاسب والده حِلِّها وحرامها في دنياه، فهنيئاً بسلامته من مشقة جمعه وكسبه، وفي آخرته بتقدُّمه إلى ربه، ففاز في الدارين، وكان التبعة على من تقدم ذكره بالتعب في دار دنياه، والنكال والعقوبة في آخره.

والذي حلَّ به هو نزول الموت قبل الاستعداد لنزوله والتأهب لحلوله، خسر الدنيا والآخرة، وانقلب بصفقة خاسرة، صار ماله عليه وبالاً، وذهب سعيه ضلالاً، فالواجب على العاقل حَذْرُ مثل هذه الحال، والتأهب للمرجع والمآل، وترك الاغترار بالأهل والمال، والميل إلى طوامح الآمال، فكم لها من صريع لم ينعش، ومَشْيِكٌ^(١) لم ينقش، ودفين لم ينبش.

فنسأل الله تعالى حذراً يباشر قلوبنا، ويعرفنا ذنوبنا، ويعجِّل عن سَيِّئَةِ الغفلة هبونا، ويظهر من دنس الأوزار أزرنا وجيوبنا، ويبلغ من رضاه محبوبنا، ويكفينا من سخطه مرهوبنا، بحقه العظيم والصلاة على محمد وآله.

وهذا حين أتينا على آخر شرح الحديث الأربعين، فله الحمد؛ حمْدُ العالمين بحقيقة حمده، الشاكرين لجزيل ما أوصلهم من عنده.

وكان ذلك مع أشغال شغلت الرُّويَّةَ، وغلبت الفكرة السوية، وقد أطلقنا لمن أطلَّ^(٢) على هذا الكتاب من العلماء أن يصلح ما وقع عليه من خلل، ويتغمَّد ما شاهد من زلل مما غطاه السهو والغفلة، وأدرجه قلة الأناة والمهلة، والمختص بالسلامة القرآن المجيد، كما قال فيه سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

(١) المشيك: الذي وقع في الشوك، قال في الدلائل في غريب الحديث (١/ ١٨٣): يُقَالُ: رَجُلٌ مَشْيِكٌ، وَقَدْ شَيْكَ الرَّجُلُ أَيَّ أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ فِي وَجْهِهِ أَوْ جَسَدِهِ.

(٢) في نسخة (أ): اطلع.

حَكِيمٌ حَمِيدٌ ﴿٥﴾ [فصلت] والحمد لله الذي هدانا به من الظلمات وفك عنا به المبهمات حمداً كثيراً بكرةً وأصيلاً، وصلواته على رسوله سيدنا محمد النبي وعلى آله وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل^(١).

(١) قال في آخر الأصل: تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب وصلواته على محمد وآله وسلامه وتحياته وبركاته، وكان الفراغ من نساخة هذا الكتاب يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستائة سنة، وصلّى الله على محمد وآله وسلم.

وقال في آخر النسخة (أ) ما لفظه: كان الفراغ من رقمه يوم الاثنين المبارك لعله خامس عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة اثنين وثمانين وألف من هجرته صلى الله عليه وآله وسلم [١٠٨٢ هـ]. بعناية سيدي ومولاي السيد العلم العلامة الفهامة عز الإسلام والمسلمين عمدة أهل البيت المطهرين محمد بن أمير المؤمنين حفظ الله مهجتهما وبارك للإسلام والمسلمين في أيامهما وأعمارهما وجزاهما عنا وعن المسلمين خيراً، آمين.

وفي آخر نسخة أخرى ما لفظه: وهذه الكلمات مروية عن المصنف للأربعين الحديث السيلقية، قال السيد الشريف: وقد ختمنا هذا الجزء المتضمن ما ضمّناه وعمدناه بحديث في الموت الذي هو خاتمة أمر جمعنا ومتنها، فنسأل الله رب العالمين أن يجعلنا معدّين ولزاد الرحلة مستعدين، ويوفقنا لتوبة نصوح ننصح بتقديمها نفوسنا، ونحطّ بالمسارعة إليها من ظهورنا أوزارنا قبل أن يحلّ الموت ونحن لأثواب الغفلة لابسون، وفي غمرات بحار طلب الدنيا عائمون، فتثقل جوانحنا على زفرات الندم، وقد أخذ الموت منا بالكظم، فلا يُغني عنا هناك ما اقتنيناه فذخرناه إلا صالح العمل قدمناه وأسلفناه إن شاء الله تعالى وبه الثقة والحول والقوة وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلّى الله وسلم على محمد وآله وسلم تسليماً، آمين. وافق الفراغ من زير هذه النسخة المباركة يوم السبت من شهر شوال من شهور سنة ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف (١٣٤٣ هجرية).

الفهرس

٥	مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)
١٥	تقديم
٣١	تقديم الإمام عليه السلام
٣٣	الحديث الأول
٤٧	الحديث الثاني
٥٠	قصة الحرقه ابنة النعمان بن المنذر مع المغيرة بن شعبه
٥٩	الحديث الثالث
٦٠	التوبة
٦٢	حال عبد الملك بن مروان عند موته والعبرة في ذلك
٦٤	تفسير قول الله تعالى: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾
٦٦	الرزق، وتأثير الصدقة على الرزق
٦٨	الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر
٧٠	قصة عثمان بن مظعون مع كفار قريش في بداية الدعوة النبوية
٧٣	العقل
٧٨	الحديث الرابع
٨٤	الحديث الخامس
٨٥	العلم وحقيقة العالم، وما ورد في فضل العلماء
٩٠	القرآن
٩٦	الحديث السادس
٩٧	التوكل
٩٨	التفويض
٩٩	البلاء والصبر
١٠١	التسليم لأمر الله
١٠٢	الرضى بالقضاء، ومعاني القضاء
١٠٤	الحب في الله والبغض في الله

١٠٦	الحديث السابع
١٠٧	الغيبة والنميمة، والاستطالة في عرض المسلم،
١١٤	الحديث الثامن
١٢٢	الحديث التاسع
١٢٤	اللسان
١٢٥	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٢٨	معاذ بن جبل
١٣٢	الحديث العاشر
١٣٦	الحديث الحادي عشر
١٣٦	قصة الوليد بن يزيد بن عبد الملك
١٣٧	قصة صاحب الخورنق
١٤٥	الحديث الثاني عشر
١٤٥	الرزق والقسمة، والحكمة من التفضيل في الرزق
١٤٧	من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في الرزق
١٥٢	الزهد
١٥٤	الحديث الثالث عشر
١٦٤	الحديث الرابع عشر
١٦٦	العلم وما ورد فيه
١٦٧	أهل الحكمة
١٦٩	الرياء
١٧٣	الصمت وحسن الخلق
١٧٥	الحديث الخامس عشر
١٧٦	التواضع، ونبذة من سيرة سيد الخلق في التواضع
١٧٨	الزهد
١٧٩	الإنصاف
١٨٤	موعظة شافية كافية
١٨٨	الحديث السادس عشر

الشبهة.....	١٨٩
الشهوة.....	١٩١
قصة أمير المؤمنين مع أبي نيزر.....	١٩١
الغضب.....	١٩٣
الحديث السابع عشر.....	١٩٩
قصة ثعلبة بن حاطب.....	٢٠٥
الحديث الثامن عشر.....	٢٠٨
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية.....	٢١٣
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.....	٢٢٥
الحديث التاسع عشر.....	٢٢٧
في وصف يوم الهول الأكبر.....	٢٢٩
حب الرفعة وخطره على النفس.....	٢٣٥
الحديث العشرون.....	٢٤٢
الجزء الثاني من حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية.....	٢٥٣
الحديث الحادي والعشرون.....	٢٥٥
الحديث الثاني والعشرون.....	٢٦٤
الحديث الثالث والعشرون.....	٢٧١
الحديث الرابع والعشرون.....	٢٧٦
الفضيل بن عياض وقصة توبته.....	٢٧٨
الحديث الخامس والعشرون.....	٢٨٣
العلم هو باب النجاة وباب معرفة الحق من الباطل.....	٢٨٤
التفكر والتدبر فيما يبعث فينا إيثار الآخرة على الدنيا الفانية.....	٢٨٥
الحديث السادس والعشرون.....	٢٨٨
استعد للقاء ما قدمته.....	٢٩٢
مواعظ جلييلة في التحذير من الدنيا والترغيب في الآخرة.....	٢٩٣
الحديث السابع والعشرون.....	٢٩٦
الحديث الثامن والعشرون.....	٣٠٣

٣١٠.....	الحديث التاسع والعشرون
٣١٢.....	موعظة بليغة في حقيقة الزهاد ونظرتهم إلى الدنيا
٣١٧.....	الحديث الثلاثون
٣١٩.....	كلام في الرزق
٣٢٣.....	بعض أدلة عدم الخروج من النار
٣٢٤.....	الحديث الحادي والثلاثون
٣٢٨.....	دعاء جليل
٣٣٠.....	الحديث الثاني والثلاثون
٣٣١.....	مواعظ جلييلة في حقيقة الدنيا
٣٣٨.....	الحديث الثالث والثلاثون
٣٤١.....	علامات الساعة وذكر بني أمية وبني العباس
٣٤٢.....	صنيع بني أمية وبني العباس بأهل البيت وذكر محبس الهاشمية
٣٤٩.....	الحديث الرابع والثلاثون
٣٥٣.....	الحديث الخامس والثلاثون
٣٥٤.....	البلوى والابتلاء وأنواع الابتلاءات
٣٥٨.....	الحديث السادس والثلاثون
٣٦٠.....	مسألة الرزق والتفضل، وتعلقهما بالصلاح والفجور في الدنيا والآخرة
٣٦٣.....	الحديث السابع والثلاثون
٣٦٨.....	الحديث الثامن والثلاثون
٣٧٢.....	الحديث التاسع والثلاثون
٣٧٦.....	كلام في مسألة التبني
٣٨٠.....	الحديث الأربعون
٤٠٣.....	الفهرس

نَحْمَدُكَ يَا رَبِّ